Rihla ilà al-Jazīra al-ʿArabiyya

Mounir Arbach

▶ **To cite this version:**

Mounir Arbach. Rihla ilà al-Jazīra al-ʿArabiyya. Voyage en Arabie, 2020, pp.ISBN 978-603-8248-26-3. ⟨hal-03042100⟩

HAL Id: hal-03042100

https://hal.science/hal-03042100

Submitted on 5 Dec 2020

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire **HAL**, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.

رحلة «نيبور»

إلى جزيرة العرب ودول أخرى في الشرق، وجزء من كتاب «وصف جزيرة العرب»

وملحوظات السيد فورسكال

١٧٦١-١٧٦٣م

كارستن نيبور

ترجمة: منير عربش

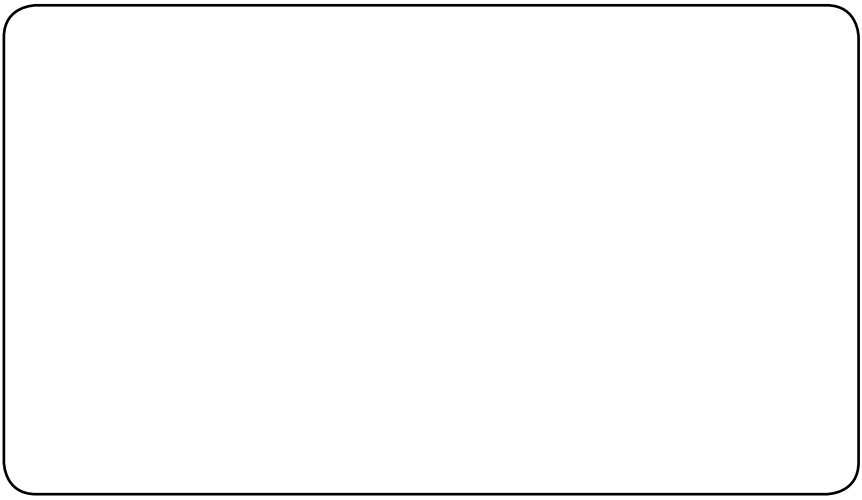

حقوق نشر الترجمة العربية محفوظة
مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

رحلة «نيبور»

إلى جزيرة العرب ودول أخرى في الشرق...

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الأول: الرحلة من كوبنهاجن إلى الإسكندرية
الفصل الأول: الانطلاق من كوبنهاجن
الفصل الثاني: الرحلة من مرسيليا إلى مالطة وإلى القسطنطينية
الفصل الثالث: القسطنطينية
الفصل الرابع: رحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية
القسم الثاني: بلاد مصر
الفصل الأول: مدينة الإسكندرية
الفصل الثاني: الرحلة من الإسكندرية إلى رشيد
الفصل الثالث: الرحلة من رشيد إلى القاهرة
الفصل الرابع: الطريق من القاهرة إلى دمياط
الفصل الخامس: المدن القديمة في مصر السفلى
الفصل السادس: مدينة القاهرة
الفصل السابع: ضواحي القاهرة
الفصل الثامن: مقياس منسوب النيل وفيضانه
القسم الثالث: الحُكم والمهن والتجارة في مصر
الفصل الأول: طبيعة الحكم في مصر
الفصل الثاني: كبار مأموري السلطان
الفصل الثالث: الديوان والباكوات
الفصل الرابع: شرطة المدن
الفصل الخامس: الزراعة عند المصريين
الفصل السادس: حرفة تكرير ملح النشادر وحرفة تفريخ الدجاج
الفصل السابع: التجارة في مصر
القسم الرابع: عادات الشرقيين وتقاليدهم بوجه عام والمصريين بوجه خاص
الفصل الأول: سكان القاهرة وضواحيها
الفصل الثاني: الأقباط
الفصل الثالث: العرب في مصر
الفصل الرابع: ثياب الرجال في الشرق
الفصل الخامس: أزياء النساء
الفصل السادس: التسلية واللهو عند الشرقيين
الفصل السابع: الألعاب المتداولة في الشرق
الفصل الثامن: الموسيقى عند الشرقيين

الفصل التاسع: الرقص عند الشرقيين
الفصل العاشر: العروض الفنية في الشرق
الفصل الحادي عشر: أعراس المصريين
القسم الخامس: الآثار في مصر
الفصل الأول: الآثار القديمة في مصر بصورة عامة
الفصل الثاني: الأهرام
الفصل الثالث: كتابات هيروغليفية
القسم السادس: السفر من القاهرة إلى السويس وإلى جبل سيناء
الفصل الأول: الاستعدادات للانطلاق
الفصل الثاني: الرحلة من القاهرة إلى السويس
الفصل الثالث: مدينة السويس
الفصل الرابع: خصوصيات عرب المناطق المجاورة
الفصل الخامس: السفر من السويس إلى جبل سيناء
الفصل السادس: جبل سيناء ودير القديسة كاترين
الفصل السابع: العودة من جبل سيناء إلى السويس
الفصل الثامن: من جبل الكتابات ومن مقبرة مصرية
الفصل التاسع: بعض تقاليد عرب الصحراء
القسم السابع: السفر من السُّوَيْس إلى جَدَّة واللُّحَيَّة
الفصل الأول: مغادرة السويس
الفصل الثاني: مرفأ الطور
الفصل الثالث: الإبحار من الطور إلى جدة
الفصل الرابع: مدينة جدة ونواحيها
الفصل الخامس: الحكم والتجارة في جدة
الفصل السادس: الإبحار من جدة إلى اللحية
القسم الثامن: الطريق من اللحية إلى بيت الفقيه
الفصل الأول: الإقامة في اللحية
الفصل الثاني: مدينة اللحية
الفصل الثالث: سكان اللحية
الفصل الرابع: السفر من اللحية
الفصل الخامس: مدينة بيت الفقيه
القسم التاسع: رحلات في ضواحي بيت الفقيه

الفصل الأول: السفر إلى غليفقة
الفصل الثاني: العودة إلى بيت الفقيه عبر الحُديدة
الفصل الثالث: السفر إلى زبيد
الفصل الرابع: السفر إلى القَحْمَة (Kahhme)
الفصل الخامس: السفر إلى الجبال التي تنتج البن
القسم العاشر: السفر في المنطقة الجبلية في اليمن
الفصل الأول: مغادرة بيت الفقيه
الفصل الثاني: الطريق حتى مدينة العدين
الفصل الثالث: الطريق من العدين إلى جبلة
الفصل الرابع: الطريق من جبلة مرورا بتعز وحيس
الفصل الخامس: العودة إلى بيت الفقيه
القسم الحادي عشر: السفر من بيت الفقيه إلى المخا
الفصل الأول: الطريق إلى المخا
الفصل الثاني: الوصول إلى المخا
الفصل الثالث: صعوبات في المخا
الفصل الرابع: استمرار إقامتنا في المخا ووفاة السيد دوهافن
الفصل الخامس: مغادرة المخا
القسم الثاني عشر: السفر من المخا إلى تعز
الفصل الأول: الطريق إلى تعز
الفصل الثاني: مدينة تعز
الفصل الثالث: آخر ثورات تعز
الفصل الرابع: الإقامة في تعز
الفصل الخامس: مغادرة تعز إلى صنعاء
القسم الثالث عشر: السفر من تعز إلى صنعاء
الفصل الأول: الطريق من تعز إلى يريم
الفصل الثاني: مدينة يريم
الفصل الثالث: وفاة السيد فورسكال
الفصل الرابع: الطريق من يريم إلى صنعاء
القسم الرابع عشر: الإقامة في صنعاء في بلاط الإمام
الفصل الأول: الوصول إلى صنعاء
الفصل الثاني: مقابلة الإمام

الفصل الثالث: زيارة الوزير الفقيه أحمد
الفصل الرابع: مدينة صنعاء
الفصل الخامس: ضواحي صنعاء
الفصل السادس: موكب الإمام العائد من المسجد
الفصل السابع: مقابلة الاستئذان
الفصل الثامن: مغادرة صنعاء
القسم الخامس عشر: العودة من صنعاء إلى المخا
الفصل الأول: الطريق من صنعاء إلى بيت الفقيه
الفصل الثاني: الطريق من بيت الفقيه إلى المخا
الفصل الثالث: مدينة المخا
الفصل الرابع: الفرنسيون يقصفون المخا
الفصل الخامس: التجارة في المخا
القسم السادس عشر: الجزيرة العربية
الفصل الأول: وصف الجزيرة العربية
الفصل الثاني: اتساع الجزيرة العربية وتقسيمها
الفصل الثالث: عن الثورات في الجزيرة العربية
الفصل الرابع: نبذة عن الحكم عند العرب
القسم السابع عشر: منطقة الحجاز
الفصل الأول: طبيعة هذه المنطقة وبعض مدنها
الفصل الثاني: عن سُلطة الأتراك في الحجاز
الفصل الثالث: شريف مكة
الفصل الرابع: مدينة مكة
الفصل الخامس: الحج عند المسلمين
الفصل السادس: المدينة المنورة
الفصل السابع: شيوخ عرب وشيوخ يهود مستقلون
القسم الثامن عشر: اليمن بصورة عامة
الفصل الأول: حدود اليمن وتقسيمه
الفصل الثاني: إمارة عدن
الفصل الثالث: إمارة كوكبان
الفصل الرابع: حلفاء حاشد وبكيل
الفصل الخامس: من إمارة أبو عريش وبدو مجاورين

الفصل السادس: أراضي سنحان وخولان
الفصل السابع: إمارتا نجران وقحطان
الفصل الثامن: إمارتا نهم وخولان
الفصل التاسع: بلاد الجوف
الفصل العاشر: بلاد يافع
القسم التاسع عشر: ولايات الإمام في صنعاء
الفصل الأول: امتداد ولايات الإمام وتقسيمها
الفصل الثاني: تاريخ الأئمة وأصلها
الفصل الثالث: الإمام الحاكم المهدي
الفصل الرابع: حكاية الشيخ عبد الرب
الفصل الخامس: تشريع دويلات صنعاء وحكمها
الفصل السادس: عائدات الإمام وحكمها
الفصل السابع: القوى الحربية في ولاية صنعاء
الفصل الثامن: الفنون والتجارة في اليمن
الفصل التاسع: مدن مهمة في ولايات الإمام
الفصل العاشر: أمراء وشيوخ مقيمون في دويلات الإمام
القسم العشرون: مقاطعة حضرموت
الفصل الأول: طبيعة هذه المقاطعة وتجارتها
الفصل الثاني: المدن الرئيسة في حضرموت
الفصل الثالث: أمراء حكام في حضرموت
القسم الواحد والعشرون: منطقة عُمان
الفصل الأول: عُمان بصورة عامة
الفصل الثاني: أراضي إمام عُمان أو مسقط
الفصل الثالث: الثورات في عُمان
الفصل الرابع: الإمام الحاكم في عُمان
الفصل الخامس: إمارة سير (Seer)
القسم الثاني والعشرون: مناطق الإحساء ونجد
الفصل الأول: الإحساء بصورة خاصة
الفصل الثاني: منطقة نجد
الفصل الثالث: الدعوة الجديدة في ناحية من نجد
القسم الثالث والعشرون: دويلات عربية مستقلة على السواحل العربي

الفصل الأول: عرب يقيمون في ضواحي الخليج العربي
الفصل الثاني: مواقع تحت السيطرة الفارسية
الفصل الثالث: أراضي قبيلة حيلي (Houle)
الفصل الرابع: إمارات بوشهر وبندر رجك (Bender Rigk)
الفصل الخامس: عن قبيلة كياب (Kiab) وشيخها سليمان
الفصل السادس: بعض الدول الأخرى المستقلة
الفصل السابع: جزيرة كارك (Karek)
القسم الرابع والعشرون: البدو « العرب الرحل »
الفصل الأول: عادات متميزة عند البدو
الفصل الثاني: النظام السياسي عند العرب الرحل
الفصل الثالث: البدو في تخوم الصحراء
الفصل الرابع: البدو في بلاد الرافدين
الفصل الخامس: البدو في سوريا
الفصل السادس: البدو في البتراء وفلسطين
القسم الخامس والعشرون: الدين والطبائع لدى العرب
الفصل الأول: المذاهب الإسلامية في الجزيرة العربية
الفصل الثاني: أديان أخرى سُمح بها في الجزيرة العربية
الفصل الثالث: طبائع العرب
الفصل الرابع: الثأر عند العرب
الفصل الخامس: أشراف العرب
القسم السادس والعشرون: عادات العرب وتقاليدهم
الفصل الأول: الزواج عند العرب
الفصل الثاني: الحياة المنزلية عند العرب
الفصل الثالث: الأطعمة وطريقة تناولها عند العرب
الفصل الرابع: الملابس والأزياء عند العرب
الفصل الخامس: تحضّر العرب
الفصل السادس: بعض العادات الخاصة
القسم السابع والعشرون: اللغة والعلوم عند العرب
الفصل الأول: اللغة والكتابة عند العرب
الفصل الثاني: التعليم والمدارس عند العرب
الفصل الثالث: الشعر والخطابة عند العرب

الفصل الرابع: علم الفلك عند العرب
الفصل الخامس: الأمراض والطب عند العرب
الفصل السادس: علم السحر والتنجيم عند العرب
القسم الثامن والعشرون: الزراعة عند العرب
الفصل الأول: خصوبة الأرض
الفصل الثاني: الفلاحة وطريقة البذر
الفصل الثالث: مواسم الحصاد
الفصل الرابع: الحيوانات الأليفة
القسم التاسع والعشرون: التاريخ الطبيعي في الجزيرة العربية
الفصل الأول: لمحة عامة حول التاريخ الطبيعي في الجزيرة العربية
الفصل الثاني: المناخ والأراضي في جزيرة العرب
الفصل الثالث: الحيوانات ذوات القوائم الأربعة
الفصل الرابع: الطيور في جزيرة العرب
الفصل الخامس: البرمائيات والأسماك
الفصل السادس: الحشرات والقواقع
الفصل السابع: نباتات عادية وطريفة
الفصل الثامن: أشجار وشجيرات
الفصل التاسع: المعادن في الجزيرة العربية
القسم الثلاثون: الرحلة من المخا إلى بومباي
مغادرة المخا
القسم الواحد والثلاثون: الرحلة إلى سورات (غوجارات حالياً)
الفصل الأول: ظروف الرحلة والانطلاق من بومباي
الفصل الثاني: مدينة سورات وضواحيها
الفصل الثالث: سكان سورات وبعض عاداتهم
الفصل الرابع: حكومة سورات وثوراتها
الفصل الخامس: التجارة في سورات
الفصل السادس: تقاليد الهندوس
الفصل السابع: ديانة الهندوس
الفصل الثامن: الفُرس
الفهـارس

القسم الأول:

الرحلة من كوبنهاجن إلى الإسكندرية

الفصل الأول

الانطلاق من كوبنهاجن

ما إن التم شمل الفريق المقرر له السفر إلى الجزيرة العربية حتى تلقينا أمراً من الملك كي نتوجه إلى سميرنة على متن سفينة حربية تُبحر بإمارة السيد فيشر، الذي يشغل حالياً منصب عميد بحري في خدمة مملكة الدانمارك، أبحرنا في نهاية الأمر في الرابع من يناير (كانون الثاني) سنة ١٧٦١م وانطلقنا من مرسى كوبنهاجن بعد انتظار ريح مواتية وقوية في السابع من الشهر نفسه.

تُعد البداية الأولى من رحلتنا برهاناً صارخاً عن المخاطر والمنعطفات التي تجلبها الملاحة في بحر الشمال، حيث تهب الرياح الشمالية على مدار تسعة أشهر في السنة. ومع انطلاقنا في السابع من يناير (كانون الثاني)، مافتئت العواصف والرياح المعاكسة تتقاذفنا حتى تملكنا اليأس من التمكن من بلوغ أي مرفأ في النرويج، واستقر رأينا على العودة إلى مدينة هلسنجوير في اليوم السابع عشر.

وفي السادس والعشرين من يناير (كانون الثاني) غادرنا هلسنجوير للمرة الثانية تصحبنا ريح مؤاتية استمرت في الهبوب حتى نهاية الشهر، بحيث عبرنا الكاتيجا وتقدمنا بما يكفي في عرض بحر الشمال. ولكن الريح أصبحت مضادة وعاصفة في بداية شهر فبراير (شباط). وبما أننا عانينا من العذاب والتمزق عدة أيام متتالية ولم نكن نأمل بأي تغيير يطرأ على أوضاعنا قررنا في التاسع من هذا الشهر أن نعود إلى هلسنجوير من جديد، وبالفعل وصلنا إليها في العاشر منه وقد أجبرنا عنف الريح أن نقطع في ٣٠ ساعة نفس المسافة التي كانت قد استغرقت خمس عشرة يوماً من الزمن. جعلتنا هذه العوائق الطارئة نعاني الأمرين وأخص بالذكر السيد دو هافن (Von Haven) الذي لم يتمكن من التأقلم مع أنواء البحر مما اضطره الأمر أن يستأذن بقطع المسير براً من كوبنهاجن إلى مرسيليا حيث يتوجب على سفينتنا أن ترسو فيها.

غادرنا في التاسع عشر من فبراير (شباط) وللمرة الثالثة على التوالي مرسى

هلسنجوير والأمل يحدونا في أن نجد رياحاً أكثر استقراراً. ولكن ما كدنا نجتاز شاطئ السكاجن حتى أرغمتنا رياح عاتية أن نعود أدراجنا وأن نلقي بمرساتنا من جديد بالقرب من هلسنجوير، وكنا مستائين أشد الاستياء لأننا قد قطعنا حتى الآن – ونحن تائهين في هذه البحار – طريقاً بلغ ثمانمائة وخمسين ميلاً ألمانياً وذلك دون أن نتقدم أكثر من أربعة أميال نحو هدف رحلتنا. ومع كل ذلك حدث أن هللنا لعودتنا المكلّلة بالنجاح إلى هلسنغوير. وعلى الفور بعد وصولنا هبت عاصفة هوجاء، بحيث اضطررنا رغم ما منحتنا السواحل من أمان، لأخذ كافة الاحتياطات الممكنة للحفاظ على سفينتنا كما لو كنا في أعالي البحار. وقد أتتنا هذه العاصفة من الجهة الغربية ودامت حتى الخامس من شهر مارس (مارس (آذار)).

ومع عودة الهدوء تدريجياً غادرنا هلسنجوير في العاشر من مارس (آذار)، للمرة الأخيرة. وكانت الريح في البداية مواتية إلى درجة أننا كنا نقطع فرسخين ألمانيين ونصف* في الساعة الواحدة. وفي اليوم الثاني عشر تحولت الريح وقذفت بنا العواصف والرياح المتضادة إلى ارتفاع ثلاث وستين درجة من خط العرض قرب سواحل أيرلندا وذلك من التاسع عشر من مارس (آذار) حتى نهايته. وقد لاحظت بهذه المناسبة بأن السفينة تأثرت بحركة أكثر عنفاً بعد انقضاء العاصفة، ففي خضم الإعصار تميل السفينة لطرف واحد بفعل الرياح التي تثبتها على هذا النحو، ولكن ما إن يستعاد الهدوء، بعد انجلاء الزوبعة، فتتابع السفينة سيرها مع دفعات الأمواج وحركاتها.

قام السيد فورسكال في هذه المناطق البحرية بتدوين ملحوظاته عن ضوء البحر الفسفوري، واكتشف أن السبب يعود إلى الكميات الهائلة من الكائنات البحرية الدقيقة، وبشكل رئيس إلى نوع من المَدوُسَة أو رئة البحر التي تزخر بها هذه البحار. فهذه الحشرات تحافظ على خواصها باللمعان في الظلمة لفترة طويلة. وقد أفرغنا ليلاً دلوا من ماء البحر وهو الذي أفادنا بهذه الملحوظات ومن ثم رأينا الأشياء التي لامستها المياه وهي مغطاة بالشرارات الضوئية.

* الفرسخ الألماني يعادل ٤,٨٢٨كم.

تنشقنا طلائع الربيع في نهاية شهر مارس (آذار) وتوفر لنا في مطلع شهر إبريل (نيسان) أجمل طقس في الكون، ولكن الهدوء المطلق الذي تلا كل هذه العواصف حجزنا حتى الثامن من إبريل (نيسان) في هذه الأصقاع الشمالية؛ دفعتنا الريح التي غدت مواتية حتى أننا لمحنا في الحادي والعشرين من هذا الشهر رأس القديس منصور «سانت فانسنت» فتوافرت لنا بذلك نظرة خاطفة حلوة خاصة وأننا لم نشاهد أي أرض منذ ردح طويل من الزمن.

وبلغنا البحر الأبيض المتوسط وذلك بعد صراع في بحر الشمال دامَ شتاءً عاصفاً بأكمله وفي أبهى فصل من فصول السنة، فبدلاً من الجبال البرية المقفرة في البلدان الشمالية والتي توحي بالحزن والكآبة نظرنا بفرح إلى المشاهد الطبيعية الأكثر زهواً وروعة على سواحل أوروبا وشواطئ أفريقيا. أما رحلاتنا في البحر الأبيض المتوسط فربما كانت نزهة ومتعة لولا أن أضجرتنا فترات ركود البحر، المعتاد كما أضنتنا عواصف الشمال.

وأخيراً، وبعد أن اجتزنا الكثير من المسافات، وصلنا في الرابع عشر من مايو(أيار) إلى مرسى مدينة مرسيليا فألقينا بمرساتنا بالقرب من بلدة سانت يوستاش.

الفصل الثاني

الرحلة من مرسيليا إلى مالطة وإلى القسطنطينية

مدينة مرسيليا معروفة جداً، وقد وضعت لها أوصافاً عديدة بحيث سيكون من غير المجدي أن نتحدث عن جمال موقعها وعن العدد اللامتناهي لمنازلها الريفية المحيطة بها.

فقد وجدنا مرفأها مكتظاً بالسفن الآتية من بلاد مختلفة والتي لم تغادر المرفأ خوفاً من الالتقاء بالأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال سوندرز. وتعمل العديد من هذه المراكب والسفن في التجارة مع المشرق لحساب الفرنسيين وسيعتبرها الإنجليز غنائم وفيرة.

وهنا التحق بنا السيد دوهافن بعد أن اجتاز ألمانيا وفرنسا. كما وجدنا أيضاً ثلاث سفن تجارية تحمل علم الدانمارك، وكان يتعين عليها الذهاب إلى سميرنة تحت حماية سفينتنا الحربية.

وبعد أن شاهدنا كل ما تزخر به مرسيليا من المدهش والمثير رحلنا عنها في الثالث من يونيو (حزيران) بعد أن اصطحبنا معنا السفن الثلاث التابعة لبلدنا، وبالرغم من أننا كنا في حالة سلم مع إنجلترا فلم نظن أننا بمنأى عن إهانات هذه البلاد التي تدعي لنفسها حق تفتيش السفن المحايدة. وقام قبطاننا الذي لم يرض بالتعرض إلى حقوق الناس بإجراء كل التجهيزات اللازمة من أجل المعركة، في حال اضطُرَّ فيها للدفاع عن النفس. فقد التقينا في الواقع وعلى مدى ثلاث مرات متكررة بسفن إنجليزية حاولت أن تقوم بتفتيشنا، ولكنها انسحبت على مضض بعد رفضنا هذه المهانة وتركتنا وشأننا فتابعنا طريقنا دون أن تزعجنا.

وفي الرابع عشر من يونيو (حزيران) وصلنا إلى جزيرة مالطة وألقينا المرساة في المرفأ الكبير الواقع في وسط المدينة تقريباً، أو بالأحرى في وسط المدن المتعددة التي تتشكل

منها لافاليتا. تبدو هذه المدينة من المرفأ ساحرة جميلة، وتظن أنك في ساحة شرقية بسبب أسطح منازلها المؤلفة من شرفات و المستندة إلى مرتفعات وعرة.

وقد شُيدت كل هذه البيوت وكذلك الأبنية العامة من الحجر المنحوت وليس هذا الأمر ما يدعو للدهشة نظراً لسهولة إيجاد هذه المادة فيها. وما هذه الجزيرة إلا صخرة هائلة الحجم تغطيها طبقة رقيقة جداً من الأرض النباتية: تتكون هذه الصخرة من الحجر الكلسي الشديد الطراوة الذي يتقطع حينما يستخرج من المقلع، مثل الخشب تقريباً. لأجل هذا السبب فقد قام سكانها بنحت جزء من التحصينات الممتدة في الصخر فبدت الجزيرة بسببها وكأنها امرأة شعثاء الشعر.

يميز المرء من بين الأبنية العامة كنيسة القديس يوحنا الرائعة التي تتمتع بموارد وفيرة لأنها تستفيد من قسم من الغنيمة التي تجلبها سفن التنظيم الديني الشراعية. وبهذه الوسيلة كُدّس ما لا يعد ولا يحصى من المقتنيات النفيسة ومن بينها شمعدان مع سلسلته المصنوعة من الذهب الخالص الذي تبلغ قيمته (٥٠٠,٠٠٠) أكو*، ويدعي البعض بأن ثراء هذه الكنيسة يفوق غنى أماكن العبادة الأخرى.

لقد عرضوا لنا سفينة حربية تركية ذات ثلاثة وثمانين مدفعاً، كان العبيد المسيحيون قد استولوا عليها وأحضروها إلى مالطة. وبعد زمن قصير اشترى ملك فرنسا هذه السفينة وأعادها إلى سُلطان العثمانيين. فارتضى التنظيم الديني للقديس يوحنا بهذا الترتيب بسهولة خاصة وأنه مُنذ عقدت الاتفاقيات بين ملوك فرنسا ونابولي مع الباب العالي، نادراً ما عَادَ المالطيون يتنافسون مع الأتراك ويجابهونهم، فمجهّزو السفن أو ملاكها هم في الأخص من يقوم بهذه المهام التنافسية ويحضرون غنائمهم التي يأخذونها من الأتراك عنوة إلى مالطة، ويحملُ أولئك القراصنة المسيحيون أذون ثأر للنفس يزودهم بها أمير موناكو أو أي أمير إيطالي ممن يجهل الأتراك وجودَهم. وهكذا يستمر أهل الشرق بالنظر إلى مالطة، كما نحن ننظر إلى الجزائر أو طرابلس (الغرب).

* تعادل هذه القيمة اليوم نحو (١٥,٠٠٠) يورو.

جبت مع السيد فورسكال داخل الجزيرة والتي لا يتجاوز طولها خمسة فراسخ ألمانية وعرضها فرسخين ونصف. ويعيش السكان في ظلّ حكومة معتدلة ويزرعون بعناية فائقة هذه الصخرة الجدباء ويجعلون تلك الأرض الخفيفة تحمل أشهى الفاكهة وألذها. أما العاصمة القديمة التي كان يطلق عليها (تشيفيتا فيكا) فإنها تخلو من سكانها يوماً بعد يوم.

تقع السراديب أو المساكن المبنية تحت الأرض بالقرب من المدينة بصورة فريدة من نوعها وملفتة للنظر ومنحوتة في الصخر، وهي واسعة مما اضطرَّ المالطيون إلى تسوير مداخل العديد من الطرقات لمنع الفضوليين من أن يضَّلوا في متاهاتها. وقد أُكتشف بداخلها أشكال من قاعات الاجتماع وبقايا مطحنة، وهذا الأمر يدفعنا للافتراض بأن هذه السراديب كانت بمثابة منازل سكنية، أو على الأقل في بعض الظروف الاستثنائية الطارئة.

وغادرنا مالطة في العشرين من يونيو (حزيران) ولم نر أي أرض يابسة إلا في السادس والعشرين من الشهر نفسه، فدخلنا إليها من طرف الأرخبيل، وفي الثالث من يوليو (تموز) دخلنا مرسى ومكثنا فيه حتى العاشر منه. ولم يسمح لي مرض الإسهال الذي أصابني في الطريق بمشاهدة هذه المدينة إلا من بعيد.

وفي الثالث عشر من يوليو (تموز) ولدى وصولنا إلى الجزيرة من تينيدوس وجدنا ترجمان السيد غيبلير وكان حينذاك سفيرنا لدى الباب العالي وقد أوصل إلينا الأمر بمغادرة السفينة والتوجه إلى القسطنطينية مستقلين سفينة (عبّارة بحرية). وفي هذه الجزيرة بالذات شاهدنا أتراكاً للمرة الأولى، وبدت لنا عادات ولغة وأساليب أولئك الأتراك غير مألوفة إلى الحد الذي كدنا نفقد أي أمل في التمتع بما تقدمه التجارة مع أهل المشرق. وقد نسي رجل من علية القوم ما تمليه عليه تعاليم القرآن الكريم ويبدو لي أنه لم يأت إلى السفينة إلا ليشرب خمراً قدمها له قبطاننا. وبعد أن غادرت السفينة في التاسع عشر من يوليو (تموز) لم نتمكن من الإرساء في القسطنطينية إلا في الثلاثين منه. وقد ذهبنا للتو إلى بيراً حيث دعانا جميعاً السيد غيبلير لنقيم في منزله وقد أسهم ذلك الاهتمام بقسط كبير في التخفيف من حدة مرضي.

الفصل الثالث

القسطنطينية

كنا في عجلة من أمرنا للذهاب إلى مصر، وعزمنا على الانطلاق فور شفائي من الإسهال، ولهذا لم أستطع أن أشاهد عاصمة الإمبراطورية العثمانية ولكن ولأنني مكثت في هذه المدينة ردحاً أطول من الزمن عند عودتي من العربية، أظنني لا أخطئ في أن أبديَ هنا بعض الملحوظات الفريدة أو التي أهملها رحالة آخرون وقد قمت بوضعها خلال رحلتي الثانية.

تمتد القسطنطينية ودون أدنى شك امتداداً بالغ الاتساع. ومع ذلك لا ينبغي علينا أن نرى في قره أغادش وغلاطيا وبيرا ودولما بكداش ...الخ ما يشبه الضواحي، بل إنها مدن مستقلة يفصلها خليج عن العاصمة وإجوب هي ضاحيتها الوحيدة، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار سور المدينة وضاحيتها فلن يكون اتساعها قابلاً للمقارنة مع اتساع لُندن أو باريس. وبما أنني لم أجرؤ على قياس أبعادها بشكل هندسي إلا أنني قمت بقياسها بدقة كافية، وذلك بأنني عَدَدت خطواتي وأنا أوجه مسيري مستعيناً ببوصلة صغيرة، فوجدت أنها تصل إلى ١٣,٠٠٠ خطوة مزدوجة.

تبدو القسطنطينية أكبر مما هي عليه في الواقع، ذلك لأن منازلها المسندة إلى التلال تظهر بشكل مُدرج وتجعل المساحة تبدو أرحب وأوسع. بيد أن هذه المدينة تزداد اتساعاً باستمرار من جهة البحر، حيث تشكلت شوارع جديدة. ورُدم مؤخراً أجزاء من المرفأ بالقرب من السواحل وذلك لكسب مزيد من الأراضي كي تشيّد عليها المساكن.

ومن الصعب القيام بإحصاء سكانها الذين نفترض أنهم أكثر عدداً مما هم عليه في الحقيقة بارتكاب خطأ (شائع) عندما يتعلق الأمر بتقدير عدد سكان مدن الشرق، ويخطئ المسافرون إذ يظنون بأن هذه المدن المأهولة حسب امتدادها بنفس النسبة القائمة في المدن الأوروبية، لكن البيوت الشرقية منخفضة الارتفاع للغاية: ويجب

الناس الميسورون ترك مساحة حرة واسعةً خلف مساكنهم: وتشغل قصور كبار القوم مساحة أرض كبيرة لاشتمالها على الحدائق والسرايات.

ولن نكون على صواب في تقديرنا لعدد سكان هذه المدن انطلاقاً من العدد الكبير للناس الذين نجدهم في شوارعها. فالغيرة لدى الشرقيين آفة تطال حتى عامة الناس وتجعلهم يكرهون استقبال أصحاب قضايا العمل في بيوتهم. ولهذا السبب يذهب الصناع وأرباب المهن للعمل في الشارع ويمضون النهار كاملاً خارج بيوتهم، فتراك تجد الشوارع تزخر بالنجارين والبياطرة والصاغة وتجار المجوهرات ...الخ الذين يزاولون فيها مهنهم، ويذهب آلاف العمال صباحاً للقيام بأشغالهم في أحياء القسطنطينية ويعودون مساءً إلى منازلهم الواقعة في الأرياف، فلو كانت العادات هذه مسيطرة في أوروبا، ولو كان العدد الأعظم من السكان يمكثون في شوارع المدن، لَبَدَتْ مدننا آهلة بالسكان بدرجة تفوق بكثير ما تبدو عليه الآن.

مهما كان من أمر سكان القسطنطينية وعددهم فالمدينة تمنحنا نظرة فاتنة تسلب اللب فمرفأها الذي يُعد من أجمل المرافئ في العالم قاطبة، فهو يزخر بالعمارة البحرية ويذهل خليط المساجد الرائعة والقصور والحدائق والأشجار من كل نوع الزائر الغريب خاصة. ولكن الداخل لا يتناغم مع هذه المظاهر الخارجية الجميلة. فمعظم الشوارع ضيقة وقذرة وغير منظمة والبيوت الخشبية ضعيفة ومبنية بدون عناية وكأنها بنيت لتأوي طيوراً لا بشراً. وحينما نصادف قصوراً مبنية من الحجارة فإننا لا نشاهد إلا أسواراً عالية تحيط بها، ومن الخطير على حد سواء أن تقيم في هذه المدينة في أبنية من الحجارة أو من الخشب: فأنت تخاطر بأن تدفن أولاً تحت الأرض، أو أن تحترق في الحرائق المتكررة الحُدوث في القسطنطينية.

والسرايا أو بالأحرى سِروى السلطان هو بناء واسع وغير منتظم إلى حد بعيد. ولم يؤذن لي بالدخول إلا إلى باحته الخارجية : ولكن ما شاهدته لا يُوحي بانطباع جيد عن الباقي. كما لم أعرف شيئا البتة عن بابها - باب السرايا - الذي كان وراء التسمية غير المناسبة للباب العثماني، الاسم الذي يُعرف به بلاط السلطان في أوروبا. في اللغة التركية

تعني كلمة كابو قصراً وباباً في الوقت نفسه: ولكن عندما نقول في القسطنطينية بأننا ذاهبون إلى الباب العالي يُفهم من كلامنا دوماً أنه قصر كبير الوزراء حيث تُعالج كافة القضايا التي تمس داخل الإمبراطورية أو تلك التي تتعلق بالتفاوض مع الوزراء الغرباء.

الماء متوافر في المدينة بصورة غزيرة ويأتيها من ثلاثة خزانات تبعد عنها مسافة ثلاثة فراسخ ألمانية. والبينت هو مستودع للمياه بني في وادٍ تتجمع فيه المياه المنحدرة من المرتفعات المجاورة، وتُحجز خلف نوع من السور، وتُنقل المياه المتجمعة بهذه الطريقة عبر قناطر مائية مرتفعة بعناء شديد، بسبب اختلاف مناسيب الأراضي التي تمر تلك قنوات فيها. ولا يَدينُ الأتراك بالفضل إلى الأباطرة الإغريق في هذه المباني الجميلة. فأحدها بني في عهد السلطان محمود، وبني الثالث من الجهة الشمالية مع القنوات المتفرعة عنه منذ زمن قصير عندما كان السلطان مصطفى يعتلي العرش خلال إقامتي في القسطنطينية. ولما كان من المستحيل توزيع هذه المياه بالتساوي على المدينة، فقد أُنشئت بيوت يعطى فيها الماء مجاناً للجميع. ويرى المرء أمام الباب الخارجي للسرايا بيتاً مزيناً بصورة رائعة، حيث يقوم أناس يتلقون رواتبهم من الحكومة بتقديم الماء العذب إلى المارة في كؤوس من النحاس المُذهَّب.

عاصمة الإمبراطورية الكبيرة هذه تكاد تخلو من أي دفاع. ويُشكل سور مزدوج وخندق، يُردم رويداً رويداً كل تحصيناتها، ويستند الأتراك لضمان أمن هذه المدينة على أربع قلاع مبنية على قناتين تفضيان إلى بحر مرمرة تأتي إحداهما من الأرخبيل والثانية من البحر الأسود، ولكن هذه القلاع المعروفة باسم الدردنيل لا تشكل أية قوة دفاعية تذكر.

ولكن القناتين ضيقتان ومتعرجتان إلى حد يستحيل على أي أسطول أن يجتازهما مهما كانت الرياح البحرية مواتية دون التعرض للغرق بفعل المدفعية المتمركزة في المنعطفات. وبذلك تكمن الوسيلة الوحيدة والمتبقية للهجوم على القسطنطينية في قطع الإمدادات والمؤن عنها والتي تصلها بالضرورة عبر الأرخبيل.

أما مدينة غالاتا المحاطة بسور قوي تستند على مُنحدر جبلي قبالة القسطنطينية فهي مأهولة بالسكان بشكل كثيف، وجميع تجار الجملة الأوروبيون وعدد كبير من المسيحيين الشرقيين يقيمون فيها بصورة اعتيادية. ولكن بيرا لا تتعدى كونها ضاحية غالاتا. وهي مقر كافة السفراء الذين يمثلون القوى المسيحية وقد اعتادوا أن يرسلوا إلى الباب العالي وزراء حكومات، فمندوبو الجزائر وتونس وطرابلس (الغرب) وراغوس الذين يحضرون من وقت إلى آخر يقيمون في القسطنطينية: ولكن الأتراك لا ينظرون إلى هؤلاء المندوبين على أنهم سفراء مثلما يحدث مع الكابو كياجات، أو القائمين بالأعمال المُنتدبين من أمراء فالاشيا ومولدافيا.

يمتلك السلطان عدة بيوت للترفيه في جوار العاصمة أو على سواحل البحر الأسود. ولكن السلطان الحاكم حالياً لا يزور إلا منزله في قرة أغادش التي يناسب موقعها الحزين والمنعزل مزاجه السوداوي الكئيب. ويترك الباقي من منازله تؤول للزوال: حتى أنه أمر بهدم البعض منها واستفاد من موادها لبناء الحمامات العامة والمساجد.

ما زال لليونانيين ثلاث وعشرون كنيسة حتى الآن في القسطنطينية، وللأرمن ثلاث، دون حسبان تلك التي تمتلكها هاتان الأمتان في الضواحي. ويقيم في بيرا كاهن أطلق عليه البابا لقباً فخماً هو كبير الأساقفة، ونصبه رئيساً على أساقفة وهميين كُثرُ، وحسب القوانين المرعية يُحظَر على أي طائفة دينية تابعة للغرباء أن تبني دوراً للعبادة ولكن العديد منهم يجتمعون فيها للصلاة دون أن تنزعج الحكومة العثمانية منها.

الفصل الرابع

رحلة من القسطنطينية إلى الإسكندرية

ما إن تعافيت من مرضي بما يمكنني من إكمال طريقنا حتى كُنا على أهبة الاستعداد للسفر. وقد نتجرأ على الظهور أيضاً بالزي الأوروبي في مدينة الإسكندرية لأن الناس هناك معتادون على رؤية الكثير من الفرنجة، ولكن فيما تبقى من أنحاء مصر وفي الجزيرة العربية، قد يعرضنا لباسنا المكوَّن من العديد من القطع والأجزاء الصغيرة والبعيد أشد البعد عن جمال وبساطة زي الشرقيين إلى منغصات وأمور مزعجة. لذا استقر رأينا على الظهور بالزي التركي، وعندما حصلنا عن طريق السيد دو غيبلر على جواز سفر مختوم بتوقيع السلطان ومرفق برسائل توصية، أبحرنا على متن إحدى السفن من دو لسينيو.

شُدّت أشرعتنا في الحادي عشر من سبتمبر (أيلول) ووصلنا إلى الدردنيل في الخامس عشر منه. تُفتش جميع المراكب والسفن الآتية من القسطنطينية من قبل مفتشي الجمارك، وذلك لمنع هروب العبيد والتحايل على القانون.

خلال إقامتنا الجبرية التي قضيناها بالقرب من إحدى هذه القلاع، والمسماة كوم كالا سنحت لي الفرصة أن أتأكد من رأيي الذي كونته عن الأهمية الضئيلة لتلك الـ بوغاس حصار أو الدردنيل فقد أُهملت بكل ما فيها: أُلقيت المدافع الهائلة الحجم والمليئة بالحجارة على الأرض وهي غير صالحة للعمل العسكري على الإطلاق. إلا أنني اكتشفت عقبة أخرى قد تواجه أيضاً أي أسطول ينوي الهجوم على عاصمة الأتراك: أعدادٌ من المضاحل البحرية المنتشرة في البحر بين القسطنطينية والدردنيل.

في السابع عشر من شهر سبتمبر (أيلول) فردنا شراعنا، وبعد أن اجتزنا جزر الأرخبيل، ألقينا بالمرساة من نفس الشهر في مرسى جزيرة رودس. وهناك التقينا بالقبطان باشا برفقة بعض السفن الحربية. ولا تحبذ زيارة أسطول السلطان، إما بسبب الهدايا التي يجب تقديمها للأميرال الكبير، أو بسبب وقاحة بحارته ممن يطلق عليه اسم ليفانتيس.

وقد لمسنا مثالاً حياً عن الرعب الذي تشيعه هذه الميليشيا السيئة التنظيم لدى جميع الناس. فعندما نزلنا إلى البر وأردنا مقابلة القنصل الفرنسي وجدنا بيته مغلقاً حتى يبتعد البحارة عنه. لم يودوا استقبالنا بسبب الزي التركي الذي كنا نرتديه ولكننا ولحسن الحظ صادفنا راهباً كبوشياً صرَّح بأننا أوروبيون ورافقنا وساعدنا في الدخول إلى البيت وسمح القنصل لترجمانه بمرافقتنا في بعض مهامنا القصيرة التي دفعنا الفضول للقيام بها.

ما زالت مدينة رودس تعيش إقامة فرسان القديس يوحنا الذين استقروا في جزيرة مالطة بعد أن طردهم الأتراك. وما زالت تُرى فيها الكثير من المنازل المبنية بناء حسناً وقد زين بعضها بخزائن عدة عائلات من الطبقة البرجوازية الأوروبية. بينما أُهمل القصر الذي سكنه قديماً السيد الأكبر ولم يبق منه إلا بعض الآثار. أهمل الأتراك التحصينات بالرغم من إقامتهم الطويلة والتي كلفتهم مبالغ طائلة والتي يفترض أن تكون لهم درساً في أهميتها. وبالرغم من ذلك فلا تزال جزيرة رودس إحدى القلاع الرئيسية للإمبراطورية العثمانية وما انفك الأتراك يظنون بأنها عصية على الفتح.

في هذه المدينة تملكنا الفضول للمرة الأولى في الذهاب لتناول العشاء في نُزُل تُركي، فدعينا كي نتناول وجبتنا في عرض الشارع على مقعدٍ كبيرٍ من الحجر المنحوت في حائط المطبخ. فأكلنا بدون سكاكين و شُوَكْ ما قدموه لنا في طبق رديء من الطين. وغادرنا المكان لنشرب النبيذ عند رجل يهودي ؛ وكان يعتز بتقديمه إلى كل الغرباء. وكان في منزله ابنتان جميلتان تتكلمان الإيطالية بطلاقة وقد ادَّعى انهما ابنتاه. وكلفتنا هذه الوليمة اليهودية الصغيرة مبلغاً أكبر بكثير من الوجبة التركية.

وما زلتَ تجد عددا كبيرا من اليونانين الذين يقيمون في جزيرة رودس ويُحظر عليهم الإقامة في المدينة، وقد شهد السيدان دوهافن وكرامر إلى أي درجة تساء فيها معاملتهم من قبل المنتصرين. وشاهد رفاقي في السفر عندما ذهبوا مع بعض اليونانيين الذين أرادوا مقابلة أسقفهم القاطن في قرية قريبة من المدينة وصل إليها موسيقيون أتراك ادَّعوا أنهم سيطربون الأسقف بشيء من موسيقاهم، الذي لم يكن يرغب بالاستماع

إليهم إطلاقاً. ورغم رفضه سماع حفلتهم فقد طالب الموسيقيون بأجرهم ولم يغادورا الجمع إلا بعد أن شتموا الأسقف وأصحابه وأهانوهم.

نُشرت الأشرعة في الثاني والعشرين من سبتمبر (أيلول) منذ الساعات الأولى للصباح. وحتى ذلك الوقت كنا نبحر بسفينتنا دوماً بالقرب من السواحل وفيما بين الجزر، وبالتالي سيكون من العبث أن نأتي على ملحوظات تتعلق بخط سيرنا، ولكن و ما إن وصلنا إلى عرض البحر حتى لمسنا سريعاً جَهْل الأتراك بكل ما يمت إلى الملاحة بصلة. كان لدى ربان سفينتنا خرائط وكثير من الأجهزة، لم يكن يجهل طريقة استخدامها، فقد وصلت إليه هذه المعدات على الأغلب من نهب سفينة مسيحية ما: ذلك لأن الدو فنيوت بانتحالهم جنسية الجزائريين غالباً ما يستولون تحت هذا الغِطاء على سفن تعود لأمم أوروبية متعاهدة مع العثمانيين على السلم: وإبان رحلتنا البحرية، كان الدو فنيوت يَجْزَعُ أن يسقط بنفسه في الشَرَك إذا انتشر الخبر بأن ثمة مالطيين أو بالأحرى بعضُ الخاصة الغامضين يحملون شهادات سلامة زودهم بها أميرٌ إيطالي، يجوبون هذه البحار، أمّا دفاعنا فلم يكن باهراً ؛ كان لدينا مركب ثقيل يحمل بعض المدافع السيئة، ينقصها المراقب، أو مقيدة بالحبال.

وبالصدفة كان هذا البحار الماهر يتوجه نحو الإسكندرية. ولحسن الحظ حملتنا ريحٌ جدُّ مواتية في الاتجاه المستقيم وبأنسب وقت بحيث وصلنا في وضح النهار: فأنا لا أكاد أصدق كيف استطعنا تجنّب أخطار عظيمة. فسواحل مصر شديدة الانخفاض ولا تراها من بعيد، ولذا فأي مركب غير متأكد من طريقه، لا يقترب منها ليلاً دون أن يتعرض للغرق.

كان ربان مركبنا وأمين سِرّه وقبطاناه يتكلمون الإيطالية بشكل مقبول، وكان أمين سره قد سبق وسافر إلى البندقية وإلى شتى المدن الإيطالية، حتى أنه بلغ مدينة فيينا حيث تلقى علومه كما سنرى بعد حين. وعندما سألته إن كان قد وجد في إمبراطورية السلطان أناساً وثنيين أجابني: "البتّة، ولكن هناك الكثير منهم في ألمانيا وفي بلاد المجر، ويطلق عليهم اسم اللوثريين، "وليس لديهم أدنى فكرة عن الله وأنبيائه"، ومرة أخرى

عندما دار الحديث عن حقيقة الديانة المسيحية، انتصب وهو يستشيط غضباً، وقال "الذين يؤمنون بآلهة أخرى غير الله الواحد، إنما هم ثيرانٌ وحميرٌ" وبعد أن شرح شرحاً قوياً وجهة نظره خرج دون أن ينتظر جواباً.

وكان أمير السر هذا يشغل في الوقت نفسه مقام إمام السفينة أي مرشدها. فهو يؤم طاقم السفينة في صلاة المغرب التي يُقيمها المسلمون بانتظام بعد الوضوء. يبسط الإمام سجادة صلاته على الأرض ويركع عليها متجهاً نحو مكة المكرمة ويتمتم بصلواته ومن ثم يجثو من وقت لآخر صائحاً من وقت لآخر: اللهُ أكبر. ويتابع المجتمعون أقواله ويقلدون بدقة حركاته وإيماءاته، ومنها حركة أساسية هي وضع الإبهامين خلف الأذنين في دلالة عن الانفصال الكامل عن كل فكرة دنيوية وعن سمو الفكر نحو السماء.

بالإضافة إلى هذه الصلاة المسائية اليومية التي تقام دوماً بصورة جماعية، يلتزم المسلمون بصلوات أخرى تأمر بها الشريعة في الأمكنة التي يوجدون فيها، وفي الأوقات التي يكونون فيها على استعداد للخشوع. وهم لا يخجلون من وجود من يشاهد خضوعهم وورعهم. ففي أول الأمر وخوفاً من إزعاجهم بحضوري أردت الانسحاب عند اقتراب ساعة صلاتهم، لكن معظمهم أصرَّ على أن أحضرها. ولن يضايق وجود مسيحيين أثناء إقامة الشعائر الدينية إلا السُّوقة أو من في الجوامع.

كان أولئك المسافرون يشغلون سطح سفينتنا التي كانت تغص بهم فحجز كل منهم مكاناً لنفسه، أما نحن فقد استأجرنا غرفة الربان وغرفة طويلة متصلة بها وذلك لكي ننأى بأنفسنا عن الأتراك. وفي الغرفة التي تعلو غرفتنا يسكنها إناث من الجواري أي فتيات أُحسن تهذيبهن على الطريقة التركية وخُصصن للانضمام إلى حريم بعض الأعيان. وحدث ذات يوم أن كنا في غرفتنا فوصلت إلى أسماعنا، أنا والسيد فورسكال أصوات نسائية، فاقتربنا من النافذة لنرى مصدر هذه الأصوات. وعندما اكتشفن هؤلاء الجواري البيضاوات بأننا من الغرباء، أطلقن صرخاتٍ وشتائم. غير أن إحداهن تمكنت من تهدئة الأخريات. عرضنا عليهن فاكهة وحلوى، فأنزلن مناديلهن لكي يتلقين ما يرغبن فيه. وبما أننا لم نكن نفهم لغة بعضنا البعض، كنا نتبادل الحديث بالإشارات.

قالت لي أصغرهن سناً بعض الكلمات عدة مرات، ولكي نعرف معناها، نزلنا إلى كاتب السفينة وسألناه عن معاني عدد كبير من الكلمات التركية، وعلمنا بأن هذه الفتاة كانت تنبهنا كي نبقى حذرين، وألا نخرج إلى النافذة إلا في ساعة وقت الصلاة، حيث يكون جميع أفراد طاقم السفينة منشغلين. وفي النهاية، أنست تلك الفتيات لنا إلى درجة ترحيبهن لنا من نوافذ بيوتهن عند مرورنا. تسلينا لبعض الوقت بتلك الدعابات الطائشة التي كان بإمكانها أن تسبب لنا غمّاً حقيقياً، وعرفنا فيما بعد بأنه من الجنون المطبق أن يُحاول المرء التعرف على نساء تركيات ولو بشكل سطحي جداً. وفي السادس والعشرين من سبتمبر (أيلول) وصلنا إلى الإسكندرية مساء وألقى ربابنا بمرساته في المرفأ الكبير، وهو أمر محظور إطلاقاً على المراكب والسفن المسيحية حيث يُرغمون على الرسو في المرفأ الصغير وهو شديد الخطورة. ونزل الركاب على الفور إلى أرض الميناء وأتى من يصطحب الفتيات في جنح الظلام وفي غاية السرية. توفي فجأة ثمانية أفراد من طاقم السفينة وملاحيها خلال رحلتنا البحرية، وهذا ما جعلنا نخشى انتشار وباء الطاعون بيننا ولكن لحسن الحظ كانت مخاوفنا في غير مكانها، فطبيبنا الذي فحص العديد من هؤلاء المرضى لم يجد لديهم أيّا من الأعراض المعدية.

بدوي عربي على حصان وآخر مترجل

القسم الثاني:

بلاد مصر

الفصل الأول

مدينة الإسكندرية

تقع الإسكندرية أو "سكندرية" كما يسميها الترك والعرب على لسان من أرض ما بين شبه جزيرة وأسوار المدينة القديمة وبين مرفأين. وتبدو الأرض التي بنيت عليها المدينة وكأنها خارجة من المياه مع أنها هبطت للحضيض من علياء مجدها العتيق تعانق بقايا الأبنية الرائعة وبعض القصور والمعابد والجوامع عدداً لا يُحصى من أشجار النخل، مما يُعطيها مظهراً ذا شأن حينما نتطلع إليها من المرفأ.

لقد رسم العديد من الرحالة صورة لأوابد هذه المدينة وآثار بهائها وسطوع نجمها الماضي، سنكتفي بإضافة بعض الملحوظات التي يبدو أنها فاتت هؤلاء المؤلفين.

حسب الأوصاف التي قدمها لنا المؤلفون اليونان واللاتينيين عن الإسكندرية القديمة، فمن المؤكد أن هذه المدينة كانت تمتد امتداداً يفوق التصور. إن حالة الدمار التي تعيشها المدينة تعيقنا عن معرفة مخطط سورها. المسلمون بصورة عامة والإسكندريون بوجه خاص يكسرون أجمل النصب والصروح ويستخدمون حجارتها في تشييد الأبنية الكريهة والمنفرة، بل وعندما يحتاجون إلى مزيد من المواد فهم يلجأون حتى إلى نبش أحجار أساس الأسوار والجدران والقصور، وإذا ما وجد أحدهم أجمل الأعمدة في حديقته، فهو يفضل أن يحولها إلى رُحى "طاحون" بدلاً من المحافظة عليها.

ما زالت تنتصب في المدينة قطعة أثرية خلابة لأنه من المستحيل تحطيمها أو نقلها. هي مسلّة كليوباترة التي نُحتت من قطعة واحدة فقط من الجرانيت الأحمر. ورغم أن قسماً من قاعدتها قد انطمر تحت الأرض فهي لا تزال ترتفع اثنين وستين قدماً فوق سطح الأرض، ويبلغ عَرض قاعدتها سبعة أقدام ونصف. وهي محاطة بأحرف بعمق إبهامٍ واحدٍ من الخط الفرعوني، ولم يتمكن مصريو اليوم من قراءته أو فك رموزه.

كما لا تزال هناك آبدة أخرى أي عمود بومباي الشهير بكامل كتلته إلى اليوم، وفي القديم كان يوجد هذا العمود في مدينة الإسكندرية القديمة، أما اليوم فتجده على مسافة ربع فرسخ من المدينة الجديدة.

وبما أن الرحالة اختلفوا في تحديد ارتفاعه، لذا أظن أن من واجبي قياسه بتأنٍ، وبدون حساب القاعدة التي تعلو خمسة أقدام يبلغ ارتفاع العمود تسعة و ثمانين قدماً وهو من الجرانيت الأحمر، ويتألف من ثلاث كتل مختلفة. وكان نوردن قد سبق وشاهد قاعدته المتضررة: ولكن عندما وصل هذا الرحالة إلى مصر كان قد رمّم هذا العمود رجل يُدعى محمد شوربتجي. يجد المرء عند الأتراك، أفراداً لا تمتلكهم هذه الروح الهدَّامة، الشديدة الشيوع في بلادهم.

نشاهد في جوار هذه المدينة سراديب عديدة، أو أبنية أرضية محفورة أو منحوتة في الصخر. تفحصت هذه الحفريات فوجدت التالي: كان الجزء الأكبر منها بلا ريب مُعداً ليكون قبوراً. وكان منها على ما أظن مخازن لحفظ القمح. وما يطلق عليه اسم حمامات بومباي هي أيضاً مغارات حُفرت في الصخر نفسه، وهو حجر كلسي يسهل شغله، مثله مثل حجر جزيرة مالطة.

تدين الإسكندرية الجديدة بوضعها الحالي إلى العرب الذين أحاطوها بسور عريض جداً يبلغ ارتفاعه خمسين قدماً، وقد تُرك هذا الجدار يتهدم مع حصن صغير فوق شبه الجزيرة، إضافة إلى حامية موقع مؤلفة من خمسين جندياً انكشارياً يشكلون كل الدفاع عن المدينة. غير أن حاكمها يتبع الباشا المقيم في القاهرة وبالتالي السلطان، ولا يتبع أرستقراطية الباشاوات.

البناء الأجمل في المدينة هو الجامع الذي كان في زمن اليونان كنيسة مكرسة للقديس أثناسيوس. وهو واسع جداً ومزين بأعمدة بديعة ويقال إنهم يحتفظون حتى اليوم فيه بكمية بالغة من المخطوطات الإغريقية، ولكن وبما أنني مسيحي فأنا لا أجرؤ على تفحص أي شيء داخل الجامع، لذا لم أرَهْ إلا من الخارج.

وللأقباط كنيسةٌ منذورة للقديس مُرقص، حيث يدلونك على ضريح الإنجيلي هذا، تلك الكنيسة التي لم تعد تفتح أبوابها منذ المحاولة التي قام بها كهنة من الطائفة الكاثوليكية لخطف رأس القديس. ولا نعلم كيف نوفق بين هذا الادعاء وما أشاعه أهل

البندقية الذين يدعون أنهم يمتلكون بالكامل هذا الرُفات الثمين. فالآباء الكاثوليك يتفاخرون والحق يقال إنهم تصرفوا بنباهة ونفاذ فكر لتقطيع جسد القديس وبتدثيره جيداً وبتمريره على أنه لحم خنزير مملح وذلك تفادياً منهم لتفتيش المسلمين عند الموقع الجمركي، فقد حظر الأتراك في الواقع نقل الجثث والمومياء بحيث سيصبح من العسير حالياً إخراج جثث سكان مصر القدماء منها. ومع ذلك وبما أن جمارك الإسكندرية هي اليوم في أيدي اليهود فقد قررنا أن نهرّب منها مومياء وأن نرسلها على متن سفينة إيطالية. ولكننا اضطررنا أن نعيدها دون أن نتمكن من إرسالها إلى أوروبا لأن كافة هؤلاء البحارة الإيطاليين هددوا بمغادرة السفينة إذا لم يتخلص ربّانها من هذه الجثة، التي لن تدعهم دون أن تجلب لهم كارثة ما.

لقد فقدت الإسكندرية شيئا فشيئا عظمتها وسكانها وثرواتها. والأمر الذي جعل هذه المدينة تتدهور هو التغير الحاصل في مجرى النيل الذي يروي أراضيها والذي لم يعد منذ زمن طويل قابلاً للملاحة. بيد أن القناة تنظف من وقت إلى آخر لأنها تزود المدينة بالمياه العذبة، وبدون هذا المورد ستنقطع عنها المياه انقطاعاً كاملاً. ما زالت الخزانات الرائعة لمدينة الإسكندرية القديمة باقية حتى الآن وما زالوا يملؤونها من وقت إلى آخر بالمياه الضرورية الفائضة عند ارتفاع منسوب مياه النيل لتأمين ما يحتاجونه منها على مدار العام.

وربما غدت هذه المدينة أكثر ازدهاراً لولا العقبات من كل حدبٍ وصوب ويتميز سكانها بميل طبيعي إلى التجارة لكن الحكومة السيئة تخنق هذا الميل، ولم أجد في أي مكان هذا العدد الكبير ممن يتكلم اللغات الأوروبية بطلاقة حتى لغات الشمال الأوروبي، لقد اعتاد أهل الإسكندرية أن يعملوا كبحارة على متن السفن المسيحية، وعندما يصبحون مؤهلين ويمتلكون اللغة، يعودون إلى وطنهم ويصبحون وسطاء تجاريين أو مترجمين للأمة التي كانوا قد خدموها. وينفر المسلمون عادةً نفوراً شديداً من العيش بين المسيحيين لأنهم لا يستطيعون تأدية طقوس عبادتهم لكن المصريين العصريين الذين هم أقل التصاقاً بدياناتهم وتمسكاً بعاداتهم وتقاليدهم من باقي المسلمين مؤهلون بصورة أفضل للمتاجرة مع الأوروبيين.

وعلى الرغم من ذلك فإن تجارة الإسكندرية لم تكتسب أهمية تذكر، مع أن جميع الدول الأوروبية تقريباً تعتمد فيها قنصليات لها. غير أن القسم الأكبر من البضائع التي ترد إلى مصر تمر عبر هذه المدينة ؛ وبذلك تجلب الجمارك مبالغ كبيرة للسلطان.

اللغة العربية هي لغة السكان كما هي لغة أهل مصر كلها، ويتكلم التجار الأوروبيون ممن لا يفهم هذه اللغة الإيطالية التي ما زالت تستخدم بشكل واسع في هذه النواحي.

تجوب العديد من القبائل العربية الرحل أرض مصر السفلى (الوجه البحري لمصر)، وغالباً ما يقتربون من الإسكندرية. ويدفع الشعب بعض الإتاوات المالية. ولكنهم ينهبون الريف أحياناً، فتضطر الحكومة إلى إرسال فرق عسكرية لقمع المتمردين، أو لمطاردتهم في الأرياف الأكثر بعداً. خلال إقامتنا في الإسكندرية، خيّم بضع مئات من أولئك الأشقياء على بعد ربع فرسخ من المدينة، كانت هذه الأقوام الرحل تقضُّ مضجع المزارعين وتسلب المسافرين والرحالة من جميع البلدان.

في ذات يوم، قام هؤلاء البدو العرب بأمر استطعنا أن نراه من شرفة دارنا. فوفق ما اعتادوا عليه كان قد انسل عدد كبير منهم واحداً تلو الآخر إلى المدينة بحيث لا يضطرون إلى تخويف السكان وقام أحد شيوخهم رغبةٍ منه باختبار جودة البارود والرصاص الذي كان قد اشتراه من أحد المخازن بإطلاق النار باتجاه المنزل المقابل له بكل بساطة. وحينما اشتكى المالك عامله الشيخ كما لو كان يعامل أحد أتباعه في الصحراء وأراد بعض السادة رد الإهانة التي وجهت إلى مواطنهم وبدؤوا يسيئون معاملة الشيخ. فأقبل بعض البدو للدفاع عن شيخهم ووقف السكان إلى جانبهم. أدّت هذه المناوشة إلى قتال بدأ بقذف الحجارة وانتهى بإطلاق النار. استطاع البدو الخروج من المدينة مخلفين وراءهم بعض القتلى والعديد من الأسرى. وفي اليوم التالي حاصر مخيمهم المدينة وأخذوا مواشي السكان التي كانت ترعى في المراعي ولكن وبعد مضي يومين استتب الأمن وأعيدت من الطرفين الغنائم والأسرى.

لم تكن تجارة هؤلاء العرب هي السبب الوحيد الذي اضطرني أن أضع حداً لفضولي، فأجهزة المسح التي كنت أحملها كانت تثير ريبة السكان وخوفهم الذين يعانون من غباء وجهل كبيرين، مما منعني من مضاعفة ملحوظاتي والإكثار منها. إذ انتاب الفضول أحد التجار الأتراك وقد رآني أوجه جهاز القياس نحو المدينة، فأتى ونظر عبر منظار ميناء الجهاز وأصيب بالذعر والهلع عند مشاهدته برجاً مقلوباً. وعلى الفور انتشر خبر مفاده أنني جئت لكي أقلب المدينة رأساً على عقب كما وصل الخبر إلى الحاكم، ورفض الجندي الإنكشاري مرافقتي عندما هممت بأخذ أجهزتي معي. وبالقرب من إحدى قُرى الدلتا، أعار فلاح أمين انتباهاً كبيراً لعملية قياس الزوايا التي كنت أُجريها، وجعلته يشاهد من خلال المنظار لأطلعه على شيء نادر، فبلغ الهلع منه حداً كبيراً، وهو يرى قريتهُ وقد انقلبت رأسا على عقب. فقال له خادمي إن الحكومة مستاءة من هذه القرية وقد أرسلتني كي أدمرها فأخذ يرجوني بحرارة ويتوسل إلي أن أتريث بضع لحظات وأمنحه الوقت الكافي كي ينقذ زوجته وبقرته وركض بأقصى سرعة نحو داره، أما أنا فأبحرت من جديد.

الفصل الثاني

الرحلة من الإسكندرية إلى رشيد

بما أن الرحالة الأوروبيون الذين زاروا مصر كانوا قد قطعوا المسافة من الإسكندرية إلى القاهرة عبر مدينة رشيد وعبر النيل، فقد فضلنا اتخاذ الطريق البري. لكن العرب الرحّل المنتشرون في كافة أرجاء هذا المنطقة، كما كنت قد أسلفت، حالوا دون تنفيذ هذا المخطط. وقد أكَّد السيد فورسكال عندما جاب البلاد في مناسبة أخرى على أن نكون حذرين ولم يكن تحذيره هذا دون جدوى، فلقد نهبه هؤلاء العرب حتى آخر ما يملك ومن باب الكرم غير المألوف، تركوا له سراويله.

المسافة بين الإسكندرية ورشيد في فصل الشتاء خطيرة لدرجة أن الكثير من السفن تغرق في البوغاز أي مصب النيل. ومع أن فيضان هذا النهر لم يكن قد انخفض بعد بشكل كبير، لامس مركبنا المسطح مجراه مرات متكررة، اعتذر الربان مؤكداً لنا أن مجرى النهر يتبدل غالباً في هذه المواقع. وانتشار هذه المضاحل على شطيه، جعل المصريين لا يخشون اقتراب أسطول معادٍ ويتركون القلاع القديمة لتنهار على مرِّ الزمن، تلك القلاع التي كانت تنتشر على شطي النيل. وبعد أن تكبدنا مشقة الرياح المضادة، وصلنا في الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) إلى روزيت كما يطلق عليها الأوروبيون، أو رشيد في لغة أهل البلاد. وهذه المدينة على قدر من الاتساع. وتقع على مرتفع تطل منه على منظر فتان لمجرى النيل وعلى جزء من الدلتا. وتمثل هذه المدينة مستودعاً كبيراً للتجارة بين الإسكندرية والقاهرة التي لا تصل مراكبها أبعد من مدينة رشيد، حيث تشحن البضائع التي تجلبها السفن من الإسكندرية والتي لا تُبحر في النيل على الإطلاق. ولهذا تجد في رشيد قنصلي فرنسا والبندقية والعديد من التجار الأوروبيين الذين يعنون بنقل أمتعة وألبسة أصدقائهم. ويعتقد بأنه في القرب من رشيد تُعرف على أطلال مدينة كانوبوس. فلقد استخرج من أرضها العام الفائت عشرين عموداً جميلاً من الرخام وهي موجودة حالياً في القاهرة، ومن المؤكد أنها كانت في غابر الأزمنة، وربما حتى القرن السادس عشر، فرعاً آخر للنيل، وكانت يمتد من موقع هذه الأنقاض

حتى أبي قير، وهناك كان يصب في البحر، ولكنه رُدم في الوقت الحاضر بالرمال التي تنقلها الرياح إليه بكميات كبيرة من هذه الأرجاء الرملية. ويمتدح الأوروبيون أدب سكان رشيد وحُسن تهذيبهم. وبالتالي فقد طابت لنا الإقامة في هذه المدينة أكثر من مدن مصر الأخرى، حيث يُنظر إلى الفرنجة نظرة سيئة ويُعاملون بكثير من الإذلال، ولكن لم يكن لدينا متسع من الوقت لنضيعه، وكنا في عجلة من أمرنا للرحيل إلى القاهرة.

الفصل الثالث

الرحلة من رشيد إلى القاهرة

تركنا مدينة رشيد في السادس من نوفمبر (تشرين الثاني)، ومررنا بعد يومين أمام فُوَّة(*) المدينة البارزة قديماً والتي كانت مستودعاً لتجارة الإسكندرية مع القاهرة. غدت اليوم مدينة فقيرة بائسة ولم تعد القناة التي تصلها بالإسكندرية موجودة وأيضاً لم تعد صالحة للملاحة النهرية. ونهر النيل يحمل معه الكثير من الطين لدرجة أنه يسد هذه الأقنية، ولو كان يُنظف من وقت إلى آخر إلا أنه في الواقع يُنظف بشكل سطحي. بينما يشكل الطمي الذي يُسحب من الأقنية تلك الارتفاعات التي نعهدها في الدلتا والتي نفاجأ بمشاهدتها في بلاد منبسطة جداً مثل مناطق مصر السفلى.

في هذا الفصل وحين تكتسي الأرياف ثوبها السندسي يسافر الناس بمتعة فائقة عبر النيل حيث تتناثر القرى على ضفتيه. وإن كانت البيوت فيها مسطحة ومبنية بناء رديئا من الآجر غير المحروق، إلا أنها تختلط مع أشجار النخيل وبيوت الحمام لتشكل منظراً فريداً يقدم للمشاهد مشهداً زاهياً وخارقاً على حدٍ سواء. ونرى بقرب العديد من القرى أكواماً كبيرة من أنقاض وآثار مدنٍ قديمةٍ.

لولا القراصنة الذين يتصرفون بشكل سيئ في نهر النيل، لكانت الملاحة فيه أكثر إمتاعاً وتشويقاً، ومع ذلك فعندما يكون هنالك عدد كبير من الناس على متن مركب ما، يكون كل منا على حذر، ويطلق النار من وقت إلى آخر لكي يظهر بأنه مزود بالسلاح، وهذا ما يصد الأشقياء وبذلك تكون الرحلة النهرية أقل خطراً. بينما يخاطر أكثر من يعتمد على الريّس، أي ربان سفينة غير معروف الأمر الذي يشجع اللصوص ويقتسم الغنيمة في النهاية معهم. وهناك قرى بأكملها معروفة بامتهان القرصنة واللصوصية؛ ولهذا السبب لا تتوقف السفن بجوارها. ويحاول سكان شواطئ النيل وهم سباحون ماهرون جداً، ممارسة هذه الموهبة في سرقة السفن بمنتهى السهولة، وإن لم يكن ذلك جهراً وعلانية، فعلى الأقل بوقاحة جديرة بكبار النشالين.

---

* الفوه: حفرة كبيرة.

لقد روى لي بعض الأتراك قصة حدثت منذ وقت قريب جداً عن براعة ووقاحة هؤلاء اللصوص. فقد قبض رجال أحد الباشاوات الذي وصل حديثاً على لص متلبس بالجرم وقادوه ليمثل أمام الباشا الذي هدده بموت محتوم، فطلب أن يستعرض أحد أحابيله أمامه قائلاً بأنه يأمل الحصول على عفو لقاء مهاراته. فأذن له الباشا بذلك، فقام اللص وشكل صرة من الكثير من الملابس جمعها من الخيمة محتذياً مثال المصريين الذين يقومون بطي ملابسهم الخاصة عندما يريدون اجتياز النهر، وبعد أن لعب لبعض الوقت بهذه الصرة وضعها على رأسه وقفز إلى النيل وبلغ الطرف الثاني منه قبل أن يستفيق الأتراك من دهشتهم ويفكروا بأخذ بنادقهم لإيقافه.

لم أشاهد في كافة أرجاء مصر السفلى ولا في شعبتي النيل الكبيرتين التي قطعتها تمساحاً واحداً. ويعتقد المصريون أن تعويذة قد وضعت في المقياس قرب القاهرة كي تمنع هذه البرمائيات من الاقتراب أكثر نحو الشمال. وفي العاشر من نوفمبر (تشرين الثاني) وصلنا إلى بولاق التي يمكن اعتبارها بمثابة مرفأ القاهرة، حيث إن جميع القوارب والسفن الوافدة عبر النيل تقوم بتفريغ حمولتها من المسافرين والبضائع في هذه البلدة.

الفصل الرابع

الطريق من القاهرة إلى دمياط

بعد أن تفحصت أثناء قدومي إحدى شعبتي النيل كانت الرغبة تشدني لأن أشاهد أيضاً الشعبة الأخرى التي تجري من القاهرة إلى دمياط. ولكن خرائط هذه الناحية من مصر والتي يطلق عليها القدماء أو الأوروبيون المعاصرون اسم الدلتا، فتلك الخرائط مشوبة بالعيوب والنقص ويسعدني أن أتمكن من تصحيحها باستخدام ملحوظاتٍ وضعت في رحلة من هذا النوع، وتشكل الخريطة التي رسمتها لمجرى النيل عينة تدل على اهتمامي وستكون في الوقت نفسه دليلاً للقارئ الذي يرغب أن يتابع ويرى بعينه رحلاتي.

إن الجو الغائم والأمطار المتكررة منعتني من تنفيذ ما عزمت عليه قبل حلول شهر مايو (أيار) من السنة التالية، وكان هذا التأخير لصالحي، فلقد تعلمت شيئاً من اللغة، وألفت عادات وطبائع الشرقيين، وأراد السيد بورينفاند مرافقتي، فهو لم يترك أبداً مكان إقامته في القاهرة.

تركنا بولاق في الأول من مايو (أيار) ١٧٦٢م، وكانت ملاحتنا في البداية جد هادئة، فإذا نظرت إلى النيل من القاهرة باتجاه الدلتا وجدته واسعاً ومليئاً بالجزر التي غالباً ما يجرفها اندفاع التيار بعيداً خلال فترات فيضان النهر، مما يتسبب بشجارات متكررة بين القرى القائمة على ضفتيه، ولكن المياه انخفضت إلى مستوى لامس فيه مركبنا القاع مرات عديدة. وأتاح لنا الهدوء المعتاد خلال الليل الاستفادة من التيار لنتقدم، لولا خشيتنا من القراصنة الذين لم يحولوا دون ذلك. وكما هو شائع تسود خلال النهار ريحٌ شمالية تعيق الملاحة وتؤخرها وتهب أحياناً زوابع هوجاء تقذف بالرمال والغبار عالياً فتعتم الهواء وتعرض المراكب وهي على الغالب قوارب شراعية رديئة لخطر الغرق.

من الصحيح أن لكافة القرى حراس يسهرون على تحذير العابرين عن اقتراب القراصنة، ولكن غالباً ما يشارك هؤلاء الحراس سكان القرى في تجهيز القوارب والذهاب بأنفسهم لنهب السفن التجارية.

أما زفتي التي وصلنا إليها في الثالث من مايو (أيار) فهي بلدة متواضعة تقع بين القاهرة ودمياط وهي تابعة في الواقع إلى كيسلار آغا قديماً، وهو من القسطنطينية وبانتقاله إلى القاهرة اتخذ لقب قائم مقام بمثابة البايليف.

يوجد في هذه المدينة ثلاثة جوامع وكنيسة تابعة للأقباط، تتألف رعيتها من ثلاثمائة عائلة. وقد دعاني أولئك الناس الطيبون لزيارة كنيستهم التي بنيت بشكل رديء وهي قذرة ومفروشة بالحصر. وهم يقيمون طقوس عبادتهم وقوفاً على أقدامهم مستندين إلى عكاكيز امتلأت بها أرض الكنيسة، ويزينون كنائسهم بلوحات رديئة. وقد رأيت منها صورة ليسوع المسيح والعذراء والعديد من القديسين وهم يمتطون أحصنة بفخر واعتزاز.

وقد شاهدنا أثناء رحلتنا البحرية بعض القوارب المشبوهة وكأنها تعود إلى القراصنة، ولم تتجرأ أي منها على مهاجمتنا. كما صادفنا أيضاً العديد من الطوافات المحملة بأصص وجرار أحضرت من الصعيد المصري لبيعها، تربط هذه الآنية تحت ألواح من خشب النخل الخفيفة للغاية وتضم هذه الألواح مع بعضها البعض لتشكل طوافة يقودها ستة أو ثمانية رجال ويجذّفون بأغصان الشجر. وعندما يبيعون بضاعتهم في دمياط يعودون أدراجهم سيراً على الأقدام، ويعرفون جيداً كيف يدافعون عن أنفسهم باستخدام المقاليع إذا ما التقوا بقطّاع الطرق واللصوص.

مررنا بالقرب من المنصورة التي سجن فيها القديس لويس قديماً، وبدت لي تلك المدينة في اتساع دمياط. وقد رفع جدار عال في ذراع النيل القريب منها لحجز المياه ومنعها من الوصول إلى قناة البحيرة (Baheire) بكمياتٍ أكبر مما يلزم لري حقول الأرز الوفيرة جداً في تلك الأرجاء.

وفي الجنوب من المنصورة التقينا نحو عشرين قارباً تنقل خلايا نحل قد أحضرت لترعى على ضفاف النهر. حمل كل قارب مائتي خلية، أي مجموع أربعة آلاف وحدة.

وكان لواء المنصورة يخيم في النواحي مع حاشية تتألف من أربعين مملوكاً وخادماً وذلك لجني الضرائب المفروضة على النحل.

وصلنا في الخامس من مايو (أيار) إلى دمياط وهي مدينة لا يقل موقعها أهمية عن أهمية موقع رشيد. فالبضائع القادمة من سوريا عليها أن تمر من مرفأها وبالتالي تقوم تجارة أرز واسعة يُزرع بكثرة في الجوار، وبالرغم من ذلك لا يقيم في هذه المدينة أي تاجر جملة مسيحي ولا أي راهب أوروبي، ومع هذا فإن عدداً كبيراً من الموارنة والأرمن يقطنون فيها وينتمون إلى الكنيسة الكاثوليكية.

كان في دمياط قديماً قنصل وتجار فرنسيون، وظن السكان أن هؤلاء الأجانب تمادوا في الاستئناس لنساء البلاد، فذبحوهم عن بكرة أبيهم، ومنذ ذلك التاريخ أصدر ملك فرنسا أمراً حظر فيه على أي فرنسي ليس الإقامة في هذه المدينة وحسب بل حتى زيارتها. ويعرف سكان دمياط بكرههم للمسيحيين أكثر من باقي المصريين، وربما توحي إليهم ذكرى الحملات الصليبية بهذا النفور. ولكننا وبارتدائنا الزي التركي وبقدرتنا على التحدث قليلاً لغة البلاد لم يكن هناك ما نخشاه أبداً.

توجد في ضواحي هذه المدينة الكثير من مزارع الأرز، ولكن الأراضي باتجاه شاطئ البحر مليئة بالرمل الناعم، وبالتالي فهي أراض جدباء ولا تتجاوز المسافة بين دمياط ورشيد مسيريوم ونصف ؛ ولا يستخدم هذا الطريق بسبب اللصوص الذين حولوه إلى طريق محفوف بالمخاطر.

بسبب قربي من البحر ذهبت لرؤية مصب النيل أو البوغاز (Boghas) والذي يبعد عن دمياط فرسخين ألمانيين، ولا يقل مصب النيل خطراً على السفن عن مثيله في رشيد الذي كان محصناً في السابق بقلعة ولكنها لم تعد مأهولة بالسكان يظنون أنها مسكونة بالأشباح. زرتُ هذا الحصن برفقة بعض المسلمين الذين ما إن اقتربوا من مسكن الأشباح هذا حتى بدؤوا يصلون بورع، وكانت تلك المرة الأولى التي لاحظت فيها هذا النوع من المعتقدات الباطلة عند المسلمين، فالأشباح غير معروفة في العربية ولا

أحد يتحدث عنها. على امتداد البحيرة الواقعة إلى الشرق من دمياط توجد بلدة الغصنة كانت لي رغبة جيدة في مشاهدة هذه البحيرة التي كانت عند القدماء ذائعة الشهرة، فضواحيها تمتلئ بآثار رائعة للعديد من المدن الهامة. وفي الوقت نفسه كنت أود لو استطعت تفحص بعض المدن المعاصرة الجديرة التي استرعت اهتمامي، مثل دمشلى حيث تصنع أنسجة جميلة وبلبيس وطمبول اللتين تحتفظان بأوابد جميلة. إن سكان منطقة البحيرة فقراء وشبه مستقلين بسبب من موقعهم المنعزل، ويشكلون خطراً في البحيرة وفي البر؛ فهم ينهبون جميع الرحالة دون أي تمييز. وبالتالي بدا لي أنه من الأكثر فطنة أن أضحي بحبي للاستطلاع من أجل سلامتي. وتعود العديد من القرى الواقعة على ضفاف النيل من حيث الملكية إلى باكاوات "جمع بيك" يسكنون في القاهرة. كان بإمكان الأقباط الذين يشغلون وظائف أمناء سر لأولئك الكبار إمدادي بإيضاحات حول هذا الموضوع لو وجدت إلى استشارتهم سبيلاً. ففي الخريطة التي وضعتها عن مجرى النيل جهدت لأضع أسماء لكافة المناطق التي شاهدتها عن كثب أو من بُعد. إلا أنني وجدتُ الكثير من الصعاب في كتابتها بسبب اختلاف اللهجات أو بسبب سوء لفظ الناس، غالباً ما اضطررت أن أتوجه إليهم لتعلم الأسماء وأنا في الطريق. غادرنا دمياط في الثاني عشر من مايو (أيار)، وكانت الريح مواتية لدرجة أننا عدنا إلى بولاق في الخامس عشر منه.

الفصل الخامس

المدن القديمة في مصر السفلى

يُسمّي المؤرخون وعلماء الجغرافيا القدامى عندما يتحدثون عن مصر عدداً كبيراً جداً من المدن، إلى درجة أنه ينبغي لهذا البلد أن يبدو اليوم مقارنة مع وضعه القديم مجرد صحراء مقفرة. ومن المؤكد أننا نجد فيها مدناً جديدة، ولكن لا تشكل إلا النزر اليسير إذا ما قارناها بعدد المدن القديمة وعظمتها. فكل الآثار القديمة المصرية والشامخة منذ قرون سحيقة تنبئ عن شعبٍ غني الثروات وكثير الأبناء اندثر تقريباً بكامله.

حينما نتأمل في الثورات المتتابعة التي تعرضت لها هذه الأرجاء ونُفكر في العذاب الذي كابدته جراء خضوعها للأجانب منذ أزمنة بعيدة، لن نفاجأ بتضاؤل عدد سكانها وضياع ثرواتها. فقد خضعت للفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك، دون أن يترك لها مدة قصيرة من الراحة لتسترد قواها، وحكمها دوماً قائمو مقام ينصبهم فاتح يجلس في قصر بعيد. لم يشغل تفكير أولئك المغتصبين ومأموريهم سوى نهب ما يمكن نهبه من ثروات بلاد غنية، وإثقال كاهل هذا الشعب بسرقة لقمة عيشه. فتراجعت الزراعة بسبب فقر المزارعين، مما أدّى إلى خراب المدن وزوالها. وما فتئ الشعب يتناقص عدده إلى اليوم الحاضر، ورغم أن الفلاح يسكن في مقاطعات خصبة إلا أنه بائس ومسحوق، لأن الابتزاز الذي تفرضه الحكومة والوزراء يجعله يعجز عن إدخال التحسينات الضرورية على الزراعة، وتنهار المدن لأن الابتزاز نفسه يقف حائلاً أمام سكانها في كل مشروع أو عملية مربحة.

سيكون من المستحيل تحديد مواقع هذه المدن القديمة. ولكن السدود العالية التي بُنيت لدرء الفيضانات، تشير إلى المواقع التي قامت وازدهرت فيها هذه المدن. ونرى في وسط السهول مرتفعات تغطي الآثار دوماً وقد دفنتها رويداً رويداً الرواسب النهرية

والرمال التي تجلبها الرياح العاتية. وهناك عدد مدهش من الأماكن التي تختفي أو تظهر بشكل تلال، وهي أطلال المدن المندثرة.

ربما كانت كميات هذه الآثار أكبر أيضاً لو لم يساعد السكان على اختفائها شيئاً فشيئاً، باستخدامها كما يفعل المسلمون في كل أعمال البناء والعمارة التي يقومون بها. وتُنبش هذه البقايا أو الخرائب باستمرار بغية إيجاد مواد للبناء. لا يكتفون بحفر الأرض بل يغربلون التراب أملاً بالعثور على الذهب أو على الأحجار المنقوشة. وقد أهداني أحد أصدقائي وهو سيد قرية بالقرب من مدينة مدمرة، خنفساً يعود للقدماء المصريين، وقد وجده الفلاحون تحت الأرض عندما كانوا ينبشونها. وقد صنع هذا الخنفس من الطين المحروق، وطلي بطبقة سميكة جداً من البرنيق وهذا ما يبرهن بأن هذا الشعب قد مارس فن صناعة القوالب المحفورة، وتُصنع بواسطتها طبعات وبصمات على الطين اللين قبل حرقه.

وحتى الآن فإن الرحالة الأوروبيون قليلاً ما ترددوا على الجانب الشرقي للدلتا، وهو لا يقلُّ ثراءً بالعاديَّات عن الجانب المعروف منها. أما اللصوص فينتشرون بكثرة في هذه المنطقة المنعزلة والتي لا تزال أقل تمدناً من باقي المناطق المصرية، ولا يرغبون أبداً في ممارسة مثل هذا التجوال. ومع ذلك فمن الممكن القيام بتجوال آمن في هذه الأمكنة التي قليلاً ما يرتادها الإنسان، باصطحاب الأقباط الذين يذهبون في كل سنة ضمن جماعات كبيرة للحج إلى كنيسة قديمة بالقرب من جميانة.

أخبر بعض العرب السيد فورسكال بأسماء العديد من الأماكن التي كان يسكنها اليهود قديماً، ولا بد أن تكون آثارها موجودة حتى اليوم. (وتشير كل هذه الأسماء حقاً إلى أمر ما يتعلق بإقامة هؤلاء اليهود في هذه المنطقة، ولكن بما أن هذا السرد يستند إلى تقليد متوارث وغامض ويتعلق بشعب ذي تاريخ شبه معروف، لم نكلف أنفسنا عناء الاستعلام عن المزيد من ذلك).

لا يحبذ شعب مصر أن يقوم الأوروبيون بحفريات في أماكن الأنقاض الأثرية، وهم

مقتنعون بأنهم يبحثون فيها عن الكنوز، وعندما كنت أُسجل قياسات مسلة رائعة الجمال وهي ما زالت قائمة بكاملها في بلدة المطرية وقف سكان هذا الموقع على بعد مسافة معينة لمراقبة ما أقوم به بانتباه كبير؛ لقد انتابهم الظن وتخيلوا أنني وباستخدام سر خفي قد أنسف هذه الكتلة للاستيلاء على ثروات مخبأة تحت قاعدتها، وهي ثروات يدعون أنهم لهم حصة فيها ؛ وعندما رأوا بأن العملية التي قمت بها لم تتناسب مع توقعاتهم، تركوني أذهب في حال سبيلي دون أن يشتموني. فبإمكانك تجنب إثارة الشك والقلق، وذلك بالحصول على إذن للتنقيب من سيد الأراضي المعنية حيث تنتشر الأنقاض وبدعوة الفلاحين لتنفيذ هذا العمل.

عُنِيَ العديد من الرحالة بوصف عاديّات مُدُنِ مصر القديمة، وانشغل الكثير من العلماء بمعالجة مواضيع هذه الأوصاف والبحث فيها والتكلم عنها بإسهاب بالإضافة إلى مقارنتها مع أوصاف المؤلفين الإغريق واللاتينيين، لكي يكتشفوا إلى أي مدينة تعود الأنقاض التي نشاهدها حالياً. كان بوسع هذه الأبحاث أن تكون هامة، ولكنها غير موثقة، و لا أظن أنني سأغوص في هذه التفاصيل و أكرر ما ذكره آخرون من قبلي.

الفصل السادس

مدينة القاهرة

حدث خلال القرون الأحد عشر الماضية، أي منذ أن فتح العرب مصر، تغييرات كثيرة في ضواحي القاهرة والمسماة بلغة القوم القاهرة، فقد دمَّر هؤلاء الفاتحون المدن أو أهملوها وبنوا مدناً أخرى. وحدث عند فتحهم هذه البلاد، أن وجدوا على ضفة النيل مدينة، دعاها كتابهم العرب مصر، وهي دون أدنى شك مدينة بابل، مصر المذكورة في مؤلفات اليونان الإغريق، فاستولوا عليها بسبب خيانة المقوقس. وأبى أولئك المسلمون المتحمسون أن يسكنوا مع المسيحيين في المدينة نفسها، وبدأوا بالاستقرار شيئاً فشيئاً في الموقع الذي كان يخيم فيه قائدهم وبنوا فيه مدينة سمَّوها الفُسطاطْ.

وهذه المدينة، التي غدت عاصمة مصر، سميت أيضاً بمصر، وهو الاسم الذي ستحتفظ به بعد القاهرة، التي يبدو أنها لم تكن سوى ضاحية، وما لبثت الفسطاط أن بدأت تتضاءل كمدينة وكعاصمة في حين كبرت فيه القاهرة التي تأسست في عام ٣٥٨ للهجرة على يد قائد الخليفة الفاطمي. تُعرف بقايا الفسطاط باسم مصر العتيقة أي مصر القديمة. وقام صلاح الدين الشهير بتجميل المدينة الجديدة وأحاطها بالأسوار.

واتخذت مدينة القاهرة بدورها اسم مصر، ويسميها الأوروبيون القاهرة، أو القاهرة الكبرى. ورغم حداثة هذه المدينة فهي واسعة جداً، وتمتد مسافة ساعة من المسير فوق سهل رملي في سفح جبل المقطم على بعد نصف فرسخ من ضفاف النيل. ومن هذا الجبل حيث تقع القلعة يمكننا مشاهدة المدينة بأكملها: ومن الأطراف الأخرى تحيط بها تلال شكلتها أقذار الشوارع ومخلفاتها التي تنقل بشكل يومي. وأضحت هذه التلال الآن مرتفعة إلى درجة بات من المتعذر معها رؤية رؤوس الأبراج من عند نهر النيل.

رغم أن القاهرة تعد مدينة كبيرة جداً، إلا أنها غير مأهولة على الإطلاق كالمدن الأوروبية التي لها نفس الحجم. وتضم عاصمة المصريين ضمن سورها مستنقعات واسعة تشبه البحيرات عندما تمتلئ بالماء. وتحتل الجوامع أراضي شديدة الاتساع،

ففي حي سنحت لي الفرصة تفحصه عن كثب، وجدت أن المساحة الفاصلة بين الشوارع الكبرى زاخرة بالحدائق والأمكنة الفارغة، وأعتقد استناداً لأسباب وجيهة أن داخل العديد من الأحياء عدد من المساحات الكبيرة التي تخلو من أي بيت. ولا ترتفع البيوت في القاهرة إلى نفس ارتفاع بيوت مدننا في أوروبا ؛ ففي الأحياء الصغيرة تتشكل من دور واحد، وتبنى من اللبن المجفف بحرارة الشمس.

كنت ذكرت أن الرحالة يخطئون في أغلب الأحيان عندما يتعلق الأمر بعدد سكان المدن في الشرق، ويتعين علي أن أضيف الآن بأن ترتيب شوارع القاهرة يجعل هذه المدينة تبدو أكبر مما هي عليه في الواقع. ففي الكثير من الأحياء نجد شوارع طويلة جداً وليس لها إلا منفذ واحد على شارع رئيس ؛ حيث إن سكان هذه الأزقة يمكنهم أن يتحدثوا من خلف منازلهم، بيد أنهم يضطرون للسير زهاء ربع فرسخ لكي يلتقوا بعضهم البعض. ومعظم هذه الشوارع مأهولة بالصناع اليدويين الذين يتركون عند ذهابهم للعمل في الشوارع المزدحمة، نساءهم وأطفالهم في المنازل. وتتملك الدهشة السكان إن صادفوا فيها أحد المارة، ويظنون أنه تائه فينذرونه على الفور بأن لا منفذ للشارع. ويتواصلون عبر الشوارع الرئيسة، وهي ضيقة جداً وتكتظ دوماً بحشود من الناس، مما يعطي هذه المدينة مظهراً سكانياً استثنائياً لا نجده إلا في القليل من الأحياء.

ولا تزال القلعة التي تقع على صخرة وعرة بين المدينة وجبل المقطم، وهي قائمة على الأغلب منذ زمن الإغريق وكأنها جزء لا يتجزأ من بابليون مصر، و تنقسم اليوم إلى أجنحة ثلاثة، جناح الباشا وجناح المشاة الإنكشارية وجناح العزب، ويتداعى قصر الباشا أو القلعة للسقوط ولا يبدو عليه أنه مقر حاكم مقاطعة كبيرة، ولكن يبقى لنا أن نعلم بأن الباشاوات الأتراك يسكنون على وجه العموم في منازل سيئة، ذلك بسبب يقينهم أنهم لن يستمروا في مناصبهم لوقت طويل، ولا يهتم أي منهم بإجراء إصلاحات ستكون لمن سيخلفه.

يعتري الإنسان شعور وهو ينظر إلى جناح الإنكشارية، المحاط بأسوار منيعة مدعمة بالأبراج، بأنه قلعة أكثر من أي شيء آخر ؛ يستفيد هذا الحرس الإنكشاري من

موقعه المناسب أثناء اندلاع ثورات المصريين، وما أكثر حدوثها، وهذا الحرس الذي رشاه السلطان لا يحترم سادته إطلاقاً، أما الضباط الأساسيون والذين كانوا عبيداً لنخبة سكان القاهرة، فهم يحرصون على ارتباط أكبر وولاء أشد لأسيادهم القدماء، مما يكنوّنه للسلطان. فعندما يعزل المصريون أحد الباشاوات، فإن الإنكشاريين هم من يطرده عادةً من قصره بإطلاق المدفعية عندما لا يرحل في اليوم الذي يحدده الباكاوات، إلا أن العربان لا يهابون كثيراً من الإنكشاريين، حتى أنهم يسرقون بوقاحة بالقرب من القلعة التي يقيمون فيها.

نرى في هذا القصر عملين فنيين، أراد فيهما بعض الحالمين من المسيحيين والمسلمين أن يكرم أحد البطاركة: وهما نافورة وقصر يوسف. أما النافورة، وإن كانت عميقة و محفورة بأكملها في الصخر، فإنها لا تبدو مدهشة بنفس الدرجة حينما تفحص طبيعة الصخر وهو من حجارة كلسية لينة جداً، ولا يوجد وجه للمقارنة إطلاقاً بينها وبين الينابيع والعيون عند الهنود القدماء الذين حفروا هياكل كاملة في أصلب أنواع الصخور.

أما قصر يوسف المزعوم فهو بناء كبير يحتفظ بآثار ثمينة لبهائه وعظمته السابقة. فالبناء الذي يعمل فيه اليوم النسّاجون قد زينت أسواره بصور من الموزاييك الجميل والمؤلف من عروق اللؤلؤ والأحجار الكريمة والزجاج الملون. ويحتوي السقف في غرفة أخرى على رسومات خلابة. و تجد في بعض الأماكن أسماء محفورة لمعظم ملوك مصر القدماء، ويبدو أن خلفاء مصر قد سكنوا هذا القصر، ومن الغريب أن الباشا لم يتخذه مسكناً له، ومن إحدى الشرفات نرى منظراً أخّاذاً للقاهرة وبولاق والجيزة، ومشهداً شاسعاً يمتد حتى الأهرامات.

يُصنع في هذا القصر قماش "الكسوة" التي يقدمها السلطان كهدية سنوية إلى حرم مكة المكرمة، سألت مدير هذا العمل، عن يوسف هذا الذي أعطى اسمه لتلك النافورة وهذا القصر، فقال لي إنه صلاح الدين الذي كان يدعى في الواقع يوسف. ويبدو هذا الرأي هو الأرجح خاصة وأن القاهرة تدين له بكثير من المباني العظيمة. ومهما يكن

من أمر، فإننا نجد بالقرب من هذا القصر نحو ثلاثين عموداً كبيراً وجميلاً من الجرانيت الأحمر، لا تزال قائمة على قواعدها مع أنها غير محمية، مع أن عدداً من الأكواخ البائسة تستند على هذه الأعمدة الرائعة. وفي درب منحوت في الصخر يوصل بين جناحين من القصر، فوجئت برؤية نسر برأسين محفور على صخرة كبيرة وهو لا يزال بحالة يمكن للمرء أن يتعرف عليه بسهولة وبشكل كامل.

وتحتوي الضاحية المسماة بالقرافة، وهي اليوم مأهولة بعدد قليل من السكان، على عدد وافر من الأضرحة الرائعة، وقد تهدمت جزئياً وكذلك العديد من قبور ملوك البلاد القدماء، وتقوم النساء المسلمات بزيارة هذا المكان، بحجة ممارسة الشعائر الدينية، ولكن في واقع الأمر، يذهبن للتمتع بحرية التنزه. كما ينتشر في الجانب الآخر من القصر، عدد كبير من الجوامع المتهدمة، ومن البيوت المبنية على قبور مسلمين أغنياء، وهي تشكل شارعاً طوله ثلاثة أرباع فرسخ ألماني، ويشير هذا العدد المذهل من الجوامع والبيوت الحجرية، إلى أن قدماء ملوك مصر وأعيانها قد أنفقوا على بناء دور العبادة بقدر ما أنفق سلاطين القسطنطينية، بل وربما فاقوهم في ذلك بكثير.

يجد المرء في هذا الحشد من الجوامع ما يتميز منها بالجمال ومتانة البناء ؛ فكان أحدها وهو مسجد السلطان حسن واحداً من بين كثير مثله، يحتوي في نفس الوقت على مدرسة، وكان متين البناء وذا موقع حسن إلى درجة كانت تنصب فيه بطاريات المدفعية إبان الانتفاضات والثورات الشعبية، لضرب القلعة، ولهذا سُدت أبوابه بأسوار من الحجر. تتصف كافة هذه الجوامع بأنها زينت ببساطة متناهية من الداخل، وتغطى الأرض المرصوفة عادة بالحصير، ونادراً بالسجاد، ولا تزين الجدران إلا ببعض سور القرآن الكريم والتي كتبت بحروف من ذهب، وقد تدلت الكثير من المصابيح البسيطة أفقياً واختلطت مع بيض النعام وما شابه من الحليات البسيطة.

وهناك المارستان وهو مشفى كبير للمجانين والمعتوهين الذين لا يشكلون عدداً كبيراً بالنسبة إلى اتساع المدينة. وفي الماضي كان المرضى ينعمون فيه بكل ما يمكنه التخفيف عنهم حتى بالموسيقى، وبسبب عدم القدرة على تغطية كل المصاريف،

فقد حجبت عنهم تلك التسلية التي سرعان ما أعادها إليهم أحد الكرماء بعد أن تبرّع من جيبه الخاص. تأتي الأوصاف للقاهرة على ذكر الكثير من العائدات المتعلقة بهذا المشفى وبمعظم الجوامع، ويحدث هنا ما يحدث في أمكنة أخرى، فيملأ من يدير هذه العائدات جيوبه، ويتسبب بالإفلاس للمؤسسات الخيرية هذه التي لا تستطيع العمل من جديد إلا إذا قدّم لها بعض المحسنين هبات جديدة.

تجد في هذه المدينة عدداً كبيراً من الخانات أو الوكالات، كما يطلق عليهم في مصر وهي أبنية واسعة وقوية تشتمل على الكثير من المخازن والغرف الصغيرة، لكي يتمكن التجار الأجانب من استخدامها، ونرى هنا كما في القسطنطينية، العديد من المنازل الجميلة التي توزع فيها المياه العذبة للمارة. أما الحمّامات العامة فعددها كبير، ولو أن مظهرها لا ينم عن الأهمية، إلا أن فيها مقصورات جميلة ومكسوّة بالرخام ومزدانة على طريقة أهل البلاد، وفيها خدم كثيرون من المستأجرين، ولكل منهم اختصاصه، حيث يقومون على خدمة الذين يستحمون فيها، ويرتاع الأجانب في بادئ الأمر من طريقة عمل أولئك المستأجرين ، وهي طريقة مستخدمة في أرجاء الشرق كافة، ويخشون أن يجدوا أنفسهم، وقد تخلعت أطرافهم ولكن ما إن يعتادوا على هذه الخدمة لا يلبثون أن يجدوها ممتعة. أما البرك أو المستنقعات التي تشكلها مياه النيل وتملأ عند فيضانه المواضع المنخفضة، فهي منتشرة كثيراً في القاهرة وفي ضواحيها. وعندما يتبخر الماء تصبح البرك في كل عام مروجاً ومراعي؛ ويعطي تبدل المشهد لهذه البرك بهجة ومتعة كبيرين، ولهذا السبب بالذات يقيم كبار القوم عادة على ضفاف البرك، ولا تضفي قصورهم أي مسحة جمالية على المدينة، فليس بوسعك رؤية أي شيء سوى الأسوار القديمة التي تحيط بها.

الفصل السابع
ضواحي القاهرة

تنتشر في ضواحي القاهرة العديد من الأماكن اللافتة للنظر، ومن بينها المدن الثلاث بولاق والفسطاط والجيزة، وهي ليست ببعيدة جداً، بحيث يمكن اعتبارها ضواحٍ للعاصمة.

وما زالت بولاق إلى اليوم، وهي بدون أدنى شك هيليوبوليس اليونانية، مدينة هامة ومرفأ القاهرة الرئيس، تمر كافة البضائع المنقولة من دمياط ورشيد، وكذلك بضائع مصر التي تُرسل عبر المتوسط، من هذا المكان، ولهذا السبب أصبحت مقراً لإدارة الجمارك، وبني فيها بازار واسع وهو سوق مغطى أطلق عليه قيسارية. كما بنيت هناك مخازن الأرز والملح والنطرون والعديد من منتجات صعيد مصر، ونجد فيها اليوم داراً للسلطان يحفظ فيها القمح الذي يرسله سنوياً إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

يمكن اعتبار الفسطاط أو مصر العتيقة إلى الآن، وإن تدهورت للغاية، مدينة ذات اتساع متواضع، وفيها مركز جمارك تسدد فيه أجور البضائع القادمة من صعيد مصر. وفي مكان واسع يحيط به سور كبير، تخزن الحكومة في الهواء الطلق أكواماً ضخمة من القمح. ويتحدث بعض المؤلفين عن هذا المكان وكأنه مخزن بناه النبي يوسف، ولكن السور الذي يحيط به، يعود بشكل ظاهر إلى تاريخ يلي الفتح الإسلامي لمصر.

ولا يسكن حصن مصر القديمة اليوم إلا المسيحيون. ونشاهد فيها الكثير من كنائس اليونان وكنائس الأقباط ولهم فيها دير لرجال الدين، وهم يقدسون كثيراً مغارة تقع تحت إحدى هذه الكنائس القبطية لأنها كانت على الأرجح المغارة التي لجأت إليها العائلة المقدسة عندما هربت إلى مصر. ولليونان كنيسة (مار جرجس) تشتهر بمعجزة من نوع فريد: يصبح المجانين فيها عقلاء حينما يُشدون إلى عمود معين من أعمدة الكنيسة.

يربط هذه المدينة بالقاهرة قناطر مائية بناها في بداية القرن السادس عشر

السلطان الغوري. وهي تسحب الماء إلى جوار القصر. وبالقرب منها يقع دير الدراويش المشهور بجمال عمارته وبثرواته: وتوجد بجانبه ساحات رحبة، كان أعيان القاهرة يأتون إليها لممارسة العديد من الهوايات الحربية.

تقع الجيزة على الضفة الغربية من النيل مقابل مصر العتيقة. وأصل هذه القرية مجهول، أما التلال التي تحيط بها فقد تشكلت بدون شك من القمامة التي نقلت منها، تبدو وكأنها تعلن عن قدمها، لكني لم أجد فيها ما يسترعي الانتباه، باستثناء العديد من البيوت الريفية العائدة لأثرياء القاهرة بالإضافة إلى بعض المعامل.

المطرية قرية تبعد عن العاصمة مسافة فرسخين، وتلامس أنقاض «هيليوبوليس» مدينة الشمس القديمة. إلا أن هذه القرية تزداد شهرة أيضاً لدى المسيحيين الورعين بسبب شجرة الجميز التي انفتح جذعها لتلجأ إليه العائلة المقدسة خلال نزوحها إلى مصر. ويوجد فيها دائماً شجرة جميز تتجدد بالضرورة؛ بيد أن الناس المؤمنين بالسحر يقتطعون منها أغصاناً. وكانت القرية في يوم ما معروفة بأشجار لبلسم مصر وكانت تزرع فيها ولكن لم تعد تشاهد في هذا المكان، فآخر هذه الأشجار قد زالت في بداية القرن السابع عشر إذ ليس من طبيعة الأتراك أن يستبدلوا نبتة مفيدة بأخرى. وتقع على بعد أربعة فراسخ شرقي القاهرة بركة الحج أو بحيرة الحاج، وهي بحيرة كبيرة إلى حدٍ ما، تستقي مياهها من نهر النيل، ونرى في ضفافها قرى عديدة وبيوتاً ريفية متهدمة كثيرة، لذا لا يتميز هذا المكان بما يثير الانتباه، إلا عندما يحين وقت رحيل القافلة إلى مكة، عندما يضرب الحجيج فيها خيامهم أياماً قليلة قبل رحيلهم وبعد عودتهم منها. وفي العشرين من مايو (أيار) من عام ١٧٦٢م وقبل يومين من انطلاق القافلة تملكني الفضول في زيارة هذا المخيم، الذي لم يكن يستحق حماسي واندفاعي، ففيه تُشاهد عدداً قليلاً من الخيام الجميلة، وما تبقى شحيح يغرق في فوضى تصدم أقل الأبصار حساسية.

الفصل الثامن

مقياس منسوب النيل وفيضانه

تقع جزيرة الروضة بين مصر العتيقة والجيزة في وسط النيل، وكانت هاتان المدينتان تتصلان في السابق بجسري قوارب انمحى أثرهما منذ زمن طويل. وكانت الجزيرة مليئة بالحدائق الريفية عندما ازدهرت الفسطاط، ولكن منذ أن غدت القاهرة عاصمة مصر نقل سكانها حدائقهم ودور نزهاتهم إلى مصر العتيقة وبولاق وحتى إلى بركة الحج.

لا تقدم هذه الجزيرة اليوم شيئاً مثيراً للاهتمام، باستثناء طرفها الجنوبي الذي يحيط به سور لصد شدة التيار، وقد بني فيه جامع يضم في أرجائه المقياس الشهير أو مقياس النيل، ومن المعلوم أنه عبارة عن حوض متصل بنهر النيل، ويرتفع في وسطه عمود يساعد في الدلالة على ارتفاع مياه النهر، وقد وضع نوردن رسماً له أجمل من الأصل وهو يتآكل يوماً بعد يوم، لأن الأتراك ليسوا على استعداد لإنفاق مبلغ زهيد في سبيل أشد الإصلاحات ضرورة.

لا علم لي إذا قام أحد بقياس عرض نهر النيل مسبقاً: فبعملية حساب هندسية وجدتُ بأنه يعادل ٢٩٤٦ قدماً. ومن الضروري معرفة هذا القياس، حتى نكوّن فكرة عن كتلة الماء الهائلة التي يجرفها هذا النهر حينما يصل إلى أعلى منسوب له.

نعلم بأن نهر النيل يبدأ كل عام بالارتفاع في منتصف شهر يونيو (حزيران)، وأنه يستمر في الصعود خلال أربعين إلى خمسين يوماً، وأنه ينخفض عندئذ ببطء حتى يصل إلى أدنى عمق له في نهاية شهر مايو (أيار) من العام التالي. لم نعد نجهل سبب هذه الارتفاعات: تهطل الأمطار يومياً في هضبة الحبشة خلال الأشهر الأكثر دفئاً من السنة وتتجمع كل هذه الأمطار الغزيرة في النيل الذي يجري بدوره في وادٍ واسع لدى دخوله أرض مصر وحتى وصوله إلى البحر.

لا يرتفع النهر بنفس الدرجة في مصر كلها. وبالرغم من أنني لم أتجرأ على قياس

ارتفاع فيضانه قرب المقياس، بيد أنني شاهدت بعد أخذ ملحوظات في الجيزة، أن ارتفاعه في القاهرة هو أعلى بأربع وعشرين قدماً على الأقل من مستوى مجراه الاعتيادي، أما في رشيد ودمياط فلا يتجاوز هذا الارتفاع أربعة أقدام، ولا يجب أن يتملكنا العجب من هذا الفرق، فالنيل المحصور في القاهرة في مجرى واحد فقط بين ضفتين مرتفعتين لا يتجاوز بشكل طبيعي مجراه المتفرع إلى شعب عديدة، بعد أن تفرعت مياهه في قنوات كثيرة، وبعد أن يكون قد روى العديد من الأراضي القاحلة وملأ البحيرات من مائه، إلى أن يقترب من البحر. لا يتجاوز عرض الفرع الذي يروي رشيد أكثر من ستمائة وخمسين قدماً، وفرعه الذي يمر بالقرب من دمياط مائة قدم كحد أعلى.

ما إن يبدأ النيل بالارتفاع حتى تُسد القنوات الكبيرة والصغيرة وتُنظف التي تتفرغ من النهر أو من قنوات أخرى والمعدَّة لري الأرياف. تترك القنوات مقفلة حتى تصل مياه النهر إلى ارتفاع معيَّن يحدده مقياس ارتفاع النيل في جزيرة الروضة. ويقوم أحد الشيوخ لهذا الغرض بقراءة المقياس، وفور ارتفاع المياه يعلن الرقم أمام جموع من الفقراء، الذين ينتظرون سماع هذا النبأ في الفسطاط وينطلقون راكضين لنشره في شوارع القاهرة. ثم يعود هؤلاء الفقراء في كل يوم وفي ساعة محددة إلى الفسطاط ليخبرهم الشيخ بصوت عالٍ عن عدد البوصات التي علا فيها النيل. تُنشر هذه الزيادات المائية يومياً وبنفس الطريقة إلى أن يصل ارتفاع النهر إلى المنسوب المحدد الذي يسمح بفتح الخليج، عندئذ تتهيأ لتحصيل الخرج السلطات وتُمني النفس بسنة خيرة.

عندما يُفتح خليج القاهرة، تُغلف أيضاً وبشكل متتابع، مياه القنوات الكبرى الواقعة إلى الأسفل ونحو البحر. لا يتجرأ سكان مقاطعة ما على نَزْح مياه النيل، مهما كان ارتفاع مناسيب أراضيهم. حيث إن هذا الأمر ينتزع الماء من الأراضي الأعلى من أراضيهم، فيتعين عليهم أن ينتظروا تلقي الأوامر بهذا الشأن. وإن المرء ليجد في مصر قوانين يُتقيد بها بصورة منتظمة، وهي تحدد تقاسم المياه، والأوقات التي يؤذن فيها للمعنيين بفتح القنوات الكبيرة والصغيرة على حد سواء.

يُرفع ما بين سد خليج القاهرة والنهر عمود من الفخّار إلى ارتفاع يصل إلى حد

يمكن معه التمتع بمشاهدة وصول مياه النهر إليه يسمى العمود العروس: وهذا هو نوع من قياس ارتفاع ماء النيل يستخدمه عامة الشعب، وحينما تدخل المياه إلى القناة يجرف التيار «العروس» معه. وثمة عُرف شبيه بذلك، ربما استخدمه قدماء المصريين وتسبب لهم بتهمة تقديم فتاة عذراء ضحية سنوية إلى النيل.

تُفتح القناة باستخدام جهاز ضخم، لكن خلال إقامة فريقنا في القاهرة، فُتح السد ببساطة دونما أي مُعدَّات، لأنه لم تُنظف القناة بشكل سليم، ولأن الماء كان يدخل منه بصعوبة، وقد وصفت هذه الاحتفالية بأقلام عددٍ من المؤلفين إلى حدٍ أعتقد معه أنه لا ينبغي لي أن أضجر القارئ بسرد وقائع لا طائل منها.

تسود في مصر خرافة لم يكن يتحدث عنها أحد قبل الفتح الإسلامي: هذه تقوم على استطلاع الغيب استناداً إلى ارتفاع النهر، وذلك عن طريق بعض الممارسات التي تقوم بها النساء على حد سواء المسيحيات والمسلمات. تستند هذه الممارسات على الرأي الشعبي الذي يدّعي بأن ثمة قطرة، يقال لها بالعربية نقطة، تهطل في الليلة السابعة عشرة من يونيو (حزيران)، في الحبشة، في نهر النيل تؤدي إلى تخمُّر الماء ومن ثم فيضانه؛ فمن أجل اكتشاف كمية وقوة هذه القطرة، وبالتالي مدى ارتفاع منسوب النهر وخصوبة الأرض في السنة المعنية، تضع أولئك النِسوة في تلك الليلة بالذات، قطعة من العجين فوق أسطح منازلهن الثقل الذي تكتسبه هذه العجينة صغيرة كانت أم كبيرة، فوق أسطح منازلهن، تزودهن باستشراف الغيب. يعتبر تفسير هذه التجربة سهلاً للغاية، ذلك أن الشيء الكثير من الطل ينزل بانتظام خلال هذا الموسم في مصر. قال لي رجل مسلم عليم ورشيد، كان يرى في هذه الاستقراءات مُجرد تسلية ولهو، أن الرأي الشعبي هذا، يعود في الأصل مثله مثل الكثير من الآراء الشعبية، إلى التباس وغموض، فكلمة نقطة العربية تعني أيضاً قَطْرة وهو التوقيت الذي تدخل فيه الشمس في برج السرطان. وهو الوقت الذي تبدأ فيه بالضرورة أمطار غزيرة في الحبشة، فتزيد غزارة مياه النهر. لقد لاحظتُ بأن قناة القاهرة تنظف سنوياً، فتصبح شارعاً للمارة، ولكن لا يمكن الاستفادة منها طويلاً لهذا الغرض، لأنهم ينتظرون أن يكون السد مهيئا

كي يفتح لكي يبدؤوا بتنظيفها. وحينما تجري المياه فيها، تكون البيوت المنتشرة على ضفتيها ممتعة جداً: ولكن في باقي أيام السنة تكون هذه المجاورة غير مريحة إطلاقاً، تدخل الكثير من النفايات في القناة، التي لا يمكن أن تجف داخل المدينة، فالروائح النتنة المنبعثة من الطين القذر، تلوث الهواء وتتسبب بأوبئة وافدة خلال اشتداد الحر. ليس في القاهرة ماء قابل للشرب إلا ماء النيل، يتزود الناس منه يومياً لاحتياجاتهم الخاصة باستخدام القرب على ظهور الحمير والجمال. وتوجد على أسطح العديد من الجوامع خزانات كبيرة للعموم لحفظ الماء لتُستخدم عندما تصبح مياه النهر ملوثة جداً خلال فيضانه وبالتالي تصير كما يعتقد غير صحية. وفي الواقع فإن مياه النيل ملوثة دائماً بعض الشيء. لكن عندما تفرك الأواني الفخارية الكبيرة والتي يسمونها بوجانات ومفردها بوجان، أو جرار، باللوز المر والمحضّر بطريقة معينة، تصبح المياه الملوثة صافية وخفيفة وصحية، ولا يخلو بيت في القاهرة من هذا اللوز، لكن استخدام هذه المياه حسب الرأي الشائع يؤدي إلى حدوث طفح جلدي لدى سكان المدينة في فصل معين من فصول السنة، وهذه الأذية مزعجة ولكنها لا تضر بالصحة.

إمرأة يونانية في الإسكندرية بلباس الزينة الكامل

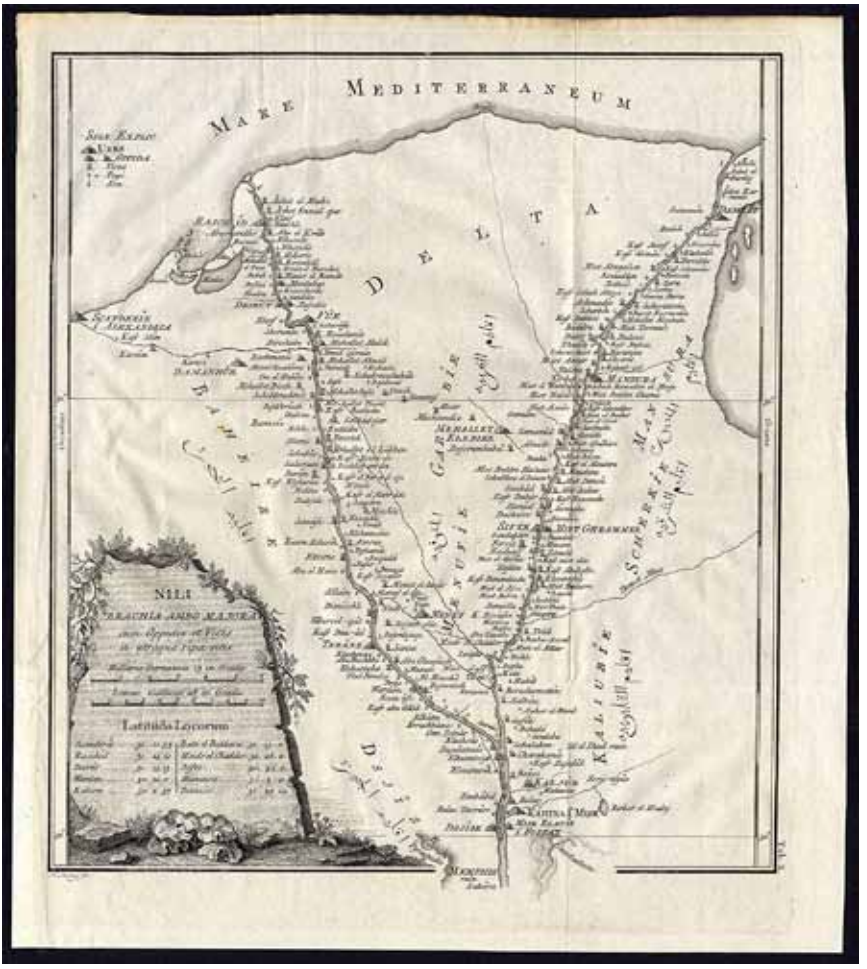

خارطة دلتا النيل

القسم الثالث

الحُكم والمهن والتجارة في مصر

الفصل الأول

طبيعة الحُكم في مصر

غزا الأتراك كما هو معروف مصر في مطلع القرن السادس عشر، بعد أن تغلبوا على المماليك، وكان هؤلاء جيشاً مؤقتاً من المرتزقة استولوا قبل ذلك بعدة قرون على سيادة هذا الإقليم وحكموه تحت إمرة كبير قوم مَوْلَى سميَّ بالسلطان. ويبدو اليوم أن هذا الشكل من الحكم قد استمر إلى الآن كما كان في زمن الغزو التركي، دون أن يفكر الأتراك رغم كبريائهم المستبد في تغييره.

ولابدّ لهذا الشكل في الحكم الذي دام طويلاً دُون أن يجرؤ فاتح قوي وذو أنفة على مسه بأي تغيير، أنه كان يمتلك أساساً ومصدراً يمدُّه بالاستقرار ويواجه به الثورات المناهضة له.

هذا الشكل جدير بأن يُعرف بشكل أفضل وأن يشرح بصورة أعمق على يد دارسٍ لامع، يقيم في أرض مصر فترة طويلة، إذ لا يمكن لرحالة مثلي، لم يمر على هذه الأمور إلا مرور الكرام، أن يكشف وأن يصف عمل آلة بمثل هذا التعقيد.

إلا أن ثقافتي على درجة من الكفاية لكي أتبين بأن هذه الحكومة قد آلت الآن إلى طبقة أرستقراطية مدنية أو عسكرية على حد سواء، بل تغلب عليها الصفة الأخيرة. وتحت سيطرة سلطان القسطنطينية، بل في ظل حمايته يمارس الديوان أو المجلس الأعلى السلطة التشريعية والتنفيذية. يجب أن ينظر إلى عائدات السلطان على أنها جزية تدفع إلى الدولة الحامية، وليس كضريبة تسدد إلى العاهل، وفضلاً عن ذلك فهذه العائدات هي زهيدة إلى درجة أن المصاريف تستهلكها في مصر، حتى أن الصندوق المعيَّن لنقلها بسرعة، يصل فارغاً إلى القسطنطينية.

ينبغي لمثل هذه الحكومة - بالضرورة - أن تعج بالمؤامرات والفتن وأن تكون عرضة للمنازعات المتكررة. فالقاهرة في واقع الأمر تمر دائماً بالشقاق وتتصادم الأحزاب فيها باستمرار، ويدير الكبار بشكل دائم زمراً وجنداً وينفقون عليهم، ويفصلون

بالسلاح علناً في خلافاتهم. ومن المحتمل أن تكون غيرة وحسد الزعماء هي السبب في إضفاء هالة من السلطة والنفوذ للسلطان المقيم في الباب العالي على هذا البلد. وكافة أفراد هذه الأرستقراطية، وخشية منهم أن يفقدوا سلطاتهم تحت حكم عاهل ما، يعارضون جميعاً ارتقاء فرد من طبقتهم. وقد عانى في أيامنا هذه علي بك من المشقات التي يكابدها من يرتقي عرش مصر أو من يتمسك به.

الفصل الثاني

كبار مأموري السلطان

لكي يمارس سلطان القسطنطينية نفوذه المؤقت على مصر، يقوم بإرسال حاكم يكون دائماً باشا بثلاثة نجوم، ولا يتمتع في مصر بنفس السلطة المطلقة التي تمنح لباشاوات الأقاليم الأخرى الخاضعة للباب العالي، فباشا القاهرة يتعلق بشكل شبه كامل بديوان هذه الولاية، وبما أن الأرستقراطيين يعتبرونه الطاغية المغتصب لسلطتهم فغالباً ما يعزلونه، ما لم يكن حاذقاً وأهلاً بما يكفي ليصمد، باستخدام تعارض وتنازع الأحزاب والتي باستطاعته محاباتها وتفضيل أحدها على الآخر بالتناوب. طرد سكان القاهرة الباشا المولّى عليهم خلال إقامتي في الإسكندرية، وكان وقتئذ في القاهرة مصطفى باشا الذي سبق وشغل منصب الصدر الأعظم أو الوزير، كما فاز بهذا المنصب البارز للمرة الثالثة. وكان قد أرسله السلطان إلى جدة، لكنه بقي في مصر متذرعاً بالمرض، واختاره المصريون ليكون باشا عليهم، كما نجحوا في إيجاد طريقة لإرغام السلطان – مهما بلغ استياؤه من ممثلهم المنتخب والناخبين – على الإذعان لاختيارهم، لكن الباشا الجديد لم يحتفظ بمنصبه إلا لمدة سبعة أشهر، وبعدئذ تعين عليه أن يتنازل عنه لرجل آخر أُرسل من القسطنطينية لكن هذا الأخير توفي فجأة في الليلة التي تلت وصول رجل يدعى كابيجي باشا والذي أرسله السلطان على إثره، وهكذا خلال الفترة القصيرة التي مكثت فيها بمصر، تتالى بسرعة وعجلة على حكومة هذا الإقليم ثلاثة باشاوات. ويستبدلُ في كلّ عام عادةً قاضي القضاة بقاضٍ آخر يأتي من القسطنطينية ويعينه السلطان بناءً على توصية من المفتي. ولا يتباحث السلطان العثماني مع أي كان في مصر، باستثناء كبيري المأمورين اللذين أتيت على ذكرهما، وفي أية حال إن حدث ذلك فلا يكون بشكل مباشر ومن الصحيح أنه يستطيع أن يتصرف بوظيفة البيك الذي يعينه ؛ لكن المصريين هم الذي يقترحون المرشحين وهو لا يستطيع رفضهم، ويقتصر إذاً تعيينه على احتفال تكريمي لا جدوى منه.

الفصل الثالث

الديوان والباكوات

يتألف الديوان أو المجلس الأعلى من أربعة وعشرين من الباكوات "جمع بيك"، وأربعة عشر من كبار ضباط القطع العسكرية الرئيسين، بالإضافة إلى عدد كبير من رجال القانون ورجال الدين.

ويبدو أن البكاوات يعلمون أقل مما يعلمه باشاوات وحكام مختلف المناطق في مصر. كما يشغل أعضاء الديوان مركزي القيّم الأعلى على الخزينة وحاكم القاهرة، وهما يوظفان تحت إمرتهما حرساً وجيشاً للحفاظ على أمنهما الخاص ولفرض النظام في المناطق الموكلة إليهما. ويدل لقب البيك على صفة رجل ذي نفوذ، ويمكن اعتباره مرادفاً للقب الأمير، ولم يكتمل عددهم خلال إقامتي في مصر ويبلغ الأربعة والعشرين؛ بل إنه لم يكن يتجاوز الثمانية عشر، ويبدو أن الآخرين كانوا يقتسمون فيما بينهم رواتب المناصب الشاغرة.

اقتداءً بالمماليك العبيد الذين كانوا يختارون سادتهم فقط ممن عاش العبودية، وكان هؤلاء الباكوات قد اشتروا لهم عبيداً بقيمة تتراوح بين ٥٠ إلى ١٠٠ ليرة فرنسية. فغالبيتهم من أبناء جورجيا أو ومنجريليا المسيحيين. منذ بعض الوقت تعطى هذه الوظائف لمسلمين من أصول عريقة. من بين الثماني عشر بيك الذين عاصرتهم خلال إقامتي في مصر، هناك خمسة باكاوات مسلمون وثلاثة عشر من عائلات مسيحية كانوا عبيداً في صغرهم.

ولن نعجب من ارتقاء مكانة الكثير من العبيد، عندما نتعرف إلى عادات الشرقيين، بأنهم مسلمون عموماً ومصريون بوجه خاص الذين يرون أن من واجبهم معاملة العبيد الفتية معاملة حسنة. ويشتري الباكوات وكبار المجتمع في القاهرة الكثير من هؤلاء الأولاد المسيحيين ويعملون على تثقيفهم وكأنهم أولادهم في كل ما هو ضروري لتأهيل سيد مسلم، وعندما ينتهون من تربيتهم يؤمنون لهم وظيفة في الجيش. أمام

ثروتهم ووجودهم المعنوي يتعلق هؤلاء العبيد المحررون بسادتهم تعلقاً شديداً. ولهذا السبب – وفي أغلب الأحيان – إذا وجد سيد عند عبده مواهب خارقة وإخلاصاً برهنت عليه التجربة فإنه لا يدخر جهداً في تأمين منصب رفيع لمولاه كالذي يشغله هو نفسه. وبتلك الطريقة يعزز السيد من تأثيره ونفوذه في الحكومة من خلال تعيينه فيها عدة أشخاص مؤتمنين، ولم يكن ذلك ليحصل إذا انحصر الأمر بالنفوذ الوحيد الذي يمنحه إياه منصبه.

ولن يكون هناك خروج عن الموضوع بتقديم بعض الأمثلة الفريدة والمدهشة. فقد تعرفت إلى تاجر ثري لم يكن لديه إلا خادم واحد لديه حمار يستخدمه كوسيلة نقل للذهاب إلى المدينة، كان قد وفر للعديد من عبيده وظائف بارزة في القطع العسكرية المصرية. وبالرغم من أن هؤلاء الضباط كانوا في مواقع أعلى منه بكثير، إلا أنهم يكنون لسيدهم السابق كل الاحترام ويقفون على أهبة الاستعداد دوماً للدفاع عنه.

كان يوجد رجل يدعى حسن كخيا قد ارتضى لنفسه بوظيفة كخيا أو ضابط برتبة ملازم أول عند آغا الإنكشاريين، وقد دفع بالكثير من هؤلاء العبيد لتبوء أهم المراكز. كان ابنه عبدالرحمن الكخيا هو أيضاً ضابط برتبة ملازم أول عند آغا الإنكشاريين، وهو رجل ذو نفوذ كبير في مصر أثناء إقامتي فيها، ليس بفضل منصبه الذي كان يتيح له القليل من التأثير إنما يرجع ذلك إلى أن عدداً كبيراً من السادة يعود الفضل في ثرائهم إلى عائلته. رغم أنه كان يتمتع بثروة طائلة ويفرض احترامه على عدد كبير من القطع العسكرية التي يديرها، ويكسب ود ومحبة الناس ورجال الدين بفضل الأوقاف الخيرية التي أوقفها.

لكنّ أطرف الأمثلة وأعجبها هو مثال إبراهيم الخواجة الذي لم تتعد وظيفته طوال حياته وظيفة ضابط برتبة ملازم أول عند آغا الإنكشاريين، وكان ذلك المنصب يتبدل سنوياً. هذا الرجل كان عبداً عند رجل يدعى عثمان الكخيا الذي كان بدوره من رقيق حسن الكخيا الذي تحدثت عنه منذ قليل. حظي إبراهيم بفضل عبيده الذين أمن لهم مراكز رفيعة، بالكثير من الثقة والتقدير حتى أنه حكم مصر لفترة طويلة. ويمكننا الحكم على قوته من خلال رقيقه. فأثناء إقامتي تعرفت على ثمانية عشر بيكاً، كان

منهم ثمانية عبيد، وسبعة آغاوات من فيالق جيوش كبيرة. ينحدر خمسة من عائلته وكان يدين له بالثروة والحرية الكثير من رقيقه السابق، الذين يشغلون اليوم مراكز هامة في الجيش.

كان من بين الباكاوات الذين حكموا في زمني رجل بدأ نجمه بالتألق وقد لعب دوراً مهماً منذ ذلك الحين، إنه علي بيك الذائع الصيت الذي توصل بعد أن كان من عبيد إبراهيم الكخيا إلى أن يصبح شيخ البلد أي حاكم العاصمة وقد نفي إلى غزة بعد أن تركنا مصر وعاد في عام ١٧٦٨م وقتل أربعة باكوات وأرغم الباشا على منع عودة أربعة باكوات كانوا قد فروا من قبل. حيث إنه غدا شديد النفوذ فقد تطلع إلى سدة الحكم، فتحالف لهذا الغرض مع الشيخ ظاهر الذي قُتل بعد ذلك بوقت قصير في معركة ضد أحد منافسيه وهو البيك أبو الدهب.

يلي الباكوات كبار ضباط الجيش ومن يدخل منهم إلى الديوان هم الأغوات السبعة من الكتائب السبع مع سبعة أيضاً من الخواجات أو الملازمين الأوائل خلال العام الذين يكلفون فيه بالعمل. أما الانكشاريون وبالرغم من الحظوة التي يتمتعون بها إلا أنهم لا يتمتعون بالرتب العليا.

لم أتمكن من الوقوف على حقيقة الوظائف المدنية التي تخوّل لك حق الدخول إلى الديوان. وبالتالي يستحيل علي عد رجال القانون ورجال الدين الذين يشاركون في جلساته.

يبدي أفراد هذه الطبقة الأرستقراطية كبرياء وتعالياً مهيناً. ولا يسمح في القاهرة للمسيحيين واليهود أبداً بركوب الخيل، ولا يجرؤون إلا على ركوب الحمير، حتى أنهم يجبرون على الترجل عند لقائهم سيداً مصرياً من أبسط السادة الذين يخرجون دوماً على أحصنتهم يتقدمهم خادم وقح يتسلح بعصا غليظة ينذر من يركب الحمار بضرورة تقديم فرائض الاحترام للسيد، ويصيح به انزل !! وإذا لم يطع الكافر في الحال، يجبره إذ ينهال عليه بضربات من عصاه. وقد شوهوا تاجراً فرنسياً في ظرف مشابه كما شتموا

طبيبنا لأنه لم يترجل عن حماره بالسرعة المطلوبة. ولهذا السبب لا يمكن لأوروبي أن يتنزه في الشوارع من دون أن يرافقه من يعرف كل هؤلاء السادة وأن يدله عليهم في الوقت المناسب. في البداية وعند مروري بالقاهرة كنت آمر عسكرياً إنكشارياً بأن يتقدمني وخادماً بأن يلحق بي وكان كل من الاثنين يركب مثلي على حماره. لكني اخترت السير على الأقدام لما آلمني وأذلني أن أرى هذين المسلمين يعتليان الحمير في حين أُرغمت على الترجل. في الواقع يدفعون في مصر أكثر من أي بلد في المشرق التمييز بين المسلمين وبين معتنقي ديانات أخرى إلى حدود التمييز القصوى، فيتوجب على المسيحيين واليهود الترجل والسير على الأقدام إذا ما مروا أمام بيت كبير القضاة، وأمام ما يربو عن عشرين بيتا أُخر، وحيث يقيم قضاة المحاكم، أمام باب الإنكشاريين، وأمام العديد من الجوامع، لا يسمح لهم وحسب بالسير على الأقدام قرب بعض المساجد التي تشتهر بقدسيتها، ولا في حي القرافة حيث يوجد العديد من القبور ودور العبادة، بل يضطرون إلى التحويل لتجنب هذه الأماكن، حيث ترابها مقدس في نظر هذا الشعب الذي لا يطيق أن تدنسه أقدام الكفار. أما بالنسبة لما تبقى فأنا أجهل إن كان يمنع كل مسيحي منعاً رسمياً من امتطاء خيل في شوارع القاهرة، كان آخر قنصل إنجليزي يخرج دائماً على حصانه وهو يرتدي ملابس كملابس سيد مسلم، لكنه كان شديد الثراء يجتذب محبة الأعيان بإقامة الولائم لهم، ويكسب ود الناس بتوزيع حسنات وفيرة في كل مرة كان يخرج فيها أمام الشعب. بينما لا يركب باقي القناصل جيادهم إلا عندما يذهبون لمقابلة الباشا، فيلبسون أزهى الثياب، وكانوا يعرضون أنفسهم لشتائم الناس الذين يرون في ألبستنا القصيرة أمراً شائناً لا تليق برجل في منصب رفيع. أما فيما عدا ذلك فإن أولئك القناصل يركبون حميرهم بكل تواضع ويترجلون بذل مهين عند التقائهم بكل سيد مصري.

الفصل الرابع

شرطة المدن

مدينة كالقاهرة يسكنها حشد من المستبدين الصغار وهم في شجار دائم فيما بينهم ومنشغلون في سحق بعضهم البعض، ويديرون فرقاً لتصفية النزاعات في أغلب الأحيان بالسلاح الأبيض، ويظن المرء في جو كهذا أن الناس لا ينعمون بالأمن. وتبدو الشوارع الضيقة التي تغص بالجموع الغفيرة مشجعة على الفوضى والبلبلة. إلا أننا قليلاً ما نسمع الناس تتحدث عن أعمال العنف والسرقات والجرائم كما نسمع في مدننا الكبرى في أوروبا.

تعنى بعض الأنظمة الشائعة في كل أنحاء الشرق بالحفاظ على الأمن والهدوء. وترعى الشؤون في الريف تقريباً كما ترعاها في العاصمة. ويساهم القضاة في رعاية الأمن العام وذلك بإقامة العدل بسرعة. فالقاضي مع الكثير من القضاة المرؤوسين والمنتشرين في كل أحياء المدينة، لا يتركون أبداً محاكمهم وينشغلون بلا توقف في الحفاظ على النظام، بفض المنازعات ومختلف الخصومات التي تحصل في الأحياء التي يقومون عليها.

ففي القاهرة تجد بعض الأنظمة الشائعة في كل أنحاء الشرق إجمالاً، وتعنى بالحفاظ على الهدوء، وتراعى في مدن الريف كما في العاصمة على وجه التقريب.

يسهم القضاة في رعاية الأمن العام وذلك بإقامة العدل بسرعة فائقة. فقاضي القضاة وعدد كبير من القضاة الحكام المنتشرين في كل أحياء المدينة لا يغادرون محاكمهم أبداً فهم منشغلون بالمحافظة على النظام بدون توقف، وذلك بإخماد النزاعات والشجار والخصومات التي تقع في كل حي يولى لهم الاعتناء به.

في القاهرة كما في كافة مدن الشرق تجد لكل مهنة شيخها المعتمد وهو يعرف كل أفراد مهنته و يسهر على تصرفاتهم التي تتفق مع الحكومة بصورة من الصور كما ويفرض على الحرفيين، الذين يشكلون طبقة واسعة، واجبات الطاعة حتى أن للبغايا

واللصوص كبيراً مشابهاً ليس لأنه يسمح بمزاولة مهنة السرقة بل يُنصّب هذا الكبير لتسهيل مهمة استرجاع المسروقات.

ففي طرابلس بلاد البربر مثلاً ينتخب العبيد الزنوج شيخاً من بينهم يتقدم إلى الحكومة بصفته شيخاً لهؤلاء وبذلك فهم يراقبون أبناء جلدتهم، ويحدون من هروب هؤلاء العبيد على سادتهم.

ينتقل ضباط شرطة وعدلية بارزون يرافقهم أتباع كثيرون أثناء الليل وأثناء النهار في ساعات غير متوقعة في مختلف أنحاء المدينة، قاصدين بذلك مراقبة جمهور الباعة والمشترين وتوقيف الأشخاص المشبوهين ويحق لهؤلاء الضباط أن يحاكموا من يقترف ذنباً، محاكمة ميدانية ودون اللجوء إلى أي شكل آخر من المحاكمات، وإدانة هؤلاء وتنفيذ الحكم عليهم ضرباً بالعصا، كما يستطيعون أن يتسببوا بشنقهم حينما يضبطون متلبسين بفعلتهم. فالخوف من مداهمة هؤلاء الضباط في أية لحظة تكبح الدهماء المتمردين أو من يحاول نهب المواطنين. وغالباً ما كنت شاهد عيان على الرعب الذي يسببه هؤلاء المراقبون المخيفون، ففي يوم من الأيام ولدى رؤية أحد هؤلاء الضباط أصر خادمي المصري على العودة إلى داري فاستعملت معه القوة كي أجعله يتقدم. إن كافة شوارع القاهرة مزودة بأبواب، تغلق أثناء الليل حيث يقف أحد حراس الأبواب، و يسمح بالمرور من حي إلى آخر لمن يشرح أسباب خروجه في مثل هذا الوقت ويحمل سراجاً. ويفتح هذا الرجل الباب لقاء أجر يسير، لكنه يوقف كل شخص مشبوه. فهذا الترتيب يحذر السلطة من التجمعات الشعبية الصاخبة. كما يقوم بفصل الأحياء عن بعضها إلى درجة أن الباكاوات يقتتلون غالباً في المدينة أو في أنحائها دون أن يشعر باقي السكان بهذه التحريات الصاخبة أو من دون إقلاق لراحتهم. ولدعم هذه المؤسسة توجد بقرب كل باب غرفة يشغلها حرس من الجيش الإنكشاري، تساند بقوتها حارس الباب، خلال الليل والنهار تصون النظام في الحي ولا يتبدل الحرس هذا وعسكر الإنكشاريين وهم من يشكل قوام هذا المحرس، يحتفظون بمواقعهم، حيث تدفع المدينة لهم رواتبهم ويستمرون فيه طالما كان تصرفهم مرضياً.

الفصل الخامس

الزراعة عند المصريين

لم تتح لي الفرصة الكافية لمشاهدة هذا الشيء الكثير من الصناعة لدى هذا الشعب، وما بجعبتي إلا القليل لأقوله هنا عن الحرف التي تساء رعايتها في مصر. ومع ذلك هناك منها ما يزود التجارة بالمواد الأولية فأرى من الواجب تناولها، ولا ينبغي أن يهمل ذكرها تماماً.

وأول هذه الحرف الزراعة وهي ليست في حال مزدهرة عندما يقارن المرء الناتج الحالي لأرض خصبة بما يمكن أن تنتجه فعلياً. وقد لمحت مسبقاً إلى الأسباب الطبيعية لهذا التردي. إن الظروف المحلية لهذا البلد الفريد، التي هي الحكومة الرديئة وبؤس الفلاحين وشقاؤهم الذين لن يتمكنوا على الإطلاق من خنق خصوبة الأرض، التي مهما أساؤوا زراعتها فإنها تجزل في مكافأة العمل البسيط الذي يكرس لها وتعطي أكثر مما يقدم لها من خدمات هزيلة.

تبدو تربة مصر السفلى (الوجه البحري) ضعيفة فهي مكونة من أرض نمرينية يرسبها نهر النيل على التتابع. وأرض مثل هذه تحت السماء الحارقة والطقس الجاف الذي يخلو تقريباً من الغيوم الممطرة، لن تكون في أوقات الجفاف المديدة إلا صحراء قاحلة، دون حصص من مياه النهر المخصبة.

قد تجعلنا بعض الأوصاف لمصر نعتقد بأن نهر النيل عند فيضانه يروي هذا الإقليم جميعه ؛ بينما تحدث هذه الفيضانات في الواقع على ضفاف النهر فقط، وبالتالي فإن التفاوت الضروري للأراضي يمنع الماء من الانتشار إلى داخلها. ويبقى جزء كبير من البلاد بلا زراعة. إن لم تسد الزراعة هذه الفروقات وترفدها بأعمال لا تحصى من القنوات والخزانات، التي تتلقى المياه حينما يبلغ النيل ارتفاعاته القصوى، وتحتفظ بها لأطول وقت تحتاج فيه هذه الأراضي للري.

لذلك فإن فن الري الذكي هو الأمر الأهم في زراعة المصريين. وغالباً ما يتوافر

الماء الذي يحتاجه المزارع في قناة تنخفض أكثر من منسوب الأرض التي يرغب في ريها، وبالتالي يتعين رفع منسوب المياه حتى تصل إلى مستوى ارتفاع الأرض التي يتعين ريها، ومن ثم توزيعها وفق احتياجات المزروعات، كما أن أساليب الري عند الفلاحين تنحصر في صنع معدات لرفع المياه، وفي شق قنوات صغيرة، معدة بصورة سليمة لكي تعمل على جريانها بالتساوي.

تكون المعدات عادة في منتهى البساطة ؛ عبارة عن عجلة أو دولاب مزود بعدد من الجرار، هذه هي في الواقع آلية عمل (الناعورة) فالنواعير الكبيرة تديرها الثيران، أما الصغيرة فتدار يدوياً. لذا من الصعب على المرء أن يفهم لماذا امتدح المصريون كثيراً لابتكارهم معدات بارعة، وهم اليوم ليسوا مخترعيها وحسب بل من مستخدميها أيضا، فقد أوجدوا هذه المعدات المستخدمة منذ أزمنة سحيقة في القدم، وهم يتبعون اليوم طريقة استخدامها حرفياً من دون تفكير.

إن معدات الحراثة لديهم سيئة جداً، فالمحراث التي يسمونها محراة ليست أفضل حالاً من التي يستعملها العرب، وستسنح لي الفرصة للتحدث عنها. أما من أجل تسوية الأرض فهم يستخدمون عوضاً عن المشط الزراعي، شجرة أو ألوحاً سميكة تجرها ثيران رُبطت بها ببعض الحبال ؛ يقف السائس على هذه المعدة الجميلة، فالفلاح المصري لا يحب السير على قدميه.

أما القمح فهم يقومون بدرسه كما كانوا يفعلون قديماً، ويستعينون بثيران تدوس السنابل وهي تجر معدة ثقيلة، لكنها ليست دولاباً حجرياً كما في جزيرة العرب، وليست لوحاً مزوداً بالحجارة ذات الحواف القاطعة، كما هو متبع في سوريا، وإنما هو نوع من الزلاجات المؤلفة من محادل أسطوانية ثلاثة مزودة بقطع من الحديد تدور على محور مشترك. يختار كل فلاح في الريف أرضاً مستويةً، وينقل إليها سنابل القمح على الحمير أو على الجمال.

تُربط الزلاجة بثورين وترفع من وقت إلى آخر ويسيرهما سائس يجلس على المعدة

بشكل مستمر على سنابل القمح الممدودة، بهذه العملية يُطحن القش، وعندئذ يذري الفلاح الكل عكس اتجاه الهواء الذي يذهب بالقش ويترك حبات القمح في مكانها. وهذه الطريقة لدرس السنابل طويلة وغير سليمة، فهي تتلف القش وتفقد القمح جودته.

لم أر في مصر عربة حمّالة أولاً: فهم ينقلون كل شيء على ظهور الحمير أو الجمال. وعندما طرح موضوع تنظيف قناة القاهرة، كان هناك فلاح مصري يجعل اثنين من الثيران يجران على الأرض اليابسة نوعاً من الدلو المفتوح فإذا ما امتلأ، كان ينقله إلى الضفة. أما في المدينة، حيث لم يكن قاع القناة جافاً، فقد كانوا يرمون غبار الشوارع على الطين، وكانوا يضعون بأيديهم هذا الخليط في سلال و يحملونها على ظهور الحمير لنقلها إلى نواحي المدينة، ها هي إذاً صناعة المصريين الماهرة التي طالما تم امتداحها.

ولم أر أيضاً أية طاحونة مائية أو هوائية. لكن توجد بعض الطواحين الكبيرة التي تتحرك بربط ثيران إلى عمود دوار، هو محور عجلة كبيرة. ولكي يطحن عامة الناس القمح فليس لديهم سوى طواحين يدوية من أبسط الأنواع وهي تستخدم أيضاً لجرش حبات الفول، وهي الغذاء المعتاد للحمير.

ولا تستخدم قوة عناصر الطبيعة في أية معدة أخرى، فالثيران تعطي الحركة الضرورية لمعاصر الزيت، والزعفران وغيره. ومن ضمن مختلف الصناعات، تستحق أمكنة تحضير هذا العقار الأخير شيئاً من الاهتمام: ويبدو أن أساليب المصريين تعطي للزعفران لوناً فاقعاً أكثر مما يحصل عليه في أي مكان آخر في العالم.

الفصل السادس

حرفة تكرير ملح النشادر وحرفة تفريخ الدجاج

بما أن مصر تخلو من الغابات فيضطر السكان لحرق روث الحيوانات الداجنة، وتوقد النار بصورة رئيسة باستخدام روث الحمير وبعر الجمال فهما الأكثر شيوعاً ووفرة. تذهب الفتيات الصغيرات لجمع الروث من الشوارع و الطرقات الرئيسة، ثم يُخلط مع التبن المكسر والمتبقي بعد درس القمح، ويصنع الخليط أقراصاً، وتوضع بجانب الجدران أو في منحدر المرتفعات المجاورة لتجف تحت أشعة الشمس.

يقيم عامة الناس عادة في غرف مقببة بالآجر غير المحروق. و في الشتاء تُحرق الأقراص ومعها القليل من التبن، أو بعض سوق النبات، للتدفئة أو لتحضير الطعام. وينتج عن هذا الاحتراق التصاق طبقة من السخام الغني جداً بالأملاح في السقف المقبب: ويباع السخام للتجار الذين يحكمون على جودته بتذوق طعمه ويستعملوه في تحضير ملح النشادر. وتختلف طبيعته عن طبيعة السخام الناتج عن احتراق الخشب اختلافاً كلياً. وقد كان هناك اعتقاد سائد مفاده أن مصر تنفرد بإنتاج ملح النشادر، ثم ساد اعتقاد آخر بأن هذا الملح لا يمكن إنتاجه إلا من روث الجمال. لكن في الواقع ينتج عن احتراق روث الخيل والحميروالخراف والجمال، سخام له نفس جودة ما يمكن إنتاجه في بلدان أخرى من حرق الأخشاب.

ومنذ أن عُرفت طبيعة وأصل ملح النشادر معرفة جيدة، قام العديد من الكتّاب بوصف الطريقة المستخدمة في مصر لتكريره انطلاقاً من السخام. ولا يجدي نفعاً إعادة الوصف في كل تفاصيله. وسأكتفي بالاشارة إلى أن هذا التكرير يتم في دوارق زجاجية ثخينة محدبة الشكل، توضع في فرن يُحمى بواسطة احتراق الروث. ويُعمل على حفظ حرارة متماثلة فيه ثلاثة أيام بلياليها، ويجب أن تكون الحرارة عالية لتحويل الطين الغضاري إلى زجاج، وهو ما يجب فعله لطلي الدوارق به كي تصبح مقاومة لحرارة الفرن العالية، وعندما يبرد الفرن تكسر الدوارق ليؤخذ الملح المتجمع في أعناقها.

تحدثت بعض التقارير عن مهنة تفريخ الفراريخ وكأنها اختراع فائق للطبيعة، وعملية مفيدة للغاية. ويبدو أن المصريين قد أهملوا بشدة هذه المهنة فمن المحتمل أنهم لم يجدوها نافعة كما افترضوا فيها.

ولا نجد إلا في القاهرة حاضنات مهيأة لهذه الحرفة وهي تعود بملكيتها للباشا. ولا يُعمل فيها في أشهر الصيف، ذلك أن الدجاج المزعوم لا يبيض في الصيف بنفس الجودة التي يبيض فيها في الشتاء. وفي الحقيقة فإن بعض الخواص يحملون البيض إليها ويدفعون لمن يقوم عليها سعراً يُتفق عليه بالنسبة لكل مائة بيضة، ويلزم القيّم على تفقيس البيض، بإظهار البيض الفاسد الذي لم ينجح تفقيسه. لكن يبدو لي أن عدد البيض المحضون بشكل اصطناعي لم يكن عدداً كبيراً.

أما الحاضنات فهي عادية ولا تسترعي الانتباه. وتتألف الحاضنة الكبيرة من عدة حاضنات تتوزع في طابقين، يوضع البيض على القش ويقلب عدة مرات في الليل والنهار. و تهدف العملية إلى حفظ حرارة معتدلة ومستمرة ومنتظمة، وهذا ما تؤمنه لنا مسألة انتقال الحرارة في أروقة المهجع، حيث توجد على طوله فتحات الحاضنات الصغيرة. يبدأ العمل بتسخين الحاضنة الكبيرة بإحراق الروث، ويُحفظ على درجة حرارة تلك بإشعال مصابيح في الأروقة. ولا يعرف القيم على الحاضنة قياس الحرارة إلا بمقارنتها مع حرارة الحمامات والتي يفترض أن يكون لها الحرارة ذاتها. عندما تفقس الصيصان. توضع في مساحة مربعة صغيرة جداً تتصل بالحاضنة، لتنعم الصيصان بنفس الحرارة التي كان سينعم بها تحت ريش أمه. ثمن الصيصان بخس، وذلك أنه يعد بحياة قصيرة. وما بدا لي فريداً ومتميزاً في هذه الحاضنة، أنها طمرت بالكامل في ما يشبه التل، وما المداخن والمتنفسات إلا حفر في الأرض، وتدخل إليها وكأنك تدخل إلى مغارة. وقد قال لي بعض ذوي الاطلاع، إن تلك الوضعية كانت ضرورية جداً للحصول على حرارة معتدلة ومنتظمة.

الفصل السابع
التجارة في مصر

إن مصر وبالرغم من أنها فقدت ألقها الغابر إلا أنها ما زالت تقدم حتى اليوم المنتجات الوفيرة التي تمثل مادة تجارتها الواسعة. وبالتالي فإن موقعها المتميز يجعل منها محطة وممراً للبضائع الأجنبية. فمصر تتصل عبر البحر الأحمر بالجزيرة العربية وبلاد الفرس وبلاد الهند، وتتصل من جهة وبواسطة نهر النيل بالنوبة والحبشة، ومن جهة أخرى بأوروبا وبلاد البرابرة وسوريا وكل البلاد الخاضعة للباب العالي. إلى جانب هذه العوامل الملائمة في الملاحة، ومكانتها بين الشعوب التي اعتادت على المتاجرة بواسطة القوافل، مما جعلها المركز الطبيعي لتجارتهم.

وهذه العوامل مجتمعة جعلت من القاهرة مكاناً لإقامة العديد من التجار الأغنياء، الذين يتاجرون بطريقة مختلفة عن الطريقة المتبعة في أوروبا. وبسبب عدم توافر المؤسسات الخاصة التي تسهل الاتصالات المنتظمة بين العملاء التجار، يضطر التجار للقيام بأسفار مستمرة للحصول على البضائع، أو لإرسال خدم أو عبيد مهرة بدلاً عنهم.

يعوض تعويضاً جزئياً هذا النقص، وهي عادة متبعة بصورة عامة في الشرق، ينزل التجار القادمون من ذات البلد والذين يحملون نفس البضائع، في خان أو وكالة محددة، على نحو نعرف فيه دوماً أين يوجد ما نبحث عنه، كما ويقوم هذا النظام بتسهيل المعاملات.

فخلال إقامتي القصيرة في مصر لم تتح لي الكثير من الفرص لاكتساب معلومات وافرة حول هذه المواضيع. وقد قدم لي تاجر فرنسي مطلع بعض الإيضاحات حول التجارة الداخلية والخارجية في مصر.

يجب الانتباه أولاً إلى أن عدة أنواع من التجارة الداخلية، كتجارة الجلود والأرز والسنا، قد عانت من الخسائر بسبب تصرفات الحكومة السيئة. وإبراهيم الكخيا

الذي حكم وحده تقريباً مصر على مدى عشرة أعوام. قرر احتكار هذه الفروع التجارية فقام أصحاب المزارع والمحتكرون ومديرو الحسبة، برفع الأسعار لدرجة كسدت معها البضائع.

تشكل الجلود الخام سلعة تجارية هامة، ويصدّر منها سنوياً ما يزيد على ٨٠,٠٠٠ من جلود الجواميس والجمال والثيران والأبقار. يصدر منها تقريباً ١٠,٠٠٠ جلد إلى مرسيليا، وما يربو على ذلك العدد إلى إيطاليا. بينما تنقل جلود الجواميس الأسمك والأثقل من غيرها إلى سوريا. وبما أن مصر الشمالية تتمتع بمراعٍ خصبة، تعتبر جلود مواشيها المعلوفة بشكل جيد، جلوداً من الدرجة الأولى. تذبح كمية هائلة من الماشية في أيام عيد الأضحى، أي في الوقت الذي يجتمع فيه الحجاج في مكة المكرمة.

يبلغ محصول الزعفران نحو ١٨٠,٠٠ قنطاراً من هذا العقار عندما يُحضر. وتذهب الحصة الكبرى منه إلى مرسيليا وإيطاليا بينما يذهب الباقي إلى سوريا والجزيرة العربية. ويعتقدون أن الزعفران الذي تنتجه ضواحي القاهرة هو الأفضل على الإطلاق. بينما لا يفضلون الزعفران الذي ينتجه الصعيد المصري.

ويمثل تصدير الكتان كباقي الأقمشة بنداً هاماً في التجارة. فيصدر إلى سوريا والجزيرة العربية وتركيا وحتى إلى مرسيليا وليفورنو، ويُصدّر ما يتبقى من القطن بعد استهلاك البلاد الضخم، إلى فرنسا وإيطاليا. ولا يعتبر القطن هاماً فهو لا ينمو إلا في الشمال المصري، كما ويصدر السكر أيضاً لأن قصب السكر ينمو في الصعيد المصري، ويكرر بطريقة سيئة جداً جعلت أسعاره لا تزيد عن أسعار السكر الأمريكي.

كان بوسع الأرز أن يشكل مادة هامة للتصدير لو كانت تجارته حرة، إلا أنها محتكرة، ولا يجرؤ الأوروبيون على شرائها إلا من دمياط. حتى أنهم زعموا أنه في وقت ما، صدر الأمريكيون إلى الإسكندرية أرز كارولينا وهذا ما أدى إلى تراجع زراعة المصريين تدريجياً.

ملح النشادر والشمع الأصفر والسنا الذي يأتي جزء منه من الصعيد المصري، مواد

لا تحمل للبلاد إلا القليل من الثراء. ويبدو أن الحكومة تستفيد منها أكثر مما يستفيد السكان، بسبب الضرائب التي لا تتناسب مع قيمة هذه البضائع.

وبمقابل هذه المنتجات التي تمد بها مصر الدول الأخرى، تحتاج إلى بضائع أخرى أجنبية. ويصدر الفرنسيون إليها كمية كبيرة من أقمشة اللانجدوق، وتستهلك منها سنويا ٨٠٠ بالة، وذلك أن سكانها يحبون ارتداء الحلل القشيبة في عيد الفطر، وقد اعتاد الناس على ارتداء ملابس جديدة في كل عام حتى الخدم أيضاً. وحده أمير الحج في قافلة مكة المكرمة، يحتاج إلى ٧٠ بالة، فعليه تقديم هدايا من الثياب للعرب الموجودين في طريقه. وللكثير من الأشخاص في مكة المكرمة. ولا يرتدي المصريون ثياباً أبداً في منازلهم، وهم يفضلون إذا أرادوا ذلك، الأقمشة الغالية التي تنتجها منذ بعض الوقت جزيرة سيو على ما تنتجه فرنسا وإيطاليا.

وتصدر البندقية ومرسيليا أكثر من ١,٠٠٠ بالة من الورق، يبقى قسم منها في مصر والقسم الآخر يذهب للجزيرة العربية، ويجب القيام بصقل كل الورق، لأن الشرقيين يستخدمون أقلاماً وحبراً سميكاً. ويستخدم الورق بكثرة للنوافذ أيضاً، فإننا قل ما نرى في بلد حار كهذا ألواحاً زجاجية، كما يصدر الأوروبيون أيضاً القرمز التي يبقى منها ٨٠ برميلاً في مصر ويؤخذ ٢٠٠ برميل إلى الهند. ولو لم نكن نعرف سياسة الهولنديين، لتملكتنا الدهشة من رؤية المصريين يضطرون لتأمين بضائعهم من التجار الأوروبيين، الذين يبيعونهم الفلفل والقرنفل والزنجبيل إلخ... ولكان من الطبيعي أن نرى مصر تتزود من منتجات حرفنا وصناعاتنا التي تنقصها، كالإبر والسكاكين والرصاص والزئبق، إلخ.

ويمكن اعتبار القهوة بضاعة مستوردة كما أنها بضاعة استهلاكية، كونها المشروب المفضل لدى الأتراك، فقد تضافرت الجهود للحصول على أفضل الأنواع وأجودها. ولهذا فقد منع استيرادها من أمريكا، وتصدير قهوة اليمن، ويُتملص ويُتحايل على هذه المراسيم بتقديم هدايا قيمة لكبار موظفي الجمارك، على نحو يحصل فيه الأوروبيون من مصر سنوياً على كمية كبيرة من قهوة الشرق. ولا يدخل البن الأمريكي أبداً إلا بكميات قليلة، وفقط ما يكفي لبعض التجار لغش القهوة اليمنية.

ومنذ وقت قريب كان الناس في الصعيد المصري لا يشربون إلا القهوة المستوردة من جزر المارتينيك، لكن غلاء ثمنها خلال الحرب الأخيرة، دفع بالمصريين إلى استيرادهم القهوة الممتازة مباشرة من الجزيرة العربية عن طريق القُصير، ويشترونها حالياً بأسعار منخفضة أرخص من سعر القهوة الأمريكية.

ومن بين البضائع التي تجتاز مصر، الصمغ العربي الذي يعتبر من أهمها، ففي أكتوبر (تشرين الأول) من كل عام يأتي مركبان أو ثلاثة مراكب صغيرة من عرب البر وجبل سيناء حاملين معهم ما يقارب ٧٠٠ قنطار. وهؤلاء العرب يتمتعون بمهارة فائقة في غش بضائعهم لا بل إنهم يجبرون التجار المسلمين والذين يحتكرون هذه التجارة، على شرائها من دون أن تفحص، حتى لا يتعرضوا للعقاب والمساءلة، أو لأنهم يمقتون المدن وينفرون منها، ولا يدخل أولئك العرب إلى القاهرة أبداً، فيخيمون على مسافة نصف فرسخ من أسوارها، ويضطر التجار للذهاب إليهم للمتاجرة معهم وهذا ما يتم عبر تبادل البضائع فقط، ويأخذ العرب بدل المال، ثياباً وسلاحاً وما يحتاجونه في الصحراء.

كما يأتي شهري أبريل ومايو (نيسان وأيار) من كل عام، عدد كبير من القوافل من داخل أفريقيا، تحمل معها ثلاثة أنواع مختلفة من هذا الصمغ. ويستورد الصمغ أيضاً من الحبشة عن طريق جدة والسويس، وبالرغم من أنه أقل جودة إلا أنه يباع في أوروبا كلها والتي تشتري سنوياً ما يزيد عن ٥,٠٠٠ قنطار من كل أنواع الصمغ.

وتحمل القوافل الأفريقية هذه الكثير من منتجات بلادها، كالعبيد وأنياب الفيلة وريش النعام والتمر الهندي وتبر الذهب. وتأخذ مقايضة الأقمشة المصرية واللؤلؤ التقليدي والمرجان والأسلحة وحتى الألبسة الجاهزة والكاملة التي يصنعها سكان القاهرة وفق الأذواق الأفريقية. ولهذا السبب الأخير، صُنعت كمية كبيرة من الأقمشة الخشنة في مصر.

راقصات وموسيقيون مصريون

القسم الرابع

عادات الشرقيين وتقاليدهم بوجه عام

والمصريين بوجه خاص

الفصل الأول

سكان القاهرة وضواحيها

يشكل العرب وأتراك المناطق العثمانية غالبية سكان القاهرة. ونجد فيها أيضاً المغاربة أو العرب البرابرة وأفريقيين آخرين وفرس وتتار. كل هؤلاء المسلمين هم من السنيين، كما أن معظمهم من أتباع المذهب الشافعي.

ويأتي بعد المسلمين عدداً الأقباط وهم يقيمون في أحياء لهم بالكامل وفي شوارع كبيرة جداً، ولهم عدة كنائس في القاهرة كما في ضاحيتها مصر العتيقة، ويقيم بطريركهم في القاهرة أيضاً.

ويمثل اليهود بعد المسلمين والأقباط الجالية الأكبر عدداً. ويوجد فيها أيضاً فريسيون أو قراؤو التلمود الذين رغم قلة عددهم لهم كنيس خاص بهم، أما التلموديون فهم متفرقون وذوو نفوذ وقد احتكروا منذ زمن طويل أعمال الجمارك وهذا ما يمدهم بالسلطة والغنى. وفي حكومة مصر كان من السهل بالنسبة لهم الحصول على حماة ثابتين أكثر من باقي المناطق التركية، حيث يتعلق كل شيء بأهواء ومزاج الباشا الذي يخاف على منصبه، أو بإرادة كبير الجمارك الذي يقيم في القسطنطينية. والبرهان على ما يتمتع به اليهود من احترام وثقل في ظل الطبقة الأرستقراطية المقيمة في القاهرة، هو أن الجمارك تعطل يوم السبت ولا يمكن لبضاعة ما أن تمر في هذا اليوم، بالرغم من أن تلك البضائع تعود بملكيتها لأشخاص مسيحيين و مسلمين.

وليس لليونانيين إلا كنيستين في القاهرة، يترأس إحداها بطريركهم في الإسكندرية، ويترأس الأخرى مطران جبل سيناء. ويوجد عدد قليل من الأرمن ولهم كنيسة واحدة رائعة. ويوجد من بين الأوروبيين عدد من التجار الفرنسيين والإيطاليين في حين لا يوجد أي هولندي، بيد أن لهولندا قنصل كما أن هناك قنصلاً لفرنسا والبندقية.

وإن خلت القاهرة يوماً من التجار الأوروبيين فإنها لن تخلو من رجال الدين من الطائفة الكاثوليكية. ونجد فيها آباء يسوعيين وكبوشيين وفرنسيسكان والمبشرين.

ويسعى كل هؤلاء الرهبان لكسب بعض المهتدين وللنجاح على طريقتهم في رد بعض المسيحيين الشرقيين إلى الكاثوليكية. وتتسامح الحكومة بكل طيبة خاطر مع أولئك الرسل الحديثين، بسبب ما تفضه من النزاعات التي تتسبب بها تلك الردات بشكل عادي بين المرتد وأعضاء الطائفة التي ينفصل عنها. وغالباً لا يكتفي الباشا بفرض غرامة على الطرفين بل إنه يعود إلى جذور النزاع، ويفرض على الرهبان مبالغ طائلة. ويقطن ضواحي القاهرة بشكل خاص الأقباط، ولكن جزءاً كبيراً من قاطنيها هم من العرب المقيمين أو الرحل، مجموعتان سأتناولهما في تفصيل أكبر.

الفصل الثاني

الأقباط

إذا كان بإمكان الأصول القديمة والأجداد الشهيرين إعطاء قيمة ومزية، لكان الأقباط شعباً يستحق كل تقدير واحترام. فهم ينحدرون من المصريين القدماء، ولهذا السبب يسميهم الأتراك من باب التهكم نسل فرعون. لكن مثل هذا النسل المنحط والبليد والجاهل البائس، لا يشرف ملوك مصر القدماء

هذا الشعب الذي عاش منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام تحت سيطرة العديد من الغزاة الأجانب قد كابد بالضرورة صروف الدهر، وفقد تقاليده ولغته وديانته، حتى أنه فقد شيئاً من كيانه. ولم يبق منه إلا عدد قليل مقارنة بالعرب الذين ملؤوا المنطقة. ويمكن الحكم على تضاؤل عدد الأقباط من خلال عدد مطارنتهم الذي بلغ عددهم أيام الفتح ٧٠ مطراناً، ولم يبق منهم اليوم إلا ١٢، يقيم معظمهم في الصعيد المصري بعيداً عن مركز الغزو، ويبدو أن القدماء قد فضلوا اللجوء إليه أي إلى الصعيد.

عرف عن المصريين وفي كل الأزمان أنهم شعب حزين، متصلب الرأي ويميل نحو الاعتقادات الباطلة والخرافة. وتحتفظ ذريته وتتشبث اليوم بالاعتقادات التي وصلت إليهم من اليونان. ويكره الأقباط الكنيسة الكاثوليكية كرهاً شديداً لا يمكنهم كبته. فبطريركهم هو رئيس كنيسة الحبشة أيضاً، ويرسل إليها مطراناً ليترأس فيها رجال الدين.

ولقد كان من المهم والمثير اكتشاف ومعرفة اللغة القبطية القديمة والحقيقية التي تدعى لسان فرعون. نجد حتى على المومياء في مصر، كتابات من أحرف هجائية تختلف اختلافاً كلياً عن الكتابات الهيروغليفية، الأحرف إذا ما فُكت رموزها، لقدمت إيضاحات حول التاريخ القديم وحول شرح الكتابات الهيروغليفية. لكن لغة المصريين القدماء هذه تبدو قد ضاعت بالكامل. عمل البطالسة على إحلال اللغة اليونانية مكان لغة أسيادهم الحديثين، ومنع الأباطرة اليونان المقيمون في القسطنطينية التحدث باللغة

القبطية تحت طائلة الحكم بالإعدام، كما وأجبروا المصريين على تبني اللغة اليونانية بدل اللغة الفرعونية، وقد تشكلت اللغة القبطية الحديثة من هذا المزيج المصري واليوناني، واستخدمت في كتابة الكتب المقدسة لهذا الشعب. وأجهز السلاطين المصريون على هذه اللغة المنحلة بمنع التحدث باللغة القبطية تحت طائلة الحكم بالإعدام أيضاً، وإحلال اللغة العربية مكانها والتي هي لغة الأقباط اليوم. ما زالت الطقوس تقرأ حتى اليوم باللغة القبطية الحديثة التي لا يفهمها الشعب التي تشرح في الحال باستخدام ترجمة قديمة عربية مكتوبة إلى جانب النص. حتى الكهنة لا يفهمون لغتهم المقدسة ويقرؤون بالكاد حروفها.

تعرّف السيد فورسكال إلى رجل قبطي مهذب وعالم، يدعى إبراهيم عناش، وكان ينسخ كتب الطقس، ويكسب من تلك المهنة نصف أكو كل ثلاثة أيام. وقد رأى بين يدي هذا العالم المصري، قاموساً فيه عدد كبير من كلمات اللغة القبطية القديمة والحقيقية، مشروحة باللغة العربية. أخبر الرجل السيد فورسكال بأنه يوجد حتى الآن في عدة أديرة في الصعيد، عدد لا يستهان به من الكتب القبطية، ولكنه لا يعلم أي شيء عن محتواها وعن المواد التي تعالجها الكتب. ويخبئها الرهبان بعناية وحرص خشية حسب ما يقولون، أن يصدرها الكاثوليكيون ويطبعونها في أوروبا، بعد أن يحرفوها، ولهذا السبب بقيت تلك الكتب مجهولة حتى اليوم. وبإقناع أولئك الكهنة أننا لسنا من أتباع البابا، وإعطاءهم بعض المال للتخفيف من حدة وطأة فقرهم المدقع، قد يكون من الممكن على الأقل الحصول على نسخ من تلك الكتب الدفينة.

الفصل الثالث

العرب في مصر

يبدو أن العرب قد غزوا وسكنوا مصر في فترات سحيقة متباعدة. ونجد دلائل تشير إلى وجودهم القديم في هذه المنطقة. ومهما يكن الأمر في تلك العهود الموغلة في القدم، فمنذ أن دخل العرب مصر، فإن أكبر عدد من سكان هذه البلاد هم من العرب. يقيم قسم منهم في المدن ويعمل قسم آخر في الزراعة ويقيم في القرى، ويجوب قسم ثالث في الأرياف مع قطعانه ويقيم في الخيام التي ينصبها.

وتعاملي مع العرب بصورة عامة أتاح لي الفرصة للحديث عن أصولهم المختلفة وعن عاداتهم وتقاليدهم، ومن المثير أن نشير هنا إلى بعض خصائص الفرع الذي يقيم في مصر.

لا يتميز العرب الذين يقيمون في المدن عن باقي سكان المدن الشرقية، أو عن سكان مدن الجزيرة العربية بشكل خاص، والحال نفسه فالقروي العربي في مصر، يشبه قرويي باقي البلدان الشرقية. وأظن أني لاحظت أن ازدهار الأجانب المقيمين في مصر يتراجع، والخيول العربية الأصيلة تفقد عنفها وشجاعتها. وغدا اسم الفلاح المصري لدى العرب مكروهاً وغير محبب.

أما البدو الرحّل فهم أحرار وشبه مستقلين بل إنهم حلفاء الطبقة الأرستقراطية المصرية حلفاً قبلياً أكثر منه حلفاً شخصياً، هؤلاء البدو يشكلون الفرع المتميز والمرموق من ملتهم. ينقسمون إلى قبائل يرأسها زعماء وراثيون هم الشيوخ الذين يتبعون الشيخ الأكبر الذي يحكم عدة قبائل. يؤدي البدو ضريبة معينة للحكومة وبذلك يجرؤون على أخذ قطعانهم إلى المراعي في مصر، وغالباً ما يبالغون في ذلك الإذن ويقومون على حد سواء بنهب الفلاح الذي يحرث المروج التي يخيمون فيها، وعابري السبيل الذين قادهم قدرهم للوقوع بين أيديهم. ويتعمدون التدخل أيضاً بالنزاعات المتكررة بين أحزاب الحكومة العسكرية. وإن شاءت الحكومة معاقبتهم أو إخضاعهم للقانون، دافعوا عن أنفسهم وانسحبوا إلى البوادي، ليعودوا منها فيما بعد وقد أفلتوا من القصاص.

غالباً ما يعتلون ظهور الجياد مسلحين بالرماح على الأقل، ويتسلح من هو أغناهم ويتنقلون دوماً من جهة إلى أخرى، شغلهم الشاغل العناية بمواشيهم والسباقات للتسلية ولدفع الضجر عنهم، ويمكن أن نكوّن فكرة عن مظهر ولباس هؤلاء العرب من خلال الرسم ٣.

ويدفعهم الاستقلال إلى الفخر لا بل إلى الوقاحة، ومن المحتمل أن تكون حياة البطالة والاضطراب بالإضافة للفقر الناتج عنهما، قد حدا بهم نحو السرقة والنهب. وقد أتيحت لي الفرصة كي أسوق أمثلة عن ميلهم في قطع الطرق والسلب في هذه المنطقة وشتم عابري السبيل. وجدنا أنا والسيد فورسكال برهاناً جديداً؛ ففي رحلة قمنا بها إلى الأهرامات وبما أننا ذهبنا بمفردنا من الجيزة، التقينا بدويين على ظهري جواديهما فطلبنا منهما اصطحابنا وحمايتنا. وما إن وصلنا إلى سفح الأهرام حتى رأينا عربياً يهرول نحونا، كان شيخاً شابًا أظهر في البداية استقامة وشرفاً، لكنه سرعان ما غير لهجته وقام بنصب رمحه أمامنا ومنعنا من مغادرة المكان قبل إن نعطيه مالاً، وعندما رفض السيد فورسكال طلب الشيخ الوقح، نزع الشيخ عمامته وضغط ببندقيته على صدره وتدخلت للدفاع عن صديقي فترك البدويان الشيخ يفعل ما يحلو له، وذلك إما من باب الاحترام له أو من باب الغدر والخيانة الفطرية لديهما، وما كان علينا في نهاية المطاف إلا النزول عند طلب هذا اللص. واحتطنا للأمر وعدنا مرة أخرى بصحبة جماعة أكبر وأكثر عدداً إلى الأهرام، لكن ذلك الاحتياط لم يمنع هؤلاء العرب المسرعين في سرقة بعض حاجيات كل من كان معنا. لقد غدت لغة أولئك الأعراب بسبب إقامتهم في مصر اللغة الغالبة للسكان المصريين، بالرغم من أنها كانت لغة فئة قليلة من أناس ومنذ زمن طويل، إلا أنها فقدت الكثير من فصاحتها ونقاءها في أفواه المصريين والعرب الرحل. وقد ترك السيد فورسكال لائحة طويلة بالكلمات المستخدمة في القاهرة، والتي تختلف اختلافا كلياً عن الكلمات التي تحمل الأفكار نفسها في اللهجة اليمنية. وهي لهجة منطقة لم تتأثر بالأجانب، واستحال أن يعبر إليها أي خليط. في حين شاب اللهجة في مصر تنوع بسبب سكانها ذوي الجنسيات المختلفة وبالتالي اللغات المختلفة أيضاً.

الفصل الرابع

ثياب الرجال في الشرق

يسود تماثل كبير وتشابه في الأعراف والتقاليد لدى الكثير من شعوب الشرق، الذين يعتنقون الديانة الإسلامية. وبدل أن أكرر ما في جعبتي حول هذا الأمر، أظن أنه من الأنسب معالجة بعض التفاصيل معالجة مباشرة، أكثر من الحديث حول كل ما هو شائع لدى كل هذه الشعوب، الأمر الذي ينطبق بالنتيجة على سكان مصر.

لدينا أوصاف رائعة للباس الشرقيين والبصمات الواضحة التي تميزه، الأوصاف الموجودة في كتاب (وصف أهل حلب) لالكسندر راسل هي أفضلها وأحدثها. إلا أننا إذا قارنا تلك السمات في كتاب روسل مع الثياب المستعملة حالياً في الإمبروطورية العثمانية ومصر، لوجدنا فيها فرقاً شاسعاً، ويحدث في تركيا ما يحدث في أوروبا، إذ تغير الأزياء وتقليد سكان الضواحي أزياء العاصمة وكبرى المدن.

فثياب الشرقيين التي لحظنا فيها تفرداً وتميزاً، تناسب أعرافهم وتلائم مناخهم. طريقة جلوسهم متربعين، تفرض عليهم ارتداء ملابس فضفاضة جداً وتجبرهم على احترام الأماكن المقدسة ومنازل الأشخاص المرموقين، يتركون أحذيتهم أمام الباب لذا فهم ينتعلونها بطريقة تسمح لهم بالاستغناء عنها في مثل هذه المناسبات. الطقس متباين شديد الاختلاف في الكثير من بلاد الشرق، وهو عرضة للتغيرات المفاجئة بين الحر والقر. لا يمكن للسكان في مثل هذا الطقس الاستغناء عن التزود بما أراه ضروريا لذلك أي ارتداء عدة طبقات فوق بعضها البعض، يسهل خلعها أو لبسها حسب ما يقتضيه التغيير السريع والمباغت في درجات الحرارة. الأتراك الذين يستوحون جزءاً كبيراً من أزيائهم من الشرق، يلبسون عادة قميصاً بأكمام واسعة جداً، وتحت القميص سروال كتاني يتصل بخفين من الكتان أيضاً، وبذلك يحتذون نعالات رقيقة للغاية. فوق السروال والقميص والحذاء يضعون الشكشير وهو سروال فضفاض جداً. وهي رقيقة مثل الأولى. وفوق الشكشير، يلبسون سترة تتدلى إلى ما تحت الركبتين، وفوق كل هذا

وذاك قفطان أو عباءة تصل حتى الأقدام. ولكي يستطيعوا السير بسهولة، يقومون بثني القفطان بواسطة حزام عريض يثبتون عليه الخنجر الذي يتسلح به الأتراك دوماً. وتحت القفطان يلبسون ثوباً أكمامه قصيرة جداً مبطن بالفرو شتاءً، وبدون الفرو في باقي الفصول. وغالباً ما يغطون كل هذه القطع بفرو آخر أو بعباءة كبيرة.

هذه الكمية الهائلة من الثياب هي ثياب باهظة الثمن لكل الناس وثياب تقف عائقاً في الأعمال والأشغال، لذا فهم يكتفون بالسروال المصنوع من التيل والقميص والعنتري والبنيش، أما الفلاح فيكتفي بالقميص والسروال. وثياب مؤلفة من كل هذه الطبقات ليست مريحة أثناء السفر، لذا يلبس الأتراك سروالاً عريضاً أزرق اللون، يخبئون تحته ثيابهم الطويلة. ويلفون أقدامهم بقطع من القماش، ويلبسون أحذية عريضة، وفي الواقع هي أحذية تعيق السير، لكنها أفضل من جواربنا لأنها تحفظ الدفء للأقدام.

أما لباس الشرقيين المسيحيين فهو يشبه إلى حد بعيد لباس الأتراك، إلا أنه يحظر عليهم استعمال الأقمشة المصبوغة بألوان فاقعة. فهم لا يجرؤون على انتعال أحذية جلدية صفراء، ويضطرون عند طلاء منازلهم باستخدام ألوان غامقة. بينما يسمح للمسيحيين الأوروبيين بانتعال أحذية صفراء وارتداء ألبسة من مختلف الألوان إلا اللون الأخضر المخصص للمسلمين، أمر فرضته العادة لا القانون.

والشرقيون جميعاً فيما عدا بعض رجال الدين المسلمين من فئة الدراويش والأولياء، يحلقون رؤوسهم، ولا يحتفظون إلا بخصلة صغيرة من الشعر. هذه العادة نبذها بعض الأشخاص في أوروبا، والتي ينسبون إليها حالات السكتات الدماغية التي كثرت عندنا، في حين لم تكن شائعة في زمن أجدادنا، هذه العادة يبدو أنها تناسب ولا تزعج الأتراك الذين لا يتعرضون البتة للسكتات الدماغية. ومن الممكن أنهم في منأى عنها لأنهم يغطون رؤوسهم جيداً، فالرأس الحليق يتطلب على الأقل قبعة دافئة، والتي يبالغ فيها عند هذه الشعوب لدرجة يبدو فيه هذا الإفراط متعارض تماماً مع درجة

الحرارة العالية في البلاد الحارة. ولهذا السبب أيضاً فهم لا يكشفون عن رؤوسهم أبداً كدليل عن الاحترام والتقدير، ويجدون طريقتنا في السلام والتحية غريبة ومضحكة.

وينتشر تنوع واسع في طريقة تغطية الرأس عند الشرقيين، الذي لا يتماشى للوهلة الأولى مع التكرار الذي ينسب إلى هذه الشعوب، لكن هذا التنوع لا يتعلق بالأزياء والموضة، فالقبعات المختلفة تشكل علامة مميزة للأمة والدولة ووظيفة الأشخاص الذين يعتمرون بها. كما تلعب نفس الدور بزة الخدم الرسمية، فكل طبقة لها قبعتها الخاصة التي تدل على وظيفتها وعملها، لذا فمن المفيد لدى أناس تجهلهم، أن تجد علامات خارجية تدل فوراً على حال من تلقاه.

أشكال هذه القبعات المتنوعة والمختلفة التي يضعها الأوروبيون كلها تحت اسم عام هو العمامة، يمكن لها أن تنحصر في ثلاثة أشكال رئيسة: الأولى قبعة عالية جداً من النسيج المبطن بالقطن التي غلفتها من الأسفل قطعة من الموسلين الأبيض، هذه القبعة المسماة قاوق هي في الواقع قبعة التركمان المزينة، ولذا يجب اعتبارها زياً تركياً. والأخرى قبعة من النسيج أصغر وأقل ارتفاعاً من السابقة التي غلفت أيضاً من الأسفل بنسيج، وتسمى الشاش أو العمامة وهي غطاء الرأس المتعارف عليه عند العرب الذين يلبسونها في أرجاء آسيا الأخرى. أما الثالثة فهي أيضاً قبعة من النسيج المبطن بالقطن متباينة الارتفاع، التي غلفت أيضاً من الأسفل بفرو خروف بدلاً من القماش، وتسمى قلبق ، أصلها من التتار بيد أن قسماً كبيراً من الشرقيين المسيحيين يرتدونها.

يرتدي كل الكبار في تركيا قاووق من النسيج الأصفر التي غلفت بقطعة من الموسلين الرائع الأبيض. الذين يرون أنهم من الشرفاء والمنحدرون من سلالة النبي محمد ورغم أنهم قليلو الاعتبار والتقدير ولا يقبلون أبداً في الوظائف، إلا أنهم يتميزون بنسيج أخضر اللون يلفون به قاووق أو العمامة. أمّا الأقباط والمسيحيون الذي لا يلبسون القلبق، فيضعون قماشا مخططاً أبيض وأزرق اللون حول قاووق وهو عادة من النسيج الأحمر. يقلدهم في هذا الزي الأوروبيون الراغبين في ارتداء زي البلاد: حتى أن

رجال الدين باستثناء الرهبان المتزنرين والكبوشيين الذين يرتدون في كل الشرق ثياباً رثة قذرة، وهذا أمر يستاء منه المسلمون استياء شديداً فهم يحبون النظافة ويجعلونها واجباً عليهم.

الفصل الخامس

أزياء النساء

يصعب على الرحالة في الشرق أن يعرف ملابس النساء أكثر من معرفة ملابس الرجال. ومن المستبعد أن يدخل غريب إلى النساء، وهو لن يجرؤ وحسب أن يرى امرأة مسلمة في بيتها بل يستحيل عليه أن ينظر إلى ملابسها في الشارع لأن المسلمين يعتبرون النظر بتمعن إلى امرأة في الشارع إساءة في الأدب والتهذيب لا بل إنه إهانة، وبالتالي فهن يبالغن في تغطية أنفسهن عندما يخرجن لدرجة لا تجدي معها إرادتك في تمييز الأقسام المتعددة من ملابسهن. في القسطنطينية، وعندما تخرج النسوة إلى الشارع، يغلفن أنفسهن بطبقات عديدة من النسيج الأبيض، فلا ترى إلا عيونهن، تلك المومياء المتحركة تشبه العروس المصرية في اللوحة الخامسة. أما في القاهرة فالنساء يغطين رؤوسهن وجزءاً من أجسادهن بوشاح كبير أسود اللون، ويغطين ثيابهن الفخمة بغطاء من نسيج عادي، يخلعنه عندما يدخلن بيوت صديقاتهن.

وأعترف بجهلي بما أن الفرصة لم تتح لي لمشاهدة امرأة من الطبقة المرموقة، وأحيل القارئ لقراءة رسائل الليدي مونتاجو المشوقة، التي سنحت لها الفرصة بالدخول إلى أكثر من نساء، وبالتالي وصف سكانه، لقد كانت الوحيدة التي تمكنت من رؤية النساء المرموقات وكل ثيابهن. ويظن أن تلك المرأة قد بالغت في وصف جمال وفخامة وأدب وتهذيب النساء الشرقيات، إلا أنني أعرف من خلال ما لاحظته وما سمعته أن تلك الأوصاف صحيحة إذا كانت قد خصت بالدرجة الأولى ما يستحق المدح والإطراء، بينما لم يتحدث رحالة آخرون إلا عن عيوب تلك النسوة. ومهما تكن حقيقة تلك الروايات وصدقها، فيجب علي أن أكتفي بسرد ما رأيته من نساء الطبقات المتدنية، وبعض الملحوظات العامة.

ترتدي كل نساء الشرق سراويل في البلاد التي لا يرتدي فيها الرجال شيئاً. ويكتفي عامة الناس بارتداء سروال وقميص طويل من القماش الأزرق، لكن وبالرغم من أنهن

جميعاً وبلا استثناء مهما تكن الطبقة الاجتماعية التي ينتمين إليها، أنصاف عراة إلا أنهن محجبات.

ويبدو الوشاح هو القطعة الأهم في لباسهن، فهن يحرصن على ستر وجوههن. ولدينا أمثلة لا تعد ولا تحصى عن نساء عاريات فوجئن بحضور مباغت لرجل من الرجال، فأسرعن لتغطية وجوههن دون السعي لستر أجسادهن. لا يعطي الفلاحون المصريون قمصاناً لبناتهم قبل بلوغ الثامنة من العمر. و قد رأينا في كثير من الأحيان بناتٍ يركضن وهن عاريات، وعندما لاحظن قدومنا، لم تبق أي منهن مكشوفة الوجه كان في حوزتهن جميعاً وشاح. والوشاح نسيج طويل مستطيل الشكل مربوط على الرأس بحيث يغطي الوجه فيما خلا العيون. ويمكن أن نكوّن فكرة من خلال صور المرأة والبنت في الصورة رقم ٥.

في بعض المناطق وخاصة في سوريا، تلبس النسوة نوعاً من القبعات من الفضة أو الشبهان، تشبه المخروط، أو الصحن أو أي شكل آخر طريف. أما النساء العربيات في مصر والصحراء فيتزين بكثير من الزينة الخاصة، حلقات معدنية واسعة القطر في الأذنين وأحياناً في غضروف الأنف، وحلقات أخرى من المعدن نفسه فوق كاحل القدم وفي الذراعين على شكل أساور. وخواتم من النوع الرخيص، وقطع من المرجان المتدلية حول الوجه، وأطواق من شتى المواد حتى الرخيص منها. كما أنهن يربطن أحياناً في شعرهن المجدول أجراساً صغيرة، في حين تربطها الفتيات الصغيرات على أقدامهن. بل ويعتقد بعضهن أن الوشم الأزرق الذي لا يمحى يزيد من جمالهن. ويرسمن الوشم بإبر مؤلمة على الخدين والذقن وأجزاء أخرى من الجسم. كما تصبغ أخريات أيديهن باللون الأصفر وأظافرهن بالأحمر. معتقدات أنهن يحصدن من هذا التلوين جاذبية مغرية.

ولا يختلف لباس اليونانيات اختلافاً جذرياً عن لباس التركيات. وبما أن العديد من الأوروبيين تزوج من نساء من أصل يوناني، فقد سنحت لنا الفرصة أكثر من مرة لمشاهدة طريقة لباسهن، وبذلك يمكننا الحصول على بعض المعلومات حول أزياء النساء المسلمات من صفوة القوم.

ترتدي كل اليونانيات سراويل تصل حتى القدمين، ويلبسن أحذية كالرجال تقريباً، ويسرن أيضاً بخفين عريضين. ويضعن فوق السروال قميصاً من نسيج ناعم، وفوق القميص سترة مشدودة بإزار عريض جداً، وفوق السترة ثوب بأكمام قصيرة لا يتجاوز الكتفين إلا بمقدار ذراع. أما قبعاتهن فتختلف باختلاف الموضة، وتهتم هؤلاء النسوة بالقبعة اهتماماً بالغاً أيضاً عندما يكون ذلك ممكناً، أكثر من النساء الأوروبيات. وفي الحقيقة بدت لي بعض تلك القبعات أشد أناقة من مثيلاتها في أوروبا. أما لباسهن فله على الأقل جانب من الغنى والأهمية. ولكن حتى ترى جمالاً شرقياً للنساء جديراً بالإعجاب وملفتاً للنظر، فما عليك إلا مشاهدتهن جالسات على الأرائك، فهن يفقدن كل الجمال والحلاوة أثناء سيرهن. فقد اعتدن على الجلوس متربعات ويلبسن مشايات جلدية في داخل خفين واسعين ويسرن بطريقة سيئة للغاية. أما الأوروبيات اللواتي يعشن في تركيا فيلبسن أحذية بالرغم من أزيائهن الشرقية فيما يتعلق بما تبقى. وسرعان ما تميز من طريقتهن في المشي إن كن اعتدن على الجلوس على أرجلهن، أم حافظن على استعمال الكراسي. ويمكن رؤية سيدة يونانية في الرسم ٣ بكامل لباسها والتي رسمها السيد بورنفايند في الإسكندرية.

تتمتع النساء في القسطنطينية بركوب العربات، لكن قلما يستعملن ذلك. وتشبه العربات التركية العربات الأوروبية من الخارج باستثناء نافذة خشبية رديئة تحل محل النافذة الزجاجية، وليس لها أبواب، ويمكنك الصعود إليها عبر درجة معلقة في مؤخرتها، ولا يوجد فيها مقاعد بل سجاد تجلس عليه النساء التركيات متربعات.

بما أنهم يجهلون استخدام العربة في القاهرة، لذا تضطر نساء الطبقة الراقية كغيرهن من نساء باقي الطبقات لركوب الحمير. ومراعاة للأنوثة لا تجبر نساء المسيحيين واليهود على الترجل عندما يلتقين بسيد مصري.

الفصل السادس

التسلية واللهو عند الشرقيين

قد يبدو الأمر تافهاً بلا جدوى أن يدور الحديث عن وسائل شعب ما في التسلية والتخفيف من وطأة الزمن في ساعات الفراغ. إلا أن تلك الوسائل تشكل جزءاً من خصائص أي شعب وعاداته. ولا يمكن لطبيعة اللهو الذي تمارسه منطقة ما أن تغيب عن نظر الباحث الذي يريد دراسة سكانها. وقد يجد في الشرق أمراً إضافياً يحثه على ذلك: فمعظم أساليب التسلية والألعاب السائدة هناك يرجع عهدها إلى الماضي السحيق ولذا قد تفيد معرفتها في تفسير كثير من الأمور الغامضة في ما يخص تقاليد القدماء.

تضفي أحوال الطقس والعادات ونمط الحكم على الشرقيين ميلاً شبه طبيعي إلى الكآبة. وتجدهم يزدادون جدية بسبب ضعف العلاقة الاجتماعية التي يمتنعون عنها لسبب أساسي هو غيرتهم التي تحول دون استقبال الناس في بيوتهم. وهم قليلو الكلام في ذلك الجو المنغلق مع زوجاتهم ولا تتوافر لهم في تلك الخلوة أن يكثروا الكلام في شتى المواضيع فيعتادون التزام الصمت. ولما كانت السلطة في يد أقلية ضئيلة، والحكم لا يشجع على الصناعة والعمل، يضطر الرعايا الخاضعين لهؤلاء المستبدين الشرقيين إلى عيش ممل في نوع من البطالة خاصة وأنهم لا يعرفون البتة المخرج الوحيد من ذلك الملل ألا وهو ممارسة الفنون والأدب. كما وأن تصرف الحكام الاعتباطي الذي يهدد دوماً الثروات الخاصة يجر أولئك السكان إلى التحسب المستمر في شأن مصالحهم والاهتمام الزائد في الأعمال مما يبعدهم عن طلب اللهو والمتعة.

إن الشعوب التي تعيش تلك الظروف تجد لنفسها أساليب تسلية تختلف كلياً عن أساليب الشعوب التي تتوافر لديها طبقة من الأثرياء العاطلين عن العمل، و تلعب النساء دوراً بارزاً إلى درجة يضطر فيها الجميع للرضوخ لأذواقهن والامتثال لأهوائهن. في أوروبا مثلاً كل أنواع المتعة تدخل ضمن إطار الحياة اليومية وليونة العلاقات بين

الجنسين إلى حد أن الرجال يلهون مثل النساء. أما في الشرق فإن التسلية على أنواعها تبقى في المجال العام ولها سمة ذكورية لا تخلو من القسوة. كما أن حالة الجهل عند الشرقيين تجعلهم ينعمون حقاً بأوقات ترفيه دون طعم.

عند المساء يجتمع الكبار عادة في حرمهم. ولا ندري ما يجري في تلك الخلوات : فإذا علمنا أن النساء الشرقيات غارقات في الجهل وما زلن أطفالاً وهن بالغات، فمن المحتمل أن مستوى التسلية معهن لا يتعدى نوعا من "التصابي". وقد تأكدت من ذلك بفضل بعض ما روي لي في ذلك الشأن من بعض الأزواج الذين عرفتهم.

أما الأتراك المتميزون الذين ينتمون دائماً إلى تنظيمات قوميتهم القديمة والعسكرية فإنهم يتسلون في أعمال الفروسية التي يبدو أنها المفضلة عندهم. ولهذه الغاية فإن أسياد القاهرة يجتمعون مرتين أسبوعياً في ساحة كبرى اسمها المصطبة ومعهم حاشية كبيرة العدد من الخدم الخيالة. فيتدربون في تلك الساحة على "الجريد" وهو تدريب يتسابق فيه الفرسان اثنان اثنان دون تسريج الحصان ويتضاربون بعصي طول كل منها أربعة أقدام. يطلقون العصا بكل قوتهم حتى أنه غالباً ما يحدث أن الخيَّال وفي غفلة منه تصيبه العصا، قد تنكسر ذراعه أو رجله. وآخرون يطلقون العنان لخيولهم ويطلقون الرصاص لإصابة حوض موضوع على كتلة من الرمل وآخرون يمارسون الرماية وهي رياضة معتبرة حيث تشاد أعمدة على شرف الرماة الذين يبرعون فيها لقوتهم الفائقة أو لمهارتهم في تسديد السهام.

وعندما يصل النيل إلى أقصى فيضانه، يتسلى أسياد القاهرة بالركوب في زوارق مزينة زينة رائعة تطوف في بحيرات "برك" داخل المدينة. وفي المناسبة يسمعون الجمهور الموسيقى وغالباً ما يسلونه بالألعاب النارية.

وقد روى لي رجل من طرابلس الغرب في أرض البربر أن باشا مدينته كان قد اعتاد أن يشيد صرحين يمكن أن تشد بينهما بالحبال نماذج مصغرة من السفن الحربية وفيها مدافع صغيرة تتناسب مع حجم السفينة. وكان يقود تلك السفن المعلقة في

الهواء ضباط من البحرية يديرون التحركات وعمليات إطلاق النار من تلك المدافع الصغيرة مما يشكل منظراً ممتعاً لشبه معركة بحرية. وفي النهاية يخسر المعركة الضابط الذي تنزل بسفينته أكبر الأضرار. لكن تلك التسلية كانت تسبب خصومات خطيرة بين الضباط مما أدى إلى إلغائها.

أما خدم الأسياد المصريين فيتدربون مشاة ويتصارعون بقضبان طولها خمسة أو ستة أقدام، مما يهيئهم لإطلاق الجريد حين يركبون الخيل. بينما تقوم التسلية عند العامة والفلاحين بأن يضرب أحدهم الآخر موجهاً الضربة إلى الرأس فيردها الثاني بواسطة العصا. كما تجري مصارعات أمام الجمهور دون أن تصل المصارعة إلى حد القتل كما هي الحال أحياناً في أوروبا. لأن سلاحهم الوحيد للمصارعة هو العصا ويضعون على سواعدهم اليسرى طبقة سميكة من القماش بمثابة ترس.

وفي القرى والأرياف يتسلى الشباب بألعاب الخفة والمهارة وهي تشبه ما نراه عند فلاحي أوروبا. فهم يتسابقون في الجري ويتباهون برمي عدد من الحصى مرة واحدة ويلتقطونها ويتدربون على القفز إلى أبعد مسافة ممكنة أو يلعبون بالكرة وأحياناً بالعدد المفرد أو الزوجي.

ومن الطبيعي أن الشعب الذي يعيش في عزلة اجتماعية وتحت حكم مستبد، سوف يحب الاحتفالات الشعبية وهي تقام في مصر بكل أبهة وبالأخص الاحتفال بانطلاق الحجاج إلى مكة، كما وصفه عدد من الرحالة. وهناك كثير من الأعياد الأخرى إذ يحتفل كل مسجد بعيد مؤسسه، ويحضر لزيارته حشد غفير من شتى فئات الناس. وفي المناسبة نفسها يفسح المجال لتسلية العموم في ساحة مجاورة. للأقباط أعيادهم شأنهم شأن المسلمين وهي أيضاً تساهم في تسلية العامة.

وأحياناً تقام الاحتفالات ليلاً فيضيء المصريون الطرقات حاملين مشاعل من الخشب الراتبغي. ويكون المشعل معلقاً في رأس عصا طويلة. وعندهم أيضاً نوع آخر من المشاعل أشد وهجاً وهو آلة مؤلفة من عدة دوائر من الخشب الخفيف تتدلى منها

أضواء صغيرة وتحمل عالياً على عمود خشبي. أما في النهار فتنصب أثناء الأعياد مختلف الأرجوحات وألعاب الدواليب والتي يقصدها العامة للرياضة والتسلية.

أما تسلية الطبقة المتميزة المفضلة في مصر وسوريا والجزيرة العربية، فهي قضاء السهرة في مقهى عام يستمعون فيها إلى الرواة وعازفي الموسيقى والمغنين الذين يأتون إلى المقهى كسباً للعيش. ورغم وجودهم في هذه الأجواء المرحة فإن الشرقيين غالباً ما يلزمون الصمت ويمضون السهرة من دون أن يتحدث كل واحد مع جاره. وربما يفضلون المحادثة مع غليونهم الذي يبدو أن لدخانه المخدر مفعولاً قد يهدئ دمهم المحترق.

وبدون سبب ملموس حسي يبقى من الصعب تفسير ميل تلك الشعوب إلى استهلاك التبغ. يلجؤون إليه عله يبعد عنهم الملل أو يدخنون للدخول في حالة من الاسترخاء شبيهة بمدخني الأفيون، فالتبغ ينوب عن الكحول المحرم عليهم.

هذا الميل للتدخين دفعهم للتفنن في أشكال الغليون ومواد تصنيعه. ويستعمل عامة الشعب شكلاً بسيطاً للغاية يتكون من بوري من الفخار وأنبوب من القصب. في حين يرغب الميسورون باختيار الغليون من مادة أفضل، كثير الزخارف والزينة وله أنبوب قماشي يرطبونه في أيام الحر ليخفف من حرارة الدخان. ويستعمل في معظم بلاد آسيا نمط النرجيلة الفارسية الذي يخفف من حدة الدخان الذي يمر في قارورة ماء بارد ويصبح أكثر ليونة وطراوة لمن يحب تدخينه. وما النرجيلة الفارسية في مصر إلا جوزة هند يملأ نصفها بالماء ولها أنبوبان يتصل أحدهما بالبوري ويصل الآخر إلى فم المدخن. وقد تميز الشاه كريم خان في جنوب فارس بمثل هذا النمط من التدخين فسميت النرجيلة باسمه أي نرجيلة كريم خان.

ولا يتمتع مدخن النرجيلة الفارسية بالتسلية فقط بل أيضاً بالدفء عند اللزوم، ذلك أن الدخان الساخن الذي يدخنه الشرقي، يدخل إلى رئتيه فيشعر المدخن بدفء داخلي ناعم. أثناء رحلة قمت بها في الشتاء على الفرات، اضطر البحارة أحياناً للغوص في الماء ودفع المركب حتى يطفو، ولم يكونوا ليجرؤوا على استهلاك بعض الكحول لاتقاء البرد، كنت أعرض عليهم تدخين النرجيلة فيسرون لذلك كل السرور.

الفصل السابع

الألعاب المتداولة في الشرق

يحرم الدين الإسلامي اللعب بهدف كسب المال، ونادراً ما ترى الشرقيين يلعبون. لهذا السبب يتمتع المسلمون بسعادة نادراً ما تجدها في أوروبا وهي أنهم غير مضطرين أن يمارسوا وإن يكن من باب الأدب مثل تلك التسلية التافهة التي تتعب الجسم وتثير شهوات مضرة وتضيق مجال الفكر بسبب تكرار عمليات افتراضية رتيبة وتعكر القلب بتضارب الغرور الدائم والمنافسة بين اللاعبين.

ولكن يوجد هنا كما في سائر البلدان أشخاص يتجاوزون الحدود دون النظر إلى العواقب. وقد رأيت أفراداً مسلمين يلعبون وقد غرهم بلا شك ما رأوه في بعض دور اللهو الأوروبية. كان اللعب بسيطاً لأنهم لم يكونوا بصحبة نساء. لا يعرفون لعبة الورق الأوروبية. غير أني صادفت أربعة تجار عرب في بومباي يلعبون بالورق الصيني المؤلف من أوراق كبيرة وسميكة حتى أن كلاً من اللاعبين يجد صعوبة في مسك أوراقه بيديه الاثنتين. وفاجأت أيضاً شباناً مسلمين في بومباي وهم يلعبون فأخفوا اللعبة بلباقة وعادوا إلى اللعب بعد أن عرفوا بأني أوروبي. وقد نجح اليونانيون الأكثر تمدناً في تقليد عاداتنا الأنيقة وبدوا أنهم مسيحيون إذ راحوا يلعبون بالورق والألعاب الكبرى مثلنا.

عند الشرقيين بعض الألعاب التي تتناسب مع حياتهم الرتيبة وتنسجم مع روحهم الحالمة. وهم يلعبون بها دون حماس ولتضييع بعض الوقت الفارغ لا غير.

ومن تلك الألعاب، لعبة الشطرنج والداما والطاولة. حيث تدل أسماؤها على تاريخها القديم وأصلها الشرقي، ثم انتقلت إلى أوروبا. واللعبة المستحبة عند المسلمين هي لعبة الشطرنج دون منازع. وقد تجد بعض العاطلين عن العمل يقضون نهارهم كاملاً وهم يلعبون بها، هذا الشغف يحط من قدر هؤلاء اللاهين في نظر أهل البلاد. وبدلاً من الرقعة المصنوعة من الخشب يستعملون قطعة من القماش الأبيض يخيطون عليها

مربعات من النسيج الملون بلونين مختلفين. وعند انتهاء اللعب يضمون أطراف القطعة وفيها أحجار اللعبة.

وعندهم لعبة أخرى تتألف من لوحات خشبية رسم عليها مربعان أحدهما ضمن الآخر وخط قطري، ويستعملون للعب حصىً أو أصدافاً بألوان مختلفة. وقد انتقلت هذه اللعبة إلى أوروبا حيث يلعب الناس بها مستخدمين حصى من الفول الأصفر والأبيض. وهناك ألعاب أخرى لم تصل إلينا لأن قواعدها خلت من التنوع والحذاقة. كلعبة المنقلة التي تشبه الشطرنج ولعبة طابودك، المشابهة للعبة الطاولة إذا ما كان للحظ دور فيها. إذ يدخل الحظ فيها بواسطة أربعة قضبان مسطحة نصفها أسود ونصفها الآخر أبيض أما جوانبها فملونة بعدة ألوان لتحدد سير الأحجار.

وهناك لعبة عريقة في القدم لا تزال معروفة عند شعوب الشرق. وهي التي يسميها العرب لعبة الكعب، أدوات اللعب فيها هي عظيمات خروف أو ماعز. وهناك قواعد تحدد قيمة كل شكل حسب جهة العظمة التي تظهر نحو الأعلى. وقد ورد ذكرها عند الكتاب الإغريق واللاتينيين وهي التي أدت إلى اختراع الزهر.

الفصل الثامن

الموسيقى عند الشرقيين

إذا تعلم الموسيقى رجل من وجهاء الأتراك والعرب فإن ذلك يعتبر أمراً شائناً. ولربما تؤثر عاداتهم القاسية عليهم إذ تحول دون تذوقهم سحر التناغم، وعدم احترام الفن هذا ينسحب أيضاً على ممارسيه. فيهان الموسيقيون المهنيون ويتقاضون أجوراً رديئة. لا يمكن أن يتطور فن لا يقدره كبار القوم ولا يجد ممارسه سبيلاً للثراء أو طريقاً للشهرة.

وموسيقى الشرقيين رغم عدم تطورها فهي تختلف عن موسيقانا. فهي موسيقى رخيمة وبسيطة تخلو من التفنن في النغم ويضطر المغنون أن ينشدوا ببطء تماشياً مع ذوق الجمهور الذي يرغب في سماع كل الألفاظ. وقد سمعت عدداً من الشيوخ يرتلون ما تيسر من القرآن دون أي عناء في الأداء، وكانت تلاوتهم شجية ورسمية وقادرة على نيل الإعجاب. وتسنى لي في رحلة على النيل أن أسمع البحارين يتسلون ويغنون بالتناوب مقاطع من أغاني الغرام وفيها يشبهون المحبوبة بخيار دمشق وعينيها بعيني الغزال كما يتباهون بيديها الصفراوين وأظافرها الحمراء. ولا أخفي أننا قد تسلينا مع هذا الجوقة من المغنين.

ويحفظ الناس الأنغام البسيطة بسهولة بفعل التكرار والممارسة. وأظن أنه لهذا السبب لا يستعمل الشرقيون النوتة الموسيقية ولا يغنون إلا ما قد حفظوه في الذاكرة. وكان قد قيل لي في بعض مناطق تركيا إنه يوجد في إسطنبول موسيقيون عظام يستعملون إشارات سرية لتذكر بعض الأنغام.

وتقصيت الأمر لدى عودتي إلى إسطنبول فلم أجد أحداً عنده أي إلمام بالنوتة الموسيقية حتى ولا عند دراويش الطريقة المولوية الذين يعتبرهم الأتراك من أفضل الموسيقيين.

حضرت في بغداد وفي إسطنبول حفلات موسيقى تركية تختلف كل الاختلاف عن

حفلات الأوروبيين ومع ذلك يحلو سماعها للآذان غير المعتادة على دقائق ذلك الفن. أما الأمر الذي قد يسبب بعض الإزعاج في البدء عند سماع تلك الموسيقى فهو أن كل الآلات تعزف النغم نفسه ما لم ينفرد أحدهم ليلعب علامة منخفضة واحدة يكررها باستمرار.

وإن صح أن موسيقى الشرقيين لا تعجب الأوروبيين أبداً، فيصح القول إن الشرقيين غير معجبين بشيء من موسيقانا. وقد عزفت أنا والسيد بورنفايند على الكمان أمام بعض العرب المتميزين الذين كانوا في زيارتنا. لم يرفضوا سماعنا بشكل مباشر إلا أنهم عبروا بشكل كافٍ يدل أن عزفنا لا يعجبهم وأنهم يفضلون موسيقاهم الأكثر رجولة وبالتالي أكثر جمالاً. وفي أحد الأيام بعد أن قدمت حفلاً موسيقياً في القاهرة مع بعض التجار الأوروبيين، سمعت في طريقي إلى البيت تحت ستار الظلمة مصرياً يغني وآخر يرافقه على الناي. فصرخ أحد الخدم : "الله ما أجمل هذا. بارك الله فيك" فوجئت بهذا الإعجاب وسألته عن رأيه بالحفل الموسيقي فأجاب : "إن موسيقاكم هي عبارة عن ضجيج متوحش ومزعج لا يمكن لرجل رزين وعاقل أن يستمتع بها".

بساطة آلاتهم الموسيقية في التركيب وأسباب عديدة أخرى تجعلها تبدو وكأنها عريقة القدم وقد وصلت إلى شعوب الشرق المعاصرة دون أن يطرأ عليها أي تغير ملموس. العديد من آلاتهم مشترك بينهم وبين جزر الأرخبيل مثلاً ثلاثة أنماط من الجيتار ذوات ثلاثة أو أربعة أوتار من الصلب والنحاس ويسميها الإغريق "ايسيتالي" و"سيفوري" و "بلغما" أما العرب فيسمونها اسماً مشتركاً ألا وهو "طمبورة" الذي يدل على كل الآلات ذات الأوتار المعدنية التي تُنقر. ويوجد عند الإغريق آلة ذات قوس تسمى "ليرا" يشد عليها ثلاثة أوتار من أمعاء الحيوان ويُعزف عليها بواسطة قوس مؤلف من غصن شجرة شد عليه شعر الخيل يمكن أن يضغط عليه الضغط المناسب بالخنصر أثناء العزف : ولا تستعمل تلك الآلات إلا لترافق صوت المغني.

هناك بعض الآلات الوترية مع قوس لا توجد إلا عند العرب وتلك هي حال الكمنجة وهي كناية عن كمنجة سيئة الصنع مرتبطة بطبلة. يتألف جسمها من

جوزة هند وعليها جلد مشدود، وهي ذات وترين أو ثلاثة من أمعاء الحيوان أو من شعر الخيل. ويعزف عليه بواسطة قوس لا تقل سوءاً عن الليرا الإغريقية. والكمنجة هي آلة الموسيقيين المتنقلين الذين يعزفون للراقصات. ويسمي العرب "مربعة" كمنجة أخرى ذات وتر من شعر الخيل وعلى جسمها جلد مشدود وهي تتناسب جيداً مع صوت المغنين العاديين الحاد الذين يصرخون من أعماق الحنجرة عندما يغنون في المقاهي. وشاهدت في البصرة نوعاً آخر من الكمنجة يشبه إلى حد بعيد المربعة وهو مركب من وتر واحد فوق جلد مشدود وكأنه طبل ويستعمل في نفس المناسبات. وفي بغداد سمعت عزفاً على السنطور حسب الطريقة الأوروبية وفي الإسكندرية سمعت امرأة تعزف أيضاً عليه وتنقر الوتر بأصابعها المزودة بأظافر من الفضة.

يحب المصريون الآلات التي تصدر ضجيجاً : بينما يفضل الأفريقيون في الجنوب الموسيقى الناعمة. وقد شاهدت بين يدي رجل بربري أو رجل أصله من مملكة دنقلة نوعاً من القيثارة تصدر أنغاماً جميلة للغاية. تتألف الآلة من صحن فارغ شُد عليه جلد وله خمسة أوتار من أمعاء الحيوان وربط إلى عصا تدور، بواسطتها وتُضبط الآلة. ويُعزف عليها بطريقتين : إما بنقر الأوتار وإما بلمسها بواسطة قطعة من الجلد القاسية كقوس. وكان ذلك البربري يرقص وهو يعزف. وقد بدت لي الآلة وكأنها قيثارة داوود. ويسميها البرابرة "كوسير" والعرب "طنبورة".

ومن بين آلات النفخ هناك الناي التركي الحقيقي ويسمى "سلماني" وهو مستعمل عند الرعاة التركمانيين. وبما أنه مفتوح بالكامل فإن إغلاقه صعب جداً، ويعزف عليه كما نعزف نحن على الناي اللطيف. وهو آلة الدراويش المولويين الذين أدخلوا الموسيقى في طقوسهم وهم من أبرع موسيقيي الشرق خاصة بسبب عزفهم الرائع عليه. وهو مؤلف من قصبة أو من عود من الخشب الجيد. وقد رأيت في القاهرة مع أحد الفلاحين ناياً صفاراً مؤلفاً من عدة قصبات. أما السمارة فهي نوع ناي ذو قصبتين إحداهما قصيرة للعزف والأخرى أطول منها تطلق علامة منخفضة مستمرة وتشبه استعمال البلغار للقصبة الطويلة مع مزمار القربة. وفي مصر توجد آلة عزف اسمها "زمارة

القربة" لكنها لا علاقة لها بالمزمار البلغاري وهو أجمل آلة سمعتها في تركيا. وصحيح أن ما يعزفه الرعاة البلغاريون ينتمي فعلاً إلى الموسيقى الأوروبية. ويحب الآسيويون أن يرافق الغناء والرقص، الطبلة التي تعطي الإيقاع. ولها أنواع مختلفة : صنعت من إطار خشب أو من الفخار وشد فوقها جلد يُضرب بالأصابع. وأن ألطف طبلة هي الدف الذي يرافق النساء أثناء الرقص. ويجب أيضاً اعتبار الصنوج من الآلات الموسيقية التي تزين بها الراقصات العامة أصابعها وكذلك أنواع الأبواق والطبول التي يستعملها بعض المتسولين من المسلمين لطلب الصدقة. بدأ الأوروبيون يطلعون على الموسيقى العسكرية التركية. أما الموسيقى العسكرية التي نسمعها في البلدان الشرقية فهي لا تشكل إلا نوعاً من الضجيج النشاز المزعج ولا تستحق أن نعيرها أي اهتمام، عدا أنها تستعمل لتمييز المناصب والرتب. فتعزف للباشا ذي الأذيال الثلاثة موسيقى بآلات أكثر عدداً مما لا يحلم به أي ضابط أدنى منه رتبة. وهكذا يمكن معرفة أهمية الضابط من تركيبة الموسيقيين الذين يواكبونه. وأما أهم آلات الموسيقى التي تتكون منها المجموعات العسكرية فهي نوع من النفير يخرج صوتاً صاخباً للغاية ويسمى في مصر السورم، والطبل شبيه بالطبل التركي يحمل بشكل أفقي ليضرب عليه من الجانبين، ومزمار للعلامات الرفيعة وآخر يشبه بصوته آلة الزمخر عندنا. وأخيراً هناك أنواع من الصنوج المعدنية التي تضرب إحداها على الأخرى لإعطاء الإيقاع.

الفصل التاسع

الرقص عند الشرقيين

لا يسمح الرجل المسلم الرصين لنفسه أن يرقص لئلا يفقد اعتباره بين أصحابه. وليس الحال كذلك بالنسبة للنساء اللواتي يتباهين في الرقص ويتجرأن على كل الحركات بلا عاقبة فمن واجبهن إمتاع أزواجهن بشتى الطرق. وعندما تجتمع النساء في مناسبات الأعراس أو الاحتفالات الأخرى فإنهن يتبارين من ترقص من بينهن رقصاً أجمل.

وقد أخبرني رجل من طرابلس عن سلوك النساء في تلك المناسبات والأعياد. ولدي من الأدلة ما يكفي للقول بأن تلك العادات هي نفسها في تركيا وعند العرب. لكني لست على يقين، نظراً لأنه من المستحيل أن تلتقي بشاهد عيان لتلك الحفلات. أما صاحبي الطرابلسي فقد حصل على تلك التفاصيل من زوجته التي أخبرته بسذاجة عن كل ما أراد معرفته.

لا تجرؤ امرأة أن تظهر في جمع من دون أن تتجمل وتتزين بأحلى ما عندها من ثياب. وحين تقام حفلة في بيت متميز. تأتي إليه ما يقارب الخمسين امرأة من أجمل نساء المدينة متزينات بأبهى ملابسهن . ويتبعهن عدد من جواريهن الجميلات اللواتي يقمن في غرفة مستقلة ويحفظن لسيداتهن صناديق الملابس. وبعد أن تجلس النساء بعض الوقت وتقدم لهن المشروبات المرطبة يُدخلن فتيات إلى القاعة لتسلية الجمهور بالغناء والعزف على آلة موسيقية. حينها تقوم السيدة الأعلى مقاماً وترقص برهة ثم تغادر إلى القاعة المجاورة حيث توجد الجواري لتبدل ملابسها. فتنزع عنها كل شيء حتى الخفين المطرزين بالذهب والفضة ولا تحتفظ إلا بزينة رأسها وبأساورها المرصعة بالحجارة الثمينة. وفي هذه الأثناء ترقص نساء أخريات ثم يغادرن القاعة لتبديل ثيابهن. وتتكرر العملية أكثر من مرة حتى أن السيدة تبدل ألبستها الثمينة عشرات

المرات أثناء السهرة. وتجتهد كل منهن لنيل إعجاب الجميع، مثل هذه الجهود تؤدي كما هي الحال عندنا إلى حد خلق الكثير من الاستياء لدى السيدات.

أما اليونانيات فقد تبنين مثل هذا الترف الشرقي حتى أنهن يبدلن ثيابهن في أي زيارة عادية. وقد أخبرني رجل أوروبي يقيم في إسطنبول أنه رأى امرأة أحد أصدقائه اليونانيين تبدل ثيابها خمس مرات في ساعتين. وتبرهن هذه الأمثلة عن قوة الغريزة والتشابه الكامل للجنس عند كل الشعوب.

ويستخف الرجال بهذه الممارسة لكنهم يتسلون بمشاهدة الراقصات المحترفات المدعوات إلى البيوت الخاصة في مناسبة ما، أو يروهن في المحلات العامة. وتسمى تلك الراقصات في إسطنبول الجنكان أو الغجر وفي القاهرة الغازيات. وهن شابات أو فتيات من الشعب يشكلن طبقة منفصلة ومزدراة ولا يتزوج أفرادها من خارج طبقتهم. ويمارس آباؤهن وأزواجهن عادة مهنة البيطار. ويرافق تلك الراقصات رجل واحد يعزف على الكمنجة و أحياناً امرأة عجوز تدق الطبلة وتسترق النظر إليهن لتراقب سلوكهن. ولا يعرف عنهن حياة العفة والشرف. ويحق لكل مسلم متزوج أن يدعوهن للرقص في بيته ولا يعيبه ذلك الأمر أبداً. و يذهبن إلى أي مكان شرط أن تكون أجورهن جيدة. ولا يجرؤ العازب على دعوتهن إلى بيته ولم يذهبن إلى منزل أحد من التجار الفرنسيين فكلهم عازبون التزاماً بأمر ملكهم.

في بادئ الأمر لم نشاهدهن إلا صدفة في أحد المحلات العامة خارج المدينة. ولكن عند انتهاء إقامتنا في مصر أصبحنا قادرين أكثر على إشباع فضولنا. ذلك أن معظم البيوت التي يقيم فيها الأوروبيون تقع على ضفة القناة الكبرى التي تجتاز القاهرة. وتكسب الراقصات الغازيات مالاً أكثر حين يأتين قرب تلك البيوت عندما تجف القناة قبل حفر السد. وفي تلك الفترة دعونا فرقاً متعددة للرقص. ولكن لما حان وقت الرحيل والقلب مليء بالحزن، كنا بحاجة ماسة للترويح عن النفس. ورغم استعدادنا الكبير للتسلية لم يحظ المشهد بإعجابنا في بادئ الأمر، إذ كانت الموسيقى والأصوات شنيعة وبدت لنا الراقصات قبيحات يثرن الاشمئزاز بسبب أيديهن

الصفراء والعلامات السوداء على خدودهن وألبستهن الغريبة وكميات الزيوت التي مسحن بها شعورهن التي تنبعث منها رائحة كريهة. إلا أننا اعتدنا شيئاً فشيئاً ورضينا بالموجود وقبلنا أن نجد جمالاً في بعض الراقصات وطرباً في بعض الأصوات وحركات جذابة في بعض الرقصات التي كانت لا تخلو من الفجور وتحملنا موسيقى لا تحتمل. لا تختلف ثياب أولئك الراقصات عن ثياب النساء من عامة الشعب، عندما يرقصن يرفعن الوشاح ويجعلنه يتماوج خلف رؤوسهن. ويلبسن فوق الجوارب تنورة مفتوحة من الأمام ومشدودة بإزار عريض له زران ضخمان. ووفق الوصف الذي عرضوه لي، فإن الغجريات في القسطنطينية يرقصن بنفس طريقة الغازيات في مصر. وقد رسم السيد بورنفايند فرقة من أولئك الغازيات (الرسم ٥). يمكننا أن نرى فيها أيضاً عازف السمنجة والعجوز التي تدق على الدف.

أما مسيحيو الشرق فلهم موسيقاهم الخاصة ورقصهم الخاص أيضاً. وقد رأيت في الموصل يعاقبة(*) ونساطرة(**) تحلقوا يرقصون في حلقات؛ ليحتفلوا بعيد ما، ولا تضاهي أي من هذه الأمم اليونانيين في محبتهم للرقص، فلديهم نوع من الرقص الرائع الاهتزاز في حلقة أو في صف تترأسه حسناء من الراقصين. للبلغاريين والبلغار رقصاتهم الشعبية أيضاً، لكنها ليست بجمال وحلاوة الرقصات اليونانية.

من الحذر أن تراعي دوماً عادات وآراء سكان البلاد التي تقيم فيها. ولا يحترم الأوروبيون المقيمون في القسطنطينية هذه القاعدة، ويتسلون في عاصمة الإمبراطورية العثمانية كما لو كانوا في باريس أو في لندن، فليس فيها كوميديا أو أوبرا، في حين يقيمون في بيرا وغالاتا حفلات راقصة تنكرية. ويكره المسلمون هذه التسالي كرهاً شديداً ويعتبرون من يرقص من رعاع الشعب، ويمتد كرههم ليطال كل الراقصين بشكل عام،

(*) اليعاقبة: مذهب مسيحي أسسه المطران السرياني يعقوب البرادعي في القرن ٥ م يدعو فيه إلى طبيعة واحدة للمسيح من جوهرين – إلهي وبشري– كالكنيسة القبطية والسريانية والأرثودوكسية.

(**) النساطرة: مذهب أسسه بطريرك انطاكية نسطور سنة ٤٢٨م يدعو فيه إلى طبيعتين مميزتين للمسيح إلهية وبشرية، لهم اليوم كنائس في العراق وسوريا وتركيا.

وينظرون إليهم على أنهم عديمي التربية والأخلاق، واختلاط الجنسين، هذه الطامة الكبرى التي تكمل رأيهم الرافض لحفلاتنا الراقصة، لم يتأخروا أبداً في التحدث معي عن عادتنا تلك. سيكون الأوروبيون الذين يعيشون مع المسلمين محبوبين ومحترمين إذا لم تحط من قيمتهم بنظر الشرقيين، تلك التسالي التي يمكنهم بسهولة الاستغناء عنها.

وقد أخبروني في هذه المناسبة بطرفة حقيقية، وهي حكاية رجل تركي قد عاد من إيطاليا بعد أن شاهد كرنفالاً فيها واعتقد أن المسيحيين يفقدون صوابهم في فترة معينة من السنة ويعودون إلى رشدهم حالما يذرون الرماد على رؤوسهم. توجد هذه القصة أو هذه القصة الخيالية في الرسائل الفارسية.

الفصل العاشر

العروض الفنية في الشرق

لم يكن في حسباننا أن نشاهد عرضاً فنياً في مصر. وقد وجدت في القاهرة عند وصولنا فرقة كبيرة تتألف من الكثير من الممثلين مسلمين ومسيحيين ويهود. يدل مظهرهم الخارجي على فقرهم وعلى الدخل القليل نتيجة عملهم في هذه البلاد. وراحوا يعرضون مسرحياتهم في كل الدور التي رضيت بإعطائهم أجوراً زهيدة. كانوا يقدمون عروضهم في الهواء الطلق. ويستخدمون باحة المنزل كخشبة مسرح، وحاجز صغير كالكواليس لتبديل الملابس. ولم يشاهد العديد من التجار الأوروبيين رغم إقامتهم الطويلة في القاهرة عرضاً فنياً مصرياً واحداً، فقمنا باستقدام هذه الفرقة إلى بيت رجل إيطالي متزوج لكننا لم نحب الموسيقى ولا الفنانين.

كانت المسرحية باللغة العربية، ولم أكن أعرف هذه اللغة كي أتمكن من فهم الحوار وطلبت أن يشرح لي مضمونها. البطولة كانت لامرأة وقد لعب دورها رجل في ثياب سيدة، وقد صعب عليه كثيراً إخفاء لحيته، بطلة المسرحية كانت تجتذب كل المسافرين إلى خيمتها وتسرق أمتعتهم وتطردهم بعد أن تضربهم بالعصا. كانت قد نهبت وسرقت الكثيرين، عندها اعترض تاجر شاب وقد أتعبه التكرار المستمر لهذه الأمور السطحية التي تخلو من أي عمق، اعترض واستنكر بصوت عالٍ على المسرحية. وقام المتفرجون ليبرهنوا عن الذوق الرفيع بالاعتراض عليها أيضاً وإرغام الممثلين على التوقف بالرغم من أن المسرحية كانت في منتصفها.

وفي حين كانت فيه المسرحيات نادرة إلا أن مسرح العرائس كان منتشراً في القاهرة ونجده في كل الشوارع. مسرح العرائس هذا صغير للغاية وما هو إلا صندوق يحمله رجل بسهولة بالغة، ويجلس فيه الممثل ويخرج دماه من فتحات صنعت في الصندوق ويجعلها تقوم بالحركات الضرورية مستخدماً في ذلك خيوطاً من النحاس التي تدخل

خطوط الغطاء. ويمسك الممثل أداة في فمه مما يسمح له بأداء أصوات حادة تتناسب مع صغر هذه الدمى.

قد يكون كل ذلك جديراً بالانتباه، لو أن تلك المسرحيات المؤلفة توافق ذوق المتفرجين الرديء، لو لم تكن هي نفسها سيئة، فالدمى تبدأ بالمديح والإطراء ثم تبدأ بالخصام لتنتهي دائماً بالضرب.

المصباح السحري، تسلية شائعة جداً في الشرق، لم يكن بودي حضور مثل تلك الاستعراضات فهي تنتهي دوماً بالهزأ والسخرية من الأوروبيين وعاداتهم ولباسهم.

ونرى في الشوارع المكتظة لاعبي كؤوس النرد الذين يسلون الناس بألعاب الخفة، ولن يكون الأمر كذلك في أوروبا، وقد نال أحد هؤلاء المشعوذين إعجاب الحضور بواسطة نافورة الحواة الحجرية كانت تلك البلاد تجهلها تماماً، فقد كان يبدو كأنه يطلب إليها أن تسيل وأن تتوقف حسب رغبته. لم يكن هؤلاء اللاعبون يطلبون أجوراً، بل يكتفون بالمال الذي يعطيه المتفرجون، وهو عادة مال زهيد لدرجة تكفيهم بالكاد للعيش عيشاً متقشفاً. وتستخدم أيضاً قردة مدربة لتسلية السوقة، هي من النوع الذي تمتلئ به غابات اليمن، والتي تبدي ذكاء أكثر وليونة أكبر. يبدو أن هذا الحيوان يحب الرقص بالفطرة. وقد قال لي بحار من شركة الهند الشرقية إنه كان يدخل طبوله غالباً في معابد لا يسكنها إلا القردة وعند سماعها ضجيج تلك الموسيقى العسكرية تخرج الأمهات ذاتها من جحورها حاملة صغارها على ذراعيها لكي ترقص مع مئات من القرود. إن ثياب الشرقيين الطويلة لا تصلح للقردة ولذا يلبسونها حسب النمط الأوروبي مما يزيد من احتقار الجمهور لعاداتنا إذ يبدو لهم أنهم يرون القردة وذيلها من خلال أوروبي حسن اللباس يمشي مكشوف الرأس ويحمل سيفاً أفقياً يظهر طرفه من الوراء بين ثيابه. وفي حوزة مدربي الحيوانات أيضاً حمير وخراف مدربة للقيام بحركات رشيقة. وهناك منظر آخر فاجأنا لأول وهلة، وهو أننا رأينا أفاعي ترقص . ولكن لما علمنا غريزة تلك الزواحف زال عنا التعجب. ذلك أن الأفعى تتذوق الأصوات أو بالأحرى تحب الإيقاع فحين تسمع الطبل ترفع رأسها وتنتصب بحركة تبدو للمشاهد

وكأنها ترقص. وقد رأيت رجلاً غريب الأطوار يعرض مشهداً في شوارع القاهرة. فكان ذلك المتسول يعرض على المارة سلسلة معدنية ضخمة يدعي أنه ربط بها أثناء سجنه في جزيرة مالطا، كسباً للعطف. وكان يروي بصوت كئيب كل العذابات التي عانى منها بسبب الاستعباد عند البرابرة الأوروبيين. وأكثر ما كان يشكو منه فيصغي إليه الجمهور لفظاعته هو حين أرغموه أن يرعى الخنازير وينام مع تلك الحيوانات النجسة في حظيرتها. أما العاقلون من الناس فكانوا بالحقيقة ينظرون إليه بازدراء في حين كانت حكاياته توحي دائماً للعامة بمزيد من الحقد على المسيحيين.

الفصل الحادي عشر

أعراس المصريين

إن السرية التي تحيط بكل ما يجري في عالم النساء وبما يخص النساء عامة قد وضعني أمام استحالة جمع المعلومات بتفاصيلها حول احتفالات الأعراس عند المصريين، ولذا علي أن أكتفي بوصف ما تسنى لي رؤيته أثناء مرور موكب عام بمناسبة الزواج في القاهرة : وقد قام السيد بورنفايند برسم ذلك الموكب كما يرى على اللوحة رقم ٥. وتمشي العروس مغطاة من رأسها حتى قدميها وترافقها امرأتان تقودانها تحت هودج يحمله ٤ رجال، ويسير أمامها عدة عبيد منهم من يقرع الطبل ومنهم من يحمل المذبات وآخرون يرشون عليها ماء معطراً. ويتبعها جمع غفير من النساء وعازفو موسيقى يركبون الحمير. ويحيط بها عامة الناس يحاولون تسليتها أثناء سيرها بألعاب القوة والخفة، وكانت كل نساء الموكب تطلق أصوات الزغردة وهي أصوات الفرح عند المسلمين، أما إذا كان الموكب يسير ليلاً فإن بعض العبيد يحملون المشاعل التي أتينا على ذكرها آنفا وتظهر صورتها على اللوحة. ومرة صادفنا قرب الإسكندرية عروساً عربية كانت تركب جملاً ويتبعها صداقها الذي كان يتكون من أثاث وماشية. وكان الموكب يسير ببطء ويتوقف أحياناً لكي يراه الناس. وأثناء السير كان العرب يعزفون الموسيقى ويطلقون الرصاص بينما النساء يزغردن تعبيراً عن فرحهن.

مصرية في حفل زفة الخطوبة يتبعها موسيقيون يحملون مشاعل وآخرون يرشون العطور

القسم الخامس
الآثار في مصر

الفصل الأول

الآثار القديمة في مصر بصورة عامة

من بين كل البلاد المعروفة تقدم مصر للمسافر وفضوله، أكبر عدد ممكن من الآثار التي تعود إلى فجر العصور القديمة. وتتنافس عدة أسباب لتعطي لهذه المنطقة تميزاً حرمت منه باقي أصقاع كوكبنا الأرضي.

إنه لشعب جبار غني متنور متحمس ذلك الحماس الطبيعي لترك آثار لوجوده وبراهين عن ازدهاره وتقدمه وعن توغله في القدم. ونعلم بفضل شهادة كل القدماء أن المصريين كانوا في زمن لا تعيه الذاكرة أمة متحضرة مدنية قبل العصر الحديث الذي ندعوه التاريخ القديم. منذ ثلاثة آلاف عام، لم تتمكن تقاليد الكهنة من تحديد كتاب عدة مؤلفات شهيرة. ولا يمكن الشك أن هذا الشعب العريق لم يكن لديه قسم كبير من الشعب والحضارة الأوروبية الجنوبية. ويتفق كل المؤرخين في الرواية عن المؤسسات الرائعة للمصريين القدماء حيث يجب أن تكون الآثار قد وجدت في البلاد التي سكنوها.

ولدينا في الواقع حشد من المؤشرات الجلية على أن شعوباً جبارة وأكثر تحضراً من المصريين عاشت في عصور سحيقة قبل التاريخ. إلا أنه لم يبق أي أثر ملموس عن وجود تلك الأمم، فقد زالت زوالاً كاملاً مؤلفاتها وأبنيتها. فالبلاد التي زرعتها وجعلتها جميلة هي اليوم صحراء مجدبة، دون أي أثر قديم، سكنه أو بالأحرى دمره برابرة رحّل.

وبالتالي فمن الضروري وجود سبب ملموس ساهم في حفظ هذا الكم الهائل من الآثار القديمة في مصر. وقد وجدنا في الواقع ذلك السبب الكامن في المناخ وطبيعة الأرض. الطقس الجاف وندرة الأمطار والجليد الذي لا تعرفه المنطقة فهي تجهل كل هذه العوامل المدمرة، فالمطر والبرد يقضيان على أكثر الآثار صلابة وقوة في البلاد ذات المناخ المعتدل، تلك الآثار التي تبدو وكأنها تتحدى تحديات الزمن إلا أنها تنهزم وترضخ له على مضي بضعة قرون.

وبالتالي فإن أرض مصر تزود سكانها بأكثر المواد مقاومة للفساد، من أجل بناء

المعالم. نجد في شمال مصر وتخومها، حيث تنخفض الأراضي، حجارة كلسية من نوع خاص عدسية الشكل. فيما عدا الأهرام لم يبن أي بناء بهذه الحجارة. أما الصعيد المصري ذو الأراضي المرتفعة فهو غني – خلافاً للشمال – بنوع من أقسى أنواع الجرانيت ومن ألوان مختلفة. وهناك سلاسل جبلية من الجرانيت، مما أتاح لهذا الشعب استخدامها في بناء آثاره، كتل ضخمة من أنقى الأنواع وأصلبها مقاومة لكل العوامل الجوية ولكل الثورات في تاريخ الأمة. لا يكسر العالم المتحضر بسهولة كتلة من الجرانيت لبناء كوخ، كما يكسر في بلاد أخرى ولنفس الغرض أعمدة رخام.

وفي كل الأحوال يبدو أن المصريين القدماء لم يألوا جهداً أو يوفروا تكاليف لتخليد آثارهم، وقد نحتت كل المنحوتات نحتاً بارزاً، والقطع كلها في غاية العظمة والقوة النادرة الوجود في آثار الشعوب الأخرى القديمة. وبالرغم من أن الكتابات قد حفرت على صخور صلبة إلا أنها محفورة حفراً عميقاً، وكأن هناك إصراراً على الحيلولة دون زوالها وحرصاً على بقائها الأزلي.

ومن المفروض أن يكون الصعيد المصري الذي هو أعلى من مصر الدنيا، قد سكن أولاً. ويبدو أنه كان في الواقع المركز الأساس لهؤلاء الفراعنة ذوي النفوذ والعظمة، لأننا نجد فيه أكبر عدد من المعالم الرائعة. وقد وصف عدد من الرحالة تلك الآثار الهامة، وتميز بوكوك (Pococke) ونوردن (Norden) عن باقي المتفحصين. بالتعمق في بحوثهما بإعطاء وصف أكثر دقة وتفصيلاً.

ولم تتح أمامي الفرصة لجمع الكثير من الغرائب القديمة في مصر، وكل ما استطعت حمله ينحصر في بعض التماثيل البرونزية والفخارية التي لا تشهد على ذوق ومهارة الحرفيين المصريين، وعلى العموم يبدو أن هذه الأمة لم تبرع يوماً في الفنون التي تتعلق بالرسم. فلوحاتها عادية في ما خلا الألوان الحارة. كما تحلّت تماثيلها بقواعد انتظام الرسم وأناقة الشكل.

الفصل الثاني

الأهرام

تشكل الأهرام بلا منازع الأطرف والأعجب من بين الآثار القديمة في مصر، فإن لم تسحر النظر تلك الكتل الهائلة، فهي على الأقل تثير الدهشة. نرى من القاهرة الأهرام الثلاثة الأولى، وكل غريب يصل إلى هذه العاصمة تراوده رغبة بالاقتراب منها. ولن أود أن أزيد عدد الأوصاف للأهرام، ففي حوزتنا الكثير منها. لكني سأزيد فقط بعض الملحوظات التي لا تتوافق مع ملحوظات أسلافي.

تقع الأهرام على التلة الأولى التي نصادفها ونحن قادمون من القاهرة وعلى الضفة الغربية من نهر النيل. ولكي تصل إليها من الجيزة فإن عليك اجتياز ذراعاً كبيراً من النهر على جسرين في غاية الجمال. ويتألف كل جسر من عشرة أقواس وقد بني بين الجسرين سد مبني بناءً حسناً. وقد نظر العديد من الرحالة إلى هذين الجسرين على أنهما من الآثار القديمة، إلا أننا نجد من خلال الوصف العربي البرهان على أن المسلمين هم من بنوا هذين الجسرين.

ويندهش المسافر عندما يصل إلى سفح تلك الكتل العملاقة، يبدو خياله متحمساً، إنه السبب على ما أعتقد الذي نجد من أجله الأهرام للوهلة الأولى أعلى مما هي عليه في الواقع. قمت أولاً بقياسها بأكثر ما في وسعي من الدقة، وسط حشد أحاط بي من العرب القلقين والمرتابين، وجدت أن ارتفاع أول أكبر تلك الأهرامات يبلغ ٤٤٠ قدماً. وقد أثار دهشتي اختلاف نتائج العملية التي قمت بها مقارنة مع قياسات عدد كبير من الرحالة على نحو تكبدت فيه خلال ردح من الزمن مشقة نشر القياسات التي أخذتها. لكني قرأت عندما عدت إلى أوروبا وصف ممفيس وهليوبوليس للسيد فورمون صفحة ٢٣٤، المقطع التالي : "قال لي ميلورد شارلمون الذي أتى إلى مصر قديماً حيث كنت، إنه قاس ارتفاع الهرم الأول، وقد أكد لي أنه لم يبلغ إلا ٤٤٤ قدماً". وقد طمأنني ذلك القياس الذي ينطبق تماماً مع قياسي، على صحة العملية التي قمت بها.

بنيت هذه الكتل الهائلة من حجر كلسي طري، أي من نفس طبيعة الصخر المبنية

عليه. ويمكننا بالتالي أن نخلص إلى أن كل الحجارة المنحوتة قد أخذت من نفس المكان، كما وشغلت بقليل من الجهد والتكاليف. لكن وبسبب الرغبة في الدهشة المعروفة عن كل الرحالة، فقد رويت الأخبار عن التكاليف الباهظة والعمل المضني الذي بذل لبناء هذه الجبال من الحجارة المنحوتة. لكن وبالاستعانة بعلم الفيزياء وعلم التاريخ الطبيعي، فإن معجزات من هذا النوع تصغر لتصل إلى حجمها الطبيعي وقيمتها الحقيقية.

من أجل دعم الرأي السائد الذي سعى الكتّاب لاستلهامه من عظمة تلك المعالم، فقد أكدوا أن الأهرامات كانت تكتسي بالرخام من الخارج. لكن وبالرغم من كل بحوثي فإنني لم أتمكن من اكتشاف أي أثر لذلك أو حتى أي دليل عليه. في الواقع نجد بالقرب من الهرم الثالث بين الأنقاض قطعاً من الجرانيت لكنها ليست كثيرة أو كبيرة لتحملنا على الاعتقاد أنها كانت تغطي ولو قسماً فقط من الأهرام. يمكن أن تكون قد استخدمت للتزيين أو أنها احتوت على كتابات، بيد أن الأهرام نفسها لا تحتفظ اليوم بأي أثر منها.

دخلت إلى الهرم الأول وزرت الحجرة الكبيرة وصندوقها التي تحدث عنها كل الرحالة، لكني لم أر الحجرة الثانية التي اكتشفها فور رحيلي السيد دافيسون عندما رافق السيد مونتاجو في رحلته إلى مصر. تقع الحجرة الثانية فوق الأولى على مسافة ثلاثين قدماً، ولها نفس الاتساع لكنها أقل ارتفاعاً منها.

يغور أبو الهول الشهير شيئاً فشيئاً في الرمال، وقد طُمر حتى الآن جزء كبير من جسمه. يبدو وكأنه نحت كاملاً في الصخر الذي يتمركز عليه الهرم، مما يؤكد حدسي وتخميني المتعلقين بالمكان الذي أخذت منه الحجارة لبناء الأهرام. قمت بقياس ذقن أبو الهول، فوجدت ارتفاعها عشرة أقدام وست بوصات، و طول وجهه تقريباً ثمانية عشر قدماً.

آلت إلى الزوال ذكرى بناة هذه المعالم العملاقة ،منذ آلاف السنين، وتتآكل الأهرام بدورها بشكل ظاهر للعيان. بالرغم من أن الماضي يستطيع محاكمة المستقبل، فستمر آلاف السنين قبل تدميرها تدميراً كاملاً.

الفصل الثالث

كتابات هيروغليفية

أكثر كتّاب الآثار القديمة حكمة ومعرفة، والذي سافر قسم منهم إلى مصر، يتحدث عن هذا البلد بطريقة مثلى للغاية، فهم ينسبون لحكومتها الاتزان، ولشعبها المعرفة الواسعة. بلد كهذا يختص في الكشف لنا عن أقدم المعارف الإنسانية، فإن من حقه أن يثير اهتمامنا ومن الطبيعي أن تكون لدينا الرغبة في التعرف على تاريخه وأنظمته العامة. وإن كنا نجهل اليوم كل هذه المعلومات، فذلك ليس خطأ من الشعب المصري الذي يبدو وكأنه أكثر شعوب الأرض رغبة في نقل هذا الكم من المعارف لأجياله القادمة، لا بل معارفه أيضاً. وليس لأي بلد في العالم اليوم كتابات محفورة على أكثر الصخور أزلية وبقاء مثلما تقدم مصر لرغبتنا وتعطشنا للمعرفة. وأصبح هذا الجهد في الاطلاع بلا جدوى بسبب عدم اكتمال الكتابة التي استخدمها هذا الشعب، فبدل استخدام حروف خاصة لدراسة مختلف أصوات لغتهم، أو استخدام إشارات للدلالة على مقطع لفظي تتعلق به فكرة محددة، كما يفعل الشعب الصيني، استخدم المصريون رموزاً لإظهار فكرة لها علاقة ما، وغالباً ما تكون علاقة بعيدة. وهذا ما يدعى حسب اليونانيين بالكتابة الهيروغليفية.

وبما أن العلاقات بين الصور والأفكار المصورة علاقات ليست بسيطة دائماً، وغالباً ما تتعلق بطريقة التصور لدى من يخترع هذه الإشارات، فمن البدهي أن تتعذر قراءتها دون مفتاح يشرح المعاني البدائية للصور. في الواقع شرح لنا بعض القدماء عدداً قليلاً من تلك الرموز لكنه لا يكفي لمعرفة الكثير منها، فما زلنا نجد عدداً لا متناهياً من المجاهيل. بذلك تبقى الكتابة الهيروغليفية مستعصية عن فك ألغازها بسبب فقدان مفتاحها.

عندما انتشرت قصة إيزيس في أوروبا، حاول بعض العلماء فك طلاسم الكتابة

الهيروغليفية وانكبوا على تخمين بعضها من خلال بعضها الآخر، لكن المعطيات لم تكن كافية لتخمين الباقي.

لكنني لا أعتقد أن علينا أن نفقد الأمل كلياً من إمكانية إيجاد مفتاح لكتابة المصريين القدماء. فقد أبدى بعض العلماء حنكة وتبصراً في فهم كتابات للغات مجهولة، عندما أعطيت لهم كمية من الحروف التي يستندون عليها في بناء نظريتهم وتخمينهم. لذا فمن الضروري أن ينكب كل الرحالة على نسخ أكبر عدد ممكن من الكتابة الهيروغليفية نسخاً دقيقاً ونشره بكل عناية، مما يضاعف نقاط المقارنة بين هذه الرموز في تشكيلات أكثر تنوعاً.

ولن تكون دراسة اللغة المصرية القديمة أقل أهمية لبلوغ هذا الهدف. وأشك أن نكون قد أخطأنا حتى الآن حول طبيعة الكتابة الهيروغليفية، في افتراضنا أن كل الصور، الحروف هي من نفس النوع. بعد أن نُسخ عدد كبير من الكتابة الهيروغليفية، المنقوشة على المسلات والتوابيت الحجرية والمرمدات والمومياء، كان من البدهي أن أعتقد أن الصور الكبيرة كانت رموزاً، والحروف الصغيرة كانت شرحاً لها. واعتقدت أني لمحت أيضاً ودون أدنى شك في تلك الكتابة الهيروغليفية الصغيرة، أثاراً ملحوظة لحروف هجائية، أو على الأقل من نوع ممزوج أو قريب منها. وبذلك نستطيع عندما ندرس لغة الفراعنة، حل لغز تلك الحروف الصغيرة بسهولة أكبر.

نجد الكتابات الهيروغليفية بشكل رئيس في الصعيد المصري، تغطي الآثار الكثيرة وجدران تلك المعابد الرائعة التي ما تزال قائمة حتى اليوم. وهي متوافرة أيضاً في قبور المومياء في السكرة . فقد لفت الجثامين المحنطة بلفائف مليئة بالرسوم الهيروغليفية. وامتلأت المرمدات بها أيضاً. أما الكتابة الهيروغليفية الموجودة على الخشب أو النسيج فهي محفوظة أيضاً بنفس الجودة التي حفظت فيها على الحجارة. وهناك احتمال قوي أن يكون قد أُكتشف في أقبية السكرة آثار قديمة لفحصها وهي أثمن مما عرف حتى اليوم.

لا يتعلق الأمر بجمع تلك المواد المبعثرة، بل يبدو وكأن الرحالة قد أهملوا هذه الناحية، كان اكتشافها أمراً شاقاً عليهم، ويكتفون بفحصها وقد دفعوا ثمن ذلك غالياً، بإعطاء المال لبعض الجهال أو الخونة، ولا يعملون على كسب ود وصداقة العرب الذين يسيطرون على الصعيد المصري. فحذر هذا الشعب المتشكك والمرتاب هو حذر ضروري للقيام بأبحاث في جو من الأمان اليسر والسهولة. فعندما نتوصل إلى شفاء العرب من ريبتهم واحتراسهم الفطري، إبعادهم عن وضع عوائق أمام فضول الغريب، فيعطونه بأنفسهم الوسائل اللازمة لإشباع ذلك الفضول، لكن ولتنفيذ ذلك المأرب، فان عليهم تمديد إقامتهم في هذه المنطقة، لتكون أطول من إقامة الفضوليين العاديين الذين يقطعون مصر ليقال عنهم إنهم كانوا فيها.

ويستسلم بعض الرحالة وتخمد همتهم المتاعب التي يسببها القيام بنسخ هذه الحروف النادرة والطريفة غالباً. لقد أضجرني أنا أيضاً هذا العمل في البداية لكنني ألفت الكتابة الهيروغليفية بعد وقت قصيرواعتدت عليها، حتى أنني أستطيع نسخها بسهولة كما انسخ الحروف الهجائية، وبالتالي فقد كان هذا العمل بالنسبة لي عملاً مسلياً.

ليس من الممكن أن تستسلم لأعمال من هذا النوع دون أن تتعرض لبعض المتاعب على يد شعوب جاهلة ومرتابة وعلى أهبة الاستعداد دائماً للسباب والشتائم وابتزاز المال من مسيحي، لكنك غالباً ما تجلب لنفسك هذه المتاعب، عندما تهمل مسألة الحصول على معرفة كافية لأعراف وتقاليد ولغة بلاد المشرق.

عندما كنت أنسخ كتابات هيروغليفية في القاهرة، حيث الناس أكثر فظاظة من الناس في الريف، تعرضت أنا أيضاً لعدة عقبات ومنغصات.كنت أود أن أرسم أهم القطع وظننت أني في منأى عن كل المشكلات ذلك أنني اصطحبت معي مولى. لكن الشارع الذي توجد فيه تلك القطعة يغص بالمارة ويعج بالمرتادين، فتجمهرت حولي مجموعة من الناس، لكن أحداً لم يتوجه لي بالسباب والشتائم، وأثنيت على مهارة الأوروبيين في قدرتهم على الكتابة بعود دون استخدام الحبر. لكن سراجي (Saradsji) وهو بمثابة كاتب عدل في خدمة الباكاوات، أتى ليستعرض وليتباهى أمام الناظرين

بقوته وانهال علي تقريعاً وذماً. فنصحني خادمي أن أعود أدراجي وأترك المكان قبل أن ينهال علي ضرباً بعصاه. لكني عدت مرة أخرى وأعطيت مبلغاً زهيداً لسراجي في الجوار لأكون في مأمن من شرهم، لكن سراجي آخر اقترب مني وسألني عمن سمح لي بالكتابة، فأجابه الرجل الذي كان معي بأن سيده سمح لي بذلك فرد الأول وقال إن سيده يمنعني بدوره. فوجب علي من جديد أن أترك المكان وأكتفي بذلك، للمرة الثالثة، كنت على وشك الانتهاء من نسختي بهدوء عندما رآني أمام أحد الجوامع وبدأ بالضجيج مما اضطرني إلى الذهاب. وكنت سأخسر في تحقيق هدفي لو تركت الإحباط ينال مني، ولو أني لم أتجنب النزاعات متحلياً بالصبر وبرودة الأعصاب الضروريين في المشرق.

رسمت في إحدى المرات قطعاً كانت موجودة أمام بيت الحاكم، وقد تركوني أعمل بلا مشكلات خلال عدة ساعات، لكن الحاكم أرسل في طلبي أحد سراجيه، وعندما قدمت له نفسي سألني لماذا أنسخ كتابات فرعونية، وعندما شرحت له مأربي، أخذ الورقة مني وعرضها للكبار الذين يجلسون بجانبه، فأخذوا يضحكون من حب الاطلاع التافه عند الأوروبيين. أخذ السراجي ورقتي وعندما طلبتها قال لي الحاكم إنني كنت أستطيع أن أستردها من السراجي، وهذا يعني أنه يطلب هدية لكاتبه العدلي، فأعطيته اكو، واسترجعت ورقتي وحريتي في نسخ ما تبقى.

أكثر القطع أهمية التي تحتوي على أكبر كمية من الكتابة الهيروغليفية، هي تابوت من الجرانيت الأسود، يبلغ طوله سبعة أقدام، ويوجد قرب قلعة الكبش القديمة. وقد تطلب مني هذا التابوت كثيراً من الذهاب والإياب قبل الانتهاء من رسمه. وقد ذكره بوكوك (Pococke) ومايبه (Maillet) تحت اسم نافورة الكنوز أو نافورة العشاق. غطى الجص جزءاً من الكتابات لأن هذه القطعة الرائعة تستخدم اليوم كحوض للماء. ويبدو أن هذا كان تابوتاً لواحد من الشخصيات الهامة.

تابوت كهذا أُخرج من تحت التراب منذ ٢٠ عاماً، وأُتي به إلى القاهرة ليوضع في أحد الجوامع. لكنه انكسر عند نقله إلى بولاق، فاستخدم قطعه لتدعيم الأرض حول شجرة وقد رسمتها في هذه الحال أمام منزل الحاكم.

قيل لي إن هناك توابيت مماثلة في مداخل الكثير من المساجد، المليئة بالكتابة الهيروغليفية والتي تستخدم كأحواض للوضوء.ولم يكن الاقتراب من تلك المساجد مسموحاً لي،ولن أستطيع أن أقول شيئاً إيجابياً حول ذلك.

نسخت الكتابات الموجودة على مسلة مكسورة، وعلى بعض المرمدات من المرمر الأبيض التي كان نوردن (Norden) قد رسمها. سمح لي القنصل الفرنسي برسم قطعة هامة جداً في بيته، وهي غطاء خشبي لصندوق مومياء، مغطى بشكل كامل بالكتابة الهيروغليفية والحروف التي استطعت أن أميز فيها آثاراً لحروف هجائية. ولكن وبما أن القاهرة ليست المكان الذي يوجد فيه الكم الأكبر من هذه الكتابات، فلم أتمكن من نسخ ما كنت أود نسخه. ومن أجل تسهيل شرح الكتابة الهيروغليفية، صنعت جدولاً يحتوي على ما يتكرر غالباً في هذه الكتابات. ومن المفيد أن نلحظ أن بعض الصور أو الحروف تلتقي بشكل أساسي على المسلات، وبعضها الآخر يلتقي في القطع التي أخذت من القبور. يمكن لتلك الملحوظة أن تزودنا ببعض الدلائل لتخمين المعنى.

امرأة عربية من اللحية ترافقها امرأة أخرى من قرى المرتفعات المنتجة للبن متجهة لجلب المياه

القسم السادس
السفر من القاهرة إلى السويس
وإلى جبل سيناء

الفصل الأول

الاستعدادات للانطلاق

إن تمَحْورَ هدف رحلتنا الرئيس حول زيارة الجزيرة العربية، فلقد توقفنا، على كره منا قرابة العام في مصر. فقد أرغمتنا دواعٍ عديدة على هذا التأخر غير المتعمد.

وبسبب القداسة المزعومة للحجاج يُحظَر على المسيحيين أن يقطعوا المسير في العربية براً وذلك ضمن القافلة المسافرة إلى مكة. لذا توجب علينا التريث انتظاراً للفصل الذي يغدو فيه البحر الأحمر قابلاً للملاحة، وحيث تبحر فيه المراكب منطلقة من مرفأ السويس إلى مرفأ جدة.

لم يكن في مقدورنا، خلال هذا الوقت، أن نشاهد عندئذٍ جبل سيناء الجبل المشهور بالنقوش، أي ما يطلق عليه جبل المقطب (El-Mokatteb) وهو ما كان يتعين علينا أن نجري أبحاثنا فيه. وكان المصريون في نزاع، منذ سنة مع قبيلة صغيرة من العرب تضرِبُ في جوار الطور. وهذا ما جعل سفرنا غير ممكن عملياً قبل عودة الركب من مكة وهو الركب الذي كُلِّف مرشده بالسعي لإعادة السلام.

كان سبب تلك الحرب الصغيرة هو ضراوة هؤلاء العرب وجشعهم الذي لا يحد، فهم يكسبون رزقهم بتأجير الجِمال ونقل البضائع من السويس إلى القاهرة. ففي كل عام تبحر العديد من السفن والمراكب المحملة بالقمح من مصر إلى مكة. وحدث أن رست إحدى المراكب لكي تتزود بالماء بالقرب من الطور، حيث يتوافر ماء أعذب وأقل ثمناً مما هو في السويس التي يطلب أصحابها أسعاراً باهظة مقابل نوعية متدنية، وترجّل منها قبطانها وجميع من فيها من البحارة تقريباً. وعندما شاهد العرب هذه الغنيمة لم يتمكنوا من مقاومة الإغراء: أمسكوا بالقبطان وبالبحارة وراحوا يعيثون في السفينة سلباً ونهباً. وبدوام باب الرزق هذا فإن غضب المصريين وحنقهم ما كان ليربكهم ويعرقل خطاهم، ولكن بعد نفاد القمح وترددهم في مواصلة الذهاب إلى القاهرة خوفاً من أن ينالوا عاقبة ما فعلوه وخشية أن يفقدوا جمالهم، باتوا لا يعرفون كيف يحافظون على

مورد رزقهم. فبدؤوا، والحالة هذه، بنهب القوافل الصغيرة التي تروح وتغدو باستمرار بين السويس والقاهرة: حتى أنهم اجترؤوا على إبلاغ الحكومة بأنهم لن يتوقفوا عن نهب القوافل ما لم تقطع الحكومة لهم وعداً بنسيان الماضي وأن تحيطهم وقطعانهم من الجمال بالأمن والأمان التامين.

هذا هو نتيجة ضعف حكومة هذا السلطان وعجزه، وهو من يعتبر نفسه عاهل مصر وسيدها، بحيث إن حفنة من الأشقياء تجرأت على الكبرياء العثماني دونما أي عقاب. أرغمت الولاية في القاهرة على أن تمنح الأمير الحاج السلطة الكاملة لكي يؤمن السلام لهؤلاء العرب وفق الشروط التي أرادوا إملاءها. وأُتفق في الواقع في مكان ما، حيث تمر القافلة أثناء عودتها إلى مكة.

وعلمنا عندما أطلقت قذيفة مدفع من القصر بوصول البريد الذي حمل نبأ عودة السلام، فجهزنا أنفسنا للرحيل. وهذه الاستعدادات التي لا تعدو كونها مجرد لعبة في أوروبا، تتحول في الشرق إلى أمر جاد وشاق. وتستحق هذه الاستعدادات أن يتعرف الناس عليها لأنها تدخل في لوحة العادات والطبائع والقيم عند الشرقيين ولأنها تدلنا على العديد من الوسائل التي يؤمّن فيها رغد العيش.

وإن كان المسافر على علم يسير باللغة، إلا أنه قلما يستطيع الاستغناء عن الخدم مِمن جاب البلاد التي يُريد الاختلاط بسكانها.

وبهذا الصدد جُهزنا بشكل سيئ. وكان عندنا أجير سويدي يماثلنا في حداثة العهد، و طاهٍ يوناني كان قد أقام مدة كافية في القاهرة ولم يخرج من أرض مصر، كما رافقنا ترجمان، كان طبيبنا يحتاج إليه في المزاولة العملية وكان هذا الترجمان يونانياً فأصبح مسلماً إلا أنه لم يسافر قط، وأخيراً شاب يهودي من صنعاء وهو إنسان صالح كان قد قام من قبل بنفس الرحلة التي كنا قد شرعنا بها، ولكن، لكونه بمنتهى الاحتقار بأعين المسلمين، بسبب أمته وقومه، فهو لم يؤد لنا خدمات جليلة في الشؤون التي كان يتعين علينا معالجتها وبحثها مع العرب.

لكننا كنا مجهزين بشكل أفضل بالمؤن والحاجيات التي يعتمدها في أوروبا الجُند والعسكريون لما توفره من راحة وسهولة. ففي هذه الأصقاع المقفرة تصبح الخيمة والأسرة ضرورة قصوى. كان عندنا أيضاً أوانٍ للطهي، نظيفة وململمة وقد صُنعت من النحاس المطلي بالقصدير بشكل جيد، من الداخل ومن الخارج. وقد أخذنا، عوضاً عن الآنية الزجاجية، التي يصعب على المرء أن يحافظ عليها، قصعات وطاسات من المعدن نفسه وكانت مُقصدرة على الوجه الأكمل. كما كنا نستخدم قارورة مصنوعة من الجلد الثخين كدورق للشرب. أما مؤنتنا من السمن، فكنا نحصل عليها بسهولة من قربة كبيرة من الجلد الثخين.

وكنا نحتفظ بتوابلنا المتنوعة، بداخل صندوق من الخشب مغلف بحقيبة من الجلد ومقسم إلى رفوف متعددة، وفي صندوق آخر مماثل وضعنا شموعاً، وكان يشكل غطاؤه المجهز برأس شمعدان معدني سراجاً لنا في نفس الوقت. وكان عندنا فوانيس كبيرة من نسيج القنب المُغضِّن، وكان قعر وغطاء كل منها مصنوعين من حديد الصلب الأبيض. واستخدمنا عوضاً عن الطاولات والأغطية، قطعة مستديرة من الجلد، تحيط بها حلقات من الجلد، وكنا نمرر فيها حبالاً بعد الانتهاء من تناول الوجبات، بحيث كنا نتمكن من اصطحاب طاولتنا هذه كأنها صرة نعلقها بجمل من الجمال. ولكن تملكنا الطيش فوضعنا نبيذنا في قوارير كبيرة، يطلق عليها في الشرق اسم دمجانات، ومفردها دمجان وكانت كل واحدة منها تتسع لعشرين قنينة نبيذ عادية. فهذه الأواني شديدة التعرض للكسر بسبب الصدمات التي تصدر عن الجمال، مررنا بتلك التجربة وفقدنا القليل من خمرنا. فمن الأفضل بكثير أن ننقل هذا المشروب في قِرَبٍ من جلد الماعز. ومع أن هذه الطريقة تبدو غير نظيفة لأول وهلة، إلا أننا نعتاد عليها لأننا نلحظ بأن المشروب لا يفسد مذاقه إذا ما أُحسن صنع وتحضير هذه الجلود. هذه القرب هي أنسب الأواني لحفظ الماء، والتي يتحتم علينا أن نتزود بها ونحن نقطع أصقاعاً مجدبة جافة. استأجر رفاقي في الرحلة جياداً: أما أنا، وبسبب الفضول فقد فضَّلت جملاً وحيد السنام ووجدت نفسي مرتاحاً عليه. سرج جمل التحميل العادي مفتوح من الأعلى وذلك حتى لا

يُعقر سنام الحيوان قط، وتتدلى حزمتا البضائع من الجانبين: خلافاً لذلك يُصنع سرج الجمل وحيد السنام والمراد امتطاؤه كمثل سرج الخيل فيغطي السنام. وهذا النوع من الجمال، مثله مثل الجمل العادي يبرك على الأرض عندما نريد تحميله أو الركوب عليه، في حين أننا لا نضطر دوماً إلى إيقافه حينما نود الترجّل ونحن على الطريق: فهو معتاد على إشارة معينة تجعله يُطرق رأسه حتى يصل إلى الأرض، فإذا تدربنا قليلاً على هذه المناورة نترجل عنه ونركبه بسهولة من أعلى رقبته. وقد قمت بمد فراشي على السرج وبهذه الوسيلة كان من السهولة الجلوس في أوضاع مختلفة وتحاشي أشعة الشمس المباشرة. ومن جهة أخرى، يسير الجمل وحيد السنام بخطوات سريعة متزنة، بحيث لا يشعر الجمَّال قط بحركة أقوى من هدهدة المهد. وحينما وصل رفاقي إلى المبيت وترجلوا عن جيادهم منهكين من كثرة خَبّ وخبب مطياتهم، ومن أوار الشمس، وجدت نفسي رابحاً لأنني لم أكن أشعر بالتعب مساءً وكأنني كنت جالساً طوال الليل على كرسي.

الفصل الثاني

الرحلة من القاهرة إلى السويس

كانت القافلة، التي أزمعنا على قطع هذه المسافة معها، تنتظر منذ وقت طويل أن يبرم الصلح مع العرب من أهل الطور. وهكذا وحالما اطمأننا إلى وصول الإذن، الذي أعلنته قذيفة مدفع أطلق في ٢٧ أغسطس (آب) ١٧٦٢م عند عودة القافلة من مكة، وبالتالي عودة الأمن إلى الطريق، ذهبنا في الحال لنقابل الشيخ الذي استأجرنا منه حيوانات للركوب. وكان هذا العربي قد نصب الخيام بالقرب من قرية سرياقوس حيث خيَّم مع عشيرته بانتظار الرحيل. ولكن أحداً منهم لم يشرع بعد في التحرك.

عندما تجتاز القوافل الكبرى بلاد العرب المستقلة، يمشي في مقدمتها من يُلقب بالقيروانباشي، وهو مكلفٌ بتوجيه هذه القوافل وبالتفاوض مع الأمراء الذين يفرضون رسوماً عن اجتياز أراضيهم. ويقوم هذا الرئيس بتنظيم الرحيل والمسيروأوقات الاستراحة. أما القوافل الصغيرة الشبيهة بركبنا والتي تقطع مسافات قصيرة فلا يقوم على رأسها دليلٌ البتة وتحتذي حذو التاجر الأكثر اعتباراً، إن كان ذلك من أجل الترحال أو بقصد التخييم، أما حينما لا يجدون قط تاجراً بارزاً، فهم يقتدون بالرجل العربي الذي يمتلك العدد الأكبر من رؤوس بهائم التحميل. ولذا، كنا نجهل التوقيت الدقيق المحدد لرحيلنا، حتى أننا شاهدنا في ٢٨ أغسطس (آب) فرقاً من المسافرين يبدؤون شيئاً فشيئاً بالحركة.

لم يكن لقافلتنا مظهر شديد الأهمية. وبما أننا كنا نتعجل الخروج من القاهرة قبل القافلة الكبيرة التي تذهب دائماً إلى السويس وقبل إبحار السفن مباشرة، لم يكن لدينا إلا أربعين جملاً محملاً بالقمح أو بمواد البناء: ولكي يشحن المرء مرساة واحدة يستخدم ٣ إلى ٤ جمال. وقد سنحت لي الفرصة من قبل أن ألحظ أن العربات كانت مجهولة تماماً في مصر و في الجزيرة العربية.

لم نكن لنشكل قوة هائلة أمام من قد تسول له نفسه مهاجمتنا. وكان الجمالون، على قلة عددهم، يحملون بنادق رديئة وسيوفاً صدئة أو محطمة. ويصح القول إن

بعض الشيوخ، ممن يملكون العديد من جمالنا، كانوا قد تسلحوا على أحسن وجه وهم على ظهور جمالهم، ولكننا لم نتمكن أبداً من الاعتماد على هؤلاء. فلن تجد لدى أي عربي رغبة في أن يعرض نفسه للموت دفاعاً عن ممتلكات رجل تركي فكان علينا إذن، أن نبقى في وسط الركب دون أن نحيد عنه ودون أن نخيِّم بعيداً، هذا إن أردنا ألا نتعرض للنهب. ومع ذلك فقد خاطرنا في بعض الأمكنة الآمنة، أنا ورفاقي، بالتقدم وتخطي القافلة بمجملها، كي نستريح ونتنفس الهواء النقي.

ولما تركنا في سرياقوس في مساء ٢٨ أغسطس (آب)، مررنا قرب قرية كبيرة تسمى الخانكة، وبعد أن التحقنا بالطريق العام، نصبنا خيامنا في الحادية عشرة مساء في مكان يطلق عليه اسم الفرنياد. وتتألف هذه الطريق الرئيسة من مجموعة من الدروب الضيقة والممرات، مضروبة الواحدة بجانب الأخرى، الجمال التي ترتحل في أرتال مختلفة كما يطيب لها. وعلى بعد خمسة فراسخ من القاهرة شاهدنا ساحة مربعة يحيط بها سور ارتفاعه عدة أقدام، وفيها سيستقبل وجهاء القاهرة أمير الحاج عند عودته من مكة المكرمة. من هذا المكان وحتى عجرود التي تبعد أربعة فراسخ عن السويس، صحراء حقيقية لن نجد فيها خلال مسيرنا ثلاثة وعشرين فرسخاً ماء أو منازل أو نبات أخضر على الإطلاق.

في الصباح الباكر من ٢٩ أغسطس (آب)، أسرعنا في الرحيل وكنا نرتاح بالكاد كي نتناول طعامنا، وبعد أن سرنا ثلاثة عشر فرسخاً واجتزنا جبل وهبة ووضعنا رحالنا عند مغيب الشمس قرب جبل (الطيه)، وقد أمضت قافلة مكة الكبيرة الليل الفائت هنا، لكن وبما أنها اتخذت الطريق نحو الجنوب، فإننا لم نلتق بها.

وانطلقنا فجراً في الثلاثين من أغسطس (آب)، ووصلنا إلى عجرود حيث يوجد ماء للشرب مما يلزم الحجاج بالتوقف في هذا المكان. وعجرود قلعة صغيرة بناها الأتراك لتوفير الأمان في الطريق ولحماية البئر الموجود على مدخل الصحراء قدوماً من السويس. القلعة مهدمة بالرغم من أنها بنيت في نهاية القرن السادس عشر. وصلنا إلى بير السويس بعد مسير ثلاث ساعات، حيث يوجد بئران عميقان مسوران ومغلقان

بأبواب منيعة لحماية مياهها من العرب. وبالرغم من أنها رديئة ولا تصلح للشرب إلا أن سكان السويس يثمنوها لحاجتهم إليها لري ظمأ مواشيهم، تسحب المياه من البئر يدوياً في قرب من الجلد. وبما أن بئر السويس لا يبعد إلا فرسخا واحدا عن السويس فقد وصلنا إليها مساء، وهي تبعد عن القاهرة حسب ملاحظتنا اثنين وثلاثين فرسخا أو ثلاثة وعشرين ميلاً ألمانياً.

في الماضي كانت القوافل تتجه نحو القلزم وهي مدينة تقع باتجاه الشمال من البحر الأحمر، والتي نجد فيها حتى اليوم آثاراً هامة. وكانت المراكب قديماً تصل إلى ميناء هذه المدينة المشهورة عند العرب سابقاً. لكن مياه البحر الأحمر وعندما انخفضت أجبرت العرب على ترك الميناء وبناء ميناء السويس. هذه المدينة التي لم تر النور إلا في نهاية القرن الخامس عشر. ولم تذكر إلا في بدايات القرن السادس عشر وبذلك يجب النظر إلى هذه المدينة على أنها مدينة حديثة جداً.

الفصل الثالث

مدينة السويس

تقع مدينة السويس على الساحل الغربي للبحر الأحمر ولكن ليس في نهايته تماماً، لا تحيط بها أسوار، إلا أن منازلها بنيت متلاصقة وليس بالإمكان الدخول إليها إلا من طريقين اثنين، الطريق باتجاه البحر مفتوح، أما الآخر فيغلقه باب متواضع. البيوت في حالة سيئة ويمكن اعتبار الخانات المباني الوحيدة المتينة، ولم يبق أي أثر للقلعة التي بناها الأتراك قديماً على أنقاض القلزم القديمة.

وهي مدينة غير مأهولة بالكثير من السكان نجد بينهم بعض اليونانيين وعدد قليل من العائلات القبطية، أما في وقت إقلاع المراكب فإنها كانت تكتظ بالسكان بسبب توافد الغرباء إليها.

وما الأراضي المحيطة بها إلا صخور تغطيها الرمال مما يجعل ريفها مقفراً وقاحلاً للغاية، حتى أننا لا نرى فيها زرعاً ولا أشجاراً أو بساتين أو مراعي ؛ وأهلها يجهلون تماماً ما هي الحقول. أما المادة الغذائية المتوافرة فيها بكثرة فهي الأسماك والأصداف. وكل المواد الغذائية الأخرى الضرورية للإنسان والمواشي تُحضر من بعيد، من القاهرة الواقعة على مسافة مسير ثلاثة أيام، أو من جبل سيناء على مسافة ستة أيام، أو من غزة على بعد سبعة أيام.

لا يوجد في السويس مياه عين للشرب، أما مياه الشرب في بير سويس الواقع على بعد فرسخ، فهي وكما قلت سابقاً تكاد تصلح لسقاية الحيوانات، ويذهبون مرتين يومياً لإحضارها. وأقل جودة منها مياه آبار موسى المشهورة التي تقع على بعد فرسخ ونصف الفرسخ من الجهة الأخرى للبحر. الماء الوحيد الصالح للشرب هو ماء بئر النبع والذي يقع أيضاً في الجهة الأخرى من الخليج ويبعد عن السويس بأكثر من فرسخين يجلبه العرب ليبيعوه بأسعار تبلغ تسعة فلوس فرنسية، وبالرغم من اشتهار هذا الماء بأنه الأفضل لكنه ما يزال رديئاً.

ويتمثل عمل السكان الأساسي في بناء المراكب، فهذه مهنة مزدهرة بالرغم من غلاء ثمن الخشب والحديد والمواد الأخرى التي تنقل كلها من القاهرة على ظهور الجمال. ولا أعرف بدقة عدد المراكب المستخدمة سنوياً في الملاحة بين هذا الميناء وميناء جدة. فقد أكدوا لي أن أربعة أو خمسة مراكب، على حساب السلطان ، تبحر إلى جدة وتنقل القمح المخصص لمكة المكرمة و المدينة المنورة، بينما كان هناك أربعة عشر مركباً كانت تستخدم لنقل المسافرين بين جدة والسويس. لهذه المراكب المبنية في السويس دفة قيادة غريبة، فقد صنعت من عارضة غليظة استخدامها خطير. رأيت في الميناء مركبا آخراً مصنوعاً من خشب قوي ما يزال بحالة جيدة بالرغم من أنه يستخدم باستمرار منذ ستة و تسعين عاماً.

في زمننا كان حاكم السويس بيكا من القاهرة. ولديه عدد كبير من أفواج الخدم. هذا المنصب كان بالنسبة له منفى يليق به وكانت لديه رغبة عارمة في العودة إلى العاصمة فقد كان يجمع بكل عناية كل المؤشرات التي تخص وقت عودته. وأكد لنا أن عالماً مسلماً تنبأ له بوقت عودته، كما أراد أن نستقرئ الكتابات المجهولة في الصحراء لنعرف منها حسب قوله، فيما إذا كانت تلك الحروف تزف له بشرى الحظ في الوقت نفسه. لكننا اعتذرنا عن جهلنا لذلك العلم المدهش في قراءة المستقبل. كان هذا البيك مسلماً وابن تاجر سكر.

الفصل الرابع

خصوصيات عرب المناطق المجاورة

إن العرب المقيمين بالقرب من الطور، في الجهة الأخرى من البحر، لا يهابون أبداً من الحاكم التركي في السويس. ويهددونه إذا ما استاءوا منه أو من السكان بأنهم لن يجلبوا لهم الماء بعد، ويمنعوهم من الاقتراب من بئر النبع. وقد جعل تنفيذ تلك التهديدات، المدينة في حال لا تحسد عليه، لذا تُهدأ الخواطر، فهم قادرون وبسهولة على تحطيم المدينة لولا حرصهم على أرباحهم التي يجنونها من نقل البضائع على جمالهم بين السويس والقاهرة.

وقد عانينا من نتائج تهديداتهم الوقحة. فالشيوخ الذين قادونا إلى جبل سيناء، لم ينفذوا التزاماتهم ولم نشأ عند عودتنا من السويس أن ندفع لهم المبلغ المتفق عليه كاملاً. هددونا بالقتل، فقلنا لهم إننا سنعرف كيف ندافع عن أنفسنا، فصرحوا لنا أنهم سيقطعون ماء النبع، أجابهم السيد دوهافن أن ذلك أمر لا يهم الأوروبيين فهم يشربون الخمر، جواب أضحك الأتراك على العرب. لكن وبعد أن استمالوا قبيلتهم للاشتراك معهم في النزاع، خشينا حقاً من تنفيذ تهديداتهم في حاجة المدينة للمياه. ورجانا الحاكم بأن ندفع ما تبقى من الحساب للشيوخ.

أحد أهداف سفرنا كان فحص جبل المقطب في الصحراء، مما حملنا على جمع كل المعلومات اللازمة عن مكان في تلك الأهمية في أسرع وقت ممكن، وفي هذا السياق اكتشفنا عادة عند العرب تستحق الشرح فهي تتعلق بأعرافهم وتقاليدهم.

وعندما وصلنا إلى السويس توجهنا أولاً بطلب بعض الإيضاحات من اليونانيين حول هذا الجبل.فلم يسمع عنه أحد من قبل ولم يلفظ من قبل اسم جبل المقطب، فأتوا إلينا بشيخ من قبيلة سعيد أمضى حياته في التنقل بين السويس وجبل سيناء، ولم يكن ذلك الشيخ أكثر معرفة باسم هذا الجبل لكنه وبما أنه كان يعلم أن هناك جائزة قيمة لمن يقودنا إليه، فقد عاد في اليوم التالي برفقة شيخ آخر من قبيلة صوالحة وادعى هذا الأخير بمعرفته ليس بالجبل وحسب بل بكل الأماكن التي توجد فيها كتابات في

الصحراء. من خلال إجاباته عن أسئلتنا اتضح لنا حالا أنه في مثل جهل الأول، بالمكان الذي نبحث عنه.

أحضروا لنا في النهاية شيخاً من قبيلة الأغواط فاقتنعنا بقوله إنه رأى في الواقع أحجاراً تملؤها كتابات غير معروفة. وقد أكد لنا عندما علم أن موضوع بحثنا واهتمامنا هو جبل المقطب، أن هذا هو اسم الجبل المتعارف عليه عند كل العرب.

أسعدنا أن نجد شخصاً على الأقل من سكان الصحراء قادراً على أن يدلنا عن مكان الكتابات، ونفكر أن نتخذه دليلاً لنا وخاصة أن بيته كما قال لنا يقع بالقرب من هذا الجبل. لكن الشيخين الآخرين عارضا بشدة ما نرمي إليه وعزما على مرافقتنا أيضاً. ونصحنا سكان السويس بأن نصطحب الشيوخ الثلاثة معنا، وقالوا لنا إننا لن نستطيع السفر في الصحراء بشكل آمن دون أن يكون معنا دليل من القبائل الثلاث والتي تسكن على طول الدرب المؤدي إلى جبل سيناء. هذه النصيحة مبنية على الأعراف والتقاليد التي وددت الحديث عنها، التي تجعل الحراس العرب ضرورة لا بد منها. فعلى أي رجل كان ، مسلماً أو مسيحياً يريد السفر براً أو بحراً على طول سواحل الجزيرة العربية، أن يتخذ غفيراً، دليلاً أو حامياً ويقدم له بعض الهدايا بين الحين والآخر، أو على الأقل بعد عودته من سفر موفق. بذلك يستطيع الترحال في المنطقة بشكل آمن، دون أي إزعاج. وإن وجد على متن مركب وغرق هذا المركب فإن العرب لن يتوانوا عن نهب المركب، لكنهم يعيدون له حالاً كل بضائعه التي تمكنوا من إنقاذها إذا كان غفيره موجوداً. وإن أعلن المسافر غياب الغفير، فإن البضائع توضع جانباً ويرسم حولها دائرة في الرمل وتصان في انتظار الغفير لتعطى له حالاً عندما يحضر، لكن المسافر الذي لا غفير له أو الذي يدعي باطلاً أن لديه حارساً، فإن حاجياته تسرق دون اعتبار لأي كان. ونظراً لبخل التجار الأتراك وتوفيرا لبعض الهدايا وبسبب كبرياء يمنعهم من التعامل مع شيخ عربي، فإنهم نادراً ما يتخذون غفراً لهم، ويعانون بسبب هذا الإهمال. لأن حق هذا النوع من الصداقة والضيافة، هو حق مقدس ولا يمكن التعدي عليه عند هؤلاء اللصوص. ولذا أخذنا هؤلاء الشيوخ الثلاثة من القبائل الثلاث لاصطحابنا إلى جبل سيناء، فاستأجروا جمالاً لنا ولخدمنا. وتحاشياً لأي من المشكلات فقد طلبنا إلى قاضي السويس أن يكتب الاتفاق معهم بحضور الحاكم.

الفصل الخامس

السفر من السويس إلى جبل سيناء

كنا نتوق إلى القيام بهذه الرحلة ليكون في استطاعتنا العودة إلى السويس قبل رحيل أولى المراكب في بداية أكتوبر (تشرين الأول)، وفي الشهور التالية أصبح الطريق إلى جدة خطيراً جداً. واشتد على رسامنا السيد باورينفايند المرض فور عودتنا إلى السويس وذلك بسبب ما كابد من أتعاب، لذا قررنا أنا والسيد دوهافن أن نسافر وحدنا وأن نترك السيد فورسكال والسيد كرامر في السويس للعناية بصديقنا المريض.

وفي السادس من سبتمبر (أيلول) من عام ١٧٦٢م اجتزنا خليج السويس، وانطلقنا غداة اليوم التالي مع رجالنا العرب. فقد رافقنا بالإضافة إلى الشيوخ الثلاثة وخدمهم، عدد من أصدقائهم، الذين بعد أن عملوا في نقل الماء لبعض الوقت من بئر النبع إلى السويس، ذهبوا لزيارة أهلهم في الصحراء، ورأوا أن يقطعوا مسافة من الطريق على حسابنا. ومن المتعارف عليه عند هؤلاء القوم عن مسافر عربي ذي مكانة مرموقة، فإن عليه إطعام كل الذين يلتحقون به بدون أن يرغب في ذلك. وقد ظنوا أننا أثرياء لأننا بالغنا في الإنفاق والمصاريف.

في اليوم الأول سرنا بمحاذاة البحر الأحمر على جانبيه سهل رملي تتخلله بعض الهضاب. يسمي العرب هذه السهول القليلة الانخفاض، وديياناً لأن المياه تتجمع فيها بعد هطول أمطار غزيرة. أخذنا قسطاً من الراحة في ظل نخلة في منطقة تدعى عيون موسى. وما هذه العيون المزعومة إلا خمس حفائر في الرمل، حيث نجد بئراً ماؤها رديء جداً يتعكر فور استخراجه. وبما أن طالبئر تدعى بئر موسى نبي اليهود فإن العرب يحترمونه ويكرمونه.

وبعد مسير يوم قطعنا فيه خمسة أميال ألمانية ونصف الميل، خيمنا وسط رمال سهل التيه. وهبت رياح عاتية في المساء أثارت الرمال مما أزعجنا وحسب، فمثل تلك الظواهر لا تحدث في أوروبا.

اشتهرت المنطقة التي مررنا بها بهجرة اليهود في أيام موسى. لذا كنا نرغب أن نعرف من العرب أسماء كل تلك المناطق وأسماء الجبال التي صادفتنا، ولم يستطع السيد دوهافن أن يأنس إلى هؤلاء البدو وبالتالي لم يحصل إلا على إجابات غامضة و فظة. فعملت على خلافه على كسب ثقة وصداقة أحد هؤلاء العرب بتقديم بعض الهدايا له وبالسماح له في بعض الأحيان بركوب الجمل معي. فكان هذا الرجل يجيبني بصدق وكان يعطي الأسماء ذاتها للأشياء التي أطلعته عليها ذهاباً وإياباً. كنت أحسب المسافات بحسب خطى الجمل المتساوية ومقارنتها مع الزمن بالنظر إلى ساعتي. وباستخدام بوصلة صغيرة كنت أحدد جهات الطريق. ولم يكن أي من العرب يعرف استخدامها، وبالتالي فإنه من الظاهر أنها حكاية للتسلية عندما يروون مؤكدين أنهم يسافرون في هذه الصحراء بالاستعانة بالبوصلة.

اجتزنا في الثامن من سبتمبر (أيلول) سهل الجردان، وشاهدنا في طريقنا كتلة ضخمة من الحجارة الواقعة من جبل مجاور. ونزلنا إلى وادي جرندل ووصلنا بعد مسير خمسة أميال ونصف إلى قرب جبل حمام فرعون. في اليوم التالي وبعد أن أرسلنا الخدم في الطريق القصير، انصب اهتمامنا على تفحص المنطقة المحيطة. في فصل الأمطار الغزيرة يروي وادي جرندل سيل جامح الذي إذا ما جف فحفرت على عمق قدمين في مجراه، وجدت ماء أعذب من ماء السويس. وبما أن هذا الوادي لا ينقصه الماء أبداً فإنك تجد فيه الكثير من الأشجار والأيك، أمر يلفت نظر المسافرين القادمين من القاهرة ويثير عجبهم، فهم وعلى طول الطريق لم يصادفهم أي إخضرار.

حمّام فرعون، اسم نبع مياه ساخنة تخرج من فتحتين، من صخرة في سفح جبل شاهق، هذا النبع نبع استشفاء لمرضى المناطق المجاورة، هناك جلسات علاجية طيلة أربعين يوماً يأكلون خلالها ثماراً تسمى اللصف وتنبت في المناطق المجاورة. وهناك مقبرة واسعة تقع على مقربة من الحمامات تدفعني للشك في جودة هذا النظام. قصة عبور اليهود وضياع جيش فرعون في هذه المنطقة، أعطى اسم بركة فرعون للحمامات ولذراع البحر المجاور. فقد اعتقد العرب أن هذا الفرعون كفّر عن ذنوبه في هذه الحمامات وتقيأ

البخار المشبع بالكبريت الذي نجده فيها. ورتيبة هذه الضفة الشرقية للبحر الأحمر، في حين أن الضفة الغربية ما هي إلا سلسلة جبال شاهقة يفصلها واديان، على نحو يضطرك إلى المرور في أحدهما للوصول إلى البحر الأحمر قدوماً من مصر.

انعطفنا قليلاً نحو جهة الشمال الشرقي ونحن نسير في الطريق المستقيم المؤدي إلى جبل سيناء، ودخلنا في واد ضيق حفره السيل في الصخر. الجبال التي نلج إليها لا تنقطع أبداً، وهي كتل جرداء من الحجارة الكلسية تتناثر فيها عروق من الجرانيت. وجدت في الكثير من هذه الجبال كمية من مستحثات القواقع، تلك القواقع الموجودة مع الحيوان الحي بكثرة في البحر الأحمر. تغطي إحدى هذه الجبال حجارة الصوان، ويوجد الجرانيت بكثرة كلما اقتربنا من جبل سيناء.

كان دربنا وعراً في أغلب الأحيان. وعادياً عبر الممرات الصخرية، وأكثر اتساعاً في بعض الأحيان عندما يعبر سهولاً رحبة وخصبة إذ لا ينقصها الماء. كوادي الأسيط مثلا (Al-Usaït) ووداي الهمير (Al-Humer) ووادي ورفان (Warfân). وجدنا أيضاً في طريقنا النصب وهو مسكن بعض البدو في هذه المنطقة. لم يكن الماء موجوداً قرب الأماكن التي خيمنا فيها، وكان على الخدم الذهاب بعيداً لإحضاره، كنا نود أن نصطحبهم لرؤية البلاد بعض الشيء، لكن مرافقينا لم يسمحوا لنا بذلك.

بعد أن اجتزنا وادي ورفان تركنا الطريق الكبير لنجد مسكن شيخ الأغواط (Leghât) ووصلنا إليه في المساء، وأسعدني أني سأرى في الحال جبل المقطب الشهير (El-Mukatteb) بما أن المسكن يقع بالقرب منه، لكن حديث الشيخ أفقدني هذا الأمل. وسنرى ما حل بي في هذه المناسبة في وصف الجبل الذي لم أتمكن من تفحصه إلا عند عودتي.

أخبر هذا الشيخ عدداً من أصحابه بوصوله، فأتى عشرة أو اثنا عشر من الرجال لرؤيته، فتركته ليكرم ضيوفه وقطعت عدة تلال في الجوار. ورأيت صدفة في مكان منعزل خيمة بائسة هي خيمة شيخنا هذا، فيها زوجته وأخته وقد انهمكتا في طحن

القمح، خرجت إحداهن لتقدم لي قطعة من الصمغ ولم ترفض ما أعطيتها من النقود الزهيدة عند عودتي. وعلى مقربة منها التقيت بابن الشيخ الذي كان يرعي الماعز وتحدثت إليه طويلاً. وأعجبت بحس واتزان وثقة هذا الولد بنفسه فلم يربكه حضور غريب، ودعاني دعوة قلبية إلى بيته كي أشرب ماء عذباً، استخرجه من البئر في اليوم نفسه. ولحظت كم تتلاءم اللغات مع الأعراف والتقاليد فالبدو يدعون الخيمة بيتاً، فليس لهم بيت سواها.

يحمل أكثر أصحاب مرافقنا لقب الشيخ، وبالرغم من تشابه مظهرهم لكن لباسهم ليس أفضل من لباس العرب الآخرين، وخلصت إلى أن هذا اللقب لا يعني في هذه المنطقة إلا سيداً من قومنا.

وبما أننا قررنا الوصول إلى جبل سيناء،فقد غادرنا بيت شيخ بني الأغواط في الثاني عشر من سبتمبر (أيلول)،وكنا كلما تقدمنا في مسيرنا أصبحت البلاد جبلية أكثر. ومع هذا فقد اجتزنا بعض الوديان الجميلة كوادي الشملة والدبور والبرك والجن. قبل أن نصل إلى وادي اسرائيتو، وبالرغم من أنه محاط بجبال جرداء وعرة إلا أن له بعض الإطلالات الجميلة والزاهية. لقد اضطررنا لاجتياز جبل مرتفع ووعر.

التقينا مع سيدة عربية وخادم في هذا الوادي، واحتراماً لشيوخنا فقد تنحت عن الدرب وترجلت عن ناقتها ومشت بالقرب منا. أما عندما التقينا بامرأة أخرى تلبس حجاباً كاملاً وتسير على الأقدام، وبما أنها لن تتمكن من تحاشينا في ممر ضيق في وادي الجن فقد جلست وأدارت لنا ظهرها، ألقيت التحية عليها متمنياً لها السلامة، لكن مرافقينا أخبروني أنها أدارت ظهرها من باب الأدب والاحترام للأجانب، وإنني أسأت الأدب عندما ألقيت السلام عليها.

يقع بيت شيخ بني سعيد على بعد ما يقارب سبعة أميال ألمانية من بيت شيخ قبيلة الأغواط، ولم يشأ الأول أن نمر بالقرب من أسرته دون أن نراها، لذا وجب علينا أن نترك الدرب مرة أخرى ونمشي مسافة نصف فرسخ للحاق بمرافقنا. نصب العرب خيمة لنا قرب شجرة في وادي فاران واستمتعنا بالوحدة عندما كانوا في زيارة أصدقائهم

في واحات النخيل المتناثرة في الوادي. كنا بعيداً عن خيام شيخنا والمؤلفة من تسع أو عشر خيام، وقيل لنا إنه وجدت في الجوار آثار مدينة قديمة، لكن العرب وعندما لقوا منا اهتماماً بذلك تركونا ولم يشاءوا تزويدنا بمعلومات أكثر.

وادي فاران (Farân) المشهور هذا حيث نوجد الآن، لم يتغير اسمه منذ زمن النبي موسى، يبلغ طوله مسير يوم ونصف، يمتد من سفوح جبل سيناء حتى البحر الأحمر. يمتلئ بالمياه في فصل الأمطار الغزيرة مما يضطر السكان إلى الانسحاب إلى بطون الجبال، وخلال فترة إقامتنا فقد كان جافاً. ولم نرَ فيه إلا جزءاً صغيراً خصباً ترعى فيه الماعز والإبل والحمير. بينما يعتبر ما تبقى من هذا الوادي خصباً جداً، وقد قال لنا العرب إن بعض المناطق فيه والتي ذهب إليها حراسنا، هي واحات كثيرة تنتج ما يكفي من التمور لإطعام آلاف الناس. ويجب والحق يقال إنه تتوافر فيه الفاكهة بكثرة، لأن العرب يحملون إلى السويس والقاهرة في كل عام كمية مدهشة من التمر والعنب والأجاص والتفاح وفاكهة أخرى في منتهى الجودة وقد قدم لنا من أتى لرؤيتنا من العرب رطباً صفراء في أول نضوجها. أتت أولى نساء الشيخ بصحبة نساء أخريات لزيارتنا وقدمن لنا بيضاً ودجاجة، لهذا الشيخ زوجتان تهتمان بشؤونه في مكانين مختلفين، إحداهما تدير واحة نخيل بعيدة شيئاً ما، بينما ترعى الأخرى وهي جارتنا الماشية والدواجن. ولم تشأ الثانية الدخول إلى خيمتنا في حين أنها جلست على مقربة منا لتتحدث إلينا على راحتها، وشكت من زوجها الذي يهملها ويفضل ضرتها، ويمضي معظم وقته في مصر لنقل الماء أو البضائع. ولم يكن شيء ليثير إعجابها أكثر من قانوننا الذي يمنع تعدد الزوجات. كانت تلك المرة الأولى التي تتاح لي الفرصة للتحدث دون حرج مع امرأة مسلمة. وبما أننا انطلقنا في الرابع عشر من سبتمبر (أيلول) فقد قطعنا ميلين في وادي فاران ووصلنا إلى سفوح جبل موسى. صعدنا ميلاً ونصف الميل وخيمنا قرب كتلة كبيرة من الحجارة المتشققة، والتي حسب رواية العرب، قطعها موسى بضربة واحدة من عصاه. وجدنا ينابيع مياه عذبة في تلك الجبال، وشربت بسعادة فائقة للمرة الأولى منذ وصولي إلى مصر ماء عذباً.

الفصل السادس

جبل سيناء ودير القديسة كاترين

يسمي العرب جبل موسى كل تلك السلسلة التي ترتفع في طرف وادي فاران (Farân)، ويسمون طور سيناء الجزء الذي يقع فيه دير القديسة كاترين من هذه السلسلة. ويبدو أن تطابق الأسماء يعود إلى التقليد الذي يتلخص في أن الجبل الذي نحن عليه الآن هو سيناء اليونانيين، حيث تلقى موسى الناموس. في الواقع يصعب أن نفهم أن شعباً كبيراً كاليهود استطاع أن يخيم في مثل هذا المضيق الضيق وسط جبال وعرة ومخيفة. يمكن أن تكون هناك سهول في الجهة الأخرى من الجبل فهذا ما نجهله حقاً.

بعد أن صعدنا ميلين ونصف من سفح الجبل، وجدنا دير القديسة كاترين، المبني على أرض منحدرة. يبلغ طول بناء الدير ستين قدماً مضاعفة ومثلها تقريباً عرضه. في مقدمته مبنى صغير آخر وفيه باب الدير الوحيد. ويسد الباب عندما يكون المطران غائباً. كل من يدخل الدير يرفع عبر السقف بواسطة حبل وبكرة، يرفع المرء في سلة كما ترفع المؤن أيضاً. بني الدير كله من الحجارة المنحوتة وهي طريقة بناء في هذه الصحراء البعيدة قد تطلبت الكثير من الجهود الكثيفة والتكاليف الباهظة.

يوجد أمام الدير بستان مليء بأروع أشجار الفاكهة، وقد أكد لنا العربان أن الرهبان يدخلون إليه من دهاليز تحت الأرض. ولا يسمح للرهبان اليونانيين استقبال رجل أوروبي دون إذن مطران جبل سيناء، المقيم بشكل دائم في القاهرة. وقد وعدنا المطران برسالة إلا أنه سافر على غير علم منا إلى القسطنطينية. لكننا وبمساعدة السفير الإنجليزي تمكنّا من الحصول على رسالة أخرى من البطريرك المعزول، الذي كان قد أمضى ثلاث سنوات في دير القديسة كاترين. واعتقاداً منا أنه يكفي لرسالة التوصية هذه أن تسمح بقبولنا في الدير فقد قدمناها للرهبان وذلك بإدخالها في حفرة صغيرة في السور. تشاوروا

حول أمر استقبالنا، وبعد طول انتظار أجابونا أنهم لا يستطيعون استقبالنا لأنه ليس بحوزتنا رسالة من مطرانهم.

أثناء محادثتنا تجمهر حولنا عدد كبير من العرب الذين رأيناهم من الجبال المجاورة، وقد دفعنا لهم مبلغاً معيناً لقاء استقبال كل أجنبي في الدير. عندما يكون المطران في الدير يفتح الباب، ويقيم الدير وليمة لكل العرب الذين يأتون إليه في هذا الوقت. وتثقل هذه العادة كاهل هؤلاء الرهبان الفقراء بالتكاليف الباهظة، فهم يعيشون من الصدقات والحسنات والتي تنهب في الطريق إليهم من القاهرة إن كانت من المؤن. وبصورة عامة، فإن العرب جيراناً شديدي الخطورة، وغالباً ما يطلقون النار على الدير من الجبال المجاورة، وما إن يخرج الرهبان من ديرهم حتى يختطفوهم ولا يطلقوا سراحهم إلا بعد دفع فدية قيمة. وقد شاهدنا بأم أعيننا وقاحة أحد الرجال البدو الذي انهال بالسباب والشتائم على هؤلاء الرهبان الذين رفضوا إعطاءه في الحال الخبز الذي طلبه بنبرة متعجرفة.

وكي لا نسبب أي إزعاج للرهبان، فقد انسحبنا وخيمنا على مسافة ربع الفرسخ من الدير. ومكافأة لتصرفنا الحذر، أرسلوا لنا حالاً هدية من الفاكهة. بدا العنب شهياً لأشخاص مثلنا سافروا طويلاً في بلاد جرداء قاحلة. ومن بين هؤلاء العرب المحتشدين حولنا كنت أرغب في اختيار دليل يقودني في سيناء فلم يكن حراسنا يريدون تكبد عناء هذا الأمر، مما سبب خلافاً بينهم وبين العرب الآخرين. وأخيراً أحضر لي شيوخنا عربياً قطع شوطاً من الطريق معنا، وكانوا يدعونه بشيخ سيناء، وذلك ليسمحوا له بالاستفادة بعض الشيء من مرافقته الحجاج. بصحبة شيخ سيناء والشيوخ الآخرين، عزمت في اليوم نفسه على تسلق هذا الجبل، من المستحيل أن يكون موسى قد وصل إليه من تلك الجهة التي رأيتها بسبب وعورته، ومن أجل التمكن من تسلقه فقد حفر اليونانيون بعض الدرجات في الصخر، تلك الدرجات كانت في بعض النواحي من الحجر المنحوت، وقد عد بوكوك (Pococke) ثلاثة آلاف درجة حتى قمة الجبل أو بالأحرى هذا الصخر الأجرد والوعر. بعد أن صعدنا خمسمائة درجة من دير القديسة كاترين،

وجدنا نبعاً رائعاً والذي كان سيصبح مكاناً جميلاً لو توافرت له بعض اللمسات الفنية. كما وجدنا بعد ألف درجة كنيسة صغيرة للعذراء، صعدنا خمسمائة درجة أخرى لنجد معبدين آخرين في سهل تدخل إليه من بابين صغيرين مبنيين. في هذا السهل شجرتان يقيم في ظلهما العرب وليمة أيام الأعياد الكبرى وذلك على حساب اليونانيين. قلد مرافقونا المسلمين الحجاج في تقبيل الصور والصلاة في المعبد، ورفضوا مرافقتي أبعد من ذلك بذريعة أنها القمة التي يمكن الوصول إليها في هذا الجبل، بالأخذ في عين الاعتبار ما قاله بوكوك (Pococke) ، يبقى علي أن أصعد ألف درجة للوصول إلى القمة. فاضطررت للنزول والاكتفاء بمشاهدة جبل القديسة كاترين عن بُعد والذي يرفض الشيوخ اصطحابي إليه.

الفصل السابع

العودة من جبل سيناء إلى السويس

نزلنا من جبل موسى بعد ظهر الرابع عشر من سبتمبر (أيلول)، وقضينا ليلتنا في سفحه حيث يبدأ وادي فاران (Farân). وفي اليوم التالي وبما أننا لم نقطع إلا ثلاثة أميال في الوادي فقد توقفنا قرب منازل شيخ بني سعيد.

تركنا الحراس مرة ثانية وذهبوا للقاء أصدقائهم في واحات النخيل. والتقينا أثناء غيابهم بشاب عربي يركب جملاً، الشاب كان مخموراً في إحدى تلك الواحات، وعندما علم أننا أوروبيون ومسيحيون اخذ يمازحنا كما يمازح تقريباً شاباً أوروبياً بلا تهذيب وبكل وقاحة يهودياً في أوروبا. واستنتجنا من تلك الحادثة أن البدو يصنعون الخمر. ولاحظنا في الوقت نفسه حكمة الشريعة الإسلامية التي تحرم على متبعيها استعمال الكحول القوي والذي يثير الأهواء، فأهواء سكان البلاد الحارة عنيفة بالفطرة.

في الواقع، من عادة بعض المسلمين في المدن أن يشربوا الخمر، لكنهم يسترون هذه المعصية ويختبئون في بيوتهم، ولا يجرؤون على الظهور ثملين في المجتمع، خجلاً أو خوفاً من العقاب. باستثناء ذلك الشاب فإنني لم ألتق خلال كل أسفاري ورحلاتي بمسلم مخمور وفظ كهذا.

بعد عودة حراسنا انطلقنا في العشرين من الشهر وتقدمتهم في اليوم التالي لأرى مرة أخرى الجبل الذي سأتحدث عنه في وصفي للمقبرة المصرية.

رأينا في اليوم التالي جزءاً من الدرب الذي قطعناه ليلاً ونحن ذاهبون إلى جبل موسى. في ذلك المكان وقرب معبر جبلي يسمى أم الرجلين، وجدت كتابات بحروف مجهولة حدثوني عنها في القاهرة، حفرت الكتابات بخشونة في الصخر بواسطة بعض المعادن المسننة دون ترتيب أو انتظام. ورأى العرب أن الوقت الذي أمضيه في نسخ تلك الكتابات هو وقت ضائع، لم يخطئوا كثيراً في حكمهم وسأشرح رأيي حول هذه الكتابات المبجلة عند حديثي عن جبل المقطب.

في الخامس والعشرين من سبتمبر (أيلول) عدنا إلى السويس، لنجد السيد

باورينفايند وقد تماثل للشفاء، وكان علينا للوصول إلى هذه المدينة اجتياز ذراع البحر نفسه والذي قطعناه في المركب أثناء ذهابنا، لكن لم يكن يوجد أي مركب على الضفة الشرقية. وعندما رأينا أن الوقت هو وقت الجزر، جازفنا بعبور هذا الجزء من الخليج إلى اليابسة. ونجحنا في ذلك نجاحاً كاملاً ونحن ننعطف قليلاً نحو الشمال، من جهة آثار القلزم، سارت جمالنا بخطى واثقة، أما العرب المترجلون فلم يصل الماء إلا إلى ركبهم. من المحتمل أن تكون تلك هي المرة الأولى التي يحاول فيها أوروبيون قطع تلك المسافة بهذه الطريقة. رأينا في هذه المحاولة التباين الكبير في ارتفاع مياه خليج السويس، وسبب هذا التباين هو المد والجزر، واقتنعنا من أننا نستطيع عبور البحر الأحمر أثناء الجزر.

عند عودتنا إلى السويس، كانت لدي رغبة في تفحص قسم من الساحل الغربي للخليج والجبال التي تحفه. لكني – والحق يقال – لم أستطع أن أجد من يصطحبني في تلك الرحلات الخطيرة. فما أن تبتعد قليلاً عن المدينة حتى تتعرض للنهب والسرقة كما في وسط الصحراء. وقبل أخيراً رجل عربي أن يرافقني لكنه كان يرتجف عندما يرى أي مخلوق إنساني، والذي كان على ما يبدو يخاف منا أيضاً، وبسبب انزعاجي في تلك الرحلات فإنني لم أتمكن من تدوين ملحوظات على درجة من الأهمية. لكن سنحت لي الفرصة لأرى وللمرة الأولى ظاهرة مذهلة أثارت اهتمامي بشكل خاص لكنني اعتدت عليها وألفتها مع مرور الوقت. عربي راكب جملاً رأيته قادماً من بعيد، بدا لي كبرج عال يتحرك في الهواء، إلا أنه كان يمشي في واقع الحال على الأرض مثلنا. تحدث العديد من المسافرين عن خداع البصر هذا، الذي يبرهن عن انكسار الأشعة الأقوى من الأفق في هذه المناطق الجرداء، أي الأفق المشبع ببخار ذي طبيعة مختلفة عن الغازات التي تملأ أجواء البلاد الحارة. وقد استحال علي أن أحصل على معلومات إيجابية تتعلق بالقناة التي تتصل بالنيل في البحر الأحمر. ولم أتمكن من توظيف أي عربي ليصطحبني إلى المنطقة التي على ما يبدو تقع فيها القناة، والتي تقطنها قبيلة معادية لسكان السويس. وفي ضواحي المدينة لم ألحظ أي أثر لقناة، إلا كتلك التي رأيناها في وادي مصيبحة الواقع بين بير سويس والمدينة. تتجمع المياه في الوادي بعد هطول الأمطار الغزيرة، ويأتي السكان ويأخذون منها قدر احتياجاتهم، تغطي الحشائش تلك المياه الجارية.

الفصل الثامن

من جبل الكتابات ومن مقبرة مصرية

منذ أن نشر السيد كلايتون وهو مطران كلوجر، رواية الرئيس العام لدير الآباء الفرنسيسكان في القاهرة، تحدث الناس كثيراً في أوروبا عن اكتشاف هذا الراهب لجبل كامل غني ومليء بكتابات كتبت بحروف مجهولة. أسعدنا وجود آثار ليهود قطنوا سابقاً هذه المنطقة، وعلى هذا الأمل وعد مطران كلوجر بجائزة قدرها ٥٠٠ جنيه إسترليني كأجر سفر لعالم يأخذ على عاتقه نسخ هذه الكتابات المهمة.

وبينما خفت بريق ألق هذا الاكتشاف المندثر و تلاشت الآمال، لاحظنا أن العديد من المسافرين كانوا قد تنبهوا، على درب جبل سيناء إلى صخور ممتلئة بنقوش فريدة وحتى أن كُتَّاباً يونانيون كانوا قد تحدثوا عنه في القرن الثالث. مومونيس قد نسخ شيئاً من تلك الكتابات: بوسوك و مونتاجو كانوا قد نسخوا كتابات أخرى، وأعطوها لعدة علماء. وبالتالي نستطيع البت أن تلك النقوش لن تكون قد نقشتها أيد يهودية ولا أيد عربية، بسبب أشكال نحتتاً نحتاً رديئاً رافقت تلك الكتابات. واعتقد البعض أنهم تعرفوا إلى خليط من الحروف القبطية والعربية. أخيراً رجل ضليع وخبير باللغات الشرقية خمن أن تلك الكتابات يمكن لها أن تكون فينيقية: وما يزيد من قوة هذا الاحتمال، أن هذا الشعب كان له في الزمن الغابر مؤسسات عظيمة الشأن على السواحل الشرقية للبحر الأحمر.

لم نكن متفقين على قيمة هذه الكتابات و الحقائق التاريخية، ولا حتى على ما يمكن أن يرتجى منها. ويفيد أكبر الخبراء أن تلك الكتابات بسبب أمكنتها ونحتها لا تحمل إلا أسماء مسافرين وتواريخ مرورهم من هذا المكان. حيث نرى عدداً هائلاً من الكتابات الرديئة اليونانية والعربية التي تحتوي على أسماء أشخاص اعتقدوا أن هذه الوسيلة المتواضعة ستتحدث عن حياتهم المجهولة إلى ذريتهم.

ولكي أعرف على أي نحو علي أن أتصرف، قمت بنسخ عدد كبير من تلك الكتابات

المكتوبة بحروف مجهولة والمنحوتة على الصخور التي تحف جانبي الطريق المؤدي إلى جبل سيناء كان يوجد البعض منها على الجبل. لدي نسخة من كتابات أخرى تختلف حروفها عن الحرف السابقة، قبل مجيئي بوقت قصير قام بهذه النسخة السيد العالم دوناتي، وقد ضاعت هذه النسخة فهي لم تعد إلى أوروبا. أما أغنى المناطق بكتابات من هذا النوع فهو مضيق أم الريسلين الذي تحدثت عنه: ومن الممكن أن يكون جبل المقطب في تلك المناطق.

بعد أن تُفحّص المكان جيداً وتُفحّصت أشكال هذه الحروف، أرى أنني ممن يعتقدون أن تلك الكتابات ليست على درجة من الأهمية وتبدو وكأنها من صنع أيادي المسافرين اللاهين الذين اكتفوا بحك الصخور بمنقرة صغيرة لكتابة ما يؤرخ سفرهم وبإضافة أشكال من رسوم لائقة لتلك الشعوب البدائية. عندما يود البعض أن يترك للأجيال القادمة أحداثاً هامة، فإن عليه أن يولي اهتماماً أكبر في تحضير الحجارة، وأن يعنى بانتظام الكتابة، كما ستتاح لي الفرصة في الحديث عنه عندما أتطرق لموضوع آثار عاصمة الفرس مدينة برسبوليس.

ورغم الاحتياط البديهي الذي اتخذناه تجاه كل الروايات والحكايات التي تخص هذا الجبل، فقد استعلمنا في القاهرة عن أحواله، ووجدنا كما نوهت سابقاً شيخاً من قبيلة الأقباط، الذي زعم إلمامه ومعرفته بجبل المقطب الشهير هذا ووعدنا أن يقودنا إليه. فقد كان من واجبنا رؤية تلك الكتابات، ولم نكن نود أن تضيع من أيدينا تلك الفرصة.

وفي مساء العاشر من سبتمبر (أيلول) وصلنا إلى مكان إقامة الشيخ الذي اصطحبنا في اليوم التالي برفقة حرسنا إلى ذلك الجبل. فقد قال لنا إنه يقع على مقربة من سكنه، وبما أننا سلكنا درباً وعراً وقاسياً فقد أدهشنا وجود مقبرة فرعونية رائعة في حين أننا كنا ننتظر وجود كتابات. أطلقنا اسم المقبرة الرائعة على هذا المكان بالرغم من أننا لم نر مثيلاً لذلك المكان في مصر حيث دفنت معالم من هذا النوع تحت الرمال.

لكننا و عندما ندرس قليلاً فن العمارة المصرية والهيروغليفية المصرية، ونتفحص

الاكتشافات القديمة في صعيد مصر التي اكتشفها نور الدين، فإننا لن نتوانى عن نسبة آثار المباني التي بين أيدينا إلى هذا الشعب.

قمة هذا الجبل المزعوم والمسمى جبل المقطب مليئة بالحجارة، الواقفة منها والمنقلبة، والتي يتراوح طولها من ٥ إلى ٧ أقدام، والغنية بالكتابات الهيروغليفية : وكلما تفحصناها زادت قناعتنا أنها حجارة قبور مع كتاباتها. يوجد في وسط الحجارة مبنى لم يبق منه إلا السور و يوجد في داخله أيضاً كمية من حجارة قبور. في طرف المبنى توجد غرفة ما يزال الجزء العلوي منها قائماً حتى اليوم، تستند الغرفة إلى أعمدة مربعة الشكل وهذه الأعمدة بالإضافة إلى السور مغطاة بالكتابات الهيروغليفية.

نجد في كل المبنى تماثيل نصفية من فن المصريين القدماء. ونعلم أن المصريين كانوا يستخدمون الصوان أو حجارة شبيهة به. لإنجاز أعمال مثيلة.

ترك لنا العرب الفرصة لنفحص بهدوء تلك الطرائف، وتدوين بعض الملحوظات. لكنني عندما هممت بنسخ بعض الكتابات الهيروغليفية، هرع الجميع نحوي وقالوا لي إن شيخ هذا الجبل يمنعني من القيام بعمل كهذا ، ولن أجرؤ على تنفيذه دون إذن الشيخ. هذا الشيخ المزعوم هو عربي من معارفهم، فقد اتفقوا فيما بينهم على إطلاق هذا اللقب عليه، للاستفادة من هذه السلطة، وبالتالي الحصول على بعض المال منا. سيد جبل المقطب الذي تقدمنا إلى الجبل ليستقبلنا عنده، قال لنا وهو يقترب منا إنه لن يسمح لنا مقابل مائة أكو بأن ننسخ أي شيء ومن المحال أن يطيق رؤية النصارى يأخذون كنوزهم الدفينة في أراضيهم. يظن العرب المؤمنون، أو الذين يدعون الإيمان أن الأوروبيين يملكون السر في نبش الكنوز الدفينة في الأرض ونقلها عبر الأثير، شرط أن يتمكنوا من نسخ الكتابة التي ستدلهم على ذلك، ويتخذون من هذا الاعتقاد حجة لابتزاز المال من المسافرين. وبناء على هذا الاعتقاد الخرافي، فقد أسسوا نيتهم وزعمهم ليتقاسموا معنا ما وجدنا من الكنوز، أو بإجبارنا على دفع مائة أكو لقاء السماح لنا بالبحث عن الكنوز. وعندما فقدت الأمل في إقناع هؤلاء الرجال المعنيين بالأمر، وعدت سراً بأن أدفع أربعة أكو لأحد حراسنا فهو رجل يتصرف دوماً بنزاهة ورشد وتعقل، وذلك كي يرافقني بمفرده

إلى هذا المكان بعد عودتي من جبل سيناء، ولكي يتيح لي الوقت الكافي ما أرغب في نسخه، وقد لحظت مسبقاً أن هذا العربي قد وفى بوعده وأني نفذت ما خططت له. وللكتابات الهيروغليفية التي أعطيت عنها نسخة، جمال الكتابات الموجودة في مصر. شيء وحيد انفردت فيه تلك الكتابات وهو أن الماعز الحيوان المألوف في هذه المنطقة، موجود في كل الكتابات، بينما احتوت الكتابات التي بقيت في مصر على الثور ولا وجود للماعز فيها على الإطلاق. وبالتالي فلن يكون بإمكاننا الافتراض أن هذه الآثار من صنع سكان مصر نفسها بل من صنع فئة من المصريين أو من أناس تبنت الفنون والعادات والتقاليد المصرية. فالعرب الذين استولوا في الأزمان الغابرة على مصر تحت حكم الملوك الرعاة، استطاعوا عندما طردوا إلى صحرائهم أن يحملوا معهم فنون وعادات وتقاليد الشعب الذي غزوه. ومهما يكن الأمر من هذا الاعتبار، فإنه ليس من السهل تفسير سبب وجود تلك المقبرة العائدة إلى مدينة غنية ازدهرت فيها الفنون في وسط الصحراء وعلى جبل وعر بعيداً عن البلاد المتحضرة، ومن المؤكد أن هذه المنطقة مأهولة بالسكان حسبما تبدو عليه للوهلة الأولى، لأن العرب يسعون لجعل المسافرين يعبرون دروباً بعيدة عن السكان، لكن من المستحيل أن نتصور أن هناك مدينة غنية ومزدهرة في وسط هذه الصخور الجرداء. ومن المرجح أن بعض سكان المدن الساحلية، على ساحل البحر الأحمر وبسبب تبجيل خاص للجبل المعني بالأمر، لم يألوا جهداً في نقل موتاهم وتكبد عناء المسير يوماً كاملاً لدفن موتاهم في مثل هذا المكان المقدس.

الفصل التاسع

بعض تقاليد عرب الصحراء

العرب مقسمون في الواقع إلى قبائل، وعندما يتحدثون يقولون بنو فلان، وبذلك فإن بني الأغواط تعني قبيلة الأغواط. ولهذه القبائل الصغيرة شيوخها الخاصين، الذين يتبعون الشيخ الأكبر لقبيلة ذات نفوذ كبير.

وفي طريقنا إلى جبل سيناء مررنا في أراضي بني الأغواط، وبني صوالحة، وبني سعيد. ولهذه القبائل الثلاث علاقات خاصة مع دير القديسة كاترين، فهم يدعون أنهم كانوا حماته، لكنهم بالأحرى كانوا مصيبته وبلاءه. فبنو سعيد وهم الأقرب للدير ينحدرون من الصعيد ولهم بشكل خاص سمعة سيئة للغاية.

هؤلاء العرب وبالرغم من تفرقهم إلا أنهم اجتماعيون و غالباً ما يتبادلون الزيارات. ولهم آدابهم الخاصة وهي احتفالية جداً. فعندما وصلنا إلى شيخ قبيلة الأغواط، شهدنا احتفال زياراتهم. فعندما علم أصدقاء الشيخ بقدومه، أتوا لإلقاء السلام والتحية عليه ونلنا نحن أيضاً نصيباً من لطفهم، فقد هنؤونا ظاهراً برحلتنا الموفقة إلى الصحراء. فعندما يتبادلون التحية يتصافحون ويتعانقون ويسأل كل منهم بمودة عن الحال والصحة، وعندما يدخل شيخ على مجموعة ينهض الجميع فيدور الشيخ ويسلم على الموجودين ويعانقهم.

وتخيل بعض المسافرين أن جزءاً من آدابهم تتجسد في السؤال المتبادل عن صحة الإبل والمواشي. لكننا رأينا أن سؤالاً كهذا يسيئهم، فإذا ما التقى رجلان من مهنة واحدة، دار الحديث بينهما بشكل طبيعي عن العمل، وهكذا فإن رجلين من البدو وبما أن شاغلهم الوحيد هو الاهتمام بالمواشي، يتحدثان بأمور تتعلق بهذا الموضوع، كما يتحدث فلاحونا عن حقولهم ومراعيهم.

وتشبه طريقة عيشهم إلى حد ما طريقة عيش العرب الرحل والأكراد والتركمان، فهم يسكنون في خيم من نسيج خشن، أسود اللون أو مخطط بالأبيض والأسود،

نسجته نساؤهم من شعر الماعز. وتنقسم تلك الخيام إلى ثلاثة أقسام أحدها للنساء والآخر للرجال والثالث للماشية. أما الذين لا يملكون خيمة كاملة، فهم يحتمون من تقلبات الطقس تحت قطعة من القماش شدت على بعض الأعمدة الخشبية. أما ظل الأشجار وكونه ممتعاً للغاية في مثل هذه المناطق المقفرة، فإن البدو يبحثون عن أمكنة ظليلة للتخييم فيها.

ويتناسب الأثاث مع بساطة المسكن : ويتألف من حصيرة كبيرة من القش ويستخدمونها كطاولة وكراسي وسرير، أما تجهيزات المطبخ فهي سهلة النقل أيضاً: وتتألف من بعض الأواني والأطباق وبعض الكؤوس النحاسية المبيضة. أما الثياب وكل ما يمتلكون من أشياء ثمينة فهي مخبأة في أكياس جلدية ومعلقة داخل الخيمة. يوضع السمن في إناء من الجلد، والماء في قرب من جلد الماعز. ويبنى موقد الطهي في كل مكان وفي الحال فما هو إلا حفرة حفرت في التراب أو بعض الحجارة رصفت بجانب بعضها البعض. وعوضاً عن الفرن فإن لديهم صاجاً حديدياً، يخبزون عليه العجين المصنوع على شكل أرغفة رقيقة. ولا يعرفون إلا حجر الرحى.

طعامهم بسيط بساطة حياتهم. يحبون الخبز الطازج، ويسعون أثناء التسوق في الصحراء بشكل خاص إلى شراء الدقيق. ويتألف طعامهم من التمر وحليب المواشي دون أن نستثني حليب النوق، ومن الجبن و العسل. أما الوليمة فهي ماعز صغيرة تذبح وتشوى وتؤكل حالاً.

وبالرغم من أنهم فقراء ومجبرون على العيش مما يصرفه الغرباء لكنهم كرماء فيما بينهم يدعون بعضهم البعض إلى تناول الطعام، ولا يقبل شيوخنا دعوة على الطعام إلى مائدة أحد من أصدقائهم من دون أن يأخذ على عاتقه رد الدعوة.

ويرتدي عرب الصحراء تقريباً ثياباً عادية كثياب إخوانهم في مصر، ولا يختلفون عنهم إلا بالنعال المصنوعة من الجلد الخام وذات الشكل الخاص. قسم كبير منهم يسير حافي الأقدام على الرمال المحرقة مما يجعل أقدامهم في النهاية بلا إحساس. وطريقتهم

في التسلح ما زالت تشبه طريقة العرب المصريين : يمتطون الإبل كما يمتطي الآخرون صهوة الخيل ويحملون الرماح والسيوف وأحياناً البنادق.

وبالرغم من بساطة زي النساء أكثر من زي المصريات العادي، إلا أنه في الواقع نفس الزي. فقد تميزت زوجة أحد شيوخنا بعقد فريد من نوعه، فهو مؤلف من حلقات كبيرة من الشبهان، ووضعت منه في أذنيها، وفيما تبقى، فإن تلك النسوة اللواتي يعشن بمعزل عن الدنيا واللواتي يعنين بتلبية حاجات أسرهن، يبدين اهتماماً أقل من باقي النساء الشرقيات في استقبال الضيف سافرات الوجوه.

في الواقع يسمح للمسلمين بالزواج من أربع نساء، أما البدو الفقراء الحال والذين يربكهم السعي وراء رزقهم، فهم يكتفون بزوجة واحدة. في حين يتزوج ميسورو الحال من اثنتين وذلك ليكون لديهم من يدير شؤونهم في مكانين مختلفين. تصرفات وحديث شيخ بني سعيد دفعتنا للتفكير على هذا النحو ويبدو لنا تفريقه لزوجتيه شاهد آخر على سيئات تعدد الزوجات.

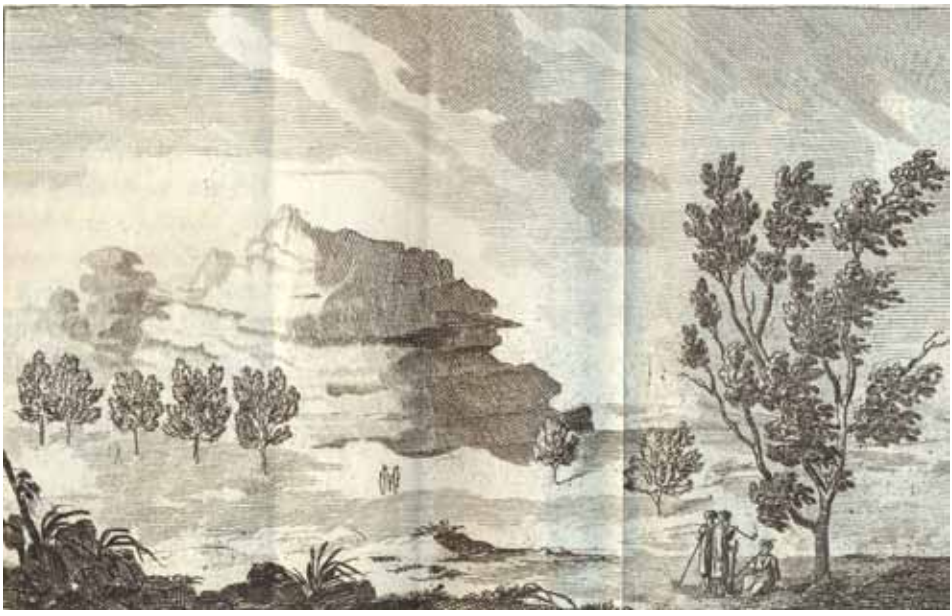

وادي ورفان يسكنه بدو وعرب رحّل

القسم السابع
السفر من السُّوَيْس إلى جَدَّة واللُّحَيَّة

الفصل الأول

مغادرة السويس

أثناء غيابنا قدمت بالتتابع عدة قوافل صغيرة إلى السويس ووصلت القافلة الكبرى القادمة من القاهرة للتو، بعد عودتنا من جبل سيناء.. ومع أننا لم نكن نخشى على الإطلاق القراصنة بالذات في البحر الأحمر. بحّارة هذه الديار لا يتقنون الملاحة كما يجب حتى أنهم لا يجرؤون أبداً على الابتعاد عن الشواطئ، إلا أن هذه الطريقة البطيئة في الملاحة قد عرضت مركباً وحيداً في عرض البحر إلى النهب من قبل العرب، وقد حدث مثل هذا ورأيناه العام الماضي. ولهذا السبب أيضاً تسير المراكب في قوافل وكل أربعة مراكب تسافر دوماً مع بعض لنجدة بعضهم بعضاً.

بدت السويس مزدحمة بالسكان أكثر من القاهرة بعد أن وصلت إليها هذه القوافل ؛ وكل هذه الجموع التي لا تستطيع البقاء هنا طويلاً ولم تكن تفكر إلا بالرحيل دون أي تأخير.

كنا نحمل توصية من رباني مراكب مزمعين على السفر، وبالرغم من أننا اعتدنا العيش مع المسلمين، فقد شعرنا أثناء الرحلة إلى جدة بعناء لم نشعر به في رحلات كانت أكثر خطورة من هذه. وقد أشار لنا يونانيون أن المسلمين يعتقدون أنه لا يجدر بالمسيحيين القيام بمثل هذه الرحلة مع الحجاج الذين يقتربون من المدينة المقدسة. وبسبب ما ذكرناه، لم نكن نجرؤ على المشي في المركب ونحن نحتذي نعالنا، فقد كان بعض الحجاج لا ينظرون إلينا بعين الرضا تقريباً مثلما ينظر إلى البروتستانتي راهب كبوشي ذاهب إلى أورشليم. ولكن إن كنت لا تجرؤ على السير حافي القدمين على سطح السفينة فذلك يشكل إهانة للمسيحيين، بل هو قانون عام يسود الجميع، فقد كان السطح في هذه المراكب يعتبر بمثابة قاعة لا تدخل إليها إلا بعد أن تخلع حذاءك.

وحتى لا نختلط مع هؤلاء المسلمين استأجرنا غرفة اخترناها في أفضل المراكب التي وجدناها. وفي الغرفة المقابلة لنا كان يقيم طواشي أسود غني مسافر إلى المدينة، وقد

حمل معه حاجات لا فائدة له منها، وكان يتخذ سرايا حريم وكأنه سيد تركي. أما الغرفة الكبيرة التي تحت غرفتنا فقد اتسعت لنحو أربعين من النساء الجواري مع أولادهن ورجل مملوك، وقد أزعجتنا جداً نزاعاتهم وصراخهم الدائم.

واستأجر كل واحد من التجار مكاناً على السطح وأحاطه بحزم وطرود، وتركوا مكاناً صغيراً لتحضير الطعام والجلوس والنوم. فانزعج بحارتنا اليونانيون لعدم مهارتهم ولصعوبة القيام بمهامهم بسبب كل تلك العوائق، فصاروا يدوسون على أمتعة التجار مما أثار نزاعات ومشاجرات باستمرار. كان مركبنا رغم قدرته على حمل أربعين مدفعاً على الأقل، مشحوناً ببضائع كثيرة. وبغض النظر عن حمولته، كان يجر خلفه أربعة قوارب نجاة، ثلاثة منها كبيرة وواحد صغير، الثلاثة الكبيرة محملة بالمسافرين والخيل والخراف وحتى بنساء مشكوك في نشاطهن. أما الربان فهو تاجر كبير من القاهرة اسمه شعيب، قد لا يكون نجمه لامعاً بين البحارة الأوروبيين. وقد سلم الأمر إلى بحار عديم الخبرة. وكان يضع بين الفرجارين حيث يضع الأوروبيون الضوء، حجراً مغناطيسياً كبيراً، ليزيد حسب زعمه، قوة الإبر المغناطيسية بطريقة غير محسوسة. وكان لا بد لنا من أن نسلم أنفسنا إلى بحارة من هذا الطراز، ممن لا يجرؤون على المغامرة في عرض البحر، ويتتبعون الشواطئ المليئة بالحواجز البحرية شُعب المرجان. ومباشرة بعد الاتفاق على الثمن دفعنا لربان مركبنا أجرة كل الرحلة من السويس إلى جدة، لكن وفقاً لعادات هذا البلد كان علينا قبل الإبحار أن نعطي أجراً للبحارة، وهذا الأجر لا يطلبه البحارة في أي مكان آخر إلا عند الوصول. وتحاشياً لكل المشكلات مع الركاب فقد صعدنا مع أول من صعد إلى المركب. وكان علينا الانتظار عدة أيام، لأن الحاكم سيفتش المراكب ليرى ما إذا كانت محملة فوق طاقتها، ولم يفته إذن القيام بواجبه، فيحصل بموجبه على رسم يشكل جزءاً من معاشه. وأخيراً وبعد كل هذا الانتظار، أبحرت المراكب الأربعة في منتصف ليل العاشر من أكتوبر (تشرين الأول). وسرنا بمحاذاة شاطئ خطر، وعندما لا تكون الريح مواتية، يكون الشاطئ مليئاً بشعب المرجان. كانت المراكب ترسو كل مساء، وكان يتاح لنا النزول إلى اليابسة إذا أردنا المغامرة في البلاد لمشاهدة موقع ما ذا أهمية.

الفصل الثاني

مرفأ الطور

كان المرفأ الذي رسا فيه مركبنا كالمعتاد موقعاً مهماً في القديم، أما اليوم فقد تهدم حصنه الصغير المسمى قلعة الطور وهجرته كتيبته، بينما نرى في نواحيه بعض القرى المتميزة التي يعيش سكانها من الصيد مثلهم مثل سكان كل ذلك الشاطئ المقفر. أما بلدة النصارى فيقيم فيها مسيحيون يونانيون ولهم في الجوار دير لا يوجد فيه إلا راهب واحد. وبلدة فيها (بير) بئر ماؤها أعذب من ماء النبع، وأقل عذوبة من الماء الذي يزود به الأعراب المراكب، والذي يأتون به من الجبال على ظهور الجمال. وكل الملاحين الذين يقودون المراكب المسافرة من السويس إلى جدة يقطنون في قرية الجبيل ويدفع بعضهم ٥٠٠ وحدة نقدية في الرحلة للقبطان، وهي كمية تضاف إلى ما يربح مقابل أن يعلّم المهنة لبعض أولادهم الذين يرافقونه خلال الرحلة فيدلهّم مثلاً على مواقع الشعب المرجانية والرمال. ونزل السيد فورسكال إلى البر لمشاهدة وادي عيليم المزعوم، فأرسل راهب الدير اليوناني من يقوده إلى هذا المكان المليء بنخل التمر، وعندما تأخر صديقنا هذا في العودة انتشرت شائعة في المركب تتهم الأعراب باحتجازه لأنه أراد رسم جبالهم. وفي الحال بادر بعض التجار الذين كانوا في الجيش الانكشاري، وانطلقوا لتخليصه والمجيء به بكل أمان. ولحسن الحظ كانت هذه الشائعة كاذبة وعاد السيد فورسكال من دون أن يزعجه أحد. توافرت لنا الفرصة في هذا المكان لرؤية مجموعة السلاسل الجبلية، حيث تبدأ إحداها بالقرب من الطور، وتنتهي في جبل موسى، وقمة هذه السلسلة تقع في جبل القديسة كاترين. وقد رأينا بوضوح قمة جبل القديسة كاترين، وشاهدنا إلى أي حد تعلو فوق سيناء كتلة الصخور الضخمة هذه مالئة نهايات ذراعي البحر الأحمر. وبالقرب من الشواطئ ينخفض مستوى الجبال ليشكل تلالاً تنتهي إلى سهول رملية.

الفصل الثالث

الإبحار من الطور إلى جدة

كنا نراقب طريقة الإرساء في كل مساء حتى رأس محمد. لكن ابتداءً من هذا الرأس وحتى شواطئ شبه الجزيرة العربية، كان علينا بالضرورة الإبحار في عمق البحر، كي نجتاز البحر الأحمر بكل اتساعه. كان الأوروبيون ينظرون إلى هذا الطريق وكأنه الطريق الأكثر أماناً وذلك لخلوه من الصخور البحرية؛ بينما يظن الأتراك أنفسهم أنهم ضلوا بمجرد أن تغيب عن أنظارهم اليابسة.

إن أنواع المصائب التي حدثت بسبب جهل بحارتهم جديرة والحق يقال بأن ترعبهم. فقد غرق مركبان في هذه النواحي من بين أربعة مراكب أبحرت متأخرة بعض الشيء العام الماضي. وقد روى لنا بعض الأشخاص الذين سافروا على متن تلك المراكب طرائف هذا الحدث، وهي كفيلة بإعطائنا فكرة عن الملاحة التركية. فما إن هبّت العاصفة حتى قفز كل البحارة والمسافرين إلى قوارب النجاة وتوافر لهم الوقت للوصول إلى بر الأمان. أما المركبان المهجوران فتحطم أحدهما على صخور البحر بينما غرق الثاني إلى القاع. وأرخى رئيس المركب الثالث حبال قوارب النجاة مما عرضه لخطر الموت على أيدي الركاب، ولكن وبعد أن وصف لهم بجدية الخطر المحدق بهم ووعدهم أن ينجيهم منه، شرط أن يدعوه يمارس عمله، ساعدوه بكل قوتهم مما أنقذ مركبهم.

وكنا نخشى خلال هذا الطريق حلول مصيبة أخرى أشد خطورة من الغرق. فقد اشتعلت النار مرتين: الأولى في الثياب التي كانت تجففها النساء الساكنات أسفل المركب، ولولا صراخهن الحاد الذي نبهنا وجعلنا نركض لنجدتهن لكانت النيران التهمت المركب، أما المرة الثانية فقد أرسل الرئيس المغتاظ إلى السرايا ضابطاً برتبة ملازم ليعاقب بعصاه المذنبين، فنتج عن تلك العملية غوغاء شيطانية ولكن ذلك قد وفر لنا راحة ممتعة، فتلك النسوة كن فعلاً مزعجات ودون حياء أو خجل. فعلى مقربة

مني ومن غرفنا كنت أسمع أصواتاً نسائية، فأنظر من خلال شق وأرى في كل مرة ثلاث أو أربع نسوة عاريات يستحممن.

كان كل شيء عادياً لا يثير الاهتمام في هذه الرحلة، باستثناء بعض الجزر الصغيرة المقفرة وبعض القمم الجبلية البعيدة. وآخر ما راقبنا على الشاطئ المصري هي جبال الزمرد الشهيرة التي ما زال العرب يطلقون عليها نفس الاسم.

وقد حدث في السابع عشر من أكتوبر (تشرين الأول) كسوف شمسي، وكان السيد فورسكال قد أعلم رئيسنا بذلك، فأريت الرئيس وكبار التجار هذه الظاهرة بواسطة عدسات سوداء. وقد أبدى الجميع رضاهم وامتنانهم. فمن يتنبأ بالكسوف عند المسلمين يعتبر عالماً أو طبيباً ماهراً.

فحص السيد فورسكال العديد من الركاب الذين أصابهم مرض فجأة، ووصف لهم بعض العلاجات البسيطة ونصحهم بالحمية. وفي النهاية اشتكى حاج إليه من أنه لا يرى أبداً في الليل، فنصحه صديقي بأن يشعل شمعة فنال بعد هذه الطرفة من الإعجاب أكثر ممن له أعمق العلوم في الطب. وقد سرَّ المسلمون للغاية من رؤية السيد فورسكال يتجاوب معهم فتعاطفوا معه جميعاً.

عندما وصلنا قرب جزيرة الحساني الصغيرة على مقربة من سواحل شبه الجزيرة العربية، فرح الأتراك لأنهم نجوا من خطر مر بطريقة رائعة. فأطلقنا المدافع وأفرغنا طلقات البنادق وأضأنا المركب وقوارب النجاة بالأنوار والمشاعل، وأطلق الجميع صيحات الفرح والابتهاج، وتحلق البحارة في دائرة ومعهم علبة يطالبون بمكافأة، فأعطاهم الجميع بعض التفاهات فألقوها إلى البحر. لم يلقوا النقود بل العلبة التي كدسوا فيها طلبهم.

تابعنا مسيرنا، وتعرضنا لخطر داهم حين اجتزنا رأساً محاطاً بالشعب المرجانية، لأن ربباننا كان تركياً. وكان طلب منا هذا الرجل في أغلب الأحيان (ماء الحياة) بحجة أنه لا يستطيع التعرف إلى السواحل والجبال إلا إذا وضح نظره بتناوله جرعة من الكحول

القوي. وكنا قد رفضنا طلبه خشية الاشتباك مع المسلمين. ثم لمسنا أنهم ليسوا متشككين إلى هذا الحد. لأن الربان كان يبعث من يطلب منا في كل صباح ربع زجاجة كحول للقبطان. و من المحتمل أن يكون التجار اليونانيون قد أضافوا إلى الكمية التي اعتدنا أن نعطيه إياها فأسكروه.

وصلنا إلى ينبع بعد ذلك بقليل وهي مدينة محاطة بالأسوار و تبدو جلياً للعيان من الشاطئ، ولها ميناء أمين. وبما أننا لم نر منزلاً واحداً منذ أن تركنا الطور فقد أسعدتنا رؤية مدينة ينبع. فغادر السفينة ركاب أرادوا المرور بمكة المكرمة قبل الوصول إلى المدينة المنورة.

نزل ثلاثة أشخاص من رفاقنا إلى اليابسة، واستلوا سيوفهم كباقي الركاب. وقد ظنهم أحد سكان ينبع أتراكاً وحياهم قائلاً "السلام عليكم"، وعاملهم دون أي تكلف. ولما علم أنهم فرنسيون تأسف أنه قد دنس سلامه مع مسيحيين، فغضب أشد الغضب وجعل يشتم أولئك الكفار الوقحين الذين تجرؤوا وداسوا بسلاحهم أرض شبه الجزيرة العربية. لكن العرب الآخرين لم يوافقوه على تطرفه فعاد رفاقي إلى المركب دون حدوث أية مشكلة أخرى.

وبعد أن قضينا نهاراً في الميناء تابعنا إبحارنا مبتعدين قليلاً عن الساحل المزروع دائماً بشعب المرجان. ورأينا مدينة "مستورة" الواقعة في سفح الجبل الذي يحمل الاسم نفسه، ومررنا برأس وردان، ورسا مركبنا بالقرب من "رابغ" وهي مقر ثابت لأعراب يعيشون تحت الخيام، وهناك اشترينا منهم الكثير من المؤن والزاد. ويجب على الحجاج الذين يأتون إلى مكة للمرة الأولى إذا كانت صحتهم تسمح بذلك أن يرتدوا ملابس الإحرام فوراً بعد عبور رأس وردان. وهذه الملابس هي نسيج يغطي الوسط بينما يبقى الجسد عارياً، ويظلون على هذه الحال خلال الرحلة كلها، إلى أن يزوروا الكعبة، وقد يجرؤون على وضع نسيج آخر على أكتافهم يتدلى كغطاء. بينما يحتفظ آخرون بملابسهم العادية بذريعة أن لهم مانعاً ما. وعلى العكس، ارتدى بعض الأتقياء ملابس الإحرام حتى وإن كانوا قد زاروا مكة سابقاً. وهكذا رأينا في المساء معظم

المسلمين يلبسون ملابس غير التي كانوا يرتدونها في الصباح. وقد يبدو غريباً أن يكون الرسول محمد قد أمر بالعري الضار بصحة الحجاج، لكن هذا الأمر يعود إلى زمن بعيد لم تكن فيه ملته مؤلفة إلا من الأعراب ولم يمكنه إذ ذاك أن يتصور أن ديانته ستنتشر في البلدان الشمالية. بل كان هدفه أن يظهر الحجاج بهيئة متواضعة وبلباس الأعراب العاديين. وبالفعل يقتصر لباس أهل هذه المنطقة على مثل هذه الثياب، وهم يمشون عادة شبه عراة.

لكن الأتراك الذين اعتادوا ارتداء ملابس جيدة لا بل عباءات مبطنة بالفرو، ينزعجون جداً من هذا الأسلوب. وتحفظ الخرافات عادات وتقاليد محلية قد يكون الخلل فيها متناقضاً مع روح نظامهم الديني. فالعديد من رجال الدين يحتفظون في البلاد الباردة بزي الفلاحين في المناطق الحارة حيث ولد تنظيمهم. فحيث يكون الطقس قارساً، يذهب الناس في أكثر أيام الشتاء برداً إلى كنائس باردة كالثلج ومضرة، لأن المؤمنين الأوائل الذين عاشوا تحت سماء آسيا الدافئة، كان بمقدورهم التجمع دون أية عوائق على مدار السنة، في أبنية كهذه برودتها منعشة للغاية.

وأخيراً وصلنا إلى ميناء جدة في التاسع والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني). والسبب الذي أجبرنا على أن نكون أول من يبحر من السويس، هو نفسه الذي حال دون نزولنا إلى البر مباشرة. وكان الجميع يتزاحمون لمغادرة المركب مع بضائعهم ويبتدعون أساليب لإخفاء أكثر ما يمكن عن أعين الجمارك ويحاولون خاصة إدخال النقود سراً لئلا يدفعوا عليها ضريبة ٢،٥ ٪. إلا أن أحدهم لم يتوفق في إخفاء أمواله، إذ أحاط جسمه بكيس طويل خبأها فيه، فانشق الكيس وهو ينزل إلى قارب النجاة ووقعت النقود في البحر.

ومن يحتال على الجمارك لا يعاقب باحتجاز بضائعه، بل يكفيه عاراً وخزياً أن يسخر الجميع منه كما هي العادة. بينما تنحصر معاقبة هؤلاء المحتالين في مناطق كثيرة من تركيا بدفع ضعف الضرائب. وكل من عاد من المدينة كان يشتكي من شدة النظام الذي تمارسه الجمارك على مدار هذه السنة، ولذا كنا مرتبكين، لا نعلم كيف نخفي

نقودنا. وأن ما كنا نؤمله لم يكن تهرباً من الضرائب بقدر ما هو تحاشياً لتعريض سلامتنا تجاه اللصوص العرب البدو. وبما أن المسلمين كانوا يجهلون استعمال الكمبيالات، فقد كنا مجبرين أن نحمل معنا نقود البندقية الذهبية مقابل كل ما نحتاج إليه أثناء رحلتنا. وبعد تفكير عميق، قررنا أن نضع الذهب في قعر صندوق الأدوية، وألا نترك إلا ٢٠٠ وحدة نقد ذهبي في مكان آخر، حيث من الممكن إيجادها إذا ما فتشت بضائعنا. فنجحت خطتنا ولم يفكر أحد بتفتيش أدواتنا.

وصلت المراكب الأخرى الثلاثة التي أبحرت معنا من السويس إلى جدة بعد وصولنا بكثير، وبسبب جهل البحارة تعرض المركب الأخير للخطر في الممر. وبعد وصوله إلى المرفأ انقلب من جديد لأن البحارة، تلبية لإلحاح التجار على نقل بضائعهم إلى البر، أثقلوا المركب بأكثر من حمولته. ففقد التوازن ووقعت كميات كثيرة من البضائع في البحر وتلفت، وهذا برهان جديد يدل على عدم مهارة الأتراك في الملاحة.

الفصل الرابع

مدينة جدة ونواحيها

دخلنا هذه المدينة، مع تخوف كبير ألا يعاملنا سكانها معاملة حسنة. فنحن نذكر جيداً الكراهية المعلنة تجاه المسيحيين في القاهرة، و تصرفات العربي الغاضبة في ينبع تجاه رفاقنا في السفر، وخشينا بحق التعرض للمزيد من الشتائم من قبل المسلمين، كلما اقتربنا من مدنهم المقدسة. لكننا كنا على خطأ، فقد اعتاد سكان جدة ألا يروا إلا تجاراً مسيحيين يلبسون لباساً أوروبياً، فلم يلحظوا أية غرابة في لباسنا، ويبدو أنهم لم يعيرونا أي انتباه. تجولنا بحرية ودون أية إهانة في المقاهي والأسواق، وبعد أن علمنا أنه لا يسمح لغير المسلمين العبور من الباب المؤدي إلى مكة ولا حتى الاقتراب منه، تحاشينا التنزه في المناطق المجاورة لهذا الباب لئلا يكتشفونا.

وقد عملت رسائل التوصية التي حملناها في صالحنا. فقد أوصى بنا عند الحاكم السيد دو جيبليرالذي كان قد تعرف شخصياً في إسطنبول على باشا جدة، كما كان لدينا رسالتا توصية من أهم تجار القاهرة إلى أكبر تجار جدة، كما أعطانا شيخ بسيط للخواجة، أي ضابط الباشا، رسالة توصية لم نولها أي اهتمام، إلا أنها وبسبب ما حدث أفادتنا أكثر من غيرها من الرسائل.

كان هذا الشيخ سكرتيراً لأحد كبار أعضاء أكاديمية جامعة الأزهر في القاهرة. ولد في تركيا الأوروبية، وقد سمع عن تفوق الأوروبيين في العلوم، ولما كان متعطشاً إلى المعرفة كان يأتي لرؤيتنا في كثير من الأحيان. وهو رجل أديب بلا معتقدات باطلة، وبالتالي صديق حقيقي للجنس البشري.

وقد علمناه أنا والسيد فورسكال مبادئ علم النبات وعلم الفلك. وهو بدوره أفادنا جداً حيث درّبنا على تعلم اللغة العربية وتنويرنا حول الكثير من الأمور التي كنا نجهلها بدونه. وكان قد أعطى في شبابه بعض الدروس للخواجة، وأوصى صديقه القديم بنا عن طريق القافلة السابقة، دون أن يعلمنا، وأعطانا رسالة توصية له.

وبما أنه لم يكن لدينا الوقت الكافي لتسليم كل الرسائل باليد، فقد أرسلنا مع خادمنا الرسالتين الموجهتين إلى التاجرين ليقوما بمساعدتنا على إيجاد مسكن. ولكن لما علما أن حاشيتنا كبيرة، اعتذرا عن استحالة إيجاد منزل كبير يسعنا. ولو كنا أقل عدداً لاستأجرنا غرفاً في خان شعبي. أما خادمنا اليوناني الذي لم يدر كيف يؤمن لنا سكناً فقد لجأ إلى أحد مواطنيه، صائغ شريف مكة وله مكانته المرموقة بين وجهاء المدينة، فأعلمه هذا الصائغ أن الخواجة لما علم بقدومنا، أعطى أوامره لمساعدتنا، حتى أنه قدم لنا منزله لنبيت فيه ليلة ووعدنا أن يوجد لنا في اليوم التالي بيتاً مستقلا لنا.

فلما علمنا بذلك أسرعنا لتقديم رسالة شيخنا إلى الخواجة، الذي استقبلنا بمزيد من التهذيب، وقد ذهبنا لرؤيته في الكثير من الأوقات، وقد منحنا من خلال أسئلته عن عاداتنا وتقاليدنا، فرصاً لإعطائه هو وأصدقاءه الذين كانوا في ضيافته، فكرة عن الأوروبيين أكثر إيجابية مما كان يبدو له. فالعرب ينظرون للأوروبيين كنظرتنا نحن إلى الصينيين. فالعرب يظنون أنهم الأمة الأكثر حكمة ومهارة، ويعتقدون أنهم يمنحوننا شرفاً رفيعاً إذا ما تركوا لنا الدرجة الثانية بعدهم. وكان يروق للخواجة أن يتكلم عن علم الفلك. وأن السيد فورسكال الذي كان يزوره بانتظام، عرض عليه أن يجعل بستاناً بالقرب من بيته، وأن يستقدم من داخل البلاد الشجيرة التي تحمل بلسم مكة. فاستحب العرب هذه الفكرة، لاسيما وأنه كان من الصعب عليهم الحصول على البلسم الصافي، فالبلسم عادة يصل مغشوشاً إلى جدة.

سلمنا رسالة توصية للباشا بعد ذلك بعدة أيام، وكان لديه هو أيضاً معرفة سطحية بعلم الفلك، فأراد الاطلاع والتعرف على أجهزتي وفضلها على الأجهزة التي يستخدمها الشرقيون، واطلع عليها الشيخ أو العالم التركي الذي كان في بيته، ولم يكن الباشا والشيخ يتكلمان إلا اللغة التركية، وهي لغة لم تكن مألوفة لدي. صحيح أنه كان معنا العديد من المترجمين من بينهم ثلاثة فرنسيين وإيطاليين قد اسلموا يعملون في خدمة الباشا: ولكن وبما أنهم كانوا يجهلون التعابير العلمية في لغتهم الأم وفي اللغة التركية، فقد استحال علي تقديم الشرح الكافي للحاكم، ولم يدخل في محادثتنا حول

هذه الأدوات لا إسهاب ولا تعمق. واقتصرت المحادثة مع الخواجة على اللغة العربية، مما كلفني جهداً بالغاً بسبب قلة إلمامي بالمصطلحات العلمية العربية.

في أول نوفمبر (تشرين الثاني) وبعد أن استأجرنا منزلاً، طلبنا نقل بضائعنا إلى الجمارك قبل الدخول إلى المدينة، ولم يصعب علينا أن نلحظ الحظوة التي نتمتع بها عند الخواجة. فكان ذلك الضابط الجالس وسط موظفيه في مكان مرتفع يأمر بفحص بضائع التجار قطعة قطعة، بينما اكتفى بطلب فتح صناديقنا دون تفتيشها. وعندما يتصرف رجال الجمرك تصرفاً لائقاً، فإنهم ينتظرون مكافأة ما، ولذا أعطاهم صائغ الشريف الذي تعهد بمصروفنا مكافأة صغيرة علناً.

وسرعان ما وصلت أصداء وصول جماعة أوروبية فيها عالم فلكي إلى مكة. في هذه الأثناء كان أخو الشريف حاكم مكة، يدنو منها مع جيشه ليهاجمها. وعالم فلك بالنسبة للمسلمين هو دوماً منجم. لذا فقد أرسل الشريف صائغه اليوناني يسألني إذا ما كانت السيادة ستبقى بين يديه، أو أنه سيجبر على تركها لأخيه. فاعتذرت لجهلي في أمور الغيب وقلت له إنني لا أمارس علم الفلك إلا لإتقان فن الملاحة. وأجاب السيد دوهافن بجرأة أن الأخ الذي يشبه بشكل كبير الحسن وهو أحد أجداد جنسهم هو في الواقع المنتصر، فنال هذا الجواب إعجاباً لاسيما وأن الشريف كان جالساً على العرش.

وتوسّل إليّ أحد أسياد جدة أن أدلّه على الشخص الذي سرق ٢٠٠ وحدة نقد ذهبية كان قد فقدها، فذكرت له الأسباب ذاتها لأعتذر منه. فلجأ إلى شيخ مشهور أظهر من المهارة أكثر مني. أمر هذا الشيخ أن يقف كل خدم السيد في صف واحد، وبعد تلاوة صلوات طويلة وضع ورقة مطوية في فم كل واحد منهم، وأكد لهم أنه بإمكان الأبرياء ابتلاع الورقة دون خوف، أما المذنب فسيختنق بها، فابتلع الجميع أوراقهم عدا واحداً اعترته دهشة وارتباك فاعترف بالسرقة وأعاد المبلغ المسروق.

قيل إن السلطان الغوري ملك مصر قد أحاط جدة عام ١٥١٤م بسور للدفاع عنها ضد البرتغاليين الذين اشتد بطشهم آنذاك في البحر الأحمر. ولا يزال السور قائماً حتى اليوم لكنه مهدم جداً حتى أنك تجتازه في أكثر من موضع دون أن تنزل عن الحصان.

أما رصيف البحر فليس أفضل حماية، فمدافعه متآكلة ليس لها إلا مدفع واحد غير صالح. و قد وضعت بعض المدافع أمام قصر الباشا لا تصلح إلا لإطلاق التحية للمراكب: والقصر أيضاً مبني بناءً سيئاً، شأنه شأن معظم منازل سائر الباشاوات في الإمبراطورية العثمانية. إلا أن هناك في المدينة بعض المباني الجميلة المبنية من أحجار المرجان، أما باقي البيوت فما هي إلا أكواخ بسيطة من الخشب، كتلك التي يسكنها عادة عامة السكان العرب.

تفتقر المدينة للماء افتقاراً شديداً، ولا تشرب إلا مما يجمعه العرب في أحواض بين الجبال، ثم يأتون به شيئاً فشيئاً على ظهور الجمال.

يلبس الخاصة من الناس تقريباً كما يلبس الأتراك في القاهرة، بينما يرتدي العامة قميصاً فقط بلا سروال، في حين يلبس البدو في المناطق المجاورة ملابس الإحرام بدل القميص، أي القماش الذي يغطون به وسطهم، وترتدي نساء العامة عادة ككل النساء العربيات، سراويل فضفاضة وقمصاناً طويلة واسعة وحجاباً على الرأس، هذه هي كل ملابسهن. وقد رسمنا إحدى هذه النسوة وهي تبيع الخبز (انظر اللوحة رقم ٧). وكانت مروحتها مصنوعة على شكل ضفيرة من سعف النخل وكذلك مظلتها. وهناك الكثير من الناس يعيشون من صيد السمك ولا يبدو أن دخلهم كافٍ.

ضواحي المدينة رملية ومقفرة جداً وإذا صدقت التقاليد، فمن المحتمل أنها مناطق لم تتعرض لأي تغيير منذ بدء الخليقة، وفي موقع غير بعيد عن البحر، لا يزال الناس يدلونك على قبر حواء. من جهتي رأيت مؤشرات حقيقية تدل على أن البحر تراجع عن هذا الشاطئ كالكثير من البحار. وحتى أننا وجدنا على مسافة بعيدة من الشاطئ، تلالاً كاملة من المرجان، تشبه تماماً أرصفة المرجان التي تحف كل الشاطئ.

وقد شاهدت بعيني وأنا أتنزه على الشاطئ، الطريقة الفريدة من نوعها التي يصطاد بها العرب البط الوحشي. يتعرى الصياد ويضع بعض الطحالب البحرية على

رأسه، ويمشي نحو الطير الذي لا يخاف من اقتراب الطحالب، فهو يرى الكثير منها يطفو على سطح الماء، وهكذا يلتقط العربي البطة من أرجلها. وعندما روى بوكوك (Pococke) ورحالة آخرون دهاء هذه الطريقة لم يصدق الناس روايتهم، وبالفعل لا شيء أصح من ذلك.

الفصل الخامس

الحكم والتجارة في جدة

ظلّت مدينة جدة عبر كل الأزمان تحت سيادة شريف مكة، وهكذا ورغم أن السلطان يعين باشا على هذه المدينة، فهو لا يكون حاكمها المطلق. بل يتقاسم السلطة الشريف والحاكم العثماني. وهذا الأخير يتبدل في كل عام تقريباً، في حين أن منصب نائبه ثابت مدى الحياة، وهو يرفض غالباً الرضوخ لأوامر الباشا، كما فعل الخواجة في إحدى المناسبات أثناء إقامتنا في جدة.

ولكي يفرض سلطته في المدينة، اتخذ الشريف لنفسه فيها نائباً يسمى الوزير، ويكون المرجع الأول لكل الرعايا. ويختار الشريف الوزير حصراً من العائلات الوحيدة التي يحق لها أن تطمح إلى تلك المناصب العليا في تلك الدول، أو من عائلة الشريف نفسه ممن لهم الكفاءة لممارسة السيادة. وأنه لا يجوز لرجل من كبار أشراف العرب أن يمثل أمام قاضٍ أدنى مرتبة اجتماعية منه.

يتقاسم عائدات الجمارك السلطان والشريف، ولهذا السبب يحضر الوزير والخواجة معاً عند تفتيش البضائع أمام الجمارك. وقد حُددت الضرائب بنسبة ١٠٪ من قيمة البضاعة التي تقدرها الجمارك جزافاً. ولذا يدفع التجار غالباً نسبة ١٢ إلى ١٥٪ من ثمنها. ويتمتع الإنجليز وحدهم بحظوة تفوق حتى حقوق رعايا السلطان، فلا يدفعون إلا ٨٪ ولهم كامل الحرية في تسديد الضريبة بالبضائع، بينما يجبر الآخرون على دفع الضريبة نقداً.

وبالرغم من النشاط التجاري الكبير في جدة، فهي ليست إلا مستودعاً لمصر وللجزر الهندية. فمراكب السويس لا تتجاوز إلى أبعد من جدة، والمراكب الهندية لا تجرؤ المجازفة بالوصول إلى السويس.

وبعد أن أبحر ربان مركب شركة «سورات»، دفعته الرياح باتجاه الشمال وحالت دون رسوه في جدة فوصل إلى السويس حيث أرسى وأنزل بضاعته. لكنه سجن في العام

التالي في جدة، وأجبر على دفع الضرائب المفروضة على بضائعه المنقولة إلى مصر كما لو كانت قد أرست في جدة.

ولولا هذا المستودع لاقتصرت التجارة في هذه المدينة على الشيء اليسير. البلدان المجاورة لا تصدر البضائع إلا اللوز الآتي من الطائف، الذي يستورد منه الإنجليز ٥٠٠٠ قنطار (القنطار يعادل ١٠٠ كيلو جرام) سنوياً إلى الجزر الهندية. ويصدر البلسم القادم من ضواحي المدينة.

وترجع أهمية الاستيراد أيضاً إلى أن عليه توفير احتياجات جدة والمدينة ومكة. وهذه المدن تستورد من مصر كميات من القمح والأرز والعدس والسكر والزيوت...الخ إلى حد أن هذه المنطقة من شبه الجزيرة العربية لتصبح خالية من السكان لولا وجود هذا الدعم، وتأتيهم من مصر أيضاً كل البضائع الأوروبية، بينما تذهب معظم البضائع الهندية إلى مصر.

أما السيد مايبه الذي أقام في القاهرة وقتاً طويلاً، فقد كان يتخيل أن من مصلحة الدول الأوروبية ممارسة التجارة الهندية عبر البحر الأحمر، لكن لم يكن من المؤكد أنه سيسمح لسفنه بتجاوز مرفأ جدة، وقد تتعرض للكثير من الإشكالات في السويس، فأصحاب السفن التي تبحر بين المرفأين، هم من كبار التجار المعتمدين في القاهرة.

ولذا فإن تعدد الضرائب الباهظة التي يجب تأديتها في تلك المرافئ، يكاد أن يذهب بأرباح هذه التجارة. إلا أنه ينبغي ألا نخشى عدم حصول التجار الأوروبيين على السماح بالبقاء في جدة، فقد أقام إنجليزي فيها إقامة دائمة امتدت عدة سنوات.

أما الضرر الذي يلازم هذه التجارة فيتمثل حتى الآن في أوضاع الخزينة السيئة لدى الحكومة المفتقرة دوماً للمال. فيجبر التجار على دفع ضرائب العام القادم مع الوعود بحسمها، وعادة يتراكم المال المدفوع مسبقاً ولا يعوض أبداً. إلا أن الإنجليز لم يخضعوا حتى الآن لهذه الضريبة الجائرة، ويعرضهم حزمهم دوماً لمشكلات وخيمة.

لا تُسك أية عملة في هذه المنطقة ولا نرى فيها إلا عملات أجنبية، هي نفسها

المتداولة في إسطنبول والقاهرة. أما الأوراق النقدية الكبيرة فإنها متداولة في جدة بأسعار أغلى مما هي عليه في مصر؛ بسبب كثرة القطع النقدية الصغيرة المنتشرة عادة في شبه الجزيرة العربية أكثر من مكان سكها. وهذه الكمية الكبيرة من القطع الصغيرة يأتي بها الحجاج لمصروفهم اليومي، وللصدقات المتكررة والتي عليهم تأديتها في الطريق وفي المسجد الحرام. وبما أن القطع النقدية الصغيرة أصبحت ممنوعة التصدير فهي تغرق المنطقة.

أتيحت لي فرصة الحديث عن التجار الإنكشاريين: وهم في الواقع تجار ينخرطون في هذه الفرقة ليكونوا في منأى عن إغاظات الحاكم، إذ أنهم يتمتعون بامتيازات الفرقة، بينما لا يؤدون أية خدمة ولا يتقاضون أية رواتب. كما أن الانكشاريين لا يخضعون لسلطة القاضي المدني، بل هم تحت إمرة ضابطهم الذي يكون وحده مخولاً بمحاكمتهم. ويعفى التاجر الانكشاري من كل الضرائب الجمركية، على ما ينقله في صندوق وسلتين حيث يفترض أن يملأها بمؤونته وأمتعته، إلا أن التجار الإنكشاريين يملؤون الصندوق والسلتين بأثمن البضائع. وقد رأيت أيضاً عدداً من الربابنة والقباطنة ينخرطون في سلك الانكشاريين لا لشيءٍ إلا للرفع من شأنهم وللحصول على حماية هذه الفرقة القوية التي تنحاز دائماً لصالح الرفاق، لأنه لم يكن للإنكشاريين أي امتياز من امتيازات رفاقهم الأتراك.

وأثناء إقامتنا، استاء هؤلاء التجار الإنكشاريون من القسوة التي تعرضوا لها عند تفتيش حوائجهم، فهددوا بأنهم سيدافعون عن أنفسهم ضد هذا الجور المزعوم، وذلك بدعم من رفاقهم. فتوجه الخواجة والوزير إلى الجمارك مع حاشية مسلحة من جيش الباشا والشريف، مما أعاد الهدوء بين المتمردين. ولكن بعد رحيلنا تجمع كل الإنكشاريين مدججين بالسلاح، فوجه الباشا بعض المدافع نحو البيت الذي اجتمع فيه زعماء التمرد، وعادت الأمور إلى مجاريها المعهودة.

الفصل السادس

الإبحار من جدة إلى اللحية

كانت قد وصلتنا أوامر بالذهاب إلى اليمن في أقرب وقت ممكن، ولا شيء كان يوقفنا في جدة إلا الرياح الشمالية التي أعاقت وصول السفن التي سيشحن فيها البن، وبدون هذه السفن لم يكن بإمكاننا متابعة السفر إلى جنوب البحر الأحمر.

وصلت أخيرا بعض هذه السفن في بداية ديسمبر (كانون الأول)، فنصحنا بعضهم باختيار إحداها وكانت قادمة من مسقط، ومتأهبة للانطلاق من جديد لتحميل البن من الحديدة.

أسرعنا لرؤية هذا المركب وفوجئنا جداً عندما رأيناه، فهو يشبه برميلاً أكثر مما يشبه مركباً. لم تكن أبعاده إلا سبع قامات (القامة تساوي ستة أقدام) طولاً و ثلاث قامات عرضاً، كان أيضاً بلا سطح، وبدت أخشابه الرقيقة وقد خيطت دون أن تكون قد سمرت، ولم يكن ربانه يرتدي إلا نسيجاً مثنياً يغطي وسطه، أما بحارته التسعة فهم عبيد سود من أفريقيا أو من الملابار، ولم يستروا عريهم إلا بقماش عرضه عرض راحة اليد ومربوط بحبل يلف وسطهم. سارع أصدقاؤنا، وكي لا يصدمنا هذا المنظر، إلى تفضيل ذلك العربي القادم من مسقط، فقد اشتهر بحارته العرب بمهارتهم في الملاحة، فهم يستخدمون أشرعة مماثلة لأشرعتنا، في حين كان أتباع الإمام بحارة جهال، يستخدمون بدل الأشرعة حصراً ثقيلة وصعبة الإدارة، أخذنا بنصيحتهم وسافرنا مع هذا العربي حتى وصلنا إلى الحديدة.

ارتأينا للوهلة الأولى الإبحار يميناً إلى المخا، على أمل أن نجد فيها سفنا إنجليزية، لكنهم حذرونا من طول هذه الرحلة، وزينوا لنا رحلة ممتعة في البر عبر دويلات الإمام، حيث يعم الأمان. بينما كان قد زرع في مخيلتنا خطر العيش مع العرب الذين ظننا أنهم جميعاً يشبهون عرب الصحراء. وجدنا في الواقع وبعد أن طمأننا أصدقاؤنا، أنه من الأفضل الإبحار إلى اللحية أو الحديدة، لأنهم قدموا لنا الوسائل للانطلاق باكرا واجتياز مسافة من اليمن السعيد.

أعطانا الخواجة رسائل توصية لحكام اللحية والحديدة، كما وأعطانا التجار الذين نصحنا بهم، رسائل توصية أيضاً لأكبر تجار هاتين المدينتين. وقد أمر الباشا ألا تفتش أمتعتنا.

وبالرغم من أننا قد استأجرنا المركب لنا وحدنا، فلقد وجدناه محملاً بالبضائع، اعتذر لنا الربان مؤكداً أن مركبه وبدون تلك الحمولة سيكون خفيف الوزن ولن يكون قادراً على الملاحة وقت المد.

كان لكل منا مكان صغير في المركب وقد وضعت فيه حصر من القش لتكون لنا كراسي وأسرة، حيث كنا ننام في العراء، وقد شغلت البضائع ما تبقى من المركب إلا زاوية صغيرة كنا نعد الطعام فيها، وهكذا فقد كان من المستحيل التنزه على سطح المركب أو القيام بأي عمل.

فقد السيد كرامر ساعته في أول أمسية بين الأخشاب وحصيرة من أغصان الشجر، التي غلفوا بها قعر المركب، لحماية البضائع من الرطوبة، لكنه وجدها في اللحية في حالة جيدة، مما يثبت أن تلك المراكب المحاطة تعزل عزلاً أفضل مما يبدو لنا في الوهلة الأولى.

انطلقنا من جدة في الثالث عشر من ديسمبر (كانون الأول)، وقد لحظ ربان سفينتنا في أثناء الرحلة عادة إلقاء المرساة في كل مساء، بالرغم من أن القسم الجنوبي من البحر الأحمر كان يبدو لنا أقل امتلاءً بالشعب المرجانية من القسم الشمالي. وكنا قد شاهدنا القليل من المدن والقرى بين السويس وجدة، فإننا لم نر مدناً وقرى أكثر من جدة حتى اللحية.

كان إبحارنا ممتعاً ومنتظماً، وقد شاهدنا بعض الأسماك الطائرة، والتي يسميها العرب الجراد البحري. والتقينا في اليوم السابع مع مركب من الحديدة، وكان قد أبحر من جدة قبلنا بثلاثة أيام، مما يثبت لنا بطء سفن اليمن، فأشرعتها المصنوعة من الحصر توجه الريح توجيهاً ضئيلاً، لذا يواجه العرب في أغلب الأحيان صعوبات في الإبحار من المرفأ. ورأينا أيضاً مراكب أخرى صغيرة محملة بالبن، والتي لم تبحر مجتمعة مما يظهر أن العرب كانوا أقل جبناً وخوفاً من الأتراك.

بعد سبعة أيام من الإبحار، أرسينا في القُنْفُذَة، مدينة كبيرة ولكن لا يوجد فيها تقريباً إلا الأكواخ. وقد أرسل إليها حاكم كان محل إقامته في جزيرة صغيرة بعيدة بعض الشيء عن المدينة، وكان عليه قطع هذه المسافة بين الجزيرة والمدينة ليأتي إلى الجمارك. فكل السفن التي تنقل البن إلى جدة، كانت مجبرة على التوقف هنا وعلى دفع ضريبة للشريف، ولم تكن السفن ملزمة بالتوقف في إيابها، لكن إن رغب الطاقم في النزول إلى البرفهو يحصل على سماح عام مقابل وحدتين نقديتين.

وعشية إبحارنا من القُنْفُذَة حيث أقمنا يوماً واحداً، رأينا مدينة حَلْي حيث أقام شريف مكة فيها حامية، إنها آخر المدن الواقعة تحت سلطته في منطقة الحجاز، والعرب المستقلون الذين تصادفهم بعدها هم عرب اليمن.

وبما أن ربان سفينتنا كان بحاجة للمؤن، فقد أتيحت لنا الفرصة للتعرف على هؤلاء العرب المستقلين، القاطنين بين دويلات أشراف مكة أبو عريش، يعيشون تحت سلطة شيوخهم الخاصة، ويعتنقون ديانة يبدو أنها كانت تتعلق بديانة أجدادهم قبل الرسول محمد. وقد سمعنا ما قيل عن رغبة هذا الشعب العارمة في الاستيلاء على ملابس المسافرين، وعلى مثال ربانا، فقد ارتدينا ملابس بسيطة جداً ومتواضعة ثم نزلنا بقمصان بالية و بلا أسلحة. أتى بعض الرجال للقائنا في الحال، وبدل العمائم كان لهم حبال حول رؤوسهم لربط شعرهم المتناثر، وقماش حول وسطهم كان ذلك كل ما يرتدون، ظنوا أنهم رأوا في تصرفاتنا بعض علامات الحذر، فرموا سهامهم وقالوا إنه لا يجب أن نخشى شيئاً.

وبما أنه كان في نيتنا شراء مؤن، فقد اصطحبونا إلى خيامهم، وعند اقترابنا، أتت امرأتان لرؤيتنا وقبلتا باحترام أيدي الشيوخ الذين قبلوا بدورهم رأس الامرأتين اللتين كانتا مكشوفتي الوجه ومكحلتي العيون بقلم الرصاص، ولهما زينة سوداء مطبوعة على جبينهما وذقنهما و خدودهما. هاتان الجميلتان بلون أسمر مصفر، والعاريتان تقريباً، طلبتا فوراً شيئاً من الكحل لتكحيل العيون وبعضاً من الحناء لتلوين الأظافر،

شعرنا بالأسف لأننا لم نأخذ مؤونة من هذه العقاقير لإرضاء هذه المبادرة من أجل الزينة ولمساعدة الجنس اللطيف على إظهار مفاتنه بهذه القوة.

استمتعنا بتذوق الحليب والزبدة المحفوظة في جلود الماعز، كما وقدموا لنا خبزاً سيئاً. لم يجرح العرب احتياطنا في الدفع في الميناء، بالرغم من ذهابنا المتكرر إلى الصحراء، كانوا يبدون لنا أكثر تحضراً من الكثير من قبائل البدو.

توقفنا في اليوم التالي لذلك اللقاء بالقرب من جبل يسمى جبل كدُمُّل، ويقع في وسط البحر، وحسب ما قال العرب فإنه بركان خامد. ومن الممكن أن يكون بقايا جزيرة محروقة، التي تحدث عنها أريان (Arrien) وبطليموس التي وضعاها في هذه البقعة، رأينا أيضاً عن كثب مدينة جيزان القائمة بالقرب من السواحل على لسان من البر، لكننا لم نقترب منها لأن صيت شريف هذا الحاكم قد ذاع بأنه يستقبل الغرباء استقبالاً رديئاً. ووصلنا إلى ميناء اللحية في التاسع عشر من ديسمبر (كانون الأول)، وأرسينا تقريباً على مسافة فرسخ منها .

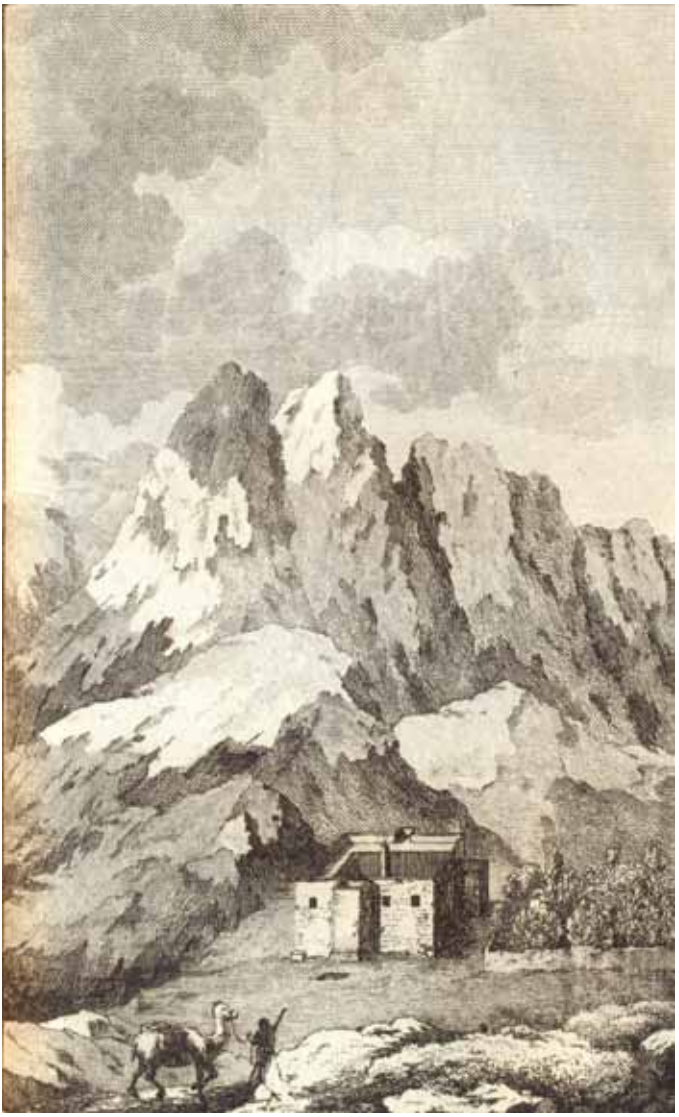

وادي إسراتو يحيط به جبال جرداء

القسم الثامن
الطريق من اللحية إلى بيت الفقيه

الفصل الأول

الإقامة في اللحية

سمعنا خلال رحلتنا من السويس إلى اللحية، أحاديث كثيرة عن الشيوخ المستقلين، الذين لا يرغبون ترك الأجانب يمرون من أراضيهم. ولذا لم يكن باستطاعتنا تصديق ما يقال عن سهولة وأمان السفر في بلدان إمام صنعاء. ولهذا السبب كنا نود الذهاب يميناً إلى المخا عبر البحر، بالرغم من أننا تعبنا من السفر بهذه الطريقة، بسبب الريح المعاكسة. عزم تاجران من المخا كانا برفقتنا، على متابعة السير براً حتى الوصول إلى بلدهم. أخذنا على عاتقنا مهمة مرافقتهما إلى المدينة كي نتحدث إلى الحاكم ولنعرف منه بالذات فيما إذا كان بإمكاننا السفر براً وبأمان من اللحية إلى المخا.

حاكم أو أمير، ذلك كان اللقب الذي يطلقه العرب على حكام المدن، أطلق على حاكم اللحية لقب أمير، كان اسمه فرحان، ولد في أفريقيا، لونه أسود تماماً، كان قد جيء به في صباه إلى اليمن وبيع إلى رجل على قدر من الأهمية وقد توفي منذ وقت قريب، بعد أن شغل منصب وزير من وزراء الإمام. هذا الرجل وبعد أن ربى الشاب فرحان تربية صالحة جعلته يتبوأ مكانة متواضعة أبدع فيها فرحان وتصرف تصرفاً لائقاً حتى علا شأنه في وقت قصير ليصبح حاكماً في مدينة مهمة في اليمن، كان هذا الحاكم في الواقع سيداً في غاية التهذيب والأدب، في منتهى الاستقامة وصديقاً شديد الإنسانية.

شرحنا له حالنا وقلنا له إننا أوروبيون وأننا نقترح السفر إلى المخا عبر الحديدة على أمل أن نجد فيها سفناً إنجليزية، ستسافر إلى الهند، وأننا وبسبب عدم أمان الأمكنة التي سننزل بها، فإننا حملنا رسالة توصية من خواجة جدة إليه، ورسالة أخرى من أحد كبار تجار جدة إلى محسن مكاويش، كبير تجار اللحية.

وبالرغم من أن الأمير تعرف على الكثير من الأوروبيين أو من الفرنجة في المخا، إلا أنه لم يرهم البتة يلبسون لباساً شرقياً، وهذه ليست حال النصارى أو المسيحيين الشرقيين. وكنا نعلم أن المسلمين يحترمون المسيحيين أكثر ممن يعتنقون ديانات أخرى،

وعندما سألنا فيما إذا كنا فرنجة أم نصارى، أجبناه أننا نصارى وفرنجة، وكنا نخشى أن يحسب الأوروبيين وثنيين. كان التاجر محسن مريضاً، استقدم الأمير مساعده ليتلقى الرسالة الموجهة إلى سيده.

إلى هذا الحين لم يعرف هذا الحاكم من الأوروبيين إلا التجار القادمين من الهند. وقد فوجئ عندما عرف من الرسالة أن طبيباً كان في صحبتنا، وآخر باحث في النباتات، وثالث يراقب النجوم. وقد صعقته المفاجأة الجديدة، ولم يصدق أننا على عجلة من أمرنا، فاقترح أن نبقى بعض الوقت في اللحية، وعرض أن يصحبنا إلى المخا على جماله الخاصة، وبما أن التاجر محسن كان بحاجة لطبيب، فقد دعانا أيضاً بلطف إلى النزول في أحد منازله.

سحرنا أن نجد العرب أكثر تحضراً، كلما ابتعدنا عن مصر، وأن نحظى بحفاوة وترحيب الناس وقد كان ذلك الهدف الأول في بحوثنا. وقد أسعدنا أكثر أن الشعب أتاح لنا الفرص بنفسه لنجتاز براحة وحرية جزءاً من البلاد. دون أية إثارة للشك حول عزمنا وأهدافنا.

ولكي نخفي سرورنا، فلقد واجهنا أيضاً الخوف من الأخطار، فنحن على مقربة من الحرب بين الشيخ المكرمي وشريف أبو عريش. لكن الأمير أكد لنا أن ليس هناك ما نخشاه في اللحية، وأننا نستطيع السفر بكل أمان في أراضي سيده الإمام.

لم نعد نخشى ترك المركب، أما ربانا وبما أنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة كي يدفع تكاليف المرور، فقد توجه للحاكم يرجوه أن يلزمنا بدفع كل التكاليف حتى وصولنا إلى الحديدة. وقد تكرم الأمير بالرد عليه و بإرضائه من أمواله الخاصة في حال رفضنا القيام بذلك، وقد وعده التاجر محسن بالوعد ذاته، لم نختبر الإرادة الطيبة لهؤلاء العرب، لكننا تأثرنا جداً بعروضهم وأسلوبهم.

عندما طرح موضوع نقل أمتعتنا إلى البر، طلب الأمير نقلها بقارب النجاة الخاص به، كما وكلف سكرتير التاجر، بإرضاء حمالي ومأموري الجمارك وذلك ليجنبنا كل

المتاعب. فأرسل لنا في المساء خروفاً للترحيب بنا مرفقاً برسالة يدعونا بها ضيوفه ويعرب لنا فيها عن صداقته. كان قارب النجاة الخاص به بطيئاً بسبب الأشرعة المصنوعة من الحصير، وكان من المستحيل أن ننتهي من نقل أمتعتنا في اليوم نفسه، وكنا قلقين على أمن بضائعنا. طلب الأمير في الحال بعض الجنود لحراسة أمتعتنا بعد أن علم بقلقنا وعدم اطمئنانا.

قضينا ليلتنا على الشاطئ، أما تاجرنا محسن، والذي ظن وله الحق في ذلك أن ليس لدينا ما نأكل، فقد أرسل لنا عشاء ممتازاً. ولم ينقصنا إلا الخمر، وقد نفدت مؤونتنا من الكحول الرديء الذي كان معنا. كان بمقدورنا أن نجد خمراً وكحولاً عند يهود صنعاء، الذين ينتجون الكثير منهما، لكننا كنا سنجبر على نقله في أوان نحاسية، وكان ذلك مضراً جداً بصحتنا. قدموا لنا نوعاً من البوظة سبّب لنا غثياناً وتقيؤاً، فكان من الضروري أن نخلص إلى الحرمان من كل أنواع الكحول لبعض الأشهر.

حملت بضائعنا في اليوم التالي إلى الجمارك، وفتحت، خشينا من فحص دقيق، لكن الجمارك سلكوا سلوكاً حسناً وتصرفوا تصرفاً لائقاً وكما لحظنا فالأمير لم يكن يرى إلا أدواتنا، ولم يكن يأمل إلا بمعرفة طريقة استعمالها، شرحنا له ما كان يريد معرفته، وعندما عرض له السيد فورسكال العديد من الأشياء الصغيرة في المنظار، لم يفاجئه تلك المفاجأة اللطيفة إلا رؤية الحشرات تكبر على نحو خارق.

كان البيت المعد لننزل فيه مبنياً على طريقة الشرقيين، ساحة مربعة في الوسط، ولم يكن فيه غرفة واحدة مفروشة فرشاً جيداً، بل كان فيه العديد من الغرف تدخل إليها من رواق مفتوح يلف البيت، لم يكن منزلاً أنيقاً بالمقارنة مع الفنادق الجميلة في أوروبا، لكنه في شبه الجزيرة العربية كان بيتاً جميلاً ومريحاً أيضاً. في البداية كانت الساحة مليئة دوماً بالفضوليين الذين أزعجونا، فاتخذنا باباً لا يدخل من هؤلاء الناس إلا من له معنا موضوع سنعالجه سوية.

الفصل الثاني

مدينة اللحية

لم تر مدينة اللحية النور إلا منذ ثلاثة قرون، مؤسسها الحالي ورئيسها ولي مسلم يدعى الشيخ صالح الذي كان قد بنى كوخاً على شاطئ البحر، حيث توجد اليوم اللحية وعاش فيه ناسكاً. وبعد وفاته بني على قبره قبة أو بيت للصلاة زين وجمل شيئاً فشيئاً. ثم بنى بعض النساك أكواخاً حول قبره معتقدين أنه من الحسن إمكانية السكن بالقرب من شخصية مؤمنة كهذه. وفي الوقت ذاته رُدم ميناء مرابية المدينة المجاورة حيث أقام الحاكم فترك أهله مدينتهم وأتوا يكملون بناء اللحية ونقل إليها أيضاً مركز الحاكم.

لحظت في هذه المناسبة أن السنيين وهم الأغلبية في هذه المنطقة لديهم احترام خاص لأوليائهم بالرغم من القرآن الكريم الذي يمنع عبادة المخلوقات. تعامل سلالة هؤلاء الأولياء في هذه المنطقة من الجزيرة العربية، كما تعامل في مكة ذرية الرسول محمد. ويتمتع بلقب شيخ من انحدر من ولي، وينظر إليه الناس كرجل دين بحكم نسله. وبالتالي فقد اهتمت الأسر وحرصت بكل الوسائل على تقديس شخص ونسب أصلها إليه، واعتماد كل الكرامات المنسوبة له، وعلى هذا النحو فقد انتشر الاعتقاد بالخرافات أكثر فأكثر عند المسلمين، وكثرت الكرامات الكاذبة تكاثراً بلا حدود.

أراضي اللحية صحراوية قاحلة والميناء سيئ للغاية، بحيث إن المراكب الصغيرة كانت تجبر على الإرساء بعيداً جداً عن المدينة، لا تستطيع الزوارق المحملة الاقتراب من الجزر. وبالرغم من هذا العائق، فقد قامت في اللحية تجارة كبيرة للقهوة التي جيء بها من جبال المناطق المجاورة التي تجمع في مبنى خاص بها لتفصيصها وبيعها. ولم يكن لهذه القهوة شهرة كنوعية عالية الجودة كتلك التي تأتي من بيت الفقيه، والتي تحمل إلى المخا والحديدة. لكنها أرخص ثمناً وأقل تكلفة في نقلها إلى جدة. ولهذا السبب فقد بقي

الكثير من تجار القاهرة في اللحية، بينما كان يأتي إليها تجار آخرون كل عام لشراء القهوة. كما أننا نجد في المدينة أيضاً نحو أربعين من التجار الهنود البانيان في غاية الفقر يمارسون مهناً متعددة.

وبالرغم من أن اللحية تفتقر إلى الأسوار، إلا أنها ليست بلا حماية. يحيط بها اثنا عشر برجاً على مسافات متساوية ويحميها جنود وعساكر. تشبه هذه الأبراج أبراجاً نراها في ألمانيا في بعض المدن الإمبراطورية، أبوابها عالية جداً، ولا يمكن الدخول إليها إلا باستخدام السلالم. من الخطير في تركيا وحتى في أوروبا تفحص هذه الأبراج عن كثب، لكن الجنود العرب الذين كانوا يحمونها يجلسون عندها يدخنون الغليون ويشربون قشر القهوة المغلى بالماء، تركوني أقوم بجولتي دون إزعاج. ودعاني بعض الضباط للجلوس معهم وتناول المرطبات. وطرحوا علي الكثير من الأسئلة حول فنون الأوروبيين الحربية. وقد بدت الدهشة على وجوههم من كل ما قلت لهم، أريتهم اختراعنا للكتابة بلا حبر، ورسمت لهم خطوطاً وزوايا ضرورية لصنع مخطط لمدينتهم، دون أن يشكوا في نيتي وهدفي، على العكس فقد دعوا رفاقهم من الأبراج المجاورة لمشاركتهم في هذا العرض المدهش. فواحد من هذه الأبراج بناه حديثاً الأمير فرحان، يمكن له حمل مدفع، في حين أن الأبراج الأخرى مبنية بناء سيئاً بحيث أن رجال قبيلة حاشد حفروا فيها فجوة منذ بضع سنوات وأضرموا النيران في المدينة.

شعر السكان بضعف تحصيناتهم عندما تقدم بعد رحيلنا مئات من العرب في هذه المنطقة باتجاه الساحل، فترك الكثير من الناس اللحية ولجؤوا إلى جزيرة صغيرة حاملين معهم أثمن احتياجاتهم. وكان هذا الخوف غير مبرر لأنه عندما أمر الأمير فرحان جنوده بالتقدم فر العدو بعد فترة وجيزة.

هناك بعض البيوت الحجرية في اللحية، لكن الأغلب هي أكواخ مبنية على طريقة عامة العرب، الهيكل مبني من الخشب الرقيق المشغول دون أية عناية، أما الجدران فهي من الصلصال المخلوط بالطين، والمبيض بالكلس من الداخل، ويغطى السقف بأعشاب منتشرة جداً في هذه المنطقة، تتوضع حول الجدران أسرّة مصنوعة

من حبال القش وهي أسرة مريحة للغاية جالساً عليها كنت أو مستلقياً، بيت كهذا لا يمكن أن يحوي غرفاً، فهو صغير ونادراً ما يكون له نوافذ، والباب ليس إلا حصيرة مُعلقة ومصنوعة من القش. وإذا كان لعربي أسرة ومواشٍ، فإنه يبني العديد من الأكواخ ويحيطها بسياج عال جداً. فالمدن في الجزيرة العربية لا تستطيع إذاً أن تكون مأهولة بالقياس إلى امتدادها.

ينتج حول المدينة الكلس بحرقه في الهواء الطلق وبدون فرن، والحجر من الأرصفة المرجانية المستخرجة من البحر. وسط أكبر كتلة مكسورة من هذا الحجر، رأينا، غالباً، أصدافاً متطاولة ما زالت حيّة. هذه البحار تزخر بالأصداف الجميلة والأسماك النادرة.

الماء سيئ جداً في اللحية، وكنا مجبرين على استقدامه من بعيد. يشرب الناس مياه بئر تبعد عن المدينة فرسخاً واحداً، إنها الأفضل بينما تقع بئر الماء الأقل جودة على مسافة فرسخين ونصف الفرسخ.

وبما أن العربات كانت غير معروفة أبداً فإن العرب ينقلون الماء على ظهور الإبل والحمير، ليس في أجلاف كما في مصر وتركيا بل في جرار من الصلصال الرملي بيضوية الشكل، تتدلى على جوانب البعير. على بعد فرسخين من المدينة هناك جبل صغير يؤخذ منه الكثير من الملح المعدني.

الفصل الثالث

سكان اللحية

بسبب كل ما رأينا وكل ما حدث معنا في هذه المدينة، استطعنا الحكم بأن سكانها كانوا فضوليين أذكياء ومهذبين في تعاملهم. كان الجميع يريد رؤية الأوروبيين وما يقومون به من أشياء خارقة. فبعد أن اتخذنا بواباً، فمن لم يكن بوسعه اختلاق أي سبب لزيارته، كان يتذرع بحجة استشارة طبيبنا، التمسه أحدهم أن يجس نبضه وأن يقول له ما هو بحاجة إليه، بينما طلب إليه آخر سبب عدم تمكنه من النوم. وأتيحت لنا الفرصة لمعرفة أفكارهم حول الطب. وكان السيد كرامر قد أعطى لكاتب مقبئ له مفعول قوي، صعقت العرب لتلك النتائج الباهرة وأرادوا أخذ كل ذلك الدواء الممتاز، وهذا مما جعل لصاحبنا شهرة واسعة في المهارة والطب. وذات يوم استدعاه أمير البحر أو رئيس الميناء، وعندما تأخر في المجيء، أرسل له الأمير خيلاً مسرجاً إلى أمام البيت، فأراد السيد كرامر امتطاءه معتقداً أن الأمير قد أرسل الخيل إليه ليسهل عليه مشقة الطريق، لكنهم قالوا له إنه أي الخيل هو المريض الذي ينبغي شفاءه، ولحسن الحظ فقد اكتشفنا وجود طبيب آخر بيننا، خادمنا الذي كان قد عمل في الإسطبلات السويدية تعلم التعرف إلى أمراض الخيل، قدم الخيل الأمير دواء ناجعاً، ذاع صيته بسبب ذلك الدواء وكثيراً ما استدعي لشفاء الأشخاص. فالأطباء العرب يعالجون بلا تمييز الأشخاص والحيوانات ويطبقون طبهم على كل المخلوقات.

وعندما عرضنا في الجمارك المجهر أمام الأمير فرحان، أصابت الدهشة كل العرب الحاضرين، تماماً كما أصابت الأمير، من حجم الحشرات. وعندما رأى أحد الخدم إحدى تلك الحشرات يكبر حجمها قال ليس هناك إلا أوروبا وحدها من يستطيع إنتاج حيوانات بهذا الحجم الهائل، بينما هي صغيرة جداً في الجزيرة العربية، لكن لاشيء أكثر عجباً من رؤية امرأة تسير عبر عدسات فلكية، لم يكن ليفهموا كيف أن ثياب هذه الامرأة المنقلبة لا تنقلب على رأسها، وكانوا يصيحون في كل مرة : الله أكبر... الله أكبر

وعندما لحظ الأولاد أننا نبحث عن الحشرات جاؤوا لنا بالكثير منها للبيع،

وأعطانا الكبار إشارات لاتجاه صناعي والذي لو أنه جهز وشجع لصنع من هذا الشعب شعباً تجارياً.

أتى عربيان ذات يوم لمشاهدتنا نأكل، أحدهم شاب من سادة صنعاء والآخر رجل له قدره من منطقة قشطان التي لا نرى فيها الكثير من الغرباء، وحيث ما زالت تسود بساطة كبيرة في العادات والتقاليد. وعندما دعوناهم للعشاء على طاولتنا، أجاب الأخير بسذاجة: "حفظني الله من تناول الطعام مع الكفار الذين لا يؤمنون بالله". وعندما طلبت إليه بعض ميزات بلده أجابني قائلاً: "وبما يهمك من بلدي أتريد أن تأتي لاحتلاله؟"

وكان كل شيء يدهشه، من طاولتنا إلى ملاعقنا إلى أطباقنا وشوكنا، كما وطرح بعض الأسئلة الغبية التي سببت انفجاراً من الضحك، فخرج غاضباً وشق على صاحبه إعادته إلى المجلس، ولكنه رأى عند عودته دجاجات كاملة أدهشت هذا العربي المسكين، الذي ظن أننا أكلنا الكثير منها ولكنه وعندما لاحظ أن السيد دوهافن يريد انهاءها، شده بعنف من ذراعه وقال له غاضباً: "كم من الطعام تريد أن تأكل؟" وخرج ولم يكن يود الدخول ثانية، قدم لنا الشاب القادم من صنعاء الاعتذارات ورجانا أن نغفر لرفيقه بساطته وسذاجته.

ولنروّح عن أنفسنا كنا نعزف أحياناً على آلة الكمان، أنا والسيد بورنفان، مما حمل المارة على الاعتقاد أننا كنا موسيقيين. فأرسل تاجر غني يرجونا أن نأتي إليه مع آلاتنا، رفضنا لأن العرب كانوا يكرهون من يمتهن الموسيقى. أما هذا التاجر الذي لم يعد يقوى على المشي بسبب شيخوخته، فقد امتطى حماراً يسنده اثنان من خدمه وقدم إلينا ليرضي رغبته في رؤيتنا وسماعنا. كان مهذباً للغاية وقد أكد لنا أنه لايكره المسيحيين أبداً، فالله الذي خلق كل البشر يتقبل ديانات مختلفة. وبعد أن قابلنا أبدى رغبته في رؤية آلاتنا الموسيقية والاستماع إلينا، عزفنا بعض الألحان الرخيمة التي تحظى بإعجاب الشرقيين، بالرغم من أن موسيقانا لا تستهويهم أبداً، لكنه بدا راضياً وأراد عند ذهابه أن يعطي كل منا نصف وحدة نقدية. يقبل العرب عادة الهدايا مهما

كانت متواضعة، لذا فاجأه رفضنا بمقدار عجبه وعدم استيعابه كيف ندأب في عملنا الموسيقي دون أن يكون هناك هدف من ربح بعض النقود بفضل هذه الموهبة.

كان التاجر من بين الرجال القليلين الذين صبغوا لحاهم باللون الأحمر، عادة بدا العرب المعنيين بها ملامين، مدعين أن اللحية الحمراء أجمل من اللحية البيضاء بينما قال لنا آخرون إن من الضعف الرغبة بإخفاء السن بالتستر وراء هذه الهيئة الغريبة. قال الرجل: إنه تجاوز السبعين من العمر؛ بينما أكد لنا بعض معارفه أنه يناهز التسعين عاماً، لحظنا بوجه عام أن المسلمين نادراً ما يعرفون سنهم معرفة أكيدة، يحسبون الحقب الزمنية، وكل ما يجيبون به، كنت ولداً عندما حدث الحادث الفلاني، أو عندما تولى الحاكم الفلاني على المنطقة أو على المدينة.

كان تاجرنا كثيراً ما يدعونا إلى بيته للطعام، وصار مألوفاً لديه أن يقص علينا مغامراته، كان لديه حسب ما روى على التوالي ما يقارب مائة من الشابات والإماء الجميلات اللواتي باعهن أو أعتقهن أو زوجهن بعد أن كان لديه علاقات معهن لبعض الوقت، ومازال لديه اثنتان منهن، وكما قال لنا إنه سيموت قرير العين إذا استطاع أن يقضي عمره وسنينه بالقرب منهن، وسيقدم لطبيبنا هدية قيمة إذا استطاع أن يؤمن له تلك السعادة.

وكان يوجد أيضاً تاجر آخر عجوز وهو في الخمسين من عمره وعد الطبيب بمائة وحدة نقدية إذا أراد أن يعطيه من علاجاته كي لا تكون الشابات والإماء الجميلات اللواتي كن في داره في مكة المكرمة بلا جدوى ولا نفع له. لكنه كان منهكاً بسبب إفراطه في حياته وعلاقاته لدرجة أنه ليس بإمكان إسعافات السيد كرامر ولا العلاجات التي وصفها له أطباء المراكب الإنجليزية أن تعيد الحياة إليه.

ترتدي نساء اللحية في الشارع حجاباً كبيراً يغطين به وجوههن جيداً، بحيث تستطيع بصعوبة تمييز عين من عيونهن، لكنهن لا يترددن أبداً في أن يكشفن عن وجوههن أمام الغرباء وخاصة إذا ظنن أنهن جميلات، وأنهن في مأمن عن عيون أبناء ملتهن. وقد رسم السيد باورينفايند إحداهن في الفصل الثامن لها وعيون كحيلة وفي جبينها وخدودها وذقنها زينة سوداء ثقبت الجلد.

الفصل الرابع

السفر من اللحية

بعد أن فُحص كل ما يسترعي الاهتمام ويثير الانتباه في هذه المدينة وضواحيها، ورغبتنا في متابعة رحلتنا لزيارة أرجاء اليمن الأخرى، كان علينا أن نخلق سبباً لصديقنا الأمير فرحان نشرح فيه ضرورة مغادرتنا. ولحسن الحظ علمنا بقدوم مركب للتو إلى المخا، لكن الأمير كان يعلم جيداً أن هذا المركب لن يغادر إلى الهند قبل شهر يونيو (حزيران) القادم. فقلنا له إننا تحدثنا إلى مواطنينا الذين وصلوا لتّوهم وأننا قررنا إثر ذلك السفر إلى بيت الفقيه فنرتاح هناك بعض الوقت ونتابع رحلتنا إلى المخا. فأجابنا أننا كنا منزعجين بعض الشيء في اللحية، لذا أردنا بسرعة تركه والسفر، وبالرغم من أن أي حاكم آخر لم يهتم بنا كاهتمام حاكمنا هذا حتى بعد أن أثبتنا له ضرورة سفرنا إلى المخا فجهزنا فوراً أنفسنا للسفر.

شكلنا مجموعة واسعة من غرائب الطبيعة، وكلفنا النقل البري تكاليف باهظة، فقررنا أن نرسل بحراً صناديقنا وحوائجنا التي نستطيع الاستغناء عنها في بيت الفقيه. وتكرم الحاكم برسالة أرفقها مع بضائعنا، إلى مسؤول المخا يرجوه بها أن تترك أمتعتنا في الجمرك وألا تمس حتى وصولنا. ولم نتمكن من رؤية الأمير فرحان عندما أردنا استئذانه لأنه كان مشغولاً، ولكنه وعندما علم أننا عازمون على الرحيل في الغد طلب منا بإلحاح أن نأتي إليه في المساء حتى ولو كان الوقت متأخراً. وكان بصحبة بعض الأعراب عندما جئناه مساءً وكان أمامه المنظار الإنجليزي الذي أعرته إياه وقطعة قماش من الحرير وكومة من القطع النقدية. لقد كان يريد رد المنظار لي لكني رجوته أن يحتفظ به ولكنه أخذه وهو في غاية السعادة بعد أن مانع طويلاً في قبوله. بينما كانت قطعة القماش الحريري وعشرون من القطع النقدية هدية لطبيبنا. وألزمنا بقبول ما تبقى من القطع النقدية لندفع أجرة الجمال والحمير، وقد أبدى هو وأصحابه إعجابهم من رفضنا أجور النقل، بينما كان الأتراك يلزمون العرب بدفع مصاريف كهذه، كما وتلقى خادمنا الذي كان قد شفى أحد خيل الحاكم عَشراً من القطع النقدية كجائزة له. ولم يكن بودنا قبول

أي شيء من العرب دون أن نعيده إليهم خشية أن نثقل عليهم، لذا فقد قدمنا ساعة للأمير، الذي لم يمتلك ساعة خاصة به أبداً وبالتالي لم يعرف كيف يستخدمها.

ولم نكن لنقبل الخروف الذي قدمه لنا ولكننا وعندما علمنا أن خادماً من خدم الأمير يسافر معنا لحوائجه الخاصة، قد تقاسم ونائب الحاكم ثمن الخروف هذا الذي يبيعه السكان نقداً، فقد أخذنا في القرى الأخرى الخراف التي أمر الأمير بتسليمها لنا.

بدا لنا الماء في هذه البقعة نادراً وسيئاً. وجدنا قرى كبيرة لا تبعد كثيراً عن بعضها البعض ولا ينبغي التوقف فيها لأنها تقوم في سهل قاحل جداً.

المنيرة هي واحدة من بين هذه القرى التي أثر فينا أول منزل صادفناه فيها، والمنزل هو بيت يستقبل فيه المسافرون مجاناً وإذا أرادوا أن يقنعوا بمعاملة حسب العادات المحلية فإنهم يقيمون في كوخ جماعي أثاثه الأسرّة فقط ويقدم لهم الكسرة أي خبزاً طازجاً من الذرة البيضاء وحليب النوق و الزبدة.

وفي حين علم رب المنزل بقدوم بعض الضيوف الأوروبيين فإنه أتى بنفسه ليتفقد خدمه إن كانوا يعاملوننا معاملة حسنة، وفيما إذا كنا سنمكث طويلاً ليذبح لنا خروفاً وليخبز لنا خبزاً من القمح، وكان ذلك من الخبز النادر في تلك البقاع، طلب أن يجلبوا لنا حليباً بقرياً عندما رأى أننا لم نستسغ حليب النوق للزوجته. نصحنا الخدم العرب بألا نقدم هدية لرب المنزل لكي لا يصدم، بينما لحق خادمه بنا في مكان بعيد عن الأنظار وطلب إلينا مكافأة صغيرة.

بعد مسير يومين ارتحنا يوماً كاملاً في الضَّحِي، والضحي قرية كبيرة فيها جامع وقبر أحد الأولياء وبعض المنازل الحجرية. ورأينا بالقرب منها مدبغة ومشغلاً للجرار التي تشوى في الهواء الطلق وبدون فرن، كما ورأينا فيها صبغ النيلة ذات النوعية السيئة والسعر الرخيص. ويستهلك الناس الكثير من هذا الصباغ هنا وذلك لأن النساء من عامة الشعب تلبس قمصاناً وسراويل من النسيج الأزرق.

ينطلق من هذه القرية درب مستقيم إلى بيت الفقيه، لكنه يمر في منطقة قاحلة

جداً من النادر العثور على الماء فيها وليس هناك أية قرية، لكننا اخترنا طريقاً أطول وأقرب للجبال وحسناً فعلنا فقد صادفتنا غابات صغيرة وقرى أكثر محاطة بشجيرات والكثير من الآبار على عمق ١٦٠-١٧٠ قدماً على الأقل، موجودة في أراض منحدرة، وهذا ما يناسب الناس والماشية، ولاستخراج الماء يقوم الناس سحبه بحبل رُبط في طرفه كيس جلدي فيسحبون الحبل هذا بسهولة أكبر فيما لو نزلوا المنحدر.

توجد قريتان كبيرتان تابعتان لحاكم بيت الفقيه، لاشيء فيهما يثير الانتباه. لكننا وفي مكانين من الدرب شاهدنا أمكنة مزروعة في قرى صغيرة تحمل كلها الاسم نفسه، وهذا ما جعلنا نخلص إلى أن قبائل صغيرة معزولة قد استقرت كل منها على حدة في مكان ما من هذه المنطقة، مررنا أيضاً في اثنين من الوديان المنتشرة بكثرة في الجزيرة العربية والتي تمتلئ بالماء في فترات الأمطار الغزيرة التي تدعى الأنهار رغم جفافها الكامل في الأوقات الباقية من السنة.

بعد مبيتنا في أحد هذه الأكواخ البائسة والفقيرة، وصلنا إلى بيت الفقيه في صباح الخامس والعشرين من شهر فبراير (شباط)، وقمنا على الفور بنقل صناديقنا إلى الجمارك، ولم نزرهم إلا عند الظهر بحضور الحاكم. وبانتظار ذلك سلمنا رسالة تاجر اللحية محسن إلى عنبر سيف أحد كبار تجار بيت الفقيه. استقبلنا هذا الرجل النبيل استقبالاً رائعاً واستأجر لنا بيتاً وأمر بنقل أمتعتنا ودعانا للعشاء في بيته حتى تُرتب أمورنا.

الفصل الخامس

مدينة بيت الفقيه

تقع هذه المدينة في سهل مزروع بالرغم من قحولته، المدينة مفتوحة وبيوتها لا تتلامس بعضها مع بعض، وهناك الكثير من البيوت الحجرية وتبنى بناء يزيد متانة في كل يوم، بني الكثير من البيوت وفق الهندسة المعمارية التي تحدثت عنها في وصفي للحية. وتعتبر بيت الفقيه قلعة مهمة في بلد لا تمتلك جيوشه سلاح المدفعية.

أقمنا في بيت من الحجر طرد صاحبه منه نوعاً من النمل يسميه العرب الأرضة، هذا النمل الذي يعرفه جيداً علماء الطبيعة، يبني دروباً مغطاة توصله إلى البيوت، فيلتهم الأقمشة والسلع الغذائية على السواء، كما يسبب أضرارا مماثلة في البساتين، حيث يبني دروباً مغطاة تمتد من الجذور حتى أعلى الشجرة فيناسب النسغ ذوقه، ويخرب الأشجار بالتهامه البراعم ونهايات الأغصان.

كانت غرفنا تمتلئ بالنمل، وقد استعنا ببعض الطرق العادية لإبعاده كتخريب دروبه في عدة مواضع، فيعيد النمل بناءها من جديد بسرعة مذهلة في الحقيقة وخاصة في الظلام، لكن وبمرور الوقت فإنه يتركها وينفر منها. صادفنا في طريقنا الكثير من الشجيرات المغطاة بالتراب والتي تظهر كثافة تلك الدروب، وتموت الشجيرة عندما يهاجمها النمل على هذا النحو.

مدينة بيت الفقيه ليست قديمة، ولم تظهر إلا منذ بضعة قرون، وتعود بأصلها حالها كحال اللحية إلى ولي مسلم يدعى أحمد بن موسى، وأخذت اسمها منه والذي يعني بيت العَالِم. ويبدو قبر هذا الولي خارج المدينة فوق تلة رملية، مكانه اليوم جامع جميل. في البدء بنى بعض النساك أكواخاً حول القبر. وعندما أصبح ميناء غليفقة مهجوراً انتقل سكان الميناء للسكن بالقرب من القبر، من أجل ازدهار تجارتهم فيها وعندما أصبحت المدينة مهمة بنى سيد المنطقة لحمايتها قلعة في مكان يوجد فيه الماء. وتقع المدينة حالياً بالقرب من القلعة في حين أصبحت المنطقة بالقرب من القبر مقفرة.

كان الولي يقوم بعجائب كثيرة وإليكم أهمها: التمس باشا تركي أسير في إسبانيا

منذ أكثر من عشرين عاماً ومقيداً بأغلال ثقيلة إلى حجارة ضخمة، شفاعة الكثير من الأولياء ولكن بلا جدوى، وقد تذكر في نهاية الأمر الولي أحمد فطلب مساعدته وعونه، فمد هذا الأخير يده خارج القبر وفي اللحظة نفسها وصل الباشا من إسبانيا مع الأغلال والحجارة، حدثت هذه المعجزة عشية عيد هذا الولي وبحضور العديد من الشهود. وما زالت تعرض الأغلال والحجارة بالقرب من القبر، معجزة كهذه حديثة العهد وبحضور الكثيرين كانت تبدو لهم موثقة بكل تأكيد.

لا يمكن لمدينة جديدة كهذه أن تمتلك الكثير من الآثار الهامة. لكنني أعدت نقل كتابة قديمة كوفية، بحضور عدد كبير من المتفرجين لم يشك بي أحد منهم كشك المصريين في أنني أبحث عن الكنوز. كان المتفرجون في غاية التهذيب وخاصة بعض الشيوخ أو العلماء العرب الذين راق لهم اهتمام غرباء بدراسة لغتهم. في هذه المدينة كما في اللحية، حصلت على الكثير من الإضاءات من نوع آخر من العلماء العرب الذين كانوا يزورونا دون تكلف، وكانوا يسمون بالفقهاء، ولم تكن ثرواتهم في كل الجزيرة العربية تتناسب مع قدرهم وقيمتهم.

تتمتع مدينة بيت الفقيه بموقع جيد للتجارة، تبعد مسير نصف نهار عن الجبال التي يزرع فيها البن، ولا تبعد إلا مسير بضعة أيام عن مرفأ اللحية والحديدة والمخا التي تصدر منها هذه السلعة ، وبذلك أصبحت بيت الفقيه بشكل تلقائي المخزن الأهم للقهوة.

هذه التجارة شدت إليها أنظار التجار من مصر وسوريا وشمال أفريقيا وبلاد الفرس والحبشة والهند وغالباً أيضاً من أوروبا. ويوجد فيها أيضاً كما في الكثير من مدن اليمن الكبيرة العديد من الهنود البرهميين الذين أتوا من ديو، الذين تركت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، لكنهم لم يتجرؤوا على اصطحاب نسائهم ولا على حرق موتاهم، مما أجبرهم على العودة إلى بلادهم بعد جمعهم لبعض المال.

تشكل مدينة بيت الفقيه مركز الحاكم الذي تقع تحت سلطته مقاطعة كبيرة.

ولم يبدُ على الحاكم الاهتمام بنا وقد أعطتنا لامبالاته هامشاً أكبر من حرية لم نتمتع بها في اللحية، وعندما علم الأمير فرحان أن السيد فورسكال يشتري بمفرده حوائجه من الضواحي، ظن أننا نعرض أنفسنا لخطر داهم، ولم يكن يريد لنا المعاناة بسبب بعدنا عن اللحية دون أن يرافقنا أحد جنوده، أزعجنا اهتمامه هذا فلم نرغب بوجود شاهد على كل أمورنا وبحوثنا، لأننا وجدنا الشعب اليمني متحضراً لدرجة كنا نتجرأ فيها على السفر بينهم، كما نتجرأ على السفر في أوروبا، أسعفتنا قلة اهتمام حاكم بيت الفقيه بنا عندما تركنا نجوب البلاد دون حراسة أو مرافقة.

إمرأة عربية تبيع الخبز تحت مظلة من القش

القسم التاسع
رحلات في ضواحي بيت الفقيه

الفصل الأول

السفر إلى غليفقة

اقترحت كي نستفيد من الحرية التي نعمنا بها في بيت الفقيه، أن أشتري بمفردي بعض الحوائج لأتفحص المناطق المهدمة اليوم، التي اشتهرت في الماضي فقد تحدث عنها أبو الفداء، تمنيت لو أكتشف فيها بعض الكتابات الخاصة بإظهار التغيرات الطارئة على عادات وتقاليد ولغة هذه المنطقة، ولم تَخِب بالكامل توقعاتي.

عندما تأكدت من الأمن الكامل الذي يسود في تهامة، قررت الذهاب إلى غليفقة مع فريق في غاية البساطة وأبعد ما يكون عن مظاهر السعة والغنى التي يمكن أن تغري قطاع الطرق. استأجرت حماراً وتبعني صاحبه سيراً على الأقدام وكان خادمي. كانت ملابسي عبارة عن عمامة وقميص بلا أكمام وسروال من القماش كزي العرب ونعل احتذيته. يسافر المرء عادة مسلحاً فحملت خنجراً وفردين في حزامي وسجادة بالية كانت في الوقت نفسه سرجاً وكرسياً وطاولة وفراشاً لي. أما القماش الذي يلف به العرب عادة أكتافهم للحماية من الشمس والمطر، فقد كنت أستخدمه كغطاء في الليل بالإضافة إلى جرة ماء ضرورية في مثل هذه البلاد القاحلة كانت تتدلى معلقة في الوطاق. منذ مدة وأنا أحمل نفسي عبء العيش على الطريقة العربية وبذلك استغنيت عن الكثير من وسائل الراحة واستطعت أكل الخبز الرديء وهو الشيء الوحيد الذي نجده في كثير من المنازل.

تركت بيت الفقيه في السابع من مارس (آذار) ورأيت عدة قرى في الميل الأول الذي قطعته، لكن فيما تبقى من الطريق وعلى مسافة أربعة أميال ونصف وحتى وصولي إلى غليفقة لم أجد إلا بعض الآبار دون أي مسكن. أما في الميلين الأخيرين فقد اجتاز الطريق منطقة رملية، تنحى دليلي عنها غالباً بسبب كثبان رملية حملها الهواء ونقلها وشكلها من جديد كان من الضروري الدوران لتلافي بعض الكثبان الحديثة العهد. وبحسابي الشخصي تبعد غليفقة عن بيت الفقيه مسافة ميلين ونصف كما تبعد نفس المسافة عن زبيد.

كانت غليفقة مدينة مشهورة في الماضي، كما كان مرفأ زبيد مدينة مزدهرة. هُجر اليوم المرفأ بالكامل ليس فقط بسبب تراجع البحر وزيادة الشعب المرجانية بل بسبب كمية الرمل الناعم الذي دفعه الهواء إلى سواحلها وتشكيله لكثيب مرتفع. ولم تبق إلا آثار جامع مهدى إلى ولي نال بفضل صلاته نبعاً عذباً، ويعتقد السكان أنهم مازالوا مدينين له، يقطن الناس حالياً في نحو عشرين كوخاً ويقتاتون التمر ولحوم الخراف. فالبحر لا يمدهم بالأسماك أبداً ولا يعطيهم إلا الملح الذي يأخذ منه من يشاء ويدفع لسكرتير حاكم بيت الفقيه مبلغاً صغيراً عن كل حمولة.

وجدت في المقبرة بالقرب من القرية البائسة حجرين عليهما كتابات كوفية، حجر كبير عمودي وآخر ملقى على قبر. ولم يع السكان تمسكي في نقل ما كتب على الحجر الكبير، لكني وعندما عدت في اليوم التالي وجدت الحجر الآخر قد أخذ أثناء الليل، ولا أدري لما توجهت للحديث مع الحكيم أو قاضي القرية ووعدته بمبلغ زهيد إن أراد اطلاعي على الحجر، فاصطحبني عبر دروب كثيرة إلى كوخ بائس فيه قبر ولي آخر فوجدنا الحجر هناك، وحسب ما قال فإن السكان لم يخفوه بل إن الولي أحضره بنفسه. ورغم حماية الولي فقد سمح لي الحكيم بحمل الحجر حتى بيت الفقيه إذا دفعت نفقة المواصلات.

الفصل الثاني

العودة إلى بيت الفقيه عبر الحديدة

تركت غليفقة في اليوم التالي يرافقني خادمي وحماره. مر الدرب دوماً بالقرب من شواطئ البحر في منطقة مجدبة ورملية، لا نرى إلا القليل من أشجار النخل. وصادفنا الكثير من أكواخ القهوة وقرية واحدة، وعلى مسافة من القرية توجد بعض البيوت المنتشرة بين أشجار النخل التي لا تسكن إلا في أوان جني التمر. وصلت مساء اليوم نفسه إلى الحديدة التي تبعد عن غليفقة خمسة أميال ألمانية.

يعتبر ميناء الحديدة أفضل قليلاً من ميناء اللحية، ومع هذا فإن المراكب الكبيرة لا تستطيع الدخول إليه. يتبع حاكم الحديدة الإمام مباشرة ولكن حكمه لا يمتد إلا على المدينة، وتتكون عائدات الحاكم في جزء منها من رسوم تصدير البن. بنيت منزل الحاكم والجمارك وبيوت التجار الكبار من الحجر، أما ما تبقى من المدينة فهو مؤلف من أكواخ بنيت على الطريقة العادية. ويوجد بالقرب من البحر قلعة صغيرة. وللمدينة سيدها الخاص أيضاً هو الشيخ صدّيق الذي تحترمه المدينة احتراماً يليق بولي كهذا.

عند وصولي إلى الحديدة التقيت مع السيدين دوهافن وكرامر اللذين أتيا لتسليم رسائل توصية من أصدقائنا في جدة إلى الحاكم وإلى تاجر كبير. واُستقبلا ونزلا في بيت وعوملا بلطف متناه، لكني وكي لا أضيع وقتي بالزيارات فقد غادرت في اليوم التالي التاسع من مارس (آذار) إلى بيت الفقيه.

في الصيف لا يسافر الناس في تهامة إلا ليلاً، كانت طريقة السفر هذه ستحرمني من فرصة رؤية أشياء جديرة بالمشاهدة، لكني فضلت التعرض للحر على السفر ليلاً. وصادفنا الكثير من المقاهي والقليل من القرى. توجد بئر ماء عذب على مسافة ميل ونصف من الحديدة، ويأتي الناس من المدينة للبحث عن هذا الماء لأن ماء المدينة سيئ جداً. مررت وأنا في طريقي إلى بيت الفقيه بعدة قرى ليست بالغة الأهمية ووصلت في مساء اليوم نفسه. وبالعودة إلى حساباتي فإنها تبعد عن الحديدة سبعة أميال ألمانية قطعتها في يوم واحد في جو حار وعلى ظهر حمار مستأجر.

الفصل الثالث

السفر إلى زبيد

وجدت العرب شرفاء للغاية ولم يحدث لي ما يسيء في جولتي الأولى، فاستعجلت للقيام بجولات أخرى من النوع نفسه. انطلقت قاصداً زبيداً في الحادي عشر من مارس (آذار)، لرؤية ما تبقى من هذه المدينة الشهيرة التي كانت قديماً عاصمة تهامة، ولاكتشاف بعض الكتابات القديمة المختبئة فيها، كما قيل لي في تحات (Tahaete) وهي مدينة صغيرة مجاورة.

رافقني عربي يعرف القراءة والكتابة ولكنه فقير الحال، وكان سعيداً بالقيام بهذه الرحلة لرؤية صديق له هناك دون مصاريف. سررت للغاية بمرافقته فقد راق لي جداً الحديث معه.

مررنا بالعديد من القهاوي وبعض القرى الصغيرة قبل أن نصل إلى قرية كبيرة تدعى المهد تقع في واد جميل يتلقى مياه جبل رمة (Rema) . و تشكل المياه في الفصل الماطر نهراً يتشعب ويسقي الأراضي. وكثيراً ما تستخدم النيلة لصبغ الأقمشة في هذه المدينة. وفي القديم كان يوجد بالقرب منها مدينة كبيرة اسمها أيضاً المهد (el Mahad) والتي لم يبق منها أي أثر.

عندما تقترب من زبيد فإنك تلاحظ أكواماً من الحجارة التي يزعم أنها قسم من آثار مدينة قديمة كانت تدعى الهود (el Haud). وصلت في الصباح الباكر إلى زبيد وقد قطعت في وقت قصير خمسة أميال ألمانية وهي المسافة الفاصلة بين زبيد وبيت الفقيه.

تقع مدينة زبيد بالقرب من أكبر وأخصب وادٍ في تهامة، وهذا الوادي الذي يسوده القحط يجري فيه في فصل الأمطار نهر كبير يقاد كنهر النيل عبر ترع إلى أراض بعيدة ليروي كل المزارع.

كانت زبيد مركز عرش أحد الملوك وأكبر المدن التجارية في تهامة. أما ومنذ أن نشطت الملاحة في غليفقة، فقد انتقلت التجارة إلى بيت الفقيه والمخا على نحو لم تعد معه زبيد تحتفظ إلا ببقايا من ازدهار غابر.

تظهر زبيد عن بعد بفضل العدد الكبير من الجوامع والقبب فيها، ويعود أصل الكثير من هذه الجوامع إلى الباشوات الأتراك[١] الذين أقاموا فيها خلال الوقت القصير الذي حكم فيه الباب العالي هذه المنطقة من الجزيرة العربية. لكن زبيد دفعت غالياً ثمن هذه العظمة الخارجية، فقد افتقر حال سكانها بسبب غنى الكثير من رجال الدين الذين عملوا في المؤسسة الوقفية. وقد أكدوا لي أنهم قسموا إلى خمسة أجزاء كل العائدات في المنطقة فأخذ رجال الدين ثلاثة أجزاء ونال الإمام جزءاً عن طريق الضرائب ولم يبق للسكان إلا الجزء الخامس لكل المصاريف.

وقد ترك الأتراك أثراً مفيداً بعد سيطرتهم وهي قناة لجلب الماء من الجبال إلى المدينة[٢]. لكنها أهملت ولم يبق منها إلا الآثار مما أجبر السكان في الوقت الحاضر على الاكتفاء بمياه الآبار وهي مياه عذبة وغزيرة تروي العديد من البساتين في الضواحي.

ذكر المؤرخ أبو الفداء ثمانية أبواب لزبيد لم يبق منها إلا خمسة، تآكل جزء منها بسبب القناة، وتهدمت جدران المدينة القديمة، حتى الآثار باعها الفقراء الذين يجمعون الحجارة ويسلمونها لمن يبني بيوتاً جديدة، ويشغل بالكاد ما تبقى من المنازل نصف المدينة القديمة.

يدرس في المدرسة (الأشاعر) شباب تهامة وقسم من شباب اليمن العلوم المتداولة بين المسلمين، وهذه المدرسة تعطي زبيد حتى اليوم مكانة مرموقة. كما أن زبيد مقر حاكم ومفتي وقاضي الشافعية بالإضافة إلى قاضيين آخرين لفئة الزيدية بما فيهم الإمام وعدد من أتباعه.

---

١) يعود تشييد الجوامع والمدارس في زبيد إلى فترة ما قبل حكم الأتراك فيها خلال القرن الذي أمضوه في اليمن حيث شيدت عدد من المدارس والمساجد في فترات حكم الزياديين والنجاحيين والرسوليين الذين شهدت فترة حكمهم ازدهار في تشييد المدارس والجوامع وكذا في فترة الطاهريين - وما شيده الأتراك في فترة حكمهم لا يتجاوز المنشأتين أو الثلاث فقط (المترجم).

٢) أنشئت هذه القناة في فترة حكم الزياديين الذين قاموا بتشييد القنوات لجلب مياه الشرب من أعلى الوادي إلى المدينة. وتسمى هذه القناة «المدب»، ولم تكن هذه القناة من أعمال الأتراك.

التقيت في منزل من المنازل أحد كبار المتشدقين والرجل الأتفه والأكثر اعتزازاً بالنفس الذي لم أر نظيراً له بين العرب، كان شريفاً أو سيد طبقة نبيلة وقد كان فقيراً وكسولاً يقطع البلاد ليقتات مما يعطيه أغنياء بني ملته، جاب مصر وسوريا والحبشة وادعى أنه يجيد أكثر من لغة أجنبية ولكنه لا يعرف منها إلا بعض العبارات، فأردت الاستيضاح منه عن البلدان التي زارها لكنه لم يخبرني إلا ببعض أسماء الشيوخ والباشاوات وحكام المناطق التي زعم أنهم استقبلوه كما يليق بشريف مثله، مللت منه ومن حديثه الدائم عن سلالته ليثبت لي منبته الرفيع. كان يكره الشرفاء الأتراك والسادة العرب لارتباطهم بنساء غريبات، بينما لم يتزوج رجل واحد من عائلته حسب ما ادعى امرأة من عامة الناس. وأطلق على امرأة مسكينة كانت تصنع لنا القهوة لقب شريفة وهو لقب تدعى به النساء الأكثر نبلاً وغنى، حدثني طويلاً عن سلالة تلك المرأة وكان ينادي دوماً ابنه ذي السنوات العشر شريف أحمد، بينما كان هذا الصبي يقوم على خدمته وكأنه خادم. ولم يكن الأب قد استأجر له ولابنه إلا سريراً واحداً لينامان معا عليه بينما استأجر كل مسافر سريراً على الأقل وإن لم تصل به الأحوال إلى التسول أما في كل الفنادق في أوروبا فإنك تستأجر غرفة. ورغم كل مظاهر الكبرياء فقد كان هذا الرجل يلعن ابنه غالباً وينادي "يا كلب يا ابن الكلب".

بعد أن قمت في زبيد بكل ما كنت قد قررته من بحوث، غادرنا في الثاني عشر من مارس (آذار) وقطعنا ميلين ألمانيين ونصف قبل أن نصل إلى تحات[٣] والتي كانت قديماً مدينة وما هي اليوم إلا قرية قليلة الأهمية.

يمر الطريق دائماً في وادي زبيد أو دلتا النهر حيث رأينا أريافاً رائعة في أماكن لم تتمكن السيول من حمل تربتها، يزرع الكثير من صبغة النيلة وقد أحصيت بالقرب من القرية نحو ٦٠٠ حوض كبير تحضر فيها تلك الصبغة.

يوجد في القرية عدة جوامع ومنازل من الحجر بنيت فوق قبور بعض الأغنياء أو

٣) هي التحيتا مدينة صغيرة على وادي زبيد وهي اليوم مركز مديرية التحيتا في محافظة الحديدة (المراجع).

الأولياء. وأهم هؤلاء الأولياء هو ابن حسان الذي يضاء قبره في كل ليلة بالمشاعل ويترأس أحد المنحدرين من سلالته منزلاً في القرية أو بالأحرى فندقاً، نزلت في فندق عادي فأتى صاحبه يدعوني للذهاب إلى بيته فلم أرد فأرسل لي عشاء لذيذاً. وبالرغم مما قيل لي عن سادة تلك المنازل الذين لا يقبلون أي شيء من أحد، فقد رضي سيد منزل تحات بكل سرور بهدية صغيرة من الفضة.

غادرنا في الثالث عشر من مارس (آذار) إلى بيت الفقيه فلم يسترع انتباهنا شيء في تلك القرية، لم أجد في طريقي أي منزل على الإطلاق باستثناء قرية المرة الكبيرة الواقعة في وادي المهد الرائع. يوجد فيها كثير من القبب ومنزل كبير يقدم فيه الطعام لثلاثين أو أربعين شخصاً يومياً.

الفصل الرابع

السفر إلى القَحْمَة (Kahhme)

لقد زادتني تجربتي اقتناعاً أكثر فأكثر بسهولة ومتعة وأمان السفر في اليمن، فعزمت فوراً على سفر جديد وأحزنني اقتراب رمضان الذي يبدأ هذا العام في ١٦ مارس (آذار).

توقعت أن أجد المسلمين المجاورين لمنابع دينهم أكثر ممارسة لشعائر صيامهم من المسلمين في المناطق النائية، فقد حرص عرب مصر الذين رافقونا في شهر رمضان على الصيام أثناء السفر كما لو أنهم كانوا في بيوتهم. فلم يأكلوا أو يشربوا أي شيء خلال النهار كله وكانوا يمتعضون عندما نشرب في حضورهم مرطبات ومشروبات، ولم يكن انزعاجهم يريحني.

لكنني اكتشفت بمزيد من العجب أن عرب اليمن ليسوا على تلك الدرجة من التدقيق والاهتمام، فهم يأكلون أثناء السفر دون الأخذ بعين الاعتبار للصيام، على أمل الصيام أياماً أخرى كما يقولون في شهر آخر، أمر لا يتذكرونه بانتظام دوماً.

تأكدت أنني أستطيع العيش بطريقة عادية رغم الصيام، فذهبت في ١٩ من مارس (آذار) برفقة صاحب الحمار قاصداً القحمة متمنياً أن أجد آثاراً من مدينة ليلوى. ومررت بقرى أصبحت أكثر كثافة كلما اقتربنا من الجبال، وكانت أهم تلك القرى حيس والتي اشتهرت بقبر الولي الشيخ الحيسي ابن الولي الشيخ أحمد بن موسى سيد بيت الفقيه كما سبق وذكرت. اجتزت وادياً أيضاً ينضم نهره إلى نهر رمة (Rema) الذي يجري في فصل المطر حتى يصل إلى البحر ليصب في شورم (Shurem).

بحثت فور وصولي إلى القحمة عن آثار ليلوى لكني لم أجد إلا مقبرة واسعة مليئة بأحجار خماسية الشكل يصل قطرها إلى ثمان بوصات ويبلغ طولها أربعة أو خمسة أقدام. اعتقدت عندما رأيت الحجارة المتشابهة أن الفن قد أعطاها ذلك الشكل لكني سرعان ما رأيت تلاً في الجوار مكوناً من هذه الحجارة الخماسية التي استخدمها السكان لتزيين مقبرتهم. توضّعت كل طبقات التل توضعاً عمودياً الواحدة قرب الأخرى

والواحدة فوق الأخرى وبدت متصلة بنوع من الإسمنت الخفيف، رأيت ما شابه ذلك في مناطق أخرى من الجزيرة العربية. وقرأت بعد عودتي إلى أوروبا في مخطوط للسيد كينيج أن هذا العالم الدانماركي قد اكتشف في أيسلندا جبالاً شكلتها حجارة خماسية مصفوفة بطبقات عمودية وعلى ارتفاع ثلاثة أذرع و بسماكة نصف ذراع.ويعرف هذا النوع من الحجارة عند علماء الطبيعة باسم البازلت. وبعد أن تفحصت القليل مما قدمته لي القحمة من الأهمية، عدت إلى بيت الفقيه للقيام بسفر جديد.

الفصل الخامس

السفر إلى الجبال التي تنتج البن

لم يكن السيد فورسكال أثناء غيابي عاطلاً عن العمل في جبال البن المخصبة، فقد قام ببعض البحوث النباتية. ألزم وصفه الظريف لتلك المنطقة، السيد كرامر والسيد باورينفايند بالإلتحاق بصديقنا في الجبال، وقررت أيضاً الانضمام لرفاق الدرب لأتنفس الهواء المنعش ولأشرب الماء العذب، لم يتطلب الطريق إلا مسير نصف نهار ولم أصادف فيه ما يثير الاهتمام.

لاحت لي في الصباح الباكر مدينة حدي الصغيرة الواقعة على أولى المرتفعات، التي يتوجب الوصول إليها عبر دروب وعرة، وقد بنى الأتراك طريقاً تركت فيما بعد ليسوء حالها. كان رفاقي الذين أردت لقاءهم في البساتين على الجبال، انضممت إليهم بعد مسير ساعتين، بالقرب من قرية بلقيس التي تعيش من انتاج البن كغيرها من القرى. في هذه المناطق لا يمكنك استخدام الحمير ولا البغال، بل عليك أن تتسلق الجبال الوعرة عبر دروب ضيقة وصعبة، لكن ورغم المشقات فإن هذا الدرب المحاط بالبساتين وشجيرات البن بدا لي خلاباً بالمقارنة مع سهول تهامة الجرداء.

لم أر بالقرب من قحم[٤] إلا تلًا صغيراً من البازلت، يبدو جزء كبير من هذه الجبال هنا وقد تشكل من هذه الحجارة، أما الصخور المنفصلة فإنها تشكل منظراً جميلاً وخاصة في أماكن يجري فيها الماء من بعض القمم، فتبدو الشلالات وقد دعمتها صفوف من الأعمدة الصغيرة المستقيمة. لهذا الحجر فائدة كبيرة بالنسبة لسكان المنطقة، فهم يستخدمون الأعمدة التي يسهل فصلها لصنع درجات في دروب وعرة، ولبناء جدران أيضاً ضرورية لدعم شجيرات البن في المنحدرات الجبلية.

شجيرات البن في أوروبا معروفة وهذا ما جعلني لا أتطرق إلى وصفها. أزهرت كل شجيرات البن في بلغوف (Bulgof)، وفاحت منها رائحة ذكية للغاية، تزرع الشجيرات

---

٤) هي القحمة وهي مدينة تقع في وادي ذؤال أحد أودية تهامة.

في مدرجات رائعة الجمال. ولا يعيش معظمها إلا من مياه الأمطار بينما يروى بعضها الآخر من أحواض كبيرة حفرت في المرتفعات تجمع فيها مياه الينابيع لتوزيعها على المدرجات حيث زرعت الأشجار بكثافة متقاربة جداً فلا تتمكن أشعة الشمس من اختراقها. وقد قيل لنا إن الأشجار المروية رياً اصطناعياً تثمر موسمين في العام الواحد، لكن الثمار لا تنضج نضوجاً جيداً إلا مرة واحدة بينما ثمار القطاف الثاني تظل أقل جودة ونضجاً من الموسم الأول.

وبما أن الحجارة في المنطقة موجودة أكثر منها في تهامة، فإن البيوت تبنى منها، فبقدر ما تتشكل المنازل منها بقدر ما تتبعثر تلك الحجارة في الجبال. وبما أنها لا تقارن مع البيوت الجميلة في أوروبا فإن لها مظهراً جميلاً وخاصة الحجارة الموجودة في المرتفعات والمحاطة بالبساتين الجميلة والأشجار المزروعة في مدرجات.

كنا في منطقة تطل على السهول في بلغوف لكننا لم نبلغ مستوى نصف ارتفاع كسمة، حيث يقيم حاكم المنطقة في أعلى قمم جبالها. متعنا أنظارنا بكل ما هو بهي من المناظر حولنا، وقد رسم السيد باورينفايند إحدى المناظر الخلابة. وقضينا ليلتنا في بلغوف وزارنا العديد من عرب القرية، كما زارتنا مضيفتنا تصحبها بعض النسوة والفتيات المتلهفات لرؤية الأوروبيين وكن أقل ارتباكاً من نساء المدينة، لم يلبسن أي نقاب على وجوههن وكن يتحدثن إلينا بحرية كاملة. وبما أن الهواء كان أكثر إنعاشاً في جبال كهذه، فإن للجنس اللطيف بشرة بيضاء ناعمة أكثر من بشرة النساء في السهول. وقد رسم السيد بورنفان صبية من القرية ذاهبة لتنضح ماء من البئر تلبس قميصاً مخططاً باللونين الأبيض والأزرق وقد طرز أعلاه ووسطه بباقة من الألوان كما طرز أسفل سروالها.

نزلنا في الثاني والعشرين من مارس (آذار) من الجبال إلى حادي [٥]، وهي منطقة يعرفها جيداً الأوروبيون القادمون من بيت الفقيه لقضاء بعض الوقت في هذه المدينة

٥) الحدّية وهي قرية كبيرة تقع على حواف جبال ريمة في أطراف تهامة وتعدّ تابعة لريمة وكانت محطة بين تهامة وريمة ومنها تصعد إحدى الطرق الموصلة من ريمة إلى تهامة.

الصغيرة بسبب هوائها العليل ومائها العذب، لكنها مبنية بناءاً رديئاً وليس فيها ما يثير الاهتمام إلا تجارة البن الذي يأتي به بعض سكان الجبل في أيام محددة من الأسبوع بعد أن يدفعوا للحاكم الضرائب المستحقة، فتحزم القهوة وتنقل على ظهور الجمال إلى بيت الفقيه أو تنقل مباشرة إلى الحديدة.

ما زال يعجبنا منظر مدهش وضاحك فمن بيت نائب الحاكم في حاوي عدنا مساء إلى بيت الفقيه عبر الدرب نفسه الذي سلكناه في طريقنا إلى الجبل.

منظر عام لجبال القهوة

القسم العاشر
السفر في المنطقة الجبلية في اليمن

الفصل الأول

مغادرة بيت الفقيه

كانت بحوثنا في بيت الفقيه أسهل من كل أرجاء اليمن الأخرى. فالسكان المعتادون على أساليب الأوروبيين كانوا يعرفون أننا لا نستطيع البقاء في مكان واحد كالشرقيين، وبالتالي فلم يفاجئهم سفرنا وكانوا يقتنعون بوجهة نظرنا عندما نقول لهم إن الحركة تمرين ضروري لصحتنا.

أما أصدقاؤنا الذين استشرناهم في خطواتنا فلم يفهموا سبب متعتنا أنا والسيد فورسكال في السفر أثناء الطقس الحار، بينما بقوا في بيوتهم وهم المعتادون على ذلك المناخ ولا يخرجون منها إلا إذا دعت الحاجة لذلك. وإذا افترضنا أننا أتينا من الجزيرة العربية لنتابع طريقنا إلى الهند، نصحونا أن نتحاشى هذا السفر المضني وأن نهتم بصحتنا. ولكنهم في النهاية عندما رأوا أننا نهمل نصائحهم ونبذر الكثير دون أن نربح شيئاً من التجارة، ظنوا أننا نعرف كيف يصنع الذهب وأن تسلق السيد فورسكال الجبال كان لغرض ما وهو البحث عن النباتات الضرورية لمشروعنا الكبير هذا، أما المراقبة الفلكية التي كنت أقوم بها فقد أعطتني صيت من يمارس السحر والشعوذة.

ولحسن حظنا أن تلك الشائعات انحصرت في دائرة معارفنا الضيقة. وظهر الحاكم وقد نسينا ولم يعلموه حتى ذلك الحين بهدف إقامتنا في دياره، وقد أردت أن نستفيد من لحظات الحرية تلك للتعرف على اليمن الداخلي، بعد أن زرنا ضواحي بيت الفقيه في تهامة أردنا رؤية الجزء الجنوبي من الجبال، ضمن مشروعنا والقيام بسفر من المخا إلى صنعاء، فقررت زيارة العدين[1] وتعز، لكن التجربة علمتني أنني أخطأت في تحديد موقع هاتين المدينتين الواقعتين إلى الجنوب أكثر مما قيل لي.

تسافر في تهامة بكل أمان سواء في الليل أو في النهار، لكنك لا تفضل كثيراً أن تكون في الطريق عند حلول الليل في منطقة جبلية، حيث تعرض نفسك لأخطار إذا كنت

---

١) العدين منطقة جبلية تقع إلى الغرب من مدينة إب وتشكل مديرية عاصمتها مدينة العدين.

وحيداً حتى في وضح النهار في دروب نائية كمثل الدروب التي كنت أنوي قطعها. وعلى كل حال لم أكن أعرف لغة الجبليين المختلفة كلياً عن لغة أهل المدن. وقد دفعتني كل هذه الأسباب لأرجو السيد فورسكال الذي كان قد تعلم بعض الأمور حول جبال البن وبعض مفردات المناطق الجبلية، أرجوه أن يرافقني في هذا السفر فاستجاب في الحال لطلبي لأنه كان يأمل أن يستفيد من سفره هذا في بحوثه النباتية.

كانت التحضيرات لسفرنا بسيطة جداً، وهي كل ما كنت قد استخدمته في أسفاري حتى اليوم، استأجرنا حمارين من شخص رافقنا سيراً على الأقدام وكان دليلاً لنا ومترجماً في أغلب الأحيان. واقتداءً بالعرب فقد كان لنا لحية طويلة أعطتنا مع الملابس الطويلة أيضاً مظهراً شرقياً. ومما زاد في تنكرنا هو أننا اتخذنا أسماءً عربية وكان تنكرنا متقناً بحيث إن الدليل ظن أننا مسيحيون من الشرق ولم يشك في أننا أوروبيون، وهكذا انطلقنا جميعاً من بيت الفقيه في السادس والعشرين من مارس (آذار).

الفصل الثاني

الطريق حتى مدينة العدين

مررنا بالكثير من القرى في السهول وبعد أن قطعنا خمسة أميال ألمانية ونصف وصلنا إلى ربا (Robo) وهي قرية كبيرة يقام فيها سوق كبير كل أسبوع، فقضينا فيها ليلتنا الأولى.

وفي الغد وبعد أن قطعنا مسافة ميل واحد وصلنا إلى الجبال. ورأينا ماءً جارياً بالقرب من أول قرية وكانت هي المرة الأولى التي نرى فيها ماء جارياً في الجزيرة العربية، يدعى وادي زبيد الذي يتسع مجراه كثيراً قبل أن يدخل تهامة ويبلغ عرضه عشرين أو أربعة وعشرين قدماً فقط بما أنها لم تمطر منذ زمن بعيد. في هذه المنطقة للماء مجرى واسع، أما في تهامة فإن الماء ينتشر في السهول وينتهي إلى الرمال.

ومررنا في اليوم نفسه بالقرب من جبل سلّام (Sullâm)، حسبت أنني سأجد كتابات هيروغليفية أو كتابات محفورة في الصخر وفقاً لرواية أحد عرب البلاد، لكنها كانت بالفعل وجوهاً كئيبة كوجوه جبل سيناء، وقد حفرها أحد الرعاة للتسلية. أما نحن فقد قضينا ليلتنا في مشسى (Maschsa).

لم يكن المسافرون معتادون على السفر في تلك الدرب التي سلكناها، فهي درب وعرة وغير آمنة، ولم نصادف فيها أية بيوت تذكر. بينما كان الخطر أقل منذ بعض السنوات، حيث عين سيد مشسى فيها بعض العساكر ونائب حاكم مسؤول عن السرقات الواقعة وقد استطاعوا القضاء على اللصوص.

ومشسى (Machsa) هي قرية من بين القرى التي يقام فيها سوق. فالبيوت فيها أسوأ حالاً من البيوت في تهامة، فهي بلا جدران وتقوم على بعض الدعائم المغطاة بالقصب. وشق علينا الإقامة في أحد تلك الأكواخ الصغيرة فلا يمكنك البتة الوقوف في وسطه، أما إذا نام شخصان في أرضه فإنهما يملآنه كلياً. ولا يمكنه أن يحوي سريراً واحداً، ولذا فالجبليون يجلسون وينامون في الأرض. وبما أن الهواء أبرد هنا من الهواء في

تهامة، فإن الناس يتعرون ويلبسون نوعاً من الأكياس فيدفئهم تعرقهم. ولم نجد في كل فنادق المنطقة إلا خبز الذرة الرديء وفي بعض الأحيان حليب النوق أما الماء فهو عذب أينما توجهت.

قطعنا في الثامن والعشرين من مارس (آذار) طرقاً متلوية للغاية في منطقة خصبة ومزروعة بعناية. فقد بنيت البيوت من الحجر أما سطوحها فهي أفضل بكثير مما رأينا سابقاً، ولم يكن لمنازل الفلاحين جدران إلا حجارة مصفوفة فوق بعضها دون أن تعمر بالإسمنت، أما السطوح فهي مغطاة بالتراب.

مررنا بقرية أقيم فيها سوق فأسرعنا في سفرنا لأننا كنا نريد أن نتحاشى الزحام. أما بالقرب من هذه المنطقة وفي سفح جبل عال رأينا رمالاً لامعة مؤلفة من بقايا حجر البلق، وقد حمل اللمعان الناس على الاعتقاد أن الجبل يخفي منجماً من الذهب. كما ولمحنا على القمم أضرحة العديد من الأولياء توجد بالقرب من إحداها بئر ولها حوض مصنوع من الخشب، يسكب فيه بعض الورعين الماء باستمرار لترده الماشية المارة من هنالك، قضينا ليلتنا في كوخ للقهوة بالقرب من قرية لا تسكن إلا يوماً واحداً في الأسبوع، وهو اليوم الذي يقام فيه السوق، ولذلك فلم نجد فيها إلا ساكناً واحداً هو صاحب ذلك الكوخ.

ينتظر الناس هطول الأمطار طويلاً في تلك الأرجاء، وقد بنوا للاستفادة من المطر سدوداً على طول المرتفعات وذلك لتوجيه مجرى الماء إلى الحقول. ويناسب مكان الحقول تماماً طريقة الري هذه: فالحقول تقع في وضعية كالشرفات تسندها أسوار جافة، لها سدود تحبس الماء اللازم للري وإن كانت هذه الطريقة طريقة جيدة في الري، فإننا نلوم أهل الجبال على طريقتهم في قطع الأشجار، فهم يشعلون النار في أسفل الشجرة حتى تقع وحدها بسبب وزنها. ووجدنا في اليوم التالي ساقية صغيرة تصب في وادي زبيد مع الكثير من السواقي التي تكثر في المنطقة. ورأينا للمرة الأولى منذ مغادرتنا بيت الفقيه أشجار البن وقد انتشرت غروسه على طول الطريق. اقتربنا من نهر زبيد، جفت أحد فروعه وامتلأت بالقصب على ارتفاع عشرين قدماً، فاتخذناه كدرب غطاه

بشكل ممتع هذا الوادي من القصب ووصلنا في المساء إلى العدين. فمدينة العدين مفتوحة وصغيرة فيها نحو ٣٠٠ منزل مبنية كلها من الحجر، لا يتعامل شيخها أبداً مع الحاكم، لأن لها شيخ يحكمها بالوراثة وهو تابع للإمام، يسكن الشيخ في قصر يقع على جبل خارج المدينة. وباستثناء ضواحي العدين فإن كل المناطق التي قطعناها في الطريق قليلة السكان، بينما يكثر عدد السكان في أراضي المدينة بفضل إنتاج البن الوافر، فالبن هنا مطلوب جداً لأن نوعية منتوج العدين من البن هي الأفضل في كل الجزيرة العربية.

الفصل الثالث

الطريق من العدين إلى جبلة

اجتزنا منطقة مأهولة بالسكان بما أننا تركنا العدين في ٣٠ مارس (آذار). ورأينا بالقرب من قرية حقلاً مزروعاً بنوعية سيئة من قصب السكر.

وفي منتصف النهار كان علينا اجتياز جبل وعر. وقد رصف الدرب المؤدي إليه وأهمل ترميمه منذ أمد بعيد. ورأيت على قمة الجبل دليلاً جديداً على اهتمام العرب براحة المسافرين.

وللمرة الأولى شاهدنا حوضاً مليئاً بالماء العذب ليرتوي منه المسافرون، بنيت الأحواض على شكل مخروطي ووضع بالقرب منها إناء لأخذ الماء. ولكن من الأفضل أن يقتني كل مسافر إناء خاصاً به أضف إلى ذلك أن يحضر معه جرة. ووجدنا في كل البقاع الخصبة في اليمن عدداً من الأحواض إلى جانب الطرق الرئيسة.

بما أن العواصف تكثر في هذه الجبال، فقد بنيت بعض البيوت الصغيرة على الجبل الذي اجتزناه، على هيئة قبب لتكون ملجأ للمسافرين فيما لو فاجأهم هبوب عاصفة على غير موعد. أما ميزان الحرارة الذي كان بحوزتنا وبالمقارنة مع ميزان حرارة السيد بورنفان عندما قاس الحرارة في بيت الفقيه، أظهر لنا فرقاً شاسعاً بين المناطق الجبلية والسهول. وهناك ميزان أكثر بساطة وقرباً للطبيعة وهو لباس الناس، فعندما يكون سكان تهامة شبه عراة يرتدي سكان الجبال فراء الخراف.

وقد شاهدنا أثناء سفرنا العديد من القرى الموجودة في مناطق خصبة. التلال مغطاة بالحقول المزروعة بالجوادر على شكل مدرجات، وكان ذلك يعطي مظهراً رائعاً للمنطقة. ورغم خصوبة المنطقة إلا أنها لا تزرع البن.

عرب اليمن وبوجه خاص سكان الجبل، يعترضون غالباً طريق الغرباء ليسألوهم من أين قدموا وأين يقصدون، وبما أن سبب الأسئلة هو فقط الرغبة في الاستطلاع،

فإنه من الشائن ألا يجاب عنها. كنا نقول بوجه عام إننا آتون من الشام من الشمال وكان ذلك يوحي لهم أننا أتراك من سوريا. أما عندما كنا نسأل فيما إذا كنا أتراكاً فكنا نجيب أننا نصارى وبهذا يعتقدون أننا من اليونان أو من أرمينيا. كنا نخفي هويتنا لنكون في منأى عن الفضول المزعج. ظنت مضيفتنا أننا رجال دين أتراك وطلبت منا أن نصلي لأجلها. وقد حياني أحد الرجال في جبلة ودعاني الحاج أحمد معتقداً أنه يعرفني منذ بضعة أعوام.

لم تعترض سبيلنا أية مشكلة كانت بشأن جوازات السفر أو رسوم المرور. خلا سفرنا من الصعوبات والعقبات التي يمكنها أن توقف المسافرين حتى في أوروبا. وكنا نجد في أكواخ القهوة النائية حتى في رمضان الطعام العادي، وكنا نجرؤ في المدن على شراء مؤونتنا في منتصف النهار.

تقع مدينة جبلة عاصمة المنطقة ومركز الحاكم على أطراف جرف عميق، وتضم ما يقارب ٦٠٠ بيت عالية ومبنية بناءً حسناً. رصفت شوارعها وهذا أمر نادر الحدوث في شبه الجزيرة العربية. ويسكن اليهود خارج المدينة في حي منفصل كما هي الحال في اليمن كله.

اشتهرت هذه البقعة منذ عدة قرون، ولكني لم أكتشف فيها أية كتابة مهمة. ورأيت آثار بعض المساجد ولكنها لم تكن تبدو قديمة جداً، لا يوجد في المدينة قصر أو سور. وعلى مسافة قصيرة رأيت ساحة يحيط بها جدار من المحتمل أن تكون قبر باشا تركي، مما يثبت أن الباب العالي التركي وصل بفتوحاته إلى تلك المنطقة الجبلية.

الفصل الرابع

الطريق من جبلة مروراً بتعز وحيس

تابعنا سفرنا في ٣١ من مارس (آذار) في دروب ملتوية وأراضٍ غير مستوية. ونمنا في خان كبير يقع في بطن أحد الجبال العالية، واتخذنا لنا دليلاً من الخان ليصحبنا إلى جبل مجاور أعلى من الجبل الأول، وذلك لنرى قصراً عربياً قديماً. لكننا في الحقيقة وجدنا في قمته آثار بناء ضخم حجارته منحوتة وجدرانه مليئة بالأبراج وبكوات المدافع. ومازال يضم حوضين مبنيين جيداً. ويبدو البناء موغلاً في القدم وينسبه العرب إلى حسان الملك الحميري من العصر الجاهلي. وكلمة الجاهل هنا تعني في العربية غير المتعلم، ويحب العرب أن يدعوا أجدادهم الوثنيين بهذا الاسم لتمييزهم عن باقي الوثنيين المدعوين بالكفار. لم أجد أية كتابة في القصر لكننا تمتعنا من قمة الجبل برؤية مدن وقرى اكتشفناها من بعيد.

ومن الخان الذي قضينا ليلتنا فيه نزلنا الجبل عبر الطريق الرئيس المؤدي من المخا إلى صنعاء، وهو طريق مريح جداً رصف وعني به. إلا أننا وبعد منعطف وعر جداً وجدنا سهلاً كبيراً ومررنا بقرى كثيرة وبالقهاوي والخانات ونمنا في أحد تلك القهاوي وخدماته سيئة للغاية واقتصر طعامنا على خبز رديء كان معنا، وبصعوبة كبيرة جمع مضيفنا بعض العلف لحمارنا. ورأينا في صباح اليوم التالي قلعة تعز ولم نكتشف المدينة إلا عند وصولنا في الظهيرة.

لم نكن نريد أن يعرفنا الناس وكنا نود رؤية تعز ثانية في سفرنا إلى صنعاء، لم ندخل إلى المدينة وقررنا متابعة طريقنا لنقترب من تهامة، سنترك قريباً طريق المخا الرئيس وسننعطف نحو الغرب ونمشي في دروب حجرية ضيقة دون أن نمر على أي مكان مهم.

كانت المنطقة التي اجتزناها في اليوم التالي الثالث من أبريل (نيسان) قليلة الخصوبة والسكان. وفوجئنا بكمية الحجارة الهائلة التي تملأ الحقول القابلة للحراثة. واعتقد بعض السكان أن هذه الحجارة ضرورية لحماية الأرض من حرارة الشمس،

لكنها أي الحجارة دليل واضح وجلي على إهمال الزراعة لدرجة أنه من الصعب أن تجد ما يؤكل في تلك النواحي، فحملنا معنا مؤونتنا من الخبزوالبيض.

اجتزنا بعد ذلك سهلاً مليئاً بأشجار النخل، وسرعان ما عدنا إلى الجبال لنجد أنفسنا في أراضي ابن عقلان، حيث الحقول المحروثة بشكل رديء رغم وجود القليل من الحجارة فيها، وقد انهارت الجدران التي كان عليها أن تسندها، وقد نجم هذا الخراب عن حرب نشبت بين إمام صنعاء والشيخ المستقل من عائلة ابن عقلان التي تملك هذه الناحية. وقد اعترف الشيخ بعد الحرب بسيادة الإمام ولم يعد بإمكانه الإنفاق على الجيوش.

مررنا ببعض القرى والسواقي عندما اقتربنا من تهامة. ونمنا في مقهى تركها صاحبها وسافر إلى القرية المجاورة، وجدنا أنفسنا وحيدين وسعداء بالقيام بهذا السفر دون التعرض لأي حادث في أرجاء مجهولة، ولا يخلو من الخطر القيام بسفر كهذا حتى في أكثر البلدان تمدناً في أوروبا. ثم سلكنا طريقاً صعبة على الهضاب في الرابع من أبريل (نيسان)، ومررنا في عدة مواقع بوادي سراجة (Suradsji) بنهر مهم وسريع رغم شح المطر منذ زمن بعيد، لم يكن هناك أية قرية لكننا رأينا بعض الأكواخ.

في هذه الناحية الجرداء وفي تخوم تهامة اكتشف السيد فورسكال بمزيد من السرور الشجرة التي تنتج البلسم المكاوي، وهي شجرة كبيرة ومغطاة بالزهور، مما جعل صاحبي يعكف على فحصها ووصفها بتمهل. وظن أنها موجودة في أماكن كثيرة من اليمن، لكن السكان الذين يسمونها أبو شم أو الشجرة المعطرة لا يعرفون إلا وجهاً واحداً للاستفادة منها وهو تعطير بيوتهم بحرق خشبها، وقد كسر لهذا الغرض الكثير من أغصانها حيث كنا نجلس في ظلها لنرتاح. تابعنا طريقنا واجتزنا بعض الوديان الصغيرة التي تنتهي إلى وادٍ كبير ورأينا في جهة الجنوب سلسلة جبال كبيرة ولم نر إلا بعض الفنادق، وإلى أن اجتزنا هذه المنطقة الجبلية فإننا لم نر أية قرية، لكننا رأينا قرية كبيرة مليئة بالقبب على مقربة من حيس التي وصلنا إليها في مساء اليوم نفسه. تبعد مدينة حيس مسافة ١٢ ميلاً عن مدينة تعز وتقع في تهامة وهي صغيرة ومبنية بناء سيئاً، إلا أنها عاصمة

تلك المنطقة ومركز الحاكم الذي يقيم في قلعة صغيرة. يُصنع فيها الكثير من الفخار وخاصة الكؤوس الرديئة التي يشرب الناس فيها قشر القهوة المغلى بالماء. وهي لا تمتد امتداداً واسعاً، تحدها من جهة منطقة زبيد، ومن الجهة الأخرى أراضي الشيخ ابن عقلان.

الفصل الخامس

العودة إلى بيت الفقيه

تركنا حيس في ٥ أبريل (نيسان) ووصلنا مساء إلى زبيد، بعد أن صادفنا في طريقنا الكثير من القرى والأكواخ وقطعنا نهرة (Suradsji) دون أن يلحق بنا أي بلل، وهو الوادي الذي رأيناه في الأمس، وهو مهم جداً أيضاً في الجبال لكننا عندما اجتزنا الأرياف الرائعة في الوادي والتي ترتوي من ذلك الغيل وجدنا سبب فقدان الماء ونتائجه في الوقت نفسه.

كان الطريق من زبيد إلى بيت الفقيه هو الطريق نفسه الذي وصفته فيما سبق. وصلنا إلى بيت الفقيه في السادس من أبريل (نيسان). وكان الطقس حاراً جداً عندما تركنا الجبال. ونزلنا لنرتاح في أحد الفنادق بين حيس وزبيد وقد بنيت جدرانه من الحجارة الخام التي وضعت فوق بعضها البعض بلا طين فتركت المجال للريح كي تتسرب من الشقوق بالرغم من سكون الهواء. أمتعتنا متعة كبيرة تلك الطراوة في مثل ذلك الطقس الحار.

نمت في الأرض بلا غطاء وقد أضناني الجو الحار ومتاعب السفر، كلفني هذا الخطأ غالياً فأصابتني الحمى قبل وصولنا إلى زبيد ولازمتني حتى بعد عودتي إلى بيت الفقيه مما جعلني عاجزاً عن إنجاز أي عمل.

وجدنا السيد دوهافن عند وصولنا إلى تلك المدينة مريضاً فقد أصابه داء الحفر وتعب جداً من نمط العيش الذي نتبعه مجبرين. وكنا بحاجة ماسة منذ زمن طويل للخمر والكحول ولم ننصح بالقهوة فهي مهيجة، أما شراب قشر القهوة ورغم ما يقال عنه أنه صحي إلا أنه بلا طعم، والماء ليس عذباً في تهامة كلها.

ولم يكن بمقدور طباخنا أن يعد لنا طعاماً بسيطاً كمثل أطباق العرب المعروفين بزهدهم في الأكل والشراب. كنا نتناول لهذا السبب اللحم كل يوم بالرغم من أن أصدقاءنا الذين خَبِروا المناخ هنا قد نصحونا بالتوقف عن ذلك. آذت طريقة التغذية تلك المعتمدة على اللحوم صحتنا كثيراً وصحة مرافقينا الذين لم يقوموا بكثير من

التمارين البدنية. كانت هذه هي حال السيد دوهافن الذي لم يكن يترك مكانه إلا لتناول الطعام.

صادف هذا العام أول أيام الربيع في الرابع عشر من أبريل (نيسان)، وهو اليوم الذي يخرج فيه الحاكم من المدينة ترافقه جموع غفيرة ليصلي في الهواء الطلق في ساحة كبيرة مربعة. يستمر العيد مدة ثلاثة أيام يرتاح فيها العرب ولا يقومون بأي سفر أو عمل.

أتيحت لنا الفرصة في السابع عشر من أبريل (نيسان) في بيت الفقيه لرؤية مثال عن حزم وبرودة أعصاب العرب. فقد شبت النيران في منزل في أقصى الجنوب، وما هي إلا فترة وجيزة حتى التهمت النيران قسماً كبيراً من المدينة بسبب الريح العاتية التي تهب من جهة الجنوب. احتفظ السكان بهدوئهم ولم تكن لتسمع في الطرقات صريخاً أو عويلاً، حتى إذا ما سمعت أحداً يندب حظه كان جواب الناس له: إنها إرادة الله. وكنا نقيم في بيت من حجر في حي لم تقربه النيران، صعدنا إلى السطح فرأينا سطوح المنازل الأخرى وقد اكتظت بالمتفرجين وهم يشاهدون الحريق بهدوء، أتى إلينا عالم فقير كان غالباً ما يزورنا بعد أن وضع حوائجه في مأمن وأخبرنا بهيئة لا مبالية في أي وقت احترق بيته. وفي الواقع أنه في حادث مماثل لا يفقد العربي الكثير فعند اقتراب النار يحمل أثاثه على ظهره ويلجأ إلى حي آخر أو إلى السهول فهو لم يفقد إلا كوخه المتواضع الذي يعيد بناءه بسهولة وبقليل من المال.

خارطة البحر الأحمر

القسم الحادي عشر
السفر من بيت الفقيه إلى المخا

الفصل الأول

الطريق إلى المخا

عندما تماثلنا أنا والسيد دوهافن للشفاء نوعاً ما لدرجة نستطيع معها تحمل مشقات السفر، قررنا أعضاء بعثتنا السفر. انطلقنا من بيت الفقيه في العشرين من أبريل (نيسان) وأخذنا طريق زبيد الذي كنت قد سلكته بمفردي.

من المستحسن السفر أثناء الليل في تهامة بما أن الفرصة قد أتيحت لي لاستنتاج ذلك، لكننا إذا اتبعنا تلك العادة فلن يتمكن السيد فورسكال من جمع الأعشاب ولن أستطيع بدوري مراقبة البلاد، لذلك فقد انتهى بنا الأمر إلى استئجار حمار وصاحبه لمرافقتنا والسفر في النهار رغم الحر ليتبعنا ليلاً باقي أفراد الحملة والخدم والأمتعة.

ونتيجة لذلك الاتفاق سافرنا وحدنا في الصباح واجتزنا المنطقة التي يرويها وادي زبيد، كما مررنا بروافده. يبلغ عرض هذه المنطقة الجميلة ما يقارب الميلين، كانوا يحرثون بعض الحقول ويحيطونها بمرتفعات من التراب لحبس الماء في وقت معين وتركه ينساب بعدها على الأراضي. وابتداء من الأراضي المروية ووصولاً إلى المخا لم نشاهد أية قرية على الإطلاق، البلاد قاحلة ورملية ومغطاة بذلك العشب الرديء الذي تغطى به السطوح في هذه المنطقة. وسط السهول الرملية ومع الحر الشديد كان يسعدنا أن نتفيأ في بعض الأحيان في كوخ بائس للقهوة. ولم نصادف في اليومين الثاني والثالث إلا أكواخاً من هذا النوع إلى أن وصلنا إلى قرية كبيرة اسمها موشج. حيث أخافتنا قصة حرب صغيرة بين أسرتين قتل رجل بسببها في الأمس. لكنهم أكدوا لنا أن النزاعات الخاصة لا تعكر صفو الهدوء العام. يمكن لأسرة عربي ما عندما يقتل أن تتفق مع القاتل على مبلغ من المال، أو تزعم أن القاضي سيسلمها القاتل لتقتله أو تصرح في نهاية المطاف أنها ستثأر من القاتل أو من أهله. فقد قتل رجل من قرية أخرى رجلاً من موشج[1] منذ سنوات خلت، وفضلت أسرة القتيل الثأر، فقتلوا لسوء الحظ رجلاً آخر من الأسرة نفسها التي ستثأر لقتيلين في معارك خاصة اعتادت عليها

---

١) موشج هي قرية لا تزال عامرة تمر منها الطريق بين زبيد والمخا (المترجم).

الأسرتان، والتقينا في اليوم التالي في كوخ للقهوة رجلاً من الفريق المنتصر مسلحاً بعصا غليظة وقد أعرب لنا عن رغبته العميقة بالقتال فالمسألة متعلقة بالشرف، وقد أسف لأمر واحد فقط وهو دية الرجلين التي ستدفعها أسرته، حياتهما أو موتهما بالنسبة له سيان. ويقيم في القرية نائب حاكم مع بعض جند حاكم حيس. وقد فرضوا رسوماً كما في زبيد على كل جمل محمل، أستخلص من ذلك أنك تدفع رسماً عند دخولك إلى كل مجلس قضائي. اتفاقنا مع الجمال أجبره على دفع الرسوم من أجلنا، لكنه ناقش مع الزائرين وسيلة لإعفائه من الرسوم. فأتوا يخبروننا بوجوب دفع الرسوم أو تكبد مشقة فتح أمتعتنا، وعندما أردنا تقديم شكوى لقاضي المكان، تنازلوا عن طلبهم. وهكذا وفي كل أصقاع الأرض تخلق دوائر الجمارك أشكالاً من النصب والاحتيال والتنكيد. وقد مررنا في طريقنا بقريتين والعديد من المقاهي ومملحة بالقرب من الدرب ينقل ملحها إلى الجبال على ظهور الجمال، كان طريقنا عبر الرمال.

الفصل الثاني

الوصول إلى المخا

بعد مسيرٍ مضنٍ بعض الشيء، دخلنا إلى المخا في الثالث والعشرين من أبريل (نيسان). يجبر كل من يصل المخا براً على العبور من باب واحد، حيث يخضع الأوروبيون لمذلة الترجل عن حميرهم والسير على الأقدام حتى بيوتهم، فنزلنا بينما كانت تفتش أخراج دوابنا، لم يسألنا أحد عن أسمائنا أو جوازات سفرنا بل أرشدونا إلى خان ينزل فيه الأتراك حيث يمكن أن نجد فيه أوروبيين مثلنا حسب اعتقاد الزائرين.

كان يوجد في المخا تاجر إنجليزي قادم من بومباي عند وصولنا إليها، وكان من الصعب علينا أن نتوجه بالحديث إليه خشية أن يظن أننا من المتشردين فقد كان بحوزتنا رسائل توصية من أصدقائنا في جدة واللحية وبيت الفقيه إلى الحاكم ومترجم الإنجليز وهو بانياني أهل للثقة وتاجر من المخا يدعى سيد صالح.

وقد لحظنا إلى أي حد من الكراهية يعامل المسلمون وثنيي الهند، ولم نستعجل في التعرف على بانياني كهذا، والذي بدا فيما بعد رجلاً في غاية النزاهة، كنا نعرف مسبقاً ابن سيد صالح واسمه إسماعيل فقد رافقنا في الطريق من جدة إلى اللحية، وكانت صداقتنا تهمه جداً، كان إسماعيل يتحدث اللغة الهولندية بشكل جيد وكان ذلك في صالحنا، فقد فضلناه على الآخرين في المصاعب التي اعترضتنا.

كان هذان الرجلان يتقربان من الأجانب لغاية في نفس يعقوب، فقد تعلم الابن اللغات الأوروبية كي يستطيع الاحتيال عليهم. واستقدم من باتافيا إلى المخا مركباً هولندياً، فوقع ربانه في حبائلهم وكان ضحية غشهم وخداعهم. أبعدوا عنه كل التجار بسبب دسائسهم ومؤامراتهم، ليجد نفسه تحت رحمتهما في بيع حمولة مركبه. كانا يودان الاستفادة منا لكنهما عندما وجدا أننا خيبنا أملهما، سارعا بدافع الغيظ إلى التسبب في إزعاجنا ومضايقتنا. وهكذا فقد قمنا بزيارة إسماعيل هذا أولاً فاستقبلنا أحسن استقبال وقدم لنا شراب البانش ودعا كي نبقى بصحبته هندي أصبح هندياً

قد أسلم يُتاجر في المخا، كان هذا الهندي سكيراً أراد أن نشرب حتى الثمالة فلم يفلح في ذلك. نصحنا إسماعيل في ارتداء الملابس الأوروبية وعدم إظهار معرفتنا بالعربية كي لا يعتبرنا الناس مرتدين، وجهد في أن يثنينا عن عزمنا في السفر إلى صنعاء مؤكدا لنا أن أهل الجبل أناس في غاية الوحشية والهمجية، وأن الإمام يعامل بمنتهى الكره من كتبت عليه الأقدار ألا يكون مسلماً، وحذرنا من أهل المخا الذين يكرهون الأوروبيين إلى حد الموت حسب ما قال، كما وقدم لنا حماية والده الفائقة ضد كل ما نخشى من المخاطر والمتاعب. وبالتالي ومن خلال حديثه ترى إلى أية درجة يمكن خداع المسافر إذا كانت معلوماته قليلة عن علاقات سكان البلاد التي يجوبها، لولا معرفتنا باللغة العربية لعدنا إلى أوروبا وقد حشيت رؤوسنا بالأفكار الخاطئة حول كل ما يتعلق بالجزيرة العربية. أدى لنا هذا الرجل خدمة واحدة فقط هو أنه استأجر لنا بيتاً واسعاً يكفي لإيواء كل أفراد بعثتنا.

الفصل الثالث

صعوبات في المخا

بسبب ما حدث لنا في بداية إقامتنا في هذه المدينة، توجب علينا أن نصدق أن إسماعيل قد اتفق مع الجمارك المأمورين على التسبب في المتاعب لنا، وذلك لإجبارنا على الانصياع له بشكل أعمى.

حملوا أمتعتنا مباشرة إلى الجمارك وحضر الحاكم شخصياً، وطلبنا أن تفتش أمتعتنا البالية والضرورية أولاً، لكنهم بدؤوا بصناديق الغرائب الطبيعية والتي أرسلناها بحراً من اللحية واحتفظوا بها دون أن تفتح، في إحداها كان هناك أسماك من البحر الأحمر حفظت في الكحول المركز ضمن آنية صغيرة، وبسبب رائحة السمك الكريهة وعدم الرغبة في فتحها أخذوا بالتفتيش بواسطة قطعة حديد ذات رأس ثم أفرغوها تماماً في النهاية. أما العرب الذين ينفرون بشدة من الكحول القوي فقد امتلأت نفوسهم بالعداء تجاهنا عندما شموا رائحة الكحول المركز وخيب ظنهم طريقة التفتيش التي استخدمها موظف الجمارك معنا.

طالبنا بإلحاح للحصول على أسرّتنا، ولكنهم تابعوا التفتيش في صناديق الأصداف وهم على وشك تكسيرها، ولم يفهم العرب كيف يمكن لرجل عاقل أن يجمع كل هذه المحارات دون أن يكون هناك مغزى وهدف لجمعها، فاتهمونا بأننا نريد السخرية من الحاكم بجمعنا أشياء بلا قيمة لإلهاء الناس عن إخفاء بضائعنا الثمينة.

وظهر أخيراً وعاء حفظ فيه السيد فورسكال بعض الأفاعي في الكحول أي الخل، وقد أثار هذا المشهد الرعب في نفوس العرب وصرح أحد خدم الحاكم: يبدو أن هؤلاء الفرنسيين أتوا لتسميم المسلمين وأنهم، ولضمان نجاح مخططهم فقد ادعى أحدهم أنه طبيب. أما الحاكم ذلك الرجل الطيب والطاعن في السن والذي حتى الساعة لم يبد عليه أنه ضدنا، فقد اجتاحته موجة غضب وأقسم بالله أن هؤلاء الأشخاص لن يقضوا ليلتهم هنا في هذه المدينة، ويمكننا الحكم على نوايا الجمارك والناس تجاهنا، فقد أقفلت الجمارك فجأة ولم نتمكن من الحصول على أي من أثوابنا البالية.

وخلال وجودنا عند الجمارك، أتى إلينا أحد الخدم ليعلمنا أنه رُميت أغراضنا وكتبنا من نوافذ البيت الذي استأجرناه وأقفل الباب. فذهبنا لنرى سبب ذلك الحادث لكننا لم نجد إسماعيل ولا والده ولا مضيفنا، فقد اختفى الجميع. وانهال علينا ثري وصديق لإسماعيل بوابل من السباب والشتائم ولم يرض أحد أن نستأجر مكاناً للإقامة عنده، فقد كان الجميع ينظر إلينا وكأننا متشردون يطردون دوماً من المدينة. وأخيراً رضي رجل غني بتأجيرنا بيته، شرط ألا يلحق به ما يخشاه من قبل الحكم. فصحبناه إلى القاضي الذي أكد له أنه يستطيع تأجير البيت لنا دون أن يلحق به ضرر ما. ويشاع عن القضاة الأتراك الانتفاع إلى حد كبير لكنهم في اليمن رجال في منتهى النزاهة ويحرصون على العدالة والحق.

كان التاجر الإنجليزي المبعوث من قبل حاكم بومباي يدعى السيد فرانسوا سكوت وقد علم بالمتاعب التي لحقت بنا رغم أننا لم نزره بعد، دعانا إلى مائدته وقد أثرت دعوته بنا كثيراً، وأعرب لنا عن خالص مودته وصداقته واتضح لنا فيما بعد فداحة خطئنا عندما لم نقابله أولاً هو ومترجمه البانياني. ولكننا لم نجرؤ على قطع العلاقات مع إسماعيل ووالده، وعندما لم نتمكن من الحصول على شيء يذكر من الجمارك، نصحنا إسماعيل بتقديم هدية للحاكم٥٠ دوقة، وأخبرنا أنه الوحيد الذي يمكنه أن يكون حامل تلك الهدية للحاكم الذي وكما ادعى إسماعيل لا يشرفه الحديث مع النصارى ولم يكن في مقدورنا تقديم هدية ثمينة كتلك ولا تسليمها لإسماعيل، لكننا وبعد تفكير عميق قررنا التضحية بذلك المبلغ الذي سأقدمه أنا في اليوم التالي، وفي طريقي علمت أن الحاكم أثناء تدريب جيشه كانت قد جرحت قدمه، فعدت أدراجي آملاً أن أجد طبيبنا قد استدعي وبالتالي لا نقدم هديتنا، لكن وبما أن ذلك لم يحدث ولم يُعِد لنا الجمارك إلا بعض الحاجيات البسيطة، وجدنا أنهم ينتظرون منا هدية كبيرة نقدمها لهم، أما السيد فورسكال الذي صده خدم الحاكم بذريعة أن سيدهم لا يرغب بسماعنا إلا بواسطة إسماعيل وأبيه، فقد أخذ على عاتقه مهمة الحصول على مقابلة مع الحاكم، وعندما شرح له سبب مجيئه بعد أن استقبله استقبالاً حسناً وعاتبه لأنه لم يتوجه إليه أولاً ومباشرة، وأرسل لنا في اليوم التالي بدوره هدية كبيرة تتألف من أربعة خراف وكيسين صغيرين من الأرز وأمر في الوقت نفسه بأن تسلم بضائعنا من دون أن تفتش.

الفصل الرابع

استمرار إقامتنا في المخا ووفاة السيد دوهافن

عندما جُرح الحاكم نصحه كبار المدينة باستدعاء الطبيب الأوروبي، لكنه خشي ألا يعطيه السيد كرامر الدواء الناجع انتقاماً منه وأن يستخدم العقاقير المهيجة والتي يعتبرها العرب ضارة جداً، وشرح له القاضي أننا أصحاء ولا نعاني من أي مرض وأن الأفاعي الميتة التي يحتفظ بها الطبيب غير مخيفة فهي تدخل في تركيب الترياق، وليس من المحتم كره الأوروبيين لأنهم حملوا معهم حشرات أو أصداف لا يعرف لها العرب الجاهلون استخداماً.

كل تلك المقدمات وحالة جرحه التي ساءت على يد أربعة أو خمسة دجالين، حملت الحاكم على مساءلتنا في الرابع من مايو (أيار) فيما إذا كنا غاضبين منه وإذا كان طبيبنا يريد معالجته. أسعدتنا عودة الحاكم وأعرب له الطبيب عن استعداده لتقديم كل ما يلزم، وما إن وصل جوابنا إلى الحاكم حتى أرسل إلينا خادمه ومعه بغل ليأتي بالطبيب إليه، يجبر الأوروبيون بالترجل عن دوابهم عند المرور أمام بيت الحاكم، لكنهم سمحوا للسيد كرامر باجتياز الساحة وأيضاً صحن الدار وهو على بغله، وذلك كي يظهروا للشعب عودة المياه إلى مجاريها بيننا.

لقد أتيحت لنا الفرصة في عدة مناسبات للقاء الحاكم وتعميق أواصر الصداقة معه. وروى له السيد فورسكال في أحد الأيام مغامرتنا مع الثري الذي انهال علينا بالسباب والشتائم ورمى بأدواتنا إلى الخارج، وعده الحاكم أن يرضيه ووضع هذا الثري في مساء اليوم نفسه في السجن. أما إسماعيل المستاء من رؤية صديقه يعاقب بوقاحة بينما كان هو المحرض والحاث على ذلك، فقد أتى إلينا وهددنا بإحداث فتنة سنكون نحن ضحاياها. وذهب السيد فورسكال دون أن يخشى شيئاً إلى الحاكم ورجاه أن يطلق سراح السجين ويطلب منه أن يكون أكثر لياقة وأدباً في تعامله مع الغرباء.

تغيير كهذا في نمط تصرفاتنا قد جعل إقامتنا في المخا طيبة ولو لم يكدر صفوها

بعض الأمراض. فبعد وصولنا إلى المخا بقليل أصابني زحار حاد شفيت منه تقريباً في غضون أسبوعين، ثم تدهورت حالة السيد دوهافن الصحية الذي كان يشعر ببعض التحسن بعد نزهته المسائية في طراوة الطقس وبرودته، لكنه لم يكن ليحتمل حر النهار. وعرض نفسه للخطر بالنوم عدة ليال متتالية على السطح دون أن يغطي وجهه. وفي ليلة ٢٤ مايو (أيار) أصابه برد ووهنت صحته فحمله اثنان من الخدم إلى غرفته واشتدت عليه الحمى في المساء ورافقها هذيان، ولفظ أنفاسه الأخيرة في الليلة التالية أثناء غيبوبة عميقة. وكان هو أكثر من اهتم من بين أعضاء بعثتنا بالأدب الشرقي، وفقد الناس بموته مكتشفات هامة ومؤلفات مثيرة كان قد قام بها.

لا يعرفون في الجزيرة العربية طريقة استعمال التابوت لدفن الموتى، فطلبنا نحن صنع تابوت لصديقنا الراحل لحفظ رفاته من كل حادث. وسمح ربان سفينة إنجليزية لستة من بحارته بحمل التابوت إلى مقبرة الأوروبيين، وحضر الجنازة كل الإنجليز، وكانت جنازة لائقة ومحترمة أكثر من جنازة القنصل في القاهرة، حيث رافق موكب الدفن أناس كثيرون ولصوص من البدو. في مناسبة كهذه تبين أن عرب اليمن أكثر تعقلاً واحتراماً من غيرهم.

الفصل الخامس

مغادرة المخا

بعد وفاة السيد دوهافن فكرنا جدياً بترك المدينة والقيام بجولة في اليمن الداخلي. وتضاربت الآراء في تحديد حملتنا فهناك من يود البقاء عاماً آخر في الجزيرة العربية وهناك من يريد العودة إلى أوروبا، واتفقنا على التسريع في سفرنا إلى صنعاء.

أردنا أنا والسيد فورسكال أن نشكل طاقماً متواضعاً لشراء بعض الحاجيات الخاصة، فرغب بذلك كل أفراد حملتنا، وكان يجب أن نسير في قافلة، وأن نحصل على إذن من الحاكم للقيام بذلك وهو أمر صعب فلن يترك هذا الأخير طبيبه يرحل قبل شفاء جرحه شفاء تاماً. ومع ذلك فقد طلبنا إذنه لكنه رفض بذريعة أنه من الضروري أولاً الكتابة لإمام صنعاء لمعرفة مدى رغبته في استقبالنا وعلينا انتظار جوابه قبل مغادرة المخا.

وبما أننا لم نحصل على إذن السفر إلى صنعاء فقد طلبنا السماح لنا بالسفر إلى تعز في زمن الجواب، رفض طلبنا مرة أخرى لأسباب صحية، فاقترحنا أن نسافر وحدنا ونترك الطبيب لديه، فخشي العرب أن يمتد الملل إليه عندما يرى نفسه وحيداً بلا أصدقاء، الأمر الذي يجعله مهملاً في معالجته للحاكم، وعندما شكينا لكبار المدينة الرفض المتكرر، قالوا لنا إنه من الصعب أن يفهم استعجالنا في السفر وبالتالي فإننا نعرض أنفسنا وصحتنا للخطر في سفرنا عبر الجبال، فهذا السفر بعد الحر في تهامة سيعرضنا للحمى الشديدة. ووجدنا أنفسنا في مأزق لا نعرف طريقاً للخروج منه، فأتى مشعوذ ليخلصنا ووعد أن يشفي جرح الحاكم في ثمانية أيام، استسلم الحاكم له وأذن لطبيبنا بالانصراف وسمح لنا بالسفر إلى تعز وأعطانا رسالة توصية لحاكم هذه المدينة، وأعطى السيد كرامر بغلاً وسرجه ولجامه كمكافأة له، بالإضافة إلى أقمشة من الهند لصنع ثوب على الطريقة العربية. وأكد لنا الحاكم من جديد مشاعر الصداقة التي يكنها لنا وأمر أحد خدمه بمرافقنا، كنا نفضل أن يتم الأمر دون هذا التعبير عن

التهذيب، فلم يكن ذلك الخادم إلا جاسوساً كي يراقب كل تحركاتنا ويحول دون سفرنا أبعد من تعز. ولم يكن بودنا أن نكشف مالنا فوضعناه بين يدي المترجم الإنجليزي الذي أعطانا حوالات لأبناء بلده البانيانين في تعز و صنعاء وكانت تلك هي المرة الأولى التي نسافر فيها بين الشرقيين ومعنا رسائل تبادل من هذا النوع.

خارطة اليمن

القسم الثاني عشر
السفر من المخا إلى تعز

الفصل الأول

الطريق إلى تعز

تركنا المخا بسرور، فلم تكن إقامتنا فيها طيبة، واجتزنا في ٩ يونيو (حزيران) منطقة جرداء وقاحلة للغاية بعد أن قطعنا أربعة أميال، فوصلنا إلى قرية موزع الواقعة في مدخل الجبال التي يعرفها الأوروبيون، وكانوا يذهبون إليها لإقامة حفلات لهو وسمر. قرية مبنية بناء سيئاً وطقسها حار جداً كالطقس في المخا، ماؤها عذب ويرسل أغنياء المدينة في طلبه على بعد مسافة كبيرة لأن الماء في ضواحي المخا ليس بالماء العذب.

سرنا في الغد في مجرى وادٍ كبير، يصب في البحر قرب المخا أثناء الفصل الماطر لكنه يضيع في رمال تهامة بالقرب من منبعه في الأحوال العادية. مررنا على بعض القرى وبالقرب من نهايتها هناك بيت تدفع فيه رسوم كل البضائع الذاهبة إلى جازة وهي منطقة مستقلة، أما البضائع التي تمر إلى ولاية الإمام فلا تدفع أية رسوم عليها.

وسأجد الفرصة لاحقاً للحديث عن ولي المخا المشهور الشيخ الشاذلي. فقد التقينا في طريقنا أحد المنحدرين من سلالته وكان مجنوناً بشوشاً. فأثاره بعض شبان حملتنا وجعلوه يهرج ويضحك، لم نعامله معاملة قاسية أبداً لكننا لم نحترمه البتة وكنا ندعوه شيخاً بسبب سلالته دون أن نعبر له عن أي تقدير واحترام. العرب أكثر احتراماً من الأتراك، وخاصة المصريون الذين يدعون شيخاً كل معتوهاً ويحترمون المجانين ويعتبرونهم أولياء بعد وفاتهم.

في هذه البلاد الجبلية الطرقات وعرة جداً حتى أنك لا تسافر فيها ليلاً. ورأينا قرية كبيرة بالقرب من جبال خصبة تدعى جبال قمرة (Kamara) وهي تتبع للشيخ ابن عقلان، لكن سكانها لا يخضعون أبداً لسيدهم، فقد قتلوا منذ وقت قريب رجلين، وعندما أرسل الشيخ جنوده لمعاقبتهم كانوا قد انسحبوا إلى قمم الجبال.

دخلنا وقد انتابتنا سعادة مفرطة إلى أحد تلك الفنادق الكبيرة التي يدعوها العرب مطرحاً، وذلك بسبب هبوب عاصفة بعد الظهر رافقها مطر غزير وأصبحت كل الدروب سيولاً فاستحال علينا متابعة طريقنا.

وصلنا إلى دوربات في ١٢ يونيو (حزيران) بعد أن قطعنا بعض السهول الخصبة واجتزنا بعض القرى، وتبعد دوربات عن المخا مسافة عشرة أميال وهي عاصمة أراضي الشيخ ابن عقلان الذي يقيم فيها. وموقعها على قمة جبل يحيلها منيعة وصعبة المنال،

ويوجد عند سفح الجبل بلدة تحت سجنها في الصخر ويعرف أنه السجن الأكثر رهبة في اليمن كله. رأينا أمام باب السجن العادي أشخاصاً موقوفين بجنحات بسيطة وقد ربطوا بسلسلة واحدة يجلسون في العراء مع طاقم حرس من جنود الإمام ويقاضيهم رواتبهم الشيخ مجبراً.

ومنذ أن تركنا الدوربات مررنا ببعض القرى الجميلة وعدد من المقاهي والأحواض المبنية كالعواميد. أجبرتنا عاصفة أخرى على إيقاف مسيرنا. وفي اليوم التالي رأينا في الأفق قلعة تعز ووصلنا إلى تلك المدينة في صباح الثالث عشر من يونيو (حزيران).

أرسلنا إثر وصولنا رسالة حاكم المخا إلى حاكم تعز الذي طلب حضورنا إليه حالاً، كان رائق المزاج، وقدم لنا شراب القشر ودخاناً وقاتاً، وهو براعم شجرة يمضغها العرب كما يمضغ الهنود التنبل، ولم يكن بمقدورنا أن نعتاد على طعم هذا المخدر، وروى لنا الحاكم كيف أثيرت شائعات في تعز بأننا حملنا عدة صناديق إلى المخا مليئة بالثعابين. وقادنا إلى بيت كان قد سجن صاحبه في الأمس وأرسل لنا حملين وقليلاً من الدقيق وقدمنا له نحن بدورنا قطعة قماش هندي.

وفي اليوم التالي سلمنا رسائل التوصية الأخرى من أصدقائنا في المخا إحداها موجهة للباشا كاتب أو السكرتير الأول، والثانية لوكيل بيت السيد أحمد، والثالثة لسيد وهو رجل محترم، أما الرابعة والأخيرة فكانت لبانياني.

فاستقبلونا استقبالاً حسناً أنى توجهنا، وادعى خادم حاكم المخا أنه رافقنا في كل هذه الزيارات وحضر عند استقبال من كان يقوم بزيارتنا. ولم نكن لنخمن إذا كان هذا من باب الزعم والادعاء أم من باب رصد ومراقبة كل تحركاتنا.

لقد استمتعنا بطقس هذه المنطقة كثيراً بدل الحر الخانق الذي أنهكنا في المخا، فقد كان يهطل مطر منعش في كل مساء تقريباً.

الفصل الثاني

مدينة تعز

تقع هذه المدينة في سفح جبل جميل وخصب يدعى جبل صَبر، ويحيط بها سور تبلغ سماكته بين١٦و٣٠ قدماً وفيه عدة أبراج، ويوجد داخل السور جبل عسير يبلغ ارتفاعه أكثر من ٤٠٠ قدم وقد بنيت عليه قلعة القاهرة. تغطت الأسوار بالآجر لكن الداخل كان مؤلفاً من لبن جفف في الشمس.

للمدينة بابان تُحرسان وفق طريقة العرب، لكل منهما ثلاثة أبراج يمكن وضع مدفع في اثنين منهما فقط، وهكذا فالحرس يتألف من ستمائة رجل، تقع كل المعدات في مكان تطل عليه مرتفعات مجاورة، على نحو لا تستطيع معه القلعة الصمود إلا في وجه جيش عربي لا يملك أي سلاح مدفعي.

الولي الذي اتخذته المدينة سيداً لها هو إسماعيل الملك[1] المشهور، وقد دفن حسب التقاليد في مسجد يحمل اسمه ويمنع الاقتراب من ضريحه منذ أن قام الولي بمعجزة لم ترق للحكام. وقد روي لنا الحدث العجائبي على النحو التالي: طلب متسولان صدقة من حاكم تعز فلم يعطيها إلا لأحدهم، فركض الآخر إلى قبر إسماعيل الملك يستنجد به، وقد كان إسماعيل في حياته محسناً كبيراً، فمدّ يده خارج القبر وأعطى المتسول رسالة فيها أمر للحاكم بدفع ١٠٠ وحدة نقدية لحاملها. وبعد أن فُحصت الرسالة بعناية فائقة، أُعترف أن إسماعيل الملك كان قد كتبها بيده وختمها بخاتمه المعهود. ولم يتمكن الحاكم من التملص من دفع تلك الغرامة ولكنه وحتى يكون في مأمن من رسائل مشابهة في المستقبل، فقد أمر بأن يُطيّن باب القبر.

يوجد بالقرب من ضريح الولي إسماعيل الملك بستان يملكه ابنه فيه حوض كبير وآلة مائية كانت تروق للعيان في الماضي، أما اليوم فقد لحق الخراب والدمار بكل شيء.

---

١) هو السلطان الملك الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل الرسولي.

ونرى في المدينة وضواحيها عدداً كبيراً من المساجد المهجورة، وقد آلت إلى الدمار، بدا أحدها وبسبب ندرة هندسته المعمارية في هذه المنطقة وقد بناه أحد الباشوات الأتراك. وقد أخطأ بعض الورعين الذين ظنوا عندما بنوا تلك المساجد أن الأجيال القادمة ستحفظ ذكرهم، فنسي الدهر أسماءهم بسبب انهيارها.

وقد أبدى آخر سادة تعز سداداً في الرأي في اختيار الأبنية. فقد بنوا قصوراً منيفة لهم ولذريتهم واكتفوا بقبة صغيرة تكون لهم معبداً وضريحاً. وبذلك استغنوا عن أوقاف كانت مخصصة لتأمين رواتب لرجال الدين ولترميم جوامع لا جدوى منه.

حلت قصورهم محل الجامع وزينت المدينة التي لم تكن مبنية جيداً، فقد رأينا فيها منذ الحرب الأخيرة بيوتاً مهدمة كثيرة وساحات خلت وتحولت إلى عقارات وحقول.

ما نزال نرى آثار مدينتين قديمتين: الأولى هي ثعبات[٢] الواقعة قرب جبل صَبر ولم يبق إلا أجزاء من أسوارها ومسجد كبير، والأخرى هي عدينة[٣] الوقعة بالقرب من هنا على مرتفعات جبل صبر مقابل جبل القاهرة. وقد كانت عدينة مقر ملوك تلك المنطقة، ولن ترى فيها بعد الآن إلا بقايا بعض الجوامع، وقد بنى إسماعيل الملك ضريحه في سفح جبل القاهرة، فأراد بعض أتباعه الإقامة بالقرب من وليهم، بينما هجر البعض الآخر عدينة ليبنوا مدينة تعز[٤]. وبذلك تعود هذه المدينة بأصولها إلى ولي مثلها مثل اللحية وبيت الفقيه والمخا.

---

٢) ثعبات مدينة تقع في جبل صبر أعلى مدينة تعز إلى الشرق من قلعة القاهرة.
٣) كذا، والصواب أنها (مغربة تعز) وكانت تقع غربي قلعة القاهرة.
٤) مدينة تعز التي عرفها نيبور ويصفها بأنها تقع في سفح جبل القاهرة بالقرب من ضريح السلطان الأشرف إسماعيل الرسولي هي ما كانت تعرف بـ(عُدَين).

الفصل الثالث

آخر ثورات تعز

لا يمكن لمدينة عصرية كهذه أن تساهم في تاريخ اليمن. لكنها قامت منذ سنوات كثيرة بثورات تستحق الذكر لأنها تعطينا فكرة عن قوة الإمام وعن طريقة العرب في القيام بحرب عادية. فقد أعطى الإمام حسين المنصور حكم تعز لأخيه أحمد الذي استدعي فيما بعد لعزله، فلم يشأ ترك مكانه وتصدى بجيش مؤلف من ٢٠٠٠ رجل مدة اثني عشر عاما لعدة جيوش أرسلها الإمام لإجباره على الطاعة، وسك أحمد نقوداً خاصة بمنطقته وفرض رسوماً على البضائع الذاهبة من المخا إلى صنعاء واعتبر نفسه ملك البلاد التي يحكمها، لكنه لم يتخذ لنفسه لقب إمام أو ملك بل اكتفى بلقب سيدي وهو لقب متداول بين كل الأمراء المنحدرين من سلالة الإمام.

ترك أحمد بعد موته ستة أبناء وخلفه ابنه البكر عبد الله، وعاش بسلام مع الإمام وأولى الخلافة بعد موته عام ١٧٥٩م لابنه الوحيد عبد الكريم الذي كان يبلغ من العمر ١٣ عاماً. فتعاون معه ثلاثة من أعمامه علي ويحيى ومحسن على عزله عن كرسيه، فاستولى الأول على قلعة القاهرة أما الاثنان الآخران فقد استولى كل منهما على باب للمدينة وأبراجه. وبما أن عائدات الثلاثة كانت قليلة فلم يتمكنوا من دفع رواتب للكثير من الجند أو من شراء المؤونة اللازمة. وكان هناك نقص خاص في البارود، فما إن يحصل أحدهم على القليل منه حتى يباشر في إطلاق النار على أخويه حتى تنفد ذخيرته لكنهم لم يقوموا بأية معركة حقيقية حسب الأصول.

وفي هذه الظروف كتب الأمير عبد الكريم لعمه الإمام الذي يتسلم زمام السلطة طالباً عونه ومساعدته وراجياً إياه أن يبقيه في سدة الحكم. فقام الإمام الذي كان يتمنى منذ وقت طويل أن يتدخل في تلك الشؤون، بإرسال جيش للقضاء على المتمردين. ولم يكن للنقيب ألماس، الذي كان على رأس سلاح المدفعية، إلا أن المدينة بالبنادق القديمة من مسجد خارج السور ولم يتقدم نحو كرسي الحكم.

منذ سنوات عديدة والإمام له عدو لدود هو الشيخ المدعو عبد الرب، الذي كان قد استولى على أراضي الحجرية. دنا الشيخ من المخا في الوقت الذي حوصرت فيه تعز، فظن الإمام أن الوقت حان للمصالحة مع هذا العدو. وتم السلام بتدخل من القادة، شرط أن يقدم الشيخ مساعدته لفتح تعز. لكن جيشه الذي لا يملك مدفعية لم يكن ليقتحم المدينة مثله مثل جيش الإمام، وفي النهاية استخدم عبد الرب الماكر خطة حربية: فوعد بإعطاء ١٠٠٠ وحدة نقدية لاثني عشر جندياً كانوا يحرسون البرج، إذا قاموا بفتح فجوة فيه يدخل منها جيشه. وبذلك سقطت المدينة نحو عام ١٧٦٠م ونُهبت.

بعد فتح تعز، دعا الإمام بكل مودة عائلة سيدي أحمد والشيخ عبد الرب للحضور إلى صنعاء، لكن عبد الرب وقد كره الذهاب لرؤية عدوه السابق، قرر ألا يقوم بتلك الرحلة إلا بأمان من الإمام يعطيها قادته. لكن الإمام عامل هذا البطل العربي بمنتهى الغدر والخيانة وقتله بطريقة شائنة ومخزية. وبادر بنكران الجميل لقائديه الوفيين ولم يفكر في استمرارية عبد الكريم في الإمارة خلفاً لوالده.

رأيت هذا الأمير في صنعاء عند ذهابه إلى المسجد وقد حملوا له المظلة كمثل باقي الأمراء. وسجن عميه يحيى ومحسن كالمتمردين، أما عمه الثالث وبما أنه كان حمو الإمام الحاكم فقد ظل حراً طليقاً لكنه كان يعيش في صنعاء حياته الخاصة دون أي دور سياسي آخر، بعد كل تلك الإجراءات أرسل الإمام إلى تعز حاكماً على مثال باقي مدن مملكته.

الفصل الرابع

الإقامة في تعز

الحاكم الآمر الناهي في تلك المدينة كان ضابطاً في جيش الإمام، وارتقى بسرعة سلم المراتب ليصل إلى رتبة نقيب ودون أن يكون ذلك بفضل سلالته، وكباقي الحكام امتد حكمه ليشمل أيضاً جبل صَبر وأراضي الحجرية، حيث يوجد عدد من الشيوخ تملكت أسرهم منذ عدة قرون أراضي مستقلة، فسادوا فيها، هؤلاء الشيوخ وبالرغم من أنهم مجبرون على دفع بعض الضرائب للإمام إلا أنهم فخورون جداً بنسبهم العريق ويكرهون الحكام الذين يفتقدون هذا النسب، وكان لحاكمنا مسبقاً بعض الخلافات مع هؤلاء النبلاء المتعجرفين، الذين ما زالوا يعصونه. كان قد وضع أحد هؤلاء الشيوخ المتمردين في السجن وأوقف أمة كانت برفقة عربي. ولكنه عندما أجبر بأمر من الإمام بإطلاق سراحهما امتلأ قلبه حقداً وضغينة على الشيوخ بشكل عام. وعند أول مناسبة جابت فرقة مكونة من ستة جنود الجبال متبعة أوامر سيدها وتصرفت بوقاحة فلم يحتمل الشيوخ إساءاتهم وقاموا بقتلهم جميعاً. ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أحد في تعز على تعريض حياته للخطر في هذه الجبال. وقيل إن الشيوخ لن يهدأ لهم بال إلا عندما يرسل الإمام حاكماً آخر.

ينتج جبل صَبر الرائع حسب ما يزعم العرب كل النباتات التي تنمو في العالم، وعندما كان السيد فورسكال ينظر إلى الجبل في كل يوم كان يحز في نفسه استحالة الحصول على إذن بدراسة أعشابه. فاقترح أن يستقدم شيخاً على نفقته الخاصة من الجبال تحت حماية من لا يخشى شيئاً في تلك الدروب الجبلية.

لكن الحاكم رفض كل العروض والاقتراحات وسمح له فقط برحلة قصيرة إلى جبل سورق. فذهب صاحبنا في العشرين من يونيو (حزيران) وعاد سريعاً في الثاني والعشرين منه لأنه وجد قرى المنطقة وقد خلت من سكانها الذين لم يحتملوا بعد سوء معاملة واستفزاز الحاكم لهم، فتركوها وسكنوا في مكان آخر. ولم يجد السيد فورسكال في هذه المنطقة البائسة لا أمناً ولا مؤونة.

وأتيحت لنا الفرصة لرؤية طريقة العرب البدائية في مراقبة القمر وجهلهم في علم

الفلك. ففي الوقت الذي يأتي فيه الحجاج إلى جبل عرفة في مكة المكرمة، يقيم المسلمون ليلة اسمها عرفة أو الأضحى فيضحون بكمية كبيرة من الجمال والأبقار والخراف. واعتقد الجميع أن هذا العيد يبدأ في ٢١ يونيو (حزيران) وبما أنه يستمر ثلاثة أيام، فإن الفلاحين لا يأتون إلى المدينة بل يحملون معهم زادهم من خراف وما لزم من سكر ودقيق لصنع كعك يستمتعون بتناوله. وصلت في هذه الفترة رسالة من صنعاء تحمل الخبر التالي: أنهم رأوا الهلال بعد الموعد المنتظر فيه رؤيته بيوم وبذلك يبدأ العيد في ٢٢ يونيو (حزيران).

وأعطيت إشارة لذلك اليوم بإطلاق بعض الطلقات المدفعية. وذهب الحاكم في موكب يصحبه جمع غفير إلى الساحة المربعة خارج المدينة، حيث جرت العادة أن يؤدي صلاته في الهواء الطلق في كل المناسبات الرسمية، وفي طريق العودة زار الموقع الذي يقوم فيه الجند باستعراضهم ويمارس وجهاء المدينة سباقهم، أراد الحاكم إظهار براعته فطرحه الحصان أرضاً، بينما عاد كل إلى بيته ليتناول طعامه ويمضغ قاته ويحرق البخور في منزله.

كنت أرغب الاستفادة من إقامتنا في تعز ببعض الرحلات إلى داخل البلاد لكني لم أجرؤ على القيام بذلك بسبب الاضطرابات التي اجتاحت البلاد، وأردت الاكتفاء بنقل كتابة في القلعة، وقرر السيد فورسكال من جديد استقدام شيخ من جبل صَبر. وسمح لنا الحاكم بالأمرين، لكنه أرسل لنا في منتصف الليل من قال لنا إنه تلقى رسالة من حاكم المخا يجبرنا فيها على العودة حالاً إلى المخا، شعرنا أن هذه الرسالة مزعومة وملفقة ورفضنا السفر. بينما وصلت الجمال في الصباح الباكر لتنقلنا إلى تلك المدينة الأخيرة لكننا أعدناها من حيث أتت، ولم نجرؤ نحن وبعض الأتراك على التصرف بحرية كبيرة.

ولم نفهم شيئاً من تصرفات الحاكم إلا إذا كان قد قرر كحاكم المخا ابتزازنا ببعض الهدايا القيمة. ولم تكن لدينا الرغبة في النزاع، فجهدنا للحصول على مقابلة معه ليسمع وجهة نظرنا. وأرسلنا خادمنا الذي لقي صداً مرات عديدة تحت مختلف الحجج والذرائع، وفي النهاية توصل السيد فورسكال بفضل صبره للحديث مع الحاكم الذي طلب منه أن ننتظر هنا جواب الإمام دون التلميح لمشروعاتنا. لكن الحاكم لم يشأ الإصغاء إليه وقال له: بما أنكم لم تصدقوا خدمي، فها أنا آمركم بالرحيل غداً إلى المخا.

الفصل الخامس

مغادرة تعز إلى صنعاء

لم نعد نملك وسيلة أمام أوامر الحاكم فقد كنا حزمنا حقائبنا عندما تغير حالنا فجأة. فوصلتنا رسالة عاجلة من الحاكم في المخا وطيها ثلاثة رسائل أخرى الأولى للإمام، والثانية للوزير، والأخيرة للحاكم في تعز. أعلمونا أن الإمام يسمح لنا بالقدوم إلى صنعاء، ويرجونا أن نحمل معنا بعض الطرائف ويعلم حاكم تعز بأوامر سيده ويرجوه أن يسهل رحلتنا إلى صنعاء. حمل السيد فورسكال حالا هذه الرسالة إلى الحاكم الذي لن يستطيع مقابلته فأعطاها لخادم من خدمه.

وبذلك اعتقدنا أن أمورنا قانونية وأننا سنسافر دون أن نتوجه مرة أخرى للحاكم للحصول على جمال بدون تدخله، يكوّن مؤجرو حيوانات الركوب نوعاً من النقابة ويضطر المسافرون للتوجه لرئيسهم الذي يوزع على أصحابها كلاً بدوره عدد الجمال التي يلزم تأجيرها، ولسوء الحظ كان الحاكم على رأس هذه الشركة وعليه أن يسلمنا الجمال بدوره، أعلمناه أننا نحضر أنفسنا للسفر، فأجابنا أن الجمال جاهزة لتنقلنا إلى المخا لأن الأوامر المتعلقة بسفرنا إلى صنعاء بيد حاكم المخا وحده.

لم نعرف ممن نطلب العون والمساعدة في هذا المأزق الذي وضعنا فيه إجراء الحاكم. وقد روى لنا البعض متعمدين قصصاً متعددة عن عدل القاضي وكرمه الذي أعاد الحاكم إلى جادة الصواب في حالات مماثلة لحالنا. فعرضنا له شكوانا وأريناه رسائل المخا. فرأى أن إجراءات الحاكم غير عقلانية أبداً.

فكتب له على الفور أن ينتبه وألا يقوم بما ينافي أوامر الإمام. فأجاب الحاكم أنه لا يعارض سفرنا إلى صنعاء لكنه طلب مهلة يوم ليكتب للبلاط رسائل بمناسبة سفرنا إلى صنعاء. فعرضنا الانتظار يومين أو ثلاثة ولكن خدم الحاكم عادوا في اليوم التالي ليقولوا لنا على لسانه أن نسافر إلى المخا، فرجعنا إلى القاضي الذي أخبر بكل شيء وكان قد كتب للحاكم في الصباح: "لا تتصرف تصرفاً يحمل طابع المصلحة مع هؤلاء الأشخاص وذلك

لكونهم غرباء". وقال لنا الباشكاتب في المساء إن الحاكم كان غاضباً جداً من تصرف الخدم باسمه، وفي ذلك رسالة لنا أنه لم يكن هو الآمر لكننا كنا نعرف كيف نتصرف في مثل تلك الأحوال.

لم نعد بحاجة خادم الحاكم فأرسلناه ومعه مكافأة صغيرة. كنا بحاجة دليل يعرف جيداً اليمن الداخلي، فرجونا القاضي ليرشدنا إلى رجل، فأرسل إلينا عربياً رافقنا حتى المخا وقد سررنا بصحبته. أما الحاكم ولكي يصلح من أمر ما اتخذ من إجراءات بحقنا ويظهر بمظهر المنعم علينا فقد أرسل أحد خدمه ليرافقنا في رحلتنا، وكان هذا الرجل ساذجاً عندما صرح مسبقاً وأمام العديد من الأشخاص المرموقين عن الأجر الذي يجب أن نعطيه.

وتكرم القاضي دون أن نطلب منه فأعطانا رسالة توصية لوزير الإمام يقول له فيها: "إذا طلب منك ما يؤذي هؤلاء الفرنسيين، حذارِ أن تصدق ذلك." وتمنينا أن نقدم للقاضي ساعة كهدية لشدة الاستقامة والنزاهة والإحسان جعلتنا نكن له خالص الاحترام والامتنان، لكنهم أخبرونا أنه لا يقبل شيئاً على الإطلاق كيلا يبدو وكأنه وقف معنا لمصالح مادية يجنيها منا.

ولم نتمكن بعدها من رؤية الحاكم فقد تحاشى مقابلتنا بحجة أنه مريض. بينما أكد لنا أصحابنا أنه مرض بسبب حزنه من مواجهتنا لإرادته ورغباته، تلك المواجهة التي حسب ما زعموا جعلت الحاكم ذليلاً وحقيراً في أنظار سكان المدينة.

لم تسبب لنا إجراءات ذلك الحاكم أي حزن، حتى أنني أسند الحالة التي عانى منها السيد فورسكال بهذه المناسبة بداية المرض الذي قاد صديقنا بعد وقت قصير إلى القبر.

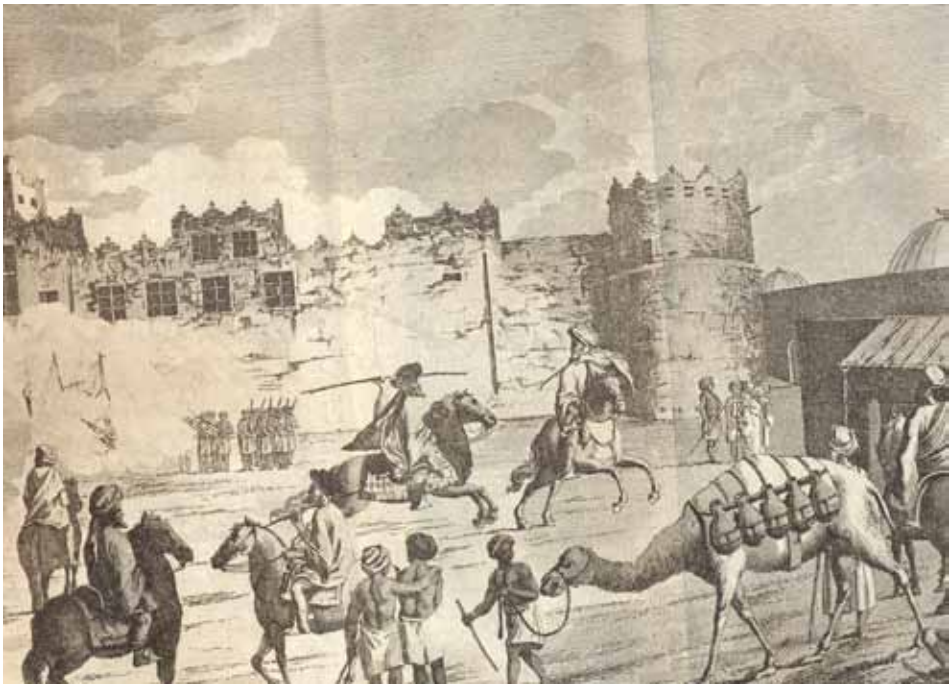

تدريبات عسكرية عند العرب، وفي خلفية الرسم بيت دولة الحاكم والقاعة ومسجد صغير

القسم الثالث عشر
السفر من تعز إلى صنعاء

الفصل الأول

الطريق من تعز إلى يريم

إن الوادي الذي يتابع مجراه من تعز نحو الجنوب يشكل وادياً ليصب في النهاية في البحر قرب عدن، ويبدو توزع المياه ومنابع الواديين المهمين في هذه المنطقة وكأنها تدل على أكثر النقاط ارتفاعاً من المنطقة الجبلية في دويلات الإمام. وما ارتفاع جبل سمارة الذي اجتزناه في اليوم التالي إلا برهاناً جديداً يضاف إلى ما سبق.

نزلنا جبل إب عبر دروب مرصوفة جيداً واجتزنا أراضي شديدة التباين فرشتها قرى ومضافات وخانات لإيواء المسافرين. ولم يكن هناك أي مكان مثير للاهتمام باستثناء مدينة المخادر الواقعة على الطريق وهي مركز الحاكم.

بعد أن قضينا ليلتنا في سمسرة بدأنا بصعود جبل سمارة وهو أكثر ارتفاعاً من جبل محرس، عبر دروب رصفت ووجهت لتدور حول مرتفعات شاهقة فهان اجتيازها على البعير. وتقع قرية المنزل (Mensel) في بطن الجبل وفيها سمسرة رائعة مبنية من الحجر المنحوت. وأقمنا في شقة مريحة على السطح، كان السيد فورسكال في حاجة ماسة للراحة بعد الإعياء الشديد الذي حل به.

بقينا فيه في اليوم التالي أيضاً وتمنينا أن نمضي فيه المزيد من الوقت أيضاً حتى تتحسن حال صاحبنا، لكن الجمالين لم يجدوا في تلك القرية العلف اللازم للبعير فاقترحوا أن نشد الرحال إلى يريم وهي مدينة بعيدة بعض الشيء ووعدوا أن يحمل بعض الرجال صديقنا المريض في دروب جبل سمارة الوعرة.

اقتنعنا وشددنا الرحال في الخامس من يوليو (تموز). أردت أن أتقدمهم لأتمتع ببرودة الطقس، لكن ذلك تهور لا يغتفر في أماكن يهب فيها الهواء بهذه القوة. فقد أصابني المرض من رشح وقيئ وعطش لم أجد له أي تفسير ولم أستطع إرواءه في مثل هذا الجبل المقفر، ولولا أن فلاح قد مر بي صدفة وأعطاني جرعة ماء لما كنت رأيت أحداً في رحلتي هذه، ولم يحظ باهتمامي إلا قصر مهدم يقع على قمة جبل سمارة ويعود

بملكيته لأسرة حسان، يقيم في الضواحي قبيلتان من العرب الرحل لكنهم يقيمون اليوم في قرى، فلم يبق هناك بعد بدو رحل في بلدان الإمام.

لم نتمكن من إيجاد رجال عرب لحمل رجل مسيحي، وبالنتيجة لم نترك السيد فورسكال في سريره فأركبناه على جمل نقلناه بهدوء حتى وصلنا إلى يريم لكنه كان في حالة بائسة جداً، وشعرنا أنه ورغم اعتيادنا على طريقة عيش أهل هذا البلد إلا أننا لا نستطيع الاستغناء عن بعض وسائل الراحة وخاصة في حال المرض.

الفصل الثاني

مدينة يريم

أقمنا في نزل عام، ولكن زحام الناس الذين يثيرهم الفضول في مشاهدة الأوروبيين أصبح مزعجاً للغاية مما دفعنا إلى استئجار شقة في المدينة أكثر هدوءاً، حيث نستطيع أن ننتظر على رويتنا شفاء رفيق دربنا. وزاد اقتناعنا باستحالة إيجاد من يحمل مريضنا، حتى خادمنا المسلم امتنع عن مساعدتنا في حمله من بيت إلى آخر وكان علينا أن نحمله بأنفسنا.

لم تكن يريم إلا مدينة صغيرة يقيم فيها الحاكم في قصر يقع على أحد الجبال، بنيت بيوتها من الحجر واللبن المجفف في الشمس، ولم يبد باقي تلك المدينة أو بالأحرى القرية يحوي أية أشياء مهمة أخرى.

تقع على بعد ميلين من يريم مدينة مشهورة في تقاليد العرب وتسمى ذمار ولا يوجد فيها سوى القليل من الخراب. بينما قال لي كبير القضاة في يريم إنه يوجد فيها حجر كبير عليه كتابات لم يتمكن من فك رموزها اليهود ولا حتى المسلمون. وعلى ما يبدو فقد كانت في هذه النواحي مدينة ظفار التي يتحدث عنها المؤرخون بوصفها مقر الحميريين، وإذا كان بالإمكان اكتشاف كتابات حميرية فلا بد أن تكون بين تلك الأنقاض. ويركز العرب على أن ذمار كانت مقر أسعد الكامل ملك الجزيرة العربية كلها ذلك البطل المشهور الذي عاش قبل ١٨٠٠ عام.

وجدنا المناخ في شرق جبل سمارة يختلف كلياً عن المناخ في غربه. فقد أمطرت كل يوم تقريباً من تعز حتى المنازل ورأينا الأرض وقد غطتها خضرة رائعة. أما في يريم فلم تهطل قطرة مطر واحدة منذ ثلاثة أشهر مع أننا سمعنا من بعيد الرعد كل يوم تقريباً. وقد ناسب ذلك الجفاف تكاثر الجراد الذي التهم جزءاً كبيراً مما تعطي الأرض.

وانتهى الأمر بسكان يريم في الثامن من يوليو (تموز) إلى إقامة صلاة الاستسقاء وذهبوا في موكب إلى ساحة تقام فيها الاحتفالات خارج المدينة، وتألف الموكب من الكثير من رجال الدين ارتدوا ملابس تظهر ذلهم واحتياجهم، وقد مشى في مقدمته شيخان جليلان يحملان صناديق مفتوحة مليئة بالكتب. كان الموكب برمته يردد أناشيد

وتراتيل قصيرة. وما إن انتهت تلك المراسيم حتى هبت في المساء عاصفة صاحبها بَرَدْ ومطر غزير، ثم أصبحت الأمطار بعد ذلك أكثر بقليل هطولاً، ففي كل جهة من سلاسل الجبال هطول منتظم للأمطار بين الموسمين الربيعي والخريفي.

يباع الجراد في كل الأسواق بسعر بخس بسبب انتشاره المدهش في السهول قرب يريم، حتى أنك تأخذ منه الكثير بيسر وسهولة. وقد رأينا فلاحاً قد ملأ كيساً منه وذهب ليجففه مؤونة للشتاء. أما من الجهة الأخرى لجبل سمارة فقد توقف المطر مدة ساعتين عن الهطول، وأتت أفواج من الجراد من ناحية يريم فرأينا فلاحي المنازل يركضون في الحقول لطردها بهدف حماية الحقول من خراب كامل.

رأينا في شوارع يريم عريساً في طريقه إلى الحمام في موكب بهيج يتقدمه صبية يرقصون على نقر الدف يتبعهم أشخاص من مختلف الأعمار يطلقون العيارات النارية، ومشى العريس ورفاقه في آخر الموكب، أما في المساء فقد رأينا عدداً من المشاعل شكلت أضواء جميلة.

كما شاهدنا في أحد الأيام عرضاً لمصارعين يستعرضون مهاراتهم في الطريق للحصول على بعض النقود، وهما أول من رأيت في الشرق يلبس قناعاً، وتسلح كل منهما بخنجر وترس، لم يغالوا بالمبارزة بقدر ما اقتصر عرضهم على القفز واستعراض المرونة والخفة.

لم أر الأسواق في الجزيرة العربية بسبب حرصي على تحاشي الزحام بالرغم مما قاموا به من تسلية للترويح عني بعض الشيء، إلا أنني ذهبت إلى سوق يريم الذي يجمع الكثير من الناس وخاصة الفلاحين القادمين لبيع منتجاتهم. ولم أر أي محل لبيع البضائع النفيسة.

هناك الكثير من الخياطين والإسكافيين والحدادين وأصحاب بعض المهن الأخرى يجلسون على جانبي الطريق خلف أسوار صغيرة ويعملون في العراء، كما رأيت من يقوم بالحجامة فيجرحون الجلد بسكين عادية ويضعون على الجرح قرن تيس قص من جذوره.

الفصل الثالث

وفاة السيد فورسكال

بدت حدة مرض السيد فورسكال وقد خفت كثيراً في الأيام الأولى بعد وصولنا إلى يريم. لكن مرضه عاد ليشتد عليه بعد ذلك بقليل جعلتنا نيأس من شفائه. وغط في غيبوبة عميقة في مساء العاشر من يوليو (تموز) ثم فارق الحياة في صباح اليوم التالي. سبب لنا موته حزناً عميقاً، فقد تعلم اللغة العربية وبعض اللهجات أكثر من أي منا بسبب رحلاته النباتية، ولم يكن التعب ونقص وسائل الراحة ليثنيه عن عزمه في بحوثه فكان يعير الأعراف والتقاليد وأساليب عيش السكان انتباهاً واهتماماً ضروريين لمن يود القيام بسفر يأتي بنتائجه في الجزيرة العربية. وبالتالي بدا وقد قام برحلة واحدة ما كنا نحن نريد القيام بها.

كان يتوجب علينا إعلام الحاكم بوفاة صديقنا ولهذا السبب فقد أرسلنا خادم حاكم تعز إلى حاكم وقاضي يريم. وقد تفضل القاضي بإرشادنا إلى عربي يمكن له أن يبيعنا قطعة أرض ندفن فيها فقيدنا. لم تتم البيعة مع ذلك الرجل، فقطعة الأرض تلك تقع بالقرب من قناة لري الأراضي هدد أصحابها صاحبنا العربي بدعوة ضده إذا ما نقصت المياه بسبب جثة رجل مسيحي. لكننا وجدنا حالاً أرضاً أخرى بالسعر نفسه.

أبدى الحاكم بعدها رغبته في لقاء أحد أفراد حملتنا: وقال لي إنه وبصفته حاكماً فله الحق أولاً في ميراث كل يهودي أو بانياني[1] يتوفى في منطقة حكمه، فأجبته أن الفقيد ليس يهودياً ولا بانيانياً بل إنه أوروبي، ولم يدّع حاكم المخا بأي حق في الإرث عندما مات أحد رفاقنا في المخا. لكن ابنه شرح لي نوايا والده الذي ينتظر منا هدية قيمة، لكني أجبته أن الأوروبيين تعودوا ألا يدفعوا شيئاً دون مخالصة وسوف نرى ما علينا أن نفعل إذا أرسلت لنا رسالة تحمل ما يطلب منا. يبدو أن الحاكم علم بسفرنا إلى صنعاء وخشي

---

(١) البانيان : لقب جماعة من الهنود التجار، قدموا اليمن في العصور الوسطى وأقاموا فيها، وأصبح هذا اللقب يُطلق عند اليمنيين على كل من قدم اليمن من الهنود والأحباش.

من شكوانا فتركنا وحالنا.

كمنت مشكلتنا في العثور على حمالين بالرغم من أننا وعدنا أن ندفع لهم بسخاء. واستطعنا في نهاية المطاف إيجاد ستة رجال يحملون المتوفى ليلاً حتى مكان دفنه، فقاموا بذلك الواجب على عجل وفي منتهى الخفة مما كشف عن شدة اشمئزاز ونفور هؤلاء الناس من لمس مسيحي.

لقد ظننا أنه من الواجب دفن جثمانه في تابوت لكنه كان من الأفضل اتباع طريقة العرب بلف الجثمان في كفن، فلقد جعل التابوت العرب يظنون أن الأوروبيين يدفنون المال مع المتوفى. وقد علمنا في صنعاء أن قبر السيد فورسكال قد نبش ليلاً وسرق كفنه بعد أن فتح التابوت، فأجبر الحاكم اليهود على دفنه من جديد وأعطاهم التابوت أجراً لهم.

الفصل الرابع

الطريق من يريم إلى صنعاء

بعد دفن صديقنا لم يكن لنا إلا أن نتابع طريقنا. فتركنا يريم في ١٣ يوليو (تموز) وقطعنا أربعة أميال في دروب مليئة بالحجارة وفي منطقة قاحلة، لنصل إلى ذمار في اليوم نفسه. الناس الذين كانوا يبيعون قشر القهوة في تلك الطريق كانوا شديدي الفقر لدرجة أن ليس لديهم أكواخ يسكنونها بل إنهم يعيشون في العراء.

علم أهل ذمار بقدومنا بسبب إقامتنا الطويلة في يريم. فمرور الأوروبيين فيها نادر حتى يكون للناس مثل ذلك الفضول في رؤيتنا، فقد أتوا لمشاهدتنا على مسافة أكثر من نصف ميل من المدينة. وكلما اقتربنا ازداد التزاحم مما حملنا على استئجار بيت خال ننزل فيه بدلاً من النزول في فندق. ولم يفدنا كثيراً ذلك الاحتياط الذي اتخذناه فقد استحال علينا اختراق الجموع الغفيرة للوصول إلى بيتنا. فامتطى السيد كرامر ظهر بغله وأجبر الجموع على التفرق وبدأ الصياح يعلو ضد وقاحة الكفار وانهالت الحجارة على النوافذ المفتوحة. وأردنا أن نطلب حارساً من الحاكم فقيل لنا إنه لا يملك إلا ٣٠ جندياً وأنه يخشى أيضاً الرعاع. أتى أخيراً كبير القضاة يطلب مشورة طبيبنا فنصحنا ألا نعير انتباهاً للطلاب الذين رشقوا الحجارة كي يجروا خطانا إلى النوافذ. وسرعان ما تفرق الجمع وهدأت الضوضاء.

تقع مدينة ذمار في سهل خصب، وهي عاصمة المقاطعة وفيها يقيم الحاكم في قصر واسع، ويوجد على أراضيه أجمل خيل اليمن وفيها جامعة مشهورة يدرس فيها ٥٠٠ من الشباب. المدينة منفتحة ومبنية بناءً حسناً وكبيرة جداً كي تتسع لـ ٥٠٠٠ منزل. يسكن اليهود في قرية منفصلة، ويمكن للبانياني الإقامة في المدينة مع المسلمين.

لم يتمكن طبيبنا من مزاولة مهنته في أية مدينة أخرى. فلم نكن نرغب بالخروج بسبب الجلبة والصخب، فكانوا يحملون المرضى إليه في أسرتهم وقام أحد السكان بالرحلة معنا إلى صنعاء وذلك كي يتمكن فقط من استشارته.

يوجد بالقرب من المدينة جبل عال فيه منجم كبريت، أما في منجم آخر لا يبعد كثيراً عن الأول وجدنا قطعاً من العقيق الأحمر الرائع الذي يقدره العرب كثيراً.

تركنا في ذمار خادمنا الأوروبي لأنه كان متوعك الصحة، لينضم إلينا بعد بضعة أيام. واشتكى عند وصوله من أن أحداً لم يؤوه أثناء رحلته، فقد خاف العرب من أن يموت عندهم فيجدون أنفسهم أمام واجب دفنه.

ثم اجتزنا في ١٤ يوليو (تموز) سهلاً محاطاً بجبال جرداء قاحلة، وتوجد على مسافة ميل من ذمار وقرب الطريق مدينة صغيرة تسمى المواهب يقيم فيها الإمام، والتي رآها كاتب رحلة إلى اليمن السعيد في بداية هذا القرن. أصبح الطريق مليئاً بالحجارة وأصبح الريف مليئاً بالسبخات والمستنقعات فاستحالت زراعته حتى قرية سراجة.

وابتداء من هنا ووصولاً إلى صنعاء كانت كل القرى محاطة بالحقول ومليئة بالكروم وأشجار الفاكهة. وفاجأنا البرد والبرق ولم نعثر على فندق أو بيت نأوي إليه.

وسلكنا في اليوم التالي أيضاً دروباً أكثر وعورة وكان ذلك مدهشاً لنا فنحن على مقربة من العاصمة. ولاحت لنا حُداسة (Hodasa) تلك القرية الواقعة على جبل شاهق، وفيها توجد نقوش هامة على جدار قديم من جدرانها.

وقد حدثوني عنه في تعز، وعلمت من يهودي في صنعاء أن هذه الحروف لا تشبه الكتابة العربية ولا الكتابة اليهودية، توقعت أن تكون كتابة حميرية وأحزنني أنني لم أتمكن من فحصها.

مررنا ببعض القرى البائسة ووصلنا إلى سيجان (Seijan) التي تؤلف مع قرية سراجة (Suradsje) إقطاعية لسلالة أمراء، وقد رأينا فيها كثيراً من البيوت المهدمة. وبما أنها لا تمطر كثيراً في هذه البلاد فقد صنعت في أسفل التلال أحواض رائعة يوزع منها الماء على الحقول ويكلف ذلك عناء وعملاً وكلفة أيضاً.

ارتدينا بعد أن عزمنا على دخول صنعاء في ١٦ تموز، ملابسنا التركية الأفضل قليلاً من الملابس العربية التي لبسناها أثناء سفرنا. مررنا على جسر من الحجر فوق ساقية صغيرة سرعان ما ستختفي في الرمال، توقفنا قرب قرية حدة، حيث يمتلك الإمام مزرعة أو بستاناً على بعد ميل من صنعاء.

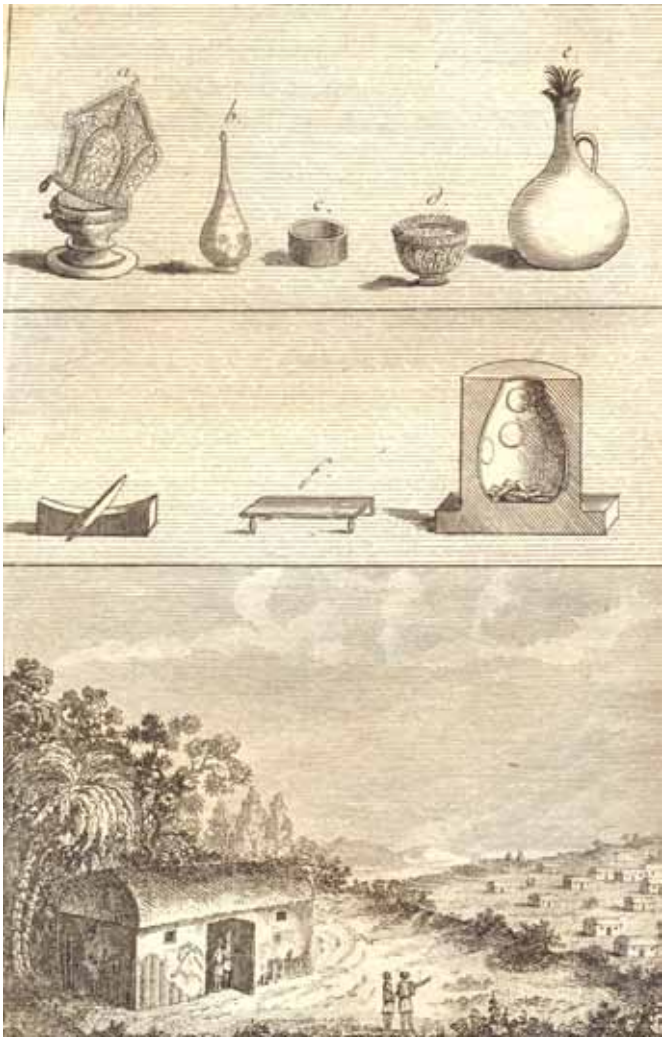

مبخرة من خشب مع غطاء من الأسل، قارورة عطر من الخزف الصيني مع غطاء من الفضة، فنجان قهوة من الفخار، صحن صغير من الفضة يستخدمه الأعيان في اليمن، إناء من الحجر لغلي القشر، أريكة تستخدم في تهامة، بيت عربي في الحجاز واليمن سقفه دائري الشكل ومغطى بالحشائش

القسم الرابع عشر
الإقامة في صنعاء في بلاط الإمام

الفصل الأول

الوصول إلى صنعاء

في صباح يوم السادس عشر من يوليو (تموز) تقدمنا نسبق أحداً من الخدم ونحمل رسالة موجهة للفقيه والقاضي أحمد الذي كان يشغل منصب وزير الإمام تعلم بقدومنا، لكن السيد سبق له وعلم بوصولنا فأرسل إلينا أحد كبار معاونيه ليستقبلنا ويرحب بنا. وقد حمل لنا المندوب ما انتظرناه منذ زمن طويل، وكان الإمام قد استأجر لنا في بير العزب إحدى ضواحي صنعاء، بيت جميل ريفي.

وعلمنا أيضاً أن للوزير بيت آخر للنزهة في الضاحية نفسها. وعندما دنونا من ذلك البستان طلب منا المعاون أن نترجل فاعتقدنا أننا سندخل على الوزير، وظل المعاون وخادمونا المسلمين يركبون حميرهم، بينما أجبرنا على السير طويلاً على الأقدام لنصل أخيراً إلى البيت الذي سنقيم فيه، ولم تكن في الحسبان تلك المذلة من قبل عرب يدعون كمال الأدب والتهذيب.

كان في المنزل غرف جميلة لكنها خلت من كل شيء، وبالتالي لم يكن حالنا أفضل هنا من أي قرية في اليمن بأسره، بل إنه أسوأ من أي خان نتدبر فيه أمر طعامنا على الأقل. لم يكن بوسعنا إلا الانتظار قبل أن نطلب من أحد شراء طعام لنا من المدينة. بالقرب من البيت كان هناك بستان بدت أشجاره وكأنها نمت وكبرت دون فلاحة أو زراعة.

أرسل لنا الإمام في صباح اليوم التالي هدية تتألف من خمسة خراف وحطب وأرز وشموع وتوابل. وقد كلف من حمل لنا المؤونة بتقديم الاعتذار لنا لأن الإمام لن يستطيع مقابلتنا في اليومين القادمين، فهو مشغول بدفع أجور الجنود الغرباء في عهدته. لم تكن تهمنا كثيراً المدة إذ في الوقت نفسه لم يتركونا نتمتع بالخروج من بيتنا قبل تلك المقابلة، كانت أمنيتنا هي الاستفادة من إقامتنا في المدينة.

ونسي المبعوث إخبارنا أن حسن التصرف يمنعنا أيضاً من استقدام أناس من أهل البلاد قبل مثولنا بين يدي الحاكم. أما في صنعاء فقد كنا نعرف يهودياً سافر معنا من

القاهرة إلى اللحية، وبالرغم من انتمائه إلى عائلة كبيرة وغنية إلا أنه قام على خدمتنا كأي خادم حقير وذلك ليتمكن من السفر بأمان معنا، أو لتوفير نفقات ومصاريف. وعندما علم بوصولنا أتى في الحال لزيارتنا، ثم أتى في صباح اليوم التالي بصحبة أحد كبار علماء الفلك من ملته، ووصل في نفس الوقت معاون الوزير الفقيه أحمد، ونهض الرجلان اليهوديان احتراماً له، لكن المعاون والذي أساءه خرقهم المراسيم والآداب طردهم من منزلنا وأمر خدمنا بمنع أي كان من الدخول إلينا إلى أن نقابل سيده.

الفصل الثاني

مقابلة الإمام

أتى في التاسع عشر من يوليو (تموز) معاون الوزير الفقيه أحمد ليصحبنا إلى مقابلة الإمام في قصر بستان المتوكل، كنا ننتظر مقابلة الإمام شخصياً بحضور بعض كبار معاونيه، ولكن أصابتنا الدهشة من رؤيتنا لتحضيرات احتفال كبير، فقد امتلأت الساحة بالخيل والعسكر وبعض الرجال العرب، فشق علينا اجتياز الساحة، لولا أن النقيب خيرالله الذي كان عبداً فيما مضى بينما هو الآن مروّض جياد الحاكم، أتى يحمل عصا غليظة ليفسح لنا مجالاً للمرور.

كانت صالة المقابلة مربعة الشكل واسعة ومقببة. في وسطها بركة فيها بعض نوافير الماء التي ترتفع إلى علو أربعة عشر قدماً، خلف البحيرة وبالقرب من العرش هناك دكتان واسعتان يبلغ ارتفاع كل منهما قدماً ونصف القدم وكان العرش مكاناً مغطى بالأقمشة الحريرية وعليه من الجانبين أرائك ضخمة. كان الإمام يجلس بين الأرائك مصلوب الرجلين على طريقة الشرقيين ويرتدي لباساً أخضر اللون ذا أكمام واسعة. وعلى جانبي صدره شبكتان من الذهب، وقد وضع على رأسه عمامة كبيرة بيضاء. جلس أبناؤه على يمينه وأشقاؤه على يساره مقابل الدكة الأكثر ارتفاعاً والتي جلس عليها الوزير، بينما جلسنا نحن على الدكة الأخرى أمامه. واصطف على جانبي الصالة حشد من علية القوم العرب. فاصطحبونا إلى الإمام فوراً لنقبل ظاهر يده وراحتها، تلك حظوة كبرى أن تقبل راحة يد أمير مسلم. صمت مطبق في الصالة كلها وما إن لمس أحدنا يد الإمام حتى صرخ أحدهم: "ليحفظ الله الإمام" وردد الحضور بصوت عال تلك العبارة، شغلني التأمل بهذا المديح العربي وأخذتني الجلبة والصخب واحتجت بعض الوقت لأعود إلى رشدي.

بما أن لغة الخطاب في بلاط صنعاء تختلف اختلافاً شديداً عن اللغة في تهامة، التي كنا قد اعتدنا عليها بعض الشيء والتي كنا نمارسها ممارسة جزئية، فاتخذنا خادمنا

من المخا مترجماً لنا. أما الوزير وبسبب إقامته الطويلة في تهامة فقد تعلم لهجتها وكان مترجماً للإمام. وبالتالي فلم يطل بنا الحديث ولم يكن مهماً، ولم نر أنه من الضروري استعراض الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء قدومنا إلى الجزيرة العربية، وقلنا إننا عزمنا على ارتياد أقصر الطرق للوصول إلى المستعمرات الدنماركية في جزر الهند، وقد سمعنا الكثير مما قيل عن الأمن والثراء اللذين يعمان في بلدان الإمام وهذا ما كنا نود أن نكون شاهدي عيان عليه لنخبر بذلك مواطنينا. وقال لنا الإمام إننا من المرحب بهم جداً في ولاياته، إضافة إلى أننا نستطيع الإقامة بكامل حريتنا طالما طاب لنا العيش فيها. وبعد أن انتهينا من احتفال تقبيل أيادي الإمام وسماع كل المديح والهتاف الذي أطلقه الجمهور، غادرنا مثلما قدمنا.

وعند عودتنا أرسل الإمام لكل منا مبلغاً من المال قدره ٩٩ كوماسيس، حيث يعادل ٣٢ منها وحدة نقدية. يمكن أن يمس اهتمام لطيف كهذا حساسية المسافر. لكن عندما نجد أن الغريب الذي لا يعرف قيمة النقود يجبر على إنفاق يومي لقوته واحتياجاته ويمكن له أن يتعرض لخداع مبدلي النقود، فإننا نجد ذلك الاهتمام مقبولاً في أن يتدبر الغريب أمره بتلك النقود. ولذا فقد قبلنا الهدية بالرغم من قرارنا وعزمنا بألا نكون عالة على العرب.

الفصل الثالث

زيارة الوزير الفقيه أحمد

لا يمكن لأحد مقابلة السلطان في تركيا قبل زيارة الوزير. بينما يختلف الحال جذرياً في اليمن، بعد أن تشرفنا بالمثول بين يدي الإمام في الصباح، دعانا الفقيه أحمد لزيارته بعد الظهر في بيته الريفي قرب بير العزب، وطلب منا أن نحضر معنا الطرائف والغرائب التي عرضناها للأمير فرحان في اللحية وللكثير من الشخصيات العربية في مدن أخرى. واقتصرت تلك الطرائف والغرائب على مجاهر وموازين حرارة ومناظير للتقريب وخرائط جغرافية، ولم أرغب بالمجازفة باستعراض أدوات الرياضيات الخاصة بي، فقد خشيت أن يطلبها شيخ من الوزير لاستعمالاته الخاصة. استقبلنا الوزير بمزيد من الحفاوة والترحيب وقد راق له كثيراً وأطربه ما استعرضنا على مرأى من ناظريه، وطرح علينا بعض الأسئلة التي أعربت عن معرفته وعلمه، بينما كشفت عن قلة تطبيق العلوم عند العرب. وقد استفاد من التجارة مع الأجانب من ترك وفرس وهنود، وبذلك اقتبس بعض الأفكار حول الجغرافية. ويخال للعرب أن أوروبا تقع جنوب بلادهم، وذلك لأن الفرنسيين يأتون إليهم من الهند. لكن الفقيه أحمد كان يعلم جيداً الموقع الجغرافي للكثير من الدول الأوروبية وقوتها ونفوذها في البر والبحر. إننا لم نكن ننتظر المزيد من عالم عربي لم ير خريطة في حياته قط وكنا قد قرأنا في معظم التقارير أنه لا يمكن في المشرق كله لأحد في مرتبة أدنى أن يجرؤ على المثول أمام أحد من رؤسائه دون أن يقدم له هدية. كنا نرغب رد بعض الاهتمام واللطف الذي غمرونا به وإبداء امتناننا وعرفاننا لما قدموا لنا من هدايا. ولهذا قررنا أن نغتنم هذه الفرصة لنقدم للإمام وللفقيه أحمد بعض القطع الميكانيكية: ساعات وآلات غير معروفة كثيراً في الجزيرة العربية، فأعطيناها للفقيه أحمد. وعلمنا فيما بعد أن مبادرتنا اللطيفة لم تكن منتظرة لأننا لسنا تجاراً ولم تطلب منا أية مراعاة أو حظوة. وبالمقابل فقد قبلت هدايانا بكل سرور. ينظر الأتراك لهدايا الأوروبيين على أنها غرامة أو جزية، لكن على ما يبدو فإن الأمر يختلف في بلاط صنعاء. لم يكن بيت الوزير الريفي متسعاً جداً لكنه كان مفتوحاً

من جهة، وامتلأ البستان بالأشجار المثمرة وحوى في وسطه نافورة تشبه النافورة التي رأيناها في الصالة عند مقابلتنا للإمام. كان الماء يتحرك، يرفعه إلى الحوض رجل ومعه حماره. لم تكن النافورة للزينة بل لترطيب الهواء وهذا شيء ممتع للغاية في البلاد الحارة. وقد رأينا نوافير مماثلة في بساتين كل وجهاء صنعاء.

الفصل الرابع

مدينة صنعاء

تقع مدينة صنعاء في سفوح جبل نقم، وما تزال بقايا القصر الذي بناه سام حسب المعتقدات العربية ترى عليه من جهة، بينما تجري ساقية من الجهة الأخرى، وهناك بستان المتوكل الواسع الذي أنشأه الإمام المتوكل يزينه قصر منيف بناه الإمام الحالي. صنعت أسوار المدينة من الآجر المجفف وهي تفصل البستان المحاط بجدار خاص، المدينة بحد ذاتها ليست كبيرة، فأنت تحتاج لساعة واحدة للقيام بجولة حولها سيراً على الأقدام.

لقد تمنيت أن أرسم مخططاً حقيقياً لهذه المدينة، لكنني كنت وأينما توجهت يتبع خطاي جمع غفير أثاره الفضول، ولم أعتقد أنه من الحكمة القيام بعمليات مسح للأراضي.

للمدينة سبعة أبواب وفيها الكثير من المساجد بنى بعضها باشاوات أتراك، وتبدو مأهولة بالسكان أكثر مما هي عليه في واقع الأمر، وتحتل البساتين جزءاً من ضواحيها، وليس فيها إلا اثني عشر حماماً شعبياً، لكننا نجد فيها عدداً كبيراً من القصور الجميلة، بنى الإمام الحالي ثلاثة من أجملها ، تملك عائلة الإمام وهي عائلة كبيرة جداً قصر الإمام المنصور وقصوراً عديدة أخرى.

ولا تشبه الهندسة المعمارية للقصور العربية هندسة قصورنا، رغم أن بعضها بني من الآجر المشوي بينما بني بعضها الآخر من الحجارة المنحوتة. في حين بنيت منازل عامة الشعب من الآجر المجفف في أشعة الشمس، ولم أر زجاجاً إلا في قصر واحد، أما في باقي القصور فقد حل محل النافذة مصراعان يفتحان عندما يكون الطقس جميلاً ويغلقان عندما تمطر فيدخل في هذه الحال القليل من النور عبر فتحة دائرية في المصراع وقد غطيت بزجاج روسي، ويستخدم بعض العرب قطع زجاج صغيرة مستوردة من البندقية.

نجد في صنعاء كما في كل مدن الشرق فنادق للتجار والمسافرين. وتباع كل بضاعة في سوق خاص، فلا ترى إلا النساء في سوق الخبز وليس لديهم إلا حوانيت متنقلة. كما يوجد أيضاً أصحاب حرف مختلفة يمارسون مهنتهم في وسط الشارع في حوانيت مشابهة، ويحتل الكتاب أيضاً بعض هذه الأسواق المتجولة فيكتبون هناك العرائض وينقلون الكتب ويعطون دروساً في الكتابة للناشئة في الوقت نفسه. وفي أحد تلك الأسواق أيضاً يمكنك أن تبدل ملابسك القديمة مقابل ملابس جديدة.

يرتفع ثمن الحطب بصورة عامة في كل اليمن كما يرتفع في صنعاء سعر الحطب المعد للحرق، بسبب الجبال الجرداء القاحلة في كل الضواحي، فالخشب بحاجة ليومين أو ثلاثة ليصل وبذلك تكلف حمولة الجمل حسب العادة وحدتين نقديتين، ويعوض قليلاً هذا النقص بالفحم الحجري، كما أني وجدت أيضاً الخث لكنه رديء النوعية حتى تجبر على خلطه بالقش لحرقه.

وعلى العكس فالفاكهة تتوافر بكثرة في صنعاء. فهناك أكثر من عشرين نوعاً من العنب الذي لا ينضج في آن واحد معا وبذلك تستطيع تناول هذه الفاكهة المنعشة خلال عدة أشهر. ويعلق العرب عناقيد من العنب في أقبيتهم ويأكلون منها طوال العام تقريباً. ويصنع اليهود قليلاً من الخمر وبإمكانهم صنع المزيد للتجارة لو لم يكن العرب من كبار أعداء المشروبات الروحية. وإذا قبض على يهودي يحمل خمراً لعربي ما فإنه يعاقب عقاباً قاسياً، حتى أنه لا يجرؤ على حمله علناً إلى شخص من ملته. يجفف الكثير من العنب ويشكل تصديره جزءاً مهماً في التجارة ويبدو أن هناك نوعاً لا يحتوي على بذور في حين أن فيه بذرة طرية لا تشعر بها عندما تأكلها.

توجد أبنية في القصر على إحدى التلال ورأيت فيه آثار بعض المباني القديمة لكني لم أر أية كتابة مهمة بالرغم من قدم المكان. يوجد هنا بيت للمال وعدة سجون لمختلف الطبقات. يقيم الإمام الحاكم في المدينة في حين يقيم العديد من الأمراء من سلالته في القصر، اصطحبني أحدهم إلى مركز مدفعية، بما أنها المكان الأعلى وشاهدت شيئاً غريباً: مدفع هاون ألماني كتب عليه جورج سيلوس جوزميتش ١٥١٣. ورأيت في المركز

أيضاً سبعة مدافع من الحديد وقد دفن جزء منها في الرمل، أما الجزء الآخر فقد وضع على ركائز مكسورة. تعتبر المدافع الصغيرة السبعة مع ستة أخرى موجودة قرب الأبواب والمستخدمة للإعلان عن الأعياد، هي كل سلاح المدفعية الذي تمتلكه صنعاء عاصمة اليمن.

الفصل الخامس

ضواحي صنعاء

تكاد حدود قرية بير العزب تلامس المدينة من جهة الشرق، وبيوتها مبعثرة بين البساتين على طول ساقية صغيرة، وعلى مسافة فرسخين من صنعاء باتجاه الشمال هناك سهل يسمى سهل الروضة مليء بالبساتين والسواقي. ويشبه السهل إلى حد بعيد ضواحي دمشق، لكن صنعاء التي قارنها الكتاب العرب القدماء، تقع على هضبة تكاد تكون قاحلة جرداء. تمر ساقية صغيرة في المدينة بعد هطول الأمطار فترة طويلة وتجف فيما تبقى من العام. بينما تمد قنوات جُرت من جبل نقم، صنعاء وقصرها بالماء العذب في كل الفصول.

لا يجرؤ اليهود على الإقامة في المدينة، بل يقيمون في قرية خاصة بهم اسمها قاع اليهود وتقع قرب بير العزب، ويصل عددهم إلى ٢٠٠٠ نسمة، ويعاملهم العرب في اليمن بازدراء واحتقار أكثر من تركيا. بالرغم من أنهم يضطرون للبحث عن أفضل عمالهم وبوجه خاص صانعي الفخار والصيّاغ الذين يأتون نهاراً للعمل في حوانيتهم الصغيرة في المدينة ويعودون مساء إلى قريتهم.

وهناك من له تجارة هامة من هؤلاء اليهود، وقد نال أحد كبار تجارهم ويدعى أوراكي رعاية وحظوة إمامين ، وكان مدة ١٣ عاماً إبان حكم المنصور ومدة ١٥ عاماً تحت الحكم الحالي يشغل وظيفة وكيل الجمارك والبناء والبساتين، وهي الوظيفة الأسمى والأعلى شأناً في بلاط صنعاء. لكنه قبل عامين من وصولنا إلى هنا فقد تلك الحظوة، لم يكتف بزجه في السجن بل أجبر على دفع غرامة قدرها ٥٠٠٠٠ وحدة نقدية. وأطلق الإمام سراحه قبل وصولنا بأسبوعين تقريباً. كان شيخاً جليلاً مليئاً بالمعرفة، لم يشأ يوماً أن يخالف طريقة لباس أهل ملته بالرغم من إذن الإمام وسماحه. وقد مدحنا أمامه كثيراً اليهودي الشاب خادمنا سابقاً الذي كان من أسرته، فأراد أن نكون من بين أصدقائه، لكننا لم نكن نريد العيش مع رجل خرج لتوه من السجن.

إن فقدان الحظوة ورضا الإمام وزوال النعمة عن أوراكي هذا جر على بني ملته نوعاً من الاضطهاد، فهدمت في تلك الفترة مباني ١٤ مجمعاً كان اليهود مالكيها، كان في قريتهم بيوتاً تضاهي في جمالها بيوت أشراف صنعاء، فهدم ما تجاوز منها مقدار ١٤ ذراعاً، ومنع أي يهودي من بناء منزل له يتجاوز ذلك الارتفاع. وحطمت كل الجرار الحجرية التي كان اليهود يحفظون الخمر بها. وحاول العرب إنزال شتى أنواع الذل والإهانة بهم.

يمكن أن نحصي ١٢٥ بنياناً مقيماً في صنعاء وكانوا يدفعون شهرياً مبلغ ٣٠٠ وحدة نقدية مقابل السماح لهم بالإقامة في المدينة، فبينما لا تدفع قرية القاع لوحدها إلا ١٢٥ وحدة نقدية شهرياً.

في حال وفاة بانياني يفرض على ورثته دفع ٤٠ إلى ٥٠ وحدة نقدية، وإذا لم يكن للمتوفى أهل يسكنون في اليمن، فإن الإرث الذي خلفه يعود برمته للإمام، وقد روى لنا بعض البانيانيين أن اثنين منهم اقتيدا إلى السجن منذ شهرين وأجبرا كي يطلق سراحهما على دفع ١٥٠٠ وحدة نقدية لإرث مستحق في الهند لم يحصلا على شيء يذكر في الجزيرة العربية.

الفصل السادس

موكب الإمام العائد من المسجد

من المعروف أن السلطان يذهب إلى المسجد في إسطنبول كل يوم جمعة. يراقب الإمام بدقة هذه العادة الدينية ليؤديها بكثير من الأبهة والعظمة. ولم نره نحن إلا حين عودته لأنه قيل لنا إن كل المصلين والمؤمنين في المساجد الأخرى قد انضموا إلى موكبه فكبر وتضخم وعظم شأنه. يتبع هذا الأمير طريقاً طويلاً عند عودته لإبداء عظمته وأبهته.

عندما يخرج الإمام من المسجد يمشي ليخرج من باب للمدينة ثم يدخل من باب آخر لها يتقدمه مئات الجند، وقد حملت إلى جانبه ككل أمراء أسرته الكبيرة مظلة كبيرة، علامة خاصة تميز كل الأمراء والحكام من سلالته. قيل لنا إن كل الأسياد المستقلين في كل أرجاء اليمن، على سبيل المثال شريف أبو عريش وشيوخ يافع وحاشد وبكيل يحرصون على إظهار تلك العلامة المميزة لاستقلالهم.

يتألف الموكب على الأقل وبغض النظر عن الأمراء، من ٦٠٠ من السادة المرموقين، ومثلهم من رجال الدين والعسكريين والسلطة المدنية، وقد اعتلى الجميع صهوة جياد أصيلة ولحق الموكب جمع غفير من الناس سيراً على الأقدام، كما وحملت على جانبي الإمام رايتان على طبقين من فضة ومليئتان بالتعاويذ والتمائم الخاصة لحماية الإمام. مفاد الكلام: كان هذا الموكب رائعاً لكنه صاخب، ذهاباً وإياباً وجرياً على ظهور الخيل دون أي ترتيب أو نظام. وضعت بالقرب من باب للمدينة جمال تحمل محفات تجلس فيها غالباً بعض نسوة الإمام في مثل تلك المواكب، والطريف أنها كانت خالية ووضعت كيلا تخرق العادات والتقاليد. ويوجد خلف المحفات ما يقارب عشرة جمال غير محملة ربطت في سروجها بعض الأعلام للزينة فقط. قام الجند خارج باب المدينة بإطلاق بعض العيارات النارية بارتباك وتصنع لم نر نظيراً له في كل مدن اليمن. ولم يكن عرضهم أمام القصر أكثر مهارة وبراعة من عرض جيوش الحاكم في المدن الأخرى. وتبقى أبواب المدينة مغلقة طيلة وقت الصلاة.

الفصل السابع

مقابلة الاستئذان

حفاوة الاستقبال والترحيب بنا في صنعاء التي فاقت تصورنا لم تحثنا على إطالة إقامتنا فيها، وألح أكثر رجال بلاط الإمام على بقائنا عاماً آخر في اليمن. لكننا فقدنا اثنين من رفاق الدرب والتي كانت إقامة طويلة في الجزيرة العربية قد أفادتهم أكثر مما تفيدنا.

من بعض دلائل البخل التي بدت لنا من الإمام وخبرتنا من بعض المشكلات التي حدثت مع الحكام، نمّ كل ذلك عن خلل وضعف، جعلنا نخشى أفول نجم العلاقات الطيبة الحالية. وقد شعرنا أيضاً بتأثير هذا المناخ الغريب على أجسامنا، وكان لاختلاف درجات الحرارة الدائم الأثر السيئ على صحتنا. ولذلك فقد فكرنا جدياً بالسفر إلى الهند مع الإنجليز لتكون حياتنا وأوراقنا في مأمن ومنأى عن كل خطر.

بالطبع كان يسمح لنا بمغادرة صنعاء عندما نرغب في ذلك، لكن علينا الاستئذان رسمياً وجعل الإمام يطلع على كل الطرائف التي رآها الوزير مسبقاً، وهذا ما أخر سفرنا بضعة أيام. فاستدعينا إلى البلاط في الثاني والعشرين من يوليو (تموز) إلى الصالة نفسها التي قوبلنا فيها لأول مرة، وتمت الأمور بهدوء في المقابلة الثانية، فقد جلس الإمام على الدكة الأولى بالقرب من العرش في كرسي صنع من قصب مجدول، قبّلنا راحة يده وظاهرها وذيل ثوبه حسب التقاليد العربية. لم يحضر أحد هذه المقابلة إلا الوزير والمعاون الأول الذي اصطحبنا إلى الإمام وستة أو سبعة من الخدم، لم يسمح لأي من خدمنا بالدخول فقد ظن الوزير أننا على قدر من المهارة تتيح لنا التحدث بلغة البلاد، وقد حاز على إعجاب الإمام كل ما عرضنا بين يديه، وطرح علينا هو ووزيره أسئلة تتعلق بالأخلاق والتجارة والعلوم عند الأوروبيين. ثم أتوا بصندوق صغير مليء بالأدوية التي تلقاها الإمام من أحد الإنجليز. وطلب من السيد كرامر أن يشير إلى اسم كل عقار وفوائده وطلب الإمام كتابة كل تلك الشروحات.

خرجت منزعجاً من تركي واقفاً فترة طويلة، شعرت بالتعب والإعياء الأمر الذي اضطرني للاستئذان بالانصراف. ووجدت أمام الباب بعض كبار موظفي البلاط يجلسون بشكل عشوائي مقابل الجدار على كوم من الحجارة، خير الله مدرب الخيل والذي أتيحت لي الفرصة في كثير من الأحيان للحديث معه، ترك لي مكانه في الحال وذهب لجمع حجارة ليصنع منها مكاناً له. ومعهم انهالت علي أسئلة عديدة حول العادات والتقاليد الأوروبية، واستنكروا بشدة تناولنا للمشروبات الروحية، لكني عندما أكدت لهم أن الإدمان محرم عند المسيحيين وأنه لا يسمح لأي أوروبي بتناول الخمر إلا بمقدار ما تسمح له صحته. وجدوا أن طريقتنا لا تناقض المنطق، وأعترف بعضهم أن الإمتناع كلياً عن شيء متوافر لديهم بكثرة، الذي يمكن له أن يكون في بعض الحالات دواءاً ناجعاً.

رجعت إلى الصالة، بعد أن انتهى السيد كرامر من شروحاته للدواء وبعد أن أجبنا على أسئلة مختلفة، استأذنا بالانصراف مكررين الاحتفال الذي دخلنا به. وذهبنا بعد الظهر لوداع الوزير الفقيه أحمد وبعض وجهاء القوم.

الفصل الثامن

مغادرة صنعاء

كان لدينا والحق يقال أسباب وجيهة كي نعود إلى المخا عبر الطريق ذاته الذي سلكناه عندما أتينا إلى صنعاء، فهو أكثر ارتياداً كما أنه قدم لي فرصة نقل كتابات كان العرب قد تحدثوا إلي عنها كثيراً، لكن إعلانات مشابهة لآثار مهمة كثيراً ما خدعتني وجعلتني أفضل على هذه الآمال المنشودة، الفائدة الحقيقية المحققة من عبور جزء آخر من اليمن ورؤية تهامة في أوقات المطر.

شرحنا رغبتنا أمام الوزير في عبور الطريق من مناخة إلى بيت الفقيه، فلم يوافق على قرارنا فقط بل قال لنا إن الإمام سيزودنا بالجمال والحمير اللازمة في رحلتنا.

أرسل الإمام في ٢٥ يوليو (تموز) لباساً كاملاً لكل منا ورسالة توصية لحاكم المخا كي يدفع لحملتنا ٢٠٠ وحدة نقدية كهدية قبل رحيلنا. خشينا أولاً أن يظن هذا الأمير أننا أتينا على طريقة الأتراك نلتمس منه مالاً أو أننا قدمنا له هدايانا لغاية في نفس يعقوب. بعد تفكير عميق وبعد أن أُبتزينا في المخا، رأينا أننا نستطيع قبول الحوالة، وعندما أعطينا الرسالة للحاكم فيما بعد، أرسلنا إلى الصراف وكان بانيانياً فأعطانا المبلغ في عدة دفعات وهو مقطب الحاجبين عابس الوجه دوماً.

شق علينا التصديق في أن يكون عرض الوزير جدياً عندما قال لنا إن الإمام سيزودنا بالجمال والحمير، وخفنا أن يؤخر ذلك سفرنا وكنا نفضل لو استأجرنا الحيوانات على نفقتنا الخاصة، ولكن المعاون شرح لنا الأمر ودفعتنا إجاباته إلى الشك بمؤامرة بينه وبين مؤجر الجمال. ولمزيد من الوضوح اعتقدنا أن من واجبنا التوجه للوزير الذي بدا متعجباً من ارتباكنا، فقد أعطى لمعاونه رسالة مكتوبة وموقعة من يد الإمام بالذات، فيها أمر بإعطائنا في كل المناطق التي نمر بها جمالاً وحميراً بديلة لمتابعة سفرنا كما أمر أيضاً بإعطائنا خروفاً كزاد لنا في رحلتنا. أما المعاون وبسبب استعجالنا في الذهاب، فلم يكن لديه متسع من الوقت كي يتفق مع الجمالين على اقتسام الأرباح واضطر أن

يعطينا الرسالة مرفقة ببعض قطع النسيج التي أرسلها الإمام لصنع ملابس لخدمنا، وأعلن لنا عن هدايا أخرى مقدمة من الإمام لكنها لن تكون جاهزة قبل بضع ساعات، فسافرنا واحتفظ ذلك المعاون على ما يبدو بالهدايا لنفسه.

كانت الملابس التي تلقيتها من الإمام تشبه تماماً ملابس علية القوم في اليمن، التي يمكن رؤيتها في هذا الكتاب. فهم يلبسون القميص فوق سروال فضفاض من القماش. أما الجنبية فهي سكين معكوفة معلقة في حزام ضخم، سترة قبضتها ضيقة وقد يلبس فوقها معطفاً واسعاً جداً، أما الحبل المتدلي على ذراع الجنبية ليس إلا مسبحة وهي نوع من اللعبة يتسلى بها العرب بأصابعهم وهم لا يرتدون الجوارب أبداً وتقتصر أحذيتهم على حذاء نصفي أو خف بسيط.

ويبدو أن الأتراك قد أسرفوا في استغلال معاملة الإمام الكريمة للغرباء المسافرين في ولاياته. غالباً ما يأتي حجاج فقراء أتراك من جدة، فينزلون بضعة أشهر في صنعاء وينفق عليهم في رحلتهم حتى أن الإمام يأمر لهم بمبلغ من المال في بعض الموانئ ليتمكنوا من متابعة طريقهم، ويتلقون زاداً عند الحدود لمنعهم من العودة وليكونوا مدة طويلة على عاتق بلد مضياف كهذا.

أتى رجل تركي إلى صنعاء قبل وصولنا بوقت قصير، كان قد اصطحب إلى مكة سيده المصري، مروراً بجدة والحديدة آملاً في الحصول فوراً على منصب رفيع بين صفوف جيش الإمام. ويظن الأتراك أن لهم موهبة لا تضاهى في الفروسية كما ويخال لهم أن العرب سيكونون في غاية السعادة إذا استطاعوا توظيف ضابط تركي في جيشهم. لكن الإمام وبعد أن استقبله لبعض الوقت في صنعاء أرسله إلى الحديدة وأعطاه مبلغاً من المال يكفيه للذهاب إلى البصرة. التقيت بعد عودتي من الهند هذا التركي الذي سافر مع المركب من مسقط ولم يجد تلك الرحلة أخطر من السفر بين جدة والحديدة.

أدوات الفلاحة المستخدمة عند العرب

القسم الخامس عشر
العودة من صنعاء إلى المخا

الفصل الأول

الطريق من صنعاء إلى بيت الفقيه

قطعنا مسافة قصيرة في درب وعر بين الجبال الجرداء دون أن نرى كثيراً من القرى، كان ذلك في ٢٦ من يوليو (تموز) يوم مغادرتنا صنعاء.

وفي اليوم التالي كان الدرب أكثر وعورة في جبال مليئة بالصخور، وكان أصعب الدروب وأسوأها حالاً في اليمن كله. دروب تحاذي جبالاً جرداء بائسة تشكلت بينها وديان عميقة لا يوجد فيها إلا قرى فقيرة.

نزلنا في ٢٨ عبر منحدرات حادة طوال الدرب كله. وبدأ الإخضرار يكسو الجبال شيئاً فشيئاً والتقينا ببعض الجمال المحملة بالحطب الرديء والمرسلة إلى صنعاء. ولاتزال المدن فقيرة وقليلة السكان وقد اجتاحتنا في المساء سحابات من الجراد طردتها عاصفة مصحوبة بأمطار غزيرة.

وقصدنا مفحق (Mofhaq) وهي مدينة صغيرة تقع في قمة جبل شاهق، كانت البيوت المعدة لإيواء المسافرين في سفح الجبل، قدمنا رسالة الإمام لحاكم المدينة فكان أن أمر بجمال بديلة لنا وبعلف لحميرنا وبوجبة طعام لخدمنا وبخروف لعشائنا كما أنه دفع أجرة البيت الذي نقيم به. تشكل عائدات مفحق وأراضيها إقطاعية أحد أبناء الإمام.

كان الطقس في اليوم التالي أيضاً رديئاً والطريق بين مفحق وسهان (Sehan) لا تطاق أبداً. وجدنا على الجبال ستة أحواض ضخمة تجمع فيها مياه الأمطار التي تأسن في فصل ما وتصبح كريهة منتنة، ويعتقد العرب أن في هذه المنطقة دودة الأعصاب الأخطر والتي يسميها بعض الكتاب وريد المدينة وإذا ما صح اعتقادهم فمن المحتم البحث عن سبب ذلك الوباء في الاعتياد على شرب تلك المياه الآسنة.

وسلكنا في ٣٠ من يوليو (تموز) طريقا أفضل قليلا مما سبق تلتف على منحدرات

تلك الجبال. وصلنا إلى معبر في جبل حراز يضيق فيه الدرب لدرجة لا يمكن معها المرور إلا لجمل واحد فقط، صخور وعرة تحف جانبي الطريق وكانت مياه أمطار الأمس قد حفرت في أضيق نقطة في الطريق هوة يبلغ عمقها ثمانية أقدام وبالتالي تتعذر متابعة السفر. وبما أنه لا يوجد هناك طريق آخر فقد ارتأى أصدقاؤنا العرب الرجوع إلى صنعاء لنسافر من هناك مروراً بمدينة تعز ولم نكن نرغب أبداً بالقيام بمثل تلك الرحلة الطويلة، فقررنا ردم الهوة وصنع ممر مرتفع. فسخر العرب من مشروعنا الذي يتطلب إنجازه بضعة أيام، لكننا نجحنا عندما بدأنا بجمع الحجارة بإقناعهم بشتى الوعود.

ولحسن الحظ فقد اجتزنا الممر الذي أصبح جاهزاً بعد ثلاث ساعات من العمل الدؤوب. لم يكن أصدقاؤنا العرب ليساندونا في مثل هذا العمل، ولكان حاكم اليمن الأول قد فضل العودة إلى صنعاء بدل الشروع في عمل كهذا، وموقف العرب هذا لا يوحي لنا خيراً فيما يخص فاعلية وصناعة هذا الشعب.

التقينا بأسرة شاردة في الطريق وكانت هي المرة الأولى التي التقي بها بأسرة متشردة في اليمن، لم يكن لديها ولا حتى خيمة واحدة، تعيش تحت الشجر مع ما تملك من حمير ونعاج وكلاب ودجاج. نسيت أن أسأل عن اسم تلك العشيرة لكن حالهم يشبه تماماً حال البوهيميين في أوروبا. في ترحال دائم لا يستقرون في أي مكان بل إنهم يتسولون وينهبون ويسرقون في المناطق المحيطة بالقرى، ويعطيهم بكل طيبة خاطر الفلاحون الفقراء ما يؤكل ليتخلصوا من جوارهم. أتت بنت من تلك الجماعة وقد أسفرت عن وجهها، تطلبنا حسنة أو صدقة.

وعلى مقربة من الممر الذي تحدثت عنه للتو، رأينا أولى شجيرات البن التي لم نر أياً منها منذ رحلاتنا في مارس (آذار)، ولم يبد أن مزارعي المحصول قد أثروا واغتنوا، فقرى منطقة زراعة البن كانت فقيرة، جدران البيوت مبنية من الطين الجاف، مغطاة بالقصب شأنها شأن البيوت المحيطة ببيت الفقيه وبجبلة. أما وادي سهان (Sehan) فقد فاض وكان من الصعب علينا اجتيازه على ظهور الحمير.

قضينا ليلتنا في سمفور (Samfur) وهي قرية فقيرة وفقدت فيها البوصلة التي كانت بحوزتي، وعندما تركناها وعلى مسافة ميل تقريباً واجهتنا المصاعب أكثر من عشر مرات في اجتياز وادي سهان الكثير الانعطافات والتعرجات، والذي يصبح مجراه سريعاً جداً بين الجبال. ويعود سبب فقر سكان المنطقة إلى الطرقات غير الآمنة مما أجبرنا على البقاء بالقرب من أمتعتنا. رأينا فيها الكثير من نبات البلسان الذي ما يزال دون زراعة بسبب جهل السكان لاستعمالاته.

والتقينا في مقهى الطويلة بالعديد من الحجاج القادمين من مكة المكرمة من بينهم رجل من دوأن (Doan) وهي مدينة تقع على بعد مسير ٢٥ يوماً شرقي صنعاء، ومسير ١٢ يوماً من كرشين وبالتالي في منطقة يجهلها تماماً الأوروبيون. وأساءني قصر مدة إقامتنا والفرق الشاسع بين لهجتهم ولهجة تهامة مما لم يوفر لي الفرصة لمزيد من الإيضاحات من ذلك العربي حول بلده.

وابتداء من ذلك المقهى تحسن منظر البلاد، وغطى اللون الأخضر السهول وامتلأ الوادي بالوديان الصغيرة التي ترفد وادي سهان، كما و تناثر عدد كبير من القرى على الجبال.

ورأينا وادياً صغيراً انتهى مجراه في التراب ثم عاد ليظهر على بعد مسافة كبيرة بين الجبال ثم اختفى كلياً بعد ذلك فمياهه توزع على أرياف تهامة، زرعت حقول الجبال بالذرة فقط التي يصنع منها الفقراء الخبز. وجهز الفلاحون في الشجر نوعاً من المرصد لمراقبة حقولهم.

تتألف الجبال الواقعة على تخوم تهامة من البازلت، شأنها كشأن الجبال الواقعة بالقرب من قرى البن قرب بيت الفقيه. كما أننا رأينا وادياً صغيراً ينتهي إلى رمال تهامة. وصلنا أخيراً إلى السهل ثم إلى بيت الفقيه في مساء الأول من أغسطس (آب).

الفصل الثاني

الطريق من بيت الفقيه إلى المخا

اعتقدنا بما أن النار كانت قد التهمت جزءاً كبيراً من هذه المدينة في شهر أبريل (نيسان) الماضي، أننا لن نجدها إلا وقد أصبحت صحراء قاحلة. وأصابتنا الدهشة عندما رأينا كل البيوت تقريباً أو على وجه الدقة الأكواخ وقد أعيد بناؤها. لا بل إن هناك بعض البيوت التي بنيت من الحجر الأكثر مقاومة للحرائق المتكررة.

طلبنا إخبار الحاكم بوصولنا ورجوناه أن يجهز لنا الجمال الضرورية لمتابعة رحلتنا. كما وطلب إليه خدمنا العرب زاداً لغذائهم فيعرف الناس أننا عدنا من البلاط مكرمين معززين، لكن وبسبب المعاملة الحسنة في هذه المدينة فلم نطلب منهم إلا خروفاً واحداً فقط.

وبما أني قد وصفت الطريق من هذه المدينة إلى المخا، فليس لدي إلا أن أضيف بعض التغيرات التي طرأت على المنطقة بسبب الأمطار، ولذات السبب فلم نكلف أنفسنا عناء السفر نهاراً في أيام الطقس الحار.

غادرنا بيت الفقيه منذ الثاني من أغسطس (آب) فالتقينا في طريق زبيد رجلين يقودان ستة حمير محملة، جزء كبير من تلك الحمولة كانت نقوداً تلقاها التجار من مصر ثمناً للبن، وأرسلوها إلى المخا لشراء بضائع من الهند. أثبتت لنا هذه الطريقة الجريئة في نقل المال أننا لن نخشى اللصوص وقطاع الطرق في المنطقة.

اضطر حاكم زبيد أن يسلمنا مؤونة في الثالث من أغسطس (آب) وأن يجهز لنا الدواب لمتابعة السفر، وكنا نعتقد أننا سنجد وادي زبيد وقد فاض، لكن مجراه كان ما يزال جافاً تماماً قرب المدينة، بينما فاضت بالقرب منه وديان متسعة ومحاطة بالسدود. وعلى ما يبدو فإنهم لا يدعون المياه تجري في الوادي قبل أن ترتوي الحقول تماماً، ويصنع الفلاحون تلك السدود بطريقة في منتهى البساطة، فبعد الانتهاء من

حراثة الأرض، يربطون لوحاً خشبياً إلى ثورين فيجرانه على الأرض، وعندما يمتلئ اللوح بالتراب يُفرغ في المكان المعد للسد الذي يتشكل من حمولات متكررة من التراب.

لم نتوقف أبداً إلا للراحة قليلاً في موشد (Mauschid)، ووصلنا إلى المخا في الخامس من أغسطس (آب) صباحاً. وقد وجدت أسباب تعجلنا في العودة إلى المدينة على تأكدنا من سفرنا في المركب الإنجليزي قريباً إلى الهند، لكن بعض المعوقات منعت المركب من مغادرة المخا، وكنا بالتالي متعجلين جداً للعودة تحت تلك السماء الحارقة التي لمسنا فعلياً آثارها الضارة الخطيرة، فقد أصابني الإعياء والمرض في الثامن من أغسطس (آب)، ولزم السيد باورينفايند (Baurenseind) سريره بعد ذلك بعدة أيام ومرض السيد كرامر ثم مرض الخدم الأوروبيون كلهم، ومن حسن حظنا أننا التقينا ثانية السيد سكوت (Scott) الذي وفر لنا مشروباً منعشاً أوروبياً شاف في مثل حالتنا أكثر من الأدوية قاطبة.

لكن تلك العلاجات لم تتمكن من القضاء على سبب الموت الذي يكبر ليحرمني بعد برهة من الوقت من كل رفاق رحلتي كما سأروي لكم هذا في حينه.

الفصل الثالث

مدينة المخا

تقع المدينة في أراض جدباء قاحلة للغاية. تتمثل تحصيناتها في الجدار المحيط بها وفي بعض الأبراج على طريق موزع التي يطلق عليها اسم القصور، وفي قصرين آخرين من نفس النوع إلى جانبي المرفأ. ويدعى أكبر القصور قلعة الطيار، بينما يدعى أصغرها قلعة عبد الرب، والطيار وعبد الرب هما وليان مدفونان في القصرين المجهزين ببعض المدافع.

بنيت بيوت المدينة من الحجارة حتى أن بعضها جميل جداً ومبني على طراز بناء بيوت صنعاء. في حين أن هناك الكثير من الجدران سواء في الداخل أو في الخارج التي تقترب أكثر من أكواخ تهامة العادية. وهناك عدد من البساتين الغناء المتناثرة بين أشجار النخيل التي تتوافر بكثرة في ضواحي المدينة.

إنني أستطيع التأكيد أن المخا مدينة حديثة لم توجد إلا منذ أربعة قرون، ويرجع أصلها كأغلبية مدن تهامة إلى ولي وهو الشيخ المشهور الشاذلي، الذي ذاعت شهرته حينئذ فكان الناس يأتون إليه من الأصقاع البعيدة لسماع تعاليمه، وبنى بعض المؤمنين به أكواخاً حول منسكه على شاطئ البحر، وتشكلت في ذلك المكان قرية أخذت تنمو شيئاً فشيئاً حتى صارت مدينة.

تشبه حكاية أصل المخا حتى الآن حكايات الكثير من مدن تهامة. لكن أصل المدينة رافقته ظروف خاصة جديرة بالذكر، بالاستناد إلى تقاليد العرب التي يبدو باطنها حقيقياً بينما تنبئ عن ميل هذه الأمة لكل ما هو خارق.

توجه ذات يوم مركب هندي إلى جدة فوصل إليها وألقى مرساته في مرفأها منذ أربعمائة عام. أثار الفضول أفراد طاقمه عندما رأوا كوخاً في تلك الصحراء المقفرة، فذهبوا لرؤيته وقام الشيخ باستقبالهم أحسن استقبال وقدم لهم القهوة فاستساغوا ذلك المشروب جداً ونسب الشيخ له فوائد ومنافع عديدة، أما الهنود الذين كانوا

يجهلون القهوة فقد نظروا إلى هذا الشراب الساخن على أنه عقار شاف يستطيع شفاء ربان سفينتهم العليل. إلا أن الشيخ الشاذلي أكد لهم أن بفضل صلواته واستخدام القهوة لن يشفى مريضهم فحسب بل إنه سيجني أرباحاً طائلة إذا أراد إنزال بضائعه في المخا. وقال متخذاً في صوته نبرة واثقة: ستُبنى في يوم من الأيام مدينة في هذا المكان وسيأتي إليها الهنود وستكون لهم فيها تجارة مربحة.

أما التاجر الذي صعقه هذا الخطاب الفريد، فقد طلب أن ينزل إلى البر ليرى عن كثب ذلك الرجل الخارق وليتحدث إليه. شرب قهوته فتحسنت صحته. وأتى عدد كبير من الناس في ذلك اليوم لسماع موعظة الشيخ الشهير، وكان معهم تجار اشتروا بضائع التاجر الهندي كاملة، فسُر هذا الأخير وعاد إلى الهند ليذيع صيت قداسة وطهارة الشيخ الشاذلي، مما دعا الكثير من الهنود بعده إلى التردد على ذلك المكان.

بني مسجد جميل على ضريح الشيخ الشاذلي وهو خارج المدينة حالياً، ويحمل اسمه باب للمدينة بالإضافة إلى النبع الذي يشرب الناس منه. ويكرم أفراد سلالته احتراماً وإجلالاً له ويحملون جميعاً اسم الشيخ، ويقسم الناس باسمه، ويمكن القول إن اسم الشاذلي لن ينسى أبداً طالما قامت لمدينة المخا قائمة.

وليس الشاذلي سيد وولي المخا وحسب بل إنه سيد مزارعي القهوة المسلمين أيضاً الذين يذكرونه في صلاتهم كل صباح. لا يبتهلون ويتضرعون إلى الله بل يشكرونه ويحمدونه على هداية الناس إلى استخدام القهوة بفضله، ويدعون أن يمن الله على الشيوخ وأبنائهم باليمن والبركة.

لقد فوجئت بوجهة نظر تاجر من مكة عندما حدثني وخاصة أنه مسلم: " يحتاج سواد الشعب إلى شيء ملموس ومحسوس يكرمونه ويخافونه ولذا فإن كل قسم في مكة المكرمة هو قسم باسم الرسول محمد بدل التوجه لله مباشرة. بينما لا أثق في المخا بأحد يؤكد لي أمراً ما ويتخذ من الله شاهداً على ما يقول، بل أستطيع تصديق من يقسم باسم الشيخ الشاذلي وهو يرى قبره ومسجده تحت ناظريه "[1].

(١) ثبُت النهي عن الحلف بغير الله تعالى في أحاديث كثيرة، وهو من الشرك الأصغر (المُراجع).

المخا هي آخر مدينة يمنية فقد الأتراك السيطرة عليها، فقد زعموا أن العرب لم يفتحوها بل اشتروها، وليس لها سيد إلا الإمام منذ أن تحررت من حكم الأتراك.

لقد قام بتحصين المدينة أحد الولاة بعد أن اغتنى في الحكم، وأحاطها بخندق لكنه ردم في الوقت الحاضر. وأثيرت الشكوك حول مشروع هذا الوالي وعزمه على الاستقلال، لكنهم وجدوا وسيلة للحد من نواياه، وزجوا به في السجن. ولم يشغل بعد ذلك أي وال هذا الكرسي المربح إلا مدة سنتين أو ثلاث سنوات. وكان عليه بعد الموسم أن يقدم حساباً للإمام عن إدارته وأن ينتظر رداً فيما إذا سيبقى على كرسيه أم يستدعى حالاً إلى صنعاء.

ولم يزعجني عدم استقرار مسيحيين شرقيين في المخا، لكننا نجد بعض اليهود الذين يسكنون قرية منفصلة، كيهود باقي المدن في اليمن. وفي المدينة ما يقارب ٧٠٠ بانيانيا وبعض الهنود الآخرين يعمل بعضهم بالتجارة، بينما يعيش البعض الآخر من ممارسة حرف مختلفة، وعندما يجمع أحدهم مبلغاً من المال يعود إلى بلده، ولهذا السبب ينظر إليهم دوماً على أنهم غرباء.

الفصل الرابع

الفرنسيون يقصفون المخا

لم أتمكن من معرفة شيء عن تاريخ تلك المدينة، ماخلا تلك الواقعة التي حدثت منذ ربع قرن. وسأرويها بالتفصيل بحسب تقرير العرب الذي يعطي فكرة عن قوة الإمام وسياسته.

كان حاكم المخا يأخذ بضائع هندية من المراكب الغريبة، تتجاوز قيمتها المبلغ الذي يفرضه الغرباء لرسوم الجمارك وللرسوم الأخرى. كان يأخذ البضائع لحساب الإمام، ويعد دوماً بتسديد هذه الديون بحسمها من رسوم العام المقبل. فتزايدت الديون ولم تسدد لأنه كان يأخذ بضائع جديدة باستمرار تحت الحساب. وعلى هذا صار للشركة الفرنسية في الهند ديون تقدر بـ ٨٢٠٠٠ وحدة نقدية توجب عليه دفعها.

وعندما أرادت الشركة الفرنسية تحصيل الديون دون أن تفقد تجارتها في المخا، أرفقت في عام ١٧٣٨ مراكب البضائع بمركب حربي، وأعلم الربان الحاكم منذ وصوله أنهم أتوا لبيع بضاعتهم، لكنهم لن يطؤوا اليابسة قبل أن تُسدّد الديون كلها. وبذل الحاكم ما بوسعه محاولاً إلهاءهم بالكلام المعسول ليجبرهم على إنزال بضائعهم. لكن الفرنسيين أرادوا إظهار ما يستطيعون القيام به فقاموا بضرب مدفعية القصر الكبير فبدأ يشعر العرب بخطر حقيقي محدق بهم.

وعاد الطرفان للحوار بعد تلك الإرسالية واعتذر الحاكم قائلا إن لا مال له ولا أمر من الإمام يخوله بدفع ديونه، وطلب مهلة أسبوعين كي تصله أوامر صنعاء. وانتهت المهلة بلا جواب من طرف الحاكم، فألقى الفرنسيون قنبلة على منزله راح ضحيتها رجل عربي، فلم يثمر ذلك الإنذار، فألقوا من جديد في يوم جمعة بعض القنابل على الجامع عندما كان الإمام يصلي فيه، فقتل بعض الأشخاص. ولقد نفد صبر الناس الذين راح من بينهم عدد كبير ضحية ديون سيدهم، فأجبروا الحاكم على اتخاذ التدابير اللازمة لتهدئة العدو.

وبعد توقيع الاتفاقية أنزل الفرنسيون فوراً بضائعهم وتابعوا تجارتهم كما كانت من قبل. وفقدوا فقط رجلاً واحداً من طاقمهم كان نائماً أمام باب بيته في المدينة، فقد طعنه جندي عربي مات أحد والديه في انفجار قنبلة، ظاناً أنه ثأر بذلك لفقيده.

بذل الحاكم كل ما بوسعه لخدمة سيده، بالرغم من أنه كان في حالة لا تمكنه من الدفاع عن النفس. لكن الإمام الذي لم يكن راضياً عنه فقد استدعاه وصادر القصر الذي يمتلكه في صنعاء. أما تاجر المخا الذي دفع مبالغ طائلة لإرضاء الفرنسيين، فلم تسدد له المبالغ حتى الآن. ويتذكر بفخر الكثير من العرب تلك الحرب، ويتذكرون بسرور قدور النار كما قالوا لي التي لاحقت الحاكم في كل مكان. ومنذ ذلك الحين شكل العرب فكرة راسخة حول مهارات الأوروبيين الحربية. في مدينة تركية أخرى، لن تكون الأمم المسيحية الأخرى خلال فترة نزاع كهذه في منأى عن غضب الناس وكرههم. بينما تمتع الإنجليز والهولنديون في المخا بأمن تام رغم الحرب مع الفرنسيين.

الفصل الخامس

التجارة في المخا

كانت العديد من الأمم التي لم تعد تتردد بعد على ميناء المخا، تمارس التجارة فيها في الماضي، وفقد البرتغاليون الذين كان لهم نفوذ عظيم منذ قرنين، عادة إرسال المراكب إليها منذ زمن طويل. ونادراً ما يأتي إليها الهولنديون، أما الفرنسيون فلم نراهم فيها زمن الحرب بالرغم من أنهم استمروا في دفع أجرة مخازنهم. أما الإنجليز فهم من استولى اليوم على التجارة كلها تقريباً في هذا المكان. لا ترسل في الواقع حملتهم في الهند إلا مركباً كل سنتين لتحميل القهوة. لكن التجار المستقلين المقيمين في الهند يمارسون تجارة رابحة مماثلة.

وقد أتى إلى المخا هذا العام خمسة مراكب إنجليزية من مرافئ هندية مختلفة، دون حساب الثلاثة الأخرى المتوجهة مباشرة إلى جدة. غادر الإنجليز كلهم مع مراكبهم منذ أن تعرض أحد تجارهم المقيمين في المخا لسوء معاملة الناس له خلال غياب المراكب، وتركوا أمتعتهم في عهدة سمسار بانياني.

اضطرت الجمارك بسبب التجارة الهامة في المخا أن يقدموا للإمام عائدات كبيرة، وكان على الأتراك والعرب والهنود حمل بضاعتهم إلى المكتب لتفتيشها ومن ثم دفع ٨ إلى ١٠٪ من قيمتها، تبعاً للضريبة التي يفرضها الموظفون فرضاً عشوائياً.

لقد حظي الأوروبيون بتفتيش بضاعتهم في مخازنها وبدفع ٣٪ فقط من قيمتها بغض النظر عن البلد الذي أتت منه البضاعة. ومنذ أن أصبح الإنجليز ذوي نفوذ هام في بلاد البنغال وحملوا البضائع من الهند التي كان الهنود يأتون بها فيما مضى، أصبحوا يدفعون ٣٪ من قيمة البضاعة.

لكن الحكومة ولكي تحفظ المعاهدات دون أن تفقد شيئاً من حقوقها القديمة، أجبرت تجار المخا على دفع نسبة ٥٪ أيضاً من قيمة البضائع الهندية التي يشترونها.

وبالإضافة للرسوم التي تفرضها الجمارك، تدفع المراكب رسم الإرساء الذي يصل إلى بعض مئات الوحدات النقدية، يحدد ذلك الرسم حسب عدد الصواري وليس حسب ضخامة المركب. بينما يتلقى أي تاجر في المخا مبلغ ٤٠٠ وحدة نقدية من الحاكم كجائزة إذا حمّل مركباً كبيراً أوروبياً بحبوب القهوة.

وحسب شهادات العرب فإن المواسم منتظمة في هذه البقاع. وتسود الرياح الشمالية خلال ستة أشهر، بينما تسود الرياح الجنوبية طيلة الستة أشهر الأخرى. ولا يجب الظن أنهم يعرفون هنا أسماء رياح أخرى، ففي شهر أغسطس (آب) تحديداً تعصف رياح من كل الاتجاهات وقد أجبرت مركباً متوجهاً إلى جدة على العودة إلى المخا والانتظار فيها عدة أشهر بانتظار عودة الرياح المواتية.

ليس في حوزة العرب أية بضاعة أخرى تقريباً للتصدير إلا القهوة وليس الهنود من محبيها ومفضليها، ولذلك كانت المراكب الإنجليزية تعود إلى الهند فارغة، ولو لم يربح الإنجليز الكثير من المال كفوائد يجنونها من الأموال التي كانت في عهدتهم لنقلها إلى الهند. فقد حمّل التجار العرب على متن مركب إنجليزي قادم من جدة مليون وحدة نقدية، كما حملوا على متن المركب الذي أبحرنا معه ٢٥٠٠٠٠ وحدة نقدية.

اقتصرت كل تلك المبالغ على النقد الأوروبي من دوقة البندقية والنقد الألماني، ويمكن لنا أن نتصور أن المراكب الأخرى الإنجليزية والهندية لن تترك لتحمل كل هذه الأموال الطائلة من جدة والمخا. فقد حملت أيضاً مراكب بصرة الذاهبة إلى الهند مالاً مشابهاً أتى من أوروبا إلى تركيا. وعندما نحصي أيضاً الأنواع الأخرى التي تحملها الأمم الأوروبية مباشرة إلى بلاد الهند والصين، نرى جيداً أنه وبدون الثروات التي تصلنا من أمريكا، لخلت أوروبا منذ زمن بعيد من الذهب والفضة.

عندما يصل مركب أجنبي إلى ميناء المخا فإنه لا يجرؤ على التحية بإطلاق مدفعي بل عليه أن يرفع رايته. فيرسل الحاكم قارباً ليتعرف إليه ويستعلم عن سبب قدومه، وإذا سببوا للمركب بعض المشكلات، فليس أمام ربانه إلا أن يقول إنه متجه إلى

الحديدة أو اللحية، فيعود الحاكم إلى رشده لأنه لا يحب خسارة الهدايا التي يتلقاها من كل مركب. وليس من الصعب الحصول على الامتيازات التي يتمتع بها الإنجليز حالياً في المخا، لكن أمة ليس لها على الإطلاق مؤسسات في الهند لا يمكن لها ممارسة التجارة الرابحة في شواطئ البحر الأحمر. لا يستخدم العرب على الإطلاق منتجات أوروبا، لذا يجب تزويدهم بالبضائع الآتية من الهند وتحميل المراكب في طريق العودة بالقهوة التي يمكننا الحصول عليها بأرخص الأسعار كيلا تعود فارغة. تستهلك الجزيرة العربية في واقع الأمر الكثير من الحديد الذي يشتري الإنجليز جزءاً كبيراً منه من الدانماركيين. وبالتالي فمن المحتمل أن تجد الدانمارك صالحها في المتاجرة بمنتجاتها الوطنية مباشرة وبمنتجات مستعمراتها، بين ترانكبار (Tranquebar) والمخا.

ولن نخرج عن الموضوع إذا أضفنا لمحة سريعة عن طبائع السماسرة من بلدان مختلفة. فلن يستطيع أجنبي أن يكون حذراً متنبهاً من السماسرة المسلمين، ويجد أن من صالحه التعامل مع البانيانين فمنهم تجار كبار في غاية النزاهة والاستقامة. ففي كل بلدان المشرق تسيء دناءة التجار المسلمين للنصارى الذين احتال عليهم هؤلاء التجار فيخشون حقدهم وضغينتهم، وفي حال زلت ألسن هؤلاء الغرباء في فورة غضب بشتيمة أو سباب، ثارت ثائرة هؤلاء المحتالين بحجة أنهم قالوا كلاماً مسيئاً عن الديانة الإسلامية، وهددوا بالشكوى للقاضي. واضطر بعض الأوروبيين لدفع مبالغ من المال تحاشياً للنزاعات مع هؤلاء المحتالين البائسين الذين انخدعوا بهم.

لوحة من معبد هندي من جزيرة الفيل (Elephanta)

القسم السادس عشر
وصف الجزيرة العربية

الفصل الأول

وصف الجزيرة العربية

رغم أن الإنسان قد عاش في مجتمعات من المحتمل أن تكون متقدمة ومتطورة، ورغم أنه قد خنق بفنه الطبيعة أو غطاها بأقنعة، إلا أنه لم ينس أبداً وجهته الأولى. فهو يعشق صورة الحرية والاستقلال والبساطة التي كان عليها أن ترافق وجوده في كل مكان والتي فقدها، ويروق له أن يجد الصورة التي يبحث عنها حتى في تصورات الشعر الرعوي. ولا يتردد في العودة إلى الأزمنة السحيقة، حيث يستطيع أن يميز بين بقايا العالم البدائي لوحة تقاليد طبيعية له، أما الثورات التي تعرض لها الجنس البشري فلم تتبدل وتفسد بعد، دون أن يميز بوضوح أسباب سعادته، ويسحره دوماً أن يجد على الأقل ظلال حقوقه القديمة والسعادة التي خلق في الأصل من أجلها. وإن كان هناك شعب يستطيع أن يقدم لنا لوحة من هذا النوع تجمع بين الميزتين: القدم وبساطة التقاليد، فهم العرب بلا أدنى شك، فحين تعيش معهم تظن أنك انتقلت فجأة إلى تلك العصور الغابرة، فقد واكبوا من بعيد تجدد عالمنا الحالي. كما أنك تظن نفسك أيضاً وسط هؤلاء الشيوخ وسرعان ما تهز أدمغتنا الشابة حياتهم الخارقة، واللغة المحكية منذ أزمان لا تعيها الذاكرة، هذه اللغة التي تكمل معالجة هذا الوهم الممتع، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكل ما نراه يعود إلى أقدم العصور.ولم تتردد بلاد تسكنها هذه الأمة في تقديم فرائد هامة لنا. وقد قطعتها صحاري رملية وتخللتها سلاسل جبلية كبيرة، كما وتقدم لنا هذه البلاد من جهة، الموحش والمقفر بكل ما لديه من رهيب ومخيف، ومن جهة طراوة المناطق الخصبة التي تجمع بسبب موقعها ميزات المناطق الحارة والمعتدلة، وتعطي أيضاً محاصيل أصقاع بعيدة من الكرة الأرضية لم يفتحها فاتح، ولا تقدم لنا إلا التغيرات التي صنعتها يد الطبيعة، ونادرًا ما صنعتها يد الإنسان في فورات هيجانه مخرباً بذلك النظام العام. بالرغم من تلك الميزات المثيرة للفضول التي تنفرد بها الجزيرة العربية، بقيت البلاد على مر الأزمان مجهولة، أما القدماء الذين اعتادوا على الاكتشافات عن طريق الفتوحات فلم تسترعِ انتباههم أبداً خصوصيات بلد لم تدخل إليه أسلحتهم.

وما يخبرنا به المؤلفون اليونان واللاتين عن العرب غامض للغاية يكشف عن جهلهم بكل ما يتعلق بهذه الأمة. أما في المؤلفات المعاصرة، فقد تمخض الجهل نفسه عن أفكار مسبقة تدور حول صعوبات السفر وأخطاره إلى الجزيرة العربية، وستتاح لي الفرصة في الوقوف على حقيقة هي أن أفضل علماء الجغرافيا لدينا كانوا قد حشوا مؤلفاتهم بأخطاء حول مواضيع أساسية كخضوع العرب على سبيل المثال للأتراك والفرس.

وأمام كل هذه الاعتبارات، أعتقد أن من واجبي تقديم وصف شامل لبلد وشعب جدير أن نتعرف عليه. تكلمت أثناء رحلتي عما شاهدته بأم عيني، لكن وبسبب إقامتي القصيرة في الجزيرة العربية، فإنني لم أتمكن إلا من زيارة عدد صغير من مناطق هذه البلاد الواسعة. وجهدت في الحصول على إيضاحات حول ما تبقى من أشخاص عرب مثقفين وموضع ثقة وقد وجدت لاستشارتهم سبيلاً. وأنجدني بشكل رئيس أهل الأدب والتجار فقد كانوا مؤهلين وفي وضع يمكنهم من إمدادي بالمعلومات أكثر من الناس المحليين والمنشغلين فقط بأمورهم الحياتية والمتحفظين بالفطرة. ويبدو لي أن هذه الطريقة قد أتت ببعض الثمار، ولن أُزاوج بين ما رأيته وما سمعت به من شهادة عامة أدلى بها أناس على قدر من المعرفة في البلاد. وسأجد فرصة مناسبة لسرد بعض الخصائص التي لم آت عليها في روايتي لرحلتي، دون أن أقطع خط السرد وأعطل مجراه. وسيجد القارئ نفسه في كل الأحوال وقد روى ظمأه وتعطشه للمعرفة وهو يرى تحت ناظريه لوحة شكلتها جمهرة من سبل شتى، بحيث تقدم له هذه التركيبة تجسيداً وتصويراً للبلاد وسكانها. ورغبت لو استطعت إضافة نبذة عن تاريخ تلك الأمة المنعزلة، وسط العديد من الأمم التي تحيط بها، لكن تعذر علي إرضاء رغبتي هذه. فبلاد الشرق تفتقر للمكتبات والعلماء المتعمقين تعمقاً بالغاً، في حين يستطيع أي رحالة العثور على مثل هذه المصادر بوفرة في أوروبا. وبالرغم من وجود علماء تاريخ من العرب القدماء، لكن نسخ مؤلفاتهم نادرة جداً حسب ما علمته في القاهرة والمخا. وعليك أيضاً أن تكلف نفسك مشقة البحث عنهم فهم غير معروفين في أوروبا، ولن يأتي بحث كهذا حسب ما رأيت بفوائد جمة. فتلك المؤلفات تلقي الضوء على العديد من الحقب التاريخية للشعوب القديمة.

الفصل الثاني

اتساع الجزيرة العربية وتقسيمها

الجزيرة العربية هي شبه جزيرة العرب التي يكونها البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي.ويبدو أن الأقدمين قد فهموا من اسم الجزيرة العربية كل تلك المساحة التي تنحصر بين هذه البحار، والخط الواصل بين طرف الخليج العربي و طرف البحر الأحمر. إلا أن هذا الخط المرسوم كان بسبب جهل الأقدمين ونظرهم إلى نسب الشعوب لا للحدود الواقعية. ومهما يكن الأمر من تلك التخوم والحدود، يجب علينا اليوم أن نعطي للجزيرة العربية مساحة أكبر. ففتوحات العرب في سوريا وفلسطين كان عليها أن ترى صحاري هذه البلدان تنتسب للجزيرة العربية، وبهذه الطريقة فإنها تتاخم نهر الفرات من جهة وخليج السويس من جهة أخرى. ولا يجب إدراج البلاد التي أقامت فيها الشعوب على شكل مستعمرات أو فتوحات. والعرب هم الأمة التي انتشرت انتشاراً واسعاً وصل إلى أبعد البلدان، واحتفظت بالرغم من تنقلها المتعدد احتفاظاً جيداً بلغتها وعاداتها وتقاليدها. ونجد لها مستعمرات من الشرق إلى الغرب، من حدود السنغال إلى حدود الهندوس. ومن الشمال إلى الجنوب من نهر الفرات حتى جزيرة مدغشقر. ولم تحتل جموع وفرق التتار مساحات أكبر. وتفصل في الواقع السنغال زنوج الشعوب السمراء فقط. فساحلها من جهة اليمين تسكنه قبائل عربية من البدو الرحل التي كانت تعيش في الخيام. وتضم مرتفعات المغرب وبلاد البربر عدداً من قبائل أخرى من نفس الأمة، الذين انتشروا في أفريقيا حسب ما يبدو بسبب فتوحات الخلفاء الراشدين. ويرأس كل تلك القبائل شيوخ منها يتحدثون اللغة العربية ولهم عادات وتقاليد باقي الأمة التي ينتسبون إليها. كما يمكن اعتبارهم حلفاء لها أكثر من اعتبارهم رعايا مختلف الحكومات والبلدان التي يقيمون على أراضيها. وعلى طول الساحل الشرقي الأفريقي، حيث انتشر العرب حتى موزمبيق، وعدد من حكام الدول الواقعة على هذه السواحل كانوا على الأقل من هذه الأمة. كما استولوا على جزر القمر وجزء من جزيرة مدغشقر، حيث ما تزال مستعمراتهم قائمة حتى اليوم. وبما أنني لم

أتمكن من الحصول على معلومات خاصة تتعلق بهذه القبائل المتناثرة في أفريقيا. فانني لن أتحدث عنها. كما لن أتحدث كثيراً عن عرب مصر، فذلك موضوع تحدثت عنه في وصفي لرحلتي إلى تلك البلاد. ولن أتحدث أيضاً عن المستعمرات المزعومة في الحبشة، ولا عن الرأي القائل إن الحبشيين انحدروا من سلالات سكان الجزيرة العربية. فرأي بعض العلماء هذا يستند إلى احتمالات طفيفة سطحية وغير أكيدة، لدرجة لا تستحق أن نتكلف مشقة مناقشتها.

لكن علي ألا أضع طي الكتمان مستعمرات أكثر أهمية، وبالرغم من أنها تقع خارج شبه الجزيرة العربية. لكنها تتعلق بها عن كثب. وهي المستعمرات الواقعة على السواحل الجنوبية لبلاد الفرس، والحليفة بشكل طبيعي وأحياناً الخاضعة لسيادة الدويلات العربية المجاورة. وهناك دلائل من كل الأنواع تشير إلى أن هذه القبائل قد سكنت على سواحل الخليج العربي قبل فتوحات الخلفاء الراشدين، كما احتفظت أيضاً باستقلالها على الدوام. ومن السخرية أن يكون علماء الجغرافيا عندنا قد جعلوا جزءاً من الجزيرة العربية يخضع لملوك فارس، في حين لم يكن في يوم من الأيام هؤلاء الملوك سادة السواحل في بلادهم على الأقل. والتي كانت تحت سيطرة العرب منذ أمد طويل. وللتمعن بالنظام الأكثر قرباً للطبيعة في خريطة الجغرافيا التي رسمتها، احتفظت بتقسيم الجزيرة العربية الذي يستخدمه السكان. فهم يقسمون أراضيهم إلى ستة مناطق كبرى :

١) الحجاز الممتدة على طول البحر الأحمر من سيناء حتى اليمن وتمتد أراضيها حتى منطقة نجد.

٢) اليمن بشكل عام، ويمكن أن نقسمها إلى دويلات إمام صنعاء، وهي منطقة تمتد من حدود الحجاز على طول البحر الأحمر والمحيط الهندي وصولاً إلى حضرموت، وتحدها من الشمال نجد.

٣) حضرموت على سواحل المحيط الهندي والمتاخمة لليمن من جهة عُمان من جهة أخرى وتحدها من الشمال نجد.

٤) عُمان أيضاً على ساحل المحيط الهندي وتحتضنه مناطق حضرموت والإحساء ونجد.

٥) الإحساء الممتدة على طول الخليج العربي وتتاخم نجد من الداخل.

٦) نجد وتمتد على كل المنطقة الداخلية من البلاد وتحدها المناطق الخمس السابق ذكرها، حدودها الشمالية أراض يحتلها العرب في الصحراء السورية. ويمكن اعتبارها المنطقة السابعة ونضيف وصف ما أقامه العرب على الساحل الجنوبي لبلاد فارس. كانت منطقة اليمن وحضرموت تعرف قديماً باسم اليمن السعيد "العربية السعيدة"، ولكن هذه التسمية غير متعارف عليها بين العرب، لذا أظن أنني لن آخذ أبداً بعين الإعتبار هذا التقسيم التعسفي.

الفصل الثالث

عن الثورات في الجزيرة العربية

كل ما نعرفه فيما يخص أقدم الحقب من تاريخ هذه المنطقة، هي أنها كانت تحت سيادة ملوك عظام كانوا يسمون تبابعة "جمع تُبّع". ويعتبر هذا اللقب عاماً لكل الملوك واسماً ندعوهم به، مثله مثل اسم فرعون عند المصريين. إلا أن للعلماء العرب تقليدًا يوضح ويفصل قصة هؤلاء الملوك، يستحق أن نقف عنده. فهم يدّعون معرفتهم من خلال الآثار القديمة تُبّع كان اسم أسرة هؤلاء الملوك الذين أتوا من نواحي سمرقند وهم من عبدة النار، وقد استعمروا الجزيرة العربية وحملوا إليها الحضارة، ويتوافق هذا التقليد توافقاً تاماً مع نظرية محتملة لكاتب عبقري حول أضواء وحضارة شعوب جنوبية من أمة سكنت قديماً في جزء من بلاد التتار الواقعة في سمرقند. وأتيحت لي الفرصة كي أدرس هذه الملحوظة التي بدت لي تدعم تلك النظرية. فقد جاب رحالة هولندي في أوقات عديدة الجزيرة العربية، وأطلعني في المخا على مخطوط كتب بحروف فريدة وغريبة كان قد وجده في منطقة بعيدة عن السواحل. أي ضرب من الجنون مسني فلم أنسخ ذلك المخطوط ، لكن الأشكال الغريبة لتلك الأحرف المرسومة بخطوط مستقيمة، حُفرت حفراً عميقاً في ذاكرتي، حتى أنني تعرفت عند عودتي إلى الأبجدية هذه نفسها في مخطوطات بيرسابوليس. والتقليد في بلاد فارس يروي أن الفاتح الذي بنى بيرسابوليس كان أصله أيضاً من نواحي سمرقند، وعلى هذا النحو يبدو أن الفرس والعرب كان لهم ملوك انحدروا من الأمة ذاتها، وتكلموا اللغة نفسها أو استخدموا على الأقل الحروف عينها. وبغض النظر عن أصول هؤلاء الملوك، فإن جملة من الدلائل تشير إلى أن العرب قد لعبوا دوراً هاماً في الأزمنة السحيقة، لكن ثوراتهم لم تصل إلى مسامع الأجيال التي جاءت بعدهم، ولا يمكننا الشك بأنهم لم يحتلوا مصر قبل الفترة التي تزامنت مع بدء التاريخ القديم مما نقله لنا اليونانيون. وكل ما يرويه المؤرخون عن هؤلاء الملوك الرعاة، لا يمكنه أن ينطبق إلا على فاتحين عرب. وكذلك الأمر فدولة الهكسوس المشهورة لا يمكنها أن تكون إلا قبيلة من هذه الأمة، والتي بعد أن طردت

سكانها هؤلاء استطاعت الاستمرار على مدى عدة قرون، في أراض تنضح بالنعم في شمال مصر. ومن المؤكد أن معظم هذه الشعوب كانوا من القبائل العربية، ويدل تاريخ اليهود بكثرة على أنهم كانوا في نزاع مستمر مع جوارهم القلق، بل إنهم كانوا يسيطرون عليه في بعض الأحيان. يمكننا الذهاب إلى أبعد من ذلك والشك أن هؤلاء اليهود كانوا قريبين من العرب ولهم أصول ترجع إلى نسل انحدر يوماً من هذه الأمة المشهورة.

أحداث هذه الأمة التي جرت أيام الإمارات الفارسية واليونانية والرومانية، بقيت أحداثاً مجهولة في طي الكتمان تنحصر في بعض المحاولات الصغيرة للشعوب المحتلة في إخضاع الجزيرة العربية، لكنها باءت دوماً بالفشل، أو نجحت لوقت قصير في إخضاع بعض القبائل المقيمة في المدن الساحلية على البحر الأحمر أو في تخوم سوريا. ويبدو أن الجزيرة العربية كانت منطقة غنية وهامة أيام المصريين القدماء، وقد أعطى كرههم ونفورهم من البحر الفرصة للعرب في القيام وحدهم بالتجارة مع الجزر الهندية عبر الخليج العربي. وبما أن التجارة أخذت مجراها على هذا النحو، فقد استمرت ودامت تحت حكم البطالسة والرومان واليونان وخلفاء مصر. لكن اكتشاف طريق تجارة جديد مع الهند حرم الجزيرة العربية حرماناً كاملاً من هذه الميزة وأدى إلى خراب عدد كبير من المدن التي ازدهرت وتألقت في الماضي. لقد تزامنت سيطرة ملوك حميّر على جزء كبير من الجزيرة العربية على ما يبدو مع القرنين الذهبيين لهذه الأمة، وقد لف ظلام دامس تاريخ هؤلاء الملوك حتى أننا نجهل شعوبهم وأصولهم، ومن المحتمل أنهم لم يكونوا أهلاً لهذا التاريخ. ولا ندري بالتالي في أية حقبة نضع اجتياح الحبشيين الذي تحدث عنه بعض المؤرخين. يمكن أن يكون هذا الشعب قد غزا العرب لردهم إلى الديانة المسيحية. حتى قيل إنه بعد أن أخضعوا جزءاً من الجزيرة العربية نجحوا أيضاً في تحقيق هدفهم فامتلأت المنطقة بالمسيحيين، إلا أن ظروف هذا الحدث غامضة للغاية ويتخللها بعض من الخرافة مما يدفعنا للشك بحقيقته أو على الأقل الشك بأسبابه. وهناك حقبة أكثر مصداقية وأشد أهمية هي الدعوة التي قام بها النبي محمد على الصعيد الديني والسياسي لجماعته، وقد استخدم هذا الفاتح السعيد خلفاءه،

سواعد بني ملته للقيام بفتوحات في بلاد بعيدة. لكنه لم يتمكن هو أو أي من خلفائه من حكم الأمة كاملة. فقد احتفظ عدد من الحكام داخل البلاد باستقلالهم دون أية مراعاة أو اعتبار للخلفاء فيما عدا التقدير المفروض عليهم تجاه سيد الديانة الإسلامية. فانحصرت سلطة الخليفة بالسلطة الروحية باستثناء جزء من السواحل كان يقع تحت سيطرته و يعترف بسيادته المباشرة. فبعد أن قضى الأتراك على سيادة الخليفة زعزع الجزيرة العربية الحكم الخارجي وخضعت كما خضعت في الماضي لعدد من الأمراء عظمت هيمنتهم أم ضعفت وقد انحدروا من أسر مختلفة. ولم تعمل أي من القوى المجاورة على السيطرة على المنطقة حتى وصول البرتغاليين إلى الجزر الهندية والبحر الأحمر. وعندما أراد سلطان مصر الغوري في بداية القرن السادس عشر التخلص من هؤلاء القادمين الجدد الذين شكلوا بالنسبة له خطراً داهماً، أرسل أسطولاً لطرد البرتغاليين. لكن الأسطول استفاد من الفرصة واحتل كل المدن البحرية في الجزيرة العربية. ولكن وبسبب سقوط المماليك على يد الأتراك عادت تلك المدن لتنضوي من جديد تحت سيطرة حكامها الطبيعيين والأصليين. استمر الأتراك في حربهم ضد البرتغاليين لتوفير الأمن لأرضهم الجديدة المفتوحة ألا وهي مصر. وقام سليمان باشا على رأس أسطول تركي هائل محتذياً مثال آخر السلاطين المماليك واحتل كل المدن على طول البحر الأحمر، وذهب خلفاؤه إلى أبعد من ذلك في فتوحاتهم، واحتلوا قسماً كبيراً من اليمن وكادوا ان يصلوا إلى المناطق الجبلية، وبذلك أصبحت الجزيرة العربية كلها تقريباً تحت سيادة السلطان التركي في القسطنطينية، ويحكمها باشاوات كمثل باقي مناطق الإمبراطورية العثمانية. إلا أنه وفي المناطق الداخلية بقي هناك الكثير من الأمراء والشيوخ المستقلين ممن لم يُسيطر عليهم، ولم يتوقفوا عن الاعتداء على الأتراك ومطاردتهم والدفع بهم باتجاه البحر. وفي منتصف القرن الماضي توصل الإمام الحالي في صنعاء وبفضل جهود متكررة إلى طرد الأتراك بالكامل من كل الأماكن التي استولوا عليها منذ أكثر من مائة عام. وبذلك لم يعد الأتراك يسيطرون على أي شيء في هذه البلاد. فيما عدا سلطة ضعيفة مؤقتة في جدّة وحدها، ومن العبث اعتبار الجزيرة العربية في عداد الأراضي العثمانية، في حال كانت تتمتع بالاستقلال التام بعيداً عن

كل سيطرة خارجية. شعب كالعرب انعزل عزلة كاملة منذ أزمنة سحيقة، لم يسجل في صفحات التاريخ ما يستحق تسجيله من التغييرات الهامة. وقد انحصرت الأحداث في بعض فتوحات وحروب صغيرة استطاع القيام بها حكام صغار، لذا فإنني لن أتطرق إليها، إلا أنني سأذكرها في وصفي لكل منطقة بشكل خاص، إذا كانت تنفرد بحدث متميز أو تؤثر على تجارة الدول الأخرى.

الفصل الرابع

نبذة عن الحكم عند العرب

أكثر أشكال السلطة الطبيعية هي السلطة التي يمارسها الأب على أسرته؛ لأن الطاعة تُبنى على الاقتناع بحسن نية الآمر، بعد الثورات التي عانى منها الكوكب الأزرق، نجد أن فلول الجنس البشري البائس تتشابه، وتترك كل أسرة زمام قيادتها لمن كان السبب في وجودها. وعندما تتكاثر تلك الأسر تحتفظ الفروع بنوع من التقديس للأصول المعنية بحفظ نوع هذه الذرية، والتي مهما انقسمت مع الوقت بقيت تتمسك بأصلها الواحد، مجموعة الأسر ذات الأصل الواحد تشكل ما ندعوه القبيلة. كان يسهل على كبير الفرع الأول أن يتمتع بسلطة تستمد قوتها من السلطة الأبوية، وأن يرأس القبيلة. وفي بعض الأحيان تصبح الأسرة كبيرة جداً فتنقسم إلى أسر أخرى وتشكل قبيلة جديدة. وفي أحيان أخرى تجد بعض القبائل نفسها غيرجديرة بالدفاع عن النفس ضد عدو قوي فتتحد في قبيلة واحدة وتختار لها شيخاً مشتركاً. وحصل أيضاً أن أجبرت قبيلة ذات بأس ونفوذ قبائل ضعيفة على الخضوع لها، أمر نادر أن يتحول إلى قسر واستعباد. وهذا الشكل البدائي في الحكم والمعمول به دون توقف عند العرب، يبرهن على عراقتهم ويبرز أهمية حكمهم الحالي. وقد احتفظ هذا الشكل بنقائه الكامل عند البدو. بينما عانى من بعض التغيرات في مناطق أخرى من الجزيرة العربية دون أن يتغير في جوهره تغيراً تاماً، وسيسمح لي فيما بعد بالمرور على الاختلافات الموجودة فيه عند وصفي لكل منطقة. وسأكتفي الآن ببعض الملحوظات العامة حول ماهية الحكم في الجزيرة العربية. وأما البدو أو العرب الرعاة الذين يعيشون في الخيام فهم لفيف من الشيوخ يحكم كل منهم أسرته أو عشيرته حكماً يكاد يكون حكماً مطلقاً. ويعترف كل أفراد القبيلة الواحدة بسيادة رئيس عليهم هو الشيخ، أما شيخ الشيوخ أو الشيخ الكبير فسلطته تحددها العادات، واحترامه وتقديره متوارث في العشيرة، لكن الشيوخ التابعين يختارون من أسرة الفقيد أكثر الشيوخ حنكة ومقدرة على الحكم دون النظر إلى الابن البكر أو إلى التوالي المباشر، حق الانتخاب هذا بالإضافة إلى حقوق وامتيازات أخرى

تجبر الشيخ الكبير على أن يعتبر باقي الشيوخ شركاءً وليسوا أتباعًا له، وأن يتقاسم معهم السلطة الحاكمة، فروح الحرية التي تسود هذا الشعب المحارب تجعل الخضوع عنده أمراً مستحيلاً. وهذه الروح تسود بصورة أضعف مع العرب الفلاحين أو سكان المدن، فيصبح من السهل إخضاعهم.

ففي المناطق الخصبة من هذه المنطقة، تشكلت عبر كل العصور إمارات مختلفة الامتداد بسبب الفتوحات أو بسبب أحكام دينية مسبقة. كما هو اليوم حال شريف مكة وأئمة صنعاء ومسقط وبعض أمراء حضرموت. وبالرغم من أن هذه الدول محمية بسلاسل جبلية إلا أننا مانزال نجد فيها حتى اليوم بعض الشيوخ المستقلين. وبالرغم من كثرة عدد الذين يسودون مناطق داخل دولة سيد ما قوي وذي نفوذ، إلا أن الحكم ليس حكماً إقطاعياً البتة. ولا يمتلك الشيوخ أبدًا اقطاعات وليس لهم إلا نوع الميزة على أفراد قبيلتهم. الذين يبدون هم أيضاً من أفراد الحاكم العشائريين فهم يسكنون في أراضي الدولة وليسوا من أبنائها في الواقع بل يتمتعون باستقلالهم. وما الضريبة التي يدفعونها إلا مقابل استغلال الأرض التي يستخدمونها وكأنهم مزارعون فيها وهذا ما يفعله الشيوخ المقيمون في سوريا ومصر وفي امتداد جبل الأطلسي برمته. وأمة تتمتع بهذه الخاصية لا تقع بسهولة في أيدي قوة عبثية. ولم يزحف الطغيان والاستبداد إلى الجزيرة العربية إلا لخدمة الحكومة التيوقراطية، والتي سبّبها الأئمة الذين عرفوا بأنهم من آل بيت الرسول وأنهم خلفاء له، واعترف الناس لهم بسيادة روحية وزمنية في مناطق حكمهم، وقد استغلوا تقديس الناس لهم ولشخصهم وتمادوا في سلطتهم. إن طبع الشعب والعادات وحتى الديانة نفسها جعلت هؤلاء الأئمة قادة مطلقين، هذه العوامل الثلاثة كانت بمثابة حواجز أمام استبداد الأئمة وأجبرتهم على الاعتدال في قيادة دفة الحكم. ولم يفكر العرب يوماً في إقامة جمهورية. فهذا النوع من الحكم ليس نتيجة للأشكال البسيطة، بل إنه يعود بجذوره إلى تعب ونفاد صبر الشعوب التي عانت طويلاً من إهانات وانتهاكات الحكم التعسفي، وأحياناً من تضافر جهود طارئة لعدد من الأشخاص لا تجمع بينهم صلة الرحم. ولم تكن المناطق أو المقاطعات المتحدة التابعة لقبيلتي حاشد وبكيل دولة فيدرالية بل تجمع مؤلفاً من عدة حكام لتوحيد القوى ضد عدو واحد. وحكمهم يشبه الحكم الألماني وليس الحكم السويسري، أو المقاطعات المتحدة. نعرف النزر اليسير الحسن عما يتعلق بدولة البرافا الشهيرة على

السواحل الشرقية من أفريقيا، ويمكن أن نخلص إلى أنها أيضاً اتحاد بين الشيوخ العرب أقيم على هذا الساحل. يحكم اليهود الذين يشغلون قسماً من منطقة الحجاز شيخ وريث مستقل عن الحجاز، تبنى أيضاً هؤلاء اليهود المنفصلون عن بني أمتهم منذ عدة قرون نظام حكم على غرار جيرانهم. وقد أدى تعدد هؤلاء الحكام الصغار إلى العديد من المنغصات. وذلك بسبب الحروب التي تواترت وكثرت بين الدويلات المتجاورة وصولاً إلى مراكزها، كما أن لحكامها مصالح مختلفة كثيرة يدافعون عنها. لحسن الحظ لم تكن لتلك النزاعات نتائج خطيرة، إذ ينسحب جيش عربي مؤلف من أكثر من ألف شخص يظن أنه خاسر إن فقد سبع أو ثمان معارك وتخمد النزاعات بنفس السهولة التي شبت لأجلها. لا يمكننا الشك أن الجماعات التابعة لأمراء أو حكام أو إقطاعيين حيث يزيد تعدد الزوجات باستمرار لا يؤثر تأثيراً سلبياً على راحة الناس. ويبدو من المدهش عندما نرى العرب الذين يعيشون في بلاد غنية وخصبة، يعيشون في سكن رديء ويتغذون تغذية سيئة ويلبسون ثياباً رثة ويفتقرون تقريباً إلى كل وسائل الراحة، لكننا إذا نظرنا إلى الأسباب وضحت لنا النتائج.

فقر البدو الرحل هو بلا شك فقر اختياري، فهم يفضلون الحرية على الغنى، ويؤثرون حياة الرعي على حياة مضنية ومزعجة ولا توفر لهم الترف والسهولة. لكن الذين يقطنون في المدن أو يعيشون في الأرياف على الزراعة هم فقراء أيضاً، لأن حكامهم يثقلون كاهلهم بالضرائب التي لا تتناسب مع عائدات الأرض. توظيف الكثير من الأمراء ورجال الدين يكاد يستهلك قوت الشعب بالكامل. ومثال أراضي زبيد اليمنية التي ذكرتها في وصفي لها حيث توقفت، يبرهن على أن الفلاح لا يستطيع تحمل الضرائب دون أن يصير حاله إلى الشقاء والبؤس. ويرجع بلا شك السبب العام في فقر الجزيرة العربية إلى تغير الخط التجاري إلى الهند والذي أصبح في يد الأوروبيين. إلا أنه في حال زرعت فيه الأراضي بشكل أفضل لكانت هذه المنطقة وبدون التجارة الخارجية تملك من الموارد ما يكفيها لتوفير الاحتياجات الضرورية لكل سكانها من أجل توفير حياة أفضل.

سيارة هيكريس (Haekris) الأكثر استخداما في الهند

القسم السابع عشر
منطقة الحجاز

الفصل الأول

طبيعة هذه المنطقة وبعض مدنها

يحد منطقة الحجاز من الشرق هضبة نجد، ومن الشمال صحراء سيناء، ومن الجنوب اليمن ومن الغرب البحر الأحمر. أما حدودها الداخلية فليست معروفة على وجه الدقة، وبما أنني لم أر إلا سواحلها فلن أتمكن من الحديث عما تبقى إلا بعد الرجوع إلى تقارير كتبت حول ذلك الامر. وحسب ما علمت يبدو أن هذه البلاد تشبه إلى حد بعيد اليمن، فتمتد على السواحل سهول تتسع وتضيق لتصل إلى السلاسل الجبلية التي تحاذي سواحل البحر الأحمر. هذه السهول على غرار سهول تهامة جرداء رملية قاحلة. عدا أراض في مدخل الوديان يمكن ريها من مياه السيول القادمة من الجبال. ومن المفترض أن تكون المنطقة الجبلية خصبة تزرع فيها أشجار الفاكهة وكل المحاصيل الأخرى. لكني لم أسمع بأن البن يعد من المنتجات. ويصدر الصمغ من مكة في المنطقة الجبلية وبشكل خاص من جبل الصفراء الكبير الذي يبعد مسير ثلاثة أيام عن سواحل البحر الأحمر. ولا يمكن السكن بسهولة في هذا السهل الأجرد. وقد لحظت سابقاً في طريقي من السويس إلى اللحية أنني لم أر أية مدينة أو قرية. وقد قدّمت وصفاً يَنْبُع (Jambo) وجدة والقنفذة (Ghunfude)، المدن الوحيدة على هذا الساحل الطويل. أما الأماكن الصغيرة الأخرى القليلة المتناثرة فلا تستحق أي اهتمام. ولم أستطع اكتشاف أية مدينة مهمة داخل هذه المنطقة، فيما عدا مدينة الطائف الواقعة في جبل مرتفع في مكان جميل جداً والتي يقارن الكتاب العرب ضواحيها بضواحي دمشق وصنعاء، توفر هذه المدينة لجدة ومكة فاكهة يانعة شهية أهمها العنب، ويشكل اللوز الذي ينمو بوفرة في أراضيها مادة تجارية ضخمة. وهناك أيضاً بعض المدن على درجة أقل من الأهمية وتعود لشيخ قبيلة حرب. وقد تحدثوا لي عن وادي رائع يسمى وادي فاطمة بين مكة والمدينة، وقد أعطاه النبي محمد هدية عرس لابنته الغالية فاطمة، ويملكه حالياً داني برقد فرع من الأسرة الحاكمة في مكة وبالتالي من سلالة هذه الأميرة. ولا تقدم مكة والمدينة عاصمتا الحجاز الكثير من الطرائف، الأمر الذي لا يتطلب مقالات خاصة.

الفصل الثاني

عن سلطة الأتراك في الحجاز

يعتبر سلطان القسطنطينية أن له سلطة على الحجاز، مستنداً إلى لقب فارغ. ويعتبر علماء الجغرافيا عندنا هذا القسم من الجزيرة العربية في عداد المناطق التركية. و إذا لم يكن من مصلحة العرب الاحتفاظ بهذه السلطة المزعومة والتي تشكل شبحاً عليهم، لتخلصوا منها منذ زمن طويل. وبالرغم من الادعاءات الضخمة للسيد الأكبر، فإن سلطته في الجزيرة العربية انحصرت ببعض الامتيازات البسيطة، فبإمكانه أن يرسل سنوياً إلى مكة قوافل ترافقها فرق عسكرية، تضطر في أغلب الأحيان إلى شق طريقها بالسلاح.ويستطيع كأي سلطان قوي يبالغ في جبروته ضد حاكم ضعيف وأن يخلع الشريف الحالي وينصِّب آخر على كرسيه، بما أنه الأقوى في مكة بسبب القافلة التابعة له. ويجرؤ على وضع باشا في مكة يتقاسم السلطة مع الشريف على هذه المدينة، ولا يستطيع الذهاب إلى حكومته أو الخروج إلا برفقة قافلة ضخمة. وبالتالي يعاني العرب منه، فهو يستخدم لتوفير الأمن للحجاج الأتراك بعض الجنود الانكشاريين المنتشرين في عدة أبراج قديمة لحراسة الآبار. وتتناسب العائدات التي يحصل عليها من هذه المنطقة المزعومة تناسباً طردياً مع نفوذه عليها،.فالسلطان يتقاسم مع الشريف ضرائب الجمارك في جدة ولا يكفي مالها الزهيد أبداً لمصاريف منزل الباشا. وإن عيّن باشا تركي لهذا المنصب الرائع يعتقد أنه مفتقر للحظوة ويتنفس الصعداء عندما ينقل من منصبه هذا. وإن لم يتلق العرب سنوياً مبالغ طائلة من السلطان ويستفيدوا من كل أنواع الامتيازات، لطردوا هذه الأقلية التركية منذ زمن طويل. فالسلطان يعطي راتباً للأشراف ولكبار الطبقة النبيلة في الحجاز وأيضاً لحراس البيت الحرام، فالرواتب والايرادات التي تجنى من أربع أو خمس سفن محملة بالمنتجات يرسلها السلطان سنوياً إلى جدة، تشكل الموارد التي يعيش عليها تقريباً كل أهل مكة والمدينة. وخلال كل فترة إقامة الحجاج في المدينة المقدسة يوزع السلطان يوميًا ما يمكن لألفي جمل حمله من الماء، دون ذكر العدد الهائل من الهدايا التي يزين بها الكعبة يغدق

بها على كل من ينحدر من سلالة النبي محمد. ويستفيد كبار المجتمع العربي أيضاً من الكمية الهائلة من المؤسسات الخيرية التي أسسها السلاطين أو أشخاص أتراك أغنياء لصالح الأماكن المقدسة. ونجد في كل مدن الإمبراطورية العثمانية خانات وحمامات وبيوت ترجع عائداتها للبيت الحرام. ويقوم العديد من الأشخاص لتأمين أملاكهم من النزاعات والخلافات فيوقفونها بعد موتهم للبيت الحرام. ويتقاسم عائدات وقف هذا المسجد والكعبة شريف مكة وكبير نبلاء الحجاز. وبالنتيجة يخشى أن يفقد العرب مواردهم إذا ما أرادوا بتبعية ظاهرة الإشادة والثناء على غرور السلطان دون المساس بحريتهم.

الفصل الثالث

شريف مكة

الشريف كما أتيحت لي الفرصة كي ألحظ في مكان آخر، هو لقب سلالة النبي محمد من ذرية الحسين بن علي، وبالرغم من أن هذا الفرع من الذرية لا يرتقي إلى مكانة الخليفة والإمام، إلا أن السيادة في معظم مدن الحجاز كانت له على مر العصور. انقسمت سلالة الحسين بن علي إلى عدة فروع منها فرع لابن عم، والذي يصل عدد أفراده حالياً إلى ٣٠٠ شخص، وينفرد اليوم بحق العرش في مكة، ومن ثم يتفرع أيضاً إلى فرعين ثانويين هما دار ساجد (Darü Sajid) ودار بركد (Darü Barkad)، وقد تناوبا في حُكم مكة والمدينة عندما انفصلت هاتان الأخيرتان. والأمر سيان لدى السلطان، في أن يكون فرد من أفراد هذه الأسرة أو تلك شريف الشرفاء أو الشريف الحاكم، لا بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك فيغذي انقسامهم ويخص بالحظوة من هو أقوى بغية إضعاف الطرفين. وبما أن نظام الخلافة ليس محدداً ويمكن لكل الشرفاء التطلع إلى سدة الحكم، وينضم عدم الثبات في الحقوق هذا إلى خطط الموظفين الأتراك مما يسبب في هذه الدويلات ثورات متكررة. ومن النادر أن يثبت شريف على كرسي الحكم، والأكثر ندرة ألا يشوب حكمه ثورة أكثر المقربين من أهله. وقد رأينا ابن أخ يخلف عمه، وعم يخلف ابن أخيه، وأحياناً رجل من فرع بعيد لأمير من البيت القديم الحاكم. وخلال فترة إقامتي في الجزيرة العربية في عام ١٧٦٣م، كان الشريف مسعد يحكم منذ أربعة عشر عاماً، وقد اندلعت الحرب بينه وبين جيرانه العرب وأحياناً مع المقربين من أسرته. منذ عدة سنوات قام الباشا في سوريا وكان يدير القافلة، فعزله وعين مكانه جعفر الأخ الأصغر للشريف. لكن بعد رحيل القافلة، لم يكن جعفر يملك الوسائل التي تكفي للبقاء على الكرسي فتنازل من جديد لمسعد عن الحكم، فما كان من أحمد الأخ الثاني للشريف الذي يحبه العرب كثيراً إلا أن هدد بالهجوم على مكة أثناء إقامتنا في جدة. وعلمنا بهذا النزاع بعد نهايته بوقت قصير، وبعد عودة أحمد إلى مكة ليعيش فيها كأي رجل من الخاصة. وتبرهن هذه الأمثلة على أن المسلمين لا يحترمون القانون الذي

يمنعهم من الحروب في الأماكن المقدسة. حتى أن أحد الباكوات المصريين تجرأ منذ بضعة سنوات ووضع مدافعه الصغيرة في برج داخل حرم الكعبة وأخذ يطلق مدفعيته فوق البيت الحرام مستهدفاً قصر الشريف مسعد الذي كان على خلاف معه. وتتضمن دويلات الشريف المدن التالية: مكة، المدينة، ينبع، الطائف، سادي، القنفذة، حلي، بالإضافة إلى ثلاث عشرة مدينة أخرى قليلة الأهمية وتقع جميعها في الحجاز. يقع جبل غزوان بالقرب من الطائف الذي نقل عما يرويه المؤلفون العرب، أنه يتجمد في منتصف الصيف. بما أن هذه الدويلة صغيرة وفقيرة فلا يمكن لعائدات حاكمها أن تكون عائدات هامة. لذا فقد وجد مورداً مالياً من الضرائب المفروضة على الحجاج من منح وهبات من الحكام المسلمين، وبدفع كل واحد من الحجاج الشيعة مبلغاً يتناسب مع إمكاناته يتراوح من ١٠ إلى ١٠٠ أكو. ويلزم كبير المغول تأدية ٦٠٠٠٠ روبية للشريف سنوياً مفروضة على حكومة سورات. لكن ومنذ أن استولى الإنجليز على هذه المدينة وأراضيها، لم يعد في استطاعة الحاكم الهندي في سورات دفع هذا المبلغ. فطالب به الشريف من الإنجليز بما أنهم أصبحوا ملاك سورات، وكي يرغمهم على النزول عند طلبه منع قبطاناً إنجليزياً من الخروج من ميناء جدة. لكن البحار غادر بالرغم من أمر المنع، فاشتكى الشريف للباب العالي الذي بلغ بدوره هذه الشكوى لوزير إنجلترا. وتباحث في الوقت نفسه مع ممثل الحاكم الهندي المقيم أيضاً في سورات، لكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج إيجابية، ويبدو أن حاكم مكة اضطر للتخلي عن الضرائب الهندية. ولا تصل سلطة الشريف إلى حدود السلطة الروحية والتي تتعلق فقط برئيس رجال الدين لكل طائفة من المقيمين في مكة. أما المسلمون المتشددون كالأتراك على سبيل المثال فلا يحبون الشرفاء ويظنون أنهم ليسوا تماماً من متبعي السنة ويتبعون سراً طائفة الزيديين المعتدلة.

الفصل الرابع

مدينة مكة

هذه المدينة المقدسة تبعد عن جدة ما يقارب مسيرة يوم واحد، وتقع في أرض جرداء جافة وعلى بعد بضعة فراسخ، في المرتفعات الجبلية نجد ثماراً يانعة وفيرة، وخلال أشهر الصيف يشتد الحر في مكة، فيلجأ سكانها إلى إغلاق النوافذ لاتقاء لهيبه، ويرشون الشوارع بالماء لإنعاش الهواء، ولدينا أمثلة لأشخاص اختنقوا وسط المدينة بسبب الرياح المحرقة التي تسمى سموم. وبما أن نسبة عالية من نبلاء الحجاز يقطنون هذه المدينة فقد بنيت بناءً حسناً، أفضل من بناء أية مدينة أخرى في الجزيرة العربية. ومن أجمل الأبنية التي تضمها المدينة، هي الكعبة المشهورة أو بيت الله والتي كان لها تكريم خاص عند العرب حتى قبل النبي محمد. وكان يحدوني فضول كبير لرؤية هذا البناء الفريد، لكن لا يجرؤ أي مسيحي على الذهاب إلى مكة ليس فقط بسبب قانون صريح يمنع ذلك أو لأن المسلمين العقلاء يجدون مانعاً ما لمثل هذا الفضول. لكن بسبب اعتقادات الشعب أن هذه الأرض مقدسة، وأنه لا يجدر بالمسيحيين أن تدوسها أقدامهم، ستدنس حسب رأي المعتقدين بالخرافة إن وطئتها أقدام الكفار. حتى أن الناس ذهبوا للاعتقاد أنه يصعب على المسيحيين الاقتراب منها بفضل قوة فائقة. ويروى أن كافراً وصل إلى التلال المحيطة بمكة فانقضت عليه كلاب خرجت من المدينة، فصعق الرجل من تلك المعجزة ومن الهالة القدسية للكعبة وما كان منه إلا أن أصبح مسلماً. ولذا يجب أن نخلص إلى أن كل الأوروبيين الذين يصفون مكة وكأنهم شهود عيان، ما هم إلا مارقين فروا من تركيا. وقد دعم مثال حديث العهد تلك الشكوك. فقد انقاد جراح فرنسي آملاً التحقق من قوة هذه الديانة، إلى مرافقة الأمير الحاج بصفته طبيباً، وما كاد يصل إلى المحطة الأولى حتى أرغم على الختان وبذلك سمح له بمتابعة الرحلة. وبالرغم من أن المسلمين لا يسمحون للأوروبيين بالذهاب إلى مكة، فإنهم لا يرفضون وصف الكعبة لهم وإيفادهم بمعلومات حول هذا البناء. فقد أخذت من القاهرة نسخة عن رسم هذا البيت المقدس وصححته بعد ذلك بناء على لوحة رسام

تركي، كان يعمل ويكسب قوت يومه في تنفيذ رسوم ولوحات صغيرة للكعبة وبيعها للحجاج.بالعودة إلى هذه الرسوم وبالرجوع إلى تقارير العديد من المسلمين المؤمنين، فإن الكعبة بناء فقير بدون شكل معقد، عبارة عن برج مربع يغطى أعلاه بنسيج من الحرير الأسود المطرز بالذهب. ينسج القماش في القاهرة ويقدم منه السلطان التركي في كل عام ستاراً جديداً ليحل محل الستار القديم، كما صنعت ميازيب هذا المبنى من الذهب الخالص. أما ما يبدو غاية الروعة في هذا البيت المقدس، فهي الأقواس التي تحيط بالساحة التي تقع في وسطها الكعبة. يتحدث الناس بإعجاب عن كمية المصابيح والشمعدانات الذهبية والفضية التي تمتلئ بها الأقواس، إلا أنه ووفق هذه الروايات المبالغ بها أيضاً، فإن ثروات الكعبة لا تضاهي قيمة الممتلكات التي تعرض في بعض الكنائس الكاثوليكية في أوروبا.

كما وتضم الكعبة ذخيرة من بين أكثر الذخائر تكريماً و فرادة، إنه الحجر الأسود المشهور والذي حمله الملك جبرائيل من أجل بناء البيت الحرام. ويروي رجال الدين أنه عند وصول الحجر كان ناصع البياض وكان بريقه يغشي النظر حتى على بعد مسير أربعة أيام منه، لكنه انتحب وذرف دموعاً وبكى طويلاً على خطايا البشر، فعتم لونه ثم صار أسودًا فاحم السواد. وعلى كل مسلم في كل مرة يطوف بها حول الكعبة أن يقبل أو يلمس على الأقل هذا الحجر الرحيم. ولا يكرم التكريم نفسه مقام إبراهيم أو حجر إسماعيل، ويعفى الحجاج من واجب مشاهدته أو تقبيله. يكرم المسلمون الكعبة لأن إبراهيم قد بناها واتخذ منها دارًا للعبادة والصلاة. كما ونجد في حرمها بئرزمزم الذي يقدره الناس لمائه الصالح ويكرمونه بسبب أصله العجائبي، هاجر وبعد أن تركها إبراهيم عليه السلام، وضعت في هذا المكان صغيرها إسماعيل وذهبت تفتش عن نبع لتروي غليل ابنها الذي كان يحتضر ظمأ، لكنها لم تجد أي نبع وعادت فتملكتها الدهشة عندما رأت ماءً ينبع من بين ساقي وليدها هذا النبع هو نبع زمزم الموجود في الوقت الحاضر. وما زال يزين الكعبة صف من الأعمدة المعدنية المحيطة بها، يربط بينها سلاسل وتسند الكثير من المصابيح الفضية. وتشكل البوابات أو الأقواس التي سبق وتحدثت عنها،

ملجأ للحجاج يلجؤون إلى ظلها عندما يشتد الحر، كما أن لها غرض آخر، يفرش التجار الكثيرون الذين يلحقون بالقوافل بضائعهم تحت تلك الأقواس. ويعتقد المسلمون اعتقاداً راسخاً أن قدسية مكة تمتد لتطال أيضاً الأماكن المحيطة بها. فأراضيها تشتهر بقداستها على مسافات منها. هناك علامات مميزة لتلك القدسية. وتجد كل قافلة في طريقها دلالات مشابهة تنذر الحجاج بارتداء الألبسة المتواضعة التي عليهم الظهور بها في هذه الأرض المقدسة.

الفصل الخامس

الحج عند المسلمين

وكما نعلم فإن من واجب كل مسلم الذهاب إلى مكة مرة واحدة على الأقل في حياته للتعبد والصلاة في الأماكن المقدسة. ولو كان هذا القانون مطبق بحذافيره، لكان سباق الحجاج إليها ذو شأن عظيم، ولكان من المستحيل على المدينة استيعاب كل هذه الجيوش الكثيرة من كل البلدان التي تعتنق الديانة الإسلامية. ويمكن أن نخلص إلى أن الورعين وحدهم يكملون هذا الواجب، بينما يعفي الآخرون أنفسهم منه بمنتهى السهولة. ومن لا تسمح لهم الظروف للحج فإن لهم الحرية والحق يقال أن يدفعوا لشخص ما مبلغاً كي يقوم بالحج نيابة عنهم. لكن حاجاً مأجوراً كهذا لا يجرؤ على القيام إلا بمهمة واحدة في الرحلة كما يجب عليه منعاً لكل التجاوزات أن يحمل شهادة مطابقة للأصول موقعة من إمام مكة بأنه قام بالواجبات الدينية المطلوبة في الأماكن المقدسة باسم فلان من الناس حيًا كان أم ميتًا لأنه بعد وفاة أحد ما لم يستطع أثناء حياته القيام بهذا الواجب، يمكن توكيل أي شخص للقيام بالحج باسمه. وقد التقيت أحياناً بحجاج مأجورين لم يدفع لهم مستأجرهم مالاً كافياً تخلصوا من هذا المأزق فيما بقي لهم من الطريق بالتسول وطلب الصدقة. والقوافل القليلة العدد مقارنة بالجموع الغفيرة من المسلمين، تتألف من عدد كبير من الأشخاص الذين لا يقومون بالرحلة من باب العبادة. هم التجار من كل الأصناف الذين يؤمنون الحاجات الضرورية للحجاج، والجنود الذين تدفع لهم القوافل أجورهم لحمايتها، ونتج عن هذه العادة أن الكثير من الأشخاص أتوا إلى مكة مرات كثيرة من أجل مصالح خاصة فقط. أهم تلك القوافل هي القافلة القادمة من سوريا التي يرأسها باشا دمشق، وتلتحق بها على مسافة معينة قافلة مصر التي يقودها أحد البكوات و يتخذ لقب أمير الحج. كما تأتي قافلة من اليمن وأخرى أصغر من بلاد الإحساء. يأتي بعض الحجاج بشكل فردي عن طريق البحر الأحمر قادمين من الهند ومن تجمعات عربية على السواحل الأفريقية. ويرافق الفُرْس القافلة الآتية من بغداد حيث يعين الباشا قائدها وهو منصب مربح لأن القائد

يجرؤ على ابتزاز الأموال من الهراطقة الفرس. وعندما رويت ما كنت قد شاهدته على متن سفينتنا في رحلتنا من السويس إلى جدة، تحدثت عن الأرحام وعن الأماكن حيث كان الحجاج ملزمين بارتداء ملابس في غاية التواضع. وعلي أن أضيف أنهم ملزمون أيضاً بالذهاب إلى مكة حال وصولهم إلى النقاط التي تعلن عن بداية الأراضي المقدسة. أتى برفقتنا يوناني من غير المسلمين من السويس وكان يود التوقف في جدة وقد عانى من التأنيب والتعنيف، حتى انه أجبر على الذهاب إلى مكة قبل الانتهاء من أعماله وأشغاله.

وفيما تبقى فإنه من المفيد أن يسرع الحاج ليصل إلى الأماكن المقدسة. فدون أن تكون حاضرًا منذ البداية في كل المواقف ودون تأدية كل مناسك العبادة لا يمكنك الحصول على لقب حاج، وهو لقب يرغب به الأتراك فهو يمنح لمالكه احترامًا وتبجيلاً وامتيازات حقيقية، ندرة هذا اللقب في البلاد الإسلامية هي دليل على مدى إهمال تأدية واجب الحج. وتعم عادة مماثلة عند المسيحيين الشرقيين الذين يعملون على اتخاذ لقب حاج أو مقدسي وهو لقب يمنح لأبناء رعيتهم وللحصول على هذا اللقب لا يكفي الذهاب إلى أورشليم بل يجب قضاء عيد الفصح في تلك المدينة وحضور كل طقوس أسبوع الآلام فيها.

الفصل السادس

المدينة المنورة

على مسافة يوم واحد من ميناء ينبع، تقع المدينة المنورة وهي مدينة مساحتها صغيرة تحيط بها أسوار قديمة مهدمة في سهل رملي. وهي ملك شريف مكة بالرغم من أنها كانت تحت رعاية حاكم خاص لها من أسرة دار بركد. أما اليوم فقد ولى الشريف عليها وزيراً من أسرة الحاكم بالضرورة. كانت المدينة قبل عهد النبي محمد تسمى يثرب، وأطلق عليها اسم مدينة النبي بعد أن أخرجه أهل قريش من مكة فالتجأ إليها وأمضى فيها باقي أيامه. ويحترم المسلمون قبر النبي الموجود فيها ولكنهم غير ملزمين بزيارته للتعبد والتقوى. وحدهما قافلة سوريا و قافلة مصر اللتان في طريق عودتهما من مكة تمران بالقرب من المدينة فتغيران مسيرهما قليلاً لرؤية القبر. وحصلتُ أيضاً من تركي على رسم للمسجد الكبير، حيث يرى القبر في زاوية ساحته الكبرى. وبما أنه يخشى أن يقيم الشعب فيه عبادات خرافية لرفات الرسول فقد منع الاقتراب منه ووضعت شباك يمكن الرؤية من خلالها. والقبر بناء بسيط على شكل صندوق دون أية معالم أخرى. ولم أعلم على الإطلاق ما هو أصل هذه القصة المضحكة المنتشرة في أوروبا وهي قصة قطع مغناطيسية كبيرة ترفع في الهواء ضريح النبي محمد. يوجد الضريح بين ضريحين يضمان رفات أول خليفتين، وبالرغم من أنه ليس أعظم أضرحة معظم مؤسسي المساجد، فإن البناء الذي يخبئه مغلف من الخارج بنسيج من الحرير أخضر اللون ومطرز بالذهب يجدده باشا دمشق في كل عام. يحرس المبنى أربعون خصي يسهرون على أمن الكنز الذي يختبئ فيه كما يقال، ويتألف الكنز بشكل رئيس من الهدايا المقدمة من كبار المسلمين ومن الأحجار الكريمة، ويعتبر الكنز هامًا جدًا، لكن نسجت معه الكثير من الحكايات وانضمت إلى الرواية التي قصت علي لدرجة لا أدري ما أقول عنها. وقد أكد لي العديد من الشخصيات الإسلامية تأكيداً جدياً أن من أحد الأشياء الثمينة المحفوظة في القبر هو حجر الفلاسفة أو كمية من المسحوق التي تحول كل المعادن إلى ذهب خالص. إلا أن تاجرًا عربيًا محترمًا أكد لي أن الحرس لم يعين إلا لإبعاد السوقة الذين بدأوا برمي الملابس على الضريح من أجل التبرك بها واعتبارها نوعاً من الذخائر.

الفصل السابع

شيوخ عرب وشيوخ يهود مستقلون

يتقاسم المنطقة الجبلية في الحجاز عدد كبير من الشيوخ السادة. أكثرهم قوة و أوسعهم نفوذا هو شيخ قبيلة حرب، والذي يستطيع تعبئة ألفي رجل، ويقيم في مدينة مكشوح، ويبسط نفوذه حتى الآن على بعض المدن والقرى. أثناء الأشهر الخاصة بالرعي، يقيم كبار هذه القبيلة في الخيام، ويقطنون باقي السنة في المدن والقرى، بينما يقطن العامة في أكواخ مغطاة بالأعشاب. وتقع هذه الإمارة في الجبال بين مكة و المدينة. ولم أتمكن من الحصول على أسماء وأحوال باقي الشيوخ المستقلين في هذه المنطقة. وما علمته هو أن هؤلاء العرب يقطنون طوال العام في المدن والقرى ويملكون قلاعاً مبنية على مرتفعات وعرة لحماية أنفسهم، وينضمون أحياناً إلى جيرانهم لنهب القوافل التركية بالرغم من أنها لا تمر بأراضيهم. ويقلق شيخ قبيلة حرب بشكل خاص راحة القوافل ويفرض ضرائب عليها، وفي حال لم يدفع له السوريون والمصريون الغرامة التي يلزمهم بها للسماح لهم بالمرور، يحشد جيشاً من جيرانه الذين يسعدون عندما يتقاسمون معه حصتهم من نهب القافلة. لكن أعظم هذه الدويلات شأناً وأقلها شهرة هي دولة شكلها اليهود في الجبال شمال شرقي المدينة. و تدعى دولة خيبر، وفي الجزيرة العربية يعرف اليهود الذين يقيمون فيها ببني خيبر. ولهم شيوخهم المستقلون ويتوزعون في ثلاث قبائل هي قبيلة بني مسعد وبني شعبان و بني حنيف (Aneffe). ويمقتهم المسلمون ويتهمونهم بسلب القوافل، لدرجة أن أكبر الشتائم التي يمكن أن توجه إلى أحد ما هي أن تدعوه ابن خيبر، ويبدو أنه من الخطأ أن يعزى إليهم النهب و السلب. وقد أكد لي مسلمون جديرون بالثقة أن اليهود قدموا فرقاً حليفة للجيش العربي الذي قام مؤخرًا بنهب قافلة دمشق إلا أن سادة المشروع والمحرضون عليه كانوا شيوخ قبيلة حرب في الحجاز وشيوخ قبيلة حنيف (Aneffe) في نجد. ويبدو أن يهود خيبر لم يهتموا بعلاقتهم وارتباطهم مع إخوانهم المنتشرين في آسيا. وعندما سألت عن أحوالهم من اليهود في سوريا قالوا لي إن يهود خيبر الذين يدّعون الأخوة لا يجرؤون

على الظهور لأنهم لا يطبقون الشريعة. وحتما أن بني خيبر هؤلاء هم من طائفة قليلة العدد ومنتشرة كباقي اليهود المتمسكين بشكل عام بالفريسيين والذين يكرهونهم أكثر حتى من المسلمين والمسيحيين. واسم قبيلة حنيف له علاقة واضحة باسم قبيلة حنيفي (Haneffe) والتي تحدث عنها وكأنها من أبناء بلده، بنجامان تودل (Benjamin Tudele). كما أنها ما تزال تشبه إلى حد بعيد قبيلة باروك عنزب (Baruc Anzab) وبذلك سبب اليهود الكثير من الأسى والمتاعب للنبي محمد وللخلفاء الأوائل. وهكذا فإن هذه العائلة اليهودية قد حكمت في تلك المنطقة منذ أكثر من اثني عشر قرناً. ومن بين اليهود المعاصرين فإن أول من تحدث عن مملكته هو بارشيما (Barchema) وعن اليهود المستقلين الذين يقيمون في ضواحي المدينة. ويمكن أن يكون هذا الحكم قد سمح بولادة تقليد السبتي. فهؤلاء اليهود وبما أنهم لا يسافرون في يوم السبت لم يتمكنوا من اللحاق بالقوافل. وبالتالي فإن الأراضي التي يقيمون عليها محاطة بالصحاري الشاسعة والمفتقرة للأمان، فإن لم تلتحق بقافلة ما استحال عليك مغادرة بلد منعزل كهذا أو الوصول إليه.

القسم الثامن عشر
اليمن بصورة عامة

الفصل الأول

حدود اليمن وتقسيمه

تنطوي هذه البلاد الواسعة على أجمل مناطق الجزيرة العربية وأخصبها، ويحيط بها البحر الأحمر وحضرموت ونجد والحجاز. تنقسم تضاريس اليمن إلى منطقتين مختلفتين تماماً في التربة والمناخ، فالمنطقة التي تحيط بالبحر الأحمر سهلية قاحلة رملية يبلغ عرضها مسيريومين تقريباً، كما أن مناخها حار جداً. أما المنطقة الثانية التي تبدأ حيث تنتهي المنطقة الأولى فهي منطقة مرتفعة مليئة بالجبال الشاهقة والخصبة ومناخها أكثر اعتدالاً من المنطقة الأولى. يعود هذا التقسيم إلى التاريخ الطبيعي للجزيرة العربية وإلى التقسيم السياسي أيضاً.

يتقاسم اليمن كما في كل أنحاء الجزيرة العربية عدد كبير من الأمراء، وتتباين مساحات سيادتهم تبايناً شديداً، ويتمتع بعض الأمراء ذوي النفوذ القوي وعدد هائل من الشيوخ في أراضيهم الصغيرة بالسيادة الكاملة والاستقلال. وأعظم هؤلاء الأمراء شأناً هو الإمام الذي يقيم في صنعاء. وبما أنني جبت قسمًا من ولاياته وتعرفت عليها أكثر من غيرها، فإنني سأخصص مقالاً مستقلاً لوصفها، وخاصة أنها تشكل مساحة كبيرة من اليمن. وسأوجز الآن ما عرفته عما تبقى من هذه المنطقة.

والولايات المستقلة في اليمن خلافًا لولايات الإمام ونقلاً عن رواية أشخاص على قدر كبير من الثقافة هي:

١. بلاد عدن التي يحكمها منذ بعض الوقت أمير متميز.

٢. إمارة كوكبان التي يملكها سيد.

٣. بلاد القبائل أو حاشد وبكيل وفيها العديد من الشيوخ الذين شكلوا لأنفسهم مكانة متميزة.

٤. إمارة أبو عريش التي يحكمها أحد الشرفاء.

٥. منطقة تمتد بين أبو عريش والحجاز ويسكنها بدو أحرار.

٦. أراضي خولان ولها شيخها الخاص.

٧. أراضي سنحان وتتألف من إمارة صعدة التي تعود إلى أحد السادة، وأراض لبعض الشيوخ المستقلين.

٨. نجران.

٩. قحطان.

١٠. نهم.

١١. خولان في الشرق، أربع إمارات صغيرة يحكمها شيوخ.

١٢. بلاد الجوف أو مأرب الواسعة ويحكمها أحد الشرفاء ويحكم بعض الشيوخ أراض منها.

١٣. منطقة يافع التي يوجد فيها على الأقل ثلاثة شيوخ مستقلون.

وهناك أيضاً في اليمن وبلا شك العديد من الدويلات المستقلة التي لم أعرفها بسبب صغرها. ولن يستطيع أبداً رحالة توقف في طريقه لبعض الوقت أن يكون على دراية بأسماء كل المناطق المستقلة الصغيرة، التي تتألف منها ألمانيا. وهذا ماعرفته سابقاً كوني شاهد عيان عليه، إنَّ هذا العدد الكبير من السادة الصغار هو سبب الانحطاط الذي آلت إليه حال اليمن، كما أن كثرة المصالح المتضاربة بلا هوادة تخرب وتسيئ للتجارة والصناعة.

الفصل الثاني

إمارة عدن

تمتد هذه الإمارة جنوباً حتى المحيط الهندي، وتمتد شمالاً وغرباً حتى دويلات الإمام، وشرقاً حتى يافع. كانت ملكية أراضيها تعود في الماضي للإمام، لكن وفي عام ١٧٣٠م طرد السكان الحاكم الذي نصبه الإمام وانتخبوا لهم شيخاً فحكم البلاد باستقلالية تامة. وأعطت عدن تلك المدينة القديمة والشهيرة اسمها لتلك الإمارة، ومازالت الملاحة قائمة في مرفأها بالرغم من أنه فقد ازدهاره السالف. ولا تتمتع تجارتها بذلك القدر من الأهمية لأن حاكمها لا يعيش بسلام مع جواره، فالبضاعة الوحيدة التي تصدر من الإمارة هي البن الذي يأتي من يافع. يوجد في هذه الإمارة الصغيرة الكثير من المدن والقصور التي ليس لها أهمية كبرى، والمكان الوحيد المتميز حتى اليوم هو لحج مركز الشيخ الحالي عبدالكريم الفضلي، وقد حاصر مدينة الفضلي في عام ١٧٥٧م الشيخ المشهور عبد الرب وأساء معاملتها، والفضلي هذه منطقة صغيرة تتألف من مدينة وبعض القرى المشهورة كونها مسقط رأس الأسرة الحاكمة.

الفصل الثالث

إمارة كوكبان

تطوق دويلات إمام صنعاء منطقة كوكبان وتحيط بها، وتمتد كوكبان من جهة واحدة فقط حتى أراضي الحلفاء في حاشد وبكيل. وتنحدر الأسرة الحاكمة فيها من سلالة النبي محمد بفضل الهادي، وهو إمام صعدة. وقد كان لكوكبان وعلى مدى عصور عديدة أجمل البقاع والأراضي اليمنية، كما أنها احتفظت أي الأسرة بلقب الإمام إبان الاحتلال التركي. وعندما نجح القاسم في طرد الأتراك من اليمن، اضطرت هذه الأسرة العريقة إلى التنازل عن لقب الإمام لهذا الفاتح العربي الجديد، والاكتفاء بلقب سيد أو سيدي وبقيت في سدة حكم دويلة مهمة. وقد اطلعت على موجز لتوالي خلافة هؤلاء الأمراء ولم تتح لي الفرصة لمراجعتها. يدعى الأمير الذي حكم عام ١٧٦٣م سيدي أحمد وكان له عدة أبناء وإخوة كثيرون وعدد كبير من أبنائهم، وقد جعل مقره في كوكبان وهي مدينة صغيرة قليلة التحصينات لكنها منيعة وصعبة المنال بسبب موقعها على جبل عال. وقد رصفت عمة الأمير درباً يقود الإبل المحملة حتى المدينة. نجد في مختلف النواحي التي قسمت البلاد عدداً كبيراً من المدن والقرى، يملك معظمها قصوراً أو قلاعاً في جوارها على الجبال. وتبدو مثل هذه الاحتياطات ضرورية كي يدافع أمير ضعيف عن نفسه ضد جار قوي كإمام صنعاء على سبيل المثال. وادي لاعة، وادٍ خصيب يشتهر بزراعة البن ويملكه سيد إبراهيم شقيق الأمير الحاكم، ويوجد فيه ينابيع ماء معدنية حارة.

الفصل الرابع

حلفاء حاشد وبكيل

يتقاسم عدة شيوخ حلفاء المنطقة الممتدة التي تدعى حصرياً بلاد القبائل أو بلاد القبائل الجبلية، لكنها تسمى بصورة عادية حاشد وبكيل، وهو اسم عام للحلفاء. تمتد هذه المنطقة شمالاً حتى صحراء أماسيا (Amasia) وتحدها من الجنوب والشرق دويلات الإمام وإمارة كوكبان وتتاخم غرباً إمارة أبو عريش. تتميز المنطقة وتنفرد في المشرق كله بسبب ندرة المفهوم الجمهوري في آسيا.

تكتظ هذه البلاد الجبلية بجمع من الشيوخ ذوي الحسب والنسب ويحكم كل منهم منطقته بكامل الاستقلالية. وعندما شعر هؤلاء الشيوخ بتعذر الدفاع عن النفس بشكل فردي ضد أي عدو قوي، تجمعوا لتبادل التعاون والمساندة.

من الصعب حتى في أوروبا سن دستور للدولة في وقت قصير، في الشرق وعند أمم في حالة حذر وتحد دائم فإن الأمر يكون أشبه بالمستحيل. فلم أتمكن أبدًا من معرفة أي من القوانين أو الشروط لذلك التحالف بين حكام صغار، كل ما عرفته هو أنهم ينتخبون في وقت الحرب عدداً ما من القادة لقيادة الجيوش الحليفة.

هؤلاء الحلفاء وأتباعهم محاربون شديدو المراس وجنود لا يضاهيهم بسالة وشجاعة أي من العرب. ويدفع كل من الإمام وشريف مكة أجورًا مرتفعة لمجموعات كثيرة من هؤلاء الجبليين، وتفوق الأجور ما تتقاضى فرق أخرى من جيوشهم. ويشترط الجبليون أن يرأسهم ضباط من قومهم والشيوخ هم الذين يشكلون الفرق ويعينون الضباط. ولذا يخشى الإمام النزاع مع الحلفاء. فعندما يهاجمون دولة صنعاء، ينقلب أبناء قومهم التابعون للإمام، وينضمون إلى جيش الحلفاء.

ويمكن للرواية حول جدهم المشترك أن تكون قد حملت هؤلاء الشيوخ على التحالف والوفاء لهذا الحلف، استمد الحلفاء اسمهم من حاشد وبكيل اللذين وبالاستناد إلى الرواية الشعبية، هما ولدا بابروحام العظيم والأميرة نجمة. ولد بابروحام

في ناتولي من أبوين متميزين، وتمكن بعد عدة مغامرات خيالية من اختطاف الأميرة نجمة بنت الملك بيثيني، والتجئا إلى جبال اليمن وأنجبا حاشد وبكيل وانحدرت منهما أسر كل شيوخ بلاد القبائل، وبالتالي ينظر الشيوخ إلى أنفسهم على أنهم أهل ومن أسرة واحدة. وهناك وباستمرار في هذا البلد شيوخ ينحدرون من سلالة عريقة أكثر مما تنسب إليهم الرواية. في منطقة عمران وفي مدينة بيت التوبة يقيم شيخ من أسرة تُبّع ينحدر من كبار ملوك اليمن الذين يحملون هذا الاسم. لقد عدّدوا لي ما يقارب أسماء خمسين شيخاً مستقلاً يملك بعضهم أراضي وسط أملاك الإمام، ولا جدوى هنا من ذكر أسمائهم. يتباين عطاء الأرض التي يسكنها الحلفاء رغم وجود وديان معطاءة تنتج بوفرة الثمار والفواكه، وجبال خصبة تحرث وتزرع. وهناك الكثير من القصور المبنية في المرتفعات، والقليل من المدن المهمة. تتميز مدينة عمران التي تحمل الاسم نفسه لمنطقة عمران بسبب كونها مقر ملوك حِمْيَر في الماضي ثم مقر الأئمة. ونرى فيها بقايا قصور موغلة في القدم. ونجد في مدن صغيرة أخرى بعض المعالم التي تثبت أن جزءاً كبيراً من بلاد القبائل كانت قبل الاحتلال التركي تحت سلطة الأئمة القدماء.

الفصل الخامس

من إمارة أبو عريش وبدو مجاورين

سميت إمارة أبو عريش بهذا الاسم نسبة إلى عاصمتها، وهي تشكل جزءاً من تهامة، وتمتد على طول البحر الأحمر ابتداء من دولة اللحية وباتجاه الشمال، على مدى درجتين من خطوط العرض. أراضيها الزراعية قاحلة وجافة كباقي كل أراضي تهامة حيث لا يمكن ريها من مياه الأنهار المنحدرة من القسم الجبلي في اليمن.

كانت هذه البلاد منذ وقت قريب تشكل جزءاً من ولايات الإمام، ويولي حكام صنعاء بشكل طبيعي حكم مناطقهم حصراً لأشخاص من أصول وضيعة وغالباً لرقيق لا يتطلعون ولا يطمحون بسهولة للاستقلال، كما يطمح علية القوم عند العرب. وقد قام أحد الأئمة مؤخراً بتعيين الشريف أحمد حاكماً على أبو عريش، الذي ثار على سيده.

وصمد ابنه محمد شريف أبو عريش حالياً ضد كل مساعي الإمام لإخضاع هذا الجزء المنفلت من ولاياته وإعادته تحت سيطرته من جديد. استنهض كرم الإمام وسخاؤه حلفاء حاشد وبكيل فهاجموا عدة مرات هذا الشريف دون العزم على تحطيمه نهائياً. ودخل الشيخ المكرمي من نجران أيضاً في فصلي شتاء متتاليين إلى هذه المنطقة بصحبة جيش صغير، فقام الشريف بتجنيد ٦٠٠ رجل من حاشد وبكيل لطرده وشن عليه في شهر ديسمبر (كانون الأول) من عام ١٧٦٣ معركة حاسمة، فخسر الشريف ستة أو سبعة من رجاله واعتزل في داره وقد أثقلت كاهله تلك الهزيمة. أما الشيخ المكرمي فلم ينعم بالنصر وعلم أن شيخ قحطان قد دخل إلى نجران فشد الرحال وانطلق يدافع عن دويلاته الخاصة.

أما المناطق المميزة في إمارة أبو عريش فهي العاصمة التي تحمل الاسم ذاته وهي مدينة مسورة ومقر الشريف. مدينة ومرفأ جيزان وتبعد مسير يوم عن أبو عريش، وبسبب موقعها على البحر الأحمر في بلد خصب، فإنها تشكل مرفأً على قدر من

الأهمية لتجارة السنا الذي ينمو بكثرة في أراضيها، ولتجارة البن أيضاً التي تأتي من جبال حاشد وبكيل وتتعامل مع المرافئ الأخرى الواقعة على الجهة الأفريقية المقابلة. في حين أنها لا تتعامل أبداً مع أي من أتباع الإمام. أما ما تبقى من الإمارة فتتألف من بعض المدن الصغيرة والكثير من القرى الكبيرة.

أما السهل الذي يمتد على طول البحر الأحمر وعلى مسافة درجة عرض واحدة من حدود أبو عريش وحتى الحجاز، فهو سهل احتلته قبيلة من البدو الأحرار وتسمى قبيلة بني حرام. ويعيش هؤلاء البدو الفقراء تحت الخيام ولهم شيوخهم الخاصة بهم، وقد استسلموا للصوصية والسرقة كما أشرت في تقرير رحلتنا من جدة إلى اللحية، لكنهم يتمتعون بشجاعة خارقة ويفتخرون بتعاليهم على الألم والوجع.

وعندما نسألهم عن ديانتهم يجيبون أنهم مسلمون، ويخالفهم بالرأي جيرانهم ويقولون عنهم إنهم كفار ولهم ديانتهم الخاصة ويُسمى التابعون لها (مسالك). ويبدو أنهم في الحقيقة يبتعدون كثيراً عن الإسلام في عدة نقاط. فالطهور عندهم مختلف تماماً، ويمكننا القول إن هؤلاء البدو الرحل لم يخضعوا أبداً خضوعاً تاما للنبي محمد وأتباعه واحتفظوا بجزء من ديانتهم القديمة. وينظر المسلمون إلى البدو على أنهم تقليديون نوعاً ما ويوجهون لهم اللوم والعذل كونهم ليسوا مؤمنين حقيقيين. ويسكن عرب بني هلال منطقة جرداء، وهم فقراء الحال ويعيشون على منتجات قطعانهم الصغيرة.

الفصل السادس

أراضي سنحان وخولان

تُسمي العرب سنحان المناطق الجبلية الممتدة بين الحجاز وحاشد وبكيل. وتشتهر هذه المناطق القليلة المساحة بشتى أصناف الفواكه وخاصة العنب. نجد فيها أيضاً مناجم للحديد الذي لا يمكن استثماره استثماراً جيداً بسبب نقص الخشب، ولهذا فالحديد في اليمن باهظ الثمن وقليل الجودة.

يزعم أن سكان هذه المنطقة والجبليين منهم خاصة ذوي الاحتكاك النادر بالأجانب، يتحدثون العربية الفصحى الأقرب إلى لغة القرآن الذي يجهل اسمه الكثيرون.

وتختلف أعرافهم وتقاليدهم عن أعراف وتقاليد سكان المدن اليمنية، قلما كان لأحدهم أكثر من زوجة، لا يزوجون بناتهم قبل الخمسة عشر ربيعاً، في حين رأينا في دويلات الإمام زوجات لهن من العمر تسع أو عشر سنين، يتألف غذاؤهم من اللحوم والعسل والحليب وبعض الأعشاب، فمنطقتهم تنتج بوفرة هذه الأغذية، يعمرون طويلاً بتناولهم لطعام بسيط وزهيد كهذا ويحتفظون ببصرهم حتى آخر أيامهم، مضيافون للغاية لكنهم لصوص كبدو الصحراء يرهب جانبهم المسافرون الذين لا يسافرون في قوافل. ويوجد فيها الكثير من السيادات المستقلة، أهمها صعدة التي يملكها الأمير قاسم سليل الإمام الهادي والأسر الحاكمة في كوكبان وصنعاء، اتخذ هذا الأمير أيضاً لقب الإمام، لكن إمارته صغيرة لدرجة يصعب عليه الدفاع عنها ضد شيوخ الجبال المجاورة.

تعود الجمارك في العاصمة والمقر صعدة على الحاكم بفوائد جمة، فكل بضائع بلاد الإمام المصدرة إلى نجران وقحطان ومكة يجب أن تمر من هذه المدينة وتدفع رسوماً باهظة. وتشتهر ضواحي المدينة الواقعة على جبل شاهق بمقر الأمير الحالي الذي صمد ضد الأتراك مدة سبعة أعوام.

ويوجد بين صعدة وحاشد وبكيل قسم من صحراء أماسيا (Amasia). ويوجد في

وسط تلك الصحراء بركة سوادان، وهي المكان الوحيد الذي يتوقف فيه المسافرون طلباً للراحة والانتعاش.

يجب أن نميز خولان التي تقع بالقرب من صنعاء عن منطقة خولان الصغيرة التي تقع في الجبال غرب صعدة على الطريق المؤدية من صنعاء إلى مكة وعلى مسافة مسير أربعة أيام من الحالي آخر المدن الخاضعة للشريف، ولخولان هذه شيخها المستقل، هذا كل ما استطعت معرفته عنها.

الفصل السابع

إمارة نجران وقحطان

تقع نجران في منطقة خلابة كثيرة المطر في الشمال الشرقي وعلى مسير أيام ثلاثة من صعدة. وتشتهر هذه المنطقة الصغيرة بإنتاج القمح والفواكه وخاصة التمر، وتتميز بمواشيها وخيلها وبعيرها المشهورة في اليمن كله. يمتلك نجران حالياً الشيخ المكرمي الذي ذاع صيته وطارت شهرته في الآونة الأخيرة. وقد قيل إنه لا ينحدر من السلالة العربية العريقة. وقد جاب اليمن في شبابه وبلاد الفرس والهند، وأوكل إليه إمام صعدة عند عودته حكم منطقة نجران. وما إن حاز المكرمي على هذا المركز حتى نصب نفسه ملكاً على منطقته.

وجعل شيخ نجران الجديد لنفسه مكانة وجانباً يرهبه الجوار كما يرهبه الملوك في الأقاصي، وذلك بسبب عبقريته وشجاعته، ومنذ وقت قريب أمر فرقاً صغيرة من جيشه بالمرور في بلاد حاشد وبكيل، كما دخل ولايات الإمام، وحاصر منطقة سفيان (Safan). وقضى في يناير (كانون الثاني) من عام ١٧٦٣م كما علمت على شريف أبو عريش. وما إن شارف ذلك العام على الانتهاء حتى جاب مع جيشه كل اليمن، ودخل إلى منطقة الحسا. لو كان الأمر في أوروبا لتعذر مرور جيوش في بلاد صحراوية وغريبة خلال زمن قصير، لكن جيشاً عربياً لا يحمل مدافع ولا خياماً ولا عتاداً، جماله تحمل القليل من المؤونة، وجنوده العراة تقريباً والمزودون بما تيسر من الأسلحة لا يخشون تعب المسير.

ذاع صيت الشيخ المكرمي في اليمن كقائد بطل شجاع ورجل دين محترم في الوقت نفسه. فقد اختلفت آراؤه في الدين كلياً عن آراء فئات من المسلمين، فهو ينظر إلى الرسول محمد على أنه نبي لكنه لا يعير كثيراً من الأهمية لخلفائه ولمفسري حديثه. وقد قال العرب المختصون إن هذا الشيخ قد وجد السبيل لينعم بالجنة ومازال على قيد الحياة، وقد قالوا لي إنه يبيع أمكنة تقاس بالذراع في الجنة وتختلف أهمية تلك الأمكنة حسب ما يدفع الشاري من ثمن، وقد اشترى أشخاص سذج ومؤمنون بالخرافات

منه ومن أتباعه تلك الأمكنة آملين الحصول عليها. وقد قام مؤخراً أحد أبناء كيرمان الفارسية ببيع بطاقات مماثلة للحصول على مكان في السماء وقد عادت عليه تلك المهنة بأموال طائلة. يبدو أن الشرقيين أيضاً يتعجلون تقليد مثل تلك البطاقات على غرار البطاقات الأوروبية.

كما تنسب لهذا الشيخ معرفة أسرار كثيرة، واشتهر بقدرته على الاستمطار. فعندما تعاني المنطقة من الجفاف، فإنه يشير عليهم بيوم صيام يتبعه طواف، يجبر الجميع على المشاركة فيه بمظهر ذليل دون عمائم وبأسمال بالية. وقد أكد لي رجال عرب متميزون أن تلك العملية كانت تأتي بثمارها دوماً، فما إن ينتهي الشيخ من طوافه حتى تنهمر الأمطار حالاً.

كانت عاصمة مملكته هي مدينة نجران القديمة والشهيرة في تاريخ العرب، أما ما تبقى من المدن والقرى فليس له أهمية بالغة.

تقع منطقة قحطان الصغيرة على الجبال على مسافة مسير ثلاثة أيام شمالي نجران. وقد رأيت في اللحية رجلاً محترماً من هذه المنطقة وقد اصطحب معه إلى صنعاء قافلة من الخيل للإمام. وبسبب الريبة التي أثارتها أسئلتي كما سبق ورويت لكم، فإن هذا الرجل لم يشأ الرد على الاستيضاحات التي طرحتها بخصوص بلده وكل ما استطعت معرفته حول قحطان أنها تعود إلى شيخ خاص يحكمها.

الفصل الثامن

إمارتي نهم وخولان

نهم منطقة صغيرة تقع بين الجوف وحاشد وبكيل، وشيخها المستقل الحاكم حالياً هو أمير محارب بطل يقلق الإمام في كثير من الأحيان، ويمتلك بعض المدن القليلة الأهمية ويمتلك أيضاً جبلاً خصباً مليئاً بالقرى. ينضم دائماً سكان ضبعان (Deiban) الأحرار تحت راية شيخ نهم في حروبه مع الإمام.

بلاد خولان الصغيرة التي يجب أن نميزها عما تكلمت سابقاً، تقع على بعد فراسخ قليلة جنوبي شرقي صنعاء. ولها شيخها المستقل المنحدر من أسرة عريقة جداً. وهو الشيخ راجح الخولاني، الذي حكم في عام ١٧٦٣م وأقام في صنعاء لأنه كان قائد جيوش الإمام. ويقيم حالياً في بيت روج (Beit Rodsje) وهي مدينة صغيرة في مقاطعته.

ويجد في هذه الإمارة مدينة تناعم (Tanaëim) التي تشتهر عند اليهود العرب فقد كان فيها في الماضي مقرهم الرئيس وعدد لا بأس به من المعابد الجميلة. وقد خلت في الوقت الحاضر ولا يُرى فيها إلا القليل من اليهود.

ولا يقطن قرية بيت الكبسي إلا الشرفاء، ويترأس حصراً أحدهم القافلة الذاهبة من صنعاء إلى مكة في كل عام. التي تتألف من ألفين إلى ثلاثة آلاف شخص وتمضي ٤٥ يوماً في رحلتها إلى مكة، بالرغم من أن المسافة الفاصلة بين هاتين المدينتين لا تتجاوز ١٠٠ فرسخ ألماني بخط مستقيم.

كانت الكثير من الأماكن تعود لأمير خولان في الماضي، لكنها اليوم تنظوي تحت راية الإمام الذي استولى عليها شيئاً فشيئاً.

الفصل التاسع

بلاد الجوف

تمتد هذه المنطقة الكبيرة من اليمن من جنوب نجران حتى حضرموت، وشرقاً من حاشد وبكيل حتى الصحراء التي تفصل اليمن عن عُمان، وتمتلئ المنطقة بالسهول المقفرة الرملية. ولا يفتقد السكان في أماكن كثيرة منها للقمح والذرة ومعظم المنتجات الضرورية. كما تشتهر بالخيل والإبل ويستقدم الكثير منها إلى ولايات الإمام.

ينقسم الجوف إلى البلد البدوي وهي منطقة يسكنها البدو الرحل، وبلد السلاطين وهي منطقة جبلية يحكمها شيوخ مستقلون ويتخذون لقب سلطان، وبلاد الأشراف وهي منطقة يمتلك الأشراف فيها إمارات صغيرة.

أما البدو الرحل في هذه المنطقة فهم محاربون أشداء يقومون بمعاركهم على ظهور الإبل أو الخيل، وتتألف أسلحتهم من السيوف والرماح وأحياناً من البنادق ذات الفتيلة. ومازالوا يستخدمون أيضاً الدروع الواقية المصنوعة من السلاسل المعدنية في حين كف العرب عن استخدامها. وكثيراً ما يزعجون سكان القرى المجاورة فينهبون ممتلكاتهم ويخطفون بناتهم، وهم أقل فظاظة من البدو ويكتفون بسرقة الغرباء دون قتلهم. ويروى أن أفضل الشعراء العرب هم من بدو الجوف، فهم ينظمون الشعر بطريقة خاصة ومختلفة.

يوجد الكثير من الحكام الصغار في بلد السلاطين، ولم يذكر لي منهم إلا السلطان باحام. ولا يستعمل لقب السلطان أبداً في اليمن باستثناء الجوف ويافع، ويبدو أن هذا اللقب كان يخص شيوخ الجبل لتمييزهم عن شيوخ البدو.

أهم أمراء بلد الأشراف هم شرفاء مأرب وحريب ورغوان، ولا يملك شريف مأرب إلا مدينته وبعض القرى في نواحيها، بالرغم من أنه سيد المنحدرين من سلالة النبي محمد في هذه المنطقة.

ماتزال مأرب عاصمة المنطقة بالرغم من أنها لا تتألف إلا من ٣٠٠ منزل بائس. وتقع على بعد ١٦ فرسخاً شمالي شرقي صنعاء. وقد عرفها القدماء تحت اسم "ماريابا"، عندما كانت عاصمة السبئيين. ونجهل إن كانت تدعى سبأ فيما مضى. ويوجد في ضواحيها آثار يقال إنها آثار قصر الملكة بلقيس، ولا يرافق الآثار أية كتابات تؤكد صحة هذا الرأي.

كان سد الماء التابع للسبئيين مشهوراً منذ القدم، وقد سمعت الكثير من الأحاديث عنه في اليمن. ولم يعطني أحد فكرة كاملة حول ذلك السد، باستثناء رجل متميز ولد في مأرب ويعيش فيها، وقد روى لي أن حوض مأرب الذي يسمونه العرب بسد مأرب كان في الماضي واد ضيق بين سلسلتي جبال ويبلغ طوله مسير يوم واحد. وتتجمع فيه ٦ أو ٧ وديان صغيرة آتية من الجنوب ومن الغرب من ولايات الإمام، بعض تلك الوديان الصغيرة كانت تجري على مدار العام ويعيش فيها أسماك، في حين كانت وديان أخرى تجري في زمن الأمطار فقط. تقاربت سلسلتا الجبال اللتان شكلتا الوادي تقارباً شديداً من الجهة الشرقية، لدرجة تسمح باجتياز الوادي عرضاً في برهة ٥ أو ٦ دقائق. وللتمكن من حبس المياه الغزيرة في فصل الأمطار، فقد سدت فتحة الوادي هذه بسور مرتفع وسميك كي توزع في أيام الجفاف على الحقول المجاورة، وقد حفرت فيه فتحات ثلاث الواحدة فوق الأخرى. بلغ ارتفاع السد ٥٠ قدماً، وقد بني من صخور كبيرة منحوتة، ومانزال نرى بقاياه حتى اليوم، أما المياه التي حبسها في الماضي فتضيع في السهول الرملية بعد مسير لا يطول.

وهكذا نجد أن سد مأرب ليس أمراً خارقاً، ففي الكثير من مناطق اليمن تبنى سدود صغيرة مشابهة في سفوح الجبال. يوجد بالقرب من إسطنبول واد سُد مجراه بسور وهو يحبس المياه لتوزع في قنوات في عاصمة الامبراطورية العثمانية.

ويبدو أن الرواية التي تقول إن الفيضان الذي أدى إلى انهيار المدينة بعد الانهيار المفاجئ للسد، ما هي إلا رواية شعبية، فمن المحتمل أن يكون السد قد انهار مع الوقت بسبب عدم ترميمه عندما سقطت مملكة سبأ. وأدى انهيار السد إلى انهيار المدينة

بشكل آخر، فقد أقفرت الحقول المجاورة التي لم يعد يرويها السد وأصبحت جرداء قاحلة مما حرم المدينة من مواردها، فمأرب لا تقع فوق السد بل تبعد عنه مسافة فرسخ وتقع على تل صغير بالقرب من مجرى المياه.

ويمكن إعادة إخصاب تلك المنطقة بإعادة ترميم السد. ولا يقوم بمثل هذا الأمر إلا الملوك الأغنياء، وقد كانت مأرب مركز ملك قوي عم سلطانه على اليمن وعلى حضرموت، أما مأرب اليوم فما هي إلا مركز شريف فقير يستطيع بالكاد الصمود في وجه جيرانه الضعفاء. وقد ذكر لي مكان مشهور في كل بلاد الجوف هو قصر ناعط، وهو قلعة تقع على قمة جبل عال بناها ملوك حمير.

الفصل العاشر

بلاد يافع

تقع هذه البلاد بين عدن وبعض أراضي الإمام، ومقاطعة حضرموت الكبيرة. وهي منطقة خصبة غنية بالمواشي وتنتج بوفرة البن.

كانت تخضع فيما مضى للإمام، لكن سكانها ثاروا في نهايات القرن المنصرم وحرروها. ويحكمها اليوم ثلاثة أمراء احتلوا جزءاً من حضرموت. هؤلاء الأمراء هم:

١. سلطان الرسس ويقيم في مجبة (Medsjeba).

٢. سلطان مساقة ويقيم في مساقة (Mosaka).

٣. سلطان قارة ويقيم في قصر واقع على جبل قارة (Kara).

ويملك أيضاً أحد السلاطين الحاكمين في يافع مدينة الشحر (Schaehhr) وهي مرفأ يصدر منه البخور ليس فقط بخور الشحر بل بخور اليمن كله وهو أقل جودة من بخور الهند. ولم يتمكن شخص ما من إعطائي معلومات عن داخل منطقة خبر.

بلاد الشعفل (Schafel) والدحلة (Ed Dahla) منطقتان تتمتعان بالسيادة وتتبعان لشيخين صغيرين. مدين الأسفل (Medine el Asfal) وهي مدينة تشتهر بقبور عدد من الأولياء. ولذا يمكن أن يكون سكان تلك المدينة من المسلمين السنيين.

القسم التاسع عشر
ولايات الإمام في صنعاء

الفصل الأول

امتداد ولايات الإمام وتقسيمها

كنت قد أعطيت لمحة عن طبيعة الأراضي التابعة لسيد صنعاء عندما تحدثت عن اليمن بصورة عامة. ونرى في كل أرجاء اليمن الاختلاط بين الأراضي الخصبة والقاحلة والمنتوجات نفسها في كل مكان. ويبدو أن الإمام يملك أجمل تلك الأراضي وأخصبها وأهمها في تلك المنطقة الواسعة.

سيكون من الصعب عرض حدود دويلات الإمام عرضاً واضحاً، وذلك لأن أمراء كثيرين يتقاسمونها. لكنني أستطيع القول إنه يحدها من الشمال حاشد وبكيل ومن الغرب إمارة أبو عريش والبحر الأحمر، ومن الجنوب إمارة عدن ومن الشرق بلاد الجوف ويافع.

لتقسيم اليمن عموماً بين تهامة أي السهول والجبال أو المنطقة الجبلية، مكانه أيضاً في دويلات الإمام. فقد قام على أساسه ٣٠ حكماً أو إقطاعية انقسمت إليها مملكة صنعاء، ويمكننا تعداد ٦ حكومات في تهامة و٢٤ حكومة في المنطقة الجبلية.

لا تتمتع كل هذه الحكومات الصغيرة بالأهمية والمكانة ذاتها، وليس من الضروري ذكر أسماء كل الحكومات ووصفها، ويجب علي أن أكتفي بالحديث عن أهم المناطق المتميزة بعد أن أعطي فكرة عن سيد تلك الدويلات وعن حكومته.

وبما أن هناك عدداً هائلاً من الشيوخ في دويلات الإمام، منتشرين في الجبال الذين لا يعترفون أبداً بسلطة الإمام ولا يتبعونه إلا بطريقة معينة، فإني سأمر مرور الكرام على هؤلاء السادة المستقلين فهذا برأيي أهم من ذكر بعض المدن والقرى التي لا تتمتع بذلك القدر من الأهمية. سيكون القارئ مشغوفاً بالتعرف إلى القانون الخاص الذي يحكم هذا الشعب أكثر من شغفه بقراءة لائحة أسماء عربية.

الفصل الثاني

تاريخ الأئمة وأصلها

في نبذة عن الثورات في اليمن، ذكرت بإيجاز الثورة التي حدثت لطرد الأتراك من اليمن عام ١٦٣٠م، ويجب العودة إلى تلك الفترة لتأريخ أصل الأسرة الحاكمة في صنعاء، والتي تعود بنسبها إلى القاسم بن محمد القائد الكبير للثورة.

ينحدر القاسم بن محمد من سلالة النبي من جهة الإمام الهادي الذي دفن في صعدة، حيث مازال يحكم رجال من ذريته. فهو إذاً جد بيت الأئمة القديم في صعدة وجد أمراء كوكبان التي لم يتمكن الأتراك أبداً من إخضاعها. كان القاسم يعيش من ريع الأراضي التي ورثها عن أجداده في جبل شهارة شمالي شرقي اللحية. خصوصية كهذه سمحت له بتوطيد أواصر الصداقة مع الشيوخ المستقلين في الجبال، وعندما رأى الأتراك يتهجمون على مواطنيه اندفع بمساعدة الشيوخ لمحاربة الباشوات ودحرهم وطردهم شيئاً فشيئاً من كل مدن اليمن.

وأصبح ملكًا واتخذ لقب السيد القاسم واستمر في السيادة على جبل شهارة مدة ٩ أعوام إلى أن توفي فيه. وقد استحق لقب القاسم الكبير كعرفان بجميله وتكريم له.

أُجبرت بعد هذه الثورة أسرة أمراء كوكبان العريقة على التنازل عن سلطتها وامتيازاتها إلى أسرة القاسم، فاتخذ ابن القاسم البكر لقب الإمام واسم المتوكل على الله. فالإمام لقب رجل دين حصراً يؤم الناس في الصلاة. وقد احتفظ الحكام من ذرية النبي محمد بهذه العادة في إمامة الصلاة وذلك للتأكيد على سلطتهم الروحية والزمنية معاً. ولا يجرؤ الكثير من الأمراء العرب على اتخاذ لقب خليفة ويكتفون بلقب الإمام أو لقب أمير المؤمنين. واحتفظ كل من أولئك الحكام ذوي السلطة الروحية خليفة كان أو إماماً، بضرورة تغيير اسمه عند اعتلائه العرش كما يفعل البابوات في أوروبا، وهو تغيير يشير على ما يبدو إلى تجديد الشخص لذاته في منصب يملي عليه طابعاً من القدسية.

استمر الإمام المتوكل على الله في تسليم أراض من بلده إلى الأتراك الذين لم يبذلوا

جهوداً جهيدة للصمود في معركة بعيدة كانت عبئاً عليهم أكثر من كونها مفيدة لهم. جعل العرب من هذا الإمام ولياً، لم يشأ المس بالأموال العامة على غرار الكثير من الحكام المسلمين، فعمد إلى العمل بنفسه في إنتاج أغطية للرأس، ولم تكن له إلا زوجة واحدة، كما أنه اكتفى بخادم واحد في منزله، أقام المتوكل على الله في ضوران ودام حكمه ٣٠ عاماً.

خلفه ابنه المجيد بالله (Mejid Billah)، وكان أشد حرصاً من أبيه على الأموال العامة، ودام حكمه ٧ أعوام. وخلف المجيد بالله ابن عمه المهدي أحمد مدة ٧ أعوام لكن تخوم مملكته تراجعت في عدة معارك رغم تقواه وإيمانه.

وبعد موته نصب ابن شقيق المجيد بالله نفسه إماماً واتخذ اسم المهدي الهادي ولم يدم حكمه إلا عامين فقط عندما استولى المهدي محمد ابن الإمام المهدي أحمد عنوة على العرش.

أقام الإمام المهدي محمد في المواهب وحكم مدة ٣٠ عاماً، وقد نشر الفرنسيون تقريراً جاء فيه أنهم أتوا إلى قصره في عام ١٧٠٧م. كما تحدث عنه هاملتون وقال كان له من العمر ٨٠ عاماً في سنة ١٧١٤م، خاض المهدي محمد معارك كثيرة مع حلفاء حاشد وبكيل، وضع على رأس جيشه في المعركة الأولى ابن أخيه القاسم الذي انتصر في المعركة، لكن الإمام لم يكافئه بل عمد إلى سجنه في قلعة ذمار. وعندما هزم الحلفاء ابنه في معركة ثانية اضطر الإمام لفك سراح ابن أخيه وإعطائه مركز قيادة الجيش، فانتصر مرة أخرى، ولكنه لم يعد إلى قصر عمه الذي أقاله عن العرش أحد أفراد أسرته وقد أتى من شهارة، ونصب هذا الأخير نفسه إماماً تحت اسم الناصر. وما إن اعتلى هذا المغتصب العرش حتى طرده قاسم بعد عامين واستولى على الحكم واتخذ لنفسه اسم المتوكل.

اختار الإمام المتوكل صنعاء مركزاً له وحكم بسلام مدة ١٠ أعوام.

واستلم ابنه المنصور الحكم بعد موته، ووجد حالاً نداً له في شخص ابن شقيق المهدي محمد الذي استولى على البلاد كلها بمساعدة أمير كوكبان، نعم البلاد كلها باستثناء صنعاء، لكن المنصور وجد الوسيلة للتمكن من المغتصب ومن يحميه ويدعمه وزجّهما في السجن، وكان سعيداً بإخماد ثورة أحد أبناء عمه وأحد أشقائه أيضاً وسجنهما مدى الحياة، وقد دام حكمه ٢١ عاماً.

الفصل الثالث

الإمام الحاكم المهدي

خلف الإمام المنصور عدة أبناء وكان لبكره علي الحق الأكبر في الحكم. وهو ابن للمنصور من زوجه الأولى بنت أمير كوكبان، فهو بالنتيجة من ذرية النبي محمد من جهة الأب والأم، لكن هذه الأميرة التي عاشت في صنعاء حتى عام ١٧٦٣م، لم تكن على درجة من المهارة تسمح لها بترتيب خلافة ابنها على العرش بالرغم من أن البلاد قاطبة كانت تتمناه سيداً عليها.

كان للمنصور ابن يدعى العباس والدته أمة سوداء داهية أخفت خبر موت سيدها حتى انتهى القاضي يحيى أحد كبار وزراء المنصور، من وضع الجيوش وحكام المقاطعات في خدمة ابنها العباس، وجعلته يعلن ابنها إماماً تحت اسم المهدي وهو الإمام الحاكم حالياً. أما الأمير علي فقد سجن حتى قضى نحبه في السجن عام ١٧٥٩م.

في بداية حكم الإمام الحالي نازعه أمير كوكبان على لقب الإمامة مرتين، لكنه خسر في المرة الأولى واحترقت لحيته في المرة الثانية عندما انفجر مخزن للبارود يملكه، فترك الإمامة وشأنها وصالح الإمام.

وصل جيش عربي قادم من نهم وظبيان مؤلف من ثلاثة آلاف رجل في عام ١٧٥٠م حتى مشارف مدينة صنعاء، لكن الإمام غلبه وشتت شمله. ثم قام بعد ذلك بسبع سنوات حلفاء حاشد وبكيل بمهاجمة الإمام فانتصروا على جيوشه، لكن قائد قوات الإمام فاجأ الحلفاء في العام التالي وانتصر عليهم.

في عام ١٧٦٣م كان عمر المهدي العباس ٤٥ عاماً، وقد اعتلى العرش منذ ١٧ عاماً، كان لونه أسود كلون أجداده أهل والدته، ولا يشبه أبدًا ذرية النبي محمد، فيما عدا بعض الملامح الزنجية، يبدو بشوش الوجه، له عشرون شقيقاً وقد رأيت بعضهم: بشرة سوداء كخشب الأبنوس وأنف أفطس وشفاه غليظة كصراصير أفريقيا. تزوج إحدى قريباته وهي ابنة أحد الراغبين بعرش تعز، كما تزوج ببعض النساء الحرائر،

لكنه لم ينفق على إماء كما أنفق والده على الكثيرات منهن والتي ربا عددهن عن ٢٠٠ امرأة في حرمه.

كان للإمام أبناء كثيرون لكنهم صغار في السن فيما عدا أربعة منهم ممن لا يسمح لهم بالظهور أمام الجمهور. وكان له الكثير من الأهل الذين يعيشون في صنعاء: منهم من له أملاك كبيرة وله أعمام عدة، ولم يكن يوكل أي منصب لأحد من أقربائه الذين يعيشون بخصوصية بعيداً عن الحكم.

وعندما تسلم الحكم جعل من القاضي يحيى الذي رفعه إلى العرش كبير وزرائه، لكن رعيته استاءت من إدارته وأسفت على الأمير علي، الذي كتب قبل موته في السجن رسالة مؤثرة إلى أخيه الإمام الذي بدوره ضحى بالقاضي أمام غضب الناس وعزله من منصبه وزج به في السجن هو ومعاونه. ونال القاضي يحيى حريته قبل وصولنا إلى صنعاء بوقت قصير، لم يرجع الإمام له أملاكه بل أعطاه قليلاً من المال يكفيه لعيشه.

الفصل الرابع

حكاية الشيخ عبدالرب

كان للإمام المهدي الحاكم أعداء كُثر وكان عليه محاربتهم والانتصار عليهم، كان أخطر هؤلاء الأعداء بذكائه وشجاعته هو الشيخ عبد الرب الحُجري. وقد تطرقت للحديث بإيجاز عن بعض مغامرات هذا الشيخ عندما تحدثت عن الحكم في تعز، ويعتبره الناس بطلاً. تبدو لي حكايته مهمة جداً وأظن أن علي روايتها لكم بكل تفاصيلها بسبب احتوائها على خصائص تبلور ماهية حكم الإمام، وإظهار العادات والتقاليد عند العرب بشكل عام.

خلف عبد الرب والده الذي كان نقيباً وحاكماً لمنطقة صغيرة، وقد سر الإمام من خدماته فأوكل إليه منطقة أكثر أهمية وهي منطقة قعطبة، ومده بالأموال لهدم قصور بعض السادة في الجوار، فنفذ هذا الأمر بكل حماس واندفاع، مما أثار من حوله عداءات كثيرة من علية القوم، وكان أشدهم عداء نقيب من أسرة وادي العريقة بعد أن هدم عبد الرب قصره.

شكى النقيب عبدالرب للإمام واتهمه بالعصيان واستطاع أن يترأس جيشاً مؤلفاً من ٣٠٠٠ رجل أملاً في القضاء عليه، فحاصره في قعطبة عاصمة حكمه مدة أحد عشر شهراً، لم يكن بوسع عبد الرب الصمود أكثر من ذلك، فقام باختراق صفوف أعدائه مع ٦٠٠ من رجاله وانسحب إلى منطقة الحجرية ففتح له أصدقاؤه باب القلاع واعترفوا به شيخاً. أرسل الإمام جيشاً آخر إلى هذه المنطقة لحصار عبد الرب فلم يلق نجاحاً أكبر من سابقه.

كل ما قام به الشيخ عبد الرب حتى الآن هو الدفاع عن النفس، لكنه وعندما شعر بقوته قام بمهاجمة دويلات الإمام واستولى على العديد من الأمكنة وفرض غرامات باهظة.

لم يعد الإمام يطيق احتمالاً في خضوعه لهذا الشيخ فتحالف مع أمير عدن لشن

حرب مشتركة عليه، لكن الشيخ دخل عدن وحاصر أميرها في عاصمته وأجبره على دفع مبالغ طائلة، فتخلى الإمام عن حليفه تخلياً كاملاً في مثل هذه الظروف.

كنت قد رويت في تقرير رحلتي عن مقر الحكم في تعز، كيف انتهى الإمام لتوقيع السلام مع الشيخ، وكيف استطاع الشيخ فتح المدينة المحاصرة. وعلي أن أضيف أن شروط الصلح كانت تتلخص في معاملة الإمام للشيخ معاملة صديق والاعتراف به شيخاً على الحجرية والتخلي له عن حكم المنطقة كلها.

أكد الإمام وعوده للشيخ بالقسم سبع مرات ولم يكتف بذلك بل اتبع عادة جرى عليها العرب، وأرسل له المصحف الذي أقسم عليه أيمانه السبعة، وإعادته في صلاته كضمان لوعوده التي لن يحنث بها. زد على ذلك أن اثنين من كبار قادة الإمام وهما الماس وأحمد الأحمر، كانا يكفلان الإمام في المحافظة على وعوده.

اطمأنت نفس الشيخ عبد الرب لقسم الإمام المتكرر ولكل مؤشرات صدقه ونواياه الطيبة ولضمانة قائديه أيضاً، فقبل دعوة الإمام وذهب إلى قصره، وقد عامله الناس في طريقه بكل الاحترام والتبجيل، وذهب سكان صنعاء إليه يتأملون هذا البطل وتحدث الناس عنه وعن أفعاله وقيمه ومهارته بكل حماسة وإعجاب. ولا ندري إن كان الإمام قد بيت النية وعزم على قتله، أو أن كل هذا التقدير والإعجاب بالشيخ قد أثار سخط الإمام وغضبه الذي خاف أن يرى تشكل جماعة تؤيد هذا المتمرد في عاصمته. ومهما يكن الأمر فقد قُبض على الشيخ فور وصوله وجُرد من ملابسه وصُبغ وجهه ويداه باللون الأحمر، وركبوه مقلوباً على ظهر جمل وجابوا به شوارع المدينة، وعندما رأت شقيقته التي تسكن في صنعاء هذا الطواف المخزي والشائن لأخيها رمت بنفسها من أعلى البيت لتموت عند قدميه. ثم رمي الشيخ بعد إمعان في إذلاله وتعذيبه فوق مزبلة خلال ثلاثة أيام وقطع رأسه في نهاية الأمر.

أثارت خيانة الإمام الكبرى هذه سخط وغضب رعاياه. وكان قائدا جنده الأكثر استياء وامتعاضاً بعد تعهدهما بأمن وسلامة عبد الرب، القائد الأول هو النقيب

الماس الذي قاد جيوش الإمام الوطنية في حين قاد النقيب الثاني أحمد الأحمر جيوش حاشد وبكيل التي كانت تنضم تحت راية هذا الأمير، وكان الأحمر شقيق قائد التحالف قاسم ومن كبار أسر حاشد وبكيل، ولم يظن النقيبان بوجوب إخفاء استيائهما.

وجه الأحمر لومه إلى الإمام بالخيانة فوضعه حالاً في السجن، فثارت ثائرة الماس وشكل حزباً لعزل الإمام الذي علم بذلك ودعاه إلى قصره وقدم له قهوة مسمومة فتوفي الماس قبل مغادرته القصر.

وعندما علم القاسم بسجن أخيه الأحمر، هاجم بجيش الحلفاء دويلات الإمام وفقد ابنه في إحدى المناوشات فاضطره حزنه العميق إلى الانسحاب، وخاف الإمام من تجدد هجمات الحلفاء حاشد وبكيل لإطلاق سراح الأحمر فقطع سراً رأسه في السجن، ومنذ ذلك الحين لم تتوقف هجمات حلفاء حاشد وبكيل على دويلات الإمام للثأر، فأحرقوا عدة مدن قبل وصولنا إلى اليمن بوقت قصير.

تصرف الإمام المشين تجاه شيخ الحجرية البائس، جعله يتطاول على جيرانه ورعاياه، مما سيجر عليه المصائب ويعزله من منصبه.

الفصل الخامس

تشريع دويلات صنعاء وحكمها

نظام الحكم في اليمن نظام وراثي، وحسب الرغبة العامة للرعايا فإن على الإبن البكر من زوج الإمام الشرعية أن يخلف والده. ولطالما أخلت الثورات التي أبرزتها بإيجاز بهذا النظام الوراثي، ولا يمكن احترام النظام في دويلات استبدادية كما هي الحال في كل دويلات الشرق، لأننا لا نعرف فيها أبداً الأنظمة والقوانين الأساسية. ويبدو في كل الأحوال أن تعدد الزوجات في آسيا يبعث الشك حول حق الخلافة الذي يشوبه الغموض والالتباس عندما يدعي أمراء من أمهات اختلفت حالاتهن حقهم بالحكم بناء على أسباب وجيهة كانت أم باطلة. وبذلك يقرر صلاحية هذه الحقوق بالحكم، اختيار عشوائي لأب ليس بكامل قواه العقلية أو دسائس شابة مقربة.

الإمام أمير مطلق السلطة، ما يمكنه من ذلك أنه يجمع في شخصه السلطة الزمنية والروحية على رعيته. ولا تمتد سلطته القضائية بما يتعلق بالمسائل الدينية لتصل حتى دويلات الحكام الآخرين من بني ملته، حيث يترأس في كل منها القضايا الروحية مفتي أو قاضي خاص يقيم فيها.

وبالرغم من سلطة الإمام المطلقة فإن المحكمة العليا في صنعاء تحد من استبداده، فما هو إلا رئيس هذه المحكمة المؤلفة من عدد من القضاة، ولها وحدها حق الحكم بالإعدام على مجرم ما، ولا يجرؤ الإمام على إعدام شخص دون إقامة دعوى جنائية أمام المحكمة. وقضاة صنعاء رجال في غاية النزاهة لا يمكن رشوتهم بسهولة، أخلاقهم حميدة، مخلصون في عملهم أشد الإخلاص. ولا يبدلون كما يبدل القضاة غالباً في تركيا وتكون مهنتهم مدى العمر بصورة عامة.

ولكن إذا شاء الإمام استخدام سلطته استخداماً سيئاً، فإن بإمكانه ضعضعة القيود القانونية التي وضعتها المحكمة ضد رغباته. فهو يعين القضاة المساعدين ويعزلهم كما يشاء، وبالتالي فإن باستطاعته ابتزاز قراراتهم مهدداً بعزلهم. ولم يفلح

حكام صنعاء باستخدام العنف، فقد كانت تتبع أعمال الاستبداد إقالة الحاكم الذي جازف وقام بمثل تلك الأعمال.

لاح في الأفق مصير الإمام الحاكم الذي بدأ بسبب فظاظته ونهبه وابتزازه يمتحن صبر رعاياه.

كثرت المناصب والوظائف في قصر الإمام وندرت الألقاب الشرفية. فلا يتمتع الوزير الأول إلا بلقب فقيه، لقب يلفه الغموض كما يلف لقب معاونيه وكل العلماء أيضاً، والذين يظنون أنهم أعلى شأناً من العامة ويعتبرون منصب الفقيه كمنصب الوزير. الوزراء ومعاونو الدولة ووكيل المؤسسات الخيرية ووكيل المباني ومدير الجمالين وبالتالي كل من يشغل المناصب الكبرى، فقهاء، كلهم فقهاء ولا يتلقون أية صفة أكثر تميزاً.

لكل منطقة صغيرة في بلدان الإمام حاكمها الخاص. وإذا كان الحاكم أميراً أو كان من كبار الأسر العريقة فإنه يسمى والي أو دولة، وفي بعض الأحيان يسمى أميراً عندما يكون من أصول شعبية. وقد أتيحت لي الفرصة لأرى أن حكام صنعاء يستحسنون في السياسة تقليد هذه الوظائف إلى حديثي النعمة بدل إعطائها إلى أشخاص من سلالة عريقة.

يشبه قليلاً لقب دولة في اليمن باشا في تركيا. وهو يقود جيوش منطقته ويدير الشرطة ويجبي الضرائب. وعندما تكون الحكومات مربحة يعزل الدولة بعد عامين أو ثلاثة أعوام خوفاً من إثرائه. أما إذا أبقى الإمام على دولة في منصبه، فإنه يرسل إليه خيلاً وسيفاً وملابس احتفالية. وعلى كل الولاة تقديم تقرير عن إدارتهم بين الحين والآخر، وإذا ارتكب أحدهم أخطاء فادحة أو قبض عليه متلبساً في اختلاس، فليس أمامه إلا عقوبة السجن أو الحجز على أملاكه، ونادراً ما طبق على المخطئ حكماً بالموت. وحدث في بعض الأحيان أن دولة خلع عن كرسيه وحصل بعد خروجه من السجن على منصب

أفضل من منصبه الأول الذي أزيح عنه، وهي عادة تشير إلى الطغيان، حيث الشرف، وبالتالي أيضاً الفضيحة بواسطة العقاب أمر مجهول.

ويوجد في كل ناحية أو مدينة صغيرة نائب دولة للمحافظة على الأمن والنظام، ترافقه فرقة صغيرة مؤلفة في بعض الأحيان من خمسة أو ستة جنود فقط. يدعى سيد قرية كبيرة شيخاً، بينما يدعى سيد قرية صغيرة حاكماً. يعطى ولاة الحكومات الهامة باش كاتب أو مراقب، ويجب عليه مراقبة تصرفاتهم وإعلام الإمام بكل ما يجري. ويتمكن جاسوس الحاكم هذا في أغلب الأحيان من الوصول إلى مركز الحاكم، ويأتي باش كاتب ليلعب معه اللعبة ذاتها. وفي كل المدن التي يقيم فيها دولة يوجد قاض يتبع لقاضي القضاة في صنعاء. ويحكم القاضي في القضايا المدنية والدينية دون أن يتمكن الدولة من معارضة أحكامه أو يلغيها. وعلى غرار القضاة في العاصمة يتمتع القضاة في النواحي بسمعة طيبة وتعرف عنهم الحكمة والاستقامة والنزاهة. وأمير البحر الذي يراقب السفن في الموانئ البحرية هو ضابط يتمتع بسلطة واسعة تحت إشراف الدولة. أما في المدن الأخرى فيسمى القاضي الأول بشيخ البلد، فهو يفرض الضرائب ويقسمها على الناس. بينما يدير أمير السوق شرطة الأسواق والمنتجات. وتتمتع وظيفتا قائد الحرس والمسؤول عن السجون بمكانة كبيرة وهي مطلوبة جداً.

الفصل السادس

عائدات الإمام

يصعب على مسافر بلا أي شك أن يتعرف بدقة على الأحوال المالية في بلد ما أقام فيه لبعض الوقت. وتتضاعف الصعوبات في شبه الجزيرة العربية، حيث يجب طرح الأسئلة بكثير من التحفظ كي لا تثير الشكوك لدى أمة قلما تجد بين أبنائها أشخاصاً على اطلاع ومعرفة بالقضايا العامة.

إلا أنني حظيت بإمكانية استشارة حرة لرجل خولته كثرة المناصب التي شغلها أن يعرف بالضرورة ميزانية الإمام. كان ذلك الرجل هو اليهودي أوراكي المسؤول عن المباني والمقرب من الإمامين المتعاقبين، وقد تحدثت عن مغامراتهما في تقريري حول رحلتنا إلى صنعاء.

وفق حسابات اليهودي، فقد وصلت عائدات الإمام المهدي محمد إلى ٨٣٠,٠٠ أكو شهرياً. لكن الأسرة الحاكمة وبعد أن فقدت عدة مقاطعات كقعطبة وعدن وأبو عريش وتعز وقسماً من بلاد عنس وحراز، وأعطت منطقتي أصاب والمخادر كإقطاعيتين، فإن دخل الإمام المنصور لم يتجاوز شهريا ٣٠٠,٠٠ أكو أي وحدة نقدية. واستعاد الإمام بعض الأجزاء المقتطعة وتملّك أجزاء أخرى مما سمح لدخله بأن يبلغ اليوم ٤٠٠,٠٠ وحدة نقدية شهرياً. أو ما يقارب ٥٠٠,٠٠٠ وحدة نقدية سنوياً.

ولن يكون باستطاعتي من خلال هذا المبلغ تقدير غنى الإمام وذلك لأني أجهل نفقاته الضرورية، وهو أمر لم يتمكن حتى أوراكي اليهودي من إعطائي بعض الإيضاحات عنه.

قيل لي في الأرياف إن كل وال كان يدفع رواتب جيش منطقته، وكل ما يتعلق بالشرطة، ولا يرسل للإمام، إلا ما تبقى بعد حسم كل النفقات العامة.

هذه العائدات كانت تتألف من الضرائب المفروضة على الأراضي والأشخاص والمحددة منذ أمد بعيد، ومن الرسوم المفروضة على البضائع. وتشكل الرسوم المفروضة

على البن الجزء الأكبر من الدخل، ينال الإمام من هذا المنتج ربع ثمن مبيعها قبل أن تصدّر. ومن المهم أن بليني تحدث مسبقاً عن عادات العرب القديمة في تأدية ضريبة تبلغ ربع ثمن انتاجهم من البن لحاكمهم.

الفصل السابع

القوى الحربية في ولاية صنعاء

يدفع الإمام لجيش نظامي، ولم أتمكن من معرفة عدد هذا الجيش بدقة. وحسب الرأي السائد فإنه يتألف بشكل عادي من ٤٠٠٠ رجل من المشاة، وجزء كبير مدرب في حاشد وبكيل ومن ١٠٠٠ فارس.

الضباط الكبار الذين كانوا يرأسون الجيش، هم أربعة شيوخ أو أمراء عرب: وهم شيوخ همدان وودى (Wada) وسفيان وخولان، وبالإضافة إلى هؤلاء القادة الأربعة الكبار كان هناك عدد كبير من نقباء أو قادة من أصول شعبية، حتى أن بعضهم كان من الرقيق في شبابه، والنقيب هو أعلى منصب يستطيع الإمام منحه، فلقب الشيخ مرتبط حصراً بالنسب ويعطى للسادة الحكام أو المستقلين.

في أوقات السلام تتلخص وظيفة الفارس في العناية بفرسه وفي مرافقة الإمام إلى المسجد، أو مرافقة الوالي إن كان في الريف.

يعتني العرب عناية فائقة بتربية الخيل والاهتمام بها فلكل منها نعّال خاص. ويترك رأس الخيل حراً بينما تربط قوائمه بشدة إلى الأرض مما يمنعه أن يكون حصاناً حروناً.

وبعد أن يرافق الخيالة الإمام أو الوالي إلى المسجد، يجرون في عدو سريع مع الرماح، ففي ذلك تنحصر كل تدريباتهم العسكرية. وبما أن الليالي باردة جداً في اليمن، تغطى الجياد حالاً بأغطية لا تنزع عنها طالما لم تمتط صهوتها.

معظم الفرسان لهم عمل مدني أيضاً ويمارسون عملهم خارج أوقات التدريب. وهم مسلحون برماح وسيوف كما يحمل بعضهم اثنين من البنادق معلقين بطرف السرج. وليس للِّباس الموحد أي وجود فكل يلبس على هواه ووفق رغباته.

أما المشاة في فرق الجيش فهم أيضاً بلا فائدة أو نفع، ونادراً ما يوظف مشاة كحرس

فيما عدا أبواب المدينة، يرافق المشاة أيضاً الوالي إلى الجامع ويمشون في رتل واحد وفي مقدمتهم أربعة رجال يحملون أسلحة في أيديهم ويقفزون ويغنون كالمعتوهين. وعند العودة من المسجد يقوم المشاة بإطلاق بعض العيارات النارية العشوائية تحية للوالي، هذا الاحتفال هو التدريب الوحيد الذي يدرب فيه المشاة على القتال.

ولباس المشاة أسوأ من لباس الخيالة، حيث يلف معظم الجنود بكل بساطة وسطهم بنسيج ويغطون رأسهم بمنديل، ويرتدي أكثرهم أناقة وزينة قميصاً وسروالاً من القماش الأزرق.

وللعرب طريقة فريدة لإظهار قوتهم وشجاعتهم في القتال، وتشبه هذه الطريقة طريقة الأسلاف في التفاني وبذل النفس. فمن أراد إثبات ولائه لسيده قام على ساق مثنية بإطلاق النار إلى أن ينسحب العدو أو أن يقتل. ظننت ما روي لي عن هذه الطريقة أنها كمجرد خرافة، لكنني حققت في الأمر لأتأكد من صحة هذه الرواية من مثال حديث العهد لشيخ من حاشد وبكيل والذي كان في خدمة الإمام وبذل نفسه في إحدى المعارك ضد مواطنيه. فكلف ستة من الرقيق بدك البنادق لهذا الشيخ الذي أخذ يطلق النار بلا هوادة إلى أن تركه جيش الإمام فقضى عليه الخدم الخاص. ولا يوجد سلاح مدفعية على الإطلاق عند هذه الجيوش، حتى أن العرب لا يعرفون أبداً كيف تستخدم المدافع، على نحو أن جنود المدفعية في بعض المدن هم من المرتدين أو الأتراك المتشردين الذين لم يتعلموا أبداً كيفية استخدام المدافع. وبما أن الإمام لا يخشى أعداء ولا قراصنة في البحر الأحمر، فليس بحاجة لأي سلاح بحري، ورعاياه غالباً ليسوا بحارة مهرة وقد سمحت لي الظروف لألمس بنفسي ذلك الأمر. ويظهر البحارة وحدهم شيئاً من الشجاعة والمهارة في مغامراتهم ومجازفاتهم في عرض البحر في قوارب صغيرة بلا أشرعة وبلا مجاديف تقريباً.

الفصل الثامن

الفنون والتجارة في اليمن

بالرغم من المواهب الطبيعية للأمة، فإن الفنون بسبب نقص التشجيع تهمل بالكامل في ولايات الإمام وفي البلاد المجاورة. فالكتب نادرة فيها، لأن العرب لا يحبون الكتابة المطبوعة. وتبدو كتابتهم المتشابكة أجمل وأبهى إذا كتبت بخط اليد، ويصعب عليهم قراءة الكتب الصادرة عن مطابعنا. ولهذا السبب لم تلق مطبعة إبراهيم أفندي في إسطنبول أي نجاح، فآلت حال هذا الرجل هو ومطبعته إلى الإفلاس. أما الخط العبري وبسبب سهولة طباعته، فإن مطابع اليهود في إسطنبول وإزمير وسالونيكي ماتزال قائمة.

وبما أنه لا يحق للمؤمنين المسلمين وخاصة السنيين منهم استخدام الصور، لذا لا نجد في اليمن رسامين أو نحاتين. لكن الكتابات في اليمن تحفر حفراً جميلاً.

مازال عند الأتراك بعض الموسيقيين في حين لا يهتم العرب أبداً بالموسيقى، ولم أسمع في اليمن عزف أية آلة موسيقية فيما عدا الطبل والشبابة.

يصاغ جيداً الذهب والفضة في اليمن، لكن كل الصائغين هم من اليهود أو من البانيانيين. ويوظف اليهود فقط حتى اليوم لسك النقود.

يعمل كل العمال العرب وهم جالسون، عادة لا تدل على نشاط كبير. يسير المرء دائماً حافي القدمين، ولا ينتعل أبداً ما يزعجه، ويستخدم الكثير أقدامهم في العمل ففيها المهارة المتوافرة في أيديهم.

لا يستخدم في اليمن إلا المطحنة البسيطة التي تدار باليد، لكني رأيت في تهامة معصرة زيت يديرها ثور، ومن المدهش أن هذه القوة المحركة لم تستخدم في مطاحن القمح.

أما المصانع فإنها تنعدم تقريباً عند شعب ليس بالشعب الصناعي، ولا تصنع

السيوف أبداً في اليمن بل بعض الخناجر المعقوفة والمسماة جنبية. و قد بدؤوا منذ بعض السنوات بإنتاج البنادق ذات الفتيلة التي تعمل بصعوبة. وقد أسس في الآونة الأخيرة أول مصنع للزجاج في المخا. ولا تكفي الأقمشة التي تخلو من الإتقان التي تصنع في اليمن للاستهلاك، فيستورد الباقي من مصر وتستورد الأقمشة الراقية من الهند، ويجهل سكان اليمن تماماً تصنيع واستخدام الملاءات. وقد اضطر الإنجليز الذين أحضروا أغطية أسرة إلى المخا، إلى نقل بضاعتهم إلى الهند دون أن يتمكنوا من بيعها في اليمن.

بلد لا ينتج الكثير من البضائع المعدة للبيع، لا يمكن أن يكون له تجارة هامة. فكل الصادرات اليمنية تتلخص في البن، مادة مهمة والحق يقال، يجب أن تكفي البلاد في تبادلها مع البضائع الأجنبية الضرورية.

تحدثت عن الاستيراد عندما تحدثت عن تجارة المخا. فكل تجارة اليمن تُصدّر وتُستورد عبر هذا الميناء، باستثناء القليل من البن المصدرة من اللحية والحديدة، ويتضمن ما قلته عن التجارة في المخا وصفاً عاماً للتجارة في اليمن كله.

الفصل التاسع
مدن مهمة في ولايات الإمام

قطعت جزءاً كبيراً من هذه الدويلات في أسفاري أو في رحلاتي الخاصة، وقد أعطيت وصفاً عنها في تقاريري. ولم يبق لي إلا أن أتحدث عن بعض المناطق التي تقع داخل البلاد التي لم أصل إليها، ويبدو لي أنها تستحق بعض الاهتمام. وقد أعطاني الموجز الذي أورده عنها أناس مثقفون.

وصفت مسبقاً تهامة كلها أو السهل الكبير الذي قطعته من شرقه إلى غربه، وبذلك ليس لدي ما أضيف فيما بتعلق بحكومات المخا وحيس وزبيد وبيت الفقيه والحديدة واللحية.

أما في الجزء الجبلي، فقد رأيت ووصفت حكومة صنعاء وذمار ويريم والمخادر وجبلة وتعز وبلاد عقلان والعدين وحراز ومدينة موشك (Moshak). أما المدن والنواحي الأخرى التي تعرفت عليها بفضل ذلك الموجز فهي:

ضوران (Doran): مقر بعض الأئمة، مدينة قديمة جداً تقع على منحدر جبل بالقرب من الطريق المؤدية من ذمار إلى صنعاء، لناحيتها شيخ خاص كشيخ جبل الشرق وهو جبل عال يقع بالقرب منها.

قعطبة (Kataba): مدينة لها واليها وقلعتها الحصينة تقع في منطقة خصبة يمر فيها وادي جميل ليصب في البحر قرب عدن. ويوجد في هذه المنطقة سلسلة جبال شاهقة مقفرة تقع على تخوم دويلات الإمام.

الحجرية: كانت قديماً منطقة ودولة، وفيما بعد مجال الشيخ المشهور عبد الرب، لكنها انضمت حالياً إلى دويلات الإمام. وفيها مدينة دملؤه المحصنة الواقعة على جبل أبو الفداء وكانت تدعى كنز الملك، وقلعته المشهورة والمنيعة (Mukâtera) فهي تقع

على جبل عال ووعر لكنه غني بالموارد المائية والقمح، التي لا يمكن الوصول إليها إلا عبردرب واحد ضيق يغلق بباب.

أصاب (Osab): وهي ناحية أعطيت كحصة لأحد أقرباء الإمام، فيها مدينة صغيرة وثلاث قلاع على الجبال.

كسمة (Kusma): مدينة صغيرة تقع على جبل عال، لكني لم أر منطقتها إلا من حدودها المتاخمة لتهامة، تتميز المنطقة بالجبال المزروعة بالبن التي تمتد حتى داخل البلاد ويسكنها عرب أحرار.

جبي: مدينة وحكومة تمتد امتداداً واسعاً فيها العديد من الشيوخ المستقلين، تقع باتجاه الشمال. تؤلف هاتان الناحيتان أي كسمة وجبي منطقة ريمة وهو اسم متميز لأنه يشيروينوه إلى تجار ريمة في التاريخ القديم. منطقة خصبة جداً وتنتج بشكل خاص العنب والبن بوفرة.

حمران (Homran) : مدينة قديمة فيها آثار قلعة. ويقال إنه يوجد في الجبل الذي يقع بالقرب منها ٣٦٠ حوضاً محفوراً في الصخر. ولا تبعد المنطقة عن الطريق المؤدية من صنعاء إلى بيت الفقيه. وفيها أيضاً جبل برع الشاهق والخصب.

سفكين (Sefkin) : مدينة كبيرة تقع في ولاية حفاش (Hofaesch) وتمتد أيضاً إلى جبل ملحان.

مناخة: مدينة هامة تشتهر بمعارضها ويقيم فيها والي هراس الذي تطوق ولايته أيضاً ناحية صعفان التي يملك فيها الشيخ المكرمي قصراً منيعاً استولى عليه بغتة منذ عدة سنوات.

ويوجد في شمالي غربي صنعاء منطقة مرتفعة واسعة كانت من المفروض أن تعود بملكيتها للإمام. لكنها مليئة بعدد كبيرمن الشيوخ الذين لا يعترفون بسيادة هذا الأمير عليهم. لكن الإمام يملك عدداً كبيراً من المدن وينصّب فيها ولاة لا تتعدى سلطتهم أبداً أسوار مدنهم، ومن هذه المدن:

ثلا: مدينة محصنة فيها قلعة يقيم فيها الوالي وتمتد سلطته القضائية على قلعة ومدينة صغيرة أخرى أيضاً. ويعود ما تبقى إلى الشيوخ. يوجد في الناحية شهارة وهو جبل عال فيه أكثر من ٣٠٠ قرية، يتقاسمها عدد من الشيوخ، وتستمد شهرتها من كونها مسقط رأس قاسم سيد الأسرة الحاكمة الذي أقام فيها أيضاً.

خمر: مدينة محصنة جيداً تقع وسطي أراضي الحلفاء حاشد وبكيل، يحتفظ الإمام بملكية المدينة بصعوبة بالغة.

ميدم: عاصمة إمارة همدان، حيث يملك الشيخ قصراً فيها. يبلغ طول الإمارة مسير يومين ويبلغ عرضها مسير يوم واحد، وتعتبر من ولايات الإمام، منذ أن أجبر شيخها الحاكم على الاعتراف بتبعيته لحاكم صنعاء.

عمران: مدينة ذات حصن تقع في منطقة خصبة، كان يملكها فيما مضى حلفاء حاشد وبكيل، وقد دفن فيها أسعد الكامل وهو واحد من أشهر ملوك اليمن وأقدمهم.

الفصل العاشر

أمراء وشيوخ مقيمون في دويلات الإمام

إن إحدى كبرى خصائص اليمن بلا شك هو ذلك الحشد من الأمراء الصغار والسادة المستقلين الذين تقاسموا فيما بينهم منذ القديم السلطة في بلادهم.

يقدم لنا تاريخ العرب وعلى مدى قرون عديدة، المشهد ذاته الذي قدمته لنا أوروبا في وقت قصير وعلى مدى قرون قليلة من العصور الوسطى، بفارق كبير أن الشيوخ عرفوا نادراً التبعية وجهلوا تماماً النظام الإقطاعي.

وقد أوحت طبيعة اليمن وظروفه، للشعب الذي يسكن على أرضها بروح الاستقلال التي تميزه عن غيره من الشعوب. شعب تحاصره الصحراء أو يقيم في جبال يصعب النيل منه، شعب لم يفتح بلاده فاتح. ولم يكن ذلك حال العرب المقيمين في السهول الذين استولت عليهم ولو إلى حين، قوى أجنبية حاصرت الخليجين اللذين يحيطان من الجهتين بهذه البلاد.

ولذا نجد شيوخاً مستقلين بين البدو أو العرب الرحل، الذين يهربون من قسوة العيش الذي يسببه قحط وجفاف الأرض ولأنهم يتمتعون بسهولة اللجوء والهروب إلى الصحراء فلا تتمكن الجيوش من اللحاق بهم. ونجد كذلك شيوخاً مستقلين عند القبائل أو بالأحرى العرب الذين يسكنون سلاسل جبلية وعرة لكنها خصبة تمد الشعب المتقشف بالقوت والزاد، تلك الجبال التي يحاصرها الأعداء عند تراجعهم وانسحابهم.

أما الشيوخ المقيمون في ولايات الإمام فهم من هذا النوع الأخير. وتنتصب في المناطق الجبلية التي يقطنونها جبال شاهقة شديدة الارتفاع بيد أنها مزروعة حتى قممها وغنية بالمنتجات. السبيل إلى تلك الجبال شاق جداً وتعترض المعابر عبر الوديان قلاع وحصون تنتصب فوق جبال معزولة. ومما يثبت ويشهد على السهولة التي يتمتع بها الشيوخ في الدفاع عن النفس، هو أن الأئمة الذين طردوا الأتراك بسهولة

من الأراضي المنبسطة، أخفقوا في كل مساعيهم ومحاولاتهم لإخضاع هؤلاء الجبليين، باستثناء عدد ضئيل منهم اعترفوا بسيادة الأئمة على أراضيهم.

ولم أتمكن البتة من معرفة أسماء كل أولئك الشيوخ والأمراء ولا حتى أسماء مناطق نفوذهم إلا أنه تناهى إلى سمعي أنه يمكن عموماً تصور كثرتهم، عندما يُحصى فقط ذوو مناطق النفوذ المطوقة في سيادة صغيرة المساحة، كما هي الحال في سيادة إمام صنعاء.

ولا يوجد في تهامة أي شيخ مستقل. لكن نجد بالقرب من مقر الحكم في صنعاء، شيخ بني ظبيان وهم أفراد قبيلة بدوية.

ويوجد في حكم بلاد عنس شيخان محترمان هما شيخ بلاد عنس وشيخ جبل الشرق.

أما جبل سمارة الكبير والعالي فيتقاسم ملكيته الشيخ وادي وشيخ بني حسان ويتبعان للإمام، لكن مدينة حفاش التي تقع في ضواحي هذا الجبل فإن لها شيخها الخاص المستقل.

أما جبل صبر المشهور الذي تحدثت عنه عندما وصفت تعز، فيتقاسمه حسب ما قيل أكثر من مائة شيخ حر وريث، ولا يتبعون أبداً للإمام الذي تحيط مناطق نفوذه بهم. هذا الجبل الخصب هو وبمعنى أدق سلسلة ممتدة من الجبال المتباينة الارتفاع.

ويوجد في ولاية الحجرية شيوخ المنصورة والعزاعز. أما منطقة بني يوسف وجبل حبشي ففيها أيضاً عدد كبير من السادة الورثة المستقلين.

وقد سبق لي وتحدثت عن أمير بني عقلان الذي يقيم في دوريبات، وعن الشيوخ المستقلين الذين يمتلكون جبال قمرة الذي تنغلق عليه تلك الإمارة، وبمناسبة الرحلة التي قمت بها مع حملة السيد فورسكال في القسم الجبلي من اليمن، فقد تحدثت أيضاً عن أمير العدين ومناطق نفوذه.

يمكن مقارنة هذين الأميرين لمقاميهما وسلالتهما العريقة بأكثر الأمراء نبلاً وتميزاً في بلاد أخرى. وينتمي أمير أصاب إلى أسرة الإمام ويتبع له أيضاً، فما إمارته إلا إقطاعية قسمت من ولايات صنعاء.

وليس هناك أي حكم يضم عدداً أكبر من عدد الشيوخ المهمين في كسمة، حيث توجد الكثير من الجبال المزروعة بالبن. وهي أي كسمة ناحية مؤلفة بالكامل من جبال وعرة مزروعة بالبُن حتى القمم، وهي بشكل طبيعي غير مأهولة كثيراً بالسكان، فأهلها اغتنوا مما يجنون من وفرة البن، بذلك يمكن الحفاظ على عدد من السادة الأغنياء والأقوياء. وقد سموا لي ما يربو عن ثلاثين أميراً يجنون أرباحاً طائلة من تجارة مناطق نفوذهم، حيث تباع كمية كبيرة مثيرة للعجب من البن. ويتمتع كل هؤلاء الشيوخ بالاستقلال الكامل ويقيمون في قصورهم المحصنة في الجبال.

ولاية الجُبِّي لها ذات الطبيعة فيما يتعلق بالاستغلال الزراعي والإنتاج في كسمة، وفيها أيضاً عدد كبير من الشيوخ المهمين. وقد عرفت أسماء أكثر من عشرة أمراء يعيشون كشيوخ كسمة.

يوجد في جبل حراز الكبير والخصب والغني بالكروم قصور بعض السادة المستقلين. وقد استولى الشيخ المكرمي على أحد تلك القصور.

ومن المناطق التي فتحها الإمام في معاركه مع الحلفاء حاشد وبكيل، بقي هناك الكثير من الأراضي الحرة، أكثر من عشرة شيوخ متميزين هم شيوخ بني أشيب وشمسان ومران. بالقرب من ثلا هناك السيد محسن الحاج، وهو أمير انشق عن الأسرة الحاكمة. وأما جبل شهارة مع قراه التي يبلغ عددها ٣٠٠ قرية، فيتقاسمه جمع من الشيوخ كان عدد كبير منهم من أقرباء الأسرة الحاكمة قبل ارتفاعها إلى سدة الحكم في صنعاء.

ويتميز أمير همدان بقوته وشجاعته وعراقة سلالته، فهو ينحدر من قبيلة همدان المعروفة والشهيرة حتى قبل النبي محمد، وبالرغم من كل مميزاته إلا أنه أجبر على التبعية ويبدو أن ذلك يرجع إلى اتساع منطقة نفوذه وامتلائها بالسهول مما يصعب

أمر الدفاع عنها. ونرى في هذه الإمارة قرية فريدة اسمها المواكب (Mauakeb) بيوتها الكثيرة محفورة كلها في الصخور. وتظهر التفاصيل إلى أي حد يشبه الحكم الحالي في اليمن الحكم في ألمانيا، ولا ينقص العرب إلا رئيس أعلى، فعندهم أمراء وطبقة نبلاء مداهمة وعصبة أرستقراطية، لكن قانونهم ليس جديداً ولم يخلق في الغابات بل دستور موغل في القدم كقدم المجتمع ويبدو أنه سيستمر طويلاً باستمرار البلاد حيث أقامته الطبيعة.

القسم العشرون
مقاطعة حضرموت

الفصل الأول

طبيعة هذه المقاطعة وتجارتها

يحد حضرموت من الغرب اليمن ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الشمال الشرقي عُمان كما يحدها من الشمال الصحراء الكبرى. في هذه المنطقة سهول واسعة وخاصة إذا ألحقناها ببلاد المهرة كما يفعل العرب عادة. وتشبه المهرة تهامة إلى حد ما، فهي سهل رملي يمتد عرضاً من شواطئ المحيط الهندي إلى المنطقة التي تبدأ فيها الجبال بالظهور. ومن المحتمل أن يكون هذان السهلان أراض تراجع عنها البحر شيئاً فشيئاً.

وبسبب وجود الجبال والشواطئ، فإن أراضي حضرموت كما هي أراضي اليمن شديدة الاختلاف والتباين. ففيها أجزاء قاحلة وصحراوية ومناطق جبلية خصبة جداً تتخللها وديان مروية بعناية.

وينقسم أهل هذه المنطقة كأهل اليمن إلى سكان المدن والبدو الرحل والقبائل وأهل الجبال.

عمل لدي رجل ولد في حضرموت كان يسمي بلاده مركز العلوم والدين. ولا يحمل عرب آخرون مثل تلك الفكرة الحسنة ولهم الحق في ذلك بسبب قساوة لهجة تلك المقاطعة والتي تختلف اختلافاً جلياً عن اللهجة المحكية في اليمن، حتى أنه لزمني مترجم للحديث مع الرجل في مديحه وثنائه المفرط لبلده. ملحوظة: هل الخرافات والأوهام عند السنيين فقط؟ يجب أن تكون ديانة أبناء بلده محشوة بالخرافات والأوهام وذلك لأن السنيين هم الأغلبية في حضرموت.

كما سبق لي وذكرت يتألف اليمن السعيد من اليمن وحضرموت، وقد كان له في القديم الغابر تجارة واسعة. لم يقتصر تصديره فقط على منتجاته الخاصة بل على البضائع الهندية أيضاً التي كانت تصل في مراكب هندية إلى موانئه المنتشرة على شاطئه المشرف على المحيط وبما أن للملاحة في البحر الأحمر ذلك الصيت كونها ملاحة

خطيرة، فقد كانت البضائع تنقل في قوافل براً إلى مصر وسوريا، وقد جنت البلاد من تلك التجارة أرباحاً كثيرة، فكانت أرباح سكان المدن من البيع والشراء، وأرباح البدو من تأجير جمالهم. إذا لم يخدعنا الأقدمون عندما رسموا لنا لوحة مضيئة عن غنى اليمن السعيد، بالرغم من أن حاله اليوم ليس على تلك الدرجة من الازدهار.

ومنذ أن وجد الأوروبيون طريقاً آخر لاستيراد البضائع من الهند، قد شعر اليمن الجنوبي فعلياً بتدهور حال تجارته. وعوض اليمن عن تلك الخسائر بتصدير هائل للبن بدأ منذ قرنين ومازال مستمراً حتى اليوم. لكن حضرموت التي تنتج القليل من البن فإنها تفتقر إلى تصدير مورد خاص بها، ولم تنتعش بعد فقدان التجارة مع الهند.

إلا أنها ما زالت تمارس شيئاً من التجارة بمنتجاتها الخاصة، وتأتي المراكب من مسقط لتحمل من موانئها على المحيط القليل من البن المنتج فيها والبخور والصمغ العربي ونبتة دم الأخوين والمر والصبر. بخور اليمن متوسط الجودة، أما سقطرة وهي جزيرة تعود بملكيتها إلى أحد أمراء حضرموت فإنها تنتج الصبر الذي عرف دوماً بجودته الفائقة. ويملك سكان حضرموت أيضاً بعض المعامل القليلة الأهمية، وتنتج اليمن النسيج الرخيص والسجاد والكثير من الخناجر المسماة جنبية والتي تُحمل على الحزام، وبما أن سكان حضرموت لا يحبون البحر أبداً، فقد كانت المراكب الأجنبية تأتي لتحميل كل البضائع من موانئ حضرموت.

الفصل الثاني

المدن الرئيسة في حضرموت

هناك الكثير من المدن الهامة في هذه المقاطعة، والمشهورة قديماً أكثر من شهرتها في الوقت الحاضر. ولم أتمكن بالرغم من بحثي وسعيي لمعرفة أسماء معظم تلك المدن، وقد أخبرني بأسماء بعضها الآخر أشخاص على قدر متواضع من الثقافة في حكم حضرموت الحالي. وسأروي ما ذكر لي عن بعض تلك المدن.

شبام: مدينة كبيرة ومركز أمير قوي، تبعد مسير ثمانية أيام عن صنعاء وعشرة أيام عن مأرب. وقد روى لي عربي من مأرب أنه لم يصادف أية قرية في الجوف عندما أتى من مأرب مسقط رأسه، لكنه مر بالعديد من المدن الكبيرة في حضرموت. وتبدو شبام وكأنها كانت سبأ القديمة وقد استمد السبئيون اسمهم منها، فقد سكن هذا الشعب في القسم الجنوبي من اليمن السعيد، قبل أن تكون مأرب عاصمة مملكتهم.

دوعن: مركز شيخ، وتبعد باتجاه الشرق مسير ٢٥ يوماً عن صنعاء، ومسير ١١ يوماً عن قسم في يافع، وقد قال لي أحد سكان هذه المدينة وكنت قد التقيته في اليمن إن دوعن كانت أكبر وأجمل من صنعاء.

ظفار: مدينة معروفة وميناء بحري يصدّر منه البخور، وتسمى بالعربية علبان أو لبان، ولا يماثل بخورها بخور الهند في جودته، ويهتم العرب ببيع البخور كما يبيعون الصمغ بلا تنظيف، وهو إهمال يؤدي إلى خفض سعره وتدني جودته، كما ويقيم شيخ في ظفار.

قسم: مدينة وميناء ومقر أمير حاكم، يعرف أهلها بالكرم وحسن الضيافة واستقبال الغرباء. ويرتاد الإنجليز هذا الميناء في بعض الأحيان.

مرباط وحسك: مدينتان تشتهران فقط بممارسة سكانها لتجارة البخور في منطقتهم، والبخور أقل جودة من بخور ظفار، لكنه أفضل من البخور الآتي من الشحر،

يستخدم البخور بكثرة في معابد الهند وفي بعض المنازل الخاصة في مناطق متفرقة من الشرق، بينما لا يستخدم البخور أبدا في المساجد.

عينات: مدينة كبيرة نوعا ما، تبعد مسير ١٣ يوماً عن قسم و٧ أيام عن الشحر. وقد قال لي أحد سكان هذه المدينة وكنت قد التقيته في مسقط، إن ضريح النبي القديم قحطان الذي ورد ذكره في القرآن، يوجد على مقربة مسير يوم واحد من عينات، وقد أكد لي ذلك بعض الأشخاص العرب. كان هذا الضريح مقصدا للحجاج قبل عهد النبي محمد، أما اليوم فيجتمع فيه سكان حضرموت في أوقات محددة للزيارة. كما يقام في المدينة مهرجان مشهور ونلحظ أنه يعود الفضل في كل أعياد الحج التي تقام في نفس المكان على مدى قرون عديدة، إلى استمرارية التجارة فيها.

وقد سمى لي ذلك العربي من عينات أكثر من عشرين مدينة كبيرة في داخل حضرموت كان قد سافر هو إليها، وبما أنني لا أعرف منها إلا أسماءها فلن أتكلف عناء ذكر لائحة عقيمة لا ترجى منها أية فائدة. وكذلك الأمر مع أسماء موانئ كثيرة لم أعرف عنها أية خصوصية أو تميز. إلا أن ما أثار انتباهي في تلك اللوائح هو التشابه الفريد بين أسماء مدن حالية في حضرموت وأسماء مدن اليمن السعيد التي ذكرها أقدم المؤرخين. وقد حدت بي تلك الملحوظات إلى الاعتقاد بأن القيام برحلة إلى هذه المقاطعة سيكون له أهمية رحلتنا إلى اليمن، ولن يكون السفر إليها أشق وأضنى مما تعرضنا له سابقاً. تعرفت إلى رجل تركي روى لي سفره السهل والآمن إلى موانئ اليمن الجنوبي. ويبدو أن سكان الشواطئ الذين يذكرون حشود وازدحام الغرباء فيما مضى، قد ألفوا واعتادوا على استقبال هؤلاء الغرباء بكل بحفاوة وترحيب، وهاهم يستقبلون الأوروبيين اليوم أحسن استقبال.

الفصل الثالث

أمراء حكام في حضرموت

للبدو وسكان الجبال كما في كل اليمن السعيد، عدد كبير من الشيوخ المستقلين. وبما أنني لم أدخل في تفاصيل ذلك فلن أستطيع الحديث عنه.

أما الشواطئ والبلاد المتاخمة لها، فيتقاسمها عدد من الحكام المهمين الذين يسميهم المسافرون ملوكاً، لكنهم لا يتخذون إلا لقب شيخ أو سلطان، شيخ شبام كما سبق ونوهت هو أحد أكثر هؤلاء الشيوخ نفوذاً.

دوعن تعود إلى شيخ يبدو لي من آل النبي محمد وأسرة الأئمة، وذلك أن الشيخ الذي حكم في عام ١٧٦٣م كان اسمه سيد عيسى العمودي. ويوجد في المدينة المجاورة أضرحة كل أمراء تلك الأسرة المشهورة بأسرة العمودي. أما شيخ ظفار فهو حاكم أيضاً لكنني أجهل اسمه ومدى نفوذه.

وهناك شيخ في عُمان والمسمى في تقارير عدة رحلات ملك فرتك فهو أشد نفوذاً، ويمتد سلطانه على عدد هام من المدن، ونجد بين أسمائها فرتك، التي سببت التباساً حول مملكة فرتك المذكورة في العديد من الخرائط. ويبدو أن أحد أمراء قسم قد سكن تلك المدينة لبعض الوقت وأعطاها لقب مملكة.

وفيما عدا اليابسة التي يملكها، فإن شيخ قسم مازال يملك جزيرة سقطرة الهامة والمشهورة بالصبار (البلس). والوريث المحتمل للشيخ الحاكم حالياً، هو حاكم الجزيرة بشكل دائم والتي بدت وكأنها تعود بملكيتها إلى هؤلاء الأمراء العرب منذ القديم الغابر. وقد روى (أريان) (Arrien) أنها خضعت مسبقاً لحاكم البلاد المنتجة للبخور. وقد وجد البحارة البرتغاليون القدماء أمير قسم يتمتع بملكية قديمة لسقطرة وبلا منازع. يجب أن تكون إمارة عينات متسعة جداً حسب تقرير عربي مولود في مدينة تسمى عينات، الذي أراد أن يصفها لي، لكن شكوكاً راودتني أن حاكم عينات هو أحد سلاطين يافع الذين فتحوا بعض المناطق في حضرموت. ويوجد حسب ما يبدو لي أنه توجد سيادات أخرى في هذه المقاطعة الواسعة، لكني لم أتمكن من الحصول على المزيد من الإيضاحات حول البلد التي تستحق أن تعرف أكثر من جميع النواحي.

خارطة الخليج العربي

القسم الواحد والعشرون
منطقة عُمان

الفصل الأول

عُمان بصورة عامة

يحد منطقة عُمان من الشرق المحيط ومن الشمال الخليج العربي كما يحدها من الغرب والجنوب صحاري واسعة، لم أر فيها إلا ضواحي مسقط على نحو يلزمني بالعودة إلى تقارير من أجل وصفها. ويتقاسمها عدة حكام صغار من أهمهم إمام عمان أو مسقط. ويطلق لقب شيخ على أمراء جاد وغابريا ورانك وغفر وجابي وداهرة وماقنياط وصور. ولا يوجد على كل الساحل الشرقي في عمان سهول رملية إلا مسافة مسير يوم واحد من قرية سيب وصولاً إلى مدينة صُحار. وكل منطقة نفوذ الإمام هي منطقة جبلية تمتد حتى البحر، ولهذا السبب تجري فيها الأنهار على مدار العام. فيما خلا النهر الذي يمر قرب صحار ويجتاز سهلاً قحطاً فتضيع مياهه في الرمال ولا يصل إلى البحر إلا في فصل الأمطار. وتجود هذه البلاد بالقمح والشعير والعدس وأصناف متعددة من العنب، وتجنى منها الوافر من التمر حتى يصدر منها في كل عام حمولة بعض السفن، ولا تبخل أرضها بإعطاء ثمار وخضار متنوعة أخرى، وفيها مناجم رصاص ونحاس، و تكثر الأسماك في بحرها حتى أنها تستخدم لإطعام البقر والحمير إلى ما هنالك من حيوانات بل لتسميد الحقول بدلاً عن روث الحيوانات. ينقسم الناس إلى طائفتين تتهم كل منهما الأخرى بالهرطقة. أتباع الإمام من جماعة فقيه مسلم، وأتباع ما تبقى من الشيوخ هم من جماعة فقيه مسلم معارض.

الفصل الثاني

أراضي إمام عُمان أو مسقط

تمتد الأرض وتتسع التي يملكها إمام عمان. كما أنها تضم عدداً لا بأس به من مدن لم يذع صيتها وتطير شهرتها. سأنقل فقط النزر اليسير من أشهر الخصوصيات التي تمكنت من الاطلاع عليها . وتشكل الرستاق (Rostak)، وهي مدينة بعيدة عن البحر، مكان إقامة الأمير. ويوجد في ضواحيها الجبل الأخضر وهو أعلى جبال عمان وأكثرها امتداداً، وهو وافر الثمار وأهمها العنب. أما صُحار فهي أشد عراقة وشهرة بيد أنها فقدت ألقها الغابر. وتقع إلى جنوب الرستاق، مدينة كلبات (Kalbat) وهي قديمة جداً وكانت مزدهرة في الماضي. ويملك إمام عمان أيضاً كلوة و زنجبار على الساحل الشرقي الأفريقي بفضل غزوة قام بها أحد أسلافه منذ زمن قريب. ومن أهم المدن وأشهرها بين دويلات الإمام هي مسقط ولذا يسمى الحاكم أمير مسقط. وبالعودة إلى الكثير من تقارير الرحلات فإنها تقع في طرف سهل رائع بالقرب من خليج صغير تحيط به جبال وعرة وبالتالي يشكل ميناء ممتازاً ففيه تجد أكبر السفن نفسها في منأى عن الرياح والأعاصير. مازالت بعض القلاع تحميه حتى اليوم وهذه المدينة محصنة بالفن وبالطبيعة. دعاها (أريان) (Arrien) مسقط وقد قيل إنها كانت مستودعاً كبيراً للتجارة بين الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند. وقد تمتعت مسقط على مر السنين بهذه الميزة وتمارس حتى اليوم تجارة هامة. استولى عليها البرتغاليون في عام ١٥٠٨م ونجد فيها آثار الاحتلال وهي كنيستان تستخدم إحداهما كمخزن تجاري والأخرى كدار للوالي، مائة وخمسون عاماً مرت على احتلال مسقط حتى قام العرب بطرد البرتغاليين وقد ساعدهم في ذلك خداع أحد البانيان بعد أن خطف الحاكم البرتغالي ابنته. ولا يكثر البانيان[١] في أية مدينة مسلمة كما يكثرون في مسقط، فعددهم فيها يتجاوز ١٢٠٠، ولهم مطلق الحرية للعيش فيها وفق قوانينهم، كما يمكنهم استقدام نسائهم وامتلاك تماثيل في بيوتهم وحرق موتاهم. وفي حال مغامرة عاطفية مع مسلمة، فإن الحكومة

---

١) البانيان : هم من الجالية الهندية، تمارس بعض الأعمال الحرفية والتجارة.

تعامله بالقسوة التي يعامل بها في أي مكان آخر. وكل ما استطعت معرفته عن العائدات التي يحصل عليها الإمام من دويلاته، هو المبلغ الذي تدره الضرائب المفروضة على البضائع، الذي يصل مقداره ١٠٠،٠٠٠ روبية، أي ما يعادل تقريباً ٣٠٠،٠٠٠ ليرة فرنسية. وفي مسقط تبلغ ضرائب الدخول للأوروبيين ٦,٥ ٪ للمسلمين و ٧ ٪ لليهود والبانيان. كما يدفع الأتباع ٦ ٪ عيناً من التمر التي تشكل أكبر ثروات البلاد.

الفصل الثالث

الثورات في عُمان

يوجد في عمان ثلاث أسر عريقة ومشهورة جداً، وهي أسرة جعفري (Gafari) وأسرة حماني (Hamani) وأسرة العرابي (Arrabi) التي تدعي نسبها إلى قريش الأسرة المشهورة قبل النبي محمد في مكة. ومهما يكن الأمر في هذا الادعاء، فقد حكمت أسرة العرابي زمناً طويلاً في مسقط إلا أنها تنحت عن سدة الحكم حالياً. وقد ارتبطت الأحداث التي أدت إلى نزولها عن العرش، بقصة نذير شاه آخر ملوك الفرس، ولذلك يجب الرجوع إلى القرن الماضي كي نفهم جيداً تلك الأحداث. فقد كان الإمام مالك من أسرة العرابي سيد عمان على الإطلاق، وامتدت سيادته لتشمل كونك وكيشام وهرمز والبحرين. وبسط ابنه فتوحاته فاحتل كلوة وزنجبار في أفريقيا. وأثناء حكم حفيده ابن سيف، أرسل ملك الفرس نذير شاه جيشاً للاستيلاء على عمان، إلا أنه فقد الكثير من جنوده في الجبال وهزم جيشه ابن سيف الذي بقي متربعاً على العرش حتى آخر أيامه. وبعد وفاة هذا الأخير، استولى محمد جعفري أمير غبرين على قسم كبير من عمان واتخذ لنفسه لقب إمام، ولم يحتفظ ابنه ناصر بفتوحات والده، فقام سيف الأسدي ابن آخر إمام من أسرة العرابي ونصب نفسه إماماً وأجبر ناصر على الاكتفاء بإمارة غبران. وكان الإمام سيف الأسدي أميراً كسولاً لا مبال محب للملذات، لم تشبع رغباته نساء كثيرات العدد، ولم تكن بنات أعوانه في منأى عنه، استسلم للخمر والسكر وأهمل قضايا حكمه متسامحاً مع جنده الرقيق الذين يدعون الكفري ذوي الأجور المتدنية في إثارة حنق وغيظ رعيته. و جعله هذا السلوك مكروهاً مما سهل الطريق أمام أحد أفراد أسرته، السلطان مرشد، ليعلن نفسه إماماً ويجتاح عمان بالكامل. وبما أن مسقط بقيت تحت إمرة الإمام سيف، فقد انسحب إليها وبقيت في قبضته بواسطة أربع سفن حربية ومردود تجارة كان يقوم بها. إلا أن رعيته القليلة العدد كرهته أكثر بسبب استمراره في سلوكه الرديء ووجد أنه لم يعد قادراً على الدفاع عن نفسه طويلاً، فعقد العزم في نهاية الأمر على إرجاع دويلاته للفرس بدلاً من إعطائها إلى قريبه الإمام

مرشد. وبذهابه إلى بلاد فارس مع بعض المراكب التي بقيت له، حصل من نذير شاه على أسطول بإمرة ميرزا تقي خان حاكم شيراز. وعند وصول هذا الأميرال الفارسي إلى عمان، أسكر الإمام سيف واستولى بذلك على مسقط وعلى قلاعها، احتار الإمام سيف بأمره وتابع بمساعدة الفرس ملاحقة خصمه مرشد الذي خاب أمله بفقدان العديد من أصدقائه وقتل في إحدى المناوشات. كما توفي بعده بوقت قصير الإمام سيف أيضاً في رستاق (Rustak) حزناً بعد خديعة الفرس له. ثار تقي خان عند عودته إلى شيراز ضد نذير شاه وأراد أن يكون حاكماً على مقاطعة فارس. نعلم جيداً كيف خنق ملك الفرس تلك الثورة وعاقب صاحبها. إلا أن أحداث الشغب هذه ألهت الفرس عن قضايا العرب وأهملوا دعم الحامية التابعة لهم والتي بقيت في مسقط.

الفصل الرابع
الإمام الحاكم في عُمان

كان في صُحار حاكم يدعى أحمد بن ساجد خلال الوقت الذي أرسل به تقي خان إلى عمان. وقد ولد ذلك الحاكم في مدينة صغيرة من ولايات الإمام. وأحمد هذا كونه رجل ماهر ومدبر، رأى بعد وفاة الإمامين أنه من الضروري الخضوع لأعداء في مثل هذا البأس والقوة، فأعلن السلم وتصرف بحكمة حتى أبقاه تقي خان في منصبه. وأثناء الحروب الأهلية الفارسية، قام أمير من رنك (Rank) من بيت العرابي وهو أمير سير مع سيد آخر يدعى ابن عراب وتقاسما مخلفات الإمام السابق حتى أن ابن عراب حاز على لقب الإمام. أما أحمد الذي فاجأ الضباط الفرس واستولى على مسقط وأجبر الحامية على الاستسلام وأخذ المدينة دون إراقة دماء. ونصب قاضياً أولاً قام بوظيفة المفتي في عُمان لصالحه، وقرر المفتي أن من خلص البلاد يجب أن ينصب حاكماً لها، وفي ضوء هذا القرار، أعلن أحمد نفسه إمام عُمان في مسقط. علم الإمام ابن عراب بهذا الخبر، فقام على الفور مع جيش مؤلف من أربعة إلى خمسة آلاف رجل بمهاجمة خصمه أحمد الضعيف لدرجة أنه لم يقو على الدفاع عن نفسه ولجأ إلى قلعة في الجبال حيث حاصره عدوه وأجبره على الاستسلام إلا أن الحظ حالفه وتمكن من الفرار متنكراً بزي جمّال. ووجد وسيلة لجمع بضع مئات من الرجال بما أنه كان محبوباً في حكومته السابقة، وسار بهم لقتال ابن عراب الذي كانت جيوشه ماتزال تخيم في الجبال. وقسم جيشه الصغير إلى فرق ووزعها على مداخل الوادي من كل حدب وصوب، فقامت في آن معاً ونفخت أبواق الحرب، فظن ابن عراب نفسه أنه محاصر بجيش هائل وتملكه الذعر وهرب ليتمكن منه أحد أبناء أحمد ويقتله. ومنذ هزيمة ابن عراب وموته لم يزعج كائن ما الإمام أحمد بن ساجد في توليه عرش عمان، باستثناء أحد أبناء الإمام مرشد الذي قام ببعض المحاولات غير المجدية للاستيلاء على السلطة الحاكمة. لكن وبالرغم من هذه الجهود فقد ترك له الإمام الحاكم مدينة نحيل (Nahhel) وأراضيها. ومازال يوجد فيها حتى اليوم أخ وابنان لأئمة الأسرة القديمة ويعيشون بشكل خاص عيشاً كريماً

يكفيهم لإدارة من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رقيق. وقد تزوج الإمام الحاكم من ابنة أحد هؤلاء الأمراء واستطاع أن يجعل من أبنائه حلفاء في كل ما من شأنه أن يشرف دويلاته. وبالتالي نخلص إلى أن الأسرة الحاكمة وبالرغم من حداثة عهدها إلا أنها ستحتفظ بالعرش. وفي عام ١٧٦٥م كان الإمام أحمد يحكم منذ ١٦ سنة برضا رعيته وسرورها، وقد طبق أحكاماً عادلة فورية وممتازة دون أي تمييز حسب المنزلة ولا الدين. فعم الأمن في مسقط حتى كان من النادر الحديث حول سرقة ما. وكانت البضائع تبيت في الشوارع ليلاً، والقليل من الناس يتكلفون عناء إغلاق أبوابهم. تحت حكم الإمام سيف كان العبيد والجنود من أكبر اللصوص، على نحو كان الغرباء يخشون أكثر من يخشون أولئك الذين يقع على عاتقهم واجب توفير الأمن العام. جيوش الإمام الحاكم كانت في معظمها من الرقيق الكافرين بيد أن أجورهم كانت جيدة وأسلحتهم كانت من بنادق الفتيلة وهم منظمون تنظيماً حسناً. ولسد عجز العائدات الشحيحة قام الأمير بممارسة التجارة، كان يدير أربعة مراكب حربية والعديد من السفن الصغيرة التي كانت تستخدم لنقل البضائع في وقت السلم خاصة إلى السواحل الشرقية الأفريقية حيث كانت كيلوة وزنجبار ماتزال من بين أملاكه. وكان على بعض السفن الأخرى حراسة السواحل إلا أنها لم تكن تؤدي واجبها كما يجب حتى تجرأ القراصنة وغامروا بالهجوم على شواطئ مسقط. وبالرغم من أن أهالي عُمان لا يحبون أن يجوبوا البحار إلا أنهم من خيرة بحاري الجزيرة العربية . وبما أن لهم عدة موانئ صالحة للملاحة، فهم يستخدمون عدداً كبيراً من السفن المتواضعة في الملاحة بين جدة والبصرة المدينة التي يأتي إليها سنوياً ما يقارب خمسين مركباً وتسمى ترانكيس وقد سبق لي ووصفتها في رحلتنا من جدة إلى اللحية، هذه المراكب لها كما قلت طريقة بناء خاصة فقد استعملت فيها الخياطة وليس فيها أي مسمار كما جمعت الحبال بين أخشابها. وتعمل قبيلتان كبيرتان من العرب بشكل أساسي في نقل البن عبر البحر. وقد سكنت إحدى هاتان القبيلتان قديماً على سواحل الخليج العربي ولجأت إلى دويلات إمام عمان عندما أقلق راحتها وأزعجها جوار مشاغب ومضطرب.

الفصل الخامس

إمارة سير (Seer)

تمتد هذه الإمارة الصغيرة من رأس مسندم على طول الخليج العربي، يسميها الفرس بلاد جلفار (Dsjulfar)، ومن رأس مجاور للأول. ولهذا السبب اعتاد الأوروبيون على تسمية سكان هذه المنطقة بعرب جلفار. بينما يسميها عرب آخرون صور كاسم المدينة التي تحمل الاسم نفسه، ولها ميناء جيد ويقيم فيها الشيخ الذي مايزال يمتلك جزيرة الشارقة، ويمتلك على الساحل المقابل من الخليج بعض المدن الهامة مثل كونك (Kunk) ولونج (Lundsje). وقد عرفت هذه البلاد منذ وقت قصير سيادة الإمام، لكنها تخلصت من التبعية له، وغالباً ما كان الشيخ يشن حروباً على أسياده القدماء. إلا أنه لم يكن يملك من القوة ما يمكنه من الدفاع عن نفسه، ولذلك كان أمير سير يعيش دوماً في وفاق ووئام مع الشيوخ الآخرين المستقلين، وبصورة خاصة مع شيخ جاو (Dsjau) الذي تقع ولاياته في غربي عمان. ويندرج اسم أمير سير بين القوى البحرية المجاورة وبحارته من أهم بحارة الخليج العربي. ويبحر أفراد رعيته في تلك البحار ويمارسون تجارة واسعة.

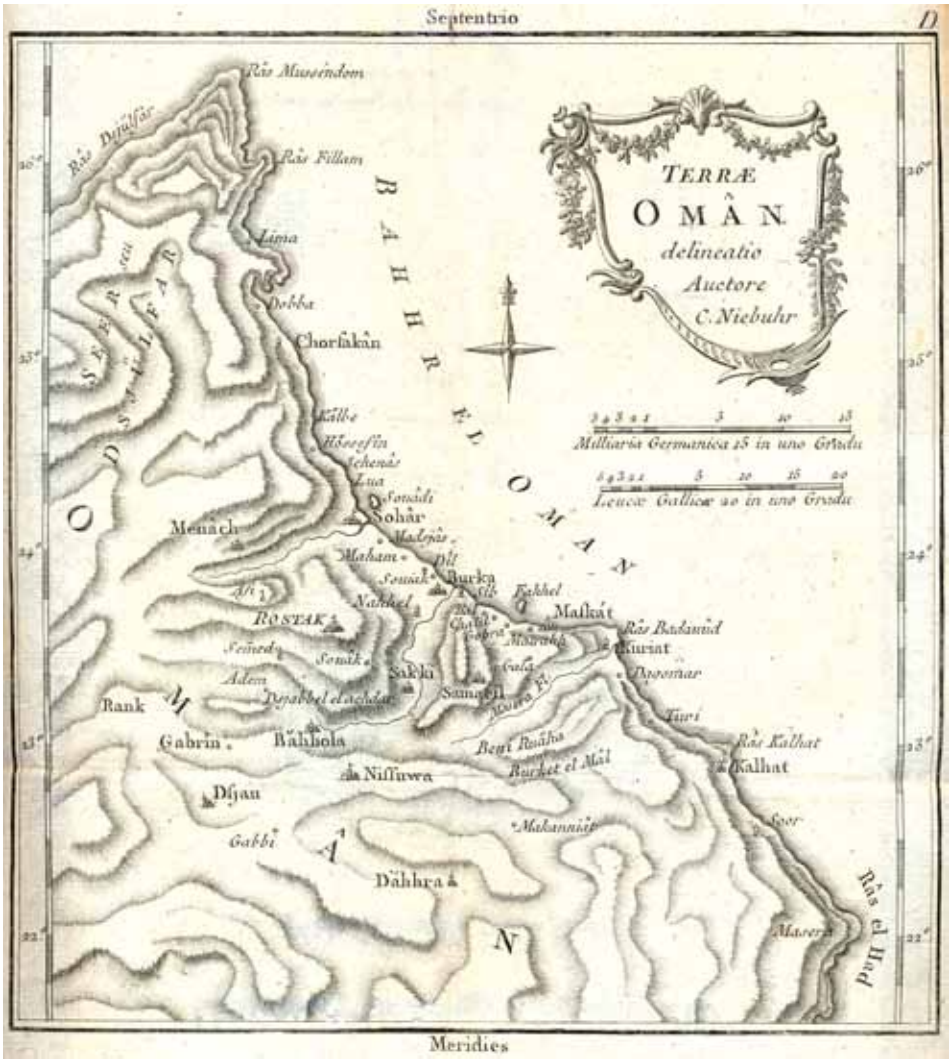
Septentrio
Meridies
TERRÆ
OMÂN
delineatio
Auctore
C. Niebuhr
Milliaria Germanica 15 in uno Gradu
Leucæ Gallicæ 20 in uno Gradu
BAHHR EL OMAN
OCEANUS PERSICUS
Râs Musseindom
Râs Dyaûfar
Râs Fillam
Lima
Dobba
Chorfakân
Kâlbe
Hôseffin
Tchenâs
Lua
Sonâdi
Sohâr
Menâch
Maham
Soauk
Burka
Nakhel
Fakhel
ROSTAK
Maskát
Râs Badaunâd
Kuriat
Seineb
Soauk
Sakka
Samail
Adem
Dyabbel el achdar
Rank
Gabrin
Bâhhola
Nisuwa
Beni Rowâha
Barbet el Mâl
Kalhat
Râs Kalhat
Tiwi
Djau
Gabbi
Makanniât
Dâhhra
Masera
Râs el Had

خارطة عمان

القسم الثاني والعشرون
مناطق الإحساء ونجد

الفصل الأول

الإحساء بصورة خاصة

تتاخم هذه المنطقة من جهة الشرق الخليج العربي ومن الجنوب عُمان ومن الغرب منطقة نجد ومن الشمال أراضي البدو الرحل في جوار البصرة. وتدعى هذه المنطقة أيضاً حجر وأحياناً البحرين وهذا الاسم لا يناسب إلا جزيرة أوال[1] والجزر الصغيرة الأخرى التي تتعلق بها. والإحساء منطقة فقيرة بالمنتجات، إلا أنها تشتهر بوفرة الإبل، والدواب الأخرى كالحمير وغيرها، وتبيع في كل عام آلاف الإبل لسوريا. وفي الداخل يعيش السكان من مردود التمر، أما سكان الساحل فيعيشون من صيد المحار ومن تجارة هامة بالبضائع الأجنبية. وينقسم السكان من الناحية الدينية، فسكان المدن شيعة في حين أن الفلاحين والبدو هم من السنة، ونجد فيها أيضاً يهوداً وعدداً كبيراً من الصابئة أو مسيحيين من أتباع القديس يوحنا. كانت هذه المنطقة قديماً ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، لكن العرب تمردوا منذ زمن بعيد على هذه السيطرة، إنما هناك بعض الأتراك من سلالة الباشاوات القدماء والذين يقيمون في هذه المنطقة ويمتلكون أراض خصبة ولكنهم لا يحظون بأية مكانة في الحكومة.

يملك منطقة الإحساء اليوم شيخ قبيلة بني خالد العربية، بينما كان الشيخ الحاكم في عام ١٧٦٥م يدعى عرار. قبيلة بني خالد إحدى أقوى القبائل العربية ويمتد نفوذها إلى عمق الصحراء، وغالباً ما تهاجم القوافل بين بغداد وحلب. يسكن البدو وقبائل أخرى صغيرة قسماً كبيراً من منطقة الإحساء، ويعترف كل هؤلاء العرب بسيادة شيخ بني خالد عليهم جميعاً. ولم أعلم شيئاً يمس المدن الداخلية في هذه المنطقة، الإحساء، ومن المفروض أن يكون مركز إقامة الشيخ مدينة كبيرة مبنية بناء جميلاً. ونجد على الساحل القطيف وهي مدينة كبيرة بعض الشيء وميناء صالح للملاحة وتقع على بعد خمسة أميال ألمانية من جزيرة أوال (البحرين).

سكانها يعيشون من صيد المحار، أما الفقراء منهم فلا يستطيعون العمل

---

(١) أوال: هو الأسم القديم لمملكة البحرين اليوم، وكان ذلك متداولاً حتى القرن ١٢ هـ.

لحسابهم الخاص، فيعملون كمأجورين لدى صيادين غرباء يأتون إلى المدينة في الأشهر الحارة من السنة أي موسم الصيد. وبالرغم من أن المناخ في هذه البلاد يعتبر مناخاً ضاراً في الصيف. وماتزال حتى اليوم آثار قلعة برتغالية بالقرب من هذا المكان.

الكويت أو القرين كما يسميها الفرس والأوروبيون، هي مدينة وميناء على بعد ثلاثة أيام من الزبير أو من البصرة القديمة. أما سكانها فيعيشون من صيد المحار والأسماك، ويقال إنهم يستخدمون لهذا الغرض ما يزيد عن ٨٠٠ سفينة، وتخلو المدينة تقريبا من سكانها في موسم الصيد فالجميع في الصيد والتجارة، وللكويت شيخها الخاص وهو من قبيلة عتمة والتابع لشيخ قبيلة الإحساء لكنه يود الاستقلال من حين لآخر. ويلجأ سكان القرين مع حوائجهم إلى الجزيرة الصغيرة والتي تدعى الفلوجة، وتشاهد في جوار القرين آثار قلعة برتغالية. وتقيم بين أرض شيخ الإحساء وشيخ عتمة قبيلة ثالثة كبيرة هي قبيلة مسيليم وتمتلك بعض المدن والتي لا أعرف منها إلا أسماءها.

الفصل الثاني

منطقة نجد

تمتد هذه المنطقة امتداداً واسعاً، وتتغلغل داخل الجزيرة العربية بأكملها في مناطق قد وصفتها باقتضاب إلى سوريا. وتتباين أراضيها في الخصوبة فجبالها خصبة تعطي ثماراً يانعة وخاصة التمر، فهي متوافرة بكثرة، ويحد تلك الجبال أراض جرداء. ولا يمكن لأنهارها أن تكون طويلة المجرى فبعد أن تجري في الوديان تضيع في السهول الرملية ولا تستطيع الوصول إلى البحر. ولهذا السبب يضطر السكان في العديد من الأماكن إلى حفر آبار عميقة الأمر الذي يجعل الزراعة صعبة للغاية بل شبه مستحيلة.

يقطن البدو جزءاً كبيراً من هذه المنطقة، أما الجزء الآخر الجبلي فيمتلئ بالمدن والقرى التي يتقاسمها عدد كبير من السادة على نحو يكون فيه تقريباً لكل مدينة شيخها المستقل. وقديماً في زمن سيادة وقوة الشرفاء كان هؤلاء الشيوخ المجاورون للحجاز ملزمين بدفع ضريبة لشريف مكة، بينما لا يدفعون له أي شيء اليوم.

ويشبه سكان هذه المنطقة الشاسعة باقي الأعراب الآخرين من جهة الصالح والطالح من جهة خصالهم وعيوبهم، يشبهونهم فهم تارة لصوص وتارة أخرى مضيافين. وبما أن السادة الصغار يتجاورون ويتلاصقون في نجد فلا يمكن لمسافر أن ينشد أمانًا واطمئنانًا في نجد، سينهبه أول سيد يلقاه عندما يمر في أرضه لأن ذلك السيد لا يود أن ينعم جاره المعادي بغنائم المغامرة. وتسافر القافلة الذاهبة من عُمان إلى مكة بكل أمان فهي تتألف من المتسولين وبالتالي ليس هناك فائدة ترجى منهم. لكن شيوخ نجد يفرضون غرامة على القافلة القادمة من بغداد في طريقها إلى مكة، كما يفرض شيوخ الحجاز غرامات على القوافل القادمة من سوريا ومن مصر. ولدي مؤشرات ودلائل على أن سكان نجد يمارسون تجارة هامة بينهم و بين أهلهم في الجوار، و بالنتيجة لا أظن أنه من المستحيل أن يسافر أوروبي بأمن داخل الجزيرة العربية.

ويبدو أن هذه الشعوب من هواة الحرب ومقاتلين أشداء يتسلحون دوما، وأؤكد لكم أن رجلا لا يقدم على الزواج قبل القيام ببعض الغزوات.

وتنقسم نجد إلى منطقتين رئيسيتين العارض (el Ared) المتاخمة لعمان والخرج التي تحد اليمن. في الأولى سميت لي بعض المدن لن أذكر منها إلا مدينة العيينه (el Aijaene)، مكان ولادة الداعي الجديد عبدالوهاب والذي سأتحدث عنه فيا يلي.

بينما في منطقة الخرج (Kherdsje) والتي تمتد من الشمال حتى حدود الصحراء، توجد مدينة اليمامة المشهورة حتى قبل النبي محمد بسبب ابنها مسيلمة الذي ادعى أنه النبي. وتضم هذه المنطقة عدداً كبيراً من المدن. وشمالي نجد على بعد عشرة أيام من بغداد يقع جبل شمر الشهير الممتد والخصب. وبين هذا الجبل وسوريا هناك منطقة مرتفعة تدعى جوف السرحان (Dsjof al Sirhan) وهي منطقة مأهولة ومزروعة.

الفصل الثالث

الدعوة الجديدة في ناحية من نجد

نجد في هذه المنطقة عددًا من الصابئة أو مسيحيين من أتباع القديس يوحنا وبعض اليهود أما باقي السكان فيدينون جميعاً بالديانة الإسلامية كانوا قديما من السنة المتشددين، لكن ومنذ بعض الوقت نشأت في منطقة العارض مذاهب جديدة سببت ثورة في حكم الجزيرة العربية، وستؤثر تأثيراً بالغاً على مستقبل الحكم في هذه المنطقة.

مؤسس هذا المذهب رجل يدعى عبدالوهاب وقد ولد كما أسلفت في مدينة العيينه في منطقة العارض. وقد درس في شبابه علوم العرب في بلده، وأقام لبعض الوقت في البصرة وسافر إلى بغداد وبلاد فارس. وبعد عودته إلى وطنه بدأ بنشر أفكاره بين أبناء ملته وأسعفه الحظ في إقناع بعض الشيوخ المستقلين فأصبح رعاياهم أيضاً من أتباع هذا الداعي الجديد[1].

وما كان من هؤلاء الشيوخ التابعين والذين كانوا في نزاع دائم بين بعضهم البعض، إلا أن تصالحوا واتفقوا على عدم القيام مستقبلاً بأي شيء قبل استشارة معلمهم، وقد أخل هذا الاتفاق بتوازن السلطة في نجد. فالشيوخ الصغار الذين تماسكوا فيما مضى وقاوموا جيرانهم المعزولين، لم يعد بإمكانهم اليوم الصمود أمام هذا العدد من الشيوخ المتحالفين. واضطرمت نار الحروب بينهم وزاد تواترها، وقد ظن الرعايا أن الدين معني بالأمر في خضم تلك المعارك.

---

(١) بعد أن تسلّح الشيخ محمد بن عبدالوهاب بالعلم ورحل في طلبه، وتلقاه عن أكابر علماء وقته، فقام بالدعوة إلى الله تعالى دعوة إلى التوحيد، فجد واجتهد في إماطة ما علق بالعقيدة من الضلالات، والشبهات، وجدد الدين ووفقه الله سبحانه وتعالى بما قيّض له من ولاة الأمر الذين بايع إمامهم وجدهم الإمام محمد بن سعود يرحمه الله بايعه على نصرة دين الله والدعوة إليه فاتفقا على ذلك، هذا بسلطته وهذا بعلمه، ومن أقوال الشيخ محمد بن عبدالوهاب وهو يعرّف بنفسه: أخبركم أني -ولله الحمد- عقيدتي وديني الذي أدين الله به: مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة (المراجع).

وبما أن عبدالوهاب قد أخضع قسماً كبيراً من العارض، فقد استنجد الشيوخ المنقسمون بعرار (ابن عريعر) شيخ الإحساء. الذي قام ولأسباب دينية وسياسية بتلبية ندائهم وأرسل لنجدتهم في العارض جيشاً كبيراً، لكن عبدالوهاب هزمه وانتصر عليه، فقاد عرار (ابن عريعر) بنفسه جيشاً مؤلفاً من ٤٠٠٠ رجل ومزوداً بثلاثة مدافع ومدفع هاوون وتمكن من الاستيلاء على قلعة تقع على كتف جبل لكنه لم يكن يعرف طريقة استخدام مدفعيتها فلحقت به خسائر فادحة وأجبر على أن يعود أدراجه إلى الإحساء. لقد تكلمت سابقاً عن مغامرات الشيخ المكرمي من نجران ولحظت أنه انه كان رئيس طائفة ما، وقد قال لي رجل من الإحساء إن هناك تطابقاً وتوافقاً في المبادئ الدينية بين عبدالوهاب والشيخ المكرمي، ويبدو أن هذا الزعم يرتكز على أسس ما. وفي أضعف الاحتمالات كان هذان المجددان صديقين، وإلا لما استطاع المكرمي اجتياز نجد بصحبة جيش صغير ومهاجمة شيخ الإحساء وهو شيخ قوي وكان ذلك في عامي ١٧٦٣م و ١٧٦٤م، فمن الضروري أن يكون قد انضم إلى عبدالوهاب أو على الأرجح إلى ابنه محمد الذي خلف والده في تلك الفترة لمهاجمة الشيوخ السنيين. كما قيل لي أيضاً إن وحدة هذين الرجلين أدت إلى انتصارهم على عدد كبير من هؤلاء الشيوخ. بينما كتب الآخرون إلى كل الأعراب في بصرة وجوارها يطلبون العون ويرجون المساعدة، وقد تم ذلك أثناء إقامتي في تلك المدينة.

بعد وفاة عبدالوهاب تمتع ابنه بسلطة أبيه ذاتها وحذا حذوه ومشى على خطاه. كان ينظر إليه على أنه رجل دين وكأنه البابا في العارض. أما الشيوخ ورثة دويلات صغيرة مستقلة فيما مضى فلهم والحق يقال الاسم في حكمها في حين إن محمد عبدالوهاب هو الحاكم الفعلي عليها. ويلزم رعيتهم بتأدية ضريبة تسمى سكّة أي مساعدة، وذلك لدعم الحرب ضد أعداء دينه.

اشتكى السنيون من اضطهاده و تعذيبه، ومن المرجح أن هذه الفئة المتشددة والمؤمنة بالخرافات تكره محمد بن عبدالوهاب بسبب بدعه والوشاية التي سرت بأنه سينتقم ويثأر منهم. ومهما يكن الأمر، فسكان نجد الذين لا يرغبون باعتناق المذهب

الجديد هاجروا إلى البلدان المجاورة. وبالتالي غدت الزبير أو البصرة القديمة ضاحية ضخمة، تلك التي لم تكن فيما سبق إلا قرية صغيرة.

وبما أنني لا أعرف أيًا من أتباع هذا المذهب الجديد، فليس بمقدوري أن أفيدكم بما يتعلق بعقائده. إلا أن الفرصة سنحت لي وتعاملت مع شيخ عربي كان يسافر باستمرار منذ أن كان شاباً مع تجار في كل أرجاء الجزيرة العربية وفي كبرى مدن نجد. هذا الشيخ البدوي الذي يبدو لي أنه مثقف، قد روى لي شيئاً عما يتعلق بنظام هذا المذهب.

مذهب عبدالوهاب أنه لا يجب عبادة وذكر إلا الله وحده، فهو خالق الكون ومدبره، ومنع التوجه للأولياء وذكر النبي محمد أو أي نبي آخر في الصلاة فذلك يجر إلى عبادة الأصنام. أما النبي محمد ويسوع المسيح وموسى وباقي الأنبياء الذين يعترف بهم السنيون فهو يعتبرهم رجالاً عظاماً وأشخاصاً يجب احترامهم، ويمكن أن نقرأ أعمالهم للاستفادة. وهو ينفي وجود أي كتاب من الوحي الإلهي، أو كتاب أتى به الملاك جبرائيل، وكما تحظر الجريمة يحظر هو الصلوات لاتقاء التدابير الإلهية كما يفعل السنة للنجاة من خطر محدق ما. رواية ذلك الشيخ لا تتوافق تماما مع روايات بعض السنة عن عقائد عبدالوهاب، ولا يمكننا تصديق بهذا الصدد أتباع فئة تؤمن بالخرافة وتحارب المذاهب الجديدة كل معتقداتهم الخاطئة.

أما الدين الإسلامي وكما يؤمن به السنيون فقد تغير لا محالة منذ زمن النبي محمد. وتتبنى تلك الطائفة سلطة بعض المشرعين الذين يشرحون القرآن وفق رؤيتهم ويتبنون عقائد من آرائهم الخاصة. وهي تعترف بحشد من الأولياء وتتقرب إليهم في احتياجاتها، وتنسب إليهم معجزات غريبة لا متناهية حظي بها من توجه لهؤلاء الأولياء وبشكل أفضل من توجه لله. كما أن هذه الفئة تؤمن بالتمائم والتعاويذ وبقدرة كل النذور الغريبة. و من ثم استسلمت تدريجياً لعدد كبير من المعتقدات الباطلة التي يحرمها القرآن الكريم لكنها حللت حسب تفسير العلماء. أما الطوائف الأخرى كالزيديين على سبيل المثال فقد كانت إساءتهم للدين الإسلامي أقل بالرغم من أنها اختلفت كثيراً عما كانت عليه في السابق. وبالتالي يمكن اعتبار مذهب عبدالوهاب الجديد كإصلاح

حقيقي للدين الإسلامي. يريد العودة به إلى بساطته الأولى، ربما شط به المزار بعيداً عن مصلحين آخرين، لكن العربي غير ملزم بمعرفة التحفظ والتحرز، يجب العودة إلى التجربة لرؤية ما إذا كان هناك دين منزه عن كل ما هو حسي، يمكن له البقاء والصمود لدى شعب كالعرب. ولا تتعارض خزعبلات الشيخ المكرمي مع روح هذا الإصلاح، يستفيد هذا الشيخ من بدائية أبناء بلده، يستفيد من الرأي الخارق عن جدوى صلواته والذي يدعي أنه يحصل بواسطتها على كل ما يطلبه من الله. هذا التطرف في نسب المزيد من القوة للصلوات تتفق مع بساطة العقيدة، وفي حوزتنا دليلان على أن التطرف يلهب عقولاً قابلة للاشتعال في عصر من الأنوار ووسط دين من أنقى وأطهر الأديان.

مخطط مسار الرحلة

القسم الثالث والعشرون
دويلات عربية مستقلة على السواحل الفارسية

الفصل الأول

عرب يقيمون في ضواحي الخليج العربي

كنت قد نوهت سابقاً إلى أن علماءنا في الجغرافيا قد أخطأوا حين ظنوا أن قسماً من الجزيرة العربية كان تحت سيطرة ملوك فارس. خلافاً لذلك فإن العرب قد بسطوا نفوذهم على كل سواحل هذه المملكة من مصب نهر الفرات وصولاً إلى مصب نهر الهندوس.

وبلا شك فإن منشآت العرب على سواحل بلاد فارس لا تعود بملكيتها إلى الجزيرة العربية حصراً، لكن وبسبب استقلالية تلك المنشآت عن الفرس وبسبب احتفاظها باللغة والتقاليد العربية دون أن تشوبها شائبة ما، فقد رأيت من المناسب أن أضم وصفها إلى وصف ما تبقى من الجزيرة العربية.

يستحيل تحديد الحقبة التي أقام فيها العرب على تلك السواحل. وتبرهن روايات الناس أنهم أقاموا في هذا البلد منذ عصور بعيدة. كما تبرهن الكثير من أحداث العصور الغابرة أن القرى العربية كانت قائمة منذ عهد ملوك فارس الأوائل. والمذهل هو ذلك التطابق بين عادات متناولي الأسماك في القديم الذين أقاموا على سواحل الخليج العربي وعادات سكان القرى العربية في وقتنا الحاضر.

فالعرب المقيمون على السواحل لهم تقريباً نفس طريقة العيش. ويقتصر مورد رزقهم على الملاحة وصيد الأسماك أو المحار، ويتألف غذاؤهم الرئيس من الأسماك والتمر، كما أن السمك هو العلف الوحيد الذي تعيش عليه القليل من البهائم التي يملكونها.

ويعشقون الحرية كما يعشقها أترابهم في الصحراء. ولكل مدينة تقريباً شيخها الخاص ولا يدفع رعاياه له أي ضريبة مما يجبره على تدبر أموره من ماله الخاص أو من حرفته في نقل البضائع أو الصيد كباقي رعيته. وفي حال استاء كبار القوم من الشيخ الحاكم، قاموا بانتخاب شيخ آخر من الأسرة ذاتها.

أما سلاحهم فيتألف من بندقية الفتيلة والسيف والترس. وتتحول كل مراكبهم عند الضرورة إلى مراكب حربية، إلا أن أسطولاً كهذا يضطر إلى التوقف باستمرار للتزود بالمؤن من الصيد بدلاً عن ملاحقة العدو، لا يتمكن البتة من القيام بإنجازات عظيمة، وتقتصر حروب هذا الشعب على الغزوات والغارات ولا يمكن لها أن تبت بالأمر مخلفة وراءها منازعات لا تنتهي وحالة من الحرب الدائمة. أما البيوت فهي فقيرة لدرجة لا يكلف فيها عدو ما نفسه عناء هدمها. وبذلك لا يخشى العرب فقدان شيء ما على هذه الأرض ويلجؤون عند اقتراب أي جيش إلى مراكبهم وينتظرون في بعض جزر الخليج تراجع العدو. وهم مقتنعون تماماً من أن الفرس لن يقيموا أبداً في هذه السواحل البائسة حيث يقوم بقض مضجعهم على الدوام العرب الذين يجوبون البحار المجاورة دون انقطاع. هؤلاء العرب السنيون يكرهون الفرس الشيعيين و لم يتحالفوا معهم في يوم من الأيام. وقد شكل هذا الكره بين المذهبين أحد الأسباب التي أدت إلى إخفاق مخطط نذير شاه في إخضاع العرب، وللوصول إلى غايته، قام هذا المغتصب بتجهيز أسطول مؤلف من ٢٥ مركباً ضخماً في الخليج العربي كلفه ذلك تكاليف باهظة، ولكن وبما أنه ليس لديه بحارة فرس فقد اتخذ بحارة هنود سنيين فحاربوا على مضض إخوتهم العرب الذين قتلوا رؤساءهم الشيعة وقاموا بخطف المراكب. وأسس نذير شاه شاهفي نهاية حياته مخططاً للاستيلاء على العرب والتمكن منهم، في غرسهم على شواطئ بحر قزوين واستبدالهم بأشخاص فارسيين. إلا أن موته المأساوي أدى إلى فشل المخطط، كما أدت الاضطرابات التي هزت بلاد فارس إلى توطيد استقلال أولئك الحكام العرب الصغار. ويبدو لي في الوقت الراهن حكم وحال هذه المستعمرات وكأنه يشبه إلى حد بعيد حال اليونان القديم. وتحدث دوماً في الخليج العربي أحداث تخلدها الذاكرة وتهب ثورات هامة، إلا أن العرب لا يملكون من علماء التاريخ أحداً، فتبقى أمجادهم طي الحدود الضيقة لبلادهم.

الفصل الثاني

مواقع تحت السيطرة الفارسية

بالرغم من أن ملك الفرس لم يكن سيد هذه السواحل، إلا أنه احتفظ ببعض المواقع. ومنذ أن فقدت بلاد فارس ملوكها، قام حكام فارسيون بالاستيلاء على تلك المدن وضموها تحت إمرتهم، أذكر منها بشكل أساسي غامبرون هرمز.

غامبرون، مدينة ومرفأ في منطقة لاريستان، كان ملك فارس يملكها قديماً. وبعد وفاة نذير شاه، نصب فارسي يدعى ناصر خان نفسه سيداً على المنطقة وبالتالي على المدينة. واعترف بتبعيته للوكيل كريم خان في شيراز، إلا أنه لم يدفع له الضرائب ولم يحترم أوامره إلا عندما يأتي الوكيل بنفسه على رأس جيش لإخضاعه. اشتهرت المدينة والمسماة أيضاً بندر عباس خلال القرن الماضي وبداية القرن الحالي كونها ميناء شيراز وميناء كل بلاد فارس الجنوبية. وبالتالي فقد اتسعت تجارتها اتساعاً كبيراً، وآلت اليوم إلى حال يرثى لها فلا نجد فيها مركزاً تجارياً أوروبياً واحداً.لقد كان السبب في خرابها الاضطرابات التي حدثت في بلاد فارس والنزاعات بين الإنجليز والفرنسيين في الحرب الأخيرة. مازال الهولنديون يمارسون تجارة صغيرة فيها إلا أنهم هجروها تماماً منذ أن تمركزوا في جزيرة كشن.

أما هرمز التي اشتهرت فيما مضى، فقد فقدت اليوم كل تألقها الغابر، ويملكها حالياً فارسي يدعى المولى علي شاه، الذي صار سيداً لها بعد وفاة نذير شاه، وقد عمل في إمرته برتبة أميرال. ويملك حاكم هرمز هذا أيضاً قسماً من جزيرة خشم، بينما يقع قسمها الآخر تحت سيطرة أمير عسير. وتقع إلى الجنوب من لاريستان مدينة هامة هي مدينة مينو على بعد ستة فراسخ من البحر. أهل المنطقة هم من الشيعة ويهتمون بالزراعة وهما سببان يدفعان بالسكان إلى الاعتراف أحياناً بسيادة خان لارستان. وبين مينو ورأس جاسك تقيم قبيلة عربية كبيرة تسمى قبيلة بلوجة التي تملك الكثير من السفن وتمارس تجارة هامة تمتد من البصرة على الخليج العربي وصولاً حتى السواحل

الهندية. هؤلاء العرب هم من السنة وقد دفعهم التطابق في المذهب إلى التحالف مع الأخوان في ثورات فارس الأخيرة.

ويضع بعض علماء الجغرافيا أفراد قبيلة بلوجة على طول سواحل بلاد فارس وصولاً إلى قرب مصب نهر الهندوس كما ويتحدثون عنهم وكأنهم شعب محارب لكنهم يعشقون القرصنة. ولا أدري إن كان من الواجب اعتبارهم شعباً مستقلاً أو شعباً يؤدي الضرائب للفرس. ومن المرجح أنهم لم يعرفوا حكاماً غير شيوخهم الخاصين. و تصف تقارير رحلات من القرن المنصرم مغامرات أمير جاسك الفريدة الذي دافع عن نفسه ضد الشيخ عباس ولم يخسر إلا بسبب الخيانة. وقد تابعت أرملته نضالها ضد ملك الفرس وقامت بأعمال بطولية لا تليق إلا ببطلة من عصور الفرسان والفروسية. كل تلك الرواية تبدو وكأنها تخص أحد شيوخ بلوجة. أما البلاد الممتدة من بندر عباس في الشمال باتجاه ديلم فهي تشبه تهامة في الجزيرة العربية، وتتألف من سهل أجرد يطلق عليه الفرس اسم كرمزير، أي البلاد الحارة. وفي كل هذه المنطقة الجرداء لا أعرف إلا قلعة تدعى خمير على جبل وعر، ولهذه القلعة مع منطقة صغيرة شيخها الخاص. وتأتي إليها السفن لتحميل الكبريت الذي تنتجه المناطق المجاورة بوفرة، خمير تبعد قليلاً عن غامبرون.

الفصل الثالث

أراضي قبيلة حيلي (Houle)

تشغل هذه القبيلة الكبيرة الساحل الممتد من بندر عباس حتى رأس برديستان، وتمتلك كل المواقع البحرية. قسم من هذا الساحل ليس أجرداً، فالسلاسل الجبلية كسلسلة ظهر عصبان تمتد حتى البحر وهي غنية بالغابات التي يستثمرها السكان. لكن وبالرغم من الأرض المعطاءة هذه، فإن عرب حيلي لا يزرعونها ويعيشون فقط على الملاحة والصيد، وهم من السنة ويعتبرهم جيرانهم من الشجعان. وقوتهم هي تلك القوة التي تسمح لهم بسهولة فتح كل المدن الموجودة في الخليج العربي، كان يسود بينهم تلاحم أكبر فيما مضى. لكن لكل مدينة شيخها الخاص الذي وبالرغم من أنه من الأسرة نفسها فهو يفضل الفقر على الخضوع كي يؤمن لنفسه مزيدا من الرخاء لشيخ قوي وجدير بأن يجعل القبيلة أكثر هيبة واحتراماً. أما شيوخ أو أمراء قبيلة حيلي فهم: شيخ صور الذي كنت قد تحدثت عنه في وصف عُمان، لكن أصله من هذا البلد أي من قبيلة حيلي، ويملك في جوار غامبرون مدن كونك (Kunk) ولونج (Lundsje) وراس حيتي (Ras Heti) كما ويعمل رعاياه في تصدير الفحم والخشب المستعمل كوقود. شيوخ موجو (Mogho) الشارقة (Tsjaerak)، ويعمل رعايا شيخ الشارقة في تصدير الخشب أيضاً، ويتمتعون بتفوقهم في الشجاعة والبأس على كل سكان حيلي. وأخيراً شيوخ نشلو (Nachelo) ونابند (Nabend) وعلوي وطاهري وشيلو (Schilu) وكونكون (Konkoun). ويعتبر سكان نشلو (Nachelo) من أفضل الغواصين. ونجد في مدينة كونكون يهوداً وبانيان كما ويعتبر أهلها أكثر سكان حول مسالمة. لا يملك الفرس سفناً ولا مراكب ويعيشون من الزراعة ويشغلون الأراضي الواقعة بين إمارة بوشهر ورأس برديستان (Berdistan).

الفصل الرابع

إمارات بوشهر وبندر رجك (Bender Rigk)

إمارة بوشهر دولة مستقلة عاصمتها بوشهر، ولها ميناء مريح لدرجة أن المراكب تستطيع الاقتراب من المنازل. وهي ميزة دفعت بنذير شاه إلى بناء أسطول فيها، ولا نزال نرى فيها بقايا من ذلك الأسطول، ومنذ ذلك الوقت اشتهرت المدينة وازدادت أهمية. وهي حالياً مرفأ لشيراز كما هي مرفأ للإنجليز، الأوروبيون الوحيدون الذين يمارسون التجارة مع بلاد فارس ولهم فيها وكالة تجارية.

أما العرب الذين يقطنون بلاد بوشهر فهم ليسوا من قبيلة الحول. ونجد بينهم ثلاث أسر متميزة اثنتان منهم تقيم في المنطقة منذ زمن لم تسجله الذاكرة. أما الأسرة الثالثة وهي أسرة المطاريش فقد أتت حديثاً من عُمان وكانت تمارس هناك مهنة الصيد ثم تحالفت مع الأسرتين المذكورتين ووجدت سبيلاً للاستيلاء على السلطة الحاكمة منذ بضع سنين.

ومازال ناصر الشيخ الحالي من أسرة المطاريش يملك جزيرة البحرين على الساحل العربي. الأمر الذي يضعه أمام واجب إدارة بعض المراكب. وله مناطق نفوذ واسعة في كرمزير ولهذا فهو يتبع كريم خان الذي يحتفظ لديه بابن ناصر كرهينة لوفاء والده. وهي تشكل أهمية كبرى لشيراز حتى أن أمير بوشهر بقي مرتبطاً ببلاد الفرس بسبب مناطق نفوذه في كرمزير.

والشيخ ناصر سني لكنه وأملاً في الحصول على لقب أميرال فارسي فقد اعتنق المذهب الشيعي وتزوج من فارسية، وقد جر هذان الحدثان الكثير من المصاعب له ولأسرته، فكرهته رعيته وجيرانه ولم يبق أولاده في مصاف كبار العرب.

بندر رجك، مكان إقامة أميرها وهي مدينة مسورة بسور قديم وتقع شمالي إمارة بوشهر. وتضم هذه الدولة والتي عاصمتها هذه المدينة بعض المواقع في كرمزير، مما

يجعل حاكمها متعلقاً بعض الشيء بكريم خان. ويمارس العرب المقيمون في هذه الإمارة الملاحة فقط، أما الفرس فيمارسون الزراعة في القسم الجبلي منها.

أتت الأسرة الحاكمة في بندر رجك من عُمان، وهي من قبيلة بني صعب العربية. لكن وبما أن جد الأمير الحالي صار شيعياً وتزوج من فارسية، فلم يعد العرب يدرجون هذه الأسرة من بين أشرافهم وكبار مجتمعهم.

ويعرف الأمير الحاكم في بندر رجك والمدعو مير مهنا بعيوبه وفظاظته مما يجعله طاغية ومستبداً مكروهاً لم تعرف البشرية مثيلا له. فقد أمر أن يقتل والده الضرير في حضوره لأنه أحب ابنه البكر أكثر منه، وقتل والدته لأنها وجهت له اللوم على جرائمه ومن ثم قتل شقيقه مع ١٦ فرداً من أسرته كي يستولي على الحكم. وأغرق اثنتين من شقيقاته لأن أميراً في الجوار طلب إحداهن للزواج. وتخلى عن الإناث من أولاده. ولم يبلغ هذا الوحش المكروه في عام ١٧٦٥م الثلاثين من عمره. وقع مير مهنا مرتين بين أيدي كريم خان، وفر في المرة الأولى بعد أن انهزم الحاكم الفارسي، في المرة الأخرى وبفضل المساعي الحميدة التي قامت بها شقيقته وهي زوجة ضابط فارسي وبوظفر بحريته وعاد إلى ولاياته وعمل فيها على نهب القوافل بين شيراز وبوشهر وعلى القرصنة والسرقة، وأراد كريم خان معاقبته فحاصر عاصمته لكن بدون طائل. وفي عام ١٧٦٥م عندما طلب منه كريم خان غرامة مستحقة عن مناطق نفوذه في كرمزير، أهان مير مهنا المبعوث وقص له لحيته، فأرسل كريم خان جيشاً قوياً فاستولى على بندر رجك وأراضيها، وتنبه مير مهنا للانسحاب في الوقت المناسب مع جيوشه وقسم من رعيته ولجأ إلى جزيرة مقفرة تسمى جزيرة خويري (Khoueri) حيث انتظر فيها انسحاب الجيش الفارسي، وعاد ليطرد القطعة العسكرية من بندر رجك ويعيد دويلاته إلى ملكيته. استسلم هذا المستبد للخمر ومارس وحشيته على جنوده ووصل به الأمر إلى قطع أنف وأذني كبار ضباطه. وبالرغم من تطرفه هذا ومغالاته بقي جنوده أوفياء له حتى أنه وفي منفاه كان قادراً على انتزاع جزيرة كارك من الهولنديين. فجماعة من اللصوص لا تترك أبداً قائدها مادام يتقاسم معها ثمار اللصوصية والسرقة.

الفصل الخامس

عن قبيلة كياب (Kiab) وشيخها سليمان

تقيم القبيلة العربية كياب أو كما يلفظها الفرس تجاب في نهاية الخليج العربي. لم يكن لها ذلك الاعتبار والأهمية قبل تولي شيخها الحالي الشيخ سليمان، ووصل اسمها إلى أوروبا بسبب نزاعاتها مع الإنجليز وسلبها إياهم بعض المراكب.

استفاد الشيخ من الاضطرابات عند الفرس ومن مساوئ الحكم في بصرة، وبدأ بإخضاع الجيران الصغار المستقلين، ثم استولى على بعض المناطق الكبرى الفارسية، ووعد الخانات الذين كانوا في نزاع على عرش هذه المملكة البائسة، لكن أحدًا لم يلزمه بها باستثناء كريم الذي رضي بمبلغ بسيط. فما كان من سليمان إلا أن مد فتوحاته حتى البصرة، كان يبحث عن الصداقة مع أجال (Ajals) وهم سادة القوم في تلك المناطق، وبما أن أهم أولئك السادة لم يخسروا بالتحالف معه، فقد توصل إلى السيادة على الجزر كلها الواقعة عند مصب نهر الفرات أو في البلاد المتعارف عليها باسم شط العرب.

وفكر بتشكيل بحرية بما أنه وصل بفتوحاته إلى أنهار قابلة للملاحة، وقام ببناء أول مركب في عام ١٧٥٨م وصار بحوزته عام ١٧٦٥م عشرة مراكب كبيرة و٧٠ سفينة صغيرة.

أما كريم خان فقد أرسل لمحاربته في نفس العام جيشاً جبارًا لم يستطع سليمان الصمود أمامه، فجر معه كنوزه وجيشه من جزيرة إلى أخرى حتى وصل إلى غربي شط العرب. واضطر الفرس للانسحاب عندما عجزوا عن ملاحقته بسبب قلة مراكبهم، وأعطى باشا بغداد أمرًا بضرب سليمان الذي تحاشى الأتراك باللجوء إلى الجزر كما فعل عندما تجنب الفرس.

تمتد أراضي قبيلة كياب من صحراء الجزيرة العربية حتى بلاد هنديان (Hin-dian)، وإلى الشمال حتى إمارة حافصة (Havisa). وتغذيها عدة أودية كبيرة وصغيرة وهي غنية بالتمر والأرز والحبوب والمراعي. أهم المدن فيها هي دورك (Daurek) الواقعة أصلاً في الأراضي الفارسية. ومدينة حسر (Hasar) و جوبان (Ghoban) مكان إقامة الشيخ وتقع بالقرب من مصب نهر الفرات.

الفصل السادس

بعض الدول الأخرى المستقلة

تقع هنديان (Hindian) في شمالي بندر رجك وتتاخم قبيلة كياب (Kiab)، وهي بلد صغير يخضع لحكم خاص. يمارس العرب الذين يقيمون فيه الزراعة ويعيشون مما تنتجه حقولهم ومواشيهم.

حافصة (Havisa) هي مدينة وأرض داخل المنطقة التي تحيط بالخليج العربي، ويملكها شخص من سلالة النبي محمد، وهو أمير له حق صك النقود ويدعى المولى.

يمتلئ الساحل الشرقي للخليج العربي بالجزر الصغيرة أغلبها مأهول بالسكان باستثناء هرمز، وليس بينها ما يشكل دولة منفصلة ومستقلة، ويملك أمراء الأرض اليابسة بشكل عادي الجزيرة المجاورة لأراضيهم.

ويوجد على الساحل الغربي للخليج جزيرة أو بالأحرى كتلة جزر يعرفها الأوروبيون باسم البحرين، بينما يسميها العرب بالكبرى أو الأولى ولكل من الجزر الصغيرة اسمها الخاص. وقد شهدت هذه الجزيرة الكثير من الثورات بسبب شهرتها بصيد اللؤلؤ فيتبدل باستمرار سيدها، وعلي أن أقول كلمة بصددها.

البحرين مدينة محصنة على جزيرة لها الاسم نفسه، وكانت هذه الجزيرة تضم قديماً ٣٦٠ مدينة وقرية، أما اليوم فلا نجد فيها فيما خلا المدينة إلا ٦٠ قرية بائسة وفقيرة. فقد أدت الحروب المتكررة إلى هجران باقي المدن والقرى.

تنتج الجزيرة التمر بوفرة، إلا أن شهرتها تأتي أولاً من صيد اللؤلؤ الموجود فيها بكميات كبيرة ونوعية ممتازة. وتعود الضرائب المفروضة على التمر واللؤلؤ على حاكم الجزيرة بمبلغ يساوي ٣٠٠,٠٠٠ ليرة فرنسية، وعلى الحاكم أن يدير حامية عسكرية في المدينة من هذا الدخل.

كان البرتغاليون يملكون البحرين. إلا أنهم وعندما طردوا من الخليج العربي،

وقعت تحت نفوذ شيخ الإحساء، ثم انتزعها الفرس منه. ثم استولى عليها إمام عُمان لكنه سرعان ما تخلى عنها لملك الفرس مقابل مبلغ من المال. بعد ذلك بوقت قصير وأثناء هجوم اغوراس ، سلمها الحاكم الفارسي إلى شيخ من نابد من قبيلة حيلي الذي طرده الشيخ طاهري من حيلي أيضاً. ثم استولى عليها أميرال نذير شاه، لكن الشيخ طاهري استرجعها بعد رحيل الأميرال. أما أثناء الاضطرابات الأخيرة التي حدثت في فارس فقد نصب الشيخ أصلاوي نفسه سيداً عليها، وسرعان ما انتزعها منه أمير بوشهر وبندر رجك واحتلاها معاً. وقام الأول بطرد الآخر، إلا أن حيلي طردوه بدورهم. وفي نهاية المطاف بقي في عام ١٧٦٥م الأمير بوشهر حاكم البحرين المطلق. ويمكننا أن نستنتج استناداً إلى هذه العينة، سلسلة الثورات السريعة التي سببها عدد هائل من الحكام الصغار في أمة مضطربة. وعلمت في بصرة خصوصيات عن تعقد هذه النزاعات وتشابكها حتى أنني وجدت صعوبة في فهمها. وأكدوا لي أنه لا يوجد أمير عربي واحد إلا وهو في حالة حرب دائمة مع اثنين أو ثلاثة أمراء من أمثاله. وتعكر صفو الملاحة في الخليج العربي بشكل مستمر تلك النزاعات التي تحصل بطريقة خاصة. فلا تجرؤ على السفر على متن مركب عربي معرض للوقوع باستمرار في مواجهة حزب من الأعداء الكثر. والطريقة الوحيدة للسفر سفراً آمناً هي أن تقطع المسافة في مركب أوروبي ضخم ، لا تجرؤ سفن العرب الصغيرة على مهاجمته.

الفصل السابع

جزيرة كارك (Karek)

تقع هذه الجزيرة على مقربة من الساحل الشرقي للخليج العربي بين بوشهر وبندر رجك، وليس فيها إلا قرية واحدة، لكن مجاري المياه المحفورة في الصخور التي مانزال نراها حتى اليوم تبرهن على أن الجزيرة ونظراً لاتساعها كانت مأهولة في الماضي أكثر من اليوم، فمحيطها يبلغ خمسة فراسخ.

وسبب شهرة كارك هي المنشأة التي أقامها حديثاً الهولنديون فيها لكنها اليوم مهجورة. وبما أن هذا الحدث قد جر بعض اللغط والضوضاء فسأتكلم عنه باقتضاب.

كان الهولنديون يمارسون تجارة هامة في البصرة، وكان لديهم فيها مدير لوكالتهم التجارية وهو البارون كنيفوسن الذي حظي بتقدير في المدينة. اختلف هذا النبيل الألماني مع حاكم البصرة على ما يبدو بسبب قصة غرامية، فسجن وهدد بالموت إلا أنه اشترى حريته بمبلغ مالي ضخم. قبل أن يرحل إلى بتافيا، سلمته الوكالة التجارية شهادة براءة وشهدت الحملة الهندية بحسن سلوكه.

ومنذ تلك المشكلات مع حاكم البصرة، اتفق السيد كنيفوسن مع الأمير ناصر أمير بندر رجك الذي يملك كارك أيضاً، على أن بإمكان الهولنديين نقل الوكالة التجارية من البصرة، إلى هذه الجزيرة مقابل غرامة مالية سنوية. وقد راق لحاكم بتافيا هذا المشروع الذي كان مشروعاً مغرياً ومفيداً وأرسل البارون معه مركبين ضخمين لتنفيذه.

وعند وصوله إلى كارك استولى على بعض مراكب البصرة، ولم يتركها إلا بعد أن أعيد له المبلغ الذي أجبر على دفعه ثمناً لحريته. وبنى على الجزيرة مخزناً كبيراً مربع الشكل ورفع خفية في زوايا المربع أربع تحصينات وجهز كل منها بستة مدافع. استاء ناصر من هذه التحصينات وقام بضرب الهولنديين، فهاجموه بدورهم ولم يتمكنوا من ملاحقته بعد انسحابه ، وقد سببت هذه الحرب الصغيرة تكاليف باهظة للحملة الهولندية.

حكم السيد فون كنيفاوزن (von Kniphausen) مدة خمس سنوات وخلفه السيد فان درهولفت الذي كان موظفاً في البصرة وعلى معرفة ودراية بالعرب، لذا ظن أن عليه متابعة حربه ضد الميرمهنا وهو الأمير الجديد في بندر رجك، فاشتعلت الحرب ضد الوالي، فاستولى الأمير مهنا بسبب خطة حربية على مركبي الهولنديين المسلحين وحاول لكنه أخفق في النزول على الجزيرة ، لكن السيد فان درهولفت عزز تحصيناته وشكل مخططاً لمدينة سيسكنها قريباً عرب وفرس معاً.

كان باستطاعة هذه المنشأة أن تعود بالفائدة على الموظفين، لكن نفقات الحرب والقطع العسكرية امتصت كل عائدات الحملة ففكرت منذ ذلك الحين بهجرها. إلا أن ظاهر التجارة الرابحة مع الفرس جعلتهم يحتفظون بها، وبالتالي وقع الحاكم الجديد وهو السيد بوشمان (Buschmann) السلام مع الأمير مهنا (Mir Mahenna) وتابع بذلك تجارته دون أي قلق. إلا أن خلفه السيد فان هوتينج (van Houting) وبالرغم من أنه رجل قدير فهو لم يسلك مسلكاً حسناً بسبب جهله للعقلية العربية وترأسه ضباط بلا خبرة. ولم يحافظ على حيادية مطلقة في النزاعات بين الأمير بوشهر والأمير مهنا، وبالاتفاق مع الأول حارب في الوقت نفسه الأمير مهنا عند انسحابه إلى جزيرة خونري (Khoneri) ترك الأمير مهنا أعداءه يقتربون وعندما رأى أنهم اطمأنوا أطبق عليهم مع فرسانه وهزم الهولنديين وجيش أبو شهر شر هزيمة. وقد شجعته تلك النجاحات فنزل في جزيرة كارك واحتل المدينة. لكن فارسياً ضلل السيد فان هوتينج وخدعه وجعله يقتنع ويسمح للأمير مهنا بالدخول إلى البرج مع جماعة صغيرة للقيام ببعض الإصلاحات، وبذلك استولى العرب على المحمية الهولندية وأرسلوها إلى بتافيا. حدث ذلك في عام ١٧٦٥م في نهاية شهر ديسمبر (كانون الأول). ولا يمكن أن نتوقع أن تنفق الحملة الهولندية مجدداً نفقات باهظة كي تطرد أمير بندر رجك الأمير مهنا من جزيرة كارك والذي يملك حالياً هذه الجزيرة.

القسم الرابع والعشرون
البدو "العرب الرحل"

الفصل الأول

عادات متميزة عند البدو

بسبب التجارة والاختلاط مع الأجانب، فقد العرب الذين سكنوا المدن وخاصة الموانئ البحرية، جزءاً من طباعهم الوطنية. أما البدو الذين يقيمون في الخيام وينقسمون إلى قبائل فقد احتفظوا على خلاف ذلك بعادات وتقاليد أجدادهم منذ أقدم العصور. إنهم العرب الأصليون الذين يتمتعون بطبائع خاصة تميزهم عن الفروع الأخرى من بني ملتهم.

وفي مواضع عديدة من تقريري هذا لحظت تنوعاً في قبول لقب الشيخ، عند وقوفي في مواضع عديدة من تقريري هذا لحظت تنوعاً في مفاهيم لقب الشيخ، فعند البدو. لقب شيخ يعني شريفاً وإن كان من الطبقة الأرقى أو الأدنى على حد سواء. وهذه الطبقة الشريفة لا تعد ولا تحصى ويبدو أنها تُؤلف الأمة بأسرها لأن الشعب يتلقى الدفع والتحريض من الشيوخ فقط الموجودين في كل مكان ويشكلون القوة المحركة في كل شيء.

الشيوخ ورعاياهم جنود ورعاة بالفطرة، ويربون في القبائل الكبرى الكثير من الإبل لبيعها إلى جيرانهم أو استخدامها في حروبهم أو نقل بضائعهم. أما القبائل الصغرى فلديها قطعان من الأغنام. والقبائل التي كرست نفسها بالكامل للزراعة فشيوخها يقيمون على الأقل في الخيام ويتركون شؤون الأرض لرعاياهم الذين يقيمون في أكواخ بائسة.

إنها سبل الرزق التي تميز تمييزاً واضحاً بين القبائل. ينظر العرب الأصليون إلى زراعة الأرض وكأنها عمل يقلل من شأنهم، وهم لا يرعون إلا الإبل والخراف لكنهم يرعون على الأكثر الخيل. وتعيش القبائل ذات الدماء المختلطة على تربية الثيران والأبقار والخيل وعلى زراعة بائسة لبعض الأراضي. أما كبرى القبائل التي تستمد اسمها من ضخامة قطيع الإبل الذي تملكه، فهي قبائل أبو البعير (Abu el Baar) تليها

قبائل معد (Moaedan). والتي تعتبر طبقة وسط بين العرب الأصليين والفلاحين. وقد تناهى إلى سمعي أنهم يحتقرون هذه القبيلة بسبب ملكيتها للثيران والأبقار. وتنقل قبائل معد مساكنها من موطن إلى آخر طلباً للحقول والمراعي على نحو نرى فيه فجأة قرية لم يكن مكانها في الأمس كوخاً واحداً.

إن حاسة الشم مرهفة جداً لدى البدو الأصليين بسبب حياتهم في الهواء الطلق، فهم يكرهون المدن ويجدون فيها روائح تسيء بشكل مزعج إلى أبدانهم، ويصعب عليهم أن يفهموا كيف يمكن لمن يحب النظافة أن يتنفس هواء ملوثاً. وقد أكد لي أهل الثقة أن بدوياً قادته حاسة الشم إلى المكان الذي أضاع فيه بعيره ووجده دون أن يختلط عليه الأمر ويشوشه أثر الإبل الأخرى التي مرت في الطريق ذاته. ويمكن لهؤلاء البدو الرحل في الصحراء العيش خمسة أيام بلا ماء للشرب، ويمكنهم اكتشاف الأعماق التي يختبئ فيها الماء عن طريق فحص طبيعة الأرض والنباتات التي تنمو فيها.

ويُتهم هذا الشعب بميله للسرقة، وهي تهمة ترتكز على شيء من الصحة، بالرغم من أنه يمكن إسقاطها على كل الشعوب التي تعيش حياة الترحال والتنقل.

ويعتلي الشيوخ دوماً صهوة جيادهم أو إبلهم عند زيارتهم لرعاياهم وأصدقائهم أو عند ذهابهم إلى الصيد، وعندما يجوبون الصحراء ذات الأفق الرحب وكأنها المحيط، يرون المسافرين من بعيد، وبسبب ندرة اللقاءات، فهم يقتربون منهم بشكل طبيعي ويحاولون نهب الغرباء كما يحاول الأقوياء. وهم يسافرون دائماً برفقة القوافل في هذه الفيافي، وهو مشهد فريد يثير العجب أن ترى رجلاً بمفرده أو برفقة مجموعة صغيرة وكأنه يخفي أمراً غامضاً يثير الشك. لذا ولهذه الأسباب مازال البدو يحاولون مهاجمة مثل هذه الظاهرة. إذاً هناك لصوص في الجزيرة العربية كما في كل البلاد القليلة السكان. لكن اللصوص العرب ليسوا فظي الفؤاد ولا يقتلون من ينهبونهم، إلا إذا قتل المسافرون بدوياً في حال الدفاع عن النفس. فيهب الآخرون للثأر له. ويملكون في مناسبات أخرى تقاليد مدروسة تتعلق بميلهم الطبيعي للضيافة. وقد علمت ببعض الطرائف وأظن أن من واجبي روايتها. قام لصوص في بعض نواحي الجزيرة العربية بسرقة مفتي بغداد

في طريق عودته من مكة، فكتب معاهدة خطية معهم وتعهدوا تسليمه سالماً غانماً إلى أهله مقابل مبلغ مالي كبير يدفعه لهم عند عودته إلى بغداد. وأعاده اللصوص إلى أول قبيلة فسلمته بدورها إلى أخرى وهكذا دواليك من قبيلة إلى قبيلة يرافقه حرس بأمان تام.

ونهبوا أوروبياً مع كل قافلته بين حلب والبصرة، وفي الطريق مرض الأوروبي بمرض الطاعون، فأخذه العرب عندما رأوا ضعفه وعجزه عن اللحاق برفاقه وأسكنوه خارج مضاربهم وعالجوه ثم قادوه إلى البصرة عندما تماثل للشفاء.

واستعجل إنجليزي في السفر إلى الهند ولم يشأ انتظار قافلة ليسافر معها. فاتخذ رجلين عربيين ليرافقانه إلى البصرة، وتعرض له في الطريق بعض الشيوخ فدافع عن نفسه مستخدماً بنادقه، لكنهم أحاطوه بعدد كبير من الرماح الأمر الذي اضطره لتسليم نفسه. أما العرب الذين صوب نيرانه نحوهم فقد انهالوا عليه ضرباً بالعصي حتى بات عاجزاً عن السير، فحملوه إلى مضاربهم وعالجوه لبعض الوقت وفي نهاية المطاف قادوه إلى البصرة بكل أمان. وعندما نهب العرب السيد فورسكال في مصر، تلقى الفلاح الذي كان برفقته كمية من ضربات العصي لأنه كان يملك بنادق لم يستخدمها في الدفاع عن نفسه. ولا يجب نسب نهب القوافل إلى شغف العرب دوماً بالسرقة. فهذه الضربات هي بشكل عادي غارات عسكرية ضد الأعداء الذين يتهربون من تأدية الضرائب المفروضة على الناس، أو الذين يحمون ويقودون برفقة قطع عسكرية هذه القوافل. وفي إحدى تلك الغارات التي حدثت في السنوات الأخيرة السابقة لمحاربة باشا دمشق الذي كان برفقة القافلة الذاهبة إلى مكة، برهنت قبيلة حنيف التي ربحت المعركة، على جهلها وبساطة آدابها وسلوكها. فأفراد هذه القبيلة الذين أخذوا البضائع الثمينة كانوا يجهلون قيمتها وبدلوها مقابل مبالغ زهيدة. وظن أحد هؤلاء الأعراب صرة اللؤلؤ التي كانت من نصيبه أنها صرة أرز، وقد سمع أن الأرز غذاء طيب، فما كان منه إلا أن أعطاها لزوجته لتعد منها طعاماً لكنها لم تنجح في طبخ تلك اللآلئ فألقت بها وكأنها عديمة النفع.

الفصل الثاني

النظام السياسي عند العرب الرحل

عندما تطرقت لموضوع الحكم عند العرب بشكل عام، نوهت بما يتعلق بحكم البدو ببعض العبارات، وحتى لا أكرر بلا جدوى ما قلته سابقاً، فإنني سأضيف هنا بعض الملحوظات الخاصة والمتعلقة أولاً بمصالحهم السياسية حيال القوى المجاورة.

فبالرغم من أن اعتبار الشيخ هو اعتبار وراثي إلا أنه لا يتعلق بحق البكارة، فالشيوخ الصغار الذين يشكلون الشرفاء المتوارثين ينتخبون الشيخ الكبير من الأسرة الحاكمة دون النظر إلى قرابته مع الشيخ السابق. ولا يدفعون شيئاً إلا النزر اليسير للشيخ الكبير، وعليه أن يعتبر الشرفاء الآخرين وكأنهم أنداداً له وليسوا من أتباعه، وفي حال لم يكن هؤلاء الشرفاء راضين عن حكمه فهم يعزلونه أو يلتحقون مع مواشيهم بقبيلة أخرى. وقد كان هذا سبباً في أفول نجم قبائل اشتهرت في الماضي بقوتها ونفوذها، وازدهار بعض القبائل الصغيرة التي تلعب حالياً دوراً هاماً.

الاستعباد الشخصي عند البدو موجود وإن كانوا لا يعرفون عبودية العوام، وعندما يستاء فلاح من سيده فإن له مطلق الحرية بتركه والعمل عند سيد آخر. ولم يخضعوا يوماً لمحتل البدو الذين يعيشون تحت الخيام في الصحراء، أما البدو الذين اقتربوا من المدن تشدهم إليها مغريات سهولة العيش والذين أقاموا في المناطق الخصبة، فهم يتبعون اليوم بطريقة ما لحكام تلك المناطق.

وهذه هي حال العرب المنتشرين في شتى أرجاء الإمبراطورية العثمانية، بعضهم يؤدي ضريبة عن المراعي أو القرى التي يمتلكونها بينما لا يأتي البعض الآخر إلى ضفاف نهر الفرات إلا في موسم واحد ويعودون شتاءً إلى الصحراء ولا يتبعون بشكل من الأشكال للباب العالي.

ولا يمكن إلا أن نعتبرهم من بين الرعايا الأتراك، وإلا لشكلوا على العكس جواراً خطيراً، لو لم يتمكن الباشوات من إيجاد طريقة لزرع الشقاق بين القبائل، وبين أبناء

الأسر الكبرى حيث نجد منهم الكثيرين ممن يدعون الأهلية والمركز لتبؤ مكانة شيخ الشيوخ.

سياسة الأتراك هذه فتحت الباب لكثير من الحروب المتكررة بين البدو، تلك الحروب لم تكن طويلة ودامية، وما إن يتدخل الأتراك فيها حتى تتحد القبائل لدحر هذا العدو المشترك للأمة جمعاء.

ويظن كل شيخ كبير نفسه سيداً مطلقاً في الأراضي التي يقيم فيها، وبالتالي فهو يفرض ضرائب على البضائع وغرامات مقابل المرور في أراضيه كتلك التي يفرضها السادة الآخرون، وقد أخطأ الأوروبيون عندما ظنوا أن المبالغ التي تدفع للشيوخ الكبار كانت فقط رهينة لضمان السلامة من النهب والسرقة.

وقد خضع الأتراك الذين يرسلون قوافل إلى مكة عبر الصحراء لتلك الضرائب، ويدفعون سنوياً مبلغاً محدداً للقبائل التي تسكن قرب الطريق المؤدية إلى مكة. مقابل الاعتناء بالآبار والسماح للبضائع بالمرور وحراسة القوافل.

وسلوك الضباط الأتراك المتعالي الخبيث هو السبب الدائم الذي يدفع أحياناً بعض البدو إلى نهب وسلب القوافل. هؤلاء الأتراك المتعجرفون الذين ينظرون إلى العرب وكأنهم من العصاة والمتمردين أي وحسب المعنى الحديث لهذه الكلمة: الضعفاء الوقحين الذين يرفضون أن يسحقهم الأقوياء. ولا يوفون بوعدهم حسب هذا التحليل الطريف لذا يثأر العرب بنهبهم للقوافل.

لم يدفع علي بيك الشهير الذي يترأس القافلة المصرية كل الضرائب المتوجبة في طريقه إلى مكة، ووعد بإيفاء ديونه في طريق عودته ثم تناسى وعده. فقام العرب في العام التالي وجمعوا أكبر عدد منهم وأجبروا قائد القافلة المصرية على دفع الضرائب المستوجبة عليه وعلى علي بيك. واعتبر الأتراك ذلك لصوصية وسرقة في حين استعاد العرب حقهم بأنفسهم.

سلوك عبدالله باشا، دمشق الذي قاد في عام ١٧٥٦م القافلة السورية، كان سلوكاً

أكثروقاحة. فقد أتى شيوخ إحدى القبائل إليه لأخذ المبلغ المحدد باتفاقيات لقاء مروره، فما كان منه إلا أن دعاهم دعوة صديقة وبدل من أن يدفع لهم المبلغ المخصص قام بجز رقابهم وأرسل رؤوسهم إلى القسطنطينية دليل انتصاره على العرب المتمردين. فلم يأتِ العرب المهزومون وقد فقدوا سادتهم بأي حركة في ذلك العام ولا حتى في العام التالي وكانت القوافل تذهب منتصرة مزهوة إلى مكة، وأشاد الأتراك بحذر وحنكة عبدالله باشا. لكن العرب في العام الثالث ثأروا لهذا العمل الشائن بجيش مؤلف من ٨٠,٠٠٠ رجل اجتمعوا من كل القبائل وهاجموا الأتراك ونهبوا القافلة.

يسود بين القبائل نوع من التبعية، فالقبائل الصغيرة التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها بوسائلها الخاصة، تضع نفسها تحت حماية قبيلة كبرى تحكمها كما تحكم نفسها. وهكذا فقد تكونت قبائل قوية وذات نفوذ من اتحاد عدة قبائل أخرى. وإلى جانب هذا فإن العرب أكثر عدداً وانتشاراً مما نعتقد بشكل عادي، فهم يحتلون مناطق كانت في الماضي مزروعة ومأهولة بالسكان وقد آلوا إلى الزوال في الوقت الحاضر. ولا يمكننا تحديد فترة حكم العرب ونجهل فيما إذا كانوا سابقين لحكم الخلفاء. فالأقدمون لا يميزون تمييزاً واضحاً بين الأمم: ويبدو أن ملوك تدمر من العرب، بينما كنا نظن أنهم من اليهود.

الفصل الثالث

البدو في تخوم الصحراء

أقدم قبائل هذا الشعب وأكثرها قوة ونفوذاً هي القبائل التي تتوافر لها سهولة اللجوء إلى الصحراء عندما يهاجمها عدو غريب. وهي أيضاً القبائل التي احتفظت بالطابع المميزلها في نقائه وصفائه، كما احتفظت بحريتها دون أدنى تبعية. وهي القبائل التالية التي استطعت الحصول على خصوصياتها وميزاتها.

قبيلة بني خالد، واحدة من أقوى القبائل في الجزيرة العربية بسبب مواقفها وغناها وعدد القبائل التي انضمت إلى سلطانها. ففي صحراء نجد اقتربت من البحر واستولت على بلاد الإحساء[1] كما نوهت عندما تحدثت عن هذه الأخيرة. وشيخ القبيلة لا يقيم دوماً في مدينة الإحساء مركز إقامته بل يعيش غالباً تحت الخيام في الصحراء.

قبيلة كياب (Kiab) في شمال الخليج العربي والتي تحدثت عنها مسبقاً، هي نادراً ما تخيم، ولها ممتلكات في منطقة سيستان (Susistan) في بلاد فارس. وفي منطقة سيستان هذه وبالقرب من إمارة حافصة (Havisa) وفي نواحي مدينة شوفتر، تقيم خمس قبائل كبيرة من البدو الأصليين . ويمكنني القول من خلال تلك الدويلات أن سلطة الفرس هي سلطة هشة في هذه المنطقة وأن في سيستان صحاري وفيافي.

وقبيلة بني لام، المقيمة بين كورن وبغداد على ضفاف نهر دجلة وهو الاسم المتعارف عليه لدى السكان، تستفيد هذه القبيلة من الضرائب المفروضة على البضائع المنقولة بين البصرة وبغداد. ويقوم بعض العرب من حين إلى آخر بنهب القوافل، فيرسل ضدهم باشا بغداد جيشاً ينجح في بعض الأحيان بتأديبهم ومعاقبتهم بقطع أعناق سادتهم، لكن الشيوخ الذين يخلفون أولئك الشيوخ المعدومين يبقون على عدائهم الكبير للأتراك ويتوقون للحرية كأسلافهم.

وقبيلة منتسيدسي (Montesidsi) أو منتسك (Montesik)، من أكثر القبائل نفوذاً في شمال الصحراء، في اتساعها وغناها وممتلكاتها، أكثر من عدد القبائل الخاضعة

---

(١) الأحساء قديماً هي المنطقة التي تمتد من جنوب البصرة، إلى سلطنة عُمان، وعاصمتها هجر وتشتهر بوفرة الماء وزراعة النخل.

لها والتي تعترف بسلطتها، وهي تملك المنطقة كلها على ضفتي نهر الفرات، من كورن (Korne) وصولاً إلى أرج (Ardsje) . وأثناء الصيف عندما تحرق أشعة الشمس العشب في الصحراء يقيم الشيخ الحاكم في مدينة وادي الأمطار والتي تقع قرب نهر الفرات، لكنه يعود مع قطعانه في الشتاء إلى الصحراء كي ترعى ويقيم هو في الخيام. ولهذا فإن البدو يكرهون سكان القرى الذين يمارسون الزراعة والذين يؤدون ضريبة للبدو. وهم فقراءٌ، حالهم يشبه حال رعايا هؤلاء الشيوخ الذين يعيشون حياة قاسية هم أيضاً وليسوا على استعداد لتحمل رؤية ثراء فلاحيهم. وغالبا ما يقوم عرب هذه القبيلة بنهب المسافرين بين حيل والبصرة. فيعاقبهم باشا بغداد عقاباً عادياً ويخلع في بعض الأحيان الشيخ الحاكم لينصب مكانه أميراً من نفس العائلة. ويعاني العرب من ظل هذه التبعية للأتراك لأنهم يكرهون فقدان ممتلكاتهم على ضفتي الفرات الخصبة. أما في الاضطرابات التي حدثت مؤخراً في مناطق الإمبراطورية العثمانية فقد لعبت هذه القبيلة دوراً كبيراً في تلك النزاعات. وتستمد تلك القبيلة اسمها من أحد أفراد منتسك الذي قدم من الحجاز وهو من عائلة شهيرة قبل مجيء محمد الرسول، ومن المؤكد على الأقل أن سلالة هذه القبيلة يحكمون في المنطقة منذ زمن لا تعيه الذاكرة. ويتقاسمون السلطة من عدة فروع، وعند وجودي في المنطقة كان البيت الحاكم يتألف من ١٥٠ عضوا يملكون جميعاً الحق في الوصول إلى سدة الحكم. في عام ١٧٦٥م لم يكن الشيخ الحاكم من الفرع البكر وكان يدعى عبد الإله وكان الأمراء الآخرون من عائلته يتمتعون بشيء من السلطة، فلهم رعاياهم الذين ينضمون معهم في زمن الحرب إلى شيخ الشيوخ، ويتلقون في بعض المناطق الغرامات المفروضة على البضائع وحق المرور في أراضيهم وذلك لحسابهم الخاص. وقد عددوا لي نحو عشرين قبيلة تابعة تعيش تحت نفوذ قبيلة بني منتسك والتي هي أصلاً قليلة العدد. ومن بين هذه القبائل التابعة من حكمت غيرها من القبائل الأقل شأناً وقوة، ويدعون العرب الاراي القبائل التابعة الأخرى، تقيم تلك القبائل قاطبة في أطراف الصحراء التي أتيت على ذكر أسمائها، وهي قبائل من العرب الأصليين يربون الأغنام والإبل ويعيشون في الخيام. ويجب تطبيق هذه الصفات على القبائل المسيطرة، فعلى ما أعتقد هناك قبائل صغيرة تابعة مزجت ما بين الزراعة والحياة الرعوية وفقدت بذلك نبلها وأصولها الكريمة.

الفصل الرابع

البدو في بلاد ما بين الرافدين

سهول ما بين الرافدين وبلاد آشور التي زرعها في القديم شعب كثير العدد ورواها بفضل جهود مذهلة، لتقنية قديمة. هذه السهول يسكنها اليوم أو بالأحرى يخربها العرب الرحل، خلال زمن طويل بقيت تلك المناطق الغناء تحت الحكم أو الفوضى التركية، فغدت صحراء خُنقت فيها الطبيعة على يد السكان الهمج. وليس باستطاعة إلا حاكم وارث فقط مقيم في بغداد إعادة الازدهار إليها. فالباشاوات الذين كان همهم الاستفادة فقط من هذه البلاد المهجورة الذين لم يتمكنوا من إبعاد العرب، سمحوا مقابل ضريبة سنوية لهذا الشعب أن يزرع الأرض وأن يقود إلى مراعيها القطعان والماشية. كانوا يودون بذلك اعتبار العرب المقيمين أو الرحل في مناطق حكمهم على أنهم من رعاياهم، لكن سلوك هذا الشعب الذي يعشق الحرية أظهر أنه من المستحيل أن يرزح تحت نير الاستعباد التركي. وتلك الحروب المتكررة التي قادتها عدة قبائل ضد باشا بغداد التي كان الضباط الأتراك يعتبرونها ثورات تبرهن برهاناً قاطعاً على استقلاليته. فالريف الخصب يحث السكان على الزراعة، والمنطقة التي يقطعها عدد كبير من القنوات بين دجلة والفرات لا تقيم فيها إلا قبائل مزارعة، أو الموادان وهي القبائل التالية :

بني حكيم، قبيلة تقيم في شرقي الفرات ويدعى شيخها الحالي فونتيل ويتبع لها عدة قبائل أخرى تمارس الزراعة.

بني خزعل، قبيلة ذات نفوذ تمارس الزراعة وتقيم في شرقي الفرات أيضاً، وتسيطر على عدد كبير من القبائل العربية التي تقيم في القرى. وتتضمن إحدى تلك القبائل الصغيرة على ٢٥ قبيلة صغيرة أخرى وتسيطر أيضاً قبيلتان، كل منهما على نحو ٤٠ قبيلة صغيرة أخرى، ولذا تبدو القبائل المزارعة أقل عدداً من البدو، فهي تنخرط في صفوف القبائل الكبرى، ويستطيع بنو خزعل إمداد الجيش بـ ٢٠٠٠ من الخيل وبالمشاة على قدر الطلب، وقد قاد مؤخراً الباشا في بغداد ضدها حرباً نتج عنها كم من النجاحات يقابلها كم من الخسائر. ويؤجج نار العداء للأتراك كون هؤلاء العرب من الشيعة، ويفرض الشيخ الحاكم الذي يدعى حمود أجوراً لقاء عبور نهر الفرات.

في حكومة بغداد لم يمارس العرب الزراعة، ونجد جنوبي المدينة بدواً يربون الإبل. كقبائل بني تميم وبني دسفة، أما بعضهم والمقيم بين بغداد والموصل كقبيلة بني طوباد التي اشتهرت بعدما حظيت برضا باشا بغداد الذي كان أحد كبار الضباط لديه من أهل الشيخ الحاكم. وتمتلئ المنطقة بين بغداد والموصل بعشائر البدو وتقيم إحداها في سلسلة جبال بالقرب من دجلة وقد هاجمت مؤخراً جيوش الباشا كما قامت عشيرة أبو حمدان بنهب قافلة أثناء إقامتي في الموصل.

وطيء قبيلة من البدو قوية وكبيرة تقيم بين ماردين والموصل، شيخها الحاكم من أسرة سالي، فقد أصبح مقابل مبلغ صغير سيد سهول آشور الكبيرة والخصبة، ولولا سياسة الأتراك الدائمة في زرع الشقاق بين الجيران لما تمكن الباشاوات من هذه القبيلة، لكن باشا بغداد كان يرسل ذيل الخيل تارة إلى هذا الشيخ وتارة أخرى إلى شيخ آخر مما يثير عداءً مستمرًا بين الشيوخ وينهك قواهم، والذيل هذا ليس شرفاً واهياً بلا قيمة تذكر، بل شرف يمنح التقدير للبيك مع ملكية السهول التي كانت مهيأة لتكون تحت تصرف الأتراك. ويترك البيك المعزول مكان إقامته بين الموصل ونصيبين وينسحب مع أعوانه إلى قرب نهر الخابور وينتظر في تلك الأماكن النائية الفرصة السانحة ليخلف خصمه.

كان كل المسافرين يشتكون من لصوصية وسرقة أولئك البدو في بلاد آشور، ويبدو أن الرغبة في النهب والسلب تزداد لدى هذا الشعب بقدر ما يبتعد عن الصحراء موطنه الأصلي، وبقدر ما يقترب من بلدان يسكنها اللصوص كالأكراد والتركمانيين. وقد عددوا لي ما يربو على عشر عشائر من البدو الرحل من العرق العربي. تخيم أشهرها في ضواحي حيل (Helle) وتدعى سولاد (Solaed) ، وتمتد فروعها لتصل إلى حكومة حلب ودمشق. وقد أعطاني شيخ عربي تعرفت عليه في حلب، أسماء ثماني من عشائر البدو التي من المفروض أن تقيم في شمال الفرات في مناطق تقع ضمن أراضي حكم باشا أورسة (Orsa). ولكن وبما أنه لم يكن لديه ما يخبرني به عن حال تلك القبائل فلن أتطرق إليها.

الفصل الخامس

البدو في سوريا

يهمل أيضاً باشاوات هذه البلاد العرب الرحل، كما يهملهم الولاة الأتراك في تخوم بلاد فارس، ومن المهم لمدينتي حلب ودمشق أن تستطيع قوافلها المتوجهة إلى بغداد أو إلى البصرة عبور الصحراء بأمان. دون أن ترافقها جيوش لحراستها. ولكي يتمكن الباشاوات من تلافي السباب والشتائم والسلب والنهب، فقد وجدوا سبيلاً يوفرون به لرعاياهم الأمان الضروري، وذلك باستعمال قبيلة عربية ضد القبائل الأخرى، ولهذا الغرض يمنح الباشا لقب أمير لأقوى الشيوخ في الجوار، ويلزم هذا الأمير باصطحاب القافلة وفرض احترام العشائر العربية الأخرى و جباية الضرائب المفروضة مقابل السماح بالرعي في أراضي الباشا. وتعوض له كل تلك المصاريف والنفقات باعطائه سنوياً مبلغاً من المال، ولكن وبما أن العرب لا يثقون بوعود الأتراك، فإن الباشا يتخلى للأمير عن عدد لا بأس به من القرى، لتحل عائداتها محل المبلغ المتفق عليه. ويؤول حال تلك القرى للخراب تحت سلطة العرب المؤقتة كونها أصلاً قرى في غاية الفقر والبؤس.

عندما نقوم بحساب القليل من العائدات التي يجنيها الباب العالي من الضرائب الصغيرة التي يدفعها العرب للتجرؤ على تخريب المناطق كاملة، من جهة ومن جهة أخرى المبالغ التي ينفقها الباب العالي للاحتفاظ بشيء من تبعية هؤلاء القوم له، فإننا نرى بوضوح أن ظل السيطرة هذا الذي يفرضه الباب العالي على العرب عبء عليه في حقيقة الأمر، لكن الزهو العثماني يكتفي في امتلاك ولايات واسعة لا يرجو منها السلطان أي فائدة ولا تحترم فيها أوامره على الإطلاق.

القبيلة الأقوى قرب حلب هي قبيلة الموالي وشيخها من أسرة البوريش. ويقوم الباشاوات بتمليك هذا الشيخ أو تلك القرى العائدات التي تتعلق بمكانة الأمير، وينسحب الأمير المعزول عادة مع جماعته إلى ضفاف الفرات وينتظر أن تسنح له الفرصة ليكسب ود الباشا الجديد وذلك بتقديم الهدايا له واستعادة منصبه السابق.

منذ بضع سنوات خلت شعر أحد الأمراء بأنه سيعزل قريباً فنهب قافلة وسرق ٣٠٠٠٠ رأس من الماشية في أراضي حلب ثم قاد غنائمه باتجاه الفرات في مكان منعزل، وبعد ذلك بمدة وجيزة نهب مدينة حمص. وظننت خلال فترة إقامتي في حلب أن الباشا سيضطر إلى استدعاء هذا الأمير المعزول.

وقد أعطاني أحد أقرباء الأمير أو الشيخ الحاكم من قبيلة الموالي أسماء خمس عشرة عشيرة كبيرة تعيش في جوار حلب، كما أعطاني شيخ وهو رحالة هام أسماء خمس عشائر أخرى تعيش بالقرب من الطريق بين حلب والبصرة.

يؤدي كل هؤلاء البدو ضريبة للأمير، وذلك ليكون لهم الحرية والحق في تأجير أو بيع إبلهم أو ليقودوا ماشيتهم كي ترعى في كل أرجاء البلاد. أما العشائر المجاورة في صحراء الملح التي تعود ملكيتها للباشا، فهي تعطي مبلغاً من المال إلى مزارع مقابل السماح لهم بجمع الملح الذي يتكون في هذه الصحراء.

وقد أدهشني أن أرى بين تلك العشائر عشيرتي طيء وسويد (Sobaed) والتي من المفترض أن تكون ذائعة الصيت، فعشيرة ربيعة تفتخر بأصالتها وتدعي أنها أتت من اليمن لتقيم في الشمال في الوقت الذي انهار فيه سد مأرب أيام السبئيين.

بسبب قصر فترة إقامتي في دمشق، لم أتمكن من الحصول على مزيد من الإيضاحات حول البدو الذين يعيشون في ولاية دمشق أو الشام. وعلمت فقط بأسماء ما يقارب اثنتي عشرة قبيلة من قبائلهم، تدعى إحداها أبو صليب ويفترض أن تكون مؤلفة من النصارى فقط. بينما تدعى قبيلة أخرى بني حمير وتدعي انحدارها من ملوك بني حمير العرب القدماء.

هناك عدة دلائل جعلتني أخلص إلى أن الأمم الأخرى الموجودة في سوريا كالأكراد والدروز والموالي والنصارى والغجر يعود بعضهم إلى أصول عربية.

وتعتبر قبيلة عنس (Anaes) من أكبر القبائل في الصحراء السورية. وهي تمتد أيضاً إلى نجد. كما تعرف بأنها أكثر القبائل عدداً داخل الجزيرة العربية. وتدفع لها قافلة

الحجاج الأتراك أجراً كبيراً مقابل مرورها. وهي عند استيائها وانزعاجها تقوم بنهب القوافل. وتعلن الحرب في أغلب الأحيان على باشا دمشق منذ أن هزمت الباشا في غزة وقتلته في وسط حكومته.

أثناء فترة إقامتي توقفت قافلة بغداد الآتية إلى سوريا بسبب انتشار الخبر أن العرب مستائين من الباشا في دمشق، وعندما أراد اثنان من السادة الأتراك المحبوبين جداً في الجزيرة العربية مرافقة تلك القافلة، أوشك التجار على فقدان بضائعهم، لكنني وبعد أن نجوت من الكثير من المخاطر والمهالك فإنني لن أعرض نفسي للخطر إلا في حال الضرورة من جديد، لذلك فقد سلكت الطريق من بغداد إلى الموصل وعهدت بصندوق إلى رجل عربي يؤجر جمالاً في تلك القافلة كي يوصله إلى رجل معروف في حلب، لكن وعلى بعد مسير يوم من دمشق قامت قبيلة عنس بنهب القافلة بأسرها وفتح البدو الصندوق وأخذوا منه ما يمكن لهم استخدامه لكنهم تركوا لي الكتب والأوراق وعلبة ميداليات وساعتين. أما الجمّال فقد لملم بقايا الصندوق وحمله بكل وفاء وإخلاص إلى حلب. وبذلك امتلكت برهاناً على طمع العرب ونزاهتهم في آن معا وحرصهم على ما نضع في أمانتهم.

الفصل السادس

البدو في البتراء وفلسطين

يستخدم علماء الجغرافيا هذا الاسم وهو اسم فيه شيء من الغموض، فهو يدل على البلاد التي تملؤها الصحارى وتقع بين مصر وسوريا والجزيرة العربية بشكل خاص. وسيصعب تحديد الحدود الأكيدة لهذه البلاد التي لا نعرفها كثيراً والفقيرة بالسكان، فالسكان يرحلون بين الرمال الجدباء والصخور بحثاً عن مكان منعزل يمكنه تأمين بعض العشب والكلأ لماشيتهم. أما السكان المبعثرون في تلك الفيافي المترامية الأطراف فهم دوماً من البدو. في تقريري حول رحلتي إلى جبل سيناء كنت قد تكلمت عن ثلاث عشائر أو قبائل كانت تقيم على طول الطريق وهي بلا شك من القبائل التي تعترف بسيطرة قبيلة أخرى كبيرة. ووراء سلسلة الجبال تلك وبالقرب من ميناء العقبة، من المحتمل أن نجد قبائل أخرى لكنني لم أتعرف إلى أسمائها. وقد تكلمت سابقاً عن قبيلة حرب التي تعيش في شمالي الحجاز، وما تزال تعيش في هذه المنطقة القبائل القديمة كبني عتيبة (Ottaeba) وهذيل (Hodeil) والجوم (Jom) وقبائل أخرى عديدة وهناك نزاعات لا تتوقف بين أمرائهم وبين هؤلاء البدو. في تخوم نجد والصحراء الكبرى تعيش قبائل هامة أخرى كبني تميم التي اشتهرت في زمن الخلفاء. أما الشيخ ظاهر سيد عكا وأكبر جزء من فلسطين فهو عربي أيضاً، لكني أجهل من أي العشائر. بصورة عامة لم أتمكن من معرفة ما يتعلق بالعرب الذين يعيشون اليوم في فلسطين، ويبدو أنهم أكثر العشائر المقيتة والمكروهة التي سكنت هذه البلاد القاحلة والموحشة. ولم يذكروا لي إلا قبيلة جرهمي (Dsjoerhami) التي تستقر بين رام الله وأورشليم (القدس). أما اليوم وحدهم الرهبان الأوروبيون هم الحجاج الذين مازالوا يحجون إلى السامرة، ويصفون العرب بأنهم شياطين متجسدة ويشتكون بطريقة مأساوية من فظاظتهم حيال المسيحيين البائسين، تثير هذه الشكاوى والتظلمات شفقة رجال التقوى الأوروبيين وتجلب الكثير من الحسنات إلى دير الآباء الفرنسيسكان في أورشليم. وبهذا فلا تنتهي الروايات المبالغ بها عن العذاب والآلام التي يرويها الحجاج عن وحشية هؤلاء البدو،

لأن الأمر يهم الرهبان ويعود عليهم بالمنفعة المادية. إلا أنه يجب الاعتراف أن قبيلة جرهمي كانت تتميز بخصوصية وتنفرد عن باقي القبائل فهي لم تتعرض أبداً للغرباء وتعاملهم معاملة سيئة إلا بعد أن يثيروا حفيظة أفرادها، بينما تميز العرب في ضواحي أورشليم بكرههم المتأصل للرهبان بالرغم من أنهم أي العرب شرفاء. وينقل أولئك البدو ثروات هامة من يافا إلى أورشليم سواء كانت من الأموال أو البضائع التي يتلقاها الرهبان سنوياً من أوروبا، دون أن يمسوا يوماً بالأمانة التي عهدت إليهم ودون أن يختلسوا منها شيئاً يذكر. وهم يعرفون جيداً أن رئيس الدير في أورشليم يدفع نفقات سفر الحجاج وما هم إلا من الرهبان الفقراء فلن يرجى منهم شيئاً. ولكن وبالرغم من كل هذا فهم لم يمنعوا أنفسهم من الانتظار وملاقاة تلك القوافل الفقيرة لا لنهبها بل للتمتع والتلذذ بضرب الرهبان وإيذائهم. ومن الخطأ أن يظن أوروبي أنه يسافر بأمان أكبر في السامرة إن وضع نفسه تحت حماية الرهبان أو قام بمرافقتهم. وقد خاض التجربة شاب فرنسي أثناء فترة إقامتي بذهابه إلى نهر الأردن، فانهال عليه البدو ضربًا متواترًا بالعصي فقط لأنه كان برفقة الرهبان، ويبدو أن العرب يعتبرون الرهبان ممن لا تحسن صحبتهم.

القسم الخامس والعشرون
الدين والطبائع لدى العرب

الفصل الأول

المذاهب الإسلامية في الجزيرة العربية

كان من المتوقع أن نجد الدين الإسلامي في الجزيرة العربية وقد احتفظ ببساطته الأولى ولحمته بما يخص عقائده كما كان في بداياته الأولى التي تعود إلى فجر الإسلام، لكن الإنسان لا يمكن له أن يكون في اتفاق دائم مع أخيه الإنسان فيما يتعلق بآرائه ومعتقداته الدينية. وقد نقلت لنا حديثاً رواية قديمة عن النبي محمد تؤكد أنه كان يشعر باستحالة ديمومة الوحدة بين أصحاب المذاهب الذين سيخلفونه ومن المفترض أنه قد خطب فيهم مؤكداً أن دينه الجديد سينقسم إلى ٧٠ مذهبًا متباينًا، كما كان حال الدين المسيحي في أيامه.

لقد صار حقيقة جزء من خطبته هذه، لأننا نجد اليوم عدة مذاهب إسلامية في الجزيرة العربية، ونحن نعرف جيداً العقائد والعبادات في الدين الإسلامي بصورة عامة. إلا أنني سأكتفي بالحديث فقط عن بعض الخصوصيات التي تميز المذاهب المعروفة في الجزيرة العربية، والتي لها بعض التأثيرات على الطابع الأخلاقي أو الحالة السياسية للأمة.

وأشهر تلك المذاهب عند العرب المسلمين هي:

المذهب السني: وفيه من الأتراك، أتباعه هم الأكثر عدداً في الجزيرة العربية، يعتنقه سكان مكة والمدينة، هاتان المدينتان المقدستان وشريفاهما أيضاً والمعروف عنهما أنهما من آل النبي محمد.

المذهب الشيعي: الذي اعتنقه الفرس وله بعض الأتباع في القسم الشرقي من الجزيرة العربية، وتدين به كل سواحل الخليج العربي، كما أن الموالي أو أمة علي في سوريا هم من الشيعة أيضاً.

المذهب الزيدي: وينتشر انتشاراً واسعاً في اليمن ويبشر به إمام صنعاء.

المذهب الإباضي: ويسود بصورة أساسية في عُمان وينسب إلى أعداء علي الذين بقي منهم ٩ فقط على قيد الحياة بعد الخلاف ثم ذهب اثنان منهم إلى عُمان.

المذهب الإصلاحي: وقد تحدثت عنه في وصفي للبدو المقيمين بين الحجاز واليمن، وأشك في أن يكون هذا المذهب ديناً مختلفاً عن الدين الإسلامي.

مذهب المكرمي وعبدالوهاب: وقد قلت رأيي في هذا المذهب وهو غير معروف كثيراً في وصفي لنجران ونجد.

مذهب الجدل: الذي يعتنقه سكان ميكران المنطقة الساحلية في بلاد فارس.

مذهبي الشهبرياري ومردينار: يعتنقهما بدو البلوج وهي العشائر العربية المقيمة على سواحل ميكران التي ذكرتها أعلاه.

تعترف كل هذه المذاهب بالنبي محمد نبياً لها، وتنظر إلى القرآن على أنه دستور القوانين الاجتماعية والدينية لديها. وبالرغم من هذا فهي تنعت بعضها البعض بالخوارج أو الهراطقة.

وليس للسنيين في مكة حول الكعبة إلا أربع دور للعبادة، للفرق الأربعة التابعة لها، الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية، والذين يعتبرونهم الوحيدين من أتباع الصراط المستقيم. وقد قام الزيديون تعويضاً عن هذا الحرمان ببناء دار غير مرئية للعبادة في الهواء وفوق الكعبة مباشرة، وهذه الدار حسب معتقداتهم تخولهم حق الملكية للأماكن المقدسة. ولكن وبالرغم من هذه الادعاءات فإن على كل من الحجاج الزيديين دفع رسوم كبيرة للشريف الذي قام منذ بضع سنوات بفرض رسوم أعلى على الشيعة لقاء السماح لهم بالقدوم إلى مكة.

ويبدو الزيديون أقل تعصباً وأقل اعتقاداً بالخرافات من السنيين الذين يعتقدون بكرامات كبيرة للأولياء ويؤمنون بأتفه المعجزات، فالمناظرات والجدل في الحق في خلافة النبي لا تشغل بال الزيديين أبداً، في حين أنها تسبب الشقاق بين السنة والشيعة، كما أنهم ليسوا متصلبين ومتعصبين إلا أنهم شديدي الدقة في صلاتهم والشعائر الأخرى.

وهم لا يذكرون أياً من الأولياء، أما إمام صنعاء وهو زيدي أيضاً فإنه يترك المساجد التي لا فائدة منها تتهدم وتؤول إلى الخراب. أو يقوم بهدمها أمام رعاياه من السنة في تهامة وذلك أمر شائن يثير استنكارهم.

كل تلك المذاهب تكرم سلالة النبي محمد فيما عدا الإباضيين الذين لا نميزهم عن العرب الآخرين فهم يعتقدون أن لهم الحق جميعاً وبالتساوي في الحكم، ولهذا السبب يدعي أمير مسقط وهو من هذا المذهب أنه إمام بالرغم من أنه لا ينحدر من سلالة النبي محمد. ولا يمتنع أصحاب هذا المذهب الجديد عن الكحول كباقي المسلمين وحسب بل وعن التدخين والقهوة، في حين تُقدم للغرباء في عمان للحفاظ على أصول الضيافة. ويغالي الإباضيون في زيادة التقشف والبساطة في طريقة عيشهم ويتجنب الكبار منهم المفاخرة بالملابس والسكن والمساجد. ويحكم الأمير بنفسه بالعدل بين الناس ويسمح لكل رعاياه بالجلوس في حضرته. وبسبب هذه العادات والتقاليد الصارمة عندهم تطاول الإمام السابق وهو أمير ظالم ونذل على رعاياه. وقد تكلمت في وصفي لعمان عن الثورة التي أزاحت هذا الأمير عن كرسي الحكم.

لم أجد عند الزيديين في اليمن أديرة و لا رهباناً، ولا عند الإباضيين في عُمان. فالسنة وبشكل خاص الأتراك لهم كما نعلم عدد كبير من الزوايا والطرق ويُعرف أعضاؤها باسم عام هم الدراويش والأولياء. ونميزهم عن بعضهم البعض بالملابس والعادات. وفي المخا يسمى بالدراويش المتسولون الذين ينشدون في الشوارع وبعض الفقراء الذين يقرؤون آيات من القرآن على القبور لقاء مبلغ زهيد من المال. بما أن الإباضيين والزيديين لا يكرمون الأولياء فليس عندهم بالتالي أولياء ودراويش في حين نجدهم بكثرة في مصر وهم يقومون بالكثير من الأمور الغريبة والشطط والمبالغة.

كان بين الأتراك والفرس بشكل دائم حروب شنيعة، وكان طموح زعمائهم قد وجد وسيلة ليصور للشعب وكأنها حروب دينية، وهذا هو السبب في الكراهية والعداء المستميت والمتبادل بين الشيعة والسنة. ففي تركيا كما في بلاد فارس يسمح للمسيحيين ببناء كنائس ولليهود بتشييد معابد في حين لا يوجد أي مسجد للسنة في

بلاد فارس، ولا يسمح الأتراك بالتالي للشيعة بممارسة شعائرهم الدينية، باستثناء السماح لهم بزيارة ضريح لهم بالقرب من بغداد، حرية يدفعون ثمنها غالياً للباب العالي. أما في اليمن فيعيش السنة والزيديون بوئام وتآلف معاً، فالزيديون أكثر تسامحاً ويمثلون الأقلية .

ولا يضطهد المسلمون بشكل عام معتنقي الديانات الأخرى، ولذا لا يخشى أصحاب المذاهب أي شيء، إلا في حالة قصة غرام مع امرأة مسلمة ويتعلق الأمر بالحياة أو الموت إذا لم يعتنق المذنب الدين الإسلامي. ويجازف بحياته أيضاً المسيحي إذا كان مقتنعاً أنه قد جدف. في واقع الأمر لن يكون المسلم في منأى عن الموت أيضاً. فخلال فترة إقامتي في بغداد طالب جندي إنكشاري بديونه أحد الأغنياء الذي كان يجيبه دوماً وكأنه تقي وورع أن من الضروري ذكر الله ونبيه وانتظار إيفاء الدين دون غضب وحنق، فما كان من الجندي الانكشاري الذي ضاق ذرعاً من الانتظار إلا أن أجابه مجدفاً، فاستدعى الغني الماكر شهوداً واعتبر الجندي مذنباً وطرد من الجيش وأُعدم في اليوم التالي.

المذاهب الإسلامية ليست بنفس درجة كرهها للصور. ويعاني الناس في عُمان من البانيان الذين يعرضون في بيوتهم أصنامهم. يبدو أن السنة قد تراجعوا قليلاً عن تحفظهم فالسنة في الهند يملكون صوراً حتى أنني رأيت لوحتين في منزل ريفي من منازل السلطان في القسطنطينية. وفي القاهرة وجدت عند أحد العلماء السنة أدوات للرسم وتمثالاً نصفياً من الجبس.

الفصل الثاني

أديان أخرى سمح بها في الجزيرة العربية

نجد في كل الجزيرة العربية يهوداً مكروهين أكثر من المسيحيين، وقد ذكرت مسبقاً قبائل يهودية تقيم في خيبر وهي مسيطرة فيها وليس فقط مقبولة ولليهود المنتشرين في عدة مدن معابدهم الخاصة ويتمتعون بحرية واسعة ويحبون السكن معاً ويؤلفون بذلك قرية بالقرب من المدن الرئيسة. ويعاملون في عُمان معاملة أفضل ويجرؤون على الظهور بملابس كملابس المسلمين.

وقديماً كان يعيش في الجزيرة العربية الكثير من المسيحيين، في حين أنني اليوم لم أجد فيها كنيسة واحدة. وفي منطقة الإحساء يوجد الكثير من الصابئة أو مسيحي القديس يوحنا، لكن الديانة المسيحية لهذه الطائفة تبدو وكأنها تشكيل ليس له صيغة ويتألف من عدة مذاهب.

ويقيم البانيان الهنود بأعداد كبيرة في المدن التجارية، يتم في المخا إقلاق راحتهم وإزعاجهم، بينما يتمتعون بالحرية في ممارسة شعائرهم الدينية في مسقط إذ يدع الإباضيون وهم طائفة متسامحة، كل أتباع الديانات الأخرى يعيشون بحرية وفق قوانينهم الخاصة. كما يعيش عدد من هؤلاء الهنود في بلاد فارس بينما لا يحتمل الأتراك وهم من السنة المتزمتين وجودهم في مناطقهم.

ولم ألحظ البتة أن العرب يكرهون معتنقي الديانات الأخرى بل يحتقرونهم في الواقع تقريباً، كما يحتقر المسيحيون في أوروبا اليهود.لكن لهذا الاحتقار درجات عند العرب يبلغ ذروته تجاه البانيان ثم اليهود وتضعف حدته تجاه المسيحيين الذين لا يكنون الكثير من الكره للمسلمين. فإن تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية فهو لا يجبرها على التخلي عن دينها، لكنه لن يتزوج من امرأة بانيانية، فمن المعروف أن هذه الطائفة الهندية لا تعترف بوجود الله، وليس لها أي كتاب سماوي. ويبدو أن المسلمين الهنود لا يكنون الكثير من الاحتقار للبانيان وهم أكثر تسامحاً من نظرائهم العرب معهم.

هذا الميل نحو التسامح الشامل يقي العربَ من الاندفاع لنشر الدين، فهم لا يريدون إغراء أو إجبار أحد على اعتناق الدين الإسلامي باستثناء الصغار من العبيد في بعض الأحيان. لكنهم يضطرون إلى استقبال معتنقي الدين الإسلامي وتوفير معيشتهم أيضاً وهم عادة أشخاص من الطاقم البحري للسفن الأوروبية وهاربون من عقاب ما استحق عليهم. إنما يعرف عنهم أنهم من الرعايا الدنيئين، فتعطيهم الحكومة نفقة صغيرة تكاد تكفي للعيش عيشاً زاهداً. وليس هناك من يزعجهم في تجارتهم مع المسيحيين أو رحلاتهم إلى البلاد الأجنبية. ففي الجزيرة العربية كان في خدمتنا فرنسي مرتد[1] تركنا وذهب إلى الهند.

ولن نخرج عن الموضوع إن ذكرنا بهذه المناسبة أن الهنود يمارسون الدعوة بدرجة أقل من العرب، فالبراهمة والرازبوت والبانيان لا يقبلون أحدا في طائفتهم وهم يطردون على العكس منها ذوي السلوك الرديء ويعطون بذلك مرتدين إلى الديانة المسيحية. لذلك فالمبشرون الأوروبيون الذين يجوبون بلاد المشرق بكل وقاحة يحطون من قيمة المعمودية بصب الماء على رؤوس كل الناس، يجب ألا يفاخر أولئك المبشرون بعدد الردات إلى هذا الحد والتي لم تكن لترى النور لولا إلحاحهم الشديد.

---

١) يقصد مسلم.

الفصل الثالث

طبائع العرب

المناخ والحكم والتربية هي بلا شك العناصر التي تشكل وتغير الطابع الشعبي. فالعنصر الأول يعطي العرب نشاطاً وحيوية وميلاً نحو الكسل، ويزيد العنصر الثاني هذا الميل ويوحي بالنفاق والمداهنة، ثم يأتي العنصر الثالث الظاهر الرصين والمتأمل الذي يتصل أيضاً مع ملكات الروح. والفرق بين التربية عند العرب والتربية عند الأوروبيين شاسع جداً. فبقدر ما يجهد العرب في بلوغ سن الرشد بلوغاً سريعاً يبدو أن للأوروبيين رغبة في إبعاده وتأخيره. فلم يكن العرب في يوم من الأيام أطفالاً في حين أن هناك الكثير من الأوروبيين ما زالوا في مرحلة الطفولة حتى وهم في الثمانين من العمر.

ففي الجزيرة العربية، يترك الصبية بين أيدي النساء في "الحرملك" حتى سن الرابعة أو الخامسة من العمر، حيث يلهون ويلعبون ألعاباً صبيانية تتناسب مع عمرهم ومجتمعهم. ثم يؤخذون ليتعلموا في الحال التفكير والكلام باتزان ورصانة، والبقاء بصحبة الأب أياماً بكاملها إن لم يعهد بهم إلى معلم. إن الموسيقى والرقص تعتبران من الأعمال غير اللائقة عند العرب، ويحظر على النساء الحضور في مجالسهم كما يمنع تناول الكحول، فالشباب العربي ليس لديه أي فكرة عن التسلية واللهو المعروفين اللذين يسيئان كثيراً إلى الشباب الأوروبي ويؤخران تقدمه. ويصبح الشاب العربي جدياً ورزيناً حتى منذ نعومة أظفاره بما أنه يعيش دوماً تحت أنظار البالغين.

وفي ظل هذا الجو الرصين والمركز لدى العرب نشاطاً له درجاته وحدته حسب اختلاف طبيعة المناطق. فسكان اليمن الذين يعيشون في مناخ ملائم وجميل وفي بلاد ممتعة هم أكثر حيوية من سكان الحجاز وصحراء الجزيرة العربية الذين أضعف خيالهم مشهد الصحراء المستمر والجبال الجرداء. وقد رأيت في اليمن شباباً يتمتعون بالرقص والقفز، سلاحهم في أيديهم وينقرون دفوفاً صغيرة. إلا أن عرب الصحراء

يظهرون حيوية ونشاطاً أكثر من الأتراك. أما فيما يخص المصريين الذين يميلون للحزن فلم أجد عندهم أي ظاهرة فرح حقيقي حتى في أزهى احتفالاتهم وأعيادهم.

هذه الحيوية عند العرب تدفعهم إلى تفضيل الصحبة والاجتماعات الكبرى بالرغم من هذا الظاهر الجدي. فهم يواظبون على ارتياد المقاهي والأعياد الشعبية الكثيرة في اليمن، وتقيم كل قرية عيداً في كل أسبوع. وفي حال كانت تلك القرى بعيدة إحداها عن الأخرى يجتمع السكان في مكان منبسط في الهواء الطلق للبيع والشراء والتمتع بهذا المشهد وتبادل الأحاديث، ويذهب الحرفيون على اختلاف أنواعهم من قرية إلى أخرى على مدى الأسبوع لممارسة حرفهم في كل هذه الأعياد، ويمكن أن نخلص من خلال هذا الميل الاجتماعي إلى أن هذه الأمة متحضرة أكثر مما نظن بشكل عام.

ويتهم الكثير من الرحالة العرب بأنهم مخادعون ولصوص ومنافقون. فالحكم الاعتباطي الذي يفقر رعيته سلباً ونهباً كما هي الحال في قسم من الجزيرة العربية لا يمكن له والحق يقال أن يؤثر تأثيراً إيجابياً على استقامة الأمة ونزاهتها. وقد شعرت أن هذه الاتهامات فيها بعض من الشطط والمبالغة، ويعترف العرب بأنفسهم بأنهم ليسوا جميعاً من الشرفاء وقد سمعت من أحاديثهم وهم يتفقون معي على إخلاص الأوروبيين في وفائهم لوعودهم، وقد عبروا عن سخطهم من جراء نصب واحتيال بعض أبناء ملتهم، كما يعيب ويخجل المسلمون أو المؤمنون الحقيقيون أن تتجاوزهم نزاهة الكفار.

الفصل الرابع

الثأر عند العرب

شعب حي ملتهب له أهواء عنيفة تدفعه الفطرة إلى الإفراط في الرغبة بالثأر والسباب والشتائم. إلا أن الروح الحاقدة عند العرب وهي روح مشتركة عند سكان البلاد الحارة الأخرى، لها درجات مميزة تتعلق بالطابع الوطني وتبدله بدوره. ولا يبدو العرب من محبي النزاعات لكنهم في خصامهم يثيرون اللغط والجلبة، وقد رأيت نزاعات حيث كان المتنازعون قد تسلحوا بخناجرهم وكانوا على أهبة الاستعداد للقتل إلا أنهم عادوا إلى هدوئهم بسرعة وسهولة، ولفض الخلاف وتهدئة النفوس لا يلزمهم إلا رجل يطلب منهم ببرودة أعصاب ذكر الله ونبيه. وفي حال لم ينته الخلاف سريعاً فهم يرضخون لقرار حكم ما.

ويعمل الشرقيون على التحكم في غضبهم. فقد اشتكى بحدة وغضب صاحب سفينة نهرية في مسقط إلى حاكم المدينة، أن أحد التجار قد رفض دفع أجر البضائع له. وكان الحاكم يؤجّل في كل مرة سماع شكاويه إلى المرة القادمة، وفي النهاية طالب صاحب السفينة بحقه بهدوء وسكينة فما كان من الحاكم إلا أن أنصفه في الحال قائلاً له : لم أسمعك في المرات السابقة لأنك كنت في سكر من الغضب وذلك أخطر أنواع السكر.

وبالرغم من برودة الأعصاب التي تعتري الناس في الشرق، فإن للعرب حساسية مبالغ فيها إزاء كل ما يعتبرونه إهانة. فإن بصق أحد على شخص ما فلن يتردد الثاني في الثأر لهذه البالغة الخيالية. وقد شاهدت في إحدى القوافل رجلاً بصق صدفة مدنساً بالكاد لحية عربي فاعتقد الآخر أنه قد أسيئ إليه إساءة بالغة، وشق على المهين تهدئته واعتذر إليه وطلب منه السماح والمغفرة عن فعلته الطائشة وغير المقصودة ومقبلاً لحيته كدليل على الخضوع له. لكن لهم (أي العرب) حساسية أقل تجاه الكلام المهين والشتائم التي يستعملها عامة الناس أكثر من استعمالها عند صفوة القوم.

لكن شيوخ البدو هم أكثر طبقات الناس حساسية، كونهم من المحاربين ويبدو أنهم يغالون في أحكامهم المسبقة أكثر من الغزاة المتوحشين الذين قدموا من الشمال وانتشروا في أوروبا. ويبدو أن الشرف البدوي أرق من شرفنا، لذا فهو يتطلب تقديم أكبر عدد من الضحايا كقرابين وتضحيات. فإن قال شيخ لآخر على محمل الجد عمامتك بالمقلوب أو غطاء رأسك قذر فهذه الإهانة الشنيعة لا يغسلها إلا الدم وليس دم المذنب وحسب بل دم كل الذكور من أسرته.

وقد رووا لي في البصرة قصة حدثت في نواحي هذه المدينة منذ نحو عشرة أعوام، يمكنها إعطاء فكرة عن التطرف في روح الانتقام الذي تكنه هذه الأمة، فقد زوّج سيد من قبيلة منتقري ابنته إلى عربي من كوران. وبعد العرس بفترة قصيرة التقى شيخ قبيلة تابعة لقبيلة منتقري بوالد الفتاة في مقهى فسأله مازحاً عما إذا كان هو والد الشابة الحسناء زوجة فلان من كوران، فترك الأب المقهى حالاً ظناً منه أن شرف ابنته قد مس وذهب إليها وذبحها وعاد فلم يجد سائله الوقح فبحث عنه في كل مكان، وفكرة الثأر تملأ كل جوانحه، وعندما لم ينجح في إيجاده قتل بعضاً من أفراد أسرته دون أن يترك خدمه ومواشيه، ولم يتوان المذنب عن تقديم مبلغ كبير من المال لحاكم كوران ليخلصه من هذا العدو المخيف. فقام الحاكم واستقدم والد الفتاة وألزمه بقبول المصالحة تارة بالتهديدات وتارة أخرى بتوسلات مصطنعة لكن المنتقم العربي الذي كان يحتقر الموت ويزدريه أبى أن يتخلى عن ثأره. ولينقذ الحاكم هذا الرجل ذو الشرف الرفيع، فقد ارتأى أن يزوج المذنب ابنته لوالد الفتاة لقاء مهر كبير ولم يجرؤ العم يوماً على الظهور أمام صهره منذ ذلك الحين.

ويظهر التعطش للانتقام والثأر في اختلاف طريقة ملاحقة القاتل في هذه الأمة، ففي المناطق الجبلية في اليمن تقيم المحكمة العليا في صنعاء دعوى المجرمين بصورة عادية كما هو متبع في مختلف المناطق من الجزيرة العربية، ولأهل المتوفى كامل الحرية بقبول فدية من المال أو المطالبة بتسليمهم القاتل. ومن المتعارف عليه في الكثير من المناطق أنه من الشائن والمخزي قبول المال بدلاً عن الدم المهدور فلا يثأر له إلا إراقة

دم آخر حسب قوانين الشرف العربي. ولا يهم العرب أن تقوم العدالة بمعاقبة الجاني أو إعدامه فذلك يخلص الأسرة من أحد أفرادها السيئين، وهي أي الأسرة لا تستحق مثل هذه الخدمة كما يقولون.

ولهذه الاعتبارات يفضل العرب الرد والثأر من أسرة القاتل بأسرها وهو أمر يسمح به القانون، ويعملون على قتل الزعيم أو أحد كبار الأسرة فهو المذنب الأكبر كونه لم يسهر على حسن سلوك من ينطوي تحت إدارته. وفي انتظار ذلك الأمر يقبض القضاة على المجرم ولا يطلقون سراحه إلا بعد أن يدفع فدية قدرها ٢٠٠ اكو. والفدية هذه هي السبب في إلغاء مثل هذا القانون العبثي. بعد ذلك التصريح تعيش الأسرتان حالة من الخشية الدائمة حتى يقتل أحد من أسرة القاتل. ولا ترسلان أفرادهما للمبارزة ولا تتقاتلان إلا في المناسبات. ولدينا من الأمثلة لحروب أسرية دامت أكثر من خمسين عاماً. وإذا توفي رجل آخر من أسرة المغدور فلن يكون هناك أمل في السلام حتى يُقتل إثنان من الطرف الآخر.

ويتناول القرآن الكريم حرفياً القصاص أو دفع الدية ولكانت قد ساورتني الشكوك لو لم أعاين بنفسي أمثلة عنها، فالناس في الواقع يتصرفون في كل مكان حسب مبادئهم الدينية، لكن الانتقام ليس خارجاً عن الإيمان وحسب بل إنه عبثي وغيرإنساني.

كان هناك رجل مرموق عربي يزورونا غالباً في اللحية، يحمل دائماً بالإضافة إلى خنجره رمحاً صغيراً لا يفارقه أبداً، وقد شرح لنا سبب تصرفه الغريب هذا هو أن رجلاً من أسرته قد قتل ويرى أنه مضطر للثأر له بقتل رجل من الأسرة المعادية التي تعيش حالياً في المدينة، بالرغم من أنه مسلح برمح مماثل فقد اعترف لنا أن الخوف من ملاقاة خصمه والاقتتال معه يقض مضجعه ويؤرق نومه. وفي تقريري عن الرحلة من بيت الفقيه إلى المخا كنت قد قصصت مثالاً عن حرب أسرية شاهدناها في طريقنا.

فعند البدو المقيمين في الجهة الشرقية من الجزيرة العربية، تعمل كل أسرة هضم حقها على تطبيق العدالة بنفسها. أما إذا كانت الأحزاب المتنازعة من قبيلتين كبيرتين،

تنتج في بعض الأحيان حروب شكلية عن تلك النزاعات الخاصة، وعلى العكس فهي لا تهدد الأمن العام، أما إذا كانت الأسرتان المتعاديتان تخضعان لأسرة كبرى، أو إذا كان الخصمان من رعايا شيخ واحد وبالتالي من المفروض أن تكونا أسرة واحدة ، فإن الشيخ يجتمع مع كبار رعاياه ويعمل على تهدئة المساء إليهم ومعاقبة القاتل.

أما القبائل التي سكنت السواحل في عُمان وشواطئ الخليج العربي فهي تعرف أيضاً مثل تلك الحروب التي سببت لها أضراراً جسيمة فاقت الأضرار التي لحقت بباقي العرب، فجزء كبير من هذه القبائل لا يعيش إلا من نقل البن من اليمن إلى الخليج العربي ومن صيد اللؤلؤ، والفرق تملك فرصاً أكثر للالتقاء والقتال في عرض البحر. ولهذا السبب فقد أجبرت قبائل ضعيفة على ترك مهنتها وطوتهم صفحة النسيان والشقاء.

الفصل الخامس

أشراف العرب

يُتهم العرب بالزهو والاعتداد بالنفس والارتباط بالأحكام المسبقة حول البنوة، فهاجسهم النسب والسلالة حتى فيما يتعلق بخيولهم أيضاً. ولا يطال هذا اللوم معظم الناس فهم لا يعرفون أسماء الأسر ولا يكلفون أنفسهم مشقة تسجيل سلالاتهم. وتجهل أغلبية الطبقة الفقيرة هوية أجدادها ولا تدري شيئاً عن آبائها إذا لم تشأ التقاليد أن يضم الإبن إلى اسمه اسم والده.

أما الأمراء الصغار الذين يحكمون في الجزيرة العربية، فيتفاخرون بلا شك بنسبهم والسبب في ذلك أن أسرهم تمتعت منذ غابر العصور بالسلطة الحاكمة والاستقلال التام. والأمر كذلك بالنسبة للأشراف الأحرار أو التابعين فقط لشيوخ القبائل يتمتعون بامتيازات وحقوق، وقد اعترفت التقاليد العربية بأحقية بعض الأسر لتلك الامتيازات. فعلينا إذاً تفهم الشيوخ وقبولهم إذا ما فخروا قليلاً بهذه الميزات الخاصة.

ومما يزيد هذا الرأي ويدعمه ويقويه هو أن نسب الشيوخ البدو لا يُعطى ولم يمنحه حاكم لأحد ما في يوم من الأيام حتى لو كان الخليفة نفسه. وبما أن النسب مؤسس على تقاليد أمة من الرحل لا تعرف رفعة وتفوقاً إلا رفعة وتفوق أرباب أسرهم، ولا يستطيع الحاكم زيادة عدد ذرية أولئك السادة، ويمكن له فقط أن يخلق أشرافاً في بلد يشكل فيه الأشراف طبقة تتميز عن الأمة. وليس هناك أي تناقض في إضافة بعض الشركاء إلى هذه الطبقة فيتقاسمون معها امتيازاتها.

ويمكن مقارنة الأشراف البدو بالنبلاء الأسكتلنديين الذين يعيشون في الجبال والذين تتشابه جماعاتهم مع القبائل العربية.

من بين أكبر الأسر في الجزيرة العربية يحتل أفراد سلالة النبي محمد بلا منازع المرتبة الأولى. وقد كان سيد المسلمين من أعرق الأسر وأشهرها، تاجر قوافل ثم أميراً واسع النفوذ برهن على أنه شيخ من أشراف العرب ذوي النسب الخالص. إلا أن

علينا الحكم وبسبب التكريم الخاص الذي نبديه لتلك الأسرة، أن العوامل الدينية قد ساهمت في تأمين الامتيازات لها أكثر من باقي الأسر الأخرى الحاكمة والمرجح أنها الأقدم والأعرق. وهذا مذهب يحترم احتراماً طبيعياً عراقة مؤسسه وكأنه عرق بشري له طابع لا يمحى من القدسية.

ويطلق على أفراد سلالة النبي عدة ألقاب. فلهم لقب شريف أو سيد في الجزيرة العربية ، أما في البلاد الإسلامية الواقعة نحو الشمال فيسمون أشرافاً أو أمراء، وفي المستعمرات الشرقية العربية فيدعونهم سيد ببساطة، ويتخذ أمير حافصة على الحدود الفارسية لقب مولاي وهو لقب ملك المغرب على ما أعتقد.

تتميز هذه السلالة في بعض المناطق بعمامة خضراء اللون. حتى أن السفن كانت ترفع رايات خضراء في عرض بحور الجزيرة العربية لو كان من جهز تلك السفن هو سيد من السلالة الشريفة. إلا أن العمامة الخضراء اللون ليست دوماً العلامة المميزة لأحد أفراد أسرة النبي محمد، فالمتسولون يعتمرونها أحياناً وقد لبسها أحد خدمنا دون أن يوجه له لوم أو عتب.

ويعتبر أشراف الحجاز الأنبل في سلالة النبي فلم يخالطوا في زواجهم وحافظوا على دم صاف أكثر من الأشراف الآخرين. ويحترمهم الناس في هذه المنطقة إلى حدود يصعب تصديقها، فالشريف يجرؤ على الظهور في التجمعات دون أن يخشى ضربة غادرة أو يقتل عن سبق إصرار وتصميم، فهو في مأمن من السرقة فلا يغلق باب بيته ولا يتمتع الشريف في باقي مناطق الإمبراطورية العثمانية بنفس الاعتبارات التي تخص سلالة النبي محمد.

أثناء إقامتي حُكم بالإعدام على شريف متهم باقتراف عدة جرائم، لأنه وبالرغم من تحذيرات الحاكم المتسامح لم يتب عن رذائله ولم يقوّم سلوكه، لكن نسبه شفع له ولم ينفذ الحُكم.

وبما أنني سمعت الناس في معظم الأوقات يميزون بين السيد والشريف، فقد

جمعت بعض المعلومات بهذا الخصوص، قيل لي إن الأشراف نذروا أنفسهم للحكم العسكري وهم من سلالة الحسن، بينما اجتهد الأسياد دوماً في العلوم والتجارة بالرغم من استيلائهم على السلطة مع مرور الزمن في بعض أجزاء الجزيرة العربية وهم من سلالة الحسين. ونجد عدداً مدهشاً من الأشراف في كل البلاد المسلمة، وقد رأيت في اليمن قرى بأسرها وقد سكنها أناس من الأشراف فقط. ويثير دهشتنا حقاً أن نرى جموعاً غفيرة من هذه الطبقة مع أننا نجهل تماماً الطريقة التي يورث بها لقب الشريف. فتعدد الزوجات يزيد بشكل طبيعي العروق الإنسانية التي تتكاثر بدورها إلى ما لا نهاية وتضيع بالتالي في البؤس والفقر. وقد رويت في وصفي لمدينة زبيد قصة شريف فقير تعرفت عليه في تلك المدينة، وهي أن هناك عادة خاصة تزيد في عدد الأشراف، فابن امرأة ما من سلالة النبي محمد يصبح من الأشراف مع كل ذريته. وقد سافرت في الأناضول بصحبة رجل تركي يدعى أحمد ويعتمر عمامة عادية بينما كان ابنه يلبس عمامة خضراء اللون ويتخذ لقب شريف لأن والدته كانت شريفة، وقد تعرفت إلى الكثير من الأمثلة في مختلف المناطق التركية وهناك الكثير من المؤشرات والدلائل تظهر أن الكثير من الناس يحملون هذا اللقب بينما لا ينتمون بأي شكل من الأشكال إلى سلالة النبي محمد. ولكي يدعّم الأشراف الحقيقيون أصولهم تجاه الخلفاء ادعوا نسبهم إلى آباء في منتهى القوة لكنهم غرباء عنهم ولا يمتون لهم بأي صلة أو قرابة في واقع الحال.

ففي تركيا يتمتع الأشراف بأكثر من ميزة بسبب قلة عددهم، ففي كل مدينة هامة لا يتعلق الأشراف بالباشا بل برجل من السلالة يدعى النقيب أو نقيب الأشراف. ويبدو أن الحكومة العثمانية تخشى من طموحاتهم ولا توكل إليهم أبداً أي منصب صغير مهما كان، ويحملون لقب أمير بشكل عادي وهو لقب غامض يطلق على أناس من أرفع المستويات وصولاً إلى الضباط المأمورين.

أكثر الألقاب استخداماً عند الأشراف العرب وأقدمها وأكثرها شيوعاً هو لقب الشيخ. وبالرغم من غنى اللغة العربية إلا أنها تظهر عجزاً وفقراً بالمفردات الخاصة التي تميز كل طبقة. ولهذا السبب فإن كلمة شيخ لها دلالات عدة ومتنوعة فهي تعني

تارة أميراً أو سيداً في أسوأ الأحوال، وتارة أخرى معلم مدرسة أو رجلاً يلتحق بمسجد أو أحداً من سلالة مولى ما أو عمدة مدينة ما، حتى أنه في عُمان يسمى شيخ رئيس الجالية اليهودية. وبالرغم من التقليل من قيمة هذه الكلمة ظاهراً إلا أنها لا تقلل من شأن الكبار فلا يبدل شيخ من أسرة عريقة بلقبه لقب سلطان، في حين اتخذ بعض الأمراء الصغار في جبال حضرموت ويافع لقب السلطان.

وقد أسس شيوخ الأسر الشهيرة وخاصة عند البدو شجرة الأنساب الخاصة بهم، فقد كان منهم أمراء حكام حتى قبل النبي محمد والخلفاء الراشدين. ولكن وبما أنه يصعب لدى قوم تنقصهم قرارات عامة ويحتاج لعلماء تاريخ لتأريخ شجرة انساب مفصلة ترجع إلى أكثر من عشرة قرون، فقد اتبع العرب خطة موجزة لفحص الأنساب، فهم يختارون من بين أجدادهم رجلاً شهيراً في الوقت الحاضر ويعددون أسلافه دون أن يكون هناك تضارب في آرائهم فهذا الرجل الشهير ينحدر من رجل ذاعت شهرته وشاعت أصالته وبذلك يصلون تدريجياً إلى الأصل الأقدم ورأس الذرية الأول له، دون الدخول في تفاصيل البنوة الوسيطة. ويستخدم الأشراف والسادة الوسيلة نفسها للبرهان على أصولهم من أسرة النبي محمد مختصرين بذلك شجرة الأنساب دون المساس بصحة تلك الوسيلة والشك بها.

إلى جانب هؤلاء الشيوخ والأمراء في مكة هناك أسر حافظت بالمثل على نسبها وسلالتها بكل ما تستطيع من الدقة. وهي الأسر المنحدرة من قريش التي تتمتع بمناصب متوارثة منذ زمن النبي محمد والخلفاء الراشدين. وتلك المناصب والوظائف هي :

* منصب حارس مفتاح الكعبة، الذي أوكل به النبي محمد إلى أسرة عثمان بن طلحة.

* منصب مفتي المذهب الشافعي.

* منصب مفتي المذهب الحنبلي.

* ومنصب الشيخ المعلم التابع للمسجد المقدس في المدينة.

كما أننا نجد أيضاً في مكة ما يزيد عن عشر أسر أخرى انحدرت من قبيلة قريش الشهيرة. ولن نجد في كل أصقاع الأرض شجرة أنساب صحيحة ترجع في أقدميتها إلى أكثر من عشرة قرون كمثل شجرة الأنساب لدى بني قريش الذين يضطرون دوماً إلى تقديم البراهين حول نسبهم وأصالتهم وذلك للحفاظ على ميزاتهم التي يحسدون عليها.

بيد أنني لم أسمع أبداً ما يميز تميزاً صريحاً وواضحاً بين العرب الأصليين والعرب المتجنسين، وإلا لما فاخر البدو وتباهوا بنقاء دمهم، وبأنهم ليسوا أبداً من العرب المقيمين في المدن كقوم هجين أفسد نقاءه اختلاطه مع الأمم الأخرى.

فالشيوخ لا يتزوجون أبداً من بنات العرب في المدن إن لم تضطرهم الظروف ويجبرهم الفقر أحياناً على مثل ذلك الاختلاط. وقد رأيت في بغداد شيخاً مرموقاً من عرب الصحراء وقد تزوج من ابنة مفتي بغداد وذلك لأسباب مماثلة.

ويبالغ العرب في ادعاءاتهم ومفاخرتهم بأسمائهم المعروفة مما يجعل تاريخهم منفراً ومكروهاً، لكن أسماءهم وألقابهم الطويلة تأتي من ضرورة التمييز بين الأفراد عند قوم لا يعرف شيئاً عن أسماء الأسر. وهكذا فإن فلاناً من الناس اسمه علي واسم أبيه محمد هو إذاً علي بن محمد وإن كان من البصرة، تضاف كلمة البصري على اسمه وإن كان عالماً يضاف اسم مذهبه الشافعي مثلاً ليصبح اسمه علي بن محمد البصري الشافعي وبذلك لا يمكن إلا أن نميزه عن بني قومه. ولا يتخذ أي رجل شهير في حياته اسماً طويلاً كهذا مؤلفاً من صفات ونعوت يملؤها الغرور والزهو، بل إن المؤرخين يطلقونه عليه بعد وفاته.

ويضيف البعض أحياناً إلى أسمائهم إن كانت هوية الأب غير مشهورة، اسم الابن البكر. رجل تركي يدعى صالح وقد استأجرت منه بغالاً من حلب إلى قونية (Konie) كان يكنى بأبي فاطمة أوغلي أي ابن فاطمة، وقد سألت بعض الأتراك إن كان اتخاذ اسم الأم أمراً شائعاً عندهم، فأجابوني أن هناك من يكنى باسم والدته، لكن فلان من الناس ذو عقل راجح لا يرضى أن يسمى باسم امرأة.

القسم السادس والعشرون
عادات العرب وتقاليدهم

الفصل الأول

الزواج عند العرب

يخطئ الأوروبيون عندما يظنون أن أحوال الزواج عند المسلمين تختلف اختلافاً كبيراً عن الزواج بين الأقوام المسيحية، إلا أنني لم أجد هذا الاختلاف الشاسع في الجزيرة العربية، وبدت لي نساء هذه البلاد في مثل مستوى السعادة والحرية التي تتمتع بها النساء في أوروبا.

فتعدد الزوجات في الواقع أمر مسموح به عند المسلمين، هذا الجمع بين النساء يجرح مشاعر الأوروبيات، ونادراً ما يستفيد العرب من حقهم في الزواج شرعاً من أربع نساء وامتلاك رقيق مما ملكت الأيمان، إنهم الأغنياء محبو الملذات والشهوات من يتزوج بأكثر من امرأة، وذلك تصرف يستنكره أشراف العرب ويشجبونه ويجد العقلاء في هذا الحق أن التكاليف والنفقات تفوق الرغبة في الزواج، فالزوج ملزم حسب الشرع بأن يعامل نساءه حسب أحوالهن وأوضاعهن ويعدل فيما بينهن بكل المجالات، وتلك واجبات ثقيلة بالنسبة لمعظم العرب، وإسراف في البذخ للعرب المتوسطي الحال إلا في حالة واحدة عندما يتزوج رجل من عدة نساء لمصلحته وللاستفادة منهن، ففي مدينة بالقرب من الفرات تزوج مولى فقير من أربع نساء للحصول على قوت يومه وكن بعملهن يؤمن له معيشته.

و فكرة الطلاق المرذولة في أوروبا ليست شائعة ومنتشرة في الشرق كما يصورها لنا خيالنا. لا يستعمل العرب حق الطلاق إلا في الحالات القصوى، فهذا أمر يسيء لمن يحرص على اسمه وسمعته، ويذل المرأة والأسرة. كما أن للزوجة أيضاً حق طلب الطلاق إن رأت سوء معاملة من زوجها. ولا يطلق بلا تفكير زوجته إلا ذو السلوك الطالح، فقد تزوج منها بلا تفكير ووعي.

ونادراً ما يتزوج رجل وضيع من أكثر من امرأة، ويكتفي المرموق من الناس في أغلب الأحيان بزوجة واحدة ترافقه في مشوار العمر. باح لي بعض الميسورين ممن سمحت

لهم ظروفهم المادية بالزواج كما يشاؤون ويرغبون، وبعد أن عاشوا فترة مع أكثر من امرأة، أن سعادتهم لم تكن إلا مع زوجة واحدة.

تتمتع المرأة العربية بحرية كبيرة وسلطة بالغة داخل منزلها، وتمتلك دائماً مهرها وتأخذه في حال الطلاق كما تمتلك عائدات وأرباح ممتلكاتها أثناء الزواج. و إن تزوج فقير من ثرية فهو يبقى تابعاً لها مدى الحياة ولا يجرؤ أبداً على طلاقها.

ومن السخرية أن أقول كما روى لي بعض المسافرين، إن المرأة المسلمة تعتبر من ممتلكات زوجها ورقيقاً عنده حتى أنها تعطى لورثته من بعده. ولم نميز بذلك بين الرقيق الذي يباع ويشرى وبين الزوجة الحرة في الشرق والتي تستطيع إدارة شؤونها كالنساء في أوروبا تماماً.

وفكرة النساء الرقيق في الجزيرة العربية قد أتت على ما يبدو من الخطأ في أن الأب يبيع ابنته لطالب الزواج منها للذي يقدم أغلى مهر لها، ويحدث في أغلب الأحيان وبلا شك أن يفضل رجل فقير تزويج ابنته الجميلة لرجل ميسور يغرقه بالهدايا الثمينة عرفاناً بالجميل.

ومحبو الملذات والشهوات الذين يريدون الزواج من عدة نساء، يجدون أنفسهم أمام الزواج إما من فتيات من أصول وضيعة أجبرن على الزواج من أهل طمعوا ببعض المال. وإما من فتيات أغرتهن أبهة مركز الزوج المنتظر، يصبرن ويتحملن وجود نساء أخريات في حياته ويتألمن عندما يطلقن في نهاية المطاف.

وبعيداً عن بيع إبنته فإن رجلاً غنياً يعمل على تخصيص مهر لابنته يبقى في حوزة الزوجة، ويحدث ذلك أمام القاضي فيشترط المهر بل والصداق أيضاً في حال الطلاق. ويفضل الأغنياء غالباً تزويج بناتهم من رجال لا أملاك لهم ويرون في مثل هذا الزواج ضمانة لسعادة بناتهم بعيداً عن المصالح، و بذلك لا تخشى الزوجة من الطلاق بما أنها سيدة المنزل وصاحبة الرزق والمال.

وتروى الكثير من القصص الهزلية حول علامات العفة والعذرية التي يفرضها

العرب على الزوجة الشابة، لكنهم بالغوا في هذه الروايات. فالبدو وسكان الجبال في اليمن وهم شعوب بدائية بعض الشيء بعيدة عن الثقافة يربطون ربطاً محكماً في واقع الأمر غياب تلك العلامات بنوع من العار، ويظنون أن عليهم الطلاق من المرأة التي تنقصها العذرية. في حين لا يزعج سكان المدن الأكثر تحضراً أمر تافه كهذا. وكل ما ينتج عن حادث مشابه، أن يطلب الصهر الطامع في بعض الأحيان زيادة قيمة المهر الذي أعطاه الأب ويهدده بأنه راغب في طلاق ابنته، وهذا ما لا يحدث أبداً. وأذكر قصة جرت في البصرة عندما طلق رجل من حثالة الناس زوجته لسبب مماثل.

تسود الكثير من المعتقدات الباطلة والخرافات في الجزيرة العربية بما يخص تقاليد الزواج، فما زالوا يعتقدون بالسحر وبفن ربط وفك السحر. ضحية هذا العمل الشيطاني يذهب بالمداوين والمعالجين والمسنات العارفات دوماً بأمور السحر والشعوذة. بينما يملك مسيحيوا الشرق دواءً ناجعاً هو تلاوة القداديس أمام المريض. وعندما تهدأ النفوس وتعود الصحة لتكلله بعد كل هذا الكذب والدجل، تُشكر تلك القدرات الهائلة على شفائه.

ونظن نحن في أوروبا أن البلدان الشرقية تكثر من الخصيان للحفاظ على عدد أكبر من النساء. إلا أن وجودهم نادر ولا نرى خصياناً في الجزيرة العربية على الإطلاق. ويملك سلطان القسطنطينية وحده خصياناً أكثر مما يوجد في كل ولاياته معاً.

كان باشا حلب يملك اثنين منهم، وباشا الموصل له خصي واحد فقط ورثه عن أبيه فاحتفظ به. فمن الخطأ إذاً اعتبار الجزيرة العربية موطن وبلد الخصيان، فقسم منهم يأتي من الصعيد المصري في حين أن معظمهم من البلاد الداخلية الإفريقية التي لا نعرف عنها الشيء الكثير. ويكره العرب كرهاً شديداً العملية الفظة التي تحول رجلاً حراً إلى مجرد حارس للنساء.

ولا ينفصل هؤلاء الخصيان الذين ولدوا في أرض حارة انفصالاً تاما عن الجنس. فقد التقيت على الساحل بين السويس وجدة بأحدهم وقد اصطحب معه حريمه،

وعلمت في البصرة أن خصياً ثرياً من هذه المدينة كان لديه رقيق من النساء لإشباع رغباته وتلبية طلباته.

وقد قيل الكثير في أوروبا حول أسباب تعدد الزوجات المنتشر انتشاراً واسع النطاق في الشرق. وعلى فرض أن تعدد الزوجات كان موجوداً فعلا كما هو منصوص عليه شرعاً، فقد ساد الاعتقاد أن عدد الإناث في البلاد الحارة يفوق عدد الذكور. ولحظت أن الكثير من الأمم لا تستفيد من السماح بالزواج بأكثر من امرأة. ولا يمكنك الحكم على تقاليد شعب بأسره من خلال البذخ والرخاء الذي تتمتع به صفوة القوم. إنه الادعاء والزهو الذي يسكن السرايا التي يشكل الرقيق جزءاً كبيراً منها، معظمهن من الخادمات وعدد صغير جداً منهن من المحظيات. وعدد الخادمات الإناث في أوروبا واللواتي حكم الزمن عليهن بالعزوبية سيساوي أو يربو على عدد رقيق النساء.

يستنتج في الواقع أطباء ورجال دين مقيمون في الشرق ولادة عدد من الإناث أكثر من الذكور. وتمكنت من الحصول على بعض القوائم بأسماء من نالوا سر المعمودية من المسيحيين الشرقيين، لكن تلك القوائم تتضارب جزئياً فيما بينها، فتفوق عدد الإناث في القوائم الأخرى تفوق قليل الأهمية. لذا فهناك مجال للاعتقاد أن نسبة الولادات من الجنسين هي تقريباً نفسها في كل أنحاء الأرض.

وتتبدل تلك النسبة أحياناً في أوروبا أيضاً ويبرهن على ذلك المثال الحديث العهد لمدينة في إنجلترا، حيث ولد في فترة من هذا القرن من الإناث أكثر مما ولد من الذكور.

وبدون شك هناك الكثير من المسلمين الذين يتزوجون من أكثر من امرأة، ويمتلكون رقيقًا من الإناث، لكن تأمين معيشة هذا العدد الفائض من الإناث لا يعني بالضرورة أن يكون عدد الولادات من الجنسين خارج النسبة الطبيعية. ويقلل الكثير من الحوادث عدد الرجال وهي حوادث لا تتعرض لها النساء. فعدد الفائض من النساء للزواج أكبر وأهم في الشرق منه في أوروبا. ولا يعيب المرأة حسب تقاليد الشرقيين كما يعيبها أن تبقى كشجرة عقيمة. يدفعها الضمير والوجدان لتكون أماً، فهي تفضل أن تتزوج من

فقير أو أن تكون زوجة ثانية على أن تبقى عانساً وقد ذكرت مسبقاً مثال المولى الفقير الذي تزوج من أربع نساء وعاش من كد يمينهن. ويتعجل الرجال في الزواج كالنساء اللواتي يقمن بخدمات كبيرة بعيداً عن تشكيل عبء على عاتق الرجال. ومن النادر في الشرق أن تجد امرأة متقدمة في العمر وغير متزوجة.

يسمح للشيعة العيش مع امرأة مسلمة حرة لوقت محدد بعقد، دون الزواج منها شكلاً. ويستخدم الفرس زواج المتعة هذا بكثرة، ولا يمارس السنة الأكثر تشدداً هذا الزواج لأنهم يعتبرونه غير شرعي. وفي تركيا يعاقب حسب القوانين رجل يعيش مع امرأة حرة بدون زواج.

الفصل الثاني

الحياة المنزلية عند العرب

عليك ألا تبحث في الجزيرة العربية عن المنازل الجميلة والعظيمة، فللمنازل المبنية من الحجر سطوح، وبيوت عامة الناس ما هي إلا أكواخ هزيلة مقببة السقوف ومغطاة ببعض الأعشاب. أما أكواخ العرب على ضفتي الفرات فقد بنيت من أغصان النخل، كما غطيت أسقفها المقببة بحصر من الإسل. وتشبه خيام البدو خيام الأكراد والتركمان، وتبدو وكأنها أكواخ مهدمة. و كنت قد أشرت إلى أنها تتألف من عدة قطع من نسيج خشن نسجته النسوة.

ولا تعلن قصور وبيوت العرب الأغنياء عن أية أبهة أو عظمة من الخارج، ولا نجد في مجالس الرجال أي زخرفة أو تزيين، فهم لا يعرفون إلا الترف والبذخ في الأسلحة والخيل والخدم. إلا أنهم يغطون الأرض في كل مكان، فالفقراء يفرشونها بحصر من القش بينما يغطيها الأغنياء بسجاد رائع. ولهذا السبب فأنت لا تدخل أبداً إلى الغرف قبل أن تخلع حذائك. إن أراد فرنسي التباهي بكرامة بلده وقد عزم على المثول في قاعة الشرف عند حاكم مكة قبل أن يخلع نعاله، فإنه يشبه في ذلك موفد عربي يتباهى بأنه تجرأ على السير فوق كراسي أحد السادة الأوروبيين.

يقيم الرجال عادة في القسم الخارجي من المنزل بينما تشغل النساء القسم الداخلي. وإن كانت مجالس الرجال بسيطة فإن غرف النساء مزينة تزييناً طريفاً. وقد شاهدت مثالاً عن ذلك التزيين في حريم كان على وشك الانتهاء لأحد الكبار، وفيه رأيت غرفة وقد كستها المرايا بالكامل، ليس السقف فقط بل كسا الجدران والأبواب والأعمدة عدد هائل من المرايا. أما الأرض فقد كانت ستفرش بالأرائك وستغطى بسجاد رائع.

والعرب الفقراء الذين لا يستطيعون السكن في سعة، فإنهم لا يدعون غريباً إلى بيوتهم قبل الدخول أولاً لتنبيه النساء وهم يصيحون بهن طريق... أي انسحبن وما إن ينطق صاحب الدار بهذه الكلمة حتى تختفي كل النساء بلمح البصر فلا ترى أثراً لهن

حتى في بيت صديق حميم لك. وعليك أن تمتنع عن النظر إليهن لأنك ترتكب مذمة إن ألقيت السلام على امرأة أو حتى إذا نظرت إليها مطولاً. ولتلافي ضرورة استقبال الغرباء، فإن بائعي المفرق والحرفيين لا يمارسون مهنهم في بيوتهم بل يستأجرون محلات ويعملون في الشوارع المكتظة بالمارة.

حياة النساء المنزوية والمنعزلة عن الناس تدل على الاحترام العادي الذي تكنه النسوة للرجال. فقد التقيت بسيدة بدوية تركت الطريق وأدارت لي ظهرها من باب الاحترام الخالص وقد رأيت أنها تتصرف بالمثل مع باقي الرجال. وكنت شاهداً في مرات كثيرة عندما قبلت النساء أيادي رجل مرموق أو أردن الانحناء لتقبيل قدميه.

وتوضع غالباً في مجالس الكبار من الرجال، أحواض فيها نوافير ماء لترطيب الجو. وقد تكلمت عن الحوض الذي شاهدناه في قاعة الاستقبال عند إمام صنعاء. فقد كسا الرخام جوانب ذلك الحوض أما باقي الأرض فقد فرشت بسجاد من النوع النفيس.

وبما أن الشرقيين يحرصون على نظافة الأرض، فقد اعتادوا على عدم البصاق في الأرض بالرغم من أنهم يدخنون كثيراً. بيد أنه لا يجب الاعتقاد أنهم ينظرون إلى هذا الفعل على أنه أمر شائن، فقد رأيت أشخاصاً متميزين يستخدمون مبصقة وآخرين يبصقون في جوار الجدران خلف الوسائد التي يجلسون عليها.

كانت الأرض قد غطت بالسجاد وفرشت بالوسائد قرب الجدران ويمكنك الجلوس أرضاً دون الحاجة إلى كراسي فاستعمالها غير معروف في الشرق. وللعرب طرق شتى في الجلوس، فعندما يريدون الجلوس بارتياح فهم يثنون أرجلهم تحتهم. وقد وجدت في الواقع أن هذه الطريقة تناسب على أفضل وجه الناس الذين يرتدون ملابس طويلة وسراويل فضفاضة بلا أربطة. ويبدو ذلك مريحاً أكثر من عادتنا في الجلوس على الكراسي. وعندما يجد العرب أنفسهم في حضرة أشخاص وجب احترامهم، فإنهم يجلسون بطريقة تتلامس فيها ركبهم ولا يرتكزون إلا على أكعابهم، وبما أن هذه الوضعية تحتاج إلى أقل مكان ممكن فهم يتبعونها عند تناول الطعام حول المائدة.

حاولت في أغلب الأحيان الجلوس بهذه الوضعية دون أن أتمكن من الاعتياد عليها فقد وجدتها متعبة وغير مريحة أبداً. ولديهم في بعض المناطق من الجزيرة العربية نوع من الكراسي الطويلة المنخفضة صنعت من حصر من القش. تثنى الأرجل وتوضع عليها كما لو جلست فوق السجاد.

وحياة العرب في منازلهم رتيبة خالية من النشاط، ولابد أن ينال منهم الضجر والملل. ويجب أن تدفعهم حيويتهم ونشاطهم الفطري إلى البحث عن التسلية خارج البيت، لذا فهم يرتادون المقاهي الشعبية والحفلات الشعبية ويحبون الاجتماع فيما بينهم قدر المستطاع. ولا يملكون ذات الوسائل التي تملكها باقي الشعوب لتبديد الملل، وما ذكرته في هذا الخصوص عن التسلية عند الشرقيين لا يمكن أن ينطبق إلا على جزء من العرب. فهم يضطرون في أغلب الأحيان إلى القيام ببعض التسلية المنزلية والهادئة الأمر الذي يبدو تافهاً لدى الأوروبيين.

لتمضية الوقت يتعلق الشرقيون بلا شك تعلقاً شديداً بعادة التدخين. أما العرب وبالرغم من مناخهم الجاف والحار فهم يدخنون أكثر من سكان المناطق الشمالية في آسيا. فهم يستخدمون نرجيلة طويلة أو نرجيلة الفرس وقد تحدثت عنها في وصفي لتقاليد الشرقيين. وهناك عادة خاصة في الجزيرة العربية هي أن الأشخاص المرموقين يحملون معهم دوماً علبة تحتوي على خشب معطر، وعندما يودون تكريم شخص ما يضعون قطعة من هذا الخشب في النرجيلة مما يعطي للتبغ طعماً مستساغاً ورائحة ممتعة.

ولم أتمكن أبداً من معرفة إن كان بعض العرب يتعاطون الأفيون كالفرس والأتراك. فهم يستعيضون عنه بتسلية أخرى وهي مضغ القات. وهو براعم شجرة القات يأتون بها على شكل باقات صغيرة من جبال اليمن. ويمضغ براعمه الناس الذين يتمتعون بأسنان قوية، أما المتقدمون في السن فيطحنوها في هاون قبل مضغها. بالرغم من أنهم يمضغون المخدر هذا إلا أن طعمه غير مستساغ ولم نتمكن أبداً من أن نعتاد عليه. وقد وجدت إلى جانب ذلك أن القات يضعف الجسم ويسيء إلى النوم.

وأبناء هؤلاء القوم يحبون الكيف، أي أن يضعوا أنفسهم في حال من الغبطة والسرور. وبما أنهم لا يشربون الكحول أبداً فهم يدخنون الحشيش وهو مخدر مؤلف فقط من أوراق القنب. يعطيهم هذا التدخين نوعاً من الشجاعة الوهمية والأفكار المضحكة. وقد دخن أحد خدمنا العرب الحشيش والتقى في الطريق بأربعة عساكر فهاجمهم ليطردهم فقام أحدهم وضربه وقاده إلينا، لكنه وبالرغم مما لحق به لم يشأ أن يهدأ وظل معتقداً أثناء سكره أن أربعة رجال لن يستطيعوا الوقوف في وجهه.

الفصل الثالث

الأطعمة وطريقة تناولها عند العرب

بما أن العرب يجلسون أرضاً، فإن طريقة تناولهم للطعام تتناسب مع هذه الطريقة في الجلوس، فهم يبسطون لحافاً كبيراً في وسط الغرفة، ويضعون فوقه طاولة صغيرة يبلغ ارتفاعها قدماً واحداً ثم يضعون فوقها طبقاً كبيراً مستديراً من النحاس المبيض. وعليه يضعون أطباقاً من النحاس المبيض بعناية من الداخل والخارج. ويستخدم كبار العرب بدلاً من المناديل قطعة طويلة من القماش يضعها المتحلقون حول المائدة على ركبهم. أو يستخدم كل منهم منديلاً صغيراً معداً فقط للمسح. وهم لا يستخدمون شوكة ولا سكيناً بينما يستعمل الأتراك أحياناً ملاعق من الخشب أو مصنوعة من قرون الحيوانات. بينما يعرف العرب جيداً كيف يثنون أصابعهم على شكل ملعقة حتى أنهم يتناولون بأيديهم حساء من الحليب، وهو الحساء الوحيد الذي رأيتهم يتناولونه.

وإن حكمنا حسب عاداتنا فإن الشرقيين يتصرفون تصرفات غير لائقة على الإطلاق على مائدة أحد الأوروبيين. وبالتالي فقد أدهشتني طريقة مفتش جمارك الدردنيل.فقد كان أول تركي أراه على الطعام عندما دعينا إلى بيت القنصل الفرنسي. كان التركي يمزق اللحم بأصابعه ويمتخط في منديله. لكني عدت من دهشتي عندما عرفت المزيد عن عادات تلك الشعوب، فهم يجهلون كيفية استخدام فوط المائدة، ويستعملونها كما يستعملون مناديلهم فيمسحون بها بطريقة عادية. ويرتبكون عند قص قطعة من اللحم فهم يظنون أنه من الشائن استخدام اليد اليسرى أثناء الطعام، لأنهم يستخدمونها للوضوء. في حين أنهم يشعرون بالارتياح عندما يأكلون بأصابعهم كعادتهم قطع اللحم الصغيرة كما تكون عادة على مائدتهم. وفي البداية صدمنا نحن الأوروبيون برؤية هذا الكم من الأيدي في طبق الطعام، لكننا عندما نطلع على مدى النظافة التي ألزم بها الشرع الإسلامي المسلمين فألفوها واعتادوا عليها، تجد في النهاية أن لا فرق هناك في أن تأكل باستخدام الشوكة أو باستعمال أصابع في منتهى النظافة.

يصنع أكثر الشيوخ مكانة في الصحراء طعامهم فقط من الأرز المطبوخ. ويقدم في طبق واسع جداً من الخشب ويجلس المدعوون حول المائدة فيأكلون حتى ينتهوا من الطبق هذا أو حتى تمتلئ البطون وينال الشبع منهم. وفي منازل السادة في المدن تقدم عدة أطباق صغيرة وقد وضعت فوق بعضها البعض على شكل هرم، وعندما ينتهي السادة من طعامهم يجلس الخدم على المائدة نفسها ويتناولون ما بقي عليها من الفتات.

بينما يقدم الطعام تقديماً مختلفاً في ماردين، تناولت عشائي في إحدى المرات بصحبة ستة عشر ضابطاً من واي وود. وقد وقف خادم وسط المدعوين يرفع أطباقاً ويبدلها بما يأتي به خدم آخرون. وما إن يصل طبق ويحط فوق الطاولة حتى ترى ستة عشر يداً امتدت إليه معاً لتمحي كل ما حوى بسرعة فائقة، وخاصة عندما كانت الأطباق من الحلوى والتي يعشقها الشرقيون كونهم يشربون الماء بكثرة، وفي الشرق يتناولون الطعام بسرعة قصوى، وقد أفرغنا في العشاء في ماردين أكثر من أربعة عشر طبقاً في أقل من عشرين دقيقة.

ولا يفوّت المسلمون بوجه عام والعرب بوجه خاص تلاوة صلاة قصيرة قبل الطعام.

فقبل الجلوس إلى المائدة يقولون: "بسم الله الرحمن الرحيم". وعندما يكف أحد المدعوين عن الطعام يقف دون أن ينتظر الآخرين ويقول: "الحمد لله". وهم يشربون القليل من الماء أثناء الطعام لكنهم بعد الطعام وبعد أن يغسلوا أيديهم يشربون الماء البارد ويتناولون فنجاناً من القهوة.

ويحب العرب الشرقيون كالأتراك القهوة ويعدونها بالطريقة التي أخذت عنهم، ويكمن الفرق الوحيد بين طريقتهم وطريقتنا في إعداد القهوة أنهم يدقون حبات البن المحمص في هاون من الخشب أو الحجر بدلاً من طحنها. وكنا قد حملنا معنا إلى الجزيرة العربية مطحنة قهوة لكن سرعان ما وجدنا طعم البن المدقوق أطيب من البن المطحون

مما جعل مطحنتنا عديمة الفائدة والنفع. فدق حبات البن يستخلص على ما يبدو الدهون الموجودة فيها مما يعطي لهذا المشروب الطعم والنكهة. ويتناولها الشرقيون عادة بلا حليب أو سكر.

ومن الفريد والطريف أن في اليمن موطن القهوة الأصلي، نادراً ما يشرب الناس القهوة، لأنهم يظنون أنها مهيجة للدم. ويصنع الشراب المفضل عند العرب في اليمن من قشر حبات البن المشوية شياً خفيفاً والمدقوقة، ويعرف باسم القشر. له طعم الشاي ويعتبر من المشروبات المرطبة. ويتناوله علية القوم في كؤوس من البورسلين أما عامة الناس فيشربونه في أوان من الطين الخشن.

وبالرغم من أن الشراب المسكر ممنوع عند المسلمين، إلا أن هناك الكثيرين ممن يحبون الكحول حباً جماً ويشربون في منازلهم مساء خوفاً أن يعلم الناس بهم. وقد رأى طبيبنا عند تاجر غني في اللحية كل الأدوات المطلوبة لتقطير الكحول. نجد حتى اليوم الخمر وأنواعاً أخرى من الكحول في تخوم الجزيرة العربية حيث يوجد المسيحيون. لكن من المستحيل الحصول عليه في الجزيرة العربية إلا عند اليهود في صنعاء فهم يصنعونه بكثرة وبنوعية ممتازة. ويمدون اليهود الآخرين به، لكن بسبب عدم توافر البراميل فهم ينقلونه بآنية نحاسية مما يجعل تناوله مضراً بالصحة . ويحمل الإنجليز في بعض الأحيان من الجزر الهندية العرق ويبيعونه في المخا.

ويباع في اللحية تحت اسم الخمر شراب يصنع من الزبيب المنقوع في الماء ويوضع في وعاء ويدفن تحت الأرض كي يختمر. كما قدموا لنا كحولاً أبيض اللون سميك القوام يسمى البوظة صنع من الطحين المذاب في الماء والمخمر. ويتناولونه في البصرة وهو شائع ومألوف في أرمينيا حيث يحفظه السكان في وعاء كبير يدفن نصفه في الأرض ويشربونه بقصبات. شاهد ودليل على ثبات التقاليد عند هذه الأمم هو أن اكسينوفون (Xénophon) قد وجد مسبقاً في أرمينيا هذا الشراب بنفس طريقة حفظه وتناوله.

والعرب بشكل عام قوم جديون وزاهدون ويبدو أن هذا هو السبب في أبدانهم

النحيلة وأجسادهم الرقيقة. فغذائهم اليومي يتكون من الأرز والخضار والحليب والزبدة والقيمق وهو القشدة الرائبة. ولا تنقصهم اللحوم إلا أنهم نادراً ما يأكلون منها، لأنهم يعتبرون الأطعمة الحيوانية ضارة جداً في البلاد الحارة. وأكثر أنواع اللحوم شيوعاً هو لحم الغنم الذي يشكل الغذاء الأساسي عند عرب الصحراء. بما أنهم قليلاً ما يقومون بخصي الحيوانات بالرغم من أن ذلك الأمر غير ممنوع عند المسلمين فهم لا يتناولون أبداً لحم ذلك الخروف.

ويعتمد الناس البسطاء في الجزيرة العربية في غذائهم بشكل كامل تقريباً على نوع رديء من الخبز، هو خبز الذرة نوع من الذرة الكبيرة تعجن مع حليب النوق والزيت والزبدة والدسم. لم أتمكن في بادئ الأمر من تناوله وكنت أفضل أسوأ أنواع الخبز الأوروبي. لكن الناس هنا قد اعتادوا عليه ويفضلونه على خبز القمح الذي يبدو لهم خفيفاً جداً.

وتختلف طرق صنع الخبز في أنحاء الجزيرة العربية. فعلى متن المركب الذي نقلنا من جدة إلى اللحية كُلّف بحار بعد كل عشاء بإعداد الكمية الضرورية ليوم واحد من خبز الذرة، فكان يهرس الذرة ويجرش حبوبها بين حجرين الأول مقعر والآخر محدب. ثم يعجن من دقيقها عجيناً يقسمه إلى أرغفة صغيرة. ويحمى الفرن الذي لم يكن إلا حوضاً قلب رأساً على عقب وطلي بالصلصال يوقد فيه الفحم وعندما تصل حرارته إلى الدرجة المطلوبة تلصق الأرغفة على جداره دون أن ينزع منه الجمر وما هي إلا دقائق قليلة حتى يخرج الخبز وقد خبز خبزاً متوسطاً ليؤكل ساخناً.

بينما يقوم عرب البادية بتسخين صفيحة من المعدن لشي الأرغفة فوقها. وفي حال لم تتوافر لديهم مثل تلك الصفيحة فهم يكورون العجين على شكل كرة ويضعونها على الجمر أو على روث الجمال المشتعل ويغطونها جيداً كي لا تدخل النيران إلى داخل العجين ثم ينتزعون منها الرماد، ويأكلون العجين الجاف بالكاد والذي مازال ساخناً جداً.

أما في المدن فهناك أفران شبيهة بأفراننا. وخبزها من القمح وعلى شكل سماكة عجة البيض عندنا لكنهم لا يخبزون الخبز بشكل كاف أبداً.

و بالرغم من درايتهم باختراع الطواحين، يبدو من الطريف أن يحتفظوا بالطرق القديمة والشاقة في جرش القمح بواسطة حجر الرحى. لكن أظن أنهم يجدون طعم الخبز المحضر بهذه الطريقة أطيب من الخبز المصنوع من الدقيق المنخول. ويقال إن الزنوج الذين أتوا من أفريقيا، يثابرون على جرش الذرة بحجر الرحى بالرغم من أنهم عاشوا طويلاً بين الأوروبيين.

الفصل الرابع

الملابس والأزياء عند العرب

عند الحديث عن ملابس الشرقيين بصورة عامة أعطيت فكرة عن الملابس التي يستخدمها العرب. ووصفت ثياب الطبقة المرموقة في اليمن عند الحديث عن الثياب الاحتفالية التي قدمها لي هدية إمام صنعاء. هناك تنوع وتباين كبير في الثياب العادية عند العرب وتسود عندهم أزياء يجب ألا تطوى تحت جناح الصمت.

وليس هناك أمر مزعج ومكلف كالعمامة عند الخاصة من العرب. فهم يضعون ما يقارب خمس عشرة طاقية الواحدة فوق الأخرى بعضها من الكتان، لكن ما تبقى فهو نسيج غليظ من القطن المخرم. أما القماش الذي يغطي جميع الطبقات فهو مطرز بالذهب. وعليه دائماً بعض الآيات القرآنية المطرزة. تغلف هذه الطبقات الكثيرة قطعة كبيرة من الموسلين التي تسمى الشاش والمزينة من الطرفين بخيوط من الحرير أو الذهب تترك لترفرف على الظهر بين الكتفين. إنه حقاً أمر شاق في بلد حار أن يكون رأسك مغطى بكثافة دوماً، فهم ينزعون عند أصدقائهم أو في منازلهم هذا العبء الثقيل الذي لا طائل منه. ويتركون غطاء واحداً أو اثنين ثم يلبسون كل شيء قبل الخروج إلى الشارع. ولا يجرؤون على الظهور بلا عمامة أمام أشخاص وجب احترامهم وتقديرهم. ومن يرغب أن يعتبره الناس علاّمة فإنه يبالغ في ضخامة عمامته.

نجد في ملابس الخاصة من العرب قطعة لا نراها في ألبسة ما تبقى من الشرقيين. وهي قطعة النسيج الناعم التي يضعونها على أكتافهم التي كان دورها في الأصل الحماية من الشمس والمطر ولم تعد تستخدم إلا للزينة.

أما عامة الناس فلا يضعون على رؤوسهم إلا طبقتين من الشاش المجدول بإهمال وبدون أية عناية. يرتدي البعض سروالاً وقميصاً بينما لا تحتفظ الأغلبية إلا بنسيج يلف وسطهم ويتدلى حتى الركبة، وإزار عريض مع الجنبية وقطعة كتان على الأكتاف، أما الباقي فعار بلا جوارب ولا أحذية. أما في الجبال فالطقس أكثر برودة لذا

يرتدي الناس فرو الخراف. ويؤلف هذا الكم القليل من الملابس عادة سرير العربي. فبحل إزاره العريض يحصل على فراش ويستخدم ثيابه ليتغطى بها. أما سكان الجبال فينامون في أكياس للوقاية من الحشرات.

ويلبس أصحاب الطبقة الوسطى بدل الأحذية خفاً يتألف من نعل أو طبقة رقيقة من الخشب في بعض الأحيان يربطونها بأقدامهم بواسطة خيط ضاغط. في حين يلبس الأغنياء أحذية تشبه أحذية الشرقيين الآخرين وهي نعال تستخدمها النساء بكثرة.

وملابس العرب في غاية البساطة ، إلا ان لديهم نوع من المعطف بلا أكمام موحد أيضاً يسمى العباءة. وقد تعرفت في البصرة إلى خياط أعمى كان يعمل ويكسب قوت يومه في صنع العباءات، دليل على بساطة صناعتها. وفي اليمن لا يرتدي العباءة إلا المسافرون بينما هي اللباس التقليدي عند الجنسين في منطقة الإحساء.

وفي مناطق متعددة من الجزيرة العربية لا يرتدي الرجال سروالاً أبداً، بل على العكس يلبسون قميصاً أو جلباباً واسعاً الذي يشكل أيضاً زي نساء العوام. أما في تهامة فتقوم النسوة بشد وسطهن بقماش على هيئة سروال، وتغطي النساء في الحجاز وجوههن كما تفعل النسوة في مصر بقطعة نسيج ضيقة تُظهر العينين فقط، بينما يضعن في اليمن قماشاً عريضاً يغطي كامل الوجه بطريقة تكاد ترى فيها عيناً واحدة. أما في صنعاء وفي المخا فتغطي النساء وجوههن بقماش رقيق مطرز بالذهب في أغلب الأحيان. وتتزين كل النساء بالخواتم ويضعن الحلي في الأيدي والأنف والأذنين. ويصبغن أظافرهن باللون الأحمر، ويستخدمن الحنا لتلوين أيديهن وأرجلهن باللون الأصفر المائل إلى البني. ويكحلن محيط عيونهن حتى الجفنين باللون الأسود باستعمال قلم رصاص معد لهذا الغرض ويسمى الكحل. ويقلدهن الرجال أحياناً باستعمال الكحل لتقوية العيون، لكن العقلاء يسخرون من هذا المظهر النسوي.

ومن المحتمل أن تكون هذه الطريقة في صبغ الجلد باللون البني قد نتجت عن

عيب في لون البشرة الطبيعي عند النساء في السهول فهن سمراوات للغاية. وتظن المرأة أنها تخفي سمرة خاصة بلون بني تصبغ به كل جسدها. وأظن أن غاية الجنس اللطيف أتت من ممارسة الرجال الذين يفركون أجسادهم شبه العارية بالحنا للحصول على بشرة سمراء.

ومن أجل إظهار الجمال تقوم النساء في اليمن بوشم وجوههن باللون الأسود. وهن ذوات بشرة سمراء غامقة اللون إلا أننا نجد في الجبال بشرة بيضاء ووجوهاً جميلة حتى عند الفلاحات. وفي المدن تغتنم النساء الجميلات الفرصة لإزاحة النقاب وإظهار جمال وجوههن وذلك عندما يتجرأن على ذلك بعيداً عن أعين الرقيب.

وتسود بشكل خاص في الجزيرة العربية عادة إطلاق الشعر واللحى. أما في ولايات إمام صنعاء فيحلق الرجال من كل طبقات المجتمع رؤوسهم. وفي المناطق اليمنية الأخرى يطلق الرجال شعرهم، كذلك الشيوخ منهم ثم يلفونه بمنديل ويربطونه خلفاً، ولا يرتدون القبعات أو العمائم.ويحتفظ بعض الجبليين بشعرهم طويلاً وأشعثاً ويحيطون رؤوسهم بحبل قصير فوق كل خصلة.

يترك كل الرجال بلا استثناء لحاهم بطولها الطبيعي، ويحافظ العرب على شواربهم قصيرة جداً. ومن المعيب في الجبال اليمنية حيث يندر وجود غرباء أن تكون بلا لحية. ولم يكن لخادمنا إلا شاربين فقط فقد ظن أولئك الجبليون الطيبون أننا حلقنا له لحيته عقاباً له عن إثم اقترفه.

وخلافاً لذلك فإن الأتراك يحلقون لحاهم ولا يحتفظون إلا بشاربين طويلين. فاللحية عند هؤلاء القوم تعادل الشرف والكرامة، ويجبر الرقيق والخدم على حلاقتها. ويحتفظ الفرس بشاربين طويلين ويقصون لحاهم قصاً قصيراً بالمقص، وهي عادة مقززة للنفس. أما الأكراد فيحلقون لحاهم ويتركون شواربهم مع خط من الشعر على الخدين.

لحية كل العرب سوداء اللون وعندما ينال الشيب منها يقوم بعض المسنين

بصبغها باللون الأحمر، وهي عادة مستهجنة بصورة عامة. ويصبغ الفرس اللحية السوداء أصلاً باللون الأسود ويستمرون في صباغتها حتى عندما يطعنون في السن. وسيكون من المخالف لرصانة ووقار الأتراك استعمال هذا اللون الأحمر. إلا أن هناك بعض السادة الشبان قد بدؤوا بتقليد هذه العادة الفارسية لإخفاء لحية شقراء، فهذا اللون مألوف في تركيا أكثر من المناطق الجنوبية. ولا تبدو اللحية الشقراء عند هؤلاء القوم تتناسب مع رجل ذي مكانة رفيعة المستوى.

وعندما يريد تركي كان يحلق لحيته في ريعان شبابه إطلاق لحيته، فهو يتبع احتفالاً يسمى الفاتحة الذي يعتبر نذراً سيحتفظ بموجبه دوماً باللحية.ومن المرجح أن يكون باعتقاد المسلمين كما يؤكد العديد من الرحالة أن الملائكة تسكن في اللحية. لكن من المؤكد والثابت على الأقل العقوبة القاسية التي تنزل برجل ما يحلق لحيته بعد أن طالت. ويحكم عليه في البصرة بثلاثمائة ضربة عصا إن لم يشترتلك العقوبة بمبلغ مالي كبير. وقد حلق رجل في هذه المدينة لحيته في حال من السكر قبل وصولي إلى البصرة باثني عشر عاماً ففر إلى الهند ولم يجرؤ على العودة خوفاً من العار والعقوبة التي استحقها بجدارة.

ويحتفظ اليهود في كل بلاد المشرق باللحية منذ صباهم، وتختلف عن لحى المسيحيين والمسلمين، فاليهود لا يحلقون منها أي جزء حول الأذنين والصدغين. كما يتركون خصلتي شعر تتدليان فوق الأذنين مؤكدين بذلك على الفرق بينهم وبين الأقوام الأخرى. ويشبه اليهود المقيمون في الجزيرة العربية يهود بولونيا، إلا أن لهم مظهراً أكثر نظافة وطهارة. ولا يقدمون على لبس العمامة ويجبرون على الاكتفاء بقبعة صغيرة. كما لا يسمح لهم بارتداء لون آخر غير اللون الأزرق، وبذلك فإن كل ما يستعملونه من ثياب هي من الكتان الأزرق ويحظر عليهم أيضاً وضع الجنبية في الإزار الذي يرتدونه.

وبسبب وجود الكثير من البانيان في الجزيرة العربية، فإنني سأضيف بعض الملحوظات التي تتعلق بملابسهم. التي تتألف من العمامة التي لها شكل خاص والنسيج الذي يضعونه على أكتافهم والقطعة التي يربطونها حول خصورهم بواسطة

حبل، والنعال الخاصة أيضاً. ويلبس البعض فوق كل تلك الثياب ثوباً طويلاً من الكتان الأبيض المثني على الخصر الذي يشد البدن والذراعين. ويرتدي الهنود ملابس من اللون الأبيض فقط لكنهم تلقوا أمراً منذ بضع سنوات في صنعاء بارتداء اللون الأحمر، لكنهم وللحصول على إعفاء من هذا الإزعاج دفعوا مبلغاً كبيراً للإمام فألغى الأمر. وسرعان ما ألزمهم بموجب أمر آخر بارتداء عمامة حمراء بدلاً من العمامة البيضاء. لكنهم في هذه المرة لم يكن بودهم التضحية بأموالهم في سبيل أمر بسيط فأطاعوا وبذلك يرتدون اليوم عمامة حمراء اللون بينما يلبسون ثياباً بيضاء. وقد رسم السيد بورنفايند شاباً من البانيان يمكن أن نراه فيما بين الرسوم.

الفصل الخامس

تحضر العرب

يعامل أي أوروبي في اليمن وعُمان وبلاد فارس معاملة في غاية التهذيب ولن يعامل بالمثل مسلم في أوروبا. وإن اشتكى بعض المسافرين من قلة تهذيب الشرقيين بوجه عام، فيجب عليك أن تصدق أنه غالباً ما يفتح باب علاقة سيئة إذ يسارع إلى إظهار كرهه واحتقاره للمسلمين. وشاهدي في رغبة الحكومة على توطيد أواصر الصداقة مع الأوروبيين أنهم يفرضون عليهم في الجمارك إتاوات أقل من باقي الأمم كما رأيت في كل الجزيرة العربية وبلاد فارس.

ولا يستقبل الأوروبيون في تركيا بحفاوة، وتظهر المقارنة بين عادات الأتراك والعرب زيادة في التهذيب والأدب عند هؤلاء الأخيرين.

بشكل عام يكره الأتراك الأوروبيين، ويبدو أن السبب في ذلك تلك الذاكرة المظلمة عن الحروب الدامية التي خاضوها ضد شعوب الغرب. ويخاف الشباب التركي من اسم الأوروبي، كما يخيف اسم التركي أبناءنا. وينظر الخدم الأتراك إلى سادتهم الأوروبيين على أنهم حماة لهم وينظر إليهم باقي الأتراك باحتقار لأنهم يتقاسمون الخبز مع المسيحيين ويطلق عليهم في القسطنطينية اسم رعاة الخنازير. وينال الأوروبيون النصيب الأكبر من الكراهية في دمياط ودمشق والقاهرة، أما العرب فلم يكن لهم في يوم من الأيام مشكلة مع الشعوب الأوروبية لذا ليس لديهم الأسباب نفسها في الكراهية.

كما لا يستقبل المسيحيون الشرقيون بالمثل في شتى أنحاء آسيا. يرحب بالأرمن والجيورجيين في بلاد فارس ويمكن أن يتسلقوا مراتب عسكرية عليا في الجيش الفارسي دون التخلي عن دينهم. وقد تعرفت شخصياً في شيراز إلى خان وبعض الضباط المسيحيين من أصل جورجي. ولا يتحمل الأتراك على العكس من هذا أي جندي مسيحي في جيوشهم، فهم يحتقرون بفظاظة جارحة الأتراك المسيحيين.

وفي الجزيرة العربية يطلق اسم النصارى على المسيحيين. ولكن وبسبب منعهم

من الوصول إلى أي منصب مشرف في هذه البلاد، فإن أعلاهم مكانة هم من التجار. ولهذا السبب يسمي العرب أي مسيحي ذي مكانة خواجة أو برسغان أي تاجر. ويطلقون اسم معلم على من هو أقل أهمية أو من يبدو لهم حرفياً. وبما أنني اتخذت اسم عبد الله فقد دعيت في الجزيرة العربية باسم خواجة عبدالله، أما في بلاد الفرس فقد دعيت عبدالله آغا.

وفي الأناضول حيث تسود اللغة التركية ويفقد الأدب والتهذيب فقد كان الأتراك يسمون المسيحيين دجولير، وهو اسم فيه كثير من الاحتقار والازدراء. والتركي الذي استأجرت منه بغالاً عندما سافرت من حلب إلى قونيا الذي وقف بالتالي على خدمتي كان يدعوني دائماً دجور. وقلت له إنني لست دجور بل إفرنجي حتى صار ينادي بالإفرنجي أو عبد الله.

تتناسب تصرفات الأتراك ومعاملتهم للمسيحيين مع هذه التسميات المهينة. فهم يجبرون المسيحيين على حمل علامة مميزة، كدليل على عبوديتهم وجبرهم على تأدية الجزية. ويجبر المارة من المسيحيين في القسطنطينية على كناسة الطريق وحمل الأطيان أو دفع مبلغ من المال مقابل الإعفاء من تلك المشقة. الحكومة لا تسمح بمثل هذه المضايقات، لكن المسيحيين المذلين لا يجرؤون على تقديم شكوى ضد مسلم تلقوا منه مثل تلك الإهانة. ويمكن أن يتعرضوا للشتائم في الشارع أثناء الأعياد والأفراح. وسأذكر مثالاً واحداً كنت فيه شاهد عيان على العدد الهائل من مظاهر وقاحة الأتراك. فقد التقينا في الأناضول في الشارع الرئيس تركيًا كان على أهبة امتطاء فرسه وقد أجبر تاجراً يونانياً شريفاً في قافلتنا على الترجل عن بغله والإسراع إليه لمساعدته. واحمر غيظاً أحد الأعراب من فظاظته، بعكس شيخ كنت استأجر منه جمالاً كان يحني ظهره في أغلب الأحيان ليساعدني في اعتلاء ظهر البعير.

كنت قد تعرفت بما فيه الكفاية على المسيحيين الشرقيين لأصدق أن سلوكهم كان يجر عليهم احتقار الأتراك. إلا أن التجار اليونان الذين رأيتهم في الأناضول كانوا وضيعين مداهنين ثرثارين، وهذه صفات مكروهة لشعب جدي وذي عزة بالنفس.

كانوا يتعجلون للإسراع في مساعدة الأتراك، لا بل مؤجري الخيل حتى أنهم أنسوا إليهم ومازحوهم بطريقة مخزية ومخجلة. وكان خادم تركي في خدمة سيدين يونانيين يدعوهما دجولير، بينما كان يدعوانه باكيراغا. وكانوا يسمون أنفسهم بحضور الأتراك دجولير بينما يطلقون على الأتراك أسماء فخمة مثل باشا وأفندم وسلطان الخ...

بينما لا يطيق المرء كبرياءهم وعجرفتهم إن كانوا بمفردهم. وكانت كلمات كافر وكلب هي أصغر الشتائم التي يطلقونها على الأتراك في غيابهم، وقد كانوا لهم من المتملقين الجبناء. وفي الحقيقة فإن الأرمن لهم طبع مختلف،فهم يتصرفون بكرامة وبكل رزانة وصراحة، ويعرفون كيف يفرضون احترامهم على الأتراك الذين يعاملونهم في الواقع بأدب أكثر من اليونان. ويتناهى في بعض الأحيان إلى سمعهم لقب الكفار، لكنهم لا يحملون هذه الإهانة على محمل المزاح ويسمون أنفسهم فيما بينهم بشكل جدي المسيحيين. وتوصلوا بواسطة هذا السلوك إلى فرض هذه التسمية لدى المسلمين أنفسهم.

واحتقار اليهود في الجزيرة العربية وبلاد فارس كمثل احتقارهم في أوروبا. عددهم كبير جداً في تركيا وهم يمارسون شتى أنواع المهن. ونجد بين التجار منهم أثرياء صيارفة يحصلون غالباً على قروض منهم ويتمكنون من حماية إخوانهم. وفي تركيا حيث يسيء المسلمون والمسيحيون على حد سواء معاملتهم ويطلقون عليهم اسم تشيفيد لفظ أكثر إهانة وإساءة من لفظ دجولير.

أهم ركائز الأدب العربي هو الضيافة، خصلة ورثتها هذه الأمة أباً عن جد، ومازالت تمارسها كما كانت في بساطتها الأولى. فالشرقيون يغدقون الهدايا على مبعوث أو سفير على أمير أو شيخ ويأخذون نفقاته على عاتقهم حسب تقاليدهم وأعرافهم. ويلقى المعاملة ذاتها أي رحالة بسيط محترم عندما يحل على شيخ كبير في البادية. وقد تكلمت في معرض حديثي عن الخانات ومنازل الضيافة التي حللت بها في أسفاري بنفس الطريقة التي استقبلت بها. ويتميز العرب عن باقي شعوب الشرق أنهم يستقبلون دون النظر إلى دين أو إلى طبقة الضيف.

وأثناء تناولهم الطعام يدعون كل وافد جديد كي يأكل معهم، إن كان صغيراً أم كبيراً، مسيحياً أم مسلماً. وقد أمتعني أن أرى في كثير من الأحيان في القوافل أن جمالاً بسيطاً كان يستعجل المارة ليشاركوه الطعام ويعرب عن سروره مقدماً من زاده البسيط المكون من الخبز والتمر للراغبين به. بينما صدمني تصرف الأتراك حتى الأغنياء منهم الذين ينسحبون إلى زاوية ما لتناول الطعام حتى لا يضطرون إلى دعوة أحد يحتمل أن يشاركهم طعامهم.

وعندما يتقاسم أحد شيوخ البدو الخبز مع الغرباء، فإنهم يأمنون بذلك جانبه ويثقون بوفائه ويحتمون به. ويحسن صنيع مسافر ما عندما يؤمن لنفسه في وقت مبكر صداقة مرافقه بتناول الطعام معه.

وعندما يتبادل العرب التحية يضع الأول يده اليمنى على صدره من جهة القلب ويقول : "السلام عليكم" فيرد الآخر ويقول : " وعليكم السلام"، أما الكبار في السن فيضيفون بشكل تلقائي : "ورحمة الله وبركاته". أما المسلمون في سوريا ومصر فلا يلقون بهذه التحية على المسيحيين بل يكتفون بتحيتهم قائلين : "صباح الخير" أو "صاحب سلامات". وفي اليمن لا نميز أبداً هذا التمييز بين المسلمين والمسيحيين. ويتبادل التحية سكان الجبال في هذه البلاد باستخدام مفردات لم أتمكن البتة من اكتشاف معناها.

وقد خيل لي لوقت طويل أن هذا الاختلاف في طريقة إلقاء التحية على المسيحيين قد أتت من حماس المسلمين وغيرتهم الكاذبة، لكنني رأيت مع مرور الوقت أن سبب هذا الاختلاف هو كره المسيحيين الشرقيين لهذه التحية المسلمة وهو كره مبني على اعتقادات باطلة. ولم يطيقوا أن أستخدم أنا كلمات تلك التحية ولم يردوا التحية على الأتراك الذين كانوا يعتقدون أنهم من بني ملتهم، وكان ذلك سهلا إذ إن المسيحيين يجرؤون على ارتداء عمائم بيضاء في أسفارهم ليوحوا إلى اللصوص وقطاع الطرق أنهم من الأتراك وليفرضوا احترامهم أيضاً.

ويتصافح عشرات المرات عرب البادية عندما يلتقون، ويقبل كل منهم يد الآخر

ويكررون السؤال دوماً: "كيف الحال ؟".في اليمن، يبادر الناس الذين يدعون الكمال في آداب السلوك، إلى تبادل الكثير من عبارات المجاملة، ويتظاهر كل منهم برغبته في تقبيل يد الآخر، ويسحب كل منهم يده رفضاً لعلامة التكريم هذه. وفي النهاية ولفض النزاع يسمح الأكبر سناً أو الأرفع منزلة للآخر بتقبيل أصابع يده. ويقبل الخاصة من الناس أمثالهم، ويتعامل الجميع بأدب وتهذيب يثير دهشة الغريب.

ويحافظون في زياراتهم على نفس عادات باقي الشرقيين تقريباً.ويقدمون دوماً في الزيارات العادية والأسرية النراجيل وشراب القشر والقات. أما في الزيارات الاحتفالية فهم يضيفون ماء الورد والعطر، وعندما يحين الوداع يحضر أحد الخدم قارورة ماء الورد ويرش به الزائرين. ويقوم آخر بتعطير لحاهم وأكمامهم وملابسهم الواسعة. وقد تملكتنا الدهشة عندما رأينا للمرة الأولى في مثل هذا الاحتفال في رشيد إذ حضر أمامنا خادم ورش على وجوهنا ماء الورد.

الفصل السادس

بعض العادات الخاصة

تشكل النظافة في البلاد الحارة، ضرورة قصوى للحفاظ على الصحة. وشعب لا يفكر بعقلانية كان بإمكانه إهمال أو نسيان سبل العناية وتحاشي كل ما يمس بنظافة الجسم. بما يتعارض تماماً مع المحافظة عليها. ويبدو أن العديد من مؤسسي الفرق الدينية قد عمل لهذا السبب من الاغتسال والوضوء واجباً دينياً.

ويلتزم العرب بحكم دينهم ومناخهم بالمحافظة على النظافة، كما ويعملون على تنفيذ مبادئها تنفيذاً دقيقاً للغاية. فهم لا يغتسلون وحسب بل يستحمون ويقلمون أظافرهم دائماً ويحلقون شعرهم وينزعونه من الأجزاء التي لا يمكن استعمال الشفرة لحلقها، وذلك حتى لا يبقى هناك أي دنس يسيء إلى جسدهم. ويبدون علائم الاحتقار لمزاولي المهن القذرة، كمهنة أجير الحمام والحلاق واللحام والدباغ الخ... إلا أن هذا الاحتقار يقع على المهنة فلا يستبعد الأجير من المجتمع.

كتب الكثير عن أصل العادات، عن تطهير الأولاد ويبدو عبثيًا للوهلة الأولى. فبحث بعضهم عن السبب، في ميل الإنسان إلى تقديم جزءًا ثمين من جسده إلى الله. ويبدو أن هذا السبب ما هو إلا مزاح ثقيل لا بل هو مغالط وإلا لكانت الشعوب في كل أصقاع الأرض قد مارست عادة التطهير ولاُعتبر احتفالاً دينياً. في حين وجدنا أن البلاد الحارة مارست التطهير وكأنه عادة قديمة وليس جزءاً من الطقوس الدينية.

ولا تمارس الكثير من الشعوب في البلاد الحارة والحق يقال هذه العادة كالفرس والهنود وعدد كبير من الشعوب الإفريقية. بينما تمارسه شعوب أخرى بالرغم من أن دينها لا يلزمها بذلك، مثالنا في ذلك مسيحيو الحبشة والكثير من الإفريقيين الوثنيين. ولا ينظر المسلمون إلى التطهير على أنه واجب ديني، بل على أنه عادة حميدة ورثوها عن أجدادهم وعليهم المحافظة عليها. وليس هناك إلا اليهود المتمسكين بالخرافات من يربط الطابع الديني بممارسة اجتماعية بحتة.

إذا كان علينا البحث في طبيعة المناخ عن سبب عادة تطهير الأولاد فهناك عيوب وعاهات جسدية شائعة في بلد أكثر من شيوعها في بلد آخر، ويمكن لمثل هذه العملية أن تكون حلاً لها، ولهذا فهي شائعة الاستعمال في هذه المناطق، وليس هناك وسيلة فضلى إلا الوقاية من الأمراض التي تصيب الناس في المناطق الحارة وذلك بالمحافظة على النظافة التامة لهذه الأعضاء والاغتسال بشكل دائم. والتطهير يسهل الاغتسال والوضوء الضروريين. كما ويحذر من يغفل هذا الأمر وينبهه إلى أهميته. وبالتالي فقد ظن المشرعون أن من واجبهم تذكير الناس باتخاذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على الصحة وذلك بإعطاء حرمة دينية أو مدنية لهذه العادة المفيدة.

ونجد كفة تلك الفرضية ترجح عند النظر إلى انتشارها الواسع في البلاد ذاتها، أما عادة ختان الإناث فهي شائعة في عُمان وسواحل الخليج العربي وعند مسيحيي الحبشة وفي مصر عند العرب والأقباط وفي البصرة وبغداد، تقوم كل النساء العربيات بختان الإناث والذكور من الأولاد على حد سواء. وفي القاهرة تشتهر النساء اللواتي يمارسن الختان كما تشتهر القابلات، ويدعين إلى البيوت دون إخفاء سبب قدومهن.

وقد أثارت فضولنا في مصر الطريقة التي يتم فيها ختان الأعضاء التناسلية، قد دعانا أحد السادة المصريين إلى منزله الريفي واستقدم شابة لها من العمر ثمانية عشر ربيعاً وسمح لنا بفحصها أمام خدمه ومعاينة ما أحدثه الختان من تغيرات على جسدها ورسم تلك التغيرات. وقد حملني هذا الفحص على الاقتناع أن هاجس النظافة وسهولة الاغتسال هو الدافع إلى ختان البنات أيضاً. ليس هناك أي قانون يأمر به، وهو أقل من تطهير الذكور لكنه عادة وليس واجباً دينياً.

تحلل الجثث له آثار ضارة على الصحة في البلاد الحارة أكثر منه في المناطق المعتدلة. لذا كان من الضروري المحافظة على صحة الناس في المناطق الحارة والمعتدلة أيضاً، وحماية شعوب المناطق الجنوبية من عواقب ذلك التحلل، وذلك بزيادة نفور واحتقار الإنسان الفطري للجثث باستخدام أسباب مأخوذة عن الدين. ولهذا السبب فقد ربط النبي محمد وبعض مؤسسي الفرق الدينية فكرة الدنس الروحي عند ملامسة الجسد

الميت. ويفرض بعض المسلمين نظافة كبيرة وطهارة عميقة على الشخص الذي يقوم بمثل هذه المهمة كما ويفصلونه لبعض الوقت عن المجتمع. ولا يتشدد العرب في هذا الخصوص، فإن قادت الأقدار أحدهم للمس جثة أحد ما، فهو يغتسل جيداً وعندما يرى أنه نظيف تماماً يعود إلى أشغاله كالمعتاد دون أن يتجنبه أحد.

شعب زاهد ينظر حتى إلى البساطة على أنها نعمة وفضل، يجب أن يربط الذل بكل ما ينطوي على الإفراط والمبالغة. وفي الواقع فإن العرب يصدمهم بشكل خاص حادث نتج عن امتلاء الأمعاء بالطعام وتخمة من كثرة الطعام وعسر هضم المأكولات المسببة للغازات. وقدرنا المبالغة من روايات فارس حول حساسية العرب تجاه هذه الرذيلة. إلا أنني وجدت هذا الرحالة موضع ثقة في كل ما رواه عن عادات وتقاليد هذه الأمة، لذا أجدني مصدقاً كل تقاريره حول المواضيع التي لم أتمكن من معاينتها والتحقق منها بنفسي. ويبدو أنه لا يصدم أيضاً العرب حادث مشابه خارج عن الإرادة. فإن قام أحد رجال البدو بفعل شائن مشابه، فإن أهل قبيلته يحتقرونه. وقد ذكروا لي مثالاً عن عربي من قبيلة فلوجة اضطر إلى ترك موطنه ولم يجرؤ على العودة إليه أبداً.

وبسبب جهل العرب، فإن لديهم الكثير من الأحكام المسبقة الخرافية، فلديهم جميعاً تقريباً تميمة أو تعويذة فوق المرفق، ولا يتحلون إلا بخواتم عادية تملأ أصابعهم. ويقال إن دينهم يلزمهم بنزع الخواتم الذهبية أو المرصعة بالأحجار الكريمة عند الصلاة التي يبطل مفعولها إذا ما احتفظوا بخواتمهم. ويعتقدون أنه حتى يستجيب الله لهم لا يستطيعون المثول أمامه إلا بتواضع شديد بعيداً عن كل مظاهر البذخ والترف.

القسم السابع والعشرون
اللغة والعلوم عند العرب

الفصل الأول

اللغة والكتابة عند العرب

تعتبر اللغة العربية من أقدم اللغات وأكثرها انتشارا، وقد آل مصيرها إلى الزوال ككل اللغات الحية والتي تكلم بها منذ عصور قديمة سكان العديد من البلدان والمناطق المتناثرة الأطراف، و تغيرت تدريجيا وتعتبر اليوم اللغة التي استخدمها النبي محمد في عداد اللغات الميتة.

يمكن أن حكماً مسبقاً دينياً هو الذي دفع المسلمين للاعتقاد والعرب للتأكيد أن لغة القرآن وبالتالي اللهجة المحكية في مكة في زمن النبي محمد، هي أنقى وأكمل اللغات. في حين أن تلك اللهجة تختلف اختلافاً كلياً عن اللغة الحالية، وأن لغة القرآن تدرس اليوم في مدارس مكة كما تدرس اللغة اللاتينية في روما. وكذلك الحال في اليمن، زد على هذا أن لهجة اليمن التي تختلف عن لهجة مكة منذ أحد عشر قرناً قد خضعت أيضاً منذ تلك الحقبة لتغيرات كبيرة. ويقال إن لهجة المناطق الجبلية تشبه إلى حد كبير لغة القرآن، ذلك بسبب مخالطة الجبليين النادرة مع الغرباء. اللغة العربية القديمة في الشرق بأسره تشبه اللغة اللاتينية في أوروبا. لغة علمية تدرس فقط في المدارس أو تستعمل لقراءة كتب لمؤلفين عظماء.

ويمكن ألا نجد في أية لغة أخرى كاللغة العربية هذا الكم من اللهجات، فقد مدّ العرب فتوحاتهم وبسطوا مستعمراتهم على جزء كبير من آسيا وعلى كل الساحل الإفريقي تقريباً، فاضطرت الكثير من الشعوب إلى تبني لغة الجيران أو السادة الجدد، إلا أنها احتفظت ببعض المفردات وبعض طرق التعبير من لغتهم الأصلية. مما أثر بالضرورة على نقاء اللغة العربية وأدى إلى تشكيل لهجات تختلف إحداها عن الأخرى اختلافاً كبيراً.

تشبه اللهجات في الجزيرة العربية من حيث تنوعها اللهجات في إيطاليا. فهي تملك فيما بينها العلاقة ذاتها التي تملكها اللهجات الإسبانية والبرتغالية والبروفنسية

وكل اللغات المشتقة من اللاتينية. وهذا التنوع كبير حتى في المساحات الصغيرة في دويلات الإمام في صنعاء. فيستخدمون في الجبال لهجة مختلفة عن لهجة تهامة، لا بل إن الناس المرموقين يستخدمون حتى اليوم كلمات وتعابير تجهلها تماماً عامة الناس.

وتتشابه لهجات اليمن بشكل أقل من تشابه لهجات البدو في البادية.

ولا يختلف اللفظ بين منطقة وأخرى، لا بل إن بعض الأحرف تتبدل غالباً بأحرف وألفاظ أخرى مما يحول دون التعرف إلى الكلمات. وقد وجدت في طريقة لفظ العرب في الجنوب والشرق طلاوة وملاءمة مع الحنجرة الأوروبية، أكثر منها في مصر وسوريا.

وفيما تبقى فإننا نجد أيضاً تنوع اللهجات في اللغة التركية أيضاً، ويصعب على الأتراك في البصرة فهم لهجة أتراك القسطنطينية، كما يصعب عليهم أيضاً فهم التركمان الذين قطعوا بلاد فارس.

وبالرغم من أن الفاتحين العرب قد أدخلوا وفرضوا لغتهم كلغة أساسية في البلاد المفتوحة، إلا أن رعاياهم لم يتخلوا بالكامل عن لغتهم الأم. ففي سوريا وفلسطين حيث لا تسمع إلا اللغة العربية وهذا صحيح، إلا أن السريانية ليست لغة ميتة، ولاتزال تستخدم في بعض قرى حكومة دمشق، وفي مناطق كثيرة في ضواحي ماردين والموصل يتحدث الناس باللغة الكلدانية، أما سكان القرى الذين لا يعرفون المدن أبداً فلا يفهمون إلا الكلدانية لأنها لغتهم الأم، وليست اللغة الأم لمسيحيين ولدوا في مدن ماردين أو الموصل. فهم يتحدثون اللغة العربية وليس الكلدانية، ويكتبون العربية بحروف كلدانية كما يكتب الموارنة العربية بحروف سريانية، وكما يكتب اليونان أيضاً التركية بحروف يونانية.

تحت السيطرة العربية أو التركية فقدت العديد من الشعوب لغتها الأم. فاليونان والأرمن المقيمون في سوريا ومصر يتحدثون العربية، ويقيمون طقوسهم الدينية باللغتين معاً. أما المقيمون منهم في الأناضول فيتحدثون بلغتهم الخاصة والمنقسمة إلى الكثير من اللهجات المتباينة الاختلاف فيما بينها. ويقوم الضباط الأتراك ببسط

استبدادهم على لغة رعاياهم. فباشا كيسر (Kaysar) والذي صدمه سماع اليونانية منع تحت طائلة الحكم بالإعدام استخدام لغة أخرى غير التركية. ومنذ قرار المنع ذلك لم يتحدث مسيحيو كيسر وأنقرة (Angura) إلا بالتركية لا بل إنهم أصبحوا عاجزين عن فهم لغتهم الأم.

واحتفظ الأكراد المستقلون تقريبا بلغتهم القديمة والتي انبثق عنها في كردستان ثلاث لهجات رئيسية. وقيل لي إن الصابئة والمعروفين بمسيحيي القديس يوحنا يتحدثون ويكتبون حتى اليوم بلغتهم القديمة. عددهم قليل في البصرة وقد كان أكثرهم علماً ومعرفة رجل بيطار طلبت إليه كتابة أحرف لغته، لكني لم أستطع تكوين فكرة عن تلك الحروف فقد كتبها بشكل سيئ جدا.

ولم يسعفني الحظ في الجزيرة العربية لاكتشاف كتابات من حمير، بالرغم من وجودها في بعض الأماكن كما علمت، وقد كتبت بحروف مجهولة يصعب فكها. وقد سنحت لي الفرصة للحديث عن تلك الكتابات. والمرجح أنها كانت أقدم بكثير من كتابة أطلعني عليها رجل هولندي التي كانت حروفها تشبه إلى حد بعيد الكتابات الموجودة في آثار بيرسابوليس. وروى لي ماروني من جبل لبنان أن عدداً من المغارات والآثار في الجبال في بلاده تمتلئ بكتابات مجهولة من المرجح أن تكون كتابات فينيقية.

فالخط العربي الأقدم والأكثر استعمالاً وقد ضاع استخدامه تماماً هو الخط الكوفي. يبدو أنه كان خط العرب في مكة، لأن القرآن كتب بحرفه. ويبدو أن سكان اليمن كان لديهم أحرف أخرى ولهذا السبب لم يتمكنوا من قراءة القرآن عندما نشر بعد وفاة النبي محمد. نسخت في اليمن بعض الكتابات بالخط الكوفي من القرن الثاني عشر. ومازالت حتى اليوم تلك الحروف تستخدم وهي حروف مربعة الأشكال تقريباً في الكتابات.

وقد أسعدني الحصول على بعض الإيضاحات من الأوسمة أو القطع النقدية التي

تتعلق بالكتابة القديمة لتلك الأمة، إلا أن تلك الأوسمة أو الميداليات نادرة للغاية في الجزيرة العربية، ولا يدري ما يصنع بها أحدهم إن عثر على واحدة منها إلا أن يبيعها لصائغ لتذويبها في الحال.

تُسك في كردستان كمية كبيرة من الأوسمة اليونانية والرومانية والفارسية وتستخدم استخداماً أفضل فيقوم أهل المناطق البعيدة عن المدن الكبيرة بتداولها وكأنها قطع نقدية عادية.

ينسب إلى أحد الوزراء اختراع الحروف الحديثة التي تختلف اختلافاً كبيراً عن الحروف الكوفية. ويكتب العرب والفرس والأتراك اللغة العربية باستخدام خط يتباين ويختلف في الكثير من النقاط. ولتلك الشعوب وحسب طبيعة القضايا التي يعالجونها كتابة أشكال متنوعة من الخط يحمل كل منهم اسماً مميزاً له.

وقراءة الخط الذي يستخدمه العرب في حياتهم العادية، ليست قراءة سهلة جداً. في حين يدعي الشرقيون براعتهم في الخط والكتابة وذهبوا بعيداً في فن رسم الحروف. إلا أن العرب يبحثون عن أناقة فريدة في ربط الحروف فيما بينها، ولهذا السبب فإن الكتب العربية التي تطبع في أوروبا لا تعجبهم على الإطلاق.

وهم يوقعون رسائلهم بنوع من الأرقام لتلافي تزوير توقيعهم. وهي طريقة يستعملها الكبار والعلماء، ويطوون هذه الرسائل بعرض إصبع ويلصقون نهايتها ولا يختمونها بالشمع لأنه يصبح طرياً في مثل تلك البلاد الحارة ويسيل ولا يحتفظ بالختم.

الفصل الثاني

التعليم والمدارس عند العرب

لا يولي حكام الشرق عناية خاصة للتعليم، ولا ينفقون الكثير من الأموال لتشجيع العلوم، كما يفعل الحكام في أوروبا، لذا يجب ألا تبحث في الجزيرة العربية عن مدارس كثيرة وعلماء حقيقيين لم تتح الفرصة أمامهم للتعلم.

إلا أن الشباب العربي لم يُهمل إهمالاً كاملاً، ففي المدن هناك الكثير من أبناء الطبقات الدنيا في السلم الاجتماعي يعرفون القراءة والكتابة، فالمواهب نفسها مألوفة عند الشيوخ في الصحراء وفي مصر. أما علية القوم فلديهم في منازلهم معلم لتعليم أولادهم والشباب من الرقيق عندهم ممن يظهرون ذكاء فينالون تربية كتربية أبناء الأسرة.

وتوجد في كل مسجد تقريباً مدرسة، وتنفق عائدات الوقف على المعلم والتلاميذ فهم من أبناء الفقراء. وفي المدن الكبرى هناك أيضاً مدارس أخرى ترسل إليها الطبقة المتوسطة أبناءها لتلقينهم مبادئ الدين ولتعليمهم القراءة والكتابة والحساب. وغالباً ما رأيت مثل تلك المدارس في الساحات العامة، وهي كالحوانيت تطل على الشوارع، ولا يسترعي اللغط الذي يثيره المارة انتباه التلاميذ الجالسين أمام سبورة صغيرة الذين يتلون دروسهم بصوت عال ويتأرجحون بشكل دائم في أماكنهم وكأن تلك الحركة ضرورية للتيقظ واستقطاب انتباه السكان في البلاد الحارة. وتخلو المدارس من البنات، فهناك نساء تعلم البنات وتعطيهن دروساً خاصة.

إلى جانب هذه المدارس هناك مدارس هامة في بعض المدن الكبرى في الجزيرة العربية، وهي مدارس تدرس فيها مختلف العلوم كعلم الفلك والنجوم والفلسفة والطب، وهي علوم لم يخط العرب خطوات كبيرة فيها رغم مواهبهم الطبيعية، فهم بحاجة إلى الموارد والكتب والمعلمين الكبار. ففي ولايات الإمام يوجد منذ زمن طويل مدرستان شهيرتان، الأولى في زبيد للسنة، والأخرى في ذمار للزيدية. وقد أهملت عند

مروري بتلك المدينتين أن أتعرف إلى الأساتذة وأن أطلع إلى الدروس فيها. وأعتقد أن العلوم التي تدرس في مدرسة جامعة الأزهر في القاهرة هي نفس ما يدرس في المدرستين المذكورتين.

تفسير القرآن وتاريخ المسلمين القديم، هي الشاغل الأول عند العرب من أهل الأدب. وهي دراسة طويلة فالأمر لا يتعلق فقط بدراسة اللغة العربية القديمة، بل التعرف إلى كل مفسري القرآن فعددهم كبير جداً.

وقد أكدوا لي أن أهل الأدب يخضعون لامتحان عام قبل الحصول على وظيفة إن كانت دينية أم مدنية. وينال الحظوة في الامتحان من يتمتع بالكفاءة، فنحن نرى في الجزيرة العربية العديد من الأشخاص البسطاء وقد حصلوا على مناصب هامة، في حين لم يحصل أناس مرموقون إلا على وظيفة كاتب عدل أو معلم في مدرسة.

الفصل الثالث

الشعر والخطابة

اعتبر العرب على مر العصور من كبار محبي الشعر، فتاريخهم القديم يقدم أكثر من دليل عن حال الشعر قبل النبي محمد وعن المجد الذي كانت تتوج به أسرة أنجبت شاعراً مهماً.

ولا يوجد اليوم بين العرب شعراء كبار مع أنهم مازالوا يدرسون الشعر ويكافئون أحياناً من يبرع به. ويوجد أكبر الشعراء عند بدو الجوف في اليمن. وحصل أن سجن شيخ من الجوف في صنعاء منذ سنين خلت، وشاهد ذلك الشيخ طيراً يحط على سقف ففطن إلى رأي المؤمنين المسلمين الذين ظنوا أنهم يقدمون عملاً يستحق التقدير إن خلصوا الطير من قفصه. وظن الشيخ أن له مثل حق الطير في الحرية وكتب قصيدة في ضوء الفكرة فحفظها حراسه عن ظهر قلب، وشاعت وانتشرت ووصلت إلى مسامع الحاكم الإمام، الذي وجد تلك القصيدة رائعة فعفا عن الشيخ الموقوف بسبب السرقة وأطلق سراحه.

يتغنى العرب غالباً بمآثر شيخهم، منذ وقت قريب وبعد أن انتصرت قبيلة خزعل على باشا بغداد، قام أبناؤها بكتابة قصيدة تمدح وتشيد ببطولات كل سيد منها. لكن الباشا تغلب عليها في العام التالي، فكتب شاعر من بغداد قصيدة ساخرة على غرار قصيدة البدو وتغنى فيها بدوره بشجاعة الباشا وضباطه. كانت قصيدة العرب ماتزال في بغداد وفي مضارب البدو إلى حين وجودي. وعندما أمر السلطان بقتل أسعد باشا في دمشق الذي كان يترأس القوافل لفترة طويلة والمحبوب لدى العرب، ألف البدو مرثاة كانت تلقى في كل المدن السورية، وكانت تلك القصيدة على شكل حوار بين العرب وابنة شيخ قبيلة حرب وضابط الباشا المقتول.

وقد أكد لي أحد الموارنة أن الشعراء في سوريا كانوا يرسلون أشعارهم إلى جامعة

الأزهر في القاهرة، ولا يلقونها أمام الناس إلا بعد أن تعود إليهم وقد ختمتها الجامعة استحساناً وقبولاً.

وفي بلاد كالجزيرة العربية حيث تندر فرص الكلام علناً أمام الناس، فإن الخطابة موهبة لا فائدة منها، فلن يكون هناك سبيل لتنميتها. إلا أن العرب يقولون إنهم يستمعون في مساجدهم إلى خطباء مفوهين. وبما أنه يستحيل على أوروبي حضور مثل تلك الخطب، فلن أتمكن من تفحص ادعاءات العرب بما يخص خطبتهم المقدسة.

المسرح الوحيد الذي يتمكن فيه خطيب من إظهار موهبته هو المقاهي العامة الموجودة في كل المدن الكبرى في الجزيرة العربية ومصر وسوريا. وتتألف هذه المقاهي من صالة كبيرة تفترش أرضها حصائر من القش، تضاء مساءً بالمصابيح وتقدم فيها النراجيل والقهوة. وبما أن العرب لا يلعبون فيها أبداً ولا يستطيعون الثبات في أماكنهم دون التنقل ودون التحدث إلى الجالسين بالقرب منهم، فإن الملل ينال منهم إن لم يأت راوية أو خطيب ليروح عنهم ويسليهم، ويملأ أمسياتهم الطويلة بما هو مسل. وهو عادة المولى أو العلماء البائسين الذين يأتون إلى المقاهي لتأدية مثل هذه المساعي الحميدة لأبناء ملتهم.

أما الرواة الذين ينحصر عملهم في الخطابة والكلام المفخم، فيقرؤون على جمهورهم ما ينتقونه من مؤلفات بعض الكتاب المفضلين كقصة عنترة عند العرب، وهو بطل عربي عاش قبل النبي محمد، ومغامرات رستان سال البطل الفارسي، أو بيبرس الملك المصري وقصة الأيوبيين الملوك القدماء في الجزيرة العربية. وحياة بهلول المهرج في بلاط هارون الرشيد ويحوي هذا الكتاب دروساً أخلاقية جيدة.

ويبادر المولى عندما يشعر أن لديه موهبة كافية إلى تأليف القصص والحكايات ويقصها على السامعين وهو يتنقل من مكان إلى آخر واقفاً وراويًا، وينطق بخطابات في مواضيع من اختياره، حتى إذا ما انتهى من حكايته دار على السامعين يستجدي كرمهم كل حسب إمكانياته، وبالرغم من تواضع تلك المكاسب إلا أنها تشجع المولى الفقير على

أن يتعلم فن الإلقاء ويؤلف بنجاح قصصاً وخطابات. وعلمت في حلب أن رجلاً من علية القوم قد درس للتمتع بالمعرفة ودار على كل مقاهي المدينة ملقياً فيها خطباً أخلاقية.

وتمنع في القسطنطينية ولأسباب سياسية التجمعات في المقاهي ولا تباع القهوة إلا في الحوانيت. فالأتراك شعب جاهل فظ يحب الصمت ويكره الرواة، ولا يتذوق طعم التسلية التي تعطي العرب سحراً خاصاً. فهم أكثر حساسية لحلاوة الشعر وجمال الخطابة.

الفصل الرابع

علم الفلك عند العرب

تظهر كل الطرق المتبعة لتقسيم الوقت التقدم الضئيل الذي قطعته هذه الأمة في مجال علم الفلك، ويبدو أن معلوماتها الفلكية قد أتت من التقليد وليس من دراساتها الخاصة.

فاليوم عند العرب مقسم إلى ٢٤ ساعة، يبدأ من شروق الشمس، لذا فهو غير محدد بالساعات التي تتغير باستمرار حسب الاختلاف في طول النهار الطبيعي أو ساعة غياب الشمس. وبما أنهم يجهلون استخدام الساعة، فليس هناك من يملك فكرة محددة عن مدة ساعة من تلك الساعات. وهم يشيرون إلى مختلف فترات النهار باستخدام ألفاظ غامضة تقريبية كما يفعل الفلاحون في أوروبا.

تتألف السنة عندهم من اثني عشر شهراً قمرياً، ويبدأ الشهر مع ولادة هلال جديد، أما عندما تمتلئ السماء بالغيوم وتحول دون التماسهم لمراحل القمر، فلن يزعجهم أبداً أن يبدأ شهرهم بعد مضي يوم أو يومين. وبهذه الطريقة تصادف تباعاً الأشهر عندهم كل الفصول. ولذلك فإن هذا التقسيم للسنة لا يدل على أي وقت لأعمال الأرض والزراعة أو على أي نشاط من أنشطة الحياة الاجتماعية. لتدارك وتلافي عواقب ذلك التقسيم يحسب العلماء الأشهر بشكل يتوافق مع السنة الشمسية ويتشابه مع أشهرها من حيث عدد الأيام.

يحتفل الناس في الجزيرة العربية وكل البلاد الإسلامية بعيدين كبيرين هما عيد الأضحى أو عرفة أو الأضحية، وعيد الفطر الذي يأتي مباشرة بعد رمضان. وبسبب تبنيهم للأشهر القمرية تصادف هذه الأعياد كل فصول السنة. ومن الشاق جداً الصيام عندما يقع شهر رمضان صيفاً، فالناس وسط أشغالهم المتعبة لا يجرؤون على تناول أي طعام أثناء أطول أيام السنة. يقوم عالم الفلك لدى سلطان القسطنطينية في كل عام بصنع تقويم يسهل حمله ويمكن الحصول على بعض النسخ منه. لكنهم

في مصر والجزيرة العربية لا يفكرون بمثل هذه الوسيلة لتنبيه الناس إلى أيام الأعياد والفصول، فهم يسبحون في بحر من الجهل بهذا الخصوص ويعيدون العيد ذاته قبل أوانه بيومين أو بعد حينه في مناطق أبعد. للوصول إلى مثل هذا الاختلاف يكفي أن يكون في السماء غيوم تحجب رؤية الهلال الوليد في المدينة المعنية، بينما تستطيع رؤيته في مدينة أخرى.

تقدم العرب في العلوم الفلكية تقدماً بطيئاً، لا يعزى إلى عدم رغبتهم بتعلمها بل إلى نقص الكتب العربية في هذا المجال ونقص الأدوات المناسبة أيضا. وقد التقيت بكبار تدفعهم الرغبة إلى رؤية وتأمل الدراسات، كما التقيت بعلماء أيضاً أمضوا معي ليالي برمتها في تأمل وفحص السماء.

وعندهم مؤلف عبد الرحمن الصوفي لمعرفة المجرات الكونية، و جداول أولغ بيغ ووفقها يتمكن بعض علماء الفلك في المدن الكبرى من حساب الكسوف والخسوف. وتقتصر أدواتهم على قبة سماوية من النحاس، نجومها من الذهب وهم يعرفون كيفية استخدامها جيداً، وعلى إسطرلاب من القصدير وربع دائرة من الخشب ،من أجل قياس الارتفاعات ومن أجل تحديد ساعات الصلاة. قيل لي إن البارسيس (مسيحيي الهند) وخاصة البراهما، كانوا أمهر من علماء الفلك العرب. حكمي هذا ليس إلا من خلال أدوات وحديث عالم فلكي برسيسي كنت قد التقيت به في سورات وآخر براهمي تعرفت إليه في بومباي. وليس البارسيس والبراهما أكثر تقدماً أبداً، فمن أجل الحسابات يستخدم البارسيس جداول أولغ بيغ ،في حين يستخدم الآخرون كتاباً يدعى كتاب غرولا غو للكاتب غونيس. أدوات الهندي كانت وعاء نحاسياً يسمى غاري ثقب في قعره ووضع على الماء، كان يستخدمه على أنه ساعة، بالإضافة إلى حلقة شمسية رديئة الصنع.

ويعرف علماء الفلك وكل العقلاء من العرب أن سبب الكسوف والخسوف هو مرور جرم سماوي أمام آخر فيحرمه من الضوء. لكن الناس يحتفظون حتى اليوم بمعتقدات خرافية مفادها أن حوتاً يلاحق الكوكب المخسوف، ولطرد ذلك الحوت

يصعد النساء والأطفال إلى سطوح المنازل ويقومون أثناء الخسوف بإثارة ضجيج غريب وهم يضربون قدور كبيرة أوعية نحاسية. ويعزى سبب تلك العادة إلى عالم فلك عربي كان يقنع الناس بهذه الخرافة ليلزمهم بضجيج مماثل كي يصل إلى مسامع السلطان الفارسي الذي كان يشك بصحة تنبؤ هذا العالم بالكسوف.

ويبدو العرب الذين يهتمون بعلم الفلك قليلون، إنما يقومون بذلك فقط للنجاح في التنجيم الذي يقدره الشرقيون الذي يدر الكثير من الأرباح. فعندما أعربت عن مدى احتقار الأوروبيين للتنجيم لعالم فلك في القاهرة، أجابني أن التنجيم علم يكاد يكون إلاهياً لا يمكن لكل الناس سبر أغواره. إلا أنه اعترف بعدم دقة حساباته وأردف أن الناس يودون معرفة أجوبة عن تساؤلاتهم وفق محتوى كتبه وأنه يجيبهم بكل طيبة خاطر.

ويحّرم القرآن حرفياً قراءة الغيب بالتنجيم، لذا ينظر أشهر المفسرين إلى علم الفلك على أنه علم محرم. ويتمسك المسلمون بهذا العلم رغم قرار المفسرين هذا. والشيعة أكثر تعلقاً من السنة، ويغالي الشيعة في اعتقادهم بالخرافة. فلا ينهون مسألة بيع أو شراء دون تجريب الحظ على الأقل بعد أزرار ثيابهم أو حبات مسبحتهم. وليس كل الفرس في ضعف الشيعة هذا، ويقال إن كريم خان ولكي يماشي الخطأ الشعبي لا يقدم على أي عمل إلا بعد الرجوع إلى المنجمين، لكنه يحذرهم مسبقاً عن مشروعه وعزمه ويملي عليهم الإجابات التي يود الحصول عليها.

الفصل الخامس

الأمراض والطب عند العرب

تقي الحياة المتقشفة والنظامية من الأمراض. ونادراً ما يمرض العرب في الواقع ويكادون يستغنون عن الطب والأطباء. وإن وصلت بهم حدة المرض إلى استدعاء طبيب ما، فإنهم لا يوفونه حقه ويدفعون له في أحسن الأحوال ثمن الدواء. ولن يطال الطبيب أي أجر إن توفي المريض الذي سرعان ما يتناسى عندما يتماثل للشفاء الخدمات التي قدمها له الطبيب. فيلجأ الطبيب للخدع يدفعه إلى ذلك نكران المريض للجميل، فيستعمل أساليب قويمة أو ملتوية خلال فترة المرض ليقبض سلفاً أجره.

ويجب ألا نبحث في الجزيرة العربية عن أطباء كبار. وكل ما يعرفه مزاولو هذه المهنة من المفردات الطبية فيتمثل بتلك التي نجدها في مؤلفات ابن سينا، وما تيسر من خصائص النباتات الطبية. كل الأطباء الذين تعرفت إليهم في اليمن كانوا كيمائيين وعطارين وجراحين وبيطريي خيل. وكانت مزاولة كل هذه المهن مجتمعة تكاد تكفيهم لسد رمق عيشهم.

ويملك العرب عدداً كبيراً من العلاجات المنزلية وهم يستخدمونها بنجاح كبير، استخلص فلاح في الجبال اليمنية عصارة حليبية من شق في جذع شجرة أسفنجية وهو يعرف تماماً أنها عصارة سامة وبلع منها بعض النقاط.

ويعالج البدو الجروح التي سببتها الأسلحة البيضاء بوضع قطعة من لحم الجمل النيئ والطازج. وعلى متن المركب العربي الذي نقلنا من جدة إلى اللحية شكا بحار من مغص في بطنه، فقام رئيسه ووضع حديداً على النار وكوى به المريض حتى توقف المغص.

يعتقد الناس في اليمن أن الدهن بالزيوت يجدد حيوية الجسم ويحمي من أشعة الشمس الحارقة التي يتعرض لها بكثرة سكان هذه المنطقة وهم شبه عراة، ويمكن للزيت الذي يسد مسامات الجسم أن يعيق التعرق الزائد الذي يرهق الجسم. يمكن أن

يكون العرب قد بحثوا عن نوع من الزينة والتجميل في بشرة لامعة، لذا فهم يمسحون أجسادهم بزيوت رديئة مع اقتراب الفصل الحار. ويدهن اليهود وبعض المسلمين في صنعاء أجسادهم بالزيت حالما يشعرون بتوعك صحي، ولا تستمد مسحة المرضى عند مسيحيي الشرق أصولها من أسباب صحية، فهم ملزمون بدفع ثمن الزيت المقدس غالياً لبطاركتهم، ولتلافي ذلك الأمر يُبل فقط طرف إبرة فضية في الزيت المقدس ويمسح المحتضر بتلك القطرة.

ساد الاعتقاد أن العرب يفضلون الموت على الحقنة الشرجية، إلا أن طبيبنا وصفها لأشخاص من علية القوم في القاهرة، وشكل هذا الاقتراح صدمة عندما أراد الطبيب وصف الحقنة لامرأة. ويندر استخدام الفصد في جويندر استخدام الفصد في الجزيرة العربية، إلا أن أحد البانيان قام في المخا بفصد واحد من رجالنا بكثير من المهارة. وتستخدم الحجامة في اليمن كثيراً. ففي البصرة يضحي عامة الناس وبالأخص العتالين منهم ربلة الساق، معتقدين أن هذه العملية تكسبهم المزيد من القوة.

وأوجاع الأسنان أقل شيوعاً في الجزيرة العربية منها في أوروبا، لأن الشرقيين يتمضمضون غالباً بعد الطعام. لكن تلك الأوجاع معروفة في المدن ويعزى سببها إلى رائحة المراحيض التي تفسد الهواء في البلاد الحارة.

وفي البصرة وبسبب قذارتها فسدت وتعفنت أسنان السكان، وقد رأيت بعض الأشخاص فيها يستوقفون الحلاقين في الطريق ويطلبون إليهم خلع بعض أسنانهم على الملأ. ولا يمكن أن يكون سبب تلك الأوجاع هو القهوة، فهي أي الأوجاع شائعة في مصر حتى قبل أن يدخل إليها هذا المشروب. وقد روى لي مولى أن عربياً شفي بعد أن وضع في سنه عشبة محروقة فخرجت من سنه بعض الديدان الصغيرة.

مرض معروف جداً في اليمن وفي الهند وغامبرون في بلاد فارس هو دود الأعصاب أو كما يعرفونه الأطباء في أوروبا. ويعتقد الناس في اليمن أن هذا المرض سببه المياه الملوثة التي نضطر إلى شربها في الكثير من المناطق اليمنية ولهذا السبب يصفي الكثير

من العرب الماء بقطعة قماش قبل شربها. فعندما يبلع أحدهم للأسف بيوض هذه الدودة فإنه لا يشعر بذلك إلا بعد مرور فترة طويلة عندما تكون الدودة مستعدة لثقب الجلد. وقد أصيب طبيبنا السيد كرامر (Cramer) بخمسة من تلك الديدان قبل وفاته ببضعة أيام، مع أننا قد تركنا الجزيرة العربية منذ أكثر من خمسة أشهر. رأيت في جزيرة الكارك ضابطاً فرنسياً يدعى لو باج والذي بعد سفر طويل مضن قام به سيراً على الأقدام وبملابس هندية من بونديشري وصولاً إلى سورات وسط الهند، كان مشغولاً بإخراج الدودة من جسمه، معتقدًا أنه التقطها من تناوله ماء ملوثاً في بلاد مراط (Marattes).

هذا المرض ليس خطيراً فيما إذا تمكن المريض من إخراج الدودة دون تمزيقها، وللوصول إلى هذا الهدف تُلف الدودة على قطعة خشبية صغيرة بحيث تخرج من الجلد على شكل خيط يبلغ طوله اثنان أو ثلاثة أقدام، ولا يسبب خروجها أي ألم فيما عدا الاحتياط الواجب اتخاذه خلال بضعة أسابيع. أما إذا لم يكن الحظ حليفاً وتمزقت الدودة فإنها تدخل من جديد إلى الجسم وتسبب حوادث مؤسفة كالشلل والغرغرينا وتؤدي في بعض الأحيان إلى الوفاة.

ويشيع بكثرة وجود الأفاعي السامة في البلاد الحارة والجرداء، فتلدغ في كثير من الأحيان أشخاصاً في الأرياف. ورفض العرب رفضاً قاطعاً إخبارنا بسرهم في شفاء لدغة الأفعى والوقاية من آثار سمها. لكن شيخاً في البصرة اشتهر بمعرفته بعلوم السحر والتنجيم فقد اعترف لي بأنه يشطب الجرح ثم يمضغ القليل من الثوم ويحتفظ به في فمه ويمص سم اللدغة دون أن يلحق به ضرر أو أذى فيؤمن بذلك الشفاء الأكيد للملدوغ.

ويبدو أن هذا العلاج يعود إلى هوتنتوس (شعب كان يعيش في شمالي غربي إفريقيا الجنوبية) الذين كانوا يضعون على مكان الإصابة شيئاً من البصل المطحون. ويسود في الشرق بأسره الاعتقاد بالعلاج عن بعد فقد ساقوا لي عدة أمثلة عن أشخاص شفوا من لدغتهم الأفاعي دون رؤيتهم أو معالجتهم عن كثب.

أما فيما تبقى فكل الأفاعي في آسيا غير سامة. وهناك أفاعي اعتاد الناس على وجودها وهي تختبئ في جدران المنازل ويظنون أنهم سعيدو الحظ باقتنائها. حمل بعض البحارة مثل تلك الأفاعي، وسافرت معنا في غفلة من أمرنا مع براميل المشروب خوفاً من فقدانها مما يجر سوء الطالع وبعض الكوارث على المركب.

يبدو أن البرص كان مرضاً وبائياً خلال كل الأزمنة في الجزيرة العربية، لأن الكتاب ذكروا نوعاً منه تحت اسم البرص العربي. أما اليوم فيعرف من أنواعه ثلاثة، يدعى نوعان منهم البرص والبهاق وهو مقرف مقزز للنفس أكثر منه خطيرًا، أما النوع الثالث فهو مرض خبيث جداً ومعد واسمه الجذام، وله الأعراض ذاتها التي وصفها الطبيب الإنجليزي هيلاري في المرض الذي دعاه برص المفاصل.

لا يتخذ الأتراك بسبب فهمهم الخاطئ للعقيدة بحتمية المصير أية احتياطات للوقاية من الطاعون، أما العرب فيحتاطون منه بالرغم من كونهم مسلمين متدينين. وقد أرسل آخر أمراء بوشهر إلى جزيرة البحرين كل المصابين بالبرص وبالأمراض الزهرية. ويحبس في البصرة مرضى البرص في منزل منعزل، كما نجد في بغداد حارة مليئة بالأكواخ قد أحيطت بسور، يساق إليها عنوة مرضى البرص إن لم يأتوا إليها بإرادتهم.

ويبدو أن الحكومة لا تولي عناية كبيرة لهؤلاء المرضى، الذين يأتون جميعاً يوم الجمعة إلى الساحة العامة يتسولون ويطلبون صدقة من المحسنين.

ويقال إن هؤلاء البائسين يحاولون عن طريق الحب التلطيف من مصيبتهم، فمنذ بضع سنوات خلت وحتى يحظى أبرص بالمرأة التي يحبها كان يلجأ إلى خطة دنيئة فيرتدي لبضعة أيام قميصاً من القماش الناعم ثم يعمل على بيعه سراً وبثمن بخس للمرأة المعنية ، حتى إذا ما انتشر الوباء لديها، يشهر بها ويتوصل إلى حبسها معه في أكواخ الحي الخاص بهم.

وينتشر البرص في بومباي بين الناس، ويبدو أنه ليس من النوع الخطير، لأنه يسمح للمصابين به بالعمل بصحبة الأصحاء والمعافين. ففي الهند كما في الجزيرة

العربية يعتقد الناس أن سبب البرص يكمن في غذاء الشعب الرديء، الذي يتناول الكثير من السمك الفاسد وترك السيد فورسكال وصفاً لأعراض مختلف أنواع البرص لا تثير إلا اهتمام مزاولي مهنة الطب.

ولم أتمكن من معرفة أسباب الطاعون، إلا أنها ليست ناجمة عن المياه الملوثة في القاهرة، فالمسيحيون وهم عادة في منأى من هذا الوباء يسكنون على ضفاف النيل والمفروض أن يكون المسبب للمرض. وكل ما نقوله عن الأمراض، وما من شانه أن يعدي المصابين بوباء الطاعون يدور حول معتقدات تنفيها التجربة. وخاصة ما دونه من ملحوظات السيد روسل وهو طبيب ماهر في حلب.

ويمارس البدو بكثرة اللقاح ضد الجدري وذلك منذ زمن سحيق، وتقوم الأمهات بتلقيح أولادهن بشق جلد الذراع قليلاً بإبرة صغيرة. وفي بومباي قال لي عربي من جزيرة لام الواقعة بالقرب من السواحل الجنوبية الشرقية الإفريقية، إن اللقاح معروف في بلاده منذ عدة قرون.

الفصل السادس

علم السحر والتنجيم عند العرب

عندما نتحدث عن علم السحر والتنجيم لدى شعب من الشعوب فإننا نتحدث عن لوحة لنتائج تخلفه وضعف فكره وخلل خياله وقدرته على الإبداع. وليس من شأن لوحة كهذه إلا إذلال الجنس البشري، وهي تخفف في الوقت نفسه من ألمنا وتكون لنا عزاء ومواساة إذ تظهر مدى استطاعة دراستنا للفلسفة بشكل عام وللفيزياء بشكل خاص في تجنيبنا هذا الكم من السخافة المنافية للعقل.

يقدّر العرب علمي السحر والتنجيم المزعومين تقديرًا كبيراً.ولا يجرؤ أحد على تطبيقهما قبل الحصول على إذن من عالم ضليع فيه، وقبل أن يتعلم على يدي عالم مشهور أو كما يقول العرب قبل أن يمد لردح من الزمن سجادة الصلاة أمام قدميه. وشاهد على تقدير العرب لهذا العلم أن أعظم أسياده في مكة هو رجل من كبار القوم وهو الشيخ محمد الجناجني (Mohamed al-Dsjanadsjeni)، أشهر سادة علم الاسم الأعظم حالياً.

وعلم الاسم الأعظم هو أسماهم وأرقاهم على الإطلاق، فالله فيه هو القفل والنبي محمد المفتاح، وبالتالي وحدهم المسلمون من يستطيع تعلمه. ويعلم هذا العلم اكتشاف ما يجري في البلاد البعيدة، والتعايش مع الجن وإجبارهم على إتباع إرادة رغبة المبتدئين وإخضاع الرياح والفصول لأهوائهم وشفاء لدغات الأفاعي والكثير من الأمراض والعاهات. وقد سيقت لي بعض الأمثلة عن أشخاص برعوا في هذا العلم وتوصلوا إلى الصلاة ظهراً كل يوم في الكعبة في مكة، دون الخروج من منازلهم في بغداد أو في عدن.

أكد لي تاجر من مكة تعلم على يد محمد الجناجني الشهير هذا، أن الخطر كان قد أحدق به في عرض البحر، فعلق على الصاري ورقة مكتوبة متبعاً كل قواعد هذا

الفن فهدأت بتلك الوسيلة العاصفة لتوها. وطريقة إيجاد الكنوز الدفينة يعلمها علم السحر والتنجيم الذي برع فيه المغاربة أو العرب البرابرة.

ولا يجهل هؤلاء العرب فن الحصول على رؤية جلية للغيب. ويستعملون لهذا الغرض ما يستخدم من وسائل بعض التقاة من مجتمعات معينة في أوروبا. يحبسون أنفسهم دون طعام أو شراب في مكان مظلم لمدة طويلة ويتلون بصوت مرتفع ويكررون صلوات وأقاويل إلى حد الانهيار، وما إن يخرجوا من هذا النفق المظلم ويستعيدوا قوتهم حتى يقصوا ما شاهدوه أثناء انخطافهم، وهم يدعون عادة رؤية الله في جلاله ورؤية ملائكة وأرواح من كل الأنواع ورؤية السماء والجحيم.

ويسمى ثاني هذه العلوم سمية وهو لا يسمو كثيراً ويحتفظ بشيء أكثر إنسانية، ويكتفي بتعليم اللعب بالكؤوس وبعض ألعاب الخفة، بالرغم من أن رجال الدين العقلاء يستنكرون بشدة هذا العلم، يقوم بعض الدراويش بتطبيقه وممارسته للبرهان على صدق ديانتهم وقدسية مؤسس طريقتهم. ولا تشيع مثل هذه المعجزات المزعومة إلا في البصرة حيث رأيت ثرياً من الدراويش أصحاب طريقة بدر الدين يجوبون الشوارع كل يوم وهم يقفزون وينشدون ويدقون دفوفاً ويقومون بإيماءات وكأنهم يغرزون أسياخاً معدنية في عيونهم.

وشاهدت في البصرة أيضاً عيداً يقيمه سنوياً دراويش بدر الدين لإحياء ذكرى ولادة النبي محمد. كان العيد في الهواء الطلق في باحة المسجد وقد أضاءتها ثلاثة من الشموع فقط، بدأ بعض الدراويش والأتقياء بترتيل سور من القرآن الكريم وتابعوا الغناء وهم ينقرون على الدفوف فنهض لفيف من الدراويش وقاموا بإيماءات وكأنهم يغرزون أسياخاً معدنية في أجسامهم ويدخلونها بالمطرقة. أما الممثل الرئيس الذي اتخذ هيئة الملهَم فقد تابع تنشيط الموسيقى لزيادة إلهامه ووحيه، فألقى في خضم روحانيته عمامته أرضاً وأسدل شعره الطويل وغرز في جسده خمسة رماح ثم صعد إلى سطح مبنى منخفض نصب عليه عموداً يبلغ ارتفاعه ستة عشر قدماً يعلوه سيخ معدني فارتفع على الخازوق بنفسه وطلب إلى الحضور حمله وهو على هذه الحال.

كان مشهداً مؤثراً ذلك الرجل النحيل ذو اللحية الطويلة والشعر الأشعث وقد غرزت فيه الرماح معتلياً الخازوق على العمود الطويل. قلت وأنا أنسحب لتقي من أصدقائي كان برفقتي في هذا الاحتفال إن ذلك الدرويش قام بذلك مستخدماً إزاراً عريضاً أخفاه تحت سرواله الطويل والفضفاض، فأجابني أنه كان يشك دائماً بحيلة ما لكنه كان يحرص ألا يظهر شكوكه فيجر على نفسه كراهية أصحاب طريقة بدر الدين وعداواتهم. فقد عانى أحد زملائه من اضطهاد هؤلاء الدراويش لأنه أفصح عن شكه بحقيقة تلك المعجزات.

وعندما علمت أن ذلك الدرويش الذي اعتلى الخازوق يقدم العرض نفسه في البيوت الخاصة للحصول على بعض المال، عرضت عليه دوقتين إن أتى إلى منزلي وأطلعني على خبرته وسره. فأتى وبدأ يتكلم ويثرثر ويستفيض حول قدسية طريقته ومؤسسها الذي علم متبعيه صنع المعجزات ثم صلى وتظاهر بغرز أسياخ في جسمه وفي رأسه. فحصت بدوري الموضع الذي دخل منه السيخ ووجدت أن الجلد قد تمزق قليلاً دون أن ينزف. لكنه بدا وقد تألم بما فيه الكفاية للحصول على الدوقتين فأذنت له بالانصراف.

أما في علم الكرة فيتعلمون كتابة الأحجبة لدرء السحر، ويستخدمونها ضد كل أنواع الحوادث. ويحمل المعني الحجاب في كيس جلدي على رأسه أو ذراعه أو صدره، كما تربط بأطواق الخيل أو الحمير مما يفتح شهيتهم ويقلل هيجانهم. في قلعة ديار بكر يمكن لحجاب كهذا أن يوقف نقيق الضفادع. ويقوم رجل مرموق من حلب بتوزيع أحجبة مجانية لطرد الذباب، وتتعلق صلاحيتها باليوم والساعة وحالة الرسول الذي يبحث عنها. وتحملها العجائز من النساء دوماً، معتقدات أنهن لم يحزن على كامل الشروط التي جعلت من الأحجبة فعالة وصالحة. ولها نفس المفعول إذا كتبت بيد يهودي أو مسيحي، كانوا يعتقدون أنني عالم فلك ويطلبونها مني في أغلب الأحيان. وبقي أن أقول إن أحد الآباء اليسوعيين كان يبيع علناً أحجبة لجعل الدجاج يبيض بوفرة، كان

ذلك في منتصف القرن الثامن عشر ووسط شعوب مستنيرة، أحجبته لها نفس قيمة أحجبة العرب.

علم الرمل والمختص بمعرفة المغامرات يقوم به اليهود والمسلمون على حد سواء. فإن مرض أحدهم فهو يستشير ولياً لمعرفة إن كان سيتماثل للشفاء ويجيبه الولي بعد الرجوع إلى كتابه، أجره في ذلك ديك أو نعجة.

يستنكر رجال الدين السنيون علم الرمل والأحجبة، لكنهم يتساهلون لأنها مصدر رزق عدد كبير من الكتّاب. ويعرف العرب بشكل عام ببخلهم، لذا يقوم العلماء الأغنياء باستخدام هذه العلوم المخجلة لكسب المال.

علم السحر الذي على كل عربي شريف أن يخشاه ويكرهه، هو ذلك العلم الموجه لأذية الآخر وليس للخير الشخصي. يستخدمونه أحياناً للفوز بامرأة وانتزاعها من بيت زوجها، والرمي بها في أحضان رجل غريب، ولهذا الغرض يعلق حجاب على باب بيتها. يتفوق بعض العمانيون في هذا الفن الشنيع، إلا أنهم لا يدانون المهارة الفائقة للسحرة في أوروبا، فهم يجهلون محافل السحرة في ليالي السبت، ولا يعرفون فن الطيران في الهواء على ذراع المكنسة.

لم أكن أتوقع أن أجد في الجزيرة العربية هذا الكم من فنون السحر والتنجيم وعلم حجر الفلاسفة. ويصل العرب إلى حد الهوس بهذا العلم، غايتهم وأملهم ومادة بحوثهم تفقر حالهم كما تفقر علماء الكيمياء الأوروبيين. ويظنون أن سر تحويل الذهب معروف في أوروبا وأن سكان البندقية على وجه الخصوص يمتلكونه. ولديهم كتب عربية تعالج هذا العلم وتوحي لهم بآمال لا عقلانية، يبدو أن الفكرة والهوس بحجر الفلاسفة قد أتت من الشرق كما أتت منه ووصلت إلينا الكثير من الخرافات والحكايات المضرة.

تعرّفنا في بيت الفقيه إلى اثنين من هؤلاء الكيمائيين، وكان كل منهما يعمل حسب مبادئ كتابه الخاص. كان الأول وهو رجل ودود عاقل ومتزن يؤمن بصحة ما يقوم به لو أنه وجد النبتة التي تنمو في جبال اليمن حسب قوله. كان يشك أننا علماء في الكيمياء

أيضاً، وقد أتينا بحثاً عن تلك النبتة العجيبة، لذا فقد وطد علاقته بالسيد فورسكال وقدم له عوناً كبيراً في طلعاته لاستكشاف النباتات في المنطقة. لكن هذا الرجل البائس فقد كل أملاكه وكان يعمل بتمويل رجل ثري، ولم يحالفه الحظ في العثور على النبتة المنشودة. ويقال إنه في جبل لبنان تنمو نبتة تصبغ باللون الأصفر أو اللون الذهبي أسنان الماعز التي ترعى منها. ويمكن لهذه الملحوظة أن تكون سبب الاعتقاد السائد بقدرة الأعشاب على دفع هذا العمل الخارق إلى الأمام. في حين كان الثاني طبيباً إن جاز القول فقيراً إلى درجة لا تسمح له بشراء انبيق زجاجي. لكنه كان مقتنعاً تمام الاقتناع بالنجاح في الحصول على الذهب فيما لو تمكن من اكتشاف معنى كلمة في كتابه. وعندما علم أن السيد دوهافن منكب على دراسة اللغات توجه إليه بالسؤال لمعرفة معنى تلك الكلمة الغريبة التي لم يفهمها أحد حتى الآن.

القسم الثامن والعشرون
الزراعة عند العرب

الفصل الأول

خصوبة الأرض

عندما يضطر رحالة ما إلى قضاء قسم كبير من وقته في المدن ولا يمر على الأرياف إلا مرور الكرام، فإن إقامته لا تؤهله البتة لتكوين فكرة صحيحة عن خصوبة الأراضي وطريقة زراعتها.وفيما يتعلق بالزراعة في الشرق لم أهمل جمع المعلومات التي استطعت الحصول عليها من استشارة أشخاص بدوا لناظري على درجة من الثقافة. فنقلت ما خبرته عن خصوبة أراضي الجزيرة العربية والمناطق التي أقام فيها العرب. أخصب المناطق التي سمعتهم يتحدثون عنها هي في مصر بالقرب من الإسكندرية. وحسب رواية التجار الأوروبيين الذين أقاموا في تلك المدينة، فإن تلك الأراضي تعطي أضعافاً مضاعفة من القمح. وقد صرح الفلاحون للسيد فورسكال أن مواسم القمح الخيرة كانت تتراوح بنسبة بين ٣٠ و٧٠ من الواحد، بينما تراوحت في بعض المناطق بين ١٥ و من الواحد ٢٠ ، مما يؤكد على الأقل أن باقي الأراضي وبالرغم من أن النيل يرويها لا تعطي من الواحد إلا ١٠ في كل أنحاء مصر. ولم ير غرانجيه (Granger) محصولاً أوفر من ذلك المحصول.

في بلاد الرافدين بالقرب من حيل (Helle) وبغداد والبصرة يمكن اعتبار الأراضي التي ترويها مياه دجلة والفرات، أراضي خصبة جداً عندما تبلغ محاصيل الحنطة فيها من الواحد ٢٠، ولا يتذكر أحد أنه رأى فيها محصولاً وصل إلى ٣٠.

وفي سهول آشور في أربيل ونواحي الموصل، لا تعطي الأرض إلا من الواحد ١٠ أو ١٥. أما القمح المحصود من هذه الأراضي الذي لا ترويه إلا الأمطار، فهو من أجود الأنواع ويعطي من الدقيق أكثر مما يعطي قمح الأراضي المروية، على نحو يساوي فيه ١٥ من بلاد آشور ٢٠ من بلاد ما بين الرافدين، ويتراوح المحصول عادة في مناطق ديار بكر بين من الواحد ٤ و١٥.

وقد أكد لي أحد سكان ماردين أن محصوله من الشعير بلغ ٥٠ من الواحد وكان يعتبره رائعاً ومذهلاً، لأنه عادة يحصد من ٧ إلى ١٥.

بعد أن استقصيت حقيقة ذلك المحصول بشكل خاص، علمت أن تلك المنطقة تعطي نوعين من الشعير: النوع العادي المعروف والنوع الأسود وهو أفضل للماشية ويدر محصولاً يبلغ ٥٠ بينما لا يعطي الأول أكثر من ١٥.

كما أن هناك نوعان من القمح يعطي أحدهما محصولاً أوفر من الآخر تقل زراعته لأنه على ما يبدو يتعب الأرض ويفقرها.

وقرب حلب في سوريا لا يعرف الناس محصولاً أوفر من ٢٠. ولا يعرف الفلاحون بين الصعيد ودمشق مروراً ببيت لحم محصولاً تجاوز ١٢ أو ١٥ في أكثر السنوات خيراً وعطاء.

ويصل محصول القمح في الجزيرة العربية ونواحي مسقط إلى ١٠. ويبدو أن الزراعة في اليمن قد تطورت وتقدمت أكثر من أي مكان في الشرق. وقد أكدوا لي أن المناطق المزروعة تعطي ٥٠ من القمح و١٤٠ من الذرة في الجبال، أما في تهامة فإن المحصول يصل إلى ٢٠٠ وأحياناً ٤٠٠ من الواحد. وتبدو الذرة مدهشة في طريقة بذرها وريها، ويستطيع الناس الحصول على البذرة نفسها مدة ثلاثة مواسم متتالية في العام نفسه. بشكل عام الذرة هي المحصول الأوفر، وقد قال السيد غرانجيه إنها تعطي على ضفاف النيل ٥٠ الواحد.

ويمكن من خلال هذه التفاصيل الحكم إلى حد معين على المحاصيل الزراعية في الشرق. ولإضافة مسحة سحرية على روايتهم زعم القدماء وبعض الرحالة المعاصرين أن خصوبة تلك الأراضي أعطت منتجات خيالية لا تصدق. ويمكن أن الشرقيين قد خدعوهم في حساباتهم أو أنهم بالغوا فيها.

ومن الجائز أن يكون في مبالغاتهم شيء من الصحة، فطريقة تقدير خصوبة الأرض بالقول إنها أعطت في موسم ما تلك الكمية، هي طريقة غامضة وغير أكيدة. فهناك

أسلوب جيد لفلاحة وبذر الأرض يوفر البذر، كما سيتاح لي قريباً أن أعاين بنفسي في حديثي عن الزراعة في اليمن. فإذا ضاع نصف البذر بسبب سوء الزرع وأعطت الأرض محصولاً وصل إلى ١٠ من الواحد ، بينما أعطت ارض أخرى ٢٠ إذ لم يضع النصف الآخر، فستبدو أنها أخصب من الأولى بالرغم من أن لها الخصوبة ذاتها. ولم يدخل في مثل هذه التفاصيل المعاصرون أو الأقدمون في حديثهم عن خصوبة المناطق النائية.

كما أنهم لم يفصحوا عن نوع البذور المستخدمة في الزراعة عندما يحسبون بطريقتهم محصول الأرض. ورأينا مدى الفرق بين محصول أرض زرعت قمحاً وأخرى مزروعة بالذرة وهي من النوع الضخم والمتعارف عليها في أوروبا باسم سورغو ، وقد أظهرت التجارب المطبقة عليها أنها تحتفظ بخصوبتها في أراضينا، وبسبب مردودها الضئيل فقد تركت أوروبا زراعتها. أما في الشرق فيبدو أن نوع الذرة قد استخدم منذ زمن بعيد، ويستخدمه العرب في صنع غذائهم الرئيس، وهو يزرع في مصر وبلاد الرافدين وبلاد آشور. ويبيع الفلاحون في سوريا وفلسطين قمحهم ويأكلون الذرة، ويبدو أن هذه هي الذرة المعنية التي تحدث العديد من الكتاب عن مواسمها المدهشة في بعض المناطق في الشرق.

الفصل الثاني

الفلاحة وطريقة البذر

تختلف الزراعة في بلاد المشرق اختلافاً ملحوظاً بسبب تفاوت خصوبة الأراضي واختلاف الطقس بين المناطق، وتُهمل الزراعة في مصر وبلاد الرافدين وبلاد آشور وسوريا إهمالاً كبيراً، فهي بلاد قليلة السكان وقد بقيت الكثير من أراضيها الغنية بوراً ودون أية عناية.

وحال الزراعة أفضل وأحسن في الجزيرة العربية الخاضعة لحكم أقل استبداداً. بيد أن أدوات الفلاحة فيها بدائية وسيئة الصنع، فيستخدم المحراث الذي تجره ثيران وهو من أبسط الأنواع، وتقلب الأرض قليلاً في كل الاتجاهات حتى تصبح سهلة الحراثة. رأيت بالقرب من بغداد حميراً تربط إلى المحراث مع الثيران، كما استخدمت البغال بالقرب من الموصل. ويستعمل العرب معولاً لفلاحة البساتين وعزق الأراضي الوعرة التي لا يصل إليها المحراث، و يستخدمون لشق قنوات السقاية معولاً عريضاً جداً يديره رجلان يقوم الأول بغرزه في الأرض بينما يشده الآخر بواسطة الحبال.

في كثير من المناطق في اليمن تزرع الأراضي كما تزرع البساتين. ويكلف ذلك مجهودًا مضنياً وعملاً شاقاً، فعليهم ريها بكثير من الدقة. وتتركز الحقول في المناطق الجبلية اليمنية على شكل مصاطب تُجر إليها المياه عبر قنوات من أعالي الجبال، ويضطر سكان السهول خلال الفصول الممطرة إلى إحاطة حقولهم بسدود بغية حبس الماء لبعض الوقت على سطح الأرض. وقد وصفت مسبقاً هاتين الطريقتين عندما تحدثت عن رحلاتي إلى زبيد في المناطق الجبلية.

ولجمع الماء الضروري للري، يصنع سكان الجبال اليمنية سداً في سفح الجبل، كما يوجد إلى جانب هذه السدود الخاصة والصغيرة سدود عامة عريضة جداً صنعت على شكل سورمتين بين ارتفاعين متقاربين. ولا تملك سهول ذمار للري إلا آباراً عميقة تسحب مياهها بقوة السواعد. ومن المدهش أن العرب لم يتبنوا الآلات التي تعمل بقوة الماء كتلك المستخدمة عند جيرانهم في مصر وفي الجزر الهندية.

شاهدتهم كيف يبذرون في الجبال اليمنية. كان هناك فلاح يحمل كيساً مليئاً بالعدس ينثره بشح في الأثلام كما نبذر نحن البازلاء في بساتيننا، ويضغط الأرض بقدميه من الجانبين كلما تقدم لطمر البذور. أما في مناطق أخرى فيسير خلف الفلاح من يبذر ويلقي بالبذر في الأثلام ليطمر الأول الأرض من جديد بمحراثه. وكلتا الطريقتين مضنيتين لأن عليه من ينثر البذر السير على طول الأثلام، لكن من شأن هذه الطريقة توفير الحبوب فلا يجف قسم منها ولا تنقره الطيور.

ويستخدم القليل من البذور في الجزيرة العربية، فانتظام الفصول فيها لا يدفع الفلاح إلى الخوف أن تموت الحبة في الأرض. وهذا برهان آخر على عدم دقة الحكم الذي نطلقه على خصوبة الأرض بالنظر إلى محصولها بالنسبة لبذرة واحدة.

تزرع الذرة يدوياً في بعض المناطق اليمنية. ورأيت أيضاً في الجبال بين مشك (Moshak) وسيحان (Sehan) حقولاً زرعت بالذرة في صفوف منتظمة كما يزرع الملفوف في أوروبا، كان ذلك من أجمل الحقول التي رأيتها في حياتي. بدت كلها بطول واحد فلا ترى بينها نبتة صغيرة من الأعشاب الضارة. لكنها لم تكن بنفس الجودة في الحقول المجاورة، دليل على تفاوت مهارة الفلاحين العرب. وقد كانت الحقول المحيطة ببيت الفقيه مزروعة بطريقة عشوائية ومليئة بالزؤان.

ورأيت قرب جبل محراس فلاحاً يحرث حقله بمحراث صغير بين سنابل القمح التي بلغ ارتفاعها تسع أو عشر بوصات وقد زرعت في صفوف متناسقة، كانت الثيران قد دربت على المرور بين تلك الصفوف دون أن تدوسها، كانت أهمية ذلك العمل تكمن في إتلاف الأعشاب الضارة وطمر جذور النباتات جيداً، وتهيئة الأرض لتلقي الأمطار ومياه الري. ثم يقتلع ما تبقى من الأعشاب الضارة باليد وتعطى للماشية لتأكلها، إذاً فطريقة تول ودوهامل التي تظن أوروبا أنها جديدة إنما هي طريقة قديمة جداً في الجزيرة العربية. ولحفظ المواسم يجب إبعاد الطيور والحيوانات المؤذية، لذا يسهر الفلاحون بالتناوب لهذا الغرض على حقولهم، ففي الجبال يتسلقون شجرة أما في تهامة يصعدون إلى ما يشبه منصة مسقوفة.

الفصل الثالث

مواسم الحصاد

يختلف وقت نضج القمح اختلافاً كبيراً في الجزيرة العربية، لا بسبب جغرافية الأمكنة إن كانت في الشمال أو الجنوب فقط، بل إن السبب الرئيس يتعلق أيضاً بطريقة زرعه والفصل الذي يمكن ري الأرض فيه، واختلف الوقت كثيراً في مساحة ولايات الإمام الصغيرة. ففي الخامس عشر من يوليو (تموز) كانت سنابل الشعير قد امتلأت واكتنزت في صنعاء، بينما انتهى الفلاحون لتوهم من بذر العدس بالقرب من الجبال في شميس (Chamis). أما في سهول بيت الفقيه فقد بلغ ارتفاع الذرة من سبعة إلى ثمانية أقدام خلال الأيام الأولى من شهر أغسطس (آب) بينما كانوا يفلحون الحقول ويسقونها في الوقت ذاته لبذار جديد في وادي زبيد الذي لا يبعد عن بيت الفقيه إلا مسيريوم واحد وأقل.

أما في مسقط فيُبذر القمح والشعير في شهر ديسمبر (كانون الأول) ليحصد في أواخر مارس (آذار)، في حين تبذر الذرة في شهر أغسطس (آب) لتجنى سنابلها في نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثاني). وتخصب أشجار النخل في ديسمبر (كانون الأول)، بما أن عُمان تنتج عدة أصناف من التمر ينضج الواحد تلو الآخر لذا يوجد تمر طازج طوال هذه الأشهر الثلاثة فبراير (شباط) ومارس (آذار) وأبريل (نيسان).

وفي مصر تبذر الأراضي على ضفاف القنوات في شهر أكتوبر (تشرين الأول). فينضج القمح في نهاية شهر فبراير (شباط)، في حين تُبذر الأراضي التي لا يمكن لمياه النيل ريها في نوفمبر (تشرين الثاني) فتنضج الحنطة في شهر فبراير (شباط) بينما ينضج الشعير في مارس (آذار). وفي الموصل يمكن حصد الشعير في بداية شهر مايو (أيار) أما القمح فيحصد بعد ذلك بأربعين يوماً. وتسبق مواسم الحبوب في بغداد مثيلاتها في الموصل بنحو عشرين يومًا.

عندما ينضج القمح يقتلعه العرب مع جذوره، لكنهم يحصدون بالمناجل القمح

الأخضر والأعشاب وكل ما يكون علف لمواشيهم. ويستخدم الهنود المناجل أيضاً لحصد الأرز وتقليم أشجار جوز الهند. ويمتلك الشعبان العربي والهندي طريقة في غاية البساطة لشحذ المناجل، فيوضع المنجل في الرمل ويصب عليه قليل من الماء ويفرك الرمل الرطب بالأقدام حتى يُشحذ بما يكفي.

ولحصد القمح يجمع العرب السنابل في حُزم كبيرة ليدوسها حجر كبير يجره ثوران. هذه الوسيلة لدرس القمح وإخراج حباته تشبه إلى حد بعيد الطريقة المتبعة في مصر التي سبق وتحدثت عنها في وصفي لعادات المصريين.

أما في سوريا فيستخدم لنفس الغرض لوح كدست عليه أحجار الصوان تجره الثيران فوق السنابل المفرودة في السهل. وفيما تبقى لا يعتقد العرب بالخرافات بنفس حدة اعتقاد اليهود، ولا يبذلون أي جهد في بذر الحقل بمختلف أنواع الحبوب إن ظنوا أن في ذلك منفعة لهم.

الفصل الرابع
الحيوانات الأليفة

يوجد في الجزيرة العربية عدد كبير من كل أصناف الحيوانات الأليفة التي تعيش في البلاد الحارة، فتربى الخيل والبغال والحمير والإبل والأبقار والثيران والخراف والماعز. كما توجد الدواجن في المناطق الخصبة بكثرة حتى أنها تباع بأسعار بخسة.

من بين كل أصناف الحيوانات الأليفة، يعنى العرب كما نعلم بالخيل ويولونها أهمية كبيرة. ويصنفونها في صنفين عامين: خيل الكديشي وهي مجهولة الأصول، وخيل الكشلاني وقد كتبت أصولها منذ ألفي سنة، ولا يقدر النوع الأول أكثر من الخيول الأوروبية ويستخدمه الناس لحمل الأثقال والأعمال اليومية.

بينما لا يستخدم النوع الثاني في الأعمال بل للركوب فقط، يقدر العرب هذه الخيل تقديراً كبيراً لذا فهي تباع بأسعار مرتفعة جداً. ويقال إنها تعود بأصولها إلى مربط خيل الملك سليمان الحكيم. وإن تجاوزنا تلك الأصول النبيلة فإنه من المؤكد أنها تتحمل التعب والإرهاق ويمكنها البقاء لبضعة أيام بدون طعام، وتنسب إليها قوة فائقة فريدة، ويقال إن العرب ينقضون على الأعداء معتلين صهواتها. وقد أكدوا لي أن خيلاً من هذا النوع عندما يشعر بجرحه وبتعبه وعدم قدرته على حمل فارسه طويلاً فإنه يخرج من الصف ليضع الفارس في مأمن أما إذا وقع أرضاً بقي الخيل بجانبه يصهل ليأتي لنجدته أحد ما، وهذه الخيل ليست كبيرة أو جميلة بل إنها خفيفة في الجري، لذا فإن العرب لا يقدرونها بسبب نسبها فقط بل بسبب صفاتها وخصالها وليس لجمالها أبداً.

وخيل الكشلاني يربيها بشكل رئيس البدو المقيمون بين البصرة وماردين وسوريا، حيث يأبى السادة امتطاء خيل غيرها. كما أن هذا النوع ينقسم إلى عدة أصول لكل منها اسمه الخاص، ويبدو أن أصل الجلفة هو أكثرها انتشاراً. ولبعض تلك الأصول شهرة أكبر بسبب قدمها ونقاء دمها ورفعتها.

بالرغم من معرفتنا من خلال التجربة أن الكشلاني أرفع مكانة من الكديشي، إلا أننا نفضل من النوع الأول الأنثى أملاً بالحصول على دم صاف.

في الواقع يفتقد العرب إلى لوائح الأنساب للبرهان على نسب خيلهم الكشلانية، إلا أنهم متأكدون من دقة أنسابها لأن فرساً من هذا النوع لا تلقح إلا بحضور شهود من العرب. صحيح أن كره العرب شديد ونفورهم من شهادة الزور، إلا أن الأمر يصبح أكثر حدة في مثل هذه الحالة المهمة، وليس لدينا مثل واحد عن شهادة كاذبة حول ولادة خيل، لأن العربي مقتنع تمام الاقتناع أن عدم اعترافه بالحقيقة في قضية هامة كهذه يودي به مع أسرته إلى الهلاك.

عندما يريد مسيحي تلقيح فرس كشلانية يملكها مع فحل من النوع نفسه، فإنه يضطر إلى استدعاء شاهد عربي يبقى بالقرب منها عشرين يوماً للتأكد من أن خيلاً غريباً لم يقربها، وعليها خلال هذه الفترة ألا ترى ولو من بعيد خيلاً أو حماراً، وعلى العربي نفسه أن يكون حاضراً عند ولادتها، يُرسل في الأسبوع الأول بعد الولادة وثيقة ولادة شرعية لمهرة من أب وأم من النوع الكشلاني، بينما تعرف المهرة دوماً باسم الكديش.

يبيع العرب بدون غش فحول الكشلاني كما تباع باقي الخيل، لكنهم لا يحبون بيع الفرس منها من أجل المال، أما إذا ضاقت أحوالهم وعجزوا عن العناية بالفرس فهم يوكلون بها إلى عربي آخر شرط أن يكون لهم نصيبهم من المهر التي ستلد أو أن يكون بإمكانهم استردادها بعد وقت محدد.

أما فيما يبقى من الحديث حول النوع الكشلاني فإنه كما الأشراف من الشيوخ العرب، لا تعرف قيمتهم ومكانتهم إلا في مضاربهم. ولا يهتم الأتراك كثيراً بالخيل، فبلادهم أكثر خصوبة ورياً ولو كانت السهول أقل خصوبة ورياً، فلا تلزمهم خيل للعدو السريع وهم يفضلون الخيل الكبيرة للاستعراض بسروجها وزينتها الرائعة.

يبدو أن الكشلاني موجود في الحجاز وبلاد الجوف، وأشك أنهم يقدرونها في ولايات الإمام، فخيل كبار الشخصيات جميلة جداً وبالتالي لا يمكن أن تكون من النوع الكشلاني.

يشتري الانجليز أحياناً خيلاً من هذا النوع ويدفعون ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ أكو ثمن الخيل

الواحد، وقد دفعوا لتاجر إنجليزي في البنغال ضعف هذا الثمن لكنه فضل أن يرسل الخيل إلى انجلترا أملاً بالحصول عل أربعة أضعاف المبلغ الذي دُفع في المخا.

يوجد في الجزيرة العربية نوعان من الحمير: الصغيرة الكسولة فلا يقدرونها كما لا تقدر في أوروبا، والكبيرة الشجاعة التي يولونها أهمية كبرى. فتباع بأسعار باهظة، وقد بدت لي مريحة أكثر من الخيل في السفر.

هناك مجال للاعتقاد بوجود عدة أنواع من الإبل في الجزيرة العربية. فالإبل التي نراها في ولايات الإمام حجمها صغير ولونها بني فاتح، أما الإبل في نجران فهي كبيرة ثقيلة ولونها بني غامق. أما في مصر و الجزيرة العربية فليس لها إلا سنام واحد، ومن لم يعتد كثيراً على رؤية تلك الحيوانات، لا يمكنه تمييزها عن الإبل ذات السنام الواحد، إلا بسبب هيئتها الخفيفة التي تجعلها تبدو في الحال خاصة للعدو والجري. ولم تسنح لي الفرصة إلا مرة واحدة لرؤية جمال بسنامين كان ذلك في مدينة في الأناضول وقد أتوا بها من شبه جزيرة القرم. لكن تلك الجمال كانت كبيرة وثقيلة حتى خيل إلي أنها من نوع خاص.

نجد في الشرق الجواميس في مناطق المستنقعات وعلى ضفاف الأنهار الكبرى، وأعدادها أكبر من أعداد البهائم ذات القرون العادية. وجدت جواميس في مصر وبومباي وقرب دجلة والفرات ونهر العاصي. تعطي أنثى الجاموس حليباً أكثر مما تعطيه البقرة العادية، ويمكن استخدام الذكر في الفلاحة كما تستخدم الثيران عندنا. إلا أن نوعية لحمها أقل جودة من لحم الثيران فهو قاس وطعمه غير مستساغ. ويضطر التجار الأوروبيون إلى تناوله في هذه البلاد التي تكثر فيها الجواميس، وأظن أنني تناولت مع ذلك لحم جاموس صغير بدلاً من لحم الثور دون أن أنتبه للفرق بين الاثنين، يستخدم العرب طريقة لإجبار أنثى الجاموس على در حليب أوفر وهي ذات الطريقة التي استخدمها السكيثيون القدماء (شعب في إيران) لنفس الغرض مع الخيل، فبينما يحلب البقرة أحدهم يقوم الآخر بدغدغتها.

للثيران والأبقار في الجزيرة العربية بين الكتفين فوق القوائم الأمامية حدبة أو قطعة من الدهن وهي كحدبة الجمل تكبر وتصغر كلما زاد وزن الحيوان أو نقص. ولم أستطع أن أعلم شيئًا عن غريزة هذه الثيران التي تدفعها للتحلق في دائرة للدفاع عن النفس ضد الحيوانات المفترسة. ومن المرجح أن هذه العادة تميز الثيران في الجزيرة العربية عن الثيران في أوروبا وبصغر حجمها وقرونها.

ولإطعام الحيوانات الأليفة لا يمكن للعرب الاعتماد على المراعي التي تفتقد إليها بلاد صحراوية كهذه. ويقتصر علف الخيل والثيران والحمير على القش والشعير والفول. العلف الوحيد الذي يزرعه العرب هو نوع من الفول يدعى Phofeolas، ويزرع المصريون في أراضيهم المروية باقي الحبوب لنفس الغرض. أما الإبل فتأكل أقسى أنواع النباتات، إلا أن غذاءها الأساسي في الجزيرة العربية يتكون من نوع من اليقطين الذي ينمو في أكثر المناطق جفافاً وقحطاً.

القسم التاسع والعشرون
التاريخ الطبيعي في الجزيرة العربية

الفصل الأول

لمحة عامة حول التاريخ الطبيعي في الجزيرة العربية

كان أهم هدف من أهداف حملتنا، دون أي شك هو فحص المنتجات الطبيعية لبلاد علينا اجتيازها. وقد ألقيت على عاتق كل فرد من أفراد حملتنا مهمة محددة، وأوكلت مهمة فحص المنتجات الطبيعية بشكل خاص إلى السيد فورسكال، فالنشاط والمواهب والحماس، هي خصال عرفت عن ذاك العالم وتبدو مبشرة بثمار يانعة واكتشافات عديدة في التاريخ الطبيعي في الجزيرة العربية كما في مصر، وقد كان لديه متسعاً من الوقت لدراستها قبل وفاته المبكرة. خابت بعض آمالنا بسبب عدة عوامل سلبية وغير مواتية كانت قد واجهتنا، وأجد من المناسب أن أذكرها بالتفصيل لسببين أولهما الاعتذار عن تقصير حملتنا، وثانيهما تشجيع رحالة آخرين لاغتنام فرص أوفر حظاً لإتمام وإكمال عمل كان قد بدأه صديقنا بكثير من الحماس والنجاح.

كان الوقت المخصص لإقامتنا في الشرق بشكل عام قصيراً جداً، وأتى التأخير غير المنتظر في مصر ليحد من الوقت الذي خصصناه للسفر إلى الجزيرة العربية. ولهذا ولفحص التاريخ الطبيعي لمثل تلك البلاد الواسعة لم يكن أمامنا إلا ستة أشهر، من نهاية شهر ديسمبر (كانون الأول) عام ١٧٦٢م حتى أوائل يونيو (حزيران) من عام ١٧٦٣م، وهي الفترة التي توفي فيها السيد فورسكال، وبالتالي فقد مررنا على بعض المواضيع مرور الكرام. وقد فرض علينا الانشغال الدائم لرفاق السفر أن نفترق في أغلب الأحيان، فقد حالت أسباب مماثلة دون أن يرى السيد فورسكال جبل سيناء، ومنتجات ذلك القسم من البتراء.

مناخ أرض الكثير من البلدان التي قطعناها وطبيعتها لم تكن أيضاً من العوامل المساعدة،فقد كنا نظن بأنها مليئة بأصناف النباتات والحيوانات، في حين أنها أرض جرداء قاحلة رملية كمثل ذلك القسم الكبير من الجزيرة العربية، فلا تغطيها النباتات ولا تعيش فيها الحيوانات بسبب نقص الغذاء، لذا فلن يجد عالم التاريخ الطبيعي

إلا عدداً صغيراً من الأشياء للدراسة، فالتاريخ الطبيعي في منطقة كهذه ليس واسعاً. وبسبب أشعة الشمس الحارة في الجزيرة العربية تذبل الأزهار سريعاً، فإن انكب عالم نباتات على دراسة أنواع مختلفة من النباتات، تفوته اللحظة المناسبة إن كانت إحدى النباتات مزهرة ويضطر للانتظار حتى الموسم المقبل.

من الممكن إيجاد حل لهذه المعضلة بدراسة النباتات في البساتين والحدائق، لكن لا يوجد على سطح الكرة الأرضية بلد يهمل العناية بالبساتين كما تهملها الجزيرة العربية، إلا أن هناك بعض البساتين الصغيرة في أطراف المدن الكبرى، ففي بيت الفقيه أقام أحد الولاة القدماء مشتلاً واحداً فقط.

يكتفي العرب، هذا الشعب الزاهد والجدي بأبسط أنواع الطعام، ولا يكلفون أنفسهم عناء إنتاج نوعيات جديدة، وتفقدهم الرغبة في العناية بالبساتين فترات الجفاف الطويلة التي تستمر أحياناً أكثر من عام مما يتلف النباتات، و يأتي الجراد فيقضي على الغطاء الأخضر في الأرياف.

أما البانيان فيجبرهم دينهم على تناول طعام نباتي، لذا فهم يزرعون أنواعاً كثيرة من الخضار يستوردها معظمهم من الهند وهي من الخضار المعروفة والمألوفة.

إلى جانب هذه العقبات الملموسة التي تقف عائقاً في وجه كتابة التاريخ الطبيعي في الشرق، ينضم عامل آخر ينبع من عقلية الشعوب التي تقيم في هذه المنطقة، فالعرب شعب جاهل جشع فظ، ليس بإمكانه أن يتخيل أن الفضول وحب الاستطلاع وحده يدفع الأوروبي ليعرض نفسه لكل هذه الأسفار الشاقة، ويفترضون أي العرب أن هناك هدفاً أو بحثاً عن كنوز دفينة يكمن وراءها، كما يعتقدون أن الأوروبي يملك مهارة فائقة في الوصول إلى هدفه. وتأتي الأفكار المسبقة الشائعة بصورة عامة عن غنى الرحالة بسبب تعرضه إلى أخطار دائمة من قبل اللصوص وقطاع الطرق.

السيد فورسكال بعد أن سرقه هؤلاء اللصوص ونجا بصعوبة بالغة من محاولة مشابهة في مصر، اضطر إلى تأجيل طلعاته الاستكشافية والعلمية، ووجد حلا لمشكلته

فطلب إلى رجل عربي أن يجلب له نباتات من ضواحي القاهرة، لكنه وكأي عالم تاريخ طبيعي كان يفضل الذهاب إلى مكانها بنفسه.وكان صاحبنا أوفر حظاً في اليمن بهذا الخصوص، فالقوانين وعادات الناس فيها توفر للغريب أماناً كبيراً، لم يزعجه اليمنيون في بحوثه بل أسعدهم رجالاً ونساء من كل الطبقات ومختلف الأعمار أن يسرعوا إليه حاملين النباتات التي تنمو في بلادهم فيطلعونه عليها ويسمونها له.

يقضي العرب رعاة وفلاحين معظم أوقاتهم في الأرياف ويميلون ميلاً طبيعياً للزراعة ويكتسبون فيها مهارة إلى حد ما، لكن ولكسب صداقة هؤلاء الأناس الطيبين عليك التكيف مع عاداتهم وعقليتهم والاكتفاء بمقاسمتهم أردأ أنواع الطعام.

فالحياة القاسية والمضنية التي يصعب أن يعتاد أوروبي عليها قد ساهمت دون شك في تقصير عمر صديقنا.

وبالرغم من كل هذه العقبات المتنوعة كان السيد فورسكال دؤوباً في سعيه لإنجاح مشروعه بشكل فاق كل توقعاتنا وتطلعاتنا،ولا يمكننا أن نستوعب كيف قام بوصف واكتشاف ما يزيد عن ٣٠٠ نوع من الحيوانات وما يربو عن ٨٠٠ صنف من النباتات في وقت قصير. كان بإمكان هذا العدد الوصول إلى حد بعيد لو لم يضع هذا العالم نظاماً لنفسه بعدم وصف إلا ما فحصه فحصاً دقيقاً، ولهذا السبب كان قد أرجأ فحص مجموعة كبيرة من الحشرات والقواقع إلى متسع آخر من الوقت. كما قام لنفس الغرض بحفظ العديد من الأسماك والبرمائيات في الكحول. وسيتذكر القارئ سوء المعاملة التي تلقتها هذه المجموعة أثناء الزيارة الغريبة التي أزعجتنا في جمارك المخا التي أتيت على ذكرها في معرض ما قصصت عن رحلتنا.

بعد عودتي إلى أوروبا، كان علي نشر أوراق صديقنا بعد وفاته. فاكتشفت في هذه المناسبة خسارة جديدة للتاريخ الطبيعي، فقد اعتاد السيد فورسكال على كتابة ملحوظاته على أوراق متفرقة تبعثرت بسهولة. فقد وجدت في الواقع أكثر من ١٨٠٠ ورقة علي جمعها وترتيبها ومطابقتها من جديد،وقد أظهرت لي بعض الثغرات

والفجوات ضياع عدد كبير منها. وبغض النظر عن تخميني وحدسي بضياع بعض منها فقد نشرت كل ما استطعت إنقاذه من تلك البقايا في مؤلفين باللغة اللاتينية: الأول وصف الحيوانات (سلسلة رقم ٤، ١٧٧٥)؛ والثاني بعنوان النباتات في الجزيرة العربية (سلسلة رقم ٤، ١٧٧٥).

هذان المؤلفان المكتوبان باللغة اللاتينية وفق أسلوب كتب لينوس، موجهان بالأخص لعلماء التاريخ الطبيعي. أما لإرضاء القراء بصورة عامة فسأكتفي باستخلاص الطرائف والغرائب التي تعرّف بالمنتجات الخاصة أو الشائعة في بلاد جبناها. وبالرغم من أن التاريخ الطبيعي ليس من اختصاصي إلا أنني درست سريعاً بعض الأشياء المتعلقة به، وسأضم ملحوظاتي إلى ملحوظات صديقي دون أن أفرق بينها، فالقسم الأكبر منها يعود إلى السيد فورسكال.

الفصل الثاني

المناخ والأراضي في شبة جزيرة العرب

بلد كالجزيرة العربية يمتد من ٣٠ حتى ١٣ على خطوط العرض الشمالية، والواقع بالنتيجة في المنطقة المدارية، يعطي فكرة عن مناخ حار جداً. وتصل درجات الحرارة في بعض المناطق في الجزيرة العربية إلى حدود قصوى. لكن هذه المنطقة كغيرها من المناطق، حيث يلعب ارتفاع أراضيها وموقعها الجغرافي وطبيعة أراضيها دوراً هاماً في تنوع مناخها وتباينه.

ولفهم هذا التنوع علينا تشكيل فكرة واضحة وصحيحة عن طبيعة الجزيرة العربية.يمكن تصور هذه البلاد على أنها كتلة من الجبال يحيطها من كل الاتجاهات سهل رملي أجرد، وتؤلف صحراء سوريا والبتراء في الشمال والشرق جزءًا من هذا السهل، أما السهول التي يسميها العرب تهامة والممتدة من البحر وصولاً إلى الجبال فهي تحد الجزيرة العربية من كل الجهات من البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي.

في هذه الصحاري التي تتناثر فيها بعض الجبال الجرداء وفي هذه السهول المنخفضة، لا شيء يحد من حدة الشمس التي تحرق الغطاء الأخضر وتحيل الأرض إلى رمال، الجفاف هنا كبير جداً حتى أنها لا تمطر على مدى سنين كاملة، وتضيع في الرمال مياه الوديان التي تنحدر من الجبال دون أن تصل إلى البحر. ودون الاستعانة بمياه تلك الوديان التي تزداد في الفصل الممطر التي يجرها الفلاحون إلى أراضيهم، فإنهم يحرمون من إنتاج مواسمهم الضئيل. وقد برهنت بعض الدراسات باستخدام ميزان حرارة جيد على أن درجات الحرارة في اللحية والمخا ومسقط على سبيل المثال قد وصلت إلى أرقام لم تصل إليها الحرارة في أي بلد حار آخر.

وتتباين درجات الحرارة في داخل البلاد، فسلاسل الجبال الشاهقة تستقطب البخار فتحدث أمطارًا غزيرة تنعش الطقس وتحيي النباتات. ويؤدي الطقس البارد

بسبب الارتفاع إلى ثلوج لا تبقى طويلاً. فبينما يقاسي سكان السهول من ارتفاع درجات الحرارة يضطر الجبليون إلى ارتداء عباءات مبطنة بالفرو. وقد أكدوا لي وجود الجليد في بعض الجبال و حدوث صقيع في صنعاء أحياناً وهي تقع بين الجبال داخل البلاد.

موقع تلك الجبال وسط شبه جزيرة هو سبب ظاهرة نجدها أيضاً في شبه جزيرة الغانج، التي تتخللها جبال تقلب الفصول الممطرة بصورة منتظمة في البلاد الواقعة في المنطقة المدارية. ويعود فصل الأمطار في غرب اليمن بأفضل الفوائد، فهو يبدأ من منتصف شهر يونيو (حزيران) ويستمر حتى منتصف شهر سبتمبر (أيلول)، وتكون درجات الحرارة مرتفعة جداً، ويكون الناس والأرض في أمس الحاجة للأمطار المنعشة، أما في شرق تلك الجبال أي من جهة مسقط، فتهطل الأمطار من منتصف شهر نوفمبر (تشرين الثاني) إلى منتصف شهر فبراير (شباط)، أما في حضرموت وعُمان وعلى السواحل الجنوبية فيستمر فصل الأمطار من منتصف شهر فبراير (شباط) إلى منتصف شهر أبريل (نيسان).وتبدو الأمطار وكأنها تدور في شبه الجزيرة حسب هبوب الرياح السائدة خلال كل فصل.وفي تهامة اليمن يتحدث الناس عن احتمال هطول أمطار ربيعية.تتعلق بها وفرة ونجاح المحاصيل الزراعية.

يؤدي انتظام الأمطار إلى خصوبة وغنى الوديان التي تفصلها عن السلاسل الجبلية. ويتمتع سكان الجبل الذين يتنشقون هواءً عليلاً ونقيًا بالجمال والصحة والشجاعة.كما يحصل العرب في هذه المنطقة بسبب موقعها بمحاصيل مختلفة حسب تنوع واختلاف المناخ.

وتنمو في السهول أنواع من النباتات التي أحضروها من الهند، كما تتكاثر فيها حيوانات المناطق الحارة. و تعيش في الجبال نباتات وحيوانات المناطق المعتدلة. وفي النهاية يمكن اعتبار الجزيرة العربية تجمعاً لعدة أنواع من المناخ، بحيث توجد فوائده النسبية مجتمعة في المساحة الممتدة بين البحر الأحمر والخليج العربي.

تختلف طبيعة الرياح اختلافاً شديداً في الجزيرة العربية بحسب نقطة انطلاقها

وطبيعة المناطق التي مرت بها الرياح، ونجد أن الرياح القادمة من النقطة نفسها يمكن أن تكون رياحاً جافة أو رطبة فيما إن اجتازت المحيط أو الصحارى وصولاً إلى منطقتين مختلفتين. فعلى سواحل الخليج العربي تأتي الرياح من جهة الجنوب الشرقي برطوبة تؤدي إلى تعرق شديد مرهق إذا تصاحبت مع حرارة مرتفعة.أما الرياح القادمة من الشمال الغربي والتي تمر على الصحراء فهي رياح حارقة لكنها أقل إرهاقاً من الأولى. وهي تستطيع تسخين المعادن في الظل كما لو كانت معرضة للشمس، وتخنق حرارتها الناس والحيوانات في معظم الأحيان عندما تضاف إلى حرارة الجو. يحمل العرب معهم في أسفارهم ثوماً وزبيباً كعلاج ينعشون به أشخاصاً عجزوا عن التنفس في مثل هذه الموجات الحارقة.

ويستخدم العرب الرياح الشمالية الغربية بالرغم من أنها حارقة لتبريد مشروبهم في منتصف الصيف، ولهذا الغرض يوضع الماء في أوان مطلية مؤلفة من الطين الفخاري وتعلق في مهب الرياح الحارة فيبرد الماء، وهي ظاهرة معروفة في كل البلاد الحارة فسببها، كما يشرحه علماء الفيزياء اليوم هو التبخر المفاجئ.

نوع آخر من الرياح أشد خطورة هي رياح السموم التي تندر في الجزيرة العربية بينما تشيع على الحدود، ولا تسود هذه الرياح إلا على تخوم الصحراء، فحركة الهواء تجلب البخار الساخن الذي يرتفع عن الأرض الحارقة بسبب شدة حرارة الشمس. أكثر المناطق تعرضاً لهذه الرياح هي ضفاف الفرات وأحياناً ضواحي مكة عندما تأتي الرياح من جهة الصحراء، كما أنها تهب في تخوم السهول الجرداء في بلاد فارس. ويؤكد البعض هبوبها في إسبانيا في بعض المناطق المجاورة للسهول الرملية التي تسيء لهذه المملكة الرائعة.وينطوي فعل رياح السموم على خنق كل الكائنات الحية التي توجد في دائرة نشاطها، وتحلل جثث الموتى في وقت قصير، عندما نلحظ الفساد الآني لجثث الحيوانات بفعل البرق أو الصعق الكهربائي، يمكننا الشك باحتواء تلك الرياح على الكهرباء المنتشرة في الكون بأسره، ويعلم العرب بقدوم السموم من حمرة غريبة في الأفق ويزعمون أنهم شموا رائحة كبريتية عند مرورها، ومهما يكن الأمر تجاه ذلك الرأي، تبقى الطريقة

الوحيدة للوقاية من النتائج المؤذية لهذه الرياح الفريدة، بأن تستلقي ووجهك إلى الأرض كي يمر هذا الإعصار بتصاعده المميت والذي يبقى على ارتفاع معين في الهواء. كما أن غريزة البقاء تدفع الحيوانات للانحناء نحو الأرض في مثل هذه الظروف.

وما تبقى من الظاهرة الجوية فهو معروف ومألوف في كل البلدان الحارة، سماء صافية نادراً ما تعكر صفوها الغيوم، لذا تندر العواصف في السهول، ويتحرر الهواء من شحنته الكهربائية بكرات من النار يسمونها النجوم الهاوية ذات الأحجام الكبيرة التي غالباً ما تحدث. ويكثر حدوث الطل أو الندى في المناطق الجرداء القريبة من البحر. وبالرغم من هذه الرطوبة فإن الهواء نقي حتى أنك تنام في العراء، لم يكن نومي أبداً في مثل ذلك الهدوء إلا عندما استيقظت في صباح أحد الأيام وقد تبلل سريري من الندى. وهناك أماكن لا تستطيع النوم فيها في العراء دون التعرض لخطر الشلل. لكن السكان يعرفون بفضل خبرتهم الطويلة الاحتياطات الواجب اتخاذها والضرورية جداً بالنسبة لأوروبي لم يعتد على الأحوال الجوية هناك.

وتتمتع الجزيرة العربية على نحو ما بمشهد من الغطاء الأخضر المستمر. لا لأن الأشجار لا تفقد أوراقها الخضراء سنوياً أو لأن النباتات السنوية لا تعطي نباتات جديدة بعد أن تفنى، بل لأن الفترة التي تفصل بين سقوط الأوراق وولادة أوراق جديدة هي فترة قصيرة جداً. فلا نلحظ التغير. الأرياف الخضراء هي من خواص البلاد التي لا يحدث فيها صقيع وتهطل الأمطار بدلاً من فصول الشتاء الطويلة عندنا.

الموقع الجغرافي الذي تنفرد به الجزيرة العربية، يدفعنا إلى التخمين المسبق حول تفاوت طبيعة أراضيها الشديد. فنحن نرى من جهة صحارى مخيفة، ومن جهة أخرى وديانا خصبة مثمرة. فالشريط الرملي المحيط بالجزيرة العربية هو شريط عقيم أجدب ولا يقدم إلا صورة كئيبة.

ويبدأ هذا الشريط المسمى تهامة كما لحظنا من مواضع عدة، من السويس ويمتد محيطاً بكامل شبه الجزيرة وصولاً إلى مصب الفرات. عرضه متباين، يبلغ

عادة مسير يومين، من سواحل البحر حتى سفح الجبال، وهو عرض السهل الذي يحاذي البحر الأحمر الذي يقدم دلالات على المهد القديم للبحر، فأعماقه من الكلس الرمادي المخلوط بالرمل المليء بالأجسام البحرية بعيداً جداً عن الشاطئ. وفيه أكوام كبيرة من الملح بل يمكن القول بعض الجبال الصغيرة. انحداره المنتظم نحو البحر يدل على انحسار البحر شيئاً فشيئاً. وتتألف التلال التي تحد هذا السهل من حجار كلسية مسودة كأن الشمس قد حرقتها، أما الجبال التي تحاذيها فتحتوي على البازلت وحجار النضيد وهي تختلف اختلافاً شديداً عن الجبال في الجهة المقابلة في مصر والبتراء حيث يسود الجرانيت.

ولا يمكننا الشك بأن تراجع البحر لن يستمر، وأن عرض سهل تهامة لن يزداد مع الوقت، وتتزايد الشعب المرجانية باستمرار، فتصبح الملاحة في البحر الأحمر أشد خطراً كلما اقتربنا من السواحل. إلا أن هذه الشعب المرجانية تنضم إلى اليابسة شيئاً فشيئاً بفعل الرمال التي تحملها الأمواج ولدينا أمثلة حديثة العهد عنها.

ويشير التاريخ أيضاً إلى هذه الزيادات، فيسمي عدة أماكن على أنها موانئ بحرية توجد حالياً في وسط اليابسة، ويغفل المدن الساحلية اليوم التي نشأت منذ أن وجدت الأرض التي أقيمت تلك المدن عليها.

التحكم بعنصر الماء لا يسفر عن أي فائدة، فالأراضي الجديدة قاحلة جرداء ولا يرجى منها أي أمل مستقبلاً، فمنذ عصور سحيقة لم تتغير طبيعة الأرض في تهامة، وقد ظن السيد فورسكال أنه وجد تشابهاً بين أراضي الحجاز وأراضي مصر،و يبدو أنه أخطأ عندما عزا سبب قحط وعقم الأراضي الأولى إلى نقص المياه، فأراضي مصر تتألف من رواسب النيل، في حين تتكون الأخرى من بقايا أعماق البحر وتتألف التلال التي تحدها من تراب أسود استطاع مع الوقت أن يغذي بعض النباتات الخشنة.

وتختلف كثيرًا طبيعة الأرض في القسم الجبلي من الجزيرة العربية، كما تتنوع في العديد من المناطق المزروعة. تتكون معظم هذه الجبال المنتظمة من الصلصال المخلوط

مع الرمال، وتقف طبيعتها حاجزاً في وجه خصوبتها، فهي وعرة جداً وذات قمم عالية لا تسمح بنمو النباتات فيها فلا توفر المكان ولا الغذاء لأن المياه تجرف بشكل مستمر الطبقة الطينية. وتتحول إلى الزراعة المضنية جداً والمكلفة للغاية، ويضطر الناس إلى قطع القمم الجرداء وتسوية الأرض على شكل مصاطب يسهل بناؤها أحياناً بسبب أكوام البازلت المنحوتة أصلاً بشكل خماسي منتظم تنفصل شيئاً فشيئاً عن الجبال لتستخدم في بناء الجدران.

يمكن اعتبار الجزيرة العربية بلادًا مهمة من شتى النواحي، إلا أنها بصورة عامة بلاد فقيرة جدباء، حياة الناس القاسية وغذاؤهم الرديء دليل كاف يثبت هذه الحقيقة، وإن دعاها القدماء السعيدة فهي تستحق هذا الاسم من باب القيمة والطرافة لا من باب وفرة المحاصيل فيها.

الفصل الثالث

الحيوانات ذوات القوائم الأربعة

في معرض حديثي عن الزراعة عند العرب تطرقت إلى الحيوانات الأليفة، ويبدو بعضها لا يلائم هذه المنطقة بسبب احتفاظها بالغريزة البدائية وهي على قدر من الجمال والبأس ويندر وجودها في مناطق أخرى من الشرق، كالخيل والحمير والإبل وأيضا الثيران. الجمل سفينة الصحراء له قدرة على تحمل العطش وقوائمه المناسبة للسير فوق الرمال الملتهبة وفمه الغضروفي الذي يسمح له بتناول النباتات القاسية والشوكية في السهول القاحلة.

ويبدو أن الجزيرة العربية وبشكل خاص هي موطن الحمار الأول، ونجد فيها نوعاً منه جميل وشجاع ونشيط، حتى يمكنك مقارنته بالخيل. ويتحدث السكان عن حيوان وحشي يسمونه الجعر يشبه الحمار شكلاً وحجماً وهم يأكلون لحمه. ويبدو أن هذا الحيوان هو حمار وحشي يعيش منعزلاً وقد اكتسب بعض التغيرات في الشكل لكن العرب لا يميزونه بسبب معرفتهم الشحيحة بالعلوم الطبيعية.

ويسمي العرب بالبقر الوحش حيوانًا لم نره لكن الوصف الغامض الذي حصلنا عليه لا يتطابق إلا مع أوصاف الثور الوحشي. كما يتحدثون عن حيوان آخر له هيئة الثور لكن بلا قرنين ويبحث عن طعامه في الليل فقط.

ونجد في الجبال المرتفعة في البتراء العربية ماعزًا بريًا، في حين تمتلئ السهول بالغزلان الجميلة التي كان عددها سببًا والتشبيهات الكثيرة عند الشعراء العرب .

ويندر وجود الأرنب البري، ولا تراه إلا في بعض المناطق الجبلية. ويعيش في المناطق الرملية جرذ فرعون ولا ينفر العرب من تناول لحمه. ونعرف تركيبة القوائم الخلفية لهذا الحيوان وطريقة قفزه مما جعل علماء الطبيعة لدينا يطلقون عليه اسم موس جاكولوز.

وتمتلئ الغابات في جنوبي الجزيرة العربية بالقردة التي ليس لها ذيول ، مؤخرتها حمراء وبدون شعر. وقد رأيت منها قطعاناً بالمئات. والتقى رحالة آخرون بالآلاف منها في جبال عدن. وهي مطيعة وتتعلم بسهولة ألعاب الخفة والمهارة، لذا يُصدر عدد منها إلى مصر فيستخدمها المشعوذون لتقديم عروض للناس.

أخطر الحيوانات الضارية وأبشعها هو الضبع الذي يهاجم الناس والمواشي على حد سواء. يعيش هذا الحيوان الكاسر الوحيد في كهوف جبال البتراء الجرداء، وهو معروف في ضواحي الخليج العربي في الفصول التي ينام فيها الناس في العراء، وبما أن الضبع لا يخرج إلا ليلاً فهو يخطف في كثير من الأحيان الأطفال النيام بالقرب من أهاليهم . وفي الجهة الجنوبية من بلاد فارس حيث معظم غذاء الحيوانات الأليفة هو من الأسماك، فإن الضبع يضطر إلى الاكتفاء في بعض الأحيان بنفس الطعام. عند عودتي إلى أوروبا، رأيت في الدانمارك ضبعاً حياً في معرض الملك للوحوش.

ولا يمكن للفهد الذي صنفه السيد فورسكال مع الضواري أن يكون إلا النمر كما أنه أضاف اسمه العربي أيضاً نمر، أما النمر الصغير الذي يسميه العرب فيث فيعرف أكثر من النمر الكبير. ولا يمكن التخوف منه في الجزيرة العربية فهو لا يهاجم الناس بل يهاجم القطط والكلاب.

ويوجد في الجزيرة العربية دببة وذئاب وثعالب. لكن الحيوان آكل اللحوم والأكثر شيوعاً هو نوع من الكلاب الوحشية تشبه الثعالب لا الكلاب الأليفة، ويسميها الأتراك شاكال، بينما يطلق عليها العرب اسم ابن آوى وهو حيوان يعيش في كل بلدان الشرق، وسيكون إضافة ما يتعلق بشكله وعاداته زيادة لا طائل منها.

ويعدد السيد فورسكال أيضاً أسماء بعض حيوانات لم يعرفها إلا من خلال تقارير غير أكيدة أعطاه إياها السكان، وحيوانات أخرى لا يعرف إلا أسماءها العربية. ولا تستطيع ملحوظات غامضة أن تمتد فتشمل معرفة الطبيعة. لذا فلن أكررها هنا بدون جدوى. أكثر هذه الحيوانات فرادة وغرابة لم نعرفه إلا من خلال ما يقال عنه فهو حيوان يشبه الهر ويعيش في الجبال ويتناول الأعشاب ولحمه مستساغ الطعم.

الفصل الرابع

الطيور في شبه جزيرة العرب

إن كانت الظروف قد سمحت لنا بفحص عدد صغير من الحيوانات ذوات القوائم الأربعة، فإن الحظ لم يسعفنا أبداً في دراسة الطيور. والسبب في ذلك ليس خلو الجزيرة العربية منها فأرضها تسمح لأعداد كبيرة من الطيور أن تعيش فيها، بل إن الرحالة الذي يحث الخطى لاجتياز بلاد ما يشق عليه التعرف إلى طيور السماء أكثر مما يعيش على اليابسة. ولرؤية الكثير من الطيور والتمكن من مراقبتها بتروٍ، عليك أن تعيش مع شعب يهوى الصيد، يصطاد الفرائس ويبيعها ويحمل معه لأهل الفضول طيوراً حية كانت أم ميتة، ويعرف أسماءها وغرائزها بشكل عادي وتلقائي.

لم تتوافر لنا مثل تلك الظروف، فالعرب يزدرون الصيد ولا يكلفون أنفسهم مشقته ومتعته، وأظن أنني وجدت سببين لاستهانتهم بمثل هذا النشاط الذي يجد البدائيون في الشمال المتعة فيه:

شعب جدي وزاهد بطبيعته في ظروف مناخية حارة لا يلائمه تناول الكثير من اللحوم، لذا فهو لا يحب الطرائد والفرائس.

كما أن المبادئ الإسلامية الدقيقة تلزم العربي وتجعله يكره مطاردة الحيوانات الوحشية وبالأخص الطيور، وستضيع جهوده هدراً وستكون الفريسة نجسة إن نسي تلاوة دعاء قصير عند صيده للحيوان، وإن لم يسل دمه بالقدر الكافي الذي افترضه الشرع أو بقي في الطير رمق من الحياة ووقع في مكان مسكون أو قذر. لذا فلم نر من الطيور إلا ما اصطدناها بأنفسنا أو ما استطعنا مراقبتها حرة طليقة. في المناطق الخصبة من الجزيرة العربية تشيع بكثرة الدواجن المنزلية، وتربى أنواع كثيرة من الدجاج. ولا يعتبر ديك الحبش فيها من الدواجن، فهو يعيش في الغابات بأعداد كبيرة حتى أن الأطفال يقتلونه برميه بالحجارة ويلتقطونه للبيع في المدينة.

الحجل بلدي ويعيش في غابات اليمن بكثرة كالترغل وأنواع عديدة من الحمام.

نجد في سهول اليمن أيضاً الحجل الرمادي والقُبّر ونوع من الكركي الأبيض ذو البطن الأحمر الجميل.

لا يمكن لبلاد جافة كالجزيرة العربية أن تقدم غذاء للكثير من الطيور المائية، إلا أننا نجد في المناطق المروية نوعاً جميلاً من طير أبو الرؤوس وبعض اللقالق. أما الطيور التي تعيش على شاطئ البحر وتتغذى على الأسماك، فتوجد بكثرة قرب البحر الأحمر فخليجه قليل العمق وكثير الأسماك في آن معاً، وإلى جانب بعض طيور النورس رأينا في جزيرة في البحر الأحمر طائر البجع وقد بنت أعشاشها ووضعت فيها بيضاً بحجم بيض الإوز.

لا تفتقد الصحراء في الجزيرة العربية إلى طيور النعام التي يسميها الناس الطير الجمل. ولم يتوافر لي دليل على أن العرب يأخذون صغار النعام لتدجينها، وما رأيته من النعام في اللحية كان قد أتى من الحبشة. ويعيش طائر الهدهد. بكثرة على سواحل البحر الأحمر. وهناك قصة خرافية تحكي أن بعض العرب يظنون أنه يمكن فهم لغة هذا الطائر.

أما الجوارح التي نجدها في الجزيرة العربية، فهي النسور والصقور وطيور الباز وصقور مصر، وتؤدي هذه الطيور الأخيرة خدمة كبيرة إذ تنظف الأرض من كل الجثث التي تتحلل بسرعة وتشكل خطراً كبيراً على البيئة في مثل هذه البلاد الحارة، كما تقضي على جرذان الحقول التي تتكاثر بسرعة فائقة التي لولا الصقور هذه لاضطر الفلاحون إلى ترك الزراعة، لذا وبسبب هذه الخدمات الجليلة قدّس المصريون القدماء هذه الطيور، ويحظر حتى يومنا هذا قتلها في كل البلاد التي تترد عليها.

ويعيش في مناطق عديدة من الشرق كما في الجزيرة العربية طائر آخر يؤدي خدمات جليلة أيضاً، ويعتقدون أنه أتى من خراسان إلى الجزيرة العربية في شهري يوليو (تموز)وأغسطس (آب)، يطارد أرْجَال الجراد ويقضي على كمية هائلة منها. ويسمونه سمرمر، بينما صنفه السيد فورسكال من طيور السمنة وأطلق عليه اسماً.

فالخدمات التي يؤديها هذا الطائر للبلاد المعرضة لاجتياح الجراد سببت في سوريا بعض الممارسات الخرافية والمثيرة للسخرية، فهم يعتقدون أن هذا الطير يعود إلى خراسان يشده إليها الماء، لذا فهم يجلبون هذا الماء باحتفال كبير ويضعونه في حوض حجري في أعلى برج من مسجد ما، فإن نقص الماء استسلم أهل الموصل لليأس. لكن غريزة هذا الطائر تدفعه ليتغذى على الجراد، بل إلى قتل عدد كبير منها أيضاً وهو يتبع غريزته هذه في مواسم مرور الجراد.

سمعنا الكثير عن هذين النوعين من الطيور واللذين يوليهما العرب أهمية كبيرة ويسمونهما السلوى والسمنة. لكننا لم نتمكن أبداً من معرفة ما يتعلق بالنوع الثاني. لكننا عرفنا ما يكفي عن السلوى للتصديق أنها طيور اللقلق وهي طيور مهاجرة تمر في منطقة صغيرة من الجزيرة العربية. ولم يتوافر لدينا أي دليل على هجرة طيور السمانى، ومن المستبعد أن تجتاز هذه الطيور الصحراء فلن تجد فيها أي قوت أو طعام.

وقد عدد العرب للسيد فورسكال أسماء طيور عدة إلا أنه لم يتمكن من مشاهدتها وبالتالي لم يحدد نوعها، كطائر الأشيل الذي يشتهر بريشتين جميلتين يزين بهما سكان الجبال عمائمهم، ويترك الطائر فتحة صغيرة في عشه حرصاً على هاتين الريشتين.

طائر الهند النادر ذو الريش الذهبي الأخاذ الذي يباع بأسعار باهظة في الجزيرة العربية، يدل اسمه على أنه طائر مهاجر ويفترض أنه يأتي من السواحل الهندية.

الفصل الخامس

البرمائيات والأسماك

لم نجد سلاحف مائية في البحار المحيطة بالجزيرة العربية، في حين أن السلاحف البرية منتشرة بكثرة حتى أن سكان الريف ينقلون أحمالاً كبيرة منها ويبيعونها في بعض مدن الشرق. ويأكلها المسيحيون في زمن الصيام ويشربون دمها بكل سرور.

ولحظنا وجود عدة أنواع من السحالي والنوع الخطير الوحيد من بينها هو ما يسميه المصريون جكو، ويزعمون أن لعابها يسبب البرص لمن يتناول طعاماً ملوثاً به.

ويوجد عدة أنواع من الثعابين في الجزيرة العربية، لدغاتها غالباً مميتة كما أن هناك أنواعاً كثيرة غير سامة. لدغات بعضها لا تسبب إلا حكة مزعجة، يداويها العرب بوضع أوراق الكبر فوقها. وتتسبب بالوفاة الجروح التي تحدثها هذه الأفاعي بصورة عامة، فقط الأفاعي التي لها نابان طويلان. ويعرف العرب في مصر طبيعة تكوين الزواحف فيلعبون بلا خوف أو خشية مع ثعابين اقتلعوا بالكماشة أنيابها وهي القنوات السمية لديها.

الأفعى الوحيدة السامة والمخيفة في الجزيرة العربية هي البطن، قصيرة ورقيقة مرقطة بالأبيض والأسود تؤدي لدغتها إلى الوفاة في الحال وإلى انتفاخ جثة الملدوغ انتفاخاً هائلاً.

اكتشف السيد فورسكال في البحر الأحمر وجود عدة أنواع من الشفين البحري غير المعروفة في أوروبا،

وهذا البحر غني بالأسماك بصورة عامة، وقد أعلمني صديقي أنه عندما قطع المسافة القصيرة بين السويس وجدة شاهد ما يزيد عن مائة نوع جديد منها، وأنه لا يستطيع أن يضع جزءاً عن الأنواع المعروفة حتى اليوم. ويجد نفسه مضطراً إلى تشكيل أربعة أنواع جديدة سيسميها. وقد بدت له سمكة مكهربة جديدة مختلفة عن النوع المعروف وقد ظن أنها شكلت نوعاً خاصاً.

من بين هذه الأنواع الجديدة يبدو أن هناك ما يعيش منها في بحارنا كسمك المورة وغير المعروفة حتى الآن وأنواع جديدة من الاسقمار، وسمك الفرخ وسمك البوري وأبو مصقار. وأنـــواع أخرى لا تعـــيش إلا في الميـــاه الدافئة أو في بحار الهند وعلى سبيل المثال: Chatodon وIasciana.

خلال رحلتنا في البحر الأحمر رأينا أسراباً من الأسماك الطائرة التي كانت ترتفع من حين إلى آخر فوق سطح المياه، لكننا لم نكتشف في رحلتنا أياً من الثعابين الطائرة، ولكن بالرغم من أن العرب يطلقون عليها اسم الثعبان، إلا أننا نسميها نحن المحلق، وهو يتعلق بواسطة ذيله بغصن شجرة منخفض ويهز نفسه بفضل هذا الذيل المطاطي متنقلاً تباعاً من غصن إلى آخر حتى يصل إلى أعلى الشجرة.

ويعيش سكان السواحل العرب على الأسماك، وقد سبق لي أن نوهت إلى ذلك، كما أنهم يطعمون مواشيهم منها.

بالرغم من وفرتها، يندر أن ترى سمكة حية عندهم بسبب الخوف من اختراق بعض المبادئ في الشرع الإسلامي التي تلزم الصيادين بقتل كل الأسماك قبل نقلها إلى اليابسة.

الفصل السادس

الحشرات والقواقع

يؤثر الجراد تأثيراً بالغاً على حالة السكان في الجزيرة العربية وفي بلدان عديدة في الشرق، لذا سنسمح لأنفسنا بالدخول بالتفاصيل التي لا تستحقها حشرات أخرى. ولم تبد لنا أنها بهذه الكثرة كما يمكن أن نتخيل في أوروبا. رأيت في مصر لمرة واحدة فقط غيمة جراد وقد أتت بها الرياح الجنوبية الغربية من الصحراء الليبية، وقد وقع منها كميات هائلة على سطوح المنازل وفي شوارع القاهرة. ولم أرها من جديد إلا في جدة، كان ذلك في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٧٦٢، حيث مرت غيمة كبيرة من الجراد فوق المدينة مع رياح غربية سائدة. قادمة من الجهة الأخرى من البحر الأحمر، قد غرق عدد كبير منها في الطريق. كما وجدنا في شهر يوليو (تموز) من العام التالي كمية هائلة من الجراد قرب جبل سمارة ويبدو أنها قد أقامت في الجزيرة العربية. واجتازت من جديد البحر الأحمر وعادت إلى مصر، حيث ينضم قسمها العلوي إلى الصحراء الليبية التي تبدو مهد هذه الحشرات وموطنها.

رأيت أيضاً سحاباً من الجراد في سوريا وبلاد فارس وشاهدت بالقرب من الموصل أعشاشاً يمكن أن يدمر جزءاً كبيراً منها رجال شرطة أقوياء إن أرادوا. وينمو الجراد الصغير الذي كان بحجم الذباب بسرعة هائلة ويبلغ حجمه الطبيعي خلال أيام قليلة.

ولم تحدد بعد أنواع الجراد وهي كثيرة بلا شك. وقد سمى السيد فورسكال النوع الذي يغزو الجزيرة العربية، ويعتقد أنه يختلف عما سماه لينوس باسم Gryllus gregarius والذي تشكل صحاري التارتار موطنه الأصلي، هذا النوع ويقطع البلدان المجاورة حتى يصل إلى بولونيا وألمانيا.

ويستحق Grullus migratorius هذه التسمية، ويبدو أن هذا الجراد يتصرف ويعيش ويسافر كجوقة، ويتسكع الجراد الباقي بعد رحيل الجوقة الكبيرة.

يميز العرب بين عدة أنواع من الجراد بأسماء خاصة، إنما لا تعتمد على اختلاف

طبيعة هذه الحشرة بل على طعمها اللذيذ المزعوم. وهم يسمون الجراد الأحمر الأكثر دسماً والألذ طعماً باسم (موكين) ، كما يأكلون الجراد الخفيف ويمتنعون عن تناول نوع يسبب الإسهال ويسمونه الدب.

اعتاد على تناول الجراد كل العرب الذين يسكنون موطنهم الأم أو المنتشرون في بلاد فارس وسوريا وإفريقيا. بينما ينفر الأتراك من تناوله. ويلومهم العرب لأنهم يستسيغون طعم المحار والسلطعون والربيان.

وقد أكد لنا ألماني أقام طويلاً في بلاد البربر أن طعم لحم الجراد يشبه طعم سمك سردين بحر البلطيق الذي يجفف في بعض مدن الهولشتاين.

وفي الكثير من المناطق في الجزيرة العربية رأينا الناس يأخذون الجراد ويضعونه في أكياس لتجفيفه، بينما يُسلق في بلاد البربر ويجفف على سطوح المنازل للمئونة. ويشويه البدو في مصر حياً ويلتهمونه بشهية، ليس لدينا أي دليل على أن هذا الغذاء ضار. وقد قالوا للسيد فورسكال فقط إن دم الجراد يجعل الدم ثخين القوام ويزيد من القابلية للحزن. وفيما عدا ذلك يقتنع اليهود في الجزيرة العربية أن الدواجن التي تناولها شعب إسرائيل عندما تاه في الصحراء، ما هي إلا سحابة من سحابات الجراد، ويسخرون من المفسرين الذين ظنوا أنهم وجدوا طيور السمانى في مكان لم توجد فيه تلك الطيور في يوم من الأيام.

تعتم أفواج الجراد الأفق وتبدو من بعيد وكأنها دخان كثيف. أما الضجة التي تحدثها في طيرانها فهي مخيفة وتصم الأذان كما لو كانت شلال نهر كبير.

عندما يهبط فوج جراد فوق ريف من الأرياف فإنه يقضي على الغطاء الأخضر فيه ويخربه تماماً. وتعاني الخضار وأشجار النخل كثيراً من الجراد، في حين أنه يتجنب القمح الناضج فهو غذاء قاس بالنسبة له.

حشرة صغيرة أخرى بحجم حبة الشعير وتسمى الأرضة (لفظ الموت بحسب لينوس) هي أيضاً من الآفات في الجزيرة العربية والبلاد الحارة بصورة عامة. وقد

اعتبرها بعض الرحالة نملاً بسبب الشبه بينهما، ويتحدثون عنها تحت هذا الاسم، تدفعها غريزتها للسير ليلاً فقط في دهاليز تصنعها بنفسها كلما تقدمت على أرض لينة طرية وتصل إلى هدف مسيرتها فتقرض وتدمر كل شيء في طريقها الطعام والثياب والأثاث.

وجدنا للمرة الأولى جيشاً من هذه الحشرات في غرفنا في بيت الفقيه حيث بنت دروباً خاصة لها والتي قمنا أولاً بتخريبها، لكنها لم تيأس ولم تخش وجودنا وعادت لتصلح ما خربناه من عملها أثناء الليل بعناد وإصرار كبيرين، وكان من الصعب علينا أن نتخلص من هذه الحشرة الصغيرة التي تعيش وتعمل في قرى كقرى النمل.

وتشكل حشرة الأرضة أيضاً خطراً على العرب وتجتذبها نعومة الأوراق الخضراء وطعم الفاكهة. فتبني دروبها على جذوع الشجر من الجذور حتى أعلى غصن. ولا يملك السكان وسيلة لحماية بساتينهم من الدمار الشامل إلا إحاطة أشجارهم بروث الأغنام لأن تلك الحشرات لا تستطيع أن تتحمل رائحته.

معظم النمل الذي يوجد في الجزيرة العربية غير ضار كالنمل عندنا، إلا أنه يجب استثناء نوعين منها:

الأول مزعج بسبب شرهه ونهمه عندما يهاجم المواد الغذائية إن لم يطرد باستخدام رائحة الكافور.

أما عضة النوع الثاني فهي مؤلمة كعضة السرطان لكنها ليست مميتة في معظم الأحيان.

ويعاني الناس أيضاً من حشرة تشبه أم أربع وأربعين أو الحريش الذي يسبب آلاماً محرقة عندما يلتصق بشخص ما ويتشبث باللحم بواسطة كل أرجله ويصبح من المستحيل التخلص منه إلا بحرق أقسام من جسمه بحديد محمى.

الحبار أيضاً خطير على الغواصين ومرتادِي الماء، وهو يقبّل بكلاباته ولا يجرح بل يتسبب للإنسان بأورام وأوجاع داخلية وبدايات شلل في معظم الأوقات.

من بين الخنافس هناك نوع يقضي على القصب. ومن المحتمل أنه يهاجم أيضاً قصب القمح الذي نجد فيه دقيقاً بني اللون من شأنه نشر بيوضه في المنازل. لذا فهو في عداد الأكثر أذى وضرراً.

ونوع آخر يسكن في أقذر نواحي البساتين، تجد فيه النساء العربيات والتركيات منفعة وتبتلع صباحاً ومساء ثلاث خنافس قليت بالسمن ذلك لأن الشرقيين يفضلون السمنة والبدانة.

يزخر البحر الأحمر بالحشرات البحرية بحجم البحر الذي يعتبر السيد فورسكال أن نجم البحر يساهم بسبب وجوده بكميات هائلة في نشر الضوء الذي نراه في المياه البحرية أثناء الليل، ويبدو أنه مكون من الفوسفور الحي.

لحظنا وجود عدد كبير من السلطعون والربيان التي يختص البحر الأحمر ببعض منها، كما وتكثر القواقع التي يوجد من بينها بعض الأنواع النادرة، لكن أجملها هو الصدف الذي يسمى مثلث المحار فألوانه رائعة، إلا أنه حساس جداً عند صيده. ولا يستفيد السكان من غنى ووفرة المنتجات البحرية التي يمكن لها تقديم غذاء لذيذ.

وكل المسلمين لا يتناولون إلا السمك ويبدو أنهم يكرهون الربيان والمحار. أما المسيحيون الذين تقيدهم فترات الصيام الطويلة والصعبة فيعوضون خلافاً للمسلمين بتناولها بسبب امتناعهم عن تناول اللحوم. ولا يتناول الأقباط في السويس تقريباً إلا المحار والقواقع.

وقد سنحت لي الفرصة للتحدث أثناء رحلتي عن الكمية الهائلة مما بنته الحيوانات البحرية، الشعب المرجانية التي تحد وتملأ البحر الأحمر. وقد بني قسم كبير من المنازل في تهامة من الصخور المرجانية، فكان السيد فورسكال ينظر إلى كل بيت عربي وكأنه متحف علوم طبيعية غني بالمرجان كغنى أي متحف في أوروبا. ويمكن أن نتصور أي تنوع من عروق اللؤلؤ وغابات البحر يمكن أن نجد في هذه البحار. وهناك الكثير من

الغريب والطريف من المرجان حتى أننا كنا نرغب بأخذ عينات منها لكن حجمها الهائل بشكل غير اعتيادي يمنع نقلها.

وجبال المرجان هذه التي يصل ارتفاعها غالباً إلى عشر قامات (القامة تساوي ستة أقدام) فوق سطح البحر، وهي من الحجارة الطرية اللينة تحت الماء. وبذلك يتمكن السكان من نشرها بسهولة وبقليل من الجهود و يفضلونها على باقي الحجارة من أجل بناء المنازل.

الفصل السابع

نباتات عادية وطريفة

تبدو الجزيرة العربية كما قلت مسبقاً وكأنها تمتلك بسبب موقعها الجغرافي مناخ البلاد المعتدلة والحارة في آن واحد، فنحن نعثر في مناطقها المرتفعة على نباتات نعرفها في أوروبا وشمال آسيا، كما تنمو في السهول نباتات نراها في الهند وإفريقيا، ومن المرجح أن يكون البانيان[1] قد حملوا الكثير من النباتات من وطنهم القديم إلى الجزيرة العربية.

ورغم أن أنواعاً متعددة من النباتات قد أتت من أوروبا، إلا أنها تستحق الدراسة فقد اتخذت بعض الشيء شكلاً جديداً في الجزيرة العربية، وقد وصفها السيد فورسكال للمرة الأولى، ويختلف الأمر عندما يتعلق الأمر بنباتات مشتركة بين الجزيرة العربية والهند، فمعظم الأنواع توجد على حد سواء في البلدين، أما النباتات المحلية في الجزيرة العربية فهي معروفة قليلاً حتى الآن مما اضطر السيد فورسكال إلى تصنيف ٣٠ صنفاً جديداً مثبتاً دون الأخذ بعين الاعتبار الأصناف المشكوك بها والتي تمكن من تصنيفها بصعوبة بالغة مع الأصناف المعروفة.

وصف صديقي الراحل ٨٠٠ نبتة، أما أنا فسأكتفي بالحديث عن عدد صغير منها والتي اشتهرت بفوائدها أو بغرابتها. المرتبة الأولى وبلا شك ستحتفظ بها النباتات التي يستهلكها الناس كطعام رئيس. وقد سميت بعضًا منها مسبقاً عندما تحدثت عن الزراعة. يزرع العرب القمح والشعير والذرة ويبدو أن الجزيرة العربية هي موطن الذرة الكبيرة. لأننا نجد فيها عدة أنواع من ذرة برية تستخدم كغذاء للطيور.

أما النوع المزروع الذي يحتاج إلى حرارة عالية كي ينضج نضجاً كاملا فيبلغ ارتفاعات لا تصدق في بعض الأراضي الخصبة.

ويزرع العرب عدة أنواع من الخضار تشبه الخضار عندنا، كأنواع الخس وهم

---

١) البانيان : هم من الهنود المشتغلين فى بعض المهن.

لا يأكلون النوع البري منه، والسباخ والجزر والبقلة الهشة ذات الأوراق المتطاولة، ونجد في كل البلاد نبتة أصابع العروس وفجل الخيل الذي لا يأكلون إلا أوراقه والبقلة المائية والخيار والشمام والكثير من أنواع القرع واليقطين الذي ينمو تلقائياً في الغابات ويستخدم كعلف للإبل. بينما يزرع الشمام الحقيقي في الحقول ونجد أنواعاً كثيرة منه، كما أنه يوجد بوفرة بالغة لذا يتناوله السكان كغذاء أساسي خلال وقت طويل ومهما كان حالهم.

ويصنعون من أحد أنواع الشمام عصيراً لذيذاً، ولهذا الغرض يُثقب عندما ينضج ويحرك اللب ويسد الثقب بالشمع وتترك الفاكهة وتقطف بعد بضعة أيام وقد تحول اللب إلى شراب كحولي لذيذ.

أما الخضار الذي يزرع في الجزيرة العربية الذي أتوا به من الأراضي الهندية Sida فهو الذي تشبه نبات الخطمي عندنا.

والخبيزة التي تشبه البنفسج، ويؤكل نوع واحد منها هو: الجوسية التي تشبه السرمج: الاقنثة ، نوع جميل منه، والبونياس الذي يشبه الملفوف عندنا. وتطبخ أوراقه أيضاً.

ويأكل العرب الأوراق نيئة أو في طبق السلطة، نباتات أخرى هندية، كنبات الكلوم وهو يشبه الخردل، وستتاح لي الفرصة للحديث عنه، ولديهم بعض الخضار الخاصة بالبلاد التي تنمو وحدها لا تتطلب أية زراعة مثل Corchorus، Calas وهي من فصيلة الخبيزة ، ونبتة جديدة Saelanthus تشبهه ولأوراقها المطبوخة حموضة لذيذة الطعم.

وأخيراً القلقاس Colocasie اللذيذ الذي استهلكه المصريون بكثرة منذ أقدم العصور، وأظن أنه متوافر بكثرة في كل الأماكن الرطبة في الجزيرة العربية.

و لا تنقص الجزيرة العربية أيضاً النباتات التي تزرع لجمال أزهارها أو لرائحتها العطرة. كالأعشاب المنكهة، وعندنا أيضاً أنواع منها في أوروبا مثل الخزامى والمردقوش والزنبق وبعض أنواع القرنفل وتعرف في الجزيرة العربية والهند أكثر النباتات العطرية

التي تعطي زهوراً رائعة، ويقدرونها لعطرها ورائحتها الجميلة مثل Ocymum وهو من أجمل أنواع الريحان، هناك Inula نوع من الراسن اسمه ورائحته قوية جداً وموطنه الهند. والقاقاليا وأصله من داخل إفريقيا، والـDianthera وقد وصف السيد فورسكال ثمانية أصناف من نبات اسمه Moscharia غير معروف كثيراً.

وتنمو في الصحراء الرملية نبتة من نوع جديد وقد أطلق عليها صاحبي اسم بسب رائحتها المسكة.

النباتات التي أتت من الهند التي تعطي أجمل الزهور فهي التي تشبه اللبلاب والنبتة التي تشبه عندنا النرجس البحري وزهورها ناصعة البياض. والخبيزة نوع مختلف عن القرنيات، زهرتها شديدة الاحمرار وكبيرة بشكل غريب. هذه الزهور الجميلة والعطرة ليست شيئاً عديم النفع عند الفلاحين العرب فقد احتفظوا بعادة قديمة هي التتويج بالأزهار أيام الأعياد والأفراح.

تؤلف الكثير من النباتات في الجزيرة العربية مادة خام للحرف أو للاستخدام الاقتصادي. أطلق السيد فورسكال اسم السودة على نبات قبيح الشكل يشبه السرمق.وهو يعطي كمية من ملح القالي الممتاز لتبيض الغسيل الذي يستخدمه الناس بدلاً من الصابون الغالي الثمن في الجزيرة العربية.

يصنع من نوع خاص من نبات الاسل سجاداً ناعماً يصدر إلى البلدان المجاورة كما يصدر أيضاً إلى القسطنطينية، وتشكل تجارته فرعاً هاماً من تجارة سكان سواحل البحر الأحمر.

وقد شاع نبات من الهند ونبات من داخل أفريقيا كثيراً في الجزيرة العربية وهما فول الحبة السوداء، ويشبهان الفاصوليا ويعطيان حبات رائعة تستخدم لصنع أطواق وأساور يرغب فيها الناس جداً. وتعرف حبة باسم فول الحبشة الأسود.

تزرع النيلة في كل أرجاء الجزيرة العربية، فسكانها يفضلون اللون الأزرق، وتوجد منها أنواع برية منتشرة بكثرة. وقد أكدوا لنا أنه في حال نفاد النيلة يعرف العرب كيفية استخراج الصباغ الأزرق من حشيشة اللبن. ويكثر القلي العادي على طول البحر الأحمر وفي الجزر.

وينبت قصب السكر في بلاد العرب ولا ينقصهم إلا الصناعة لإنتاج السكر، لكنهم يكتفون بتناول قصب السكر نيئاً دون استخلاص عصارته.

يستخدم في كل أنحاء الجزيرة العربية نوع من نبات أو الاسل المائي لتغطية سقوف المنازل وتكفي هذه الأغطية الرقيقة في بلاد تندر فيها الأمطار.

وفي هذه المناسبة يجدر بي أن أذكر نبتة غريبة عن الجزيرة العربية، لكن السيد فورسكال قد كشف عن سر العرب الاقتصادي في مصر، بلد أكثر المياه فيه غير صالحة للشرب، استخدم سكانه منذ أزمان سحيقة نوعاً من الجعة (البيرة) إلا أنها تختلف عن البيرة في بلاد الشمال. وقد قيل لنا إنه كان من المستحيل تخميرها وإعطاءها مذاقاً طيباً لولا الاستعانة بحشيش رمادي يسمى الشبة التي تنقع وتصفى وتخلط مع كمية محددة من الدقيق تصنع منها خميرة تستخدم على حد سواء في تخمير الخبز والبيرة.

وقد أظهرت لصديقي عينة من ذلك النبات الثمين أنه من حزاز شجرة الخوخ وموطنه جزر الأرخبيل وتستورد منه حمولة عدة سفن قادمة إلى الإسكندرية في كل عام.

تندر الحقول في البلاد الحارة، لذا لا يجب أن نتوقع وجود كمية كبيرة من العشب الخاص للعلف. فالحيوانات ذات القرنين قليلة الوجود وتتغذى تغذية سيئة لذا فإن للحمها طعم رديء. أما الحيوانات التي تعيش في المناخ الحار كالجمال والحمير فهي تكتفي كما قلت مسبقاً بتناول غذاء جاف وقاس للغاية. وقد رأينا جمالاً تأكل نوعاً من نباتات ذوات الفلقتين محضراً قليلاً في حفرة في الأرض. يجتر هذا الحيوان أيضاً أعشابًا يابسة وشجيرات شائكة في الصحراء. أما نبات المُلاّح (Mesembryanthemum) فهو طري غض يشكل مورداً غذائياً للحيوانات في السهول الرملية، كما يصنع البدو من حبوب نوع من أنواعه خبزاً يأكلونه بشهية كما يأكلون خبز القمح.

ولا ترفض الحمير تناول عشب الدَبَج (Scorsonere) الشائك والمر حتى أن الجمال تعافه وتنفر منه.

ويبدو أن كل الشعوب البسيطة تملك علاجاً ودواء مستخلصاً من النباتات، ويعرفون خصائصها بالتقليد. ولم يتوان العرب عن ممارسة طب مماثل منذ أزمان موغلة في القدم بنجاح كبير، بحيث لا يمكن في الواقع لغريب ما أن يثق به كامل الثقة.

نعرف جيداً الصبر والنباتات ذوات الفلقتين لذا سأعفي نفسي من الحديث عنها. يوجد في الجزيرة العربية أنواع مختلفة من هذا النبات الثاني، حتى أننا يمكن اعتبارها موطنه الأصلي.

يولي الناس في البلاد الحارة أهمية خاصة للترياق بسبب كثرة الحيوانات السامة التي تتسبب بالأذى للناس. وبسبب الخبرة الطويلة يعرف سكان المناطق الحارة النباتات التي تشفي الناس من سم الحيوانات الخطيرة.

ويبدو أن العرب يجهلون فوائد نبات وهو منتشر بكثرة في جبالهم. بينما يعلقون أهمية خاصة على نبات الزراوند ولا يعتبرونه مجرد علاج وحسب بل واق ضد لدغات الثعابين، حسب رأيهم فإن تناول رجل مدة أربعين يوماً من مغلي هذا النبات فإنه لا يتعرض أبداً لمخاطر لدغات الحيوانات السامة. وبالرغم من خطأ هذا الرأي لكنه يبدو محتملاً فالمشعوذون الذين يتعرضون بلا مبالاة للدغات الأفاعي يملكون سراً ما للوقاية من آثارها. كما ويعتبر شجر الكابر الشائك ترياقاً ممتازاً ضد كل أنواع السموم.

وهناك الكثير من النباتات الطريفة والغريبة من بين الأنواع الجديدة التي اكتشفها السيد فورسكال. وقد سمى شوفاليه دولين نبتة تكريماً للراحل صديقي باسم فورسكاليا وهي نبتة تعيش في المناطق الجدباء القاحلة ولها أشواك صغيرة تتعلق وتتمسك بواسطتها بالأقمشة لا بل بأكثر السطوح نعومة فلا تستطيع نزعها دون أن تمزقها إرباً إرباً.

وهناك نبتة طريفة لا شكل لها، فما هي إلا خيط طويل ورفيع بلا جذور أو أوراق يلتف حول الأشجار لكنه يعطي نوعاً من الأزهار والأعناب ذات طعم حريف يأكله الأطفال.

ويبدو نبات وهو من الشوكيات وكأنه كومة من الكرات التي تنغلق على باقات من الزهور.

يتميز نوع من الغار الزهري يتميز ببصلة وحيدة وأزهار أرضية بحجم رأس الإنسان تمثل جذرها وتخرج منه الأغصان.

يعرف القصب في ضواحي البحر الأحمر حتى أن العرب القدماء أطلقوا على قسم من هذا البحر اسم يام الجوف أو بحر القصب. ويلفت الانتباه نوع من هذا النبات فهو ينمو بوفرة وكثرة في وسط المياه البحرية في منطقة الخبيب ويصل ارتفاعه إلى أربعة وعشرين قدماً. ويشكل هذا القصب الطويل والمتين مادة تجارية هامة، فهو يصدر إلى اليمن حيث يستعمل في بناء المنازل وصنع السقوف. وفي منطقة الخبيب مقابل السويس تقريباً تملكتنا الدهشة ونال منا العجب عندما شاهدناه في قعر حمامات ساخنة من حمام فرعون حيث بلغت درجات الحرارة ٤٩ درجة.

الفصل الثامن

أشجار وشجيرات

تخلو السهول الرملية في الجزيرة العربية من الأشجار فيما عدا بعض النخل. ونادراً ما نجد غابات إلا في المناطق الجبلية التي احتفظت جبالها بالتربة ولم تخل وتتقشر كما هو الحال في مناطق أخرى من البلاد. وتضم الغابات أشجارًا غير معروفة أو مختلفة على الأقل عن مثيلاتها في الغابات الأوروبية، سأتحدث بالتفصيل عنها وهي تتألف من الأشجار التالية:

Sceura، tomex، ، القات، ، haledi، baka، maru، cynanchum، وأنواع أخرى كثيرة من أشجار التين التي لا نعرفها في أوروبا.

يزرع العرب الكثير من أشجار الفواكه المعروفة عندنا كأشجار الرمان واللوز والمشمش والأجاص والتفاح. وتختص الجزيرة العربية بنوع من شجر الأجاص وثمرة القرانية

ويأكلون ثمار بعض الشجيرات الأوروبية كالصقلاب و النبقية.

في الواقع لا يشرب المسلمون الخمر إلا أنهم يزرعون الكروم ويستفيدون من أصناف مختلفة من العنب وهم يجففون نوعاً صغيراً منه ويسمى كيشميش بذوره صغيرة جداً وطرية تكاد لا تشعر بها، ويباع هذا الزبيب إلى البلدان المجاورة. ويصنعون من عصيره شراباً يسمى الدوب (الدبس) الذي يشكل فرعاً تجارياً رابحاً.

و نجد في الجزيرة العربية أصنافاً من الليمون والبرتقال، وقد أطلق عليها العرب أسماء تحملنا على الاعتقاد أنهم أتوا بشجرة برتقال من البرتغال وشجرتي ليمون من إيطاليا.

يقص البرتقال المعروف عندما يكون صغيراً إلى نصفين ويجفف في الهواء ثم ينقع

في الزيت مدة أربعين يوماً وتستعمل خلاصته النساء المسنات في صباغ الشعر الشائب باللون الأسود.

نقل البانيان من الهند بعض أشجار الفاكهة التي استوطنت اليوم في الجزيرة العربية: كأشجار الموز والمانجا والعنب الهندي، ونوع يسمى Cippus.

رغم أن العرب يزرعون النخل، تبدو بعض أشجاره وخاصة شجرة جوز الهند قد أتت من الهند.

ويبدو أن التين الهندي من أصول غريبة رغم أنه موجود بكثرة اليوم في الجزيرة العربية وهو من أنواع أشجار التين.

ونحن نعرف الكثير عن الخصائص المميزة لهذه الشجرة، فهي تمتد على مساحة كبيرة بفضل خيوط تخرج من أغصانها وتمتد داخل التربة ليصبح لها جذور وتشكل جذوعاً جديدة، رأى السيد فورسكال في الجزيرة العربية عشرات الأنواع من أشجار التين كان موطنها الأصلي الجزيرة العربية. التي لم يأت على ذكرها السيد لينوس. نادراً ما تؤكل ثمارها فطعمها ليس لذيذاً. ويستخدم لحاء نوع منها لدباغة الجلود، وبسبب قساوة أوراق نوع آخر فهي تستخدم في تلميع المعادن وإزالة الصدأ. أما باقي الأشجار فليس لها فائدة إلا في زيادة عدد أشجار الغابات. وشجر التمر الهندي الذي ينمو في الجزيرة العربية كما في الهند فإنه يقرن المفيد بالمستحب. فيعطي لباً له طعم نبيذي يصنع منه شراب صحي ومنعش، كما أن أشجاره الوارفة الجميلة تزين البيوت وتظللها من حر الشمس. كما ويحب الناس وقاية منازلهم ووضعها تحت أشجار التين الهندي. وتبدو الجزيرة العربية غنية بالأشجار التي كانت هذه الأرض موطنها الأصلي والتي تجاوز عددها نسبياً النباتات العشبية الخاصة بهذه الأرض. وتنتقل الأشجار الكبيرة بصعوبة، أما الأشجار التي تعيش في الغابات داخل البلاد فتبدو أكثر طرافة وغرابة مما تبقى من النباتات، لذا فلا عجب إزاء جهلنا بعالم الأشجار في الجزيرة العربية حتى الآن. وأكثر من نصف الأنواع الجديدة التي وصفها السيد فورسكال، يتضمن أشجاراً فقط.

لقد رأى صديقي ثماني عشرة شجرة لكنه لم يتمكن من تحديد نوعها، دون حساب عدد الشجر الكبار الذي لم يعرف إلا أسماءها العربية.

والقات أحد الأنواع الجديدة الخاصة بالجزيرة العربية، وتصبح هذه الشجرة أكمل وأجمل عند الاهتمام بها، وهي تزرع عادة بين أشجار البن في الجبال. وقد اعتاد بعض العرب على مضغ براعم هذه الشجرة بشكل دائم وهم متمسكون بهذه العادة كالهنود الذين يمضغون أوراق التنبول. وينسبون للقات خاصية في المساعدة على الهضم ومقاومة الأمراض المعدية .لكن طعمه التافه لم يوح بأي فوائد. اضطراب النوم والأرق هو أثر القات الوحيد الذي لحظناه.

تشتهر شجرتان هما: elcaya et keura بعطرهما وهما غير معروفتين وتشكلان نوعين جديدين.تعيش elcaya بوفرة في الجبال في اليمن وتعطر النسوة رؤوسهن بثمارها التي يضعنها في ماء الاستحمام. أما الكادي keura فتشبه شجرة النخل شيئاً ما وتحمل سنابل زهر رائحتها قوية وطيبة، وتباع الزهور بأسعار مرتفعة وذلك بسبب ندرة شجرتها، فلكي تعطر جو المنزل لمدة طويلة مثلاً يكفيك أن تضع في مكان بارد إحدى سنابلها المليئة بالزهر العطري.

يأكل الأطفال فاكهة بلا طعم تحملها شجرة كبيرة تسمى العنكبة، وشجيرة صغيرة هامة تسمى مروى، كلاهما من نوعين جديدين وصفهما السيد فورسكال، وكذلك الشجرة الكبيرة والعنتورة وهي أقصر من الأولى. ولا تتميز هاتان الشجرتان إلا بأخشابهما، وقد جهل علماء النبات أيضاً شجرة كبيرة هي شجرة (الخِصَّال) في تعز و(الطَّولق) في بلاد إب culhamia ، ولا تتميز إلا بضخامة حجمها.

Cadaba et masa شجيرتان ليس لهما أية ميزة ولا تستحقان الاهتمام طالما أنَّ السيد فورسكال نفسه لم يعط أية إيضاحات حولهما.

والجزيرة العربية هي الموطن الأصلي لبعض الشجيرات التي يستخدمها السكان فهم يأكلون ثمار نوع جديد يسمى sodada، ويستخرجون من أعناب شجيرة أخرى

جديدة تسمى cebatha كحولاً قوياً جداً ويعدلون طعمه اللاذع بمزجه مع السكر وفي معرض حديثي عن النباتات تحدثت عن نوع كاذب من Phaseole. يصبح شجيرة كثيفة صُنع منها في وقت قصير سياج لا يمكن اختراقه.

Cynanchum يشبه هذا النوع الجديد من الشجيرات الدفلي، ويعرف العرب خشبه مارش ويستخدمونها لإشعال النار فلها نعومة وخفة الصوفان

ومنذ أقدم العصور اشتهرت في الجزيرة العربية شجرة يؤخذ منها بخور مكة وقد وجدنا واحدة منها في السهول فقام السيد فورسكال بأول وصف في ظلالها، وقد أطلق عليها في الوقت نفسه وكأنها أحد الأنواع الجديدة اسم amyris وهو الاسم الذي تبناه علماء النبات الآخرون. شكلها قبيح، والمدهش في الأمر أن سكان اليمن يجهلون فوائدها رغم أنها تنمو في أرضهم، ولا يستفيدون منها إلا بحرق خشبها من أجل عطره. ويصدَّر خشب نوع من أنواعها ويسمى قصل إلى مصر ويستخدم فيها لشوي أوان صغيرة فتكتسب بذلك رائحة طيبة وتعطر بدورها المشروبات التي توضع فيها.

ومن المفروض أن يكون العرب في داخل منطقة الحجاز على دراية ومعرفة أكبر، لأنهم يجمعون هذا البخور ويحملونه إلى مكة ليوزع منها إلى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية حيث يولى أهمية خاصة. ويصعب على مكة في هذه الحال أن تجد بخوراً خالصاً لا غش فيه، فأمريكا تنتج أيضاً بعض الأشجار من أنواع amyris لذا فإن قيمة بخور مكة يمكن أن تنقص مع الوقت.

ولم يكن بإمكاننا أبداً اكتشاف مكان سيلان البخور، كما لم يتطرق السيد فورسكال إلى هذا الأمر. أعرف أننا نجد بخوراً في جزء من بلاد حضرموت ويسمى اللبان لا يستخدم العرب البخور الذي ينتجونه بل المستورد من الهند، ومن المرجح أن يكون بخور الجزيرة العربية قد حمل هذا الاسم عند القدماء لأن العرب تاجروا به واستوردوه من الهند عن طريق المرافئ في سوريا ومصر.

السنا (السنامكي) شجيرة تبدو وكأنها تفضل العيش في الصعيد المصري والجزء

المقابل له من الجزيرة العربية في الساحل الآخر للبحر الأحمر، هناك عدة أنواع من السنا ، لذا يبدو أن النوع المصدر إلى أوروبا ليس نتاج شجيرة واحدة فأشكال أوراقها المختلفة تدل على ذلك دلالة كافية.وما نسميه سنا الإسكندرية ينمو بوفرة في أراضي أبو عريش، ويبيعه العرب إلى مكة وجدة مروراً بالسويس والقاهرة وصولاً إلى الإسكندرية.ويستخدم السنا بكثرة في الجزيرة العربية كما تستخدم أنواع كثيرة منه في علاج الأمراض. فخليط السنا الأسود مع قليل من الراوند يشكل دواءً ناجعاً يستخدمه الأطباء العرب لعلاج الكوليرا ومختلف أنواع الاسهالات الخطيرة في البلاد الحارة.

سبق لي وتحدثت عن شجيرة البن، هذه المادة التي تشكل مصدراً مربحاً جداً في الصادرات عند العرب، ترى هذه الشجيرة في أوروبا في البيوت البلاستيكية حالياً وهي أشهر من أن نعرف بها. يقول العرب إن موطنها الأصلي الحبشة، ويؤكد الكثير من الرحالة أنهم رأوا البن ينبت بوفرة في تلك المنطقة وكان لثمرتها نفس جودة البن اليمني، ويؤكد صحة هذا الاحتمال رداءة البن اليمني البري الذي لا يمكن تناوله، ومهما يكن من هذا الأمر فمن المؤكد وفي أضعف الإيمان أن هذه الشجيرة لا تتألق إلا في الجبال وفي المناطق الباردة التي لا تنقصها الرطوبة.ولهذا السبب يزرع سكان المناطق الجبلية أشجاراً بين شجيرات البن لتظللها وتسقى أيام الحر والقيظ. وهكذا يبدو أن الأوروبيين قد أخطؤوا عندما ظنوا أن عليهم وضع البن في البلاد الحارة في أرض جافة وتحت سماء حارقة. ويمكن لنا التخمين أن سبب هذا الخطأ نتج عنه النوعية السيئة للقهوة المستوردة من أمريكا. وقد سميت خلال رحلتي في المناطق اليمنية التي ينمو فيها أجود أنواع البن، كما وعالجت أيضاً التجارة الواسعة التي يقوم بها العرب.

ولا يربح العرب من القطن بقدر أرباحهم من البن، عندهم نوعان من القطن أحدهما يصبح شجيرة أما الآخر فله زهور حمراء. وفي كل أنحاء الجزيرة العربية يُلبس القماش القطني المستورد من الهند.

تنتج الجزيرة العربية كمصر الحناء المشهورة التي ترطب أوراقها ويصنع منها عجينة هي أكثر المواد التجميلية شهرة في الشرق بأسره. وتصبغ النساء الشرقيات

أيديهن وأرجلهن أو أظافرهن فقط بهذا المستحضر بلون أحمر غامق يتدرج إلى الإصفرار حسب طريقة وضع الحناء. وتعتقد النسوة أن هذا اللون يزيد من سحرهن وجمالهن. فبشرتهن مؤلفة من الأسود والأصفر وتتمكن الحناء في الواقع وبسبب التباين والتضاد من كسر حدة مزيج هذين اللونين. وتشبه هذه الشجيرة إلى حد بعيد نبات الرباط من حيث الخصائص والشكل.

يوجد في الجزيرة العربية عدة أنواع من أشجار المستحية التي هي من صنف الميموزا ، وهي تساهم شجرة كانت أم شجيرة في التزيين كما أن لها فوائد عدة.

وتخفض إحدى هذه الأشجار أغصانها إن مرّ بها أحد ما وكأنها تلقي التحية على من يبغي الاستظلال بها. ميزة الضيافة هذه تفرض احترام العرب تجاهها. فيمنع قطعها و تخريبها.

وينتج نوع آخر من الميموزا أزهاراً حمراء رائعة تتوج فلاحي أبو عريش أيام الأعياد. وتضاهيها في الجمال الميموزا lebbek mimosa التي شكلت مدقات أزهاره طرة رائعة كالحرير.

وتحفظ أوراق نوع ثالث onrfata mimosa بطعم حليب النوق ومذاقه وتمنعه من التحميض والتخليل لبضعة أيام. أما دخان أخشابه فتطرد الدودة التي تعيش في عنق الإنسان وتسبب له نوبات صرع..ويعرف هذا النوع في آسيا وأفريقيا وأمريكا التي هي في الواقع موطن المستحية.

وجد السيد فورسكال في بيت الفقيه بعض الأشجار الجميلة التي كانت تزين إحدى الساحات، لكننا نجهل اسمها وموطنها الأصلي، ويظن أن البانيان قد حملوها معهم من الهند. وليس لهذه الأشجار أية صفات مشتركة مع نوع معروف، لذا فقد شكلتا نوعين جديدين هما hyperanthera et binectarium. وهما شجرتان كبيرتان جميلتا القامة وتحملان بوفرة أزهارا جميلة.

يمكن أن تكون الهند موطن عرق السوس إلا أنه معروف ومستوطن حالياً

في الجزيرة العربية، والحال نفسه أيضاً بالنسبة لشجرة tomex الكبيرة التي نجهل خواصها. ويزعمون أن السوس من أفضل أنواع الترياق لذا فهم يقدرونه كثيراً، وهناك نوع من عرق السوس وهي شجيرة شائعة في الهند والجزيرة العربية.

بالرغم من أن الجزيرة العربية تنتج القليل من النباتات السامة، إلا أننا نجد شجيرة خطيرة جداً من نوع جديد أطلق عليها السيد فورسكال اسم adenia ، سم قوي وعنيف يؤدي إلى تضخم الجسم وانتفاخه انتفاخاً كبيراً إذا تناول أحدهم شراباً وضعت فيه زهورها المجففة والمسحوقة، ويشكل الكبر العلاج الناجع والأكيد لإنقاذ المصابين بالتسمم. وهو شائع في الجزيرة العربية، على نحو يوجد السم إلى جانب الترياق دوماً.

ويصف السيد فورسكال في تقريره أكثر من ١٨ شجرة موطنها الجزيرة العربية، عاينها بنفسه لكنه لم يحدد نوعها، أخبروه بالأسماء العربية لمعظمها وبخصائص عدد صغير منها. تعيش في اليمن شجرتان تشبه الأولى شجرة الليمون والثانية شجرة التفاح، ويجهل السكان اسم الاثنتين وفوائدهما. وهناك شجرة نمام يظنها الناس غالباً من أشجار la casse و تعيش في جبال البن.

تشيع بكثرة شجرتان حليبيتان هما Auas، Baka عصارتهما الكاوية تشكل سماً حقيقياً.

تحمل شجرة الغريب الباكي ثمرة لها شكل ورائحة الليمون.

تعيش شجرة gharibe elbake في جبال أبو عريش وتعطي عصارة طيبة المذاق تحبها الطيور كثيراً.

سغلف شجرة أخرى تعيش في جبال أبو عريش، تعتبر العصارة المستخلصة من أوراقها دواء مفيداً جداً لمعالجة ضعف النظر.

سم السموم، ثمرة شجرة مجهولة في اليمن وينقل كمية كبيرة منها إلى المرافئ على سواحل البحر الأحمر وتستخدم في الصيد فهي تستهوي الأسماك التي تأكل منها فتبقى وكأنها في سكر على صفحة الماء. وتبدو هذه الثمرة وكأنها من أنواع الجوز السام الذي يعيش أيضاً على سواحل الهند الغربية.

أهملنا البحث عن معلومات في الجزيرة العربية بما يتعلق بإنتاج المن، ولم يكن ما أخبرنا به أحد الرهبان دير بالقرب من السويس إلا حكاية رهبانية لا تستحق الرواية.

أما في بلاد ما بين النهرين فيهزون أغصان الشجرة التي تعطي المن نعم إنها شجرة السنديان بكل تأكيد وبلا أدنى شك وذلك استناداً إلى كل التقارير التي كتبها أشخاص جديرون بالثقة. ثمرتها بيضاء ومذاقها سكري، لكنهم قدموا لي في البصرة عينة من المن الذي يقطف من بلاد فارس من شجيرة شائكة، حباتها كروية لكنها مائلة للأصفرار.

ومن المحتمل أن نجد هذا النوع من المن في البتراء بما أنها مليئة بالشجيرات الشائكة، رغم أن محصوله لن يكون وفيراً في هذه المناطق الصحراوية.

يستخدم هذان النوعان من المن كبديل عن السكر وفي كثير من المأكولات وخاصة الحلوى. والمن مغذ جداً ولا يحتاج للتنظيف إذا كان طازجاً.

لا يعيش الأرز في الجزيرة العربية، ويبدو أنه شجرة خاصة بجبل لبنان.

لا يملك العرب الكثير من الأخشاب من أجل البناء، فمعظم الأخشاب طرية ولها طبيعة خفيفة وغير قاسية.

وصف السيد فورسكال seceura وهي شجرة جديدة تنمو على سواحل البحر خشبها لين ولا يمكن استخدامه لأي غرض من الأغراض.

الفصل التاسع
المعادن في الجزيرة العربية

في وصفي لرحلتي إلى الجزيرة العربية ووصف أراضيها أعطيت بعض الملحوظات حول طبيعة الأحجار التي تتألف منها الجبال. كما وتحدثت عن كتل البازلت التي توجد بالقرب من ذات الأشكال الخماسية التي تنفصل شيئاً فشيئاً عن الكتل وتقع في الوديان.

إلى جانب الحجارة الكلسية القابلة للتبلور والرملية، رأينا أيضاً معدنًا متبلورًا حديديًا مختلطًا مع سلفات الكالسيوم البني أو الأبيض يكاد يكون شفافاً.ووجدنا بالقرب من اللحية الجبس الضارب إلى الزُرقه، وحجرًا رماديًا وحجارة مدورة من المرقشيتا (مركب من كبريت الحديد الطبيعي)، على شكل طبقات من الصلصال تعطي حجارة لتنحت وتستعمل في بعض الأبنية في هذه المدينة.

ويوجد في الجزيرة العربية صخور قيمة جداً، وينتشر العقيق في اليمن وقد رأينا كمية منه قرب الطريق من تعز إلى جبل سمارة. في أحد الجبال بالقرب من مدينة ذمار يوجد حجر اسمه الآك الجماني، ويحظى بقيمة كبيرة عند العرب، لونه أحمر غامق أو بالأحرى بني فاتح، ويبدو كأنه أحد أنواع العقيق الأحمر. يرصع العرب به الخواتم والأساور وينسبون له خاصة وقف النزيف عندما يوضع على الجرح. والأحجار التي نجدها في المخا هي العقيق الهندي والمستورد من سورات إلى الجزيرة العربية ومن أوروبا. نجد غابات حجارة تشبه تماماً الآك الجماني.

لم أتمكن أبداً من معرفة ما يتعلق فعلاً بالأحجار الكريمة والتي كان من المنتظر أن تنتجها الجزيرة العربية، ويرجح ألا يكون الزمرد هو الحجر الكريم الوحيد المنتج فيما مضى. وجبال الزمرد تقع في مصر في الجهة المقابلة من البحر الأحمر وتشكل جزءاً من سلسلة الجبال الكبيرة التي يسود فيها الجرانيت.

ورأينا جبلين مؤلفين بالكامل من الملح الصخري الأول بالقرب من اللحية والآخر في

نواحي الحديدة. ويغطي كومة الملح هذه قشرة من الحجارة الكلسية والرمل مرصوصة ككتل ضخمة شفافة. هجر العرب اليوم مناجم الملح بعد أن استثمروها قديماً لأن أروقتها انهارت. إلا أنهم قالوا لنا إن مراكب غريبة تأتي أحياناً وتأخذ أحمالاً من الملح من التل الواقع قرب جزيرة كمران بجوار الحديدة.

لا تبدو الجزيرة العربية غنية بالمعادن. في حين أكد المؤرخون اليونان واللاتين تأكيداً مغلوطاً أنها تفتقر للحديد. فنحن نرى حبات هذا المعدن في الرمال التي تحملها الأمطار، كما أننا نجد بشكل عادي ومألوف حجارة مغناطيسية في منطقة القسمة، وهناك مناجم حديد مستثمرة في صعدة. إلا أنني أقر أن الحديد في اليمن حريف متكسر ويستحيل معالجة هذه المعضلة. وتأتي ندرة الغابات لتزيد من غلاء هذا المعدن أكثر من المستورد من البلاد الأخرى البعيدة. ولهذا السبب يشكل الحديد مادة تجارية هامة تدر أرباحاً كبيرة على الغرباء الذين يبيعونه في مرافئ البحر الأحمر.

وفي عُمان هناك الكثير من مناجم الرصاص الثرية، ويستطيع السكان تصدير كميات كبيرة من هذا المعدن بسبب سهولة تذويبه، ويُصدّر من مرفأ مسقط.

كرّم القدماء جزءاً من الجزيرة العربية وأطلقوا عليها اسم العربية السعيدة، لذا كان عليهم نسب كل الخصائص والحسنات الممكنة له. وأشاد المؤرخون اليونان واللاتين بكميات الذهب الكبيرة التي يمكن أن تنتجها هذه المنطقة. كان من الممكن في تلك الأزمنة السحيقة، عندما كان العرب من كبار التجار في الهند نُقل الكثير من هذا المعدن الثمين إلى أوروبا عبر الجزيرة العربية لذا يبدو أنه قد أتى من المناجم الهندية. أما اليوم فلا تملك الجزيرة العربية ولو منجمًا واحدًا للذهب، ولا تنقل السيول فيها ولو شيئاً بسيطاً منه كما أن الرمال لا تظهر أي أثر له. وقد أراد أحد العلماء في اللحية إقناعنا أنه الوحيد الذي يعرف بعض المناجم، ولم يكن ذلك الرجل إلا مدع كاذب لا يستحق أن نأخذ بكلامه أو نصدقه.

أما الذهب الموجود اليوم في الجزيرة العربية فهو مستورد من الحبشة أو من أوروبا

كثمن للبن أو للبضائع الهندية التي تمر من جدة أو من المخا. منذ بعض الوقت اضطر إمام صنعاء إلى تذويب قطع نقدية أجنبية عندما أراد صك عملة ذهبية له.

واقتصر الذهب المستورد من أوروبا إلى الجزيرة العربية على سك البندقية (نقد إيطالي قديم)، ولهذا السبب فقد استفسر بعض العرب فيما إذا كان سكان البندقية هم الأوروبيون الوحيدون الذين يملكون مناجم للذهب، بينما ذهب بعضهم للاعتقاد أن بحوزتهم سر حجر الفلاسفة.

وعززت هذه المعتقدات الشعبية والتصورات الخاطئة إصرار العرب وتمسكهم بالخرافة القديمة حول تحويل التراب إلى ذهب. وإن وقع كتاب غامض عن مزاعم من هذا النوع بين يدي عربي ما، بادر حالاً إلى الهمس وبث الخبر بقدر ما تسمح له الظروف في بلاده. وقد قصصت في تقريري حول رحلتي حكاية عالمين من بيت الفقيه أفقر حالهما البحث عن سر التحويل إلى ذهب. تعم هذه الرغبة في الجزيرة العربية، ويعتقد معظم اللاهثين وراء هذا السر أنهم سيتمكنون منه لو اكتشفوا النبات الذي يصبغ الأسنان باللون الذهبي ويجعل لحم الماعز التي تأكل منه أصفرًا. حتى أن زيت هذا النبات ذهبي أيضاً، وتسمى النبتة حشيشة الذهب، وقد أكدوا لي أنها موجودة بكثرة في وديان جبل لبنان وفي أعالي جبال اليمن.

القسم الثلاثون
الرحلة من المخا إلى بومباي

مغادرة المخا

لم نتمكن من مغادرة المخا قبل الثالث والعشرين من شهر أغسطس (آب) عام ١٧٦٣م، فقد احتجز طويلاً في المخا مركب السيد سكوت (Scott) الذي أردنا السفر معه إلى بومباي. بالرغم من المرض الشديد الذي أصاب السيد كرامر والسيد بورانسند (Baurenseind) إلا أنهما قررا الإبحار. أما أنا فقد تماثلت للشفاء مما سمح لي بالمجازفة والسفر إلى الهند دون أي مانع.

يمكن أن يصل عرضه إلى عشرة أميال ألمانية، أعني مضيق باب المندب حيث ينضم البحر الأحمر إلى المحيط الذي وصلنا إليه بعد يومين من إقلاعنا. تنتشر فيه الكثير من الجزر الصغيرة وتسمى أقربها إلى أفريقيا جزيرة بيريم (Périm) وتؤلف مع اليابسة قناة تمر منها عادة المراكب بالرغم من التيار السريع الذي يسيطر عليها وعلى البحر بين الجزيرة العربية والجزر الهندية، وهو يدفع البحارة نحو الشرق بقوة هائلة مما يجعل تقدير طريق المراكب ومسلكها مستحيلاً.كما وتعرضنا لرياح شمالية باردة أجبرتنا على ارتداء ملابس لاتقاء البرد.

خلال هذه الرحلة بدأت صحة السيد كرامر تتحسن يوماً بعد يوم، بينما ازدادت حال السيد بورانسند سوءاً ودخل في غيبوبة شديدة وتوفي في التاسع والعشرين من شهر أغسطس (آب) تكفي رسوم هذا الفنان التي نشرت بعضاً منها لتكون تكريماً لذكراه.

وغداة وفاة السيد بورانسند توفي أيضاً خادمنا واسمه بيرغرين (Bergreen) وهو سويدي الجنسية وقد قام ببعض الحملات بما أنه كان في خدمة الكولونيل دو هوسارد (de Houssards) .سخر خادمنا كالرجل القوي البنية القادر على تحمل المتاعب في بداية الأمر من مشاق السفر إلى الجزيرة العربية لكنه استسلم للمرض فيها كما مرض السيد كرامر في بومباي كما سبق لي وذكرت.

يذكرني مصير رفاقي الأليم في هذه الرحلة بمصير عالمين من الرحالة إلى الشرق

يستحقان التعريف بهما وهما السيد دوناتي (Donati) الذي ترأس مجموعة علماء إيطاليين كان قد أرسلهم إلى آسيا ملك سردينيا، فما إن وصلت المجموعة إلى مصر حتى دب الخصام بين أفرادها فقفل أصحاب السيد دوناتي عائدين إلى إيطاليا بينما تابع هو وحده الرحلة برفقة مترجم من القاهرة وخادم إيطالي. وانطلق من دمشق إلى البصرة أملاً في إيجاد فرصة للسفر إلى الهند، وعندما أعياه التعب ونفد صبره من انتظار مركب أوروبي، أبحر مع أربعة من الرهبان الكرمليين على متن سفينة صغيرة رديئة الصنع مشرعة للرياح كانت ستنقله إلى منجلور على سواحل الملابار. لكنه لم يحتمل عناء السفر وتوفي في السفينة قبل وصوله إلى الهند بثلاثة أيام. وأعطى قبل وفاته لخدمه كل ما يملك من المال كي يعيدوه إلى بلاده لكن الخادم الإيطالي فقد المال في لعب الميسر وأعلن إسلامه في مسقط بعد أن نال منه الإحباط واليأس.

كان السيد دوناتي جديراً بالقيام برحلة مثمرة كتلك التي قام بها، فقد كان واسع الاطلاع وعلى درجة عالية من النشاط والمثابرة الضرورية. كان يتمتع بشجاعة نادرة رصينة ضرورية للتغلب على المخاطر والصعاب، وقد قدم براهين مدهشة على رباطة جأشه عندما هاجمه بعض الأعراب في مصر لكنهم اضطروا لاحترام شجاعته في نهاية المطاف.

اتخذ هذا العالم كل الاحتياطات اللازمة كي تصل إلى البلاط الملكي كل أوراقه ومجموعة الفرائد التي جمعها في مصر وسوريا لكنها لم تجد نفعاً. فقد عهد بكل أمتعته إلى الرهبان الكرمليين ورجاهم قبل وفاته أن يسلموها لحاكم غوا الذي كان سيعنى بإيصالها إلى بلاط تورينو. أحد هؤلاء الكرمليين الذي التقيته في الهند أكد لي أنه قام بالمهمة الموكلة إليه بكل إخلاص وأنه أودع بين يدي الحاكم البرتغالي كل حاجيات السيد دوناتي.

حتى عام ١٧٧٢م لم يعرف أحد شيئاً عن تلك الأغراض وأجهل منذ ذلك الحين فيما لو وصل شيء منها إلى إيطاليا. وصل هؤلاء الرهبان الكرمليون سواحل ملابار في عام ١٧٦٣م.

أما العالم الثاني البائس الذي أريد التحدث عنه فهو طبيب فرنسي يدعى سيمون، وهو مبدع في التاريخ الطبيعي وعلم الفلك. وصل قبلنا بزمن طويل إلى سوريا واستقبله الفرنسيون استقبالاً رائعاً في حلب، لكنه لم يجد متسعاً من الوقت بين الأوروبيين للقيام ببحوثه، فسافر إلى ديار بكر أملاً في إيجاد الوقت للقيام بأعماله في جو أكثر هدوءاً وسكينة وبدون إزعاج. أقام في هذه المدينة عند الكبوشيين وهم الأوروبيون الوحيدون المقيمون فيها، لكنه استاء من إزعاجاتهم ومنغصاتهم الرهبانية، وقرر في لحظة من القنوط واليأس أن يصبح مسلماً. وقد أقام الأتراك في البداية وزناً لطبيب مسيحي، لكنهم سرعان ما أهملوه عندما أصبح مسلماً وكأنه فقد مهارته بتغييره لدينه فكره الإقامة في ديار بكر وغادرها إلى بغداد فعاش فيها يبيع العقاقير ويزاول الطب نوعًا ما. إلا أنه احتفظ بميله ومحبته للعلوم الطبيعية فكان يجمع الأعشاب في ضواحي بغداد بنشاط ومثابرة، دعاه خان فارسي في الجوار لكن الطبيب لم يلب الدعوة، فاختطفوه في إحدى طلعاته وضربوه بالعصي وأجبروه على مداواة الخان، لكن السيد سيمون لم يتمكن من شفائه من مرض عضال فضرب من جديد وأودع السجن، وعلم وريث الخان الراحل وكان مريضاً أيضاً بوجود طبيب أوروبي في أحد سجونه فأطلق سراحه كي يعالجه ويعيد إليه صحته، وحالف الحظ طبيبنا ونجح في شفائه، ولم يكن حسن الطالع هذا إلا مصدر إزعاج لهذا العالم البائس، حيث رفض الملك السماح له بالعودة إلى بغداد وأجبره بالتالي على مرافقته في كل حملاته، خلال الحرب الأهلية الأخيرة في بلاد فارس. وفي آخر حملة فاجأ العدو الخان ولقي السيد سيمون حتفه مع الخان وكل حاشيته.

اعتبرت قديماً الطريق بين الجزيرة العربية والهند في منتهى الخطورة. فالتيار السريع كان يحمل معه المراكب فيصعب عليها تقدير المسافة، والتعرف على الموانئ عند هبوط الضباب في الفصول الماطرة، وهلك الكثيرون في سواحل ملابار المنخفضة. وكفت هذه المصائب عندما نشرت دراسة اعتقد الناس أنها حديثة مع أن (أريان) (Arrien) قد تحدث عنها مسبقاً وكأنها أمر يعلمه الأقدمون. يرى في المحيط الهندي

وعلى مسافة ما من اليابسة كمية كبيرة من ثعابين الماء الصغيرة التي يتراوح طولها بين ١٢ إلى ١٨ بوصة، وهي ترتفع فوق سطح الماء. عندما نرى الثعابين الصغيرة نعلم حالاً أننا على بعد درجتين من الشط.

رأينا للمرة الأولى الثعابين في مساء التاسع من سبتمبر (أيلول). وأرست مراكبنا في الواقع في الحادي عشر منه في ميناء بومباي ودخلنا في اليوم التالي إلى المدينة.

القسم الواحد والثلاثون
الرحلة إلى سورات (غوجارات حالياً)

الفصل الأول

ظروف الرحلة والانطلاق من بومباي

سيذكر القارئ أني وصلت أنا والسيد كرامر في حالة صحية رديئة جداً إلى بومباي في سبتمبر (أيلول) من عام ١٧٦٣م. كان مخططنا أن نصل إلى أوروبا عن طريق تركيا وأن نبحر على متن مركب للشركة كان من المفترض أن يقلع متجهاً إلى البصرة في بداية العام التالي، لكن وضعنا الصحي لم يسمح لنا بالاستفادة من هذه الفرصة، وتوفي السيد كرامر بعد أن أثقله المرض وتواترت عليه الأوجاع في بومباي في العاشر من فبراير (شباط) ١٧٦٤م بالرغم من العناية التي أحاطه بها طبيب إنجليزي حاذق.

وكان علي بما أنني بقيت وحيداً من جملة المسافرين الاهتمام بنفسي وبكل الوسائل التي ستصل عبرها أوراقنا إلى أوروبا، فقد رأيت أنها ستؤول للضياع إن لقيت حتفي في الطريق. وتوقعت في طريقي عبر تركيا أن أتعرض لتعب شديد كالتعب الذي قاسيته في الجزيرة العربية، ولن تستطيع بالتالي صحتي العليلة وجسدي الضعيف مقاومته. لذا فقد عزمت على الذهاب مباشرة إلى لندن على متن أول مركب عائد إلى أوروبا، وبانتظار رحيلي وددت أن أشبع رغبتي برؤية سورات وأبحرت إليها على متن مركب إنجليزي سيقوم بجولة إلى هذا الميناء.

أبحرنا من بومباي في ٢٤ من مارس (آذار) عام ١٧٦٤م واضطررنا للتوقف في ماهيم وهي مدينة صغيرة في شمالي الجزيرة. يقيم فيها دائماً أحد أعضاء مجلس بومباي.

وحدث أمر في ذلك الوقت من شأنه الدلالة على الروح الحربية والمهارة لدى البرتغاليين الفخورين بفتوحاتهم الماضية، فقد اعتبروا الهنود جميعاً من العصاة واستخفوا بالعمل على إقامة السلام مع أي من الشعوب الهندية التي كانت في عداء مع الجوار وبالتالي لا يجرؤون على الإبحار دون حرس. فقد ذهبت سفينة صغيرة من غوا إلى ديو غوا تحت حماية اثنين من الحراقات شوهدنا في المياه الإقليمية لبومباي. وسمعنا في الليل إطلاق كثيف من مدفعية واعتقدنا أن البرتغاليين قد اشتبكوا مع المارات،

لنكتشف في الصباح أن ملحمتهم اقتصرت على مجزرة مع كمية من قصب الخيزران التي يصل ارتفاعها إلى ٣٠ أو ٤٠ قدماً، يتركها الصيادون على رمال مياههم من أجل سهولة الصيد. وقد ظن هؤلاء البرتغاليون الشجعان الخيزران صواري سفينة معادية وقد أجبر حاكم بومباي أميراً لهم على دفع كل الأضرار التي سببتها المدفعية لأولئك الصيادين. وصلنا في ٢٦ من مارس (آذار) إلى مرسى سورات الذي يبعد عن المدينة مسافة ثلاثة أميال ألمانية. ونزلنا في دوموسوهي، قرية يميزها وجود منزل بعض الضباط وشجرة صبار الهند عملاقة يقدسها الهنود كثيراً.

تحدثت عن هذه الشجرة (Ficus vasta، Linn) في التاريخ الطبيعي للجزيرة العربية. وعلاوة على الوصف الذي سبق وقدمته عنها أضيف هنا أن هذه الشجرة تعمر طويلاً لأن سوقها الجديدة تتألف من خيوط أغصان الساق الأول، وتغذي تاج الشجرة، بينما تفسد الساق الرئيسة. واستأجرنا في دوموس عربة عادية في البلاد وهي كاكري وهي عربة فلاح بسيطة مغطاة يجرها ثوران. ويجلس الفلاح على دفتها ليقودها. وقد تأكدت من الجفاف الذي يسود البلاد أثناء تلك الرحلة في العربة فقد كانت تحيط بنا زوابع من الغبار والأتربة التي أثارتها عربتنا البسيطة، في حين أنني لم أعانِ من تلك الكمية الهائلة من الغبار في قوافل تألفت من مئات الإبل والخيل والبغال.

الفصل الثاني

مدينة سورات وضواحيها

تقع هذه المدينة في سهل واسع وخصب على ضفة نهر هام يسمى نهر التابي. يحيط بها من جهة اليابسة سور مزدوج يتألف من جدارين ويقسم المدينة إلى قسم داخلي وآخر خارجي. وتوجد القلعة في القسم الداخلي وعلى ضفة النهر، و تفصلها أيضاً خنادق. ويمكن القيام بجولة في مدة تصل إلى ساعتين وربع الساعة حول الجدار الخارجي الذي لا يضم بساتين أبداً وفيه القليل من المنازل.

وللمنازل الكبيرة سطوح وباحة داخلية كما في الشرق كله، في حين أن منازل عامة الناس مرتفعة جداً.

وبالرغم من وجود مدينة سورات تحت سيطرة المغول المسلمين منذ زمن طويل، إلا أننا لا نجد فيها أي مسجد جميل مزين بمآذن كما هي حال مساجد الأتراك والعرب. فساحات المدينة واسعة وشوارعها عريضة لكنها غير مرصوفة أبداً والغبار فيها لا يطاق. ولكل شارع باب يمكن إغلاقه في أوقات الاضطرابات، أمر يتكرر حدوثه هنا كما في القاهرة.

تتوافر في سورات الأغذية والأطعمة بأسعار زهيدة، وهواؤها نقي بالرغم من حرارة الجو، وقد وصلت درجات الحرارة فيها خلال شهر مارس (آذار) إلى ٩٨ درجة على مقياس فهرنهايت بالرغم من الرياح الشمالية السائدة، في حين لم تتجاوز درجة الحرارة ٩٣ درجة على نفس المقياس خلال شهر مايو (أيار) في بومباي وهي مدينة تقع على بعد خطي عرض إلى جنوب سورات.

ولا تصل السفن إلى ميناء سورات مما يلحق بها الكثير من الضرر والخسائر، وذلك لأن نهر التابي يمتلئ بالشعب الرملية وينخفض مستواه انخفاضاً شديداً أثناء الفصول الجافة، بينما تغزر مياهه فجأة في الفصول الماطرة وتفيض على كل المناطق المحيطة به. ولو حبست مياه النهر بسدود متينة لارتفع مجرى الماء غالباً في شهر المطر إلى ٢٨

قدماً فوق المستوى العادي، ولحمل كل الرمال محرراً بذلك المجرى فتصل السفن حتى أسوار المدينة، لكن الحكومات المستبدة الآسيوية تهمل كل ما فيه الخير العام.

يسود في هذه المدينة تسامح عام وحرية مطلقة بما يتعلق بمختلف الديانات والمعتقدات، الأمر الذي يشير إلى عدد سكانها الكبير الذي يصل إلى مليون نسمة مع الأوروبيين المقيمين فيها، لكني استنتجت أن هذا الإحصاء مبالغ فيه حتى أكثر من الثلثين.

وما يميز سورات هو عدم وجود مستشفى في حين أننا نجد مستشفى كبيرًا للعناية بالحيوانات المريضة أو المشوهة. ولو ترك الأوروبيون حصاناً أو أي حيوان آخر لسعى الهنود بكل طيبة خاطر إلى وضعه في المستشفى الذي يعج بالأبقار والخراف والأرانب والدجاج والحمام العاجزة والمريضة الخ.... وقد رأيت فيه سلحفاة ضخمة كفيفة عليلة بلغ عمرها كما أكدوا لي ١٢٥ عامًا. ويدفع المحسنون الهنود أجر الطبيب البيطري كي يعتني بهذه الحيوانات.

ولا تفتقر ضواحي سورات للبساتين التي يتقاسمها الأوروبيون وأبناء البلد، وتملك الشركة الهولندية أجمل البساتين وأشدها سحراً وروعة.

لأكون فكرة عن ماهية الحدائق الهندية قمت بزيارة واحدة منها أنشأها آخر تاج بيك خان ودفع تكاليفها ٥٠٠,٠٠٠ روبية أي نحو مليون ونصف المليون فرنك فرنسي. حديقة مترامية الأطراف وشديدة الاتساع ولا يدل شيء فيها على أي انتظام ولا تحتوي على أي من الأشياء المعروفة في حدائقنا عدا بعض البرك والنوافير، أما ما تبقى فهو كومة من المباني المختلطة وبعض بساتين الفاكهة. وهناك مبنى كبير يحتوي على صالات وحمامات مزينة بالزخارف الهندية التي لا تمت للتزيين الأوروبي بصلة. وتشكل المباني المتبقية حرماً لنساء تاج بيك خان وتنفصل عن بعضها البعض إذ تنعم كل امرأة بحديقتها الخاصة. وفي كل حرم بعض البيوت الكبيرة، في حين يتكون الباقي من غرف صغيرة للخدم. والمدهش في تلك الحديقة هي الممرات بين الغرف على شكل

دهاليز ضيقة وملتوية ومحفوفة بالأبواب، مما ينم عن حذر وريبة كبار المجتمع الذين لم يحالفهم الحظ في بلد مستبد فهم لا ينعمون بالراحة أبداً وعليهم التيقظ والاحتراس المستمر خوفاً من المفاجآت.

وقد تمنيت لو أرسم مخططاً لسورات، لكني سرعان ما اكتشفت أنني لن أحظ بالحرية التي يتمتع بها الأوروبيون في الهند التي تمتعت بها بين العرب والأتراك. فمناخ البلدان الحارة وطبيعة الحكومة في المستعمرات البعيدة عن البلد الأم قد أثرا في الطابع الوطني للشعوب الأوروبية. ولن يتحمل الحاكم الإنجليزي في سورات أن يقطن فرنسي في غرفة مرتفعة مطلة على القلعة. وقد قصوا علي في المخا قصة العربي الذي عانى من ظلمات السجون في باتافيا خلال عدة سنوات لأن الفضول دفعه كي يأخذ قياسات مدفع فيها.

الفصل الثالث

سكان سورات وبعض عاداتهم

مدينة تجارية كبيرة يسكنها عادة سكان من مختلف الشعوب والأمم. فسكان سورات الأصليون من المسلمين ومعظمهم من الأجانب بما أنهم موظفون في الحكومة، ولا يندفع المسلمون فيها ولا يتحمسون لتطبيق الشريعة كالأتراك والعرب بالرغم من أنهم من السنة وهم متسامحون مع الشيعة ويسمحون لهم بالاحتفال بعيد الحسين. ولا يترددون في تناول الخمر علناً ويتعاملون بالربا.

تستخدم كل النخب في سورات كما في كل أرجاء الهند اللغة الفارسية في المحادثة والرسائل إلى أن أصبحت الفارسية لغة البلاط والوسيلة التي تعالج فيها كل القضايا. بينما تستخدم في التجارة اللغة البرتغالية المحرفة وشأنها في الهند شأن الفرنسية في الشرق.

يجر مسلمو سورات إليها الكثير من المتسولين وهم من أكثر شحاذي الكرة الأرضية وقاحة وقد أقلعوا عن الحشمة وخلعوا عنهم جلباب الحياء، فتراهم يجلسون أمام المنازل ولا يبرحون أمكنتهم أبداً إلا إذا أعطاهم صاحب البيت ما طلبوه من مال أو تحالف معهم. وبما أن الشرطة لا تأخذهم أبداً فتقع على عاتق الناس مهمة التخلص من هؤلاء الأوباش المزعجين مهما كان الثمن.

وسنحت لي الفرصة في سورات مشاهدة مسيرة المسلمين في عيد الفطر، يضطر مستشار بومباي المقيم في قلعة سورات الذي يمثل تاج بيك خان إلى افتتاح المسيرة بطلقات من مدفعيته كما يضطر أيضاً إلى حضور الاحتفال. أليست ظاهرة فريدة أن يقوم تاجر إنجليزي يرتدي الزي الأوروبي وترافقه مجموعة من الجنود الإنجليز وعدد كبير من الخدم الهنود بترؤس وتنظيم عيد ديني من أعياد المسلمين. ويقوم المدير الإنجليزي بإظهار ترفعه وتعاليه على الهنود عندما يرفض إطلاق المدفعية عشية الاحتفال بالرغم من تاج بيك خان هذه الحظوة منه، ليعلن في صباح اليوم التالي العيد للناس.

ولا تتميز المسيرة إلا بكثرة العربات والمحامل والخيل وبعض المدافع والكثير من الموسيقى الحربية وجنود تاج بيك خان الذي يعتلي فيلاً جالساً على عرش تسنده أربعة أعمدة. وقد صُبغ الفيل باللون الأحمر كمعظم الخيل والثيران التي تجر تلك العربات

ويكثر استخدام مثل تلك العربة في الهند، وما هي إلا كرسي على دولابين يجرها ثوران وهي في غاية البساطة ويجلس السائق على دفة عريضة مصنوعة من عدة قضبان خيزران. لا يكمن الترف في زينة العربات بل في روعة تكدين ثورين كبيرين تُشترى لهذا الغرض ويبلغ ثمنهما ٦٠٠ روبية أي ١٨٠٠ ليرة فرنسية. وتزين نهاية قرنيهما بأطراف فضية، سرعتهما متوسطة ولا يمكن مقارنتها بسرعة الخيل.

ويحب سكان سورات الإسراف في تزيين محاملهم، وإبراز بهائها وجمالها ونعلم أن المحمل هو نوع من سرير للاسترخاء معلق بقضيب خيزران ويحمله أربعة من الرجال، ويستلقي فيه المسافر ويظلله ستار من أشعة الشمس، ويزين المحمل بالفضة المزخرفة ويزدان بالأقمشة الثمينة ويعلق إلى قضيب خيزران متناسب الأبعاد منحن بشكل كامل، ويصل ثمنه إلى ٥٠٠٠ ليرة فرنسية، وقد وصلت تكاليف خيزران المحمل الذي يملكه حاكم بومباي إلى ٣٠٠٠ ليرة دون حساب الزينة الخاصة به. الرجال الذين يحملونه هم رقيق هنود لا يرتدون إلا قطعة قماش صغيرة تغطي وسطهم، ويضعون قبعات مسطحة على رؤوسهم كزي خاص بالخدم ويتمثل عملهم داخل المنازل في الحفاظ على النظافة، صدم عري هؤلاء الحمالين النساء الأوروبيات في بادئ الأمر اللواتي ما لبثن أن تعودن على ذلك شيئاً فشيئاً ومع مرور الوقت. وما محامل النساء المسلمات إلا عبارة عن صندوق خشبي رديء الصنع مغلق بالكامل ومربوط إلى عمود مستقيم.

سأتحدث بالتفصيل لاحقاً عن الهندوس أو أبناء البلد الأصليين الذين يشكلون أكبر شريحة من المجتمع في سورات. معظمهم تقريباً من طبقة البانيان الذين بفضل براعتهم في الحساب ومهارتهم في الاقتصاد قد وصلوا في أغلب الأحيان إلى مراتب ووظائف عليا في مزارع وجمارك المسلمين. فقد ولدوا تجاراً واستولوا على تجارة الهند

لدرجة اضطرت معها كل الشعوب الأجنبية إلى توظيفهم كسماسرة، وهم يقومون بهذه المهنة على أكمل وجه وأفضل مما يقوم به اليهود في تركيا.ولم يأسف الأوروبيون في يوم من الأيام على أنهم أوكلوا بمالهم وثرواتهم إلى البانيان الذين برهنوا دوماً برهاناً مدهشاً على نزاهتهم واستقامتهم وإخلاصهم في العمل. وصل بعضهم إلى حد بعيد من الثراء لكنهم في منتهى التواضع ولا يلبسون إلا من النسيج القطني الأبيض البسيط.

يوجد في سورات عدد كبير من الفرس، وهم تجار حاذقون وأصحاب حرف مهرة أو حتى من الخدم الممتازين. كما يوجد فيها أيضاً عدد قليل من الأرمن والجورجيين واليهود، ويدعى مسيحيو الهند الكاثوليك وهم أكثر عدداً بطريقة سوقية البرتغاليون لأنهم يتحدثون اللغة البرتغالية المحرفة.

يُحسب اليوم في سورات من المغيب إلى المغيب، وبدلاً من ١٤ ساعة فهم يقسمونه إلى ٦٠ غاري. أما الساعات فلا يعرفونها أبداً. ويقسمون اليوم بطريقة مختلفة إذ يعمل أحد الرجال في مكان مرتفع على وضع إناء نحاسي مثقوب على سطح الماء بشكل دائم ويغوص الإناء كلما امتلأ ماءً فيحسب الرجل ذلك الوقت على أنه غاري واحد ويضرب بمطرقة على طبق معدني عدد الغاريات فترن الضربات كما ترن الأجراس، ويساوي الغاري ٢٤ دقيقة.لا تخلو المنازل الكبيرة من الساعات والساعات الجدارية لكنهم مازالوا يحتفظون بهذه الطريقة القديمة في حساب الزمن.

الفصل الرابع

حكومة سورات وثوراتها

منذ زمن بعيد تعود المنطقة الكبيرة التي عاصمتها سورات إلى إمبراطور المغول الأكبر، وحتى يسيطر سيطرة كاملة على إقليم بعيد، نصب عليها حاكمين مستقلين تماماً عن بعضهما، يقيم الأول في سورات وهو حاكم الإقليم الفعلي، في حين أن الآخر ضابط في القلعة ويحمل لقب أميرال ويتمتع بعائدات كبيرة من أجل العناية بالأسطول الصغير والدفاع عن التجارة ضد قراصنة السواحل.

بعد حملة نذير شاه (Nadir) على إندوستان أو بلاد الهند والسند، سعى حكام الأقاليم البعيدة في هذه الإمبراطورية الواسعة إلى الاستقلال ولم يتركوا للمغول إلا ظلالاً من السلطة، ولم يطلبوا منهم إلا شكلياً تثبيتهم في مناصبهم. وحذا حذوهم حاكم سورات تاج بيك خان وهو رجل غني واسع النفوذ وتوصل إلى إعلان أخيه حاكماً على القلعة. واعتبر الأخوان الإقليم بأسره إرثاً لهما وبلغا من الثراء والغنى حداً بعيداً.

وتوفي تاج بيك خان في عام ١٧٤٦م ولم يخلف من بعده ولداً يرثه، فتقاسم ثروته أفراد أسرته وطمح الكثيرون منهم في تولي حكم المدينة. ثم توفي أخوه في العام التالي فأرادت أرملته وهي سيدة ثرية جداً وطموحة للغاية أن يتولى صهرها المنصبين معاً أي أن يصبح حاكم المدينة والقلعة.

أدت الصدمة من جراء تلك المزاعم المختلفة إلى حرب أهلية في سورات تشبه الحروب التي قام بها البكاوات في القاهرة التي لا يمكن أن نكوّن عنها فكرة في أوروبا، وحشد كل راغب في السلطة جيوشاً بقدر ما تسمح له كفاءته ومكانته. واعتصم مع جنوده وتحصنوا في البيوت والبساتين وعمل على مفاجأة خصومه أو طردهم. لم ينجم عن تلك العمليات الكثير من الضحايا حيث اكتفى أثناءها السكان بإغلاق الأبواب المجاورة لساحة المعركة والذهاب بكل طمأنينة إلى أشغالهم وأعمالهم دون أن يخافوا السلب والنهب، بل كانوا على ثقة بأنهم سيحصلون على تعويض إن ألحقت بهم تلك النزاعات أي ضرر. لذلك فلم تعاني التجارة من أي انقطاع أو توقف.

وبعيداً عن الحرص والحذر طلب بعض الراغبين بالسلطة عون ومساعدة الماراتيين الذين لم يفعلوا شيئاً لأي من المصطفين، بل جعلوا الغالب يدفع لهم دوماً رغم مناصرتهم البادية للمغلوب. ومنذ ذلك الوقت يتمتع الماراتيون بثلث عائدات الجمارك في سورات، ويوجد أحد ضباطهم دائماً لتلقي هذا النوع من الضريبة.

وضع الإنجليز والهولنديون مراكزهم التجارية في حالة دفاع عن النفس دوماً ثم عززوا استعداداتهم العسكرية بسبب تلك الاضطرابات، لذا فقد بحث كبار البلاد عن العون والدعم لدى تجار بمثل هذه القوة والنفوذ، وانحاز كل من البلدين إلى صف واحد من الطامحين للسلطة. وسلمته الذخيرة والعتاد الحربي وجعلته يحاصر في مراكزها التجارية وعاد الطرف الآخر دون حرب معلنة. طرد في النهاية الحاكم الذي حماه الإنجليز لكنه عاد في عام ١٧٥٨م وقامت حماته الأرملة الثرية التي ذكرتها بتوزيع أموالها توزيعاً ملائماً محنكاً مما اضطر حاكم سورات الذي كان قد نصب مكانه للتنازل عن حكومة المدينة.

فكر الإنجليز جدياً بالاستيلاء على القلعة عندما رأوا المدينة بين يدي جماعتهم. وأرسل المجلس في بومباي لهذا الغرض في عام ١٧٥٩م أحد أعضائه وهو السيد سبنسر رجل لامع يحبه الهنود برفقة قوة كبيرة، فتح الحاكم أبواب المدينة أمام الإنجليز وتركهم يحاصرون القلعة التي استولوا عليها خلال أيام قليلة. وأعلن الإنجليز خوفاً من إثارة ذعر الهنود أنهم سيعلنون النصر باسم إمبراطور المغول وسيرفعون راياته على أسوار القلعة. ومع انتهاء الحملة أرسل السيد سبنسر تقريراً إلى البلاط في دلهي شرح فيه أسباب وضع التجار في سورات تحت الحماية الإنجليزية التي أخذت على عاتقها مهمة طرد الحاكم الغاصب من القلعة. وأكد أن هؤلاء المستبدين قد تركوا الأسطول الضروري لحماية التجارة فلم يعنوا به، وأنه لا يمكن لأحد أن يوفر الأمن والسلام إلا الإنجليز، كما وقدم السيد سبنسر عرضاً مفاده أنه في حال أراد المغول إعطاء منصب الأميرال والعائدات التابعة له للشركة الإنجليزية، فإنها ستولي اهتماماً كبيراً للأسطول وستحمي التجارة حماية فعلية. كانت حجج التقرير وأدلته أكيدة وثابتة ودعم

الاقتراحات فيه كبار أهل سورات الذين وقعوا على التقرير. فلم يتجرأ إمبراطور المغول بسبب ضعفه الحالي على إرسال حاكم إلى هذا الإقليم واعتبره مفقوداً، ورد بسهولة على طلب الشركة التي حملت أحد أعضاء مجلس بومباي مسؤولية الحاكم والأميرال في سورات. وبذلك حصلت على ثلث عائدات الجمارك في تلك المدينة، بالإضافة إلى بعض العائدات الأخرى الكبيرة والهامة، الأمر الذي سمح لها بإدارة قطع عسكرية وبعض المراكب الحربية. وبذلك أصبح الإنجليز اليوم هم الحكام الفعليون لسورات. لا يدعون الحاكم فيها يستقل عنهم أبداً ولا يتركون له من الدخل إلا ما يكفيه ليعيش حياة تناسب مركزه.

عبر الهنود عن سعادتهم بهؤلاء السادة الجدد بعض الشيء، فلن يخشى التجار بعد اليوم التعرض لإهانة الحاكم وابتزازه وذله. لكنهم اشتكوا من جهة أخرى من روح المصلحة عند هؤلاء السادة. ولم يعد الهنود يقدمون على الإبحار قبل الحصول على جواز سفر من الأميرال. أما إذا رغب الإنجليز في إرسال بضائع إلى المرفأ فإن المدير يتأخر في تسليم الجوازات حتى لا تتمكن السفن الهندية من الإبحار مع الرياح الموسمية في حين أن الإنجليز يملكون الوقت اللازم الكافي للإعلان عن بيعها. رأيت أمثلة متكررة وعديدة لخسائر فادحة نزلت بتجارة أبناء البلد الأصليين.

الفصل الخامس

التجارة في سورات

تجعل التجارة الواسعة التي تتم في سورات من هذه المدينة مستودعاً لأنفس منتجات إندوستان وأثمنها. فالقوافل الكبيرة الآتية من داخل الإمبراطورية تنقل إليها كميات هائلة من البضائع ليرسلها التجار في سورات على متن سفنهم إلى البحر الأحمر والخليج العربي وسواحل الملابار وسواحل كورمانل وصولاً إلى الصين. كما توجد بكثرة في الأقاليم المجاورة لهذه المدينة مختلف أنواع المصانع والمعامل. ويشكل بناء السفن فرعاً هاماً من فروع التجارة لدى سكانها. وما الهنود في الواقع إلا مقلدين للأوروبيين في مهنة بناء السفن. فالأخشاب متوافرة بأسعار بخسة وكميات كبيرة ونوعية ممتازة وهي أخشاب الدلب، إذ لا تهاجمها الديدان وتدوم طويلاً، حتى أننا نجد في سورات سفناً بلغ عمرها ٩٠ عاماً وفي حالة تمكنها أيضاً من خوض غمار البحر. ومن بين الأمم الأجنبية يملك الهولنديون بعد الإنجليز في سورات أهم منشأة وقد عينوا فيها مديراً وعدداً من التجار والكتبة والخدم وبعض الجنود أيضاً. ولا يسود النظام في شؤونهم في الهند حسب ما يبدو. منذ أن استولى الإنجليز على القلعة، أجبر حاكم المدينة الهولنديين على دفع ٩٠٠٠٠ روبية له وإزالة المدفع الذي زودوا به وكالتهم التجارية.

وتعيش تجارة الفرنسيين في حالة أكثر سوءاً وضعفاً، فمنذ أن خسروا بونديشري أهملوا مديرها الذي يجد بالكاد دخلاً ليعيش حياة بسيطة. ولم يتألق نجم الفرنسيين على يد الآباء الكبوشيين الذين يحبهم ويقدرهم المجتمع في سورات لأنهم قدموا خدمات جليلة له إذ دونوا في سجل دقيق وأمين كل الأحداث التي جرت في إندوستان منذ عام ١٦٧٦م حتى يومنا هذا.

ويشبه حال البرتغاليين حال الفرنسيين اليوم، فأثناء إقامتي هناك كان لديهم مدير يهودي من هامبورغ. ثم قيل لي بعد رحيلي إنهم حسنوا تجارتهم وعينوا مديراً هولندياً ولد في غوا غوا.

تصل في بعض الأحيان إلى سورات سفن ليس لها منشآت دائمة فيها. كتلك السفينة الدانماركية التي أرست زمن حصار القلعة، وقد حماها الإنجليز وأدت لهم بدورها خدمات كبيرة في تلك المناسبة. وقام القبطان المحظي بمهامه على أحسن وجه. ولم يحالف الحظ قبطاناً سويدياً رسا بعده ببضع سنوات بالرغم من أن حاكم المدينة سمح له مقابل ضريبة صغيرة بالتجارة كما يحلو له، فباع ما لديه من الحديد والنحاس بسعر أفضل من أسعار الإنجليز في وقت قصير، كما باع كل بضائعه بأرباح هامة حسب تصوراته، لكنه عندما تأهب للرحيل فرض عليه الحاكم ضريبة مرتفعة جداً وصلت إلى ١٠٠٠٠٠ روبية، وقام باحتجازه حتى يدفع الضريبة، لم يجرؤ السويدي على اللجوء إلى الإنجليز ظناً منه أنهم المتسببون في هذه الخسارة، وأوعز إلى سفينته بالمغادرة إلى الصين وتركه موقوفاً، وفي النهاية اتفق مع الحاكم على دفع ٢٠٠٠٠ روبية مقابل إطلاق سراحه. مثل تلك المعاملة جعلت الأمم الأخرى تعرض عن المغامرة والتجارة في سورات.

وتشير كل المظاهر إلى استيلاء الإنجليز استيلاء كاملاً على تجارة المدينة، والملوك والتجار الأثرياء فيها وإمساكهم بكل الوسائل لطرد الأمم الأجنبية وإبعاد الهنود عن مصادر الغنى هذه.

الفصل السادس

تقاليد الهندوس

يسمى بالهندوس السكان الأصليون في إمبراطورية إندوستان الواسعة، الذين أتاحت لهم الفرصة العيش مع هذا الشعب في بومباي وسورات على حد سواء. وها أنا أجمع هنا بعض ملحوظاتي التي دونتها في كلتا المدينتين عن الهندوس وعن الفرس وهي مستوطنة غريبة مقيمة أيضاً في قسم من الهند.

الهندوس من أقدم الشعوب المتحضرة على وجه الكرة الأرضية، شعب دمث الطباع جاد في عمله حملته الفطرة على الفضيلة.ولا يمل من يعاشر الهندوس من الإعجاب بصبرهم ونزاهتهم وإحسانهم، إلا أن هذا الشعب هو أقل الشعوب ألفةً وأنسًا من مبدأ الدين والتقاليد ينفصل شعب الهندوس عن باقي الأمم ويعتبرها جنساً مختلطاً لا صفاء فيه، كما أنه ينقسم إلى طبقات، حتى أن قبائل أمتهم نفسها تملك القليل من الاتصال فيما بينها. لا يتناول أي من الهندوس طعامه مع الأجنبي. كما لا يتناول أحد أفراد طبقة عليا الطعام مع أي من أبناء الطبقة الأدنى. ويعتقد خادم فقير من البراهما أنه مهان إن جلس إلى المائدة مع سيده الرازبوت أو البانيان.

ويعلم الجميع أن الهندوس ينقسمون إلى الكثير من القبائل أو الطبقات، وبقدر ما استطعت معرفته فإن هناك أربع طبقات رئيسة:

* البراهما أو الكهنة.

* الرازبوت أو العسكريون.

* البانيان أو الباعة.

*الحرفيون بما فيهم الفلاحون.

وتنقسم هذه الطبقات الأربع العامة بدورها إلى ما يربو عن ٨٠ طبقة خاصة، لكل منها احتفالاتها وسادتها الخاصين كما أكد لي عدة أشخاص.

أدت التقسيمات الثابتة ببعض الرحالة إلى الخطأ، إذ اعتقدوا أن على الابن اعتناق مذهب والده. ولا يستطيع الابن ترك الطبقة التي ولد فيها لكن يسمح له أن يختار دعوة ليست خاصة بالطبقة التي ينتمي إليها. هناك براهمة ملوك كملك المارات على سبيل المثال. ويصبح هؤلاء البراهما قضاة في حكومة أمراء الرازبوت أو مزارعين في حكومة المسلمين، وقد عرفت تجاراً من البراهما وحرفيين من الرازبوت وبانيان.

والحاجة ماسة لحرية مماثلة طالما أنه من المستحيل أن يرتقي هندوسي من طبقة وضيعة إلى طبقة رفيعة. حتى أنني لا أريد حتى ضمان مصداقية مثال وحيد قصّوه علي حول ذلك الأمر. تمنى ملك من الرازبوت الانتماء إلى طبقة البراهما، وقبل هؤلاء الكهنة طلبه بعد أن رفضوه مدة طويلة شرط أن يضعوا في أحد معابدهم تمثالاً ذهبياً ضخماً لبقرة يمكن لرجل الدخول من عجزها والخروج من فمها. وبعد مرور الملك مرات عديدة عبر تمثال الحيوان المقدس اعتبره البراهما وكأنه ولد من جديد وقبلوه فيما بينهم.

وتمنع تلك العادة أي غريب أن يصبح من البراهما وأن يعتنق ديانتهم، فهم أقل شعب تحدوه الرغبة في الدعوة إلى دينهم. لكن الاحتفاظ المتعنت بهذه القوانين القديمة في الفصل والتمييز أوصلت هذا الشعب إلى الحضيض الذي يتخبط فيه اليوم. ولو سمح الهندوس منذ أيام الفتوحات للتتار بالانخراط في صفوف الأمة المغلوبة لتبنى هؤلاء الغزاة تقاليد وديانة رعيتهم الجديدة، ويرجح هذا الاعتقاد ما حدث لهم في الصين في حين أن الهندوس و بسبب كرههم لأولئك السادة الجدد قد أجبروهم على اعتناق الدين الإسلامي وعلى استقدام مسلمين غرباء كي يحكموا البلد المفتوح. فباتوا منذ ذلك الحين جماعة من الرقيق السفلة والمعرضة لتحرشات حاكم مستبد وإهاناته يبدي لهم من الاحتقار والكره ما كان هو قد لقيه منهم.

يتضاءل في الحقيقة نفوذ المسلمين يوماً بعد يوم، ومازال هناك بعض الملوك الهندوس الذين يستطيعون مع مرور الوقت إعادة أمتهم إلى ألقها الغابر. وقد نجح المارات بتنفيذ مشروع مماثل، ويوقف نفوذ الإنجليز المتعالي اليوم تقدم الهندوس نحو حكم أفضل. ولكن إن تداعى هذا العملاق في ظاهره الذي بناه التجار الغزاة وهو أمر سيقع بأسرع مما نظن ستستعيد بلاد الهند والسند (اندوستان) ازدهارها من جديد.

يتميز الهندوس عن باقي الشعوب بكل أساليب حياتهم، ويتمثل قوتهم اليومي في الأرز والحليب والفاكهة. ويبدو أن القانون الذي يحظر عليهم تناول اللحوم متعلق بالمناخ أكثر من تعلقه بالمبادئ الدينية. أما الرازبوت فيتناولون لحم الضأن وبعض اللحوم الأخرى، ويحترم الجميع البقرة ويمتنعون عن تناول لحم الثيران. وليس هناك طبقة تفتقر للطعام كالبراهما، لأن هؤلاء الكهنة يرفضون تناول قسم كبير من الخضار التي يسمح بتناولها للهندوس، ولا يأكلون إلا ما أعده أحد أفراد طبقتهم ولا يجرؤن على شرب الماء إلا مما حمله فلان من أتباعهم. وهم يحافظون على صيام متكرر.حتى أن أحد البراهما قد صرح لي أن الالتزام بكل مبادئ نظامهم يكاد يكون مستحيلاً.

ويثقل هؤلاء الكهنة بدورهم كاهل الشعب في فرضهم طريقة إعداد الطعام والكثير من الأنظمة المحشوة بالوهم خوفاً أن يلحق به الدنس عن طريق الغذاء.

ولا يستخدم الهندوس العاديون الإناء نفسه مع غريب أو مع رجل آخر من طبقة أخرى، فهم يستخدمون أوراق أشجار كبيرة كأطباق للطعام ويشربون الماء من راحات أيديهم.

وتختلف ثياب الهندوس تماماً عن ثياب الأتراك والعرب، بيد أن التجار يلبسون عمامة وسروالاً وثوباً طويلاً من القماش الأبيض القطني، أما نعالهم فمزودة بأطراف معدنية معقوفة. عامة الناس عراة لا يلبسون إلا قطعة نسيج تغطي وسطهم وما يشبه العمامة على رؤوسهم. وفي الفصول الماطرة يضع الفلاحون على رؤوسهم واقياً طويلاً نسج من أوراق النخل وهي عادة هندية سبق ونوه إليها هيرودوتس.

أما ملابس النساء العاديات فهي ثوب طويل مخطط باللون الأحمر تلفه المرأة على وسطها تحت نسيج ثان أكبر من الأول تثنيه حول جسدها وتضعه على رأسها. تلبس كل النسوة صدارة فيها غمدان يوضع فيهما الثديان حتى أنك لا ترى بين الهنديات امرأة تهدل صدرها كما نجد عند المسلمات.

ونساء الهندوس نساء عاملات ومجدات للغاية. وقد وجدت في بومباي نسوة تعيش من أكثر الأعمال مشقة بالرغم من الخواتم التي تزين بها الأنف والأذنين والأصابع والذراعين والكاحلين، التي تمثل ثروة صغيرة يمكن أن تورثها لذريتها.

مازال الهندوس يحتفظون بعادة حرق موتاهم لكن الحكومات الأوروبية والعربية والمارات أيضاً منعت أن تلقي الأرملة بنفسها في النار التي تحرق رفات زوجها، وقد قال لي أحد البراهما إن نساء أسرته اشتهرن بالسماح لهن بالاحتراق مع أزواجهن وقد حصلت على ذلك الإذن جدته عرفاناً بعفتها وأخلاقها.

الفصل السابع

ديانة الهندوس

عندما يريد أي أوروبي الاطلاع على ديانة هذا الشعب فلن يكون بمقدوره الاعتماد كثيراً على مساعدة البراهما الذين لا يتكلمون أياً من لغاتنا. وقد أعطاني أشخاص من البانيان كنت قد تعرفت إليهم، بعض الإيضاحات بهذا الخصوص. وقد أكدوا وأجمعوا أن حكماء الهندوس ومثقفيهم لا يعترفون إلا بذات إلهية عليا واحدة لا يعبدون غيرها، لكنهم ابتدعوا آلهة ثانوية كملاذ لضعف الناس الذين لا يستطيعون فهم أفكار مجردة إن لم تجسدها الصور. كما أكدوا أيضاً أن البراهما المعنيين أضافوا شيئاً فشيئاً على ديانتهم البسيطة قصص وحكايات خرافية واعتقادات سخيفة. وألومهم في تعبدهم المتطرف للبقرة بكل أشكاله. أجابوني أنهم لا يكرمون في الصور إلا محبة الله الذي وهب الإنسان هذا الحيوان الوديع ذا الفوائد الكثيرة والضرورية. ولم أتمكن من معرفة أي شيء يخص آلهتهم الثانوية التي تبدو كنوع من القديسين والأولياء المكرمين. وقد قارن أحد البانيان آلهتهم الثلاثة الرئيسة: البراما وفيستنون وماديو بالثالوث المقدس عند المسيحيين. يؤمن كل الهندوس بالتناسخ والتقمص وتطهير الأرواح عبر مرورها في الكثير من الأجساد. وليست هذه العقيدة الوحيدة التي تسبب الامتناع عن تناول كل شيء حي. ففي البلاد الحارة يعتبرون أن لحوم الحيوانات بصورة عامة ولحم الثيران بصورة خاصة طعاماً مضراً جداً بالصحة. في حين يأكل الرازبوت اللحوم ولا يتردد المارات عن تقديم اللحوم لأسرى الحرب الأوروبيين. ويمكننا الاعتقاد أن الرأفة المتميزة عند الهندوس تجاه الحيوانات تعود إلى هذا الاعتبار الديني. ويحترمون مبدأ التطهير بواسطة الماء بعناية في كل أرجاء الهند، وقد رأيت في سورات جماعات من النساء والبنات ذاهبات للاستحمام في نهر التابي وقد أعطين ثياباً نظيفة لبعض البراهما من طبقة أدنى كانوا يجلسون على ضفة النهر وعدن بعد أن اغتسلن فبدلن ثيابهن المبلولة بكل تأن ومهارة إذ لا يمكن أن ترى ولو شيئاً بسيطاً من أجسادهن. ثم يدمغ أحد البراهما كل شخص بعلامة حمراء وسط الجبين بعد صلاة قصيرة وبعدها تنسحب الجموع إلى المدينة. ويبدو أن نوع هذا

التقديس اليومي هو الشاغل الرئيس لصغار الكهنة البراهما. ويُستدعون أيضاً عند ولادة طفل فيضعون له حبلاً صغيراً ليلبسه الطفل مدى الحياة كعلامة على انتسابه. كما يحضرون حفلات الخطوبة فقط لتعين الساعة الفضلى لتوقيع العقد وليس للقيام باحتفال مباركة الزواج. وكثيرة هي الأعياد عند الهندوس، قسم منها مدني والآخر ديني. وهم يحتفلون بالسنة الجديدة بالأضواء والأفراح من شتى الأنواع. ويبدو عيد جوز الهند من أقدم الأعياد، وفي عيد آخر لإحياء ذكرى أحد الأبطال يلونون بعضهم البعض باللون الأحمر للدلالة على حال ذلك البطل المضرج بالدماء في إحدى المعارك. لديهم أيضاً طريقتان مؤلفتان من النساك أو المتسولين الحجاج يسافرون مسلحين في جماعات مكونة من بضعة آلاف. هاتان الطريقتان هما عدوان لدودان ما إن يلتقيا حتى تقوم معارك دامية. وأثناء إقامتي في سورات خيم جيش نساك صغير بالقرب من المدينة فاستاءت منه الحكومة ولم تسمح إلا لعدد ضئيل منه بدخول المدينة. وتعرفنا التقارير على العقوبات السخيفة عند هؤلاء النساك الذين لم يبرد تعصبهم بل مازال متأججاً ومضطرماً إذ علمت مؤخراً بوفاة أحد متطرفيهم بعد أن حبس نفسه في قفص مدة عشرين عامًا وهو يرفع ذراعيه فوق رأسه باستمرار.

الفصل الثامن

الفُرس

توجد في بومباي وسورات وضواحيهما مستعمرات للفارسيين القدماء الذين التجؤوا إليها عندما غزا العرب المسلمون بلادهم منذ قرنين. ويسمونهم في الهند بارسي. كما أن الهندوس يحبونهم كثيراً وهم يتكاثرون بسرعة في حين يبدو للوهلة الأولى أن عدد الفرس في إقليم كيرمان يتضاءل تحت نير حكم الفرس المسلمين. ويعيش هؤلاء الفارسيون وهم شعب مهذب هادئ وجاد في اتحاد وتلاحم كبيرين، وهم يساندون الفقراء فيما بينهم ولا يطيقون أن يطلب فلان من دينهم صدقة من أبناء دين آخر. ويستخدمون أموالهم لحماية أبنائهم من جور وظلم الحكام. أما إذا سلك فارسيون سلوكاً سيئاً فهم يطردونهم من جماعتهم كما أنهم يمارسون التجارة ومختلف أنواع الحرف. ولا يعرف الفارسيون أيضاً التطهير شأنهم في ذلك شأن الهندوس. ولا يتزوجون إلا من امرأة واحدة فقط ولا يتزوجون أبداً من أخرى إلا إذا كانت الأولى عقيمة. ويزوجون أبناءهم ابتداء من السادسة من عمرهم، ويبقى الأزواج الصغار منفصلين ويقيمان كل في منزل والده حتى سن البلوغ. ملابسهم كملابس الهندوس إلا أنهم لا يحلقون شعرهم فوق الأذنين. وهم كالفارسيين العصريين مولعون بعلم الفلك بالرغم من معلوماتهم الشحيحة بعلم النجوم. ومازالوا يحتفظون بعادة غريبة فهم لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم بل يتركونهم للطيور الجارحة كي تنهش جثثهم. وقد رأيت في بومباي فوق هضبة صغيرة برجاً مستديراً مغطى بالصفائح يضع عليه الفارسيون موتاهم، وبعد أن تنهش الجوارح لحم الجثث يضعون العظام في غرفتين منفصلتين في أسفل البرج. الفارسيون هم أتباع ديانة زرادشت ويعبدون إلهاً واحداً سرمدياً قوياً. وهم يعبدون الشمس والقمر والنجوم والنار بطريقة ما وكأنها صور محسوسة للذات الإلهية غير المرئية. عبادتهم للنار تفرض عليهم استخدام أخشاب معطرة لإشعال نار مقدسة دوماً في معابدهم وبيوت كبار المجتمع عندهم.وقد رأيت في أحد هياكلهم في بومباي ناراً مازالت مشتعلة منذ أكثر من مائتي عام. وهم لا ينفخون على لهب مشتعل لإطفائه

خشية أن تدنس أنفاسهم نقاء النار وصفائها. تأمر ديانة الفارسيين بالطهارة وتشدد على النظافة كالهندوس، ولا يجبر أتباع زرادشت على الامتناع عن تناول المنتجات الحيوانية. لكنهم اعتادوا على عدم تناول لحم الثور لأن أجدادهم كانوا قد قطعوا على أنفسهم وعداً أمام ملك الهنود الذي استقبلهم في ولاياته بألا يقتلوا حيواناً ذي قرنين، ولم يحنثوا بوعدهم حتى اليوم في ظل سيطرة مسيحية كانت أو مسلمة.ويعتبرون الأرنب البري أكثر الحيوانات دنساً ورجساً ويكرهونه جداً وينفرون منه. ولهم مطلق الحرية في تناول الخمر والكحول فدينهم يبيح لهم ذلك.

أعيادهم المسماة والمتكررة التي تستمر كل منها خمسة أيام، ما هي إلا ذكرى لمراحل الخلق. وهم لا يحتفلون بهذه الأعياد احتفالات خاصة براقة، بل إنهم يرتدون ملابس أفضل من الأيام العادية على مدى خمسة أيام ويقومون ببعض الطقوس والتعبد في بيوتهم ويزورون أصدقاءهم. وبما أنه لم تتح لي الفرصة لتدوين ملحوظات لمتابعة عادات وتقاليد وديانة الفارسيين. لذا أظن أنني سأدل القارئ إلى ذكريات السيد انكتيل دي بيرون الذي ضم إلى ترجمته زندا فيستا أو الكتاب المقدس لزرادشت. فنحن نعلم أن هذا العالم الفرنسي قد ذهب إلى الهند بهدف دراسة لغة وديانة الفارسيين فقط. يزعج هذا الخليط من المعتقدات والعادات عند سكان الهند الأوروبيين الذين لم يجدوا من أبناء شعوبهم من يقوم على خدمتهم، وهذه هي حال كل التجار الأجانب. وسيصعب على الأوروبي إن قام على خدمته أبناء البلاد الأصليين أن يجد على مائدة طعامه أرنباً برياً أُعد مع شحم الخنزير فلن يرضى الهندوسي حمله فهو لا يجرؤ على حمل جثة. والفارسي كذلك فالأرنب البري حيوان دنس وقذر، وينضم المسلم إلى القائمة إذ يلحق به الدنس إن هو حمل طعاماً من مكوناته دهن الخنزير.

فهرس أسماء الأماكن والبلدان

إب. ١٢٣, ٢٥١, ٥٦٤
أبو شاهر ٤١٣
أبو شهر ٤١٤, ٤١٥, ٤٢٠, ٤٢١, ٥١٠
أبو عريش ١٧٠, ١٧٦, ٢٧٤, ٣٣٣, ٣٣٤, ٣٣٧, ٣٣٩, ٣٤٠, ٣٤٣, ٣٥٣, ٣٦٥, ٥٦٦, ٥٦٧, ٥٦٩
إجوب ١١
أربيل ٥١٩
أرج ٤٣٢
أرمينيا ٢١٥, ٤٧٦
إزمير ٣٦٩
إسبانيا ١٨٩, ٥٣٩
إسطنبول ٩٣, ٩٤, ٩٨, ١٦٠, ١٦٧, ٢٧٤, ٣٤٧, ٣٦٩
آسيا ٨٢, ٩٠, ١٥٨, ٣٢٨, ٣٣٧, ٣٦٢, ٤٧٢, ٤٨٤, ٤٩٥, ٥٠٩, ٥٥٦, ٥٦٧, ٥٧٨
آشور ٤٣٥, ٥١٩, ٥٢١, ٥٢٢
أصاب ٣٧٢, ٣٧٦
أغادش ١١, ١٤
أفريقيا ٧, ٧٠, ١٦٨, ١٧٥, ١٨٩, ٣٠١, ٣٠٢, ٣١٠, ٣٥٨, ٣٩٢, ٤٧٨, ٥٠٩, ٥٥٨, ٥٦٧, ٥٧٧
إفريقيا ٥٥٢
الإحساء ٣٠٣, ٣٢٤, ٣٩٧, ٣٩٩, ٤٠٠, ٤٠٣, ٤٠٤, ٤٢٠, ٤٣١, ٤٤٩, ٤٨٠
الإسكندرية ٣, ١٥, ١٧, ١٩, ٢٣, ٢٤, ٢٥, ٢٦, ٢٨, ٣٠, ٥٥, ٦٨, ٧٣, ٨٦, ٩٥, ١٠٤, ٥١٩, ٥٥٩, ٥٦٦
الأناضول ٤٥٩, ٤٨٥, ٤٩٦, ٥٢٨
الإيجان ٤٠٢, ٤٠٣
البتراء ٤٤٠, ٥٣٣, ٥٣٧, ٥٤١, ٥٤٣, ٥٤٤, ٥٦٩
البحر الأبيض المتوسط ٧
البحر الأحمر ٦٧, ١١٩, ١٢٥, ١٣٣, ١٤٠, ١٥٥, ١٦٣, ١٦٦, ٢٩٥, ٣٠٦, ٣١٥, ٣٢٤, ٥٣٧, ٥٣٨, ٥٤٠, ٥٤٧, ٥٤٩, ٥٥٠, ٥٥١, ٥٥٤, ٥٥٨, ٥٦٩, ٥٧٢

البحر العربي ٣٠٢, ٣٣٩, ٣٦٨
البحرين ٣٩٢, ٣٩٩, ٤١٤, ٤١٩, ٤٢٠, ٥١٠
البرابرة ٦٧
البصرة ٩٥, ٢٧٩, ٣٩٥, ٣٩٩, ٤٠٠, ٤٠٣, ٤٠٤, ٤١٢, ٤١٧, ٤٢١, ٤٢٢, ٤٢٧, ٤٣١, ٤٣٢, ٤٣٧, ٤٣٨, ٤٥٤, ٤٦١, ٤٦٧, ٤٦٨, ٤٧٦, ٤٨٠, ٤٨٢, ٤٩٠, ٤٩٦, ٤٩٧, ٥٠٨, ٥٠٩, ٥١٠, ٥١٣, ٥١٩, ٥٢٦, ٥٦٩, ٥٧٨, ٥٨٣
البندقية ١٧, ٢٥, ٢٨, ٦٩, ٧٣, ١٥٩, ٢٦٩, ٢٩٤, ٥١٥, ٥٧٣
الجبل الأخضر ٣٩٠
الجُبِّي ٣٧٦
الجبيل ١٥٤
الجزائر ٩, ١٤
الجزر الهندية ١٦٦, ٣٠٥, ٣٠٦, ٤٧٦, ٥٢٣, ٥٧٧
الجزيرة العربية ١٥, ٦٧, ٦٨, ٦٩, ٧٠, ٧٧, ٩٠, ١١٩, ١٢٣, ١٢٩, ١٦٧, ١٧٨, ١٨٠, ١٨١, ١٨٧, ١٨٩, ١٩٨, ٢٠٢, ٢٠٩, ٢١١, ٢١٣, ٢٢٦, ٢٣١, ٢٣٢, ٢٥٣, ٢٥٤, ٢٥٦, ٢٦٦, ٢٦٧, ٢٧٣, ٢٧٦, ٢٩٥, ٢٩٩, ٣٠٠, ٣٠١, ٣٠٢, ٣٠٤, ٣٠٥, ٣٠٦, ٣٠٧, ٣٠٨, ٣٠٩, ٣١٠, ٣١٧, ٣١٩, ٣٢١, ٣٢٨, ٣٣٣, ٣٩٠, ٣٩٥, ٤٠١, ٤٠٢, ٤٠٣, ٤٠٥, ٤٠٩, ٤١٢, ٤١٧, ٤٢٦, ٤٣١, ٤٣٨, ٤٣٩, ٤٤٠, ٤٤٥, ٤٤٩, ٤٥٠, ٤٥١, ٤٥٢, ٤٥٤, ٤٥٥, ٤٥٧, ٤٥٨, ٤٥٩, ٤٦٥, ٤٦٦, ٤٦٧, ٤٧٠, ٤٧٢, ٤٧٦, ٤٧٧, ٤٨٠, ٤٨١, ٤٨٢, ٤٨٤, ٤٨٥, ٤٨٦, ٤٩٥, ٤٩٧, ٤٩٩, ٥٠٠, ٥٠٢, ٥٠٤, ٥٠٧, ٥٠٨, ٥٠٩, ٥١٠, ٥١٥, ٥١٩, ٥٢٠, ٥٢٢, ٥٢٣, ٥٢٤, ٥٢٦, ٥٢٨, ٥٢٩, ٥٣١, ٥٣٣, ٥٣٤, ٥٣٦, ٥٣٧, ٥٣٨, ٥٣٩, ٥٤٠, ٥٤١, ٥٤٢, ٥٤٣, ٥٤٤, ٥٤٦, ٥٤٧, ٥٤٨, ٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٢, ٥٥٣, ٥٥٦, ٥٥٧, ٥٥٨, ٥٥٩, ٥٦٠, ٥٦٢, ٥٦٣, ٥٦٤, ٥٦٥, ٥٦٦, ٥٦٧, ٥٦٨, ٥٦٩, ٥٧١, ٥٧٢, ٥٧٣, ٥٧٧, ٥٧٩, ٥٨٣, ٥٨٤
الجوف ٣٤٥, ٣٤٦, ٣٨٣, ٥٠١, ٥٢٨, ٥٦١
الجيزة ٤١, ٤٤, ٤٥, ٤٦, ٤٧, ٧٨, ١٠٩
الحبشة ٤٦, ٤٨, ٤٩, ٦٧, ٧٠, ٧٥, ١٨٩, ١٩٩, ٣٠٢, ٤٨٩, ٤٩٠, ٥٤٧, ٥٥٨, ٥٦٦, ٥٧٣
الحجاز ١٧٠, ٣٠٢, ٣٠٣, ٣١٠, ٣١٣, ٣١٥, ٣١٦, ٣١٧, ٣١٨, ٣١٩, ٣٢٠, ٣٢١, ٣٢٨, ٣٣٣, ٣٣٤, ٣٤٠, ٣٤١, ٤٠١, ٤٣٢, ٤٤٠, ٤٤٦, ٤٥١, ٤٥٨, ٤٨٠, ٥٢٨, ٥٤١, ٥٦٥
الحجرية ٤٢, ١٠٢, ١١٢, ١٧٩, ١٨٦, ١٨٨, ٢٤٣, ٢٤٤, ٢٧٣, ٣٥٩, ٣٦٠, ٣٦١, ٣٧١, ٣٧٥

الحديدة ١٦٨, ١٦٩, ١٧٥, ١٧٦, ١٧٨, ١٨٩, ١٩٥, ١٩٦, ٢٠٥, ٢٧٩, ٢٩٤, ٣٧٠, ٣٧١, ٥٧٢
الحسا ٣٤٣
الخراج ٤٠٢
البحر الأحمر ١٢٥, ١٣١, ١٣٣, ١٣٥, ١٤٠, ١٤٢, ١٤٥, ١٥١, ١٥٤, ١٦٨, ١٦٩, ٢٢٧, ٣٠١, ٣٠٣, ٣٠٥, ٣٠٦, ٣١٥, ٣٣٣, ٣٣٩, ٣٤٠, ٣٨١, ٤٠٩, ٤١٢, ٥٤٧, ٥٥١, ٥٥٤, ٥٥٩, ٥٦١, ٥٦٦, ٥٧١, ٥٧٧, ٥٩٤
الخليج العربي ٣٠١, ٣٠٢, ٣٠٣, ٣٨٩, ٣٩٥, ٣٩٦, ٣٩٩, ٤٠٩, ٤١٠, ٤١٣, ٤١٧, ٤١٩, ٤٢٠, ٤٢١, ٤٣١, ٤٤٥, ٤٥٦, ٤٩٠, ٥٣٧, ٥٣٨, ٥٤٤, ٥٩٤
الدانمارك ٨, ٢٩٥, ٥٤٤
الدردنيل ١٣, ١٥, ٤٧٤
الرافدين ٤٣٤, ٥١٩, ٥٢١, ٥٢٢
الرسس ٣٤٩
الرشيد ٢٨, ٢٩, ٣٠, ٣٤, ٤٤, ٤٧, ٥٠٢
السامرة ٤٤٠, ٤٤١
السكاجن ٦
السند ٥٩١
السنغال ٣٠١
السواحل الهندية ٤١٢
السويس ٧٠, ١١٧, ١١٩, ١٢٠, ١٢٣, ١٢٤, ١٢٥, ١٢٦, ١٢٧, ١٢٨, ١٢٩, ١٣٠, ١٣١, ١٣٢, ١٣٥, ١٣٩, ١٤٠, ١٤١, ١٤٩, ١٥١, ١٥٢, ١٥٤, ١٥٨, ١٥٩, ١٦٥, ١٦٦, ١٦٩, ١٧٥, ٣٠١, ٣١٥, ٣٢٥, ٤٦٨, ٥٤٠, ٥٤٩, ٥٥٤, ٥٦١, ٥٦٦, ٥٦٩
الشارقة ٤١٣
الشام ٢١٥, ٤٣٨
الشحر ٣٤٩, ٣٨٤
الصحراء الكبرى ٣٨١, ٤٤٠
الصحراء الليبية ٥٥١
الصعيد المصري ٣٣, ٦٨, ٦٩, ٧٠, ٧٥, ١٠٨, ١١٢, ٤٦٧, ٥٦٦

الصين ٢٩٤, ٥٩٤, ٥٩٥, ٥٩٧
الطائف ١٦٦, ٣١٥, ٣٢٠
الطور ١٢٣, ١٢٨, ١٥٤, ١٥٥, ١٥٧
العارض ٤٠٢
العدين ٢٠٩, ٢١١, ٢١٣, ٢١٤, ٣٧١, ٣٧٥
الغصنة ٣٤
الفسطاط ٣٩, ٤٤, ٤٦, ٤٧
الفُسطاطْ ٣٩
الفلوجة ٤٠٠
القاهرة ٢٤, ٢٨, ٢٩, ٣٠, ٣١, ٣٢, ٣٣, ٣٥, ٣٩, ٤٠, ٤١, ٤٢, ٤٣, ٤٤, ٤٥, ٤٦, ٤٧, ٤٨, ٤٩, ٥٥, ٥٦, ٥٨, ٥٩, ٦٠, ٦١, ٦٤, ٦٦, ٦٧, ٦٨, ٧٠, ٧٣, ٧٤, ٧٨, ٨٤, ٨٦, ٨٨, ٩٤, ٩٥, ٩٨, ١٠١, ١٠٣, ١٠٤, ١٠٩, ١١٣, ١١٤, ١١٥, ١١٧, ١١٩, ١٢٠, ١٢٣, ١٢٤, ١٢٥, ١٢٦, ١٢٧, ١٢٨, ١٣٢, ١٣٥, ١٣٦, ١٣٧, ١٣٩, ١٤٢, ١٤٣, ١٥١, ١٥٢, ١٦٠, ١٦٣, ١٦٦, ١٦٧, ١٧٩, ٢٣١, ٢٤٢, ٢٦٤, ٣٠٠, ٣٢١, ٣٢٢, ٤٤٨, ٤٨٤, ٤٩٠, ٥٠٠, ٥٠٢, ٥٠٦, ٥٠٨, ٥١١, ٥٣٥, ٥٥١, ٥٦٦, ٥٧٨, ٥٨٥, ٥٩١
القحمة ٢٠١, ٢٠٢
القرين ٤٠٠
القسطنطينية ٨, ١٠, ١١, ١٢, ١٣, ١٤, ١٥, ٣٣, ٤٢, ٤٣, ٥٣, ٥٥, ٧٣, ٧٥, ٨٤, ٨٦, ٩٩, ١٣٦, ٣٠٦, ٣١٧, ٤٣٠, ٤٤٨, ٤٦٧, ٤٨٤, ٤٨٥, ٤٩٦, ٥٠٣, ٥٠٤, ٥٥٨
القطيف ٣٩٩
القُنْفُذَة ١٧٠
الكاتيغا ٥
الكويت ٤٠٠
اللحية ١٦٨, ١٦٩, ١٧١, ١٧٣, ١٧٥, ١٧٦, ١٧٨, ١٧٩, ١٨٠, ١٨١, ١٨٣, ١٨٥, ١٨٧, ١٨٨, ١٨٩, ١٩٠, ١٩٥, ٢٢٥, ٢٢٧, ٢٤١, ٢٦٤, ٢٦٧, ٢٩٤, ٣١٥, ٣٣٩, ٣٤٠, ٣٤٤, ٣٥٤, ٣٧٠, ٣٧١, ٣٩٥, ٤٥٥, ٤٧٦, ٤٧٧, ٤٨٢, ٥٠٧, ٥١٣, ٥٣٧, ٥٤٧, ٥٧١, ٥٧٢
ألمانيا ٦, ٨, ١٧, ١٧٩, ٣٣٤, ٣٧٧, ٥٥١
المجر ١٧

المحيط الهندي ٣٠١, ٣٠٣, ٣٣٥, ٣٨١, ٥٣٧, ٥٧٩
المخا ١٦٨, ١٧٥, ١٧٦, ١٧٨, ١٨٥, ١٨٩, ١٩٨, ٢٠٩, ٢١٦, ٢٢١, ٢٢٣, ٢٢٥, ٢٢٦, ٢٢٧, ٢٣٠, ٢٣١, ٢٣٢, ٢٣٥, ٢٣٧, ٢٣٨, ٢٣٩, ٢٤١, ٢٤٢, ٢٤٣, ٢٤٥, ٢٤٦, ٢٤٧, ٢٤٨, ٢٥٦, ٢٦٥, ٢٧٨, ٢٨١, ٢٨٦, ٢٨٧, ٢٨٨, ٢٨٩, ٢٩٠, ٢٩١, ٢٩٢, ٢٩٣, ٢٩٤, ٢٩٥, ٣٠٠, ٣٠٤, ٣٧٠, ٣٧١, ٤٤٧, ٤٤٩, ٤٥٥, ٤٧٦, ٤٨٠, ٥٠٨, ٥٢٨, ٥٣٥, ٥٣٧, ٥٧١, ٥٧٣, ٥٧٥, ٥٧٧, ٥٨٧
المخادر ٢٥١, ٣٧١
المدينة ١٦٦, ٣١٥, ٣١٧, ٣١٩, ٣٢٠, ٣٢٨
المدينة المنورة ١٢٧, ١٥٧, ٣٢٦
المطرية ٤٥
المغرب ٣٠١
الملابار ١٦٨, ٥٩٤
المنصورة ٣٣
المهد ١٩٧
المهرة ٣٨١
المواكب ٣٧٧
المواهب ٢٥٩
الموصل ٩٩, ٤٣٥, ٤٣٩, ٤٦٧, ٤٩٦, ٥١٩, ٥٢٢, ٥٢٤, ٥٤٨, ٥٥١
النرويج ٥
النوبة ٦٧
الهند ٦٧, ٦٩, ١٠٢, ١٧٥, ١٧٦, ١٨٥, ١٨٩, ٢٠٩, ٢٢٥, ٢٣٢, ٢٦٦, ٢٦٧, ٢٧٣, ٢٧٦, ٢٧٩, ٢٨٦, ٢٨٧, ٢٨٩, ٢٩١, ٢٩٣, ٢٩٤, ٢٩٥, ٣٠٥, ٣١١, ٣٢٤, ٣٤٩, ٣٧٠, ٣٨٢, ٣٨٣, ٣٨٤, ٣٩٠, ٤٢٧, ٤٤٨, ٤٥٠, ٤٨٢, ٥٠٥, ٥٠٨, ٥٠٩, ٥١٠, ٥٢٥, ٥٣٤, ٥٣٨, ٥٤٨, ٥٥٠, ٥٥٦, ٥٥٧, ٥٥٨, ٥٦٣, ٥٦٥, ٥٦٦, ٥٦٧, ٥٦٨, ٥٦٩, ٥٧٢, ٥٧٧, ٥٧٨, ٥٨٤, ٥٨٧, ٥٨٨, ٥٨٩, ٥٩٠, ٥٩١, ٥٩٤, ٥٩٦, ٥٩٨, ٦٠٠, ٦٠١, ٦٠٢, ٦٠٣
الهود ١٩٧
الهولشتاين ٥٥٢
اليمامة ٤٠٢

اليمن ٦٩, ١٠٢, ١٦٨, ١٦٩, ١٧٠, ١٧٥, ١٨٥, ١٨٩, ١٩٩, ٢٠١, ٢٠٧, ٢٠٩, ٢١٤, ٢١٥, ٢١٧, ٢٢٨, ٢٣١, ٢٣٢, ٢٣٨, ٢٤٢, ٢٤٨, ٢٥٨, ٢٥٩, ٢٦٣, ٢٦٧, ٢٧٠, ٢٧١, ٢٧٢, ٢٧٣, ٢٧٤, ٢٧٦, ٢٧٨, ٢٧٩, ٢٨٣, ٢٨٤, ٢٩٠, ٣٠٢, ٣٠٣, ٣٠٦, ٣١٥, ٣٢٤, ٣٣١, ٣٣٣, ٣٣٤, ٣٣٦, ٣٣٨, ٣٣٩, ٣٤١, ٣٤٣, ٣٤٦, ٣٤٧, ٣٤٨, ٣٤٩, ٣٥٣, ٣٥٤, ٣٦١, ٣٦٢, ٣٦٣, ٣٦٧, ٣٦٩, ٣٧٠, ٣٧٣, ٣٧٤, ٣٧٥, ٣٧٧, ٣٨١, ٣٨٢, ٣٨٣, ٣٨٤, ٣٨٥, ٤٠٢, ٤٣٨, ٤٤٥, ٤٤٦, ٤٤٧, ٤٤٨, ٤٥١, ٤٥٢, ٤٥٤, ٤٥٦, ٤٥٩, ٤٦٧, ٤٧٢, ٤٧٦, ٤٧٩, ٤٨٠, ٤٨١, ٤٨٤, ٤٨٧, ٤٩٥, ٤٩٦, ٤٩٧, ٥٠١, ٥٠٧, ٥٠٨, ٥١٥, ٥٢٠, ٥٢١, ٥٢٢, ٥٣٥, ٥٣٨, ٥٤٧, ٥٦١, ٥٦٤, ٥٦٥, ٥٦٨, ٥٦٩, ٥٧١, ٥٧٢, ٥٧٣

إمارة حافصة ٤١٧

أمريكا ٦٩, ٢٩٤, ٥٦٥, ٥٦٦, ٥٦٧

اندوستان ٥٩١, ٥٩٤, ٥٩٦, ٥٩٨

أنقرة ٤٩٧

إنجلترا ٨, ٣٢٠, ٤٦٨, ٥٢٨

اورسا ٤٣٦

أورشليم ١٥١, ٣٢٥, ٤٤٠, ٤٤١

أوروبا ٧, ١٢, ٢٥, ٤٠, ٦٠, ٦٧, ٧٠, ٧٦, ٨٠, ٨١, ٨٦, ٨٧, ٨٩, ٩١, ٩٢, ١٠٢, ١٠٩, ١١١, ١٢٠, ١٢١, ١٣١, ١٣٩, ١٤٢, ١٤٣, ١٧٧, ١٧٩, ١٨١, ١٨٩, ١٩٠, ١٩٩, ٢٠٢, ٢٠٤, ٢١٥, ٢١٧, ٢٢٦, ٢٣٢, ٢٦٧, ٢٨٤, ٢٩٤, ٢٩٥, ٣٠٠, ٣٠١, ٣٢٢, ٣٢٦, ٣٣٧, ٣٤٣, ٣٥٤, ٣٧٤, ٤١٧, ٤٤١, ٤٤٩, ٤٥٤, ٤٦٥, ٤٦٦, ٤٦٧, ٤٦٨, ٤٨٤, ٤٨٦, ٤٩٥, ٤٩٨, ٤٩٩, ٥٠٤, ٥٠٨, ٥١٣, ٥١٥, ٥٢١, ٥٢٣, ٥٢٨, ٥٢٩, ٥٣٥, ٥٤٤, ٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٥, ٥٥٦, ٥٥٧, ٥٦٢, ٥٦٦, ٥٧١, ٥٧٢, ٥٧٣, ٥٨٣, ٥٩١

ايرلندا ٦

ايسلندا ٢٠٢

إيطاليا ٦٨, ٦٩, ١٠٠, ٤٩٥, ٥٦٢, ٥٧٨

باتافيا ٢٢٥, ٥٨٧

باريس ١١, ٩٩

بتافيا ٤٢١, ٤٢٢

بحر قزوين ٤١٠

برسبوليس ١٤٣

بغداد ٩٤, ٩٥, ٣٢٥, ٣٩٩, ٤٠١, ٤٠٢, ٤٠٣, ٤١٧, ٤٢٦, ٤٣١, ٤٣٢, ٤٣٤, ٤٣٥, ٤٣٧, ٤٣٩, ٤٤٨, ٤٦١, ٤٩٠, ٥٠١, ٥١٠, ٥١٢, ٥١٩, ٥٢٢, ٥٢٤, ٥٧٩

بكيل ٣٤١, ٣٤٢, ٣٤٥, ٣٥٣, ٣٥٥, ٣٥٧, ٣٦٨, ٣٧٣

بلاد آشور ٤٣٤, ٤٣٥, ٥١٩

بلاد الأشراف ٣٤٦

بلاد البربر ٣٠١, ٥٥٢

بلاد التتار ٣٠٤

بلاد الجوف ٣٣٤, ٣٤٦, ٣٤٨, ٣٥٣

بلاد الفرس ٣٠٢

بلاد جلفار ٣٩٦

بلاد عقلان ٣٧١

بلاد فارس ٣٠٣, ٣٠٤, ٣٩٣, ٤٠٣, ٤٠٩, ٤١٠, ٤١١, ٤١٢, ٤١٤, ٤٣١, ٤٣٧, ٤٤٦, ٤٤٧, ٤٤٨, ٤٤٩, ٤٨٤, ٤٨٦, ٤٩٦, ٥٠٨, ٥٣٩, ٥٤٤, ٥٥١, ٥٥٢, ٥٦٩, ٥٧٩

بلاد هنديان ٤١٧

بلد البدوي ٣٤٦

بلد السلاطين ٣٤٦

بلغوص ٢٠٤

بنجامان تودل ٣٢٩

بندر رجك ٤١٤, ٤١٥, ٤١٩, ٤٢٠, ٤٢١, ٤٢٢

بندر عباس ٤١١, ٤١٢, ٤١٣

بني حسان ٣٧٥

بني عقلان ٣٧٥

بولاق ٣١, ٣٢, ٣٥, ٤١, ٤٤, ٤٦, ١١٤

بولونيا ٥٥١

بولوينا ٤٨٢

بومباي ٩١, ٢٢٥, ٢٢٨, ٥٠٥, ٥١١, ٥٢٨, ٥٧٧, ٥٨٠, ٥٨٣, ٥٨٥, ٥٨٨, ٥٨٩, ٥٩٢, ٥٩٣, ٥٩٦, ٥٩٩, ٦٠٢

بونديشري ٥٠٩, ٥٩٤
بيت التوبة ٣٣٨
بيت الفقيه ١٧٣, ١٧٨, ١٨٥, ١٨٧, ١٨٨, ١٨٩, ١٩٠, ١٩١, ١٩٣, ١٩٤, ١٩٥, ١٩٨, ٢٠٠, ٢٠١, ٢٠٢, ٢٠٥, ٢٠٩, ٢١٠, ٢١٢, ٢١٤, ٢١٩, ٢٢٠, ٢٢١, ٢٢٣, ٢٢٥, ٢٧٨, ٢٨٣, ٢٨٥, ٢٨٦, ٣٧٢, ٤٥٥, ٥١٥, ٥٢٤, ٥٣٤, ٥٥٣, ٥٦٨, ٥٧٣
بيت الكبسي ٣٤٥
بيت روج ٣٤٥
بيت لحم ٥٢٠
بيرالعزب ٢٦٣, ٢٦٧, ٢٧٢
بيرا ١٠, ١١, ١٤, ٩٩
بيرسابوليس ٣٠٤, ٤٩٧
ترانكبار ٢٩٥
تركيا ٨٠, ٨٢, ٨٦, ٩٣, ٩٦, ٩٧, ١٥٦, ١٥٨, ١٦٠, ١٧٩, ١٨٠, ٢٦٧, ٢٧٢, ٢٩٤, ٣٢١, ٣٦٢, ٣٦٣, ٤٤٧, ٤٥٩, ٤٦٩, ٤٨٢, ٤٨٤, ٤٨٦, ٥٨٣, ٥٩٠
تعز ٢٠٩, ٢١٦, ٢١٧, ٢٣٢, ٢٣٣, ٢٣٥, ٢٣٧, ٢٣٨, ٢٤٠, ٢٤١, ٢٤٢, ٢٤٣, ٢٤٤, ٢٤٥, ٢٤٧, ٢٥١, ٢٥٣, ٢٥٦, ٢٥٩, ٢٨٤, ٣٥٨, ٣٥٩, ٣٦٠, ٣٧١, ٣٧٥, ٥٦٤, ٥٧١
تهامة ١٩٣, ١٩٥, ١٩٧, ١٩٨, ١٩٩, ٢٠٣, ٢٠٤, ٢٠٩, ٢١٠, ٢١١, ٢١٢, ٢١٤, ٢١٦, ٢١٧, ٢١٩, ٢٢٣, ٢٣٢, ٢٣٧, ٢٦٥, ٢٦٦, ٢٧٨, ٢٨٥, ٢٨٨, ٣١٥, ٣٣٩, ٣٥٣, ٣٦٩, ٣٧١, ٣٧٥, ٣٨١, ٤١٢, ٤٤٧, ٤٨٠, ٤٩٦, ٥٢٠, ٥٢٤, ٥٣٧, ٥٣٨, ٥٤٠, ٥٤١, ٥٥٤
تورينو ٥٧٨
تونس ١٤
تينيدوس ١٠
ثعبات ٢٤١
ثلا. ٣٧٣
جابي ٣٨٩
جاد ٣٨٩
جاسك ٤١٢

جبال قمرة ٢٣٧, ٣٧٥
جبل الشرق ٣٧١, ٣٧٥
جبل الصفراء الكبير ٣١٥
جبل القاهرة ٢٤١
جبل المقطب ١١٩, ١٢٨, ١٢٩, ١٣٣, ١٤٠, ١٤٣, ١٤٤
جبل حبشي ٣٧٥
جبل حراز ٣٧٦
جبل رمة ١٩٧
جبل سلاّم ٢١١
جبل سمارة ٢٥١, ٢٥٢, ٢٥٣, ٢٥٤, ٣٧٥, ٥٥١, ٥٧١
جبل سورق ٢٤٤
جبل سيناء ٧٣, ١١٧, ١١٩, ١٢٦, ١٢٨, ١٢٩, ١٣٠, ١٣١, ١٣٣, ١٣٤, ١٣٥, ١٣٦, ١٣٩, ١٤٢, ١٤٣, ١٤٥, ١٤٦, ١٥١, ٢١١, ٤٤٠, ٥٣٣
جبل شمر ٤٠٢
جبل شهارة ٣٥٤, ٣٧٦
جبل صبر ٢٤٠, ٢٤١, ٢٤٤, ٢٤٥, ٣٧٥
جبل صَبر ٢٤٠, ٢٤١, ٢٤٤, ٢٤٥
جبل عرفة ٢٤٥
جبل عسير ٢٤٠
جبل غزوان ٣٢٠
جبل كدُمُّل ١٧١
جبل لبنان ٤٩٧, ٥١٦, ٥٦٩, ٥٧٣
جبل محرس ٢٥١
جبل ملحان ٣٧٢
جبلة ٢١٤, ٢١٥, ٢١٦, ٣٧١
جبي ٣٧٢
جدة ٥٥, ٧٠, ١١٩, ١٢٧, ١٣١, ١٤٩, ١٥١, ١٥٢, ١٥٤, ١٥٥, ١٥٨, ١٥٩, ١٦٠, ١٦١, ١٦٢, ١٦٣, ١٦٥,

١٦٦, ١٦٧, ١٦٨, ١٦٩, ١٧٠, ١٧٥, ١٧٧, ١٧٨, ١٩٥, ٢٢٥, ٢٧٩, ٢٨٨, ٢٩٣, ٢٩٤, ٣٠٧, ٣١٥, ٣١٧, ٣١٩, ٣٢٠, ٣٢١, ٣٢٥, ٣٤٠, ٣٩٥, ٤٧٧, ٥٠٧, ٥٥١, ٥٧٣

جزر الأرخبيل ١٥, ٩٤, ٥٥٩

جزر القمر ٣٠٢

جزر المارتينيك ٧٠

جزيرة الحساني ١٥٦

جزيرة الروضة ٤٦, ٤٧

جزيرة الشارقة ٣٩٦

جزيرة أوال ٣٩٩

جزيرة بيريم ٥٧٧

جزيرة خشم ٤١١

جزيرة خويري ٤١٥

جزيرة سقطرة ٣٨٥

جزيرة سيو ٦٩

جزيرة كارك ٤١٦, ٤٢١, ٤٢٢, ٥٠٩

جزيرة كمران ٥٧٢

جزيرة لام ٥١١

جزيرة مالطة ٨, ١٦, ٢٤

جزيرة مدغشقر ٣٠١, ٣٠٢

جمهورية الهكسوس ٣٠٤

جميانة ٣٧

جوبان ٤١٨

جورجيا ٥٦

جوف السرحان ٤٠٢

جيزان ١٧١, ٣٣٩

حاشد ٣٣٧, ٣٤١, ٣٤٢, ٣٤٣, ٣٤٥, ٣٤٦, ٣٥٣, ٣٥٥, ٣٥٧, ٣٦٧, ٣٦٨, ٣٧٣

حالي ٣٢٠

حجر ٣٩٩
حراز ٣٧١
حريب ٣٤٦
حسر ٤١٨
حسك ٣٨٣
حضرموت ٣٠٣, ٣٠٩, ٣٣٣, ٣٤٦, ٣٤٨, ٣٤٩, ٣٧٩, ٣٨١, ٣٨٢, ٣٨٣, ٣٨٤, ٣٨٥, ٣٨٦, ٤٦٠, ٥٣٨, ٥٦٥
حفاش ٣٧٢, ٣٧٥
حفيظة ٤١٩
حلب ٣٩٩, ٤٣٥, ٤٣٧, ٤٣٨, ٤٣٩, ٤٦١, ٤٦٧, ٤٨٥, ٥٠٣, ٥١١, ٥١٤, ٥٢٠, ٥٧٩
حمران ٣٧٢
حمص ٤٣٨
حمير ٣٤٨
حيس ٢٠١, ٢١٧, ٢١٩, ٢٢٤, ٣٧١
حيل ٤٣٢, ٤٣٥, ٥١٩
حيلي ٤١٣, ٤٢٠
خان ٢٨٣
خان لارستان ٤١١
خراسان ٥٤٧, ٥٤٨
خمر. ٣٧٣
خنفد ٣٢٠
خولان ٣٣٤, ٣٤٢, ٣٤٥, ٣٦٧
خونري ٤٢٢
خيبر ٤٤٩
داهرة ٣٨٩
دلهي ٥٩٢
دمشق ٩٣, ٢٧٢, ٣١٥, ٣٢٤, ٣٢٦, ٣٢٨, ٤٢٧, ٤٣٠, ٤٣٥, ٤٣٧, ٤٣٨, ٤٣٩, ٤٨٤, ٤٩٦, ٥٠١,

٥٢٠, ٥٧٨
دمشلى ٣٥
دمياط ٣٢, ٣٣, ٣٤, ٣٥, ٤٤, ٤٧, ٦٨, ٤٨٤
دوأن ٢٨٥
دوربات ٢٣٨
دورك ٤١٨
دولما بكداش ١١
دوموس ٥٨٤
دوموسوهي ٥٨٤
ديار بكر ٥١٤, ٥١٩, ٥٧٩
ديلم ٤١٢
ديو. ١٨٩, ٥٨٣
ذمار ٢٥٣, ٢٥٨, ٢٥٩, ٣٥٥, ٣٧١, ٤٩٩, ٥٢٢, ٥٧١
رابغ ١٥٧
راس ٤١٣
رأس القديس منصور ٧
رأس برديستان ٤١٣
رأس جاسك ٤١١
رأس محمد ١٥٥
رأس وردان ١٥٧
راغوس ١٤
رام الله ٤٤٠
رانك ٣٨٩
ربا. ٢١١
رغوان ٣٤٦
رنك ٣٩٤
رودس ١٥, ١٦

روستك ٣٩٠
روما ٤٩٥
ريمة ٣٧٢
زبيد ١٩٣, ١٩٤, ١٩٧, ١٩٨, ١٩٩, ٢٠٠, ٢١١, ٢١٢, ٢١٨, ٢١٩, ٢٢٣, ٢٢٤, ٢٨٦, ٣١٠, ٣٧١, ٤٥٩, ٤٩٩, ٥٢٢, ٥٢٤
زنجبار ٣٩٠, ٣٩٢, ٣٩٥
سادي ٣٢٠
سالونيكي ٣٦٩
سانت فانسنت ٧
سانت يوستاش ٧
سبأ. ٣٤٧
سردينيا ٥٧٨
سرياقوس ١٢٣, ١٢٤
سفكين ٣٧٢
سفيان ٣٤٣, ٣٦٧
سمرقند ٣٠٤
سمفور ٢٨٥
سميرنة ٥, ٨
سنحان ٣٣٤, ٣٤١
سورات ٣٢٠, ٥٠٥, ٥٠٩, ٥٧١, ٥٨١, ٥٨٣, ٥٨٤, ٥٨٥, ٥٨٦, ٥٨٧, ٥٨٨, ٥٨٩, ٥٩٠, ٥٩١, ٥٩٢, ٥٩٣, ٥٩٤, ٥٩٥, ٥٩٦, ٦٠٠, ٦٠١
سوريا ٣٤, ٦٣, ٦٧, ٦٨, ٨٥, ١٩٩, ٢١٥, ٣٠١, ٣٠٥, ٣٠٩, ٣١٩, ٣٢٤, ٣٢٦, ٣٢٩, ٣٨٢, ٣٩٩, ٤٠١, ٤٣٧, ٤٣٨, ٤٣٩, ٤٤٠, ٤٤٥, ٤٨٧, ٤٩٦, ٥٠٢, ٥٢٠, ٥٢١, ٥٢٢, ٥٢٥, ٥٢٦, ٥٣٧, ٥٤٨, ٥٥١, ٥٥٢, ٥٦٦, ٥٧٨
سورية ٩٠
سوسيتان ٤٣١
سولاد ٤٣٥

سوندرز ٨
سيجان ٢٥٩
سيحان ٥٢٣
سير ٣٩٤, ٣٩٦
سيستان ٤٣١
سيناء ٧٠, ١٣٧, ١٥٤, ٣٠٢
شبام ٣٨٣, ٣٨٥
شبه الجزيرة العربية ١٥٥, ١٥٦, ١٥٧, ١٦٦, ١٧٧, ٢١٥, ٣٠٢
شبه جزيرة العرب ٣٠١
شبه جزيرة الغانج ٥٣٨
شبه جزيرة القرم ٥٢٨
شط العرب ٤١٧
شوفتر ٤٣١
شيراز ٣٩٣, ٤١١, ٤١٤, ٤١٥, ٤٨٤
شيلو ٤١٣
صحار ٣٨٩, ٣٩٤
صحراء أماسيا ٣٣٧, ٣٤٢
صحراء سيناء ٣١٥
صعدة ٣٣٤, ٣٣٦, ٣٤١, ٣٤٢, ٣٤٣, ٣٥٤, ٥٧٢
صنعاء ١٢٠, ١٧٥, ١٧٧, ١٨٢, ٢٠٩, ٢١٦, ٢١٧, ٢٢٦, ٢٣٢, ٢٣٣, ٢٤٢, ٢٤٣, ٢٤٥, ٢٤٧, ٢٥٦, ٢٥٧, ٢٥٨, ٢٥٩, ٢٦٠, ٢٦١, ٢٦٣, ٢٦٤, ٢٦٥, ٢٦٧, ٢٦٨, ٢٦٩, ٢٧٠, ٢٧١, ٢٧٢, ٢٧٣, ٢٧٦, ٢٧٨, ٢٧٩, ٢٨١, ٢٨٣, ٢٨٤, ٢٨٥, ٢٨٨, ٢٩٠, ٢٩١, ٢٩٢, ٣٠٣, ٣٠٦, ٣٠٩, ٣١٥, ٣٣٣, ٣٣٦, ٣٣٧, ٣٣٩, ٣٤١, ٣٤٢, ٣٤٤, ٣٤٥, ٣٤٧, ٣٥١, ٣٥٣, ٣٥٤, ٣٥٥, ٣٥٧, ٣٥٨, ٣٦٠, ٣٦٢, ٣٦٣, ٣٦٤, ٣٦٥, ٣٦٧, ٣٧١, ٣٧٢, ٣٧٣, ٣٧٥, ٣٧٦, ٣٨٣, ٤٤٥, ٤٤٧, ٤٥٤, ٤٧١, ٤٧٦, ٤٧٩, ٤٨٠, ٤٨١, ٤٨٣, ٤٩٦, ٥٠١, ٥٠٨, ٥٢٤, ٥٣٨, ٥٧٣
صور ٣٨٩, ٣٩٦, ٤١٣
ضبعان ٣٤٥

ضوران ٣٧١
طاهري ٤١٣
طرابلس ٩, ٦١, ٨٨, ٩٧
طور ١١٩
ظبيان ٣٥٧
ظفار ٢٥٣, ٣٨٣, ٣٨٥
عتمة ٤٠٠
عدن ٢٥١, ٣٣٣, ٣٣٥, ٣٤٩, ٣٥٣, ٣٦٠, ٣٧١, ٥١٢, ٥٤٤
عدينة ٢٤١
عسير ٤١١
عكا ٤٤٠
علوي ٤١٣
عمان ٣٠٣, ٣٤٦, ٣٨١, ٣٨٥, ٣٨٧, ٣٨٩, ٣٩٠, ٣٩٢, ٣٩٣, ٣٩٤, ٣٩٥, ٣٩٦, ٣٩٩, ٤٠١, ٤٠٢, ٤١٣, ٤١٤, ٤١٥, ٤٢٠, ٤٤٦, ٤٤٧, ٤٤٨, ٤٤٩, ٤٥٦, ٤٦٠, ٤٨٤, ٤٩٠, ٥٢٤, ٥٣٨
عُمان ٥٧٢
عمران ٣٣٨, ٣٧٣
عيون موسى ١٣١
غابريا ٣٨٩
غالاتا ١٣, ١٤, ٩٩
غامبرون ٤١١, ٤١٢, ٤١٣, ٥٠٨
غبران ٣٩٢
غبرين ٣٩٢
غزة ٤٣٩
غفر ٣٨٩
غلاطيا ١١
غليفقة ١٨٨, ١٩٣, ١٩٤, ١٩٥, ١٩٨
غوا. ٥٧٨, ٥٨٣, ٥٩٥

فارس ٩٠, ٣٠٢, ٣٩٠, ٤٠٩, ٤١١, ٤١٢, ٤٢٠
فالاشيا ١٤
فرنسا ٨, ٩, ٢٨, ٣٤, ٦٨, ٦٩, ٧٣
فلسطين ٣٠١, ٤٤٠, ٤٩٦, ٥٢١
فيينا ١٧
قارة ٣٤٩
قحطان ٣٤٤
قحم ٢٠٣
قره. ١١
قرية المنزل ٢٥١
قرية سراجة ٢٥٩
قرين ٤٠٠
قسطنطينية ١٠
قسم ٣٨٣
قشطان ١٨٢
قعطبة ٣٥٩, ٣٧١
قلعة القاهرة ٢٤٠
قناة البحيرة ٣٣
قونيا ٤٨٥
قونية ٤٦١
كارك ٤٢١
كانوبوس ٢٨
كردستان ٤٩٧, ٤٩٨
كرمزير ٤١٢, ٤١٤, ٤١٥
كسمة ٣٧٢, ٣٧٦
كشن ٤١١
كلبات ٣٩٠

كلوة ٣٩٠, ٣٩٢
كوبنهاجن ٣, ٥
كوران ٤٥٤
كورن ٤٣٢
كوكبان ٣٣٣, ٣٣٦, ٣٣٧, ٣٤١, ٣٥٤, ٣٥٥, ٣٥٧
كوم كالا ١٥
كونك ٣٩٢, ٣٩٦, ٤١٣
كونكون ٤١٣
كياب ٤١٧, ٤١٩, ٤٣١
كيرمان ٦٠٢
كيسر ٤٩٦, ٤٩٧
كيشام ٣٩٢
كيلوة ٣٩٥
لاريستان ٤١١
لافاليتا ٨
لدوربات ٢٣٨
للقاهرة ٤١, ٤٣
لندن ١١, ٩٩, ٥٨٣
لُندن ١١
لونج ٣٩٦, ٤١٣
ليفورنو ٦٨
مارب ٣٣٤, ٣٤٦, ٣٤٧, ٣٤٨, ٣٨٣, ٤٣٨
ماردين ٤٣٥, ٤٧٥, ٤٩٦, ٥٢٠, ٥٢٦
ماريابا ٣٤٧
ماقنياط ٣٨٩
مالطة ٨, ٩, ١٠, ١٠٣
ماهيم ٥٨٣

مجبة ٣٤٩
مدين الأسفل ٣٤٩
مرابية ١٧٨
مراط ٥٠٩
مرباط ٣٨٣
مرسى ٥, ٦, ٧, ١٠, ١٥٨, ٥٨٤
مرسيليا ٥, ٧, ٨, ٦٨, ٦٩
مساقة ٣٤٩
مستورة ١٥٧
مسقط ١٦٨, ٢٧٩, ٣٠٩, ٣٧٣, ٣٨٢, ٣٨٣, ٣٨٤, ٣٨٩, ٣٩٠, ٣٩١, ٣٩٢, ٣٩٣, ٣٩٤, ٣٩٥, ٤٤٧, ٤٤٩, ٤٥٣, ٥٢٠, ٥٢٣, ٥٢٤, ٥٣٨, ٥٧٢, ٥٧٨
مسندم ٣٩٦
مشسى ٢١١
مصر ١١, ١٥, ١٧, ٢١, ٢٤, ٢٥, ٢٦, ٢٨, ٢٩, ٣٠, ٣١, ٣٢, ٣٦, ٣٧, ٣٨, ٣٩, ٤٠, ٤١, ٤٢, ٤٣, ٤٤, ٤٥, ٤٦, ٤٧, ٤٨, ٥١, ٥٣, ٥٤, ٥٥, ٥٦, ٥٧, ٥٨, ٥٩, ٦٢, ٦٤, ٦٥, ٦٧, ٦٨, ٦٩, ٧٠, ٧٣, ٧٥, ٧٧, ٧٨, ٧٩, ٨٠, ٨٥, ٨٩, ٩٠, ٩٦, ٩٨, ٩٩, ١٠١, ١٠٥, ١٠٧, ١٠٨, ١٠٩, ١١٠, ١١١, ١١٣, ١١٩, ١٢٠, ١٢٣, ١٣٣, ١٣٥, ١٤٣, ١٤٤, ١٤٥, ١٤٧, ١٦٣, ١٦٥, ١٦٦, ١٦٧, ١٧٦, ١٨٠, ١٨٩, ١٩٩, ٢٠١, ٢٨٦, ٣٠٢, ٣٠٤, ٣٠٥, ٣٠٦, ٣٠٩, ٣٢٤, ٣٢٦, ٣٧٠, ٣٨٢, ٤٠١, ٤٢٧, ٤٤٠, ٤٤٧, ٤٨٠, ٤٩٠, ٤٩٦, ٤٩٩, ٥٠٢, ٥٠٤, ٥٠٨, ٥١٩, ٥٢١, ٥٢٢, ٥٢٣, ٥٢٤, ٥٢٥, ٥٢٨, ٥٣٣, ٥٣٥, ٥٤١, ٥٤٤, ٥٤٧, ٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٢, ٥٥٩, ٥٦٥, ٥٦٦, ٥٦٧, ٥٧١, ٥٧٨
مفحق ٢٨٣
مكة ٩, ١٨, ٤١, ٤٤, ٤٥, ٦٨, ٦٩, ٨٩, ١١٩, ١٢٠, ١٢٣, ١٢٤, ١٥٧, ١٦٠, ١٦١, ١٦٢, ١٦٥, ١٦٦, ١٧٠, ١٧٨, ١٨٣, ٢٤٥, ٢٧٩, ٢٨٥, ٢٨٩, ٣٠٩, ٣١٥, ٣١٦, ٣١٧, ٣١٨, ٣١٩, ٣٢٠, ٣٢١, ٣٢٣, ٣٢٤, ٣٢٥, ٣٢٦, ٣٢٨, ٣٣٧, ٣٤١, ٣٤٢, ٣٤٥, ٣٩٢, ٤٠١, ٤٢٦, ٤٢٧, ٤٢٩, ٤٣٠, ٤٤٠, ٤٤٥, ٤٤٦, ٤٦٠, ٤٦١, ٤٧٠, ٤٩٥, ٤٩٧, ٥١٢, ٥٣٩, ٥٦٥, ٥٦٦
مكة المكرمة ١٢٧
مكشوح ٣٢٨

ملابار ٥٧٨
مملكة الدانمارك ٥
مملكة دنقلة ٩٥
مملكة سبأ ٣٤٧
مناخة ٣٧٢
منجلور ٥٧٨
منسك ٤٣٢
منيغر ١٨٦
موجو ٤١٣
موزع ٢٣٧, ٢٨٨
موشج ٢٢٣, ٢٢٤
موشد ٢٨٧
موشك ٣٧١
مولدافيا ١٤
ميدم ٣٧٣
ميكران ٤٤٦
ميناء العقبة ٤٤٠
مينو ٤١١
نابد ٤٢٠
نابند ٤١٣
نابولي ٩
ناتولي ٣٣٨
نجد ٣٠٢, ٣٠٣, ٣١٥, ٣٣٣, ٣٣٦, ٣٩٩, ٤٠١, ٤٠٢, ٤٣٨, ٤٤٠, ٤٤٦
نجران ٣٣٤, ٣٣٩, ٣٤١, ٣٤٣, ٣٤٤, ٣٤٦, ٤٠٤, ٤٤٦, ٥٢٨
نحيل ٣٩٤
نشلو ٤١٣
نهر الأردن ٤٤١

نهر التابي ٥٨٥
نهر الخابور ٤٣٥
نهر العاصي ٥٢٨
نهر الفرات ٣٠١, ٤٠٩, ٤١٧, ٤١٨, ٤٢٨, ٤٣٢, ٤٣٥
نهر الهندوس ٤٠٩, ٤١٢
نهر دجلة ٤٣١
نهر رمة ٢٠١
نهم. ٣٤٥, ٣٥٧
هامبورج ٥٩٥
هراس ٣٧٢
هرمز ٣٩٢, ٤١١, ٤١٩
هلسنجوير ٥, ٦
همدان ٣٦٧, ٣٧٣, ٣٧٦
هنديان ٤١٩
هولندا ٧٣
هيلوبوليس ٤٤
هيليوبوليس ٤٥
وادي الأسيط ١٣٣
وادي الأمطار ٤٣٢
وادي الهمير ١٣٣
وادي سراجة ٢١٧
وادي سهان ٢٨٥
وادي فاران ١٣٤, ١٣٥, ١٣٦, ١٣٩
وادي لاعة ٣٣٦
وادي ورفان ١٣٣
واي وود ٤٧٥
وبيت الفقيه ١٩٧, ٢٤١, ٣٧١

ومنجريليا ٥٦
وودى ٣٦٧
يافا. ٤٤١
يافع ٣٣٤, ٣٣٥, ٣٤٩, ٤٦٠
يريم ٢٥١, ٢٥٢, ٢٥٣, ٢٥٤, ٢٥٦, ٢٥٨, ٣٧١
ينبع ١٥٧, ١٦٠, ٣١٥, ٣٢٠, ٣٢٦

فهرس أسماء القبائل والشعوب

أبو البعير ٤٢٥
أبو صليب ٤٣٨
الأتراك ٩, ١٠, ١٣, ١٤, ١٥, ١٦, ١٧, ١٨, ٢٤, ٢٥, ٢٧, ٣١, ٤٠, ٤٥, ٤٦, ٥٣, ٦٩, ٧٥, ٨٠, ٨١, ٨٨, ٩٣, ١٢٤, ١٢٦, ١٢٨, ١٢٩, ١٥٥, ١٥٦, ١٥٨, ١٥٩, ١٦٣, ١٦٧, ١٦٩, ١٨٥, ١٩٨, ١٩٩, ٢٠٣, ٢٢٥, ٢٢٨, ٢٣٧, ٢٤١, ٢٤٥, ٢٦٧, ٢٧٨, ٢٧٩, ٢٩٠, ٢٩٣, ٣٠٠, ٣٠٦, ٣١٧, ٣١٩, ٣٢٠, ٣٢٥, ٣٣٦, ٣٤١, ٣٥٤, ٣٥٥, ٣٦٨, ٣٦٩, ٣٧٥, ٣٩٩, ٤١٧, ٤٢٩, ٤٣٠, ٤٣٤, ٤٣٥, ٤٣٧, ٤٣٩, ٤٤٥, ٤٤٧, ٤٤٨, ٤٤٩, ٤٥٢, ٤٦٢, ٤٧٢, ٤٧٤, ٤٧٥, ٤٨١, ٤٨٢, ٤٨٤, ٤٨٥, ٤٨٦, ٤٨٧, ٤٩٦, ٤٩٨, ٥١٠, ٥٢٧, ٥٤٤, ٥٥٢, ٥٧٩, ٥٨٥, ٥٨٧, ٥٨٨, ٥٩٨
الأرمن ٧٣, ٤٨٤, ٤٨٦, ٤٩٦, ٥٩٠
الإغريق ١٣, ٣٨, ٣٩, ٤٠, ٩٢, ٩٤
الأغواط ١٢٩, ١٣٣, ١٣٤, ١٤٦
الأقباط ٣٥, ٣٧, ٤٤, ٧٣, ٧٤, ٧٥, ٧٦, ٨٢, ١٤٣, ٥٥٤
الأكراد ١٤٧, ٤٣٥, ٤٣٨, ٤٧٠, ٤٨١, ٤٩٧
الإنكشاريون ٤١, ٥٧, ٥٩, ٦١, ١٦٧
البارسيس ٥٠٥
البارهمة ٤٥٠
البانيان ٤٤٨, ٤٤٩, ٤٥٠, ٤٨٢, ٥٣٤, ٥٨٩, ٥٩٠, ٥٩٦, ٥٩٧, ٦٠٠
البانيانون ٢٣٣, ٢٩٥
البحر العربي ٣٥٣
البرابرة ٩٥, ١٠٣, ٥١٢
البراهما ٥٩٦, ٥٩٧, ٥٩٨, ٥٩٩, ٦٠٠, ٦٠١
البربر ٦١, ٨٨
البطالسة ٧٥, ٣٠٥
البوهيميون ٢٨٤
التركمان ٨٢, ١٤٧, ٤٣٥, ٤٩٦
التلموديون ٧٣
الجورجيون ٥٩٠

الجوم ٤٤٠
الحديل ٤٤٠
الدروز ٤٣٨
الرابي ٣٩٢
الرازبوت ٤٥٠, ٥٩٦, ٥٩٧, ٥٩٨
الربابنة ١٦٧
الرومان ٣٦, ٣٠٥
الزنوج ٦١, ٤٧٨
السكيثيون ٥٢٩
الصابئة ٣٩٩, ٤٠٣, ٤٤٩, ٤٩٧
العرب ٢٤, ٢٦, ٢٧, ٢٨, ٣٧, ٣٩, ٦٣, ٧٠, ٧٣, ٧٤, ٧٧, ٧٨, ٨٢, ٩٢, ٩٣, ٩٤, ٩٥, ٩٧, ١٠٤, ١٠٩, ١١٢, ١١٣, ١١٩, ١٢٠, ١٢٣, ١٢٥, ١٢٦, ١٢٨, ١٢٩, ١٣١, ١٣٢, ١٣٤, ١٣٥, ١٣٦, ١٣٧, ١٣٨, ١٣٩, ١٤٠, ١٤٤, ١٤٥, ١٤٦, ١٤٧, ١٤٨, ١٥١, ١٥٦, ١٥٧, ١٥٨, ١٦١, ١٦٣, ١٦٤, ١٦٥, ١٦٨, ١٦٩, ١٧٠, ١٧١, ١٧٥, ١٧٦, ١٧٩, ١٨٠, ١٨١, ١٨٢, ١٨٣, ١٨٥, ١٨٦, ١٨٨, ١٨٩, ١٩٣, ١٩٧, ١٩٩, ٢١٤, ٢١٦, ٢١٩, ٢٢٠, ٢٢٧, ٢٣٠, ٢٣٢, ٢٣٧, ٢٣٨, ٢٤٠, ٢٤٢, ٢٤٤, ٢٤٥, ٢٥٢, ٢٥٣, ٢٥٧, ٢٥٩, ٢٦٥, ٢٦٦, ٢٦٧, ٢٦٩, ٢٧٠, ٢٧٢, ٢٧٣, ٢٧٨, ٢٧٩, ٢٨٣, ٢٨٤, ٢٨٦, ٢٨٨, ٢٩٠, ٢٩١, ٢٩٢, ٢٩٣, ٢٩٤, ٢٩٥, ٢٩٩, ٣٠٠, ٣٠١, ٣٠٢, ٣٠٣, ٣٠٤, ٣٠٥, ٣٠٨, ٣٠٩, ٣١٠, ٣١٥, ٣١٧, ٣١٨, ٣١٩, ٣٢٠, ٣٢١, ٣٢٨, ٣٣٧, ٣٣٩, ٣٤١, ٣٤٣, ٣٤٤, ٣٤٥, ٣٤٦, ٣٤٧, ٣٥٤, ٣٥٥, ٣٥٩, ٣٦٠, ٣٦٦, ٣٦٧, ٣٦٨, ٣٦٩, ٣٧٤, ٣٧٧, ٣٨١, ٣٨٣, ٣٨٤, ٣٨٥, ٣٩٠, ٣٩٣, ٣٩٥, ٣٩٩, ٤٠٣, ٤٠٩, ٤١٠, ٤١٢, ٤١٤, ٤١٥, ٤١٩, ٤٢٠, ٤٢٢, ٤٢٣, ٤٢٥, ٤٢٦, ٤٢٧, ٤٢٨, ٤٢٩, ٤٣٠, ٤٣١, ٤٣٢, ٤٣٤, ٤٣٥, ٤٣٧, ٤٣٨, ٤٣٩, ٤٤٠, ٤٤١, ٤٤٣, ٤٤٥, ٤٤٧, ٤٤٩, ٤٥٠, ٤٥١, ٤٥٢, ٤٥٣, ٤٥٥, ٤٥٦, ٤٥٧, ٤٥٨, ٤٦٠, ٤٦١, ٤٦٣, ٤٦٥, ٤٦٧, ٤٧٠, ٤٧١, ٤٧٢, ٤٧٣, ٤٧٤, ٤٧٥, ٤٧٦, ٤٧٩, ٤٨٠, ٤٨١, ٤٨٢, ٤٨٤, ٤٨٥, ٤٨٦, ٤٨٧, ٤٨٩, ٤٩٠, ٤٩١, ٤٩٣, ٤٩٥, ٤٩٦, ٤٩٧, ٤٩٨, ٤٩٩, ٥٠٠, ٥٠١, ٥٠٢, ٥٠٣, ٥٠٤, ٥٠٥, ٥٠٦, ٥٠٧, ٥٠٨, ٥٠٩, ٥١٠, ٥١٢, ٥١٣, ٥١٤, ٥١٥, ٥١٧, ٥١٩, ٥٢١, ٥٢٢, ٥٢٣, ٥٢٥, ٥٢٦, ٥٢٧, ٥٢٨, ٥٢٩, ٥٣٤, ٥٣٥, ٥٣٧, ٥٣٨, ٥٣٩, ٥٤٣, ٥٤٤, ٥٤٦, ٥٤٧, ٥٤٨, ٥٤٩, ٥٥٠, ٥٥٢, ٥٥٣, ٥٥٦, ٥٥٧, ٥٥٨, ٥٥٩, ٥٦٠, ٥٦١, ٥٦٢, ٥٦٣, ٥٦٤, ٥٦٥, ٥٦٦, ٥٦٧, ٥٦٩, ٥٧١, ٥٧٢, ٥٧٣, ٥٨٧, ٥٨٨, ٥٩٨, ٦٠٢
العرب البرابرة ٧٣

العزاعز ٣٧٥
الغجر ٤٣٨
الفرس ٦٧, ١٤٣, ١٨٩, ٣٠٠, ٣٠٤, ٣٢٤, ٣٢٥, ٣٤٣, ٣٩٢, ٣٩٣, ٣٩٤, ٣٩٦, ٤٠٠, ٤٠٩, ٤١٠, ٤١١, ٤١٢, ٤١٣, ٤١٤, ٤١٥, ٤١٧, ٤٢٠, ٤٢٢, ٤٣١, ٤٤٥, ٤٤٧, ٤٦٩, ٤٧٢, ٤٨١, ٤٨٢, ٤٨٥, ٤٨٩, ٤٩٨, ٥٠٦, ٥٢٧, ٥٩٠, ٥٩٦, ٦٠٢
القباطنة ١٦٧
الكبوشيين ٥٧٩, ٥٩٤
الماراتيين ٥٩٢
المماليك ٥٣, ٣٠٦
المنصورة ٣٧٥
الموارنة ٣٤
الموالي ٤٣٨, ٤٤٥
الهندوس ٣٠١, ٥٨٩, ٥٩٦, ٥٩٧, ٥٩٨, ٥٩٩, ٦٠٠, ٦٠١, ٦٠٢, ٦٠٣
الهنود ٤٨٩, ٥٨٣, ٥٨٤, ٥٨٨, ٥٩٢, ٥٩٣, ٦٠٣
اليهود ٢٥, ٣٧, ٥٩, ٧٣, ٨٦, ١٣١, ١٣٢, ١٣٦, ٢١٥, ٢٥٣, ٢٥٧, ٢٥٨, ٢٧٠, ٢٧٢, ٢٧٣, ٢٩٠, ٣٠٥, ٣١٠, ٣٢٨, ٣٢٩, ٣٤٥, ٣٦٩, ٤٠٣, ٤٣٠, ٤٤٩, ٤٧٦, ٤٨٢, ٤٨٦, ٤٩٠, ٥٠٨, ٥١٥, ٥٢٥, ٥٥٢, ٥٩٠
اليونان ٢٣, ٢٤, ٣٦, ٣٩, ٤٤, ٧٥, ٢١٥, ٣٠٠, ٣٠٥, ٤١٠, ٤٨٥, ٤٨٦, ٤٩٦, ٥٧٢
أمة علي ٤٤٥
بكيل ٣٣٣, ٣٣٦, ٣٣٧, ٣٣٨, ٣٣٩, ٣٤٠, ٣٦١, ٣٧٦
بلاد عنس ٣٦٥, ٣٧٥
بلوجة ٤١٢
بنو خزعل ٤٣٤
بني أشيب ٣٧٦
بني تميم ٤٣٥, ٤٤٠
بني حرام ٣٤٠
بني حكيم ٤٣٤

بني حمير ٤٣٨
بني حنيف ٣٢٨
بني خالد ٣٩٩, ٤٣١
بني خزعل ٤٣٤
بني خيبر ٣٢٨, ٣٢٩
بني دسفة ٤٣٥
بني سعيد ١٣٤, ١٣٩, ١٤٦, ١٤٨
بني شعبان ٣٢٨
بني صعب ٤١٥
بني صوالحة ١٤٦
بني طوباد ٤٣٥
بني ظبيان ٣٧٥
بني عتبة ٤٤٠
بني لام ٤٣١
بني مسعد ٣٢٨
بني منسك ٤٣٢
بني هلال ٣٤٠
بني يوسف ٣٧٥
بيت الرابي ٣٩٤
تتر ٧٣
تجاب ٤١٧
ترك ٢٦٧
تعز ٣٦٥
جاو ٣٩٦
حاشد ١٧٩, ٣٣٣, ٣٣٦, ٣٣٧, ٣٣٨, ٣٣٩, ٣٤٠, ٣٦١, ٣٧٦
حراز ٣٦٥
حمير ٣٠٥, ٣٣٨

خولان ٣٣٤
داربرقد ٣١٩, ٣٢٦
دارساجد ٣١٩
ربيعة ٤٣٨
سويد ٤٣٨
شبه الجزيرة العربية ٣٦٥
شمسان ٣٧٦
طيء ٤٣٥, ٤٣٨
عائلة البوريش ٤٣٧
عائلة العرابي ٣٩٢
عائلة المطاريش ٤١٤
عائلة جعفري ٣٩٢
عائلة حماني ٣٩٢
عائلة سالي ٤٣٥
عدن ٣٦٥
فارس ٤٩١
فرس ٧٣, ٢٦٧
فريسيون ٧٣
قبيلة الإحساء ٤٠٠
قبيلة الحول ٤١٤
قبيلة الموالي ٤٣٧, ٤٣٨
قبيلة باروك عنزب ٣٢٩
قبيلة بلوجة ٤١١, ٤١٢
قبيلة بن خالد ٣٩٩
قبيلة جويرهمي ٤٤٠, ٤٤١
قبيلة حرب ٣١٥, ٣٢٨, ٤٣٠, ٤٤٠, ٥٠١
قبيلة حنف ٤٢٧, ٤٣٠

قبيلة حنيف ٣٢٨, ٣٢٩
قبيلة حنيفي ٣٢٩
قبيلة حيلي ٤١٣, ٤٢٠
قبيلة عتمة ٤٠٠
قبيلة عنس ٤٣٨, ٤٣٩
قبيلة فلوجة ٤٩١
قبيلة منتقري ٤٥٤
قبيلة همدان ٣٧٦
قحطان ٣٣٤, ٣٣٩, ٣٤١
قريش ٣٩٢, ٤٦٠, ٤٦١
قعطبة ٣٦٥
كياب ٤١٧
للفرس ٣٦
مران ٣٧٦
مسيليم ٤٠٠
معد ٤٢٥, ٤٢٦
منسك ٤٣٢
مونتسيدسي ٤٣٢
نهم ٣٣٤
هنود ٢٦٧
هوتنتوس ٥٠٩

فهرس الأسماء

إبراهيم ٥٧, ٣٢٢
إبراهيم أفندي ٣٦٩
إبراهيم الخواجة ٥٧
إبراهيم الكخيا ٥٨, ٦٧
إبراهيم عناش ٧٦
ابن حسان ٢٠٠
ابن سينا ٥٠٧
ابن عقلان ٢١٧, ٢١٨, ٢٣٧, ٢٣٨
أبو الذهب ٥٨
أبو الفداء ١٩٣, ١٩٨, ٣٧١
أبو حمدان ٤٣٥
أبو شهر ٤١٤, ٤٢٠, ٤٢٢
أبي فاطمة ٤٦٢
أثناسيوس ٢٤
أحمد ١٨٨, ١٨٩, ٢٠١, ٢٤٢, ٢٤٣, ٢٦٣, ٢٦٤, ٢٦٥, ٢٦٧, ٢٧٧, ٣١٩, ٣٣٦, ٣٣٩, ٣٩٤, ٣٩٥, ٤٥٩
أحمد ابن موسى ٢٠١
أحمد الأحمر ٣٦٠, ٣٦١
أحمد بن ساجد ٣٩٤
أحمد بن موسى ١٨٨
أريان ١٧١, ٣٨٥, ٣٩٠, ٥٧٩
أسعد الكامل ٢٥٣, ٣٧٣
أسعد باشا ٥٠١
اسماعيل ٢٢٥
إسماعيل ٢٢٥, ٢٢٧, ٢٢٨, ٣٢٢
إسماعيل الملك ٢٤٠, ٢٤١
أصلاوي ٤٢٠

اغوراس ٤٢٠
اكسينوفون ٤٧٦
الإمام سيف ٣٩٢, ٣٩٣, ٣٩٥
الإمام مرشد ٣٩٣, ٣٩٤
الحاج أحمد ٢١٥
الحسين ٤٥٩, ٥٨٨
الحسين بن علي ٣١٩
الدو فنيوت ١٧
الرسول محمد ١٥٨, ١٧٠, ١٧٨, ٢٨٩, ٣٤٣, ٤٣٢
السلطان حسن ٤٢
السلطان محمود ١٣
السلطان مرشد ٣٩٢
السلطان مصطفى ١٣
السيد أحمد ٢٣٨
الشاذلي ٢٨٨, ٢٨٩
الشريف مسعد ٣٢٠
الشيخ الحيسي ٢٠١
الشيخ الشاذلي ٢٣٧, ٢٨٩, ٢٩٠
الشيخ صالح ١٧٨
الشيخ صديق ١٩٥
الشيخ عباس ٤١٢
الطيار ٢٨٨
العباس ٣٥٧
القاسم ٣٥٤, ٣٥٥, ٣٦١
القاسم بن محمد ٣٥٤
القاضي يحيى ٣٥٧, ٣٥٨
القديس يوحنا ٩, ١٦, ٣٩٩, ٤٠٣, ٤٤٩, ٤٩٧

القديسة كاترين ١٣٦, ١٣٧, ١٣٨, ١٤٦, ١٥٤
الليدي مونتاجو ٨٤
الماس ٣٦٠, ٣٦١
المتوكل ٣٥٥
المتوكل على الله ٣٥٤, ٣٥٥
المقوقس ٣٩
المنصور ٣٥٥, ٣٥٦, ٣٥٧, ٣٦٥
المهدي ٣٥٧, ٣٥٩
المهدي أحمد ٣٥٥
المهدي العباس ٣٥٧
المهدي الهادي ٣٥٥
المهدي محمد ٣٥٥, ٣٦٥
المولى علي شاه ٤١١
الناصر ٣٥٥
النبي محمد ٩, ٢٤, ٨٢, ٣٠٥, ٣١٥, ٣١٨, ٣١٩, ٣٢١, ٣٢٦, ٣٢٩, ٣٣٦, ٣٣٩, ٣٤٠, ٣٤٦, ٣٥٤, ٣٥٧, ٣٧٦, ٣٨٤, ٣٨٥, ٣٩٢, ٤٠٢, ٤٠٤, ٤٠٥, ٤١٩, ٤٣٢, ٤٤٥, ٤٤٦, ٤٤٧, ٤٥٨, ٤٥٩, ٤٦٠, ٤٦١, ٤٩١, ٤٩٥, ٤٩٧, ٥٠١, ٥٠٢, ٥١٢, ٥١٣
النبي يوسف ٤٤
النقيب خيرالله ٢٦٥
الهادي ٣٣٦, ٣٤١, ٣٥٤
انكتيل دي بيرون ٦٠٣
أولغ بيغ ٥٠٥
بابر. ٣٣٨
باحام ٣٤٦
بارشيما ٣٢٩
باشا ١٥, ٤١٧, ٤٣٩
بانياني ٢٢٥

باورينفايند ١٣١, ١٤٠, ١٨٤, ٢٠٣, ٢٠٤, ٢٨٧
بطليموس ١٧١
بلقيس ٣٤٧
بن سيف ٣٩٢
بن عراب ٣٩٤
بهلول ٥٠٢
بورنفان ١٨٢, ٢٠٤, ٢١٤
بورنفايند ٨٦, ٩٤, ٩٩, ١٠٤, ٤٨٣, ٥٧٧
بورينفاند ٣٢
بوسوك ١٤٢
بوشمان ٤٢٢
بوكوك ١٠٨, ١١٤, ١٣٧, ١٣٨, ١٦٤
بيبرس ٥٠٢
بيثيني ٣٣٨
بيرغرين ٥٧٧
تاج بيك خان ٥٩١
تقي خان ٣٩٤
تك بغ خان ٥٨٩
جبرائيل ٣٢٢, ٤٠٥
جعفر ٣١٩
حام العظيم ٣٣٨
حسان ٢١٦, ٢٥٢
حسن الكخيا ٥٧
حسن كخيا ٥٧
حسين المنصور ٢٤٢
حمود ٤٣٥
خيرالله ٢٧٧

دافيسون ١١٠
دو جيبلير ١٦٠
دو غيبلر ١٥
دو لسينيو ١٥
دو هوسارد ٥٧٧
دوناتي ١٤٣, ٥٧٧, ٥٧٨
دونهافن ١٢٨
دوهافن ٥, ٨, ١٦, ١٣٢, ٢٣٠
راجح الخولاني ٣٤٥
رستان سال ٥٠٢
روسل ٥١١
سبنسر ٥٩٢
سجاح ٤٤٠
سكوت ٢٨٧, ٥٧٧
سليمان ٤١٧
سليمان باشا ٣٠٦
سيد إبراهيم ٣٣٦
سيد صالح ٢٢٥
سيف الأسدي ٣٩٢
سيمون ٥٧٨, ٥٧٩
شريف أحمد ١٩٩
شعيب ١٥٢
شوفاليه دولين ٥٦٠
صلاح الدين ٣٩, ٤١
طاهري ٤٢٠
ظاهر ٥٨, ٤٤٠
عبد الرب ٢٤٣, ٢٨٨, ٣٣٥, ٣٥٩, ٣٦٠, ٣٦١, ٣٧١

عبد الرب الحُجري ٣٥٩
عبد الرحمن الصوفي ٥٠٥
عبد الرحمن الكخيا ٥٧
عبد الكريم ٢٤٢, ٢٤٣
عبد الكريم الفضلي ٣٣٥
عبد الله ٢٤٢, ٤٣٠, ٤٨٥
عبد الوهاب ٤٠٢, ٤٠٣, ٤٠٤, ٤٠٥, ٤٤٦
عثمان الكخيا ٥٧
علي. ٢٤٢, ٣٥٧, ٣٥٨, ٤٤٦
علي بن محمد البصري ٤٦١
علي بيك ٥٨, ٤٢٩, ٤٣٠
عنبر سيف ١٨٧
عنترة ٥٠٢
غرانجيه ٥١٩, ٥٢٠
غونيس ٥٠٥
غيبلير ١٠
فاطمة ٣١٥
فان دروهولفت ٤٢٢
فان هوتينغ ٤٢٢
فرانسوا ٢٢٨
فرحان ١٧٥, ١٧٩, ١٨١, ١٨٥, ١٩٠, ٢٦٧
فرعون ٧٥, ١٣٢, ٣٠٤
فورسكال ٦, ٩, ١٨, ٢٨, ٣٧, ٧٦, ٧٨, ١٣١, ١٥٤, ١٥٦, ١٦٠, ١٦١, ١٧٧, ١٩٠, ٢٠٣, ٢٠٩, ٢١٠, ٢١٧, ٢٢٣, ٢٢٧, ٢٢٨, ٢٣٠, ٢٣٢, ٢٤٤, ٢٤٥, ٢٤٦, ٢٤٧, ٢٤٨, ٢٥١, ٢٥٢, ٢٥٦, ٢٥٧, ٣٧٥, ٤٢٧, ٥١١, ٥١٥, ٥١٩, ٥٣٣, ٥٣٥, ٥٣٦, ٥٤١, ٥٤٤, ٥٤٧, ٥٤٨, ٥٤٩, ٥٥١, ٥٥٢, ٥٥٤, ٥٥٦, ٥٥٨, ٥٥٩, ٥٦٠, ٥٦٣, ٥٦٤, ٥٦٥, ٥٦٨, ٥٧٠
فورمون ١٠٩

فونهافن ١٣١, ١٦٢, ١٨٢, ١٩٥, ٢١٩, ٢٢٠, ٢٢٣, ٢٣١, ٢٣٢, ٥١٦
فيشر ٥
قاسم ٣٤١, ٣٦١
قحطان ٣٨٤
كابيجي باشا ٥٥
كرامر ١٦, ١٣١, ١٦٩, ١٨١, ١٨٣, ٢٠٣, ٢٣٠, ٢٣٢, ٢٥٨, ٢٧٦, ٢٧٧, ٢٨٧, ٥٠٩, ٥٧٧, ٥٨٣
كريم ٤١٧
كريم خان ٩٠, ٤١١, ٤١٤, ٤١٥, ٤١٧, ٥٠٦
كلايتون ١٤٢
كليوباترة ٢٣
كنيفوسن ٤٢١, ٤٢٢
كيسلار آغا ٣٣
كينيغ ٢٠٢
لوباج ٥٠٩
لويس ٣٣
لي ميلورد شارلمون ١٠٩
لينه. ٥٦٣
ليني ٥٣٦
ماييه ١٦٦
مجيد بالله ٣٥٥
محسن ١٧٦, ١٧٧, ١٨٧, ٢٤٢, ٢٤٣
محسن الحاج ٣٧٦
محسن مكاويش ١٧٥
محمد ٤٠٤
محمد الجنجي ٥١٢
محمد بن عبد الوهاب ٤٠٤
محمد جعفري ٣٩٢

محمد شريف ٣٣٩
محمد شوربتجي ٢٤
مُرقص ٢٥
مسعد ٣١٩
مسيلمة ٤٠٢
مصطفى باشا ٥٥
ممفيس ١٠٩
مهنا ٤٢٢
موسى ١٣٢, ١٣٥, ١٣٦, ١٣٧, ٤٠٥
مومونيس ١٤٢
مونتاغو ١١٠, ١٤٢
ميرمهنا ٤١٥
ميرزا تقي خان ٣٩٣
ميبه ١١٤
ناصر ٣٩٢, ٤١٤, ٤٢١
ناصر خان ٤١١
نجمة ٣٣٨
نذير شاه ٣٩٢, ٤١٠, ٤١١, ٤١٤, ٤٢٠, ٥٩١
نوردن ٢٤, ٤٦, ١٠٨, ١١٥
هاملتون ٣٥٥
هليوبوليس ١٠٩
هيرودوتس ٥٩٨
يحيى ٢٤٢, ٢٤٣
يسوع المسيح ٣٣, ٤٠٥
يوسف ٤١